الجامع لأحكام القرآن

والمبيّن لما تضمّنه من السّنّة وآي الفرقان

تأليف

أبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي

(ت ٦٧١ هـ)

تحقيق

الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي

شارك في تحقيق هذا الجزء

كامل محمد الخراط　　ماهر حبوش

الجزء الثاني والعشرون

مؤسسة الرسالة

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الطبعة الأولى
١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦م

مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع وطى المصيطبة - شارع حبيب أبي شهلا - بناية المسكن، بيروت-لبنان
تلفاكس: ٣١٩٠٣٩-٨١٥١١٢ فاكس: ٨١٨٦١٥ ص.ب: ١١٧٤٦٠

Al-Resalah PUBLISHERS
BEIRUT/LEBANON-Telefax:815112-319039 Fax:818615-P.O.Box:117460
Email:Resalah@Cyberia.net.lb

سورة «عَمَّ» مكية وتسمى سورة «النبأ» وهي

أربعون أو إحدى وأربعون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ۝٣ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٥﴾

قوله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾؟ «عَمَّ» لَفْظُ استفهامٍ؛ ولذلك سَقَطَت منها ألفُ «ما» ليتميَّز الخبرُ عن الاستفهام. وكذلك: «فيمَ، وممَّ» إذا استَفْهَمْتَ. والمعنى: عن أيِّ شيءٍ يَسألُ بعضُهم بعضاً. وقال الزجَّاج[1]: أصلُ «عَمَّ»: عن ما، فأُدغِمت النونُ في الميم؛ لأنَّها تُشارِكُها في الغُنَّة.

والضميرُ في «يتساءلون» لقريش. ورَوى أبو صالح عن ابن عباس قال: كانت قريشٌ تجلسُ لمَّا نزل القرآنُ فتتحدَّثُ فيما بينها، فمنهم المُصَدِّقُ ومنهم المكذِّبُ به، فنزلت «عَمَّ يَتَساءلونَ».

وقيل: «عمَّ» بمعنى: فيم يتشدَّدُ المشركون ويختَصِمون.

قوله تعالى: ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي: يتساءلون عن النبأ العظيم، فـ«عن» ليس تَتعلَّقُ بـ«يتساءلون» الذي في التلاوة؛ لأنَّه كان يَلزمُ دخولُ حرفِ الاستفهام فيكون «عن النبإ العظيم» كقولك: كم مالُك، أثلاثون أم أربعون؟ فوجب لِمَا ذكرناه من امتناعِ تَعَلُّقِه بـ«يتساءلون» الذي في التلاوة، وإنَّما يتعلَّقُ بيتساءلون آخَرَ مُضمَرٍ. وحَسُنَ ذلك لتقدُّمِ «يتساءلون»؛ قاله المَهْدويّ.

وذكر بعضُ أهلِ العلمِ أنَّ الاستفهامَ في قوله: «عن» مكرَّرٌ، إلَّا أنه مضمَرٌ، كأنه

---

(١) في معاني القرآن ٥/ ٢٧١.

قال: عمَّ يتساءلون، أعن النبأ العظيم؟ فعلى هذا يكون متَّصلاً بالآية الأولى[١].

و«النبأ العظيم» أي: الخبر الكبير.

﴿ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ أي: يخالفُ فيه بعضُهم بعضاً، فيصدِّق واحدٌ ويكذِّبُ آخرُ، فروى أبو صالح عن ابن عباس قال: هو القرآن[٢]، دليلُه قولُه: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا عَظِيمٌ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ [ص: ٦٧-٦٨] فالقرآنُ نبأٌ وخبرٌ وقَصَصٌ، وهو نبأٌ عظيمُ الشأن.

ورَوى سعيد عن قتادةَ قال: هو البعثُ بعد الموتِ، صار الناسُ فيه رجلين: مصدِّق ومكذِّب[٣].

وقيل: أمْر النبيِّ ﷺ. وروى الضحَّاك عن ابن عباس قال: وذلك أنَّ اليهود سألوا النبيَّ ﷺ عن أشياء كثيرة؛ فأخبره الله جلَّ ثناؤه باختلافهم، ثم هدَّدهم فقال: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ أي: سيَعْلَمون عاقبةَ القرآن، أو سيعلمون البعثَ: أحقٌّ هو أم باطلٌ.

و«كلَّا» ردٌّ عليهم في إنكارهم البعثَ أو تكذيبهم القرآنَ، فيوقَفُ عليها. ويَجوزُ أن يكون بمعنى: حقًّا، أو: ألَا، فيُبدأ بها.

والأَظْهَرُ أنَّ سؤالَهم إنَّما كان عن البعث؛ قال بعضُ علمائنا[٤]: والذي يدلُّ عليه قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا﴾ يدلُّ على أنَّهم كانوا يتساءلون عن البعث.

﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ أي: حقًّا لَيَعْلَمُون[٥] صِدْقَ ما جاء به محمدٌ ﷺ من القرآن، وممَّا ذَكَرَه لهم من البعث بعد الموت. وقال الضحَّاك: «كلَّا سيعلمون» يعني الكافرين عاقبةَ تكذيبِهم، «ثم كلَّا سيعلمون» يعني المؤمنين عاقبةَ تَصديقِهم[٦]. وقيل: بالعكس

---

(١) تفسير الرازي ٣١/ ٤ .

(٢) أخرجه ابن مردويه كما في الدر المنثور ٦/ ٣٠٥ .

(٣) أخرجه الطبري ٢٤/ ٦-٧ .

(٤) هو الزجاج في معاني القرآن ٥/ ٢٧١ .

(٥) كذا في النسخ، ولعل الصواب: ليعلمنَّ.

(٦) أخرجه الطبري ٢٤/ ٨ .

أيضاً. وقال الحسن: هو وعيدٌ بعد وعيدٍ[1]. وَقراءةُ العامَّةِ فيهما بالياء على الخبر؛ لقوله تعالى: «يتساءلون»، وقولِه: «هم فيه مختلِفون». وقرأ الحسن وأبو العاليةِ ومالك بنُ دينار بالتاء فيهما[2].

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ۝٦ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ۝٨ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝٩ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ۝١١ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ۝١٢ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ۝١٣ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ۝١٤ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ۝١٥ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ۝١٦﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا﴾: دلَّهم على قُدْرَته على البعث، أي: قُدْرتُنا على إيجادِ هذه الأمور أعْظَمُ من قدرتنا على الإعادة. والمِهادُ: الوطاءُ والفِراش. وقد قال تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا﴾ [البقرة: ٢٢]. وقُرِئَ: «مَهْداً»[3]، ومعناه: أنَّها لهم كالمهدِ للصَّبيِّ، وهو ما يُمهَدُ له فينوَّمُ عليه.

﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ أي: لتَسْكُنَ ولا تتكفَّأَ ولا تَميلَ بأهلها. ﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾ أي: أصنافاً: ذَكراً وأنثى. وقيل: ألواناً. وقيل: يدخلُ في هذا كلُّ زوجٍ؛ من قبيحٍ وحَسَنٍ، وطويلٍ وقصيرٍ؛ لتختلفَ الأحوالُ فيقع الاعتبار، فيشكر الفاضلُ ويصبر المفضول.

﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ﴾ «جعلنا» معناه: صَيَّرنا؛ ولذلك تعدَّتْ إلى مفعولَين. ﴿سُبَاتًا﴾ المفعولُ الثاني، أي: راحةً لأبدانكم، ومنه يومُ السَّبْتِ، أي: يومُ الراحة، أي: قيل لبني إسرائيلَ: استريحوا في هذا اليوم، فلا تَعمَلوا فيه شيئاً. وأنكر ابنُ الأنباريِّ هذا وقال: لا يُقالُ للراحةِ سُبَات[4]. وقيل: أصلُه التمدُّد؛ يقال: سَبَتَتِ المرأةُ شعرها: إذا حلَّته وأرسلته، فالسُّبَاتُ كالمدِّ، ورجلٌ مسبوتُ الخَلْق، أي: ممدود. وإذا أراد

(١) أخرجه ابن المنذر كما في الدر المنثور ٦/ ٣٠٥، وذكره الماوردي في النكت والعيون ٦/ ١٨٣.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٢٧١، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٢٤.

(٣) القراءات الشاذة ص١٦٧ عن مجاهد وعيسى الهمداني.

(٤) بنحوه في تهذيب اللغة ١٢/ ٣٨٦.

الرجلُ أن يستريح تَمدَّدَ، فسمِّيت الراحةُ سَبْتاً. وقيل: أصلُه القَطْعُ؛ يقال: سَبَتَ شعرَه سَبتاً: حَلَقه، وكأنه إذا نام انقطع عن الناس وعن الاشتغال، فالسُّبات يشبه الموتَ، إلَّا أنه لم تُفارِقْه الروح. ويقال: سَيْرٌ سَبتٌ: أي سهلٌ لين؛ قال الشاعر:

وَمطوِيَّةُ الأقرابِ أمَّا نهارُها فَسَبْتٌ وأمَّا ليلُها فذَمِيلُ(١)

﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾ أي: تَلبَسُكم ظُلمتُه وتَغْشاكم؛ قاله الطبريُّ(٢). وقال ابن جُبير والسُّدِّيُّ: أي: سَكناً لكم(٣).

﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾ فيه إضمارٌ، أي: وقتَ مَعَاشٍ، أي: مُتَصَرَّفاً لِطَلَبِ المعاشِ، وهو كلُّ ما يُعاشُ به من المَطعَمِ والمَشْرَبِ وغيرِ ذلك، فـ«معاشاً» على هذا اسمُ زمان، ليكون الثاني هو الأول. ويجوزُ أن يكون مصدراً بمعنى العيش، على تقدير حَذْفِ المُضاف.

﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ أي: سبعَ سماواتٍ مُحكَماتٍ، أي: مُحْكَمة الخَلْقِ وثيقة البنيان.

﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ أي: وَقَّاداً، وهي الشمس. وجَعَلَ هنا بمعنى خَلَق؛ لأنها تَعدَّتْ لمفعولٍ واحد، والوهَّاج الذي له وَهَج؛ يقال: وَهَجَ يَهِجُ وَهْجاً ووَهَجاً ووَهَجاناً. ويقال للجوهر إذا تَلألأ: تَوَهَّج. وقال ابنُ عباس: وهَّاجاً: منيراً مُتلألئاً(٤).

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا﴾ قال مجاهدٌ وقتادةُ: والمعصِراتُ: الرياح. وقاله

(١) البيت لحميد بن ثور، وهو في ديوانه ص١١٦، وإصلاح المنطق ص١١، وجمهرة اللغة ١/ ١٩٥. قال ابن دريد: السبت ضرب من سير الإبل، والذميل: ضرب من السير أيضاً. وقال السيرافي في شرح أبيات إصلاح المنطق ص٦٨: يريد أنها تسير سبتاً في نهارها وذميلاً في ليلها، والذَّميل أشد من السبت. ومطوية رفع عُطف على مرفوع متقدم. والأقراب: الخواصر.

(٢) في التفسير ٢٤/ ٩.

(٣) النكت والعيون ٦/ ١٨٣.

(٤) أخرجه الطبري ٢٤/ ١١.

ابن عباس[1]. كأنَّها تَعْصِرُ السَّحاب.

وعن ابن عباس أيضاً: أنَّها السحابُ. وقال سفيان والربيع وأبو العاليةِ والضحَّاكُ: أي: السحائبُ التي تَنْعصِرُ بالماء ولمَّا تُمْطِرْ بَعدُ، كالمرأةِ المُعصِرِ التي قد دنا حَيْضُها ولم تَحِض[2]، قال أبو النجم[3]:

فكان مِجَنِّي دون مَن كنتُ أتَّقي ثَلاثُ شُخُوصٍ كاعِبَان ومُعصِرُ[4]

وقال آخر:

وذِي أُشُرٍ كالأُقحُوانِ يَزِينُهُ ذِهابُ الصَّبَا والمُعصِراتُ الرَّوائِحُ[5]

فالرياح تسمَّى مُعصِرات؛ يقال: أعصَرَت الريح تُعصِرُ إعصاراً؛ إذا أثارت العجاجَ، وهي الإعصار، والسُّحبُ أيضاً تسمَّى المُعصِرات لأنَّها تُمْطِر.

وقال قتادةُ أيضاً: المُعصِراتُ: السماء[6].

النَّحاس: هذه الأقوالُ صحاحٌ؛ يقال للرياح التي تأتي بالمطر: مُعْصِرات، والرياحُ تُلقِحُ السَّحابَ، فيكون المطر، والمطر ينزل من الريح على هذا. ويجوزُ أن تكون الأقوال واحدةً، ويكون المعنى: وأنزلنا من ذواتِ الرياحِ المُعْصِرات ماءً ثَجَّاجاً. وأصحُّ الأقوالِ أنَّ المعصراتِ: السحاب. كذا المعروفُ أنَّ الغيث منها. ولو

(١) أخرج قولهم أحمد كما في مسائل ابنه صالح ٢/٥٨-٦٠، والطبري ٢٤/١٢.

(٢) تفسير البغوي ٤/٤٣٧، وأخرجه عن ابن عباس وسفيان والربيع الطبري ٢٤/١٣.

(٣) كذا في النسخ، والصواب عمر بن أبي ربيعة، وانظر التعليق الذي بعده.

(٤) ديوان عمر بن أبي ربيعة ص٦٦. قوله: مجنِّي، المِجن: الترس، يريد أنه استتر بثلاث نسوة عن أعين الرقباء، والكاعب التي نَهَدَ ثديها. ينظر شرح الزرقاوي على موطأ مالك ٤/١٥٤.

(٥) البيت للبعيث، كما في تهذيب اللغة ٢/١٦، والصحاح (ذهب)، واللسان (عصر)، والخزانة ٨/٥١١، وهو في هذه المصادر برواية: تشوفه، بدل: يزينه، والدوالح، بدل: الروائح. قال الأزهري: الدوالح هي السحاب التي أثقلها الماء فهي تدلح، أي: تمشي مَشْيَ المثقل، والذِّهاب: الأمطار. اهـ. والأُقحوان: البابونج. القاموس (قحو).

(٦) أخرجه عبد الرزاق ٢/٣٤٢، والطبري ٢٤/١٣.

كان: بالمُعصِرات، لكان الريح أَوْلَى[(١)].

وفي «الصِّحَاح»: والمُعْصِراتُ: السحائبُ تعتصر بالمطر. وأُعصِر القومُ، أي: أُمْطِروا، ومنه قرأ بعضُهم: «وفيه يُعْصَرون»[(٢)] [يوسف: ٤٩]. والمُعْصِرُ: الجاريةُ أول ما أدْرَكَتْ وحاضَتْ؛ يقال: قد أعْصَرتْ، كأنها دَخلتْ عَصْرَ شبابِها أو بلغَته، قال الرَّاجِزُ:

جاريةٌ بسَفَوانَ دارُها ... تمشي الهُوَيْنَى ساقِطاً خِمَارُها

قد أعصَرتْ أو قَدْ دَنا إعصارُها[(٣)]

والجمعُ: مَعَاصِر. ويقال: هي التي قارَبت الحيض؛ لأنَّ الإعصار في الجارية كالمراهَقَةِ في الغلام. سمعتُه من أبي الغَوْثِ الأعرابيِّ[(٤)].

قال غيره: والمُعْصِرُ: السحابةُ التي حان لها أن تُمْطِر؛ يقال: أجَزَّ الزرعُ فهو مُجِزٌّ، أي: صار إلى أنْ يُجزَّ، وكذلك السحابُ إذا صار إلى أن يُمطِر فقد أعْصَر[(٥)]. وقال المبرِّد: يقال: سحابٌ مُعصِر، أي: مُمسِكٌ للماء، ويُعتَصَر منه شيءٌ بعد شيءٍ، ومنه: العَصَر ـ بالتحريك ـ للملجأ الذي يُلْجَأُ إليه، والعُصرةُ بالضم أيضاً الملجأ. وقد مضى هذا المعنى في سورة يوسف[(٦)]، والحمدُ لله. وقال أبو زبيد:

صادِياً يستغيثُ غيرَ مُغاثٍ ... ولقدْ كان عُصرةَ المنجودِ[(٧)]

ومنه: المُعصِرُ للجارية التي قد قَرُبَتْ من البلوغ؛ يقال لها: مُعصِر؛ لأنها تُحْبَس

(١) الكلام بنحوه مختصراً في إعراب القرآن للنحاس ٥/ ١٢٦.

(٢) القراءات الشاذة ص٦٤، والمحتسب ١/ ٣٤٤، وينظر ما سلف ١١/ ٣٧٠.

(٣) الصحاح (عصر)، ونسبه ابن دريد في الجمهرة ٢/ ٣٥٤ لمنظور بن مرثد الأسدي، وهو بلا نسبة في العين ١/ ٢٩٥، وتهذيب اللغة ٢/ ١٧. وسَفَوان بفتح أوله وثانيه، ماء على قَدْر مرحلة من باب المربد بالبصرة. معجم البلدان ٣/ ٢٢٥.

(٤) الصحاح (عصر).

(٥) زاد المسير ٩/ ٦، وبنحوه في معاني القرآن للزجاج ٥/ ٢٧٢، وتهذيب اللغة ٢/ ١٦.

(٦) ١١/ ٣٦٩-٣٧٠.

(٧) سلف ١١/ ٣٧٠، وأبو زبيد هو حرملة بن منذر الطائي، ويقال: المنذر بن حرملة.

في البيت، فيكون البيت لها عَصَراً.

وفي قراءةِ ابن عباس وعِكرمةَ: «وأنزلنا بِالمعصِراتِ»[1]. والذي في المصاحف: ﴿مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ﴾ قال أبيّ بن كعب والحسنُ وابن جبير وزيد بن أسلم ومقاتل بنُ حيان: «مِن المعصِراتِ»، أي: من السماوات[2].

﴿مَآءً ثَجَّاجًا﴾ صباباً متتابعاً؛ عن ابن عباس ومجاهدٍ وغيرهما[3]. يقال: ثَجَجْتُ دَمَه فأنا أَثُجُّه ثَجًّا، وقد ثجَّ الدَّمُ يَثُجُّ ثُجوجاً، وكذلك الماء، فهو لازمٌ ومتعدٍّ، والثَّجَّاجُ في الآية: المنصَبُّ. وقال الزجَّاج: أي: الصَّبَّاب[4]، وهو متعدٍّ كأنه يَثُجُّ نفسَه، أي: يَصُبّ. وقال عَبيد بن الأبرص:

فـثـجَّ أعـلاه ثـم ارتَـجَّ أسـفـلُـه وضاقَ ذَرعاً بِحملِ الماءِ مُنصاحِ[5]

وفي حديث النبيّ ﷺ أنه سُئلَ عن الحجِّ المبرور فقال: «العَجُّ والثَّجُّ»[6] فالعجُّ: رَفْعُ الصوتِ بالتلبية، والثجُّ: إراقةُ الدماءِ وذبحُ الهدايا. وقال ابن زيد: ثجَّاجاً كثيراً[7]. والمعنى واحد.

قوله تعالى: ﴿لِّنُخْرِجَ بِهِۦ﴾ أي: بذلك الماء ﴿حَبًّا﴾ كالحنطة والشعير وغيرِ ذلك ﴿وَنَبَاتًا﴾ من الأبِّ، وهو ما تأكلُه الدوابُّ من الحشيش. ﴿وَجَنَّٰتٍ﴾ أي: بساتين

---

(١) القراءات الشاذة ص١٦٧، والمحتسب ٢/ ٣٤٧.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٤٢٤ وتفسير البغوي ٤/ ٤٣٧، وأخرجه عن الحسن الطبري ٢٤/ ١٣، وسلف هذا القول عن قتادة.

(٣) تفسير الطبري ٢٤/ ١٤-١٥.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٢٧٢.

(٥) ديوان عبيد بن الأبرص ص٥٣، ومنتهى الطلب من أشعار العرب ٢/ ٢٢٠، ومختارات ابن الشجري ٢/ ٤٨. وهو في هذه المصادر برواية: فالتج أعلاه. والبيت برواية المصنف في النكت والعيون ٦/ ١٨٤. وقوله: منصاح، أي: منشق بالماء، في اللسان (صوح): يقال: صاحه يصوحه فهو منصاح: إذا شقَّه.

(٦) سلف ٥/ ٢٢٢.

(٧) أخرجه الطبري ٢٤/ ١٥.

﴿أَلْفَافًا﴾ أي: ملتفَّةً بعضُها ببعضٍ لتَشَعُّب أغصانها، ولا واحدَ له كالأوْزاع، والأخياف[(١)]. وقيل: واحدُ الألفافِ لِفٌّ بالكسر، ولُفٌّ بالضم؛ ذكره الكسائيُّ[(٢)]، قال:

جَنةٌ لُفٌّ وعيشٌ مُغْدِق ونَدامَى كلُّهم بِيضٌ زُهُرْ[(٣)]

وعنه أيضاً وأبي عبيدةَ: لفيفٌ، كشريفٍ وأشراف[(٤)].

وقيل: هو جمعُ الجمع؛ حكاه الكسائيُّ. يقال: جنةٌ لَفَّاءُ ونَبْتٌ ألَفُّ، والجمعُ: لُفٌّ بضم اللام، مثل: حُمْر، ثم يُجمع اللُّفُّ ألفافاً[(٥)].

الزمخشري[(٦)]: ولو قيل: جمع مُلْتَفَّة، بتقديرِ حذفِ الزوائدِ لكان وجيهاً. ويقال: شجرةٌ لَفَّاءُ وشَجرٌ لُفٌّ، وامرأةٌ لفَّاءُ، أي: غليظةُ الساقِ مجتمعةُ اللَّحم.

وقيل: التقدير: ونُخرجُ به جناتٍ ألفافاً، فحذف لدلالةِ الكلام عليه. ثم هذا الالتفافُ والانضمامُ معناه أنَّ الأشجار في البساتين تكونُ متقارِبة، فالأغصانُ[(٧)] من كلِّ شجرةٍ متقاربةٌ لقوَّتها.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا﴾ أي: وقتاً ومَجمعاً وميعاداً للأوَّلين

---

(١) الكشاف ٤/ ٢٠٨ . الأوزاع: الجماعات المتفرقة. والأخياف: الضروب المختلفة في الأشكال والأخلاق، والإخوة لأم واحدة من آباء شتى. معجم متن اللغة (وزع) و(خيف).

(٢) تفسير الرازي ٣١/ ٩ .

(٣) ذكره الزمخشري في الكشاف ٤/ ٢٠٨ .

(٤) ذكره عن الكسائي ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٤٢٥ ، ولم نقف عليه في مجاز القرآن لأبي عبيدة.

(٥) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص٥٠٩ ، وإعراب القرآن للنحاس ٥/ ١٢٧ ، ومشكل إعراب القرآن ٢/ ٧٩٥ .

(٦) في الكشاف ٤/ ٢٠٨ .

(٧) في (د): الأغصان.

والآخِرين؛ لمَا وَعَد الله من الجزاء والثواب. وسمِّي يومَ الفَصلِ لأنَّ الله تعالى يَفْصِلُ فيه بين خَلْقِه.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ﴾ أي: للبعث ﴿فَتَأْتُونَ﴾ أي: إلى موضع العَرْضِ ﴿أَفْوَاجًا﴾ أي: أُمماً. كلُّ أُمَّةٍ مع إمامهم. وقيل: زمراً وجماعاتٍ. الواحد: فوجٌ. ونَصَبَ يوماً بدلاً من اليوم الأول.

وروي من حديث معاذ بنِ جبل: قلتُ: يا رسولَ الله، أرأيتَ قولَ الله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾؟ فقال النبيُّ ﷺ: «يا معاذ، لقد سألتَ عن أمرٍ عظيم» ثم أرسل عينيه باكياً، ثم قال: «يُحشَرُ عشرةُ أصنافٍ من أمَّتي أشتاتاً قد مَيَّزهم الله تعالى من جماعاتِ المسلمين، وبدَّل صُورَهم، فمنْهم على صورة القِرَدة، وبعضُهم على صورةِ الخنازير، وبعضُهم مُنكَّسون: أرجُلُهم أعلاهم، ووجوهُهم يُسحَبون عليها، وبعضُهم عُمْيٌ يتردَّدون، وبعضُهم صُمٌّ بُكْمٌ لا يعقلون، وبعضُهم يَمضغون ألسنَتَهم، فهي مُدلَّاةٌ على صدورهم، يسيلُ القَيح من أفواههم لعاباً، يتقذَّرُهم أهلُ الجمع، وبعضُهم مقطَّعةٌ أيديهم وأرجلُهم، وبعضُهم مُصَلَّبون على جذوعٍ من النار، وبعضُهم أشدُّ نتْناً من الجيف، وبعضُهم مُلبَسون جلابيبَ سابغةً من القَطِران لاصقةً بجلودهم. فأمَّا الذين على صورة القردة: فالقَتَّات من الناس ـ يعني النَّمَّام ـ وأمَّا الذين على صورة الخنازير: فأهلُ السُّحْت والحرام والمَكْس. وأمَّا المنكَّسون رؤوسهم ووجوههم: فأكلَةُ الربا، والعُمْيُ: مَن يَجورُ في الحكم، والصم البكم: الذين يُعجَبون بأعمالهم. والذي يمضغون ألسنَتَهم: فالعلماءُ والقُصَّاص الذين يخالفُ قولَهم فِعْلُهم. والمقطَّعةُ أيديهم وأرجلُهم: فالذين يؤذون الجيران. والمصلَّبون على جذوع النار: فالسُّعاةُ بالناس إلى السلطان. والذين هم أشدُّ نَتناً من الجِيف: فالذين يتمتَّعون بالشهوات واللَّذات، ويمنعون حقَّ الله من أموالهم. والذين يُلْبَسون الجلابيب: فأهلُ الكِبرِ والفَخْرِ والخيَلاء»[1].

---

(١) أخرجه الثعلبي وابن مردويه: كما في الدر المنثور ٦/ ٣٠٧، وتخريج أحاديث الكشاف ص١٨١. وفي إسناده حنظلة السدوسي، قال عنه أحمد: منكر الحديث يحدث بأعاجيب. وقال ابن معين: ليس بشيء تغيَّر في آخر عمره. الميزان ٧/ ٦٢١.

قوله تعالى: ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا﴾ أي: لنزولِ الملائكة، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٥]. وقيل: تَقطَّعتْ، فكانت قِطعاً كالأبواب، فانتصابُ الأبوابِ على هذا التأويل بحذفِ الكاف.

وقيل: التقديرُ: فكانت ذاتَ أبوابٍ؛ لأنها تصير كلّها أبواباً. وقيل: أبوابها طُرُقها. وقيل: تنحلُّ وتتناثر، حتى تصير فيها أبوابٌ. وقيل: إنَّ لكلِّ عبدٍ بابين في السماء: باباً لعمله، وباباً لرزقه، فإذا قامت القيامة انفتحت الأبواب.

وفي حديث الإسراء: «ثُم عرج بنا إلى السماء، فاستَفْتح جبريل، فقيل: مَن أنت؟ قال: جبريل. قيل: ومَن معك؟ قال: محمد. قيل: وقَد بُعِث إليه؟ قال: قد بُعِث إليه. ففُتح لنا»[١].

﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ أي: لا شيءَ، كما أنَّ السراب كذلك: يظنُّه الرائي ماءً وليس بماء. وقيل: «سُيِّرت»: نُسِفتْ من أصولها. وقيل: أُزيلَتْ عن مواضعها[٢].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾: مِفعال من الرَّصَد، والرَّصَد: كلُّ شيءٍ كان أمامك. قال الحسن: إنَّ على النار رَصَدًا، لا يدخل أحدٌ الجنةَ حتى يجتازَ عليه، فَمَن جاء بجوازٍ جاز، ومَن لم يَجِئْ بجوازٍ حُبِس. وعن سُفيان ﷺ قال: عليها ثلاثُ قَناطِر[٣].

---

(١) أخرجه أحمد (١٢٥٠٤)، والبخاري (٧٥١٧)، ومسلم (١٦٢) من حديث أنس ﷺ.

(٢) النكت والعيون ٦/ ١٨٥ .

(٣) أخرج القولين الطبري ٢٤/ ٢٠-٢١ .

وقيل: «مِرصاداً»: ذات أرصادٍ على النسب، أي: تَرصُدُ مَن يمرُّ بها. وقال مقاتل: مَحبِساً. وقيل: طريقاً وممرّاً، فلا سبيلَ إلى الجنة حتى يَقْطَع جهنم. وفي «الصِّحَاح»: والمِرصاد: الطريق[1].

وذكر القُشَيريُّ: أنَّ المرصادَ: المكانُ الذي يَرصُد فيه الواحدُ العدوَّ، نحو المِضمار: الموضعُ الذي تُضمَّر فيه الخيل. أي: هي معدَّةٌ لهم، فالمِرصادُ بمعنى المحلّ، فالملائكةُ يرصدون الكفارَ حتى ينزلوا بجهنم.

وذكر الماوردِيّ[2] عن أبي سِنان أنَّها بمعنى: راصِدة، تُجازيهم بأفعالهم.

وفي «الصِّحَاح»: الراصِدُ للشيء: الراقبُ له؛ تقول: رَصَده يَرْصُدُه رَصْداً ورَصَدًا، والتَّرصُّد: الترقُّب. والمَرصَد: موضعُ الرَّصد. الأصمعيُّ: رَصَدته أرصُده: ترقَّبته، وأرْصَدْتُ له[3]: أعْدَدْتُ له. والكسائيُّ مِثْله.

قلت: فجهنَّمُ مُعدَّةٌ مترصِّدةٌ، مُتفعِّل من الرصْد وهو الترقُّب، أي: هي متطلِّعةٌ لِمَن يأتي. والمِرْصادُ مِفْعالٌ من أبنية المبالَغة، كالمِعطار والمِغيار، فكأنه يكثُر من جهنَّم انتظارُ الكفار.

﴿لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا﴾ بدلٌ من قوله: «مِرصاداً»، والمآبُ: المَرْجِعُ، أي: مَرْجِعاً يرجعون إليها؛ يقال: آب يَؤُوبُ أوْبةً: إذا رجع. وقال قتادةُ: مَأْوًى ومنزلاً[4]. والمرادُ بالطاغين: مَن طغى في دِينه بالكفر، أو في دنياه بالظُّلم.

قوله تعالى: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابًا﴾ أي: ماكِثين في النار مادامت الأحقاب، وهي لا تَنْقطعُ، فكلَّما مضى حُقُبٌ جاء حُقُبٌ. والحُقُب بضمَّتين: الدَّهْرُ، والأحقابُ:

---

(١) الصحاح (رصد).

(٢) في النكت والعيون ٦/ ١٨٥ .

(٣) في النسخ: وأرصدته، والمثبت من الصحاح (رصد)، وهو موافق لما في تهذيب اللغة ١٢/ ١٣٧، واللسان (رصد)، والتاج (رصد).

(٤) أخرجه الطبري ٢٤/ ٢١ .

الدُّهور. والحِقبة بالكسر: السَّنة؛ والجمع حِقَب؛ قال متمم بن نُويرة التميميُّ:

وكنَّا كنَدْمانَيْ جَذِيمةَ حِقْبةً ... من الدَّهرِ حتى قيل لن يتصدَّعا
فلمَّا تفرَّقْنا كأنِّي ومالِكاً ... لِطولِ اجتماعٍ لم نَبِت ليلةً معا[(١)]

والحُقبُ بالضمِّ والسكون: ثمانون سنةً. وقيل: أكثر من ذلك وأقلّ، على ما يأتي، والجمع: أحقاب.

والمعنى في الآية: لابِثين فيها أحقاب الآخرةِ التي لا نهايةَ لها، فحذف الآخرة لدلالةِ الكلام عليه، إذ في الكلام ذِكرُ الآخرة، وهو كما يقال: أيام الآخرة، أي: أيامٌ بعدَ أيامٍ إلى غير نهاية، وإنما كان يدلُّ على التوقيت لو قال: خمسة أحقابٍ، أو عشرة أحقاب، ونحوه. وذَكَر الأحقابَ لأنَّ الحُقُب كان أبْعَدَ شيءٍ عندهم، فتكلَّم بما تَذهبُ إليه أوهامُهم ويعرفونها، وهي كنايةٌ عن التأبيد، أي: يمكثون فيها أبداً. وقيل: ذكر الأحقاب دون الأيامِ؛ لأنَّ الأحقابَ أهوَلُ في القلوب، وأدلُّ على الخلود. والمعنى متقاربٌ، وهذا الخلودُ في حقِّ المشركين.

ويمكن حَمْلُ الآية على العُصاة الذين يخرجون من النار بعد أحقاب[(٢)].

وقيل: الأحقابُ وقتٌ لشُرْبِهم الحميمَ والغَساق، فإذا انقضت فيكون لهم نوعٌ آخرُ من العقاب؛ ولهذا قال: ﴿لَّبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾.

و«لابِثِين» اسمُ فاعلٍ من لَبِثَ، ويقوِّيه أنَّ المصدر منه اللَّبْث بالإسكان،

---

(١) الكامل للمبرد ٣/ ١٣٩١ و١٤٤٠، والمفضليات ص٢٦٧، ومعجم الشعراء ص٤٣٢-٤٣٣، والخزانة ٨/ ٢٧٢. قوله: كندماني جذيمة، هما مالك وعقيل ابنا فارج بن كعب، نادَما جذيمة الأبرش بعد أن ردَّا عليه ابن أخته، وينظر تفصيل قصتهما في الخزانة ٨/ ٢٧٠-٢٧٣. وذكر المرزباني أن متمم ابن نويرة أدرك الإسلام وأسلم فحسن إسلامه، واستفرغ شعره في مراثي أخيه مالك بن نويرة، وكان خالد ﷺ قتله في الردة.

(٢) ويردُّ هذا القول بأن بعده: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾. إعراب القرآن للنحاس ٥/ ١٣٠، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٢٦.

كالشُّرْب. وقرأ حمزةُ والكسائيُّ: «لَبِثِينَ» بغير ألف[١]، وهو اختيارُ أبي حاتمٍ وأبي عبيد، وهما لغتان؛ يقال: رجل لابِثٌ ولَبِثٌ، مثل طَمِعٍ وطامِعٍ، وفَرِهٍ وفارِه. ويقال: هو لَبِثٌ بمكان كذا، أي: قد صار اللَّبْثُ شأنَه، فشُبِّه بما هو خِلْقةٌ في الإنسان، نحو: حَذِر وفَرِق؛ لأنَّ باب فَعِل إنَّما هو لِمَا يكونُ خِلْقةً في الشيء في الأغلب، وليس كذلك اسمُ الفاعلِ مِن لابثٍ.

والحُقبُ: ثمانون سنةً في قول ابنِ عمرَ وابنِ مُحَيصنٍ وأبي هريرة[٢]؛ والسنةُ ثلاثُ مئةِ يومٍ وستُّون يوماً، واليومُ ألفُ سنةٍ من أيام الدنيا. قاله ابنُ عباس[٣]. وروى ابنُ عمرَ هذا مرفوعاً إلى النبيِّ ﷺ[٤].

وقال أبو هريرةَ: والسنةُ ثلاثُ مئةِ يومٍ وستُّون يوماً، كلُّ يومٍ مثلُ أيامِ الدنيا[٥].

وعن ابن عمر أيضاً: الحُقبُ: أربعون سنةً. السُّدِّيُّ: سبعون سنةً. وقيل: إنه ألفُ شهرٍ. رواه أبو أمامةَ مرفوعاً. بشير بن كعب: ثلاث مئةِ سنةٍ[٦].

الحسن: الأحقابُ لا يَدرِي أحدٌ كم هي، ولكنْ ذَكَروا أنَّها مئةُ حُقبٍ، والحُقبُ

(١) السبعة ص٦٦٨، والتيسير ص٢١٩ عن حمزة. وقراءة الكسائي: «لابثين» كقراءة الباقين.

(٢) أخرجه عن أبي هريرة ﷺ هناد في الزهد (٢١٩)، والطبري ٢٤/ ٢٤، وما بعده قطعة منه. وأخرجه سعيد بن منصور وابن المنذر كما في الدر المنثور ٦/ ٣٠٨ عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، وروي عن ابن عمر مرفوعاً على ما يأتي.

(٣) ذكره الرازي في التفسير ٣١/ ١٣.

(٤) أخرجه ابن حبان في المجروحين ١/ ٣٣٢، وابن عدي في الكامل ٣/ ١١٣٤، وذكره الذهبي في الميزان ٢/ ٢٢٣ مع حديث آخر، وقال: هما موضوعان في نقدي. وسيأتي متن الحديث منسوباً لعمر ﷺ.

(٥) من قوله: وقال أبو هريرة والسنة ثلاث مئة يوم، إلى هذا الموضع ليس في (ظ)، ووقع في (ي): كل يوم مثل الدنيا. وقد سلف عن أبي هريرة نحوه، وفيه: ...واليومُ ألفُ سنة من أيام الدنيا.

(٦) ذكر هذه الأقوال الماوردي في النكت والعيون ٦/ ١٨٦. وحديث أبي أمامة ﷺ أخرجه مطولاً ابن أبي حاتم، كما ذكر ابن كثير عند تفسير هذه الآية، وهو من طريق جعفر بن الزبير، عن القاسم، عن أبي أمامة، عن النبي ﷺ. قال ابن كثير: هذا حديث منكر جدًّا، والقاسم (وهو ابن عبد الرحمن) والراوي عنه ـ وهو جعفر بن الزبير ـ كلاهما متروك.

الواحدُ منها سبعون ألفَ سنةٍ، اليومُ منها كألفِ سنةٍ ممّا تَعدُّون[١].

وعن أبي أمامةَ أيضاً، عن النبيِّ ﷺ: «إنَّ الحُقُبَ الواحدَ ثلاثون ألفَ سنةٍ»[٢] ذكره المَهْدَويُّ. والأولُ الماوَرْديُّ[٣].

وقال قُطرب: هو الدهرُ الطويل غيرُ المحدود.

وقال عمر بن الخطاب ﷺ: قال النبيُّ ﷺ: «واللهِ لا يَخْرُجُ من النار مَن دَخَلَها حتى يكونَ فيها أحقاباً، الحُقبُ بضعٌ وثمانون سنةً، والسنةُ ثلاثُ مئةٍ وستُّون يوماً، كلُّ يومٍ ألفُ سنةٍ ممَّا تَعُدُّون، فلا يَتَّكِلَنَّ أحدُكم على أنه يخرجُ من النار»[٤]. ذكره الثعلَبيُّ.

القُرظيُّ: الأحقابُ: ثلاثةٌ وأربعون حُقباً، كلُّ حُقبٍ سبعون خَريفاً، كلُّ خريفٍ سبعُ مئةِ سنةٍ، كلُّ سنةٍ ثلاثُ مئةٍ وستُّون يوماً، كلُّ يومٍ ألفُ سنة.

قلت: هذه أقوالٌ مُتعارِضةٌ، والتحديدُ في الآية للخلود يحتاج إلى توقيفٍ يقطَعُ العُذْر، وليس ذلك بثابتٍ عن النبيِّ ﷺ. وإنَّما المعنَى ـ والله أعلم ـ ما ذكرناه أوَّلاً، أي: لابثين فيها أزماناً ودهوراً، كلَّما مضى زمنٌ يَعقُبه زمنٌ، ودهرٌ يَعقُبه دهرٌ، هكذا أَبَدَ الآبِدينَ من غير انقطاع.

وقال ابن كَيسان: معنى ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا﴾: لا غايةَ لها ولا انتهاء، فكأنه قال: أبداً.

وقال ابن زيد ومُقاتلٌ: إنَّها منسوخةٌ بقوله تعالى: ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾

---

(١) أخرجه الطبري ٢٤/ ٢٥.

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٧٩٥٧)، وفي إسناده جعفر بن الزبير والقاسم بن عبد الرحمن، وقد سلف الكلام عليهما.

(٣) في النكت والعيون ٦/ ١٨٦، وما سيأتي من قول قطرب منه.

(٤) لم نقف عليه عن عمر ﷺ، وسلف من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

يعني أنَّ العدد قد انقَطع، والخلود قد حصل(١).

قلت: وهذا بعيدٌ؛ لأنه خَبَرٌ، وقد قال تعالى: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠] على ما تقدَّم. هذا في حقِّ الكفار، فأمَّا العُصاةُ الموحِّدون فصحيحٌ، ويكونُ النَّسخُ بمعنى التخصيص. والله أعلم.

وقيل: المعنى «لابِثِين فيها أحقاباً»، أي: في الأرض؛ إذ قد تقدَّم ذكرُها، ويكونُ الضمير في «لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً» لجهنم(٢).

وقيل: واحدُ الأحقاب حُقُبٌ وحِقبَةٌ(٣)؛ قال:

فإن تَنْأَ عنها حِقْبَةً لا تُلاقِهَا ... فأنك ممَّا أحدَثَتْ بالمُجرَّبِ(٤)

وقال الكُميت:

مَرَّ لها [من] بعد حِقْبَةٍ حِقَبُ(٥)

قوله تعالى: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا﴾ أي: في الأحقاب ﴿بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾ البردُ: النومُ في قول أبي عبيدةَ وغيره(٦)؛ قال الشاعر:

ولو شِئتُ حَرَّمتُ النساءَ سِواكُمُ ... وإن شِئتُ لم أطْعَمْ نُقاخاً ولا بردا(٧)

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٤٣٨، وفيه: يعني أن العدد قد ارتفع والخلود...

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٥/ ١٣١.

(٣) العين ٣/ ٥٣، وتهذيب اللغة ٤/ ٧٣.

(٤) في (م): فأنت بما أحدثته بالمجرب. والبيت لامرئ القيس، وهو في ديوانه ص٤٢، قال: شارح الديوان: أي: سيبدو لك وَصْلُها أو هجرها، فتكون على تجربة منها.

(٥) وصدره: ولا حُمولٍ غدتْ ولا دِمَنٍ، وهو في شرح هاشميات الكميت ص١٠١، وما بين حاصرتين منه، قال أبو رياش القيسي شارح الهاشميات: الدِّمَن: آثار الرماد، يقول: لم تُطربني حُمول (وهي الهوادج) غدت مفارِقةً لي، ولا دِمَنٌ وقفتُ بها أتذكر فيها أهلها.

(٦) مجاز القرآن ٢/ ٢٨٢، وتفسير الغريب لابن قتيبة ص٥٠٩، والأضداد لابن الأنباري ص٦٤.

(٧) البيت للعَرْجي، كما في الأضداد لابن الأنباري ص٦٤، والصحاح (نقخ)، وهو بلا نسبة في تفسير الغريب لابن قتيبة ص١٤٦ و٥٠٩، قال الجوهري: النقاخ: الماء العذب.

وقاله مجاهدٌ والسُّدِّيُّ والكسائيُّ والفَضْلُ بنُ خالد ومعاذٌ النحويُّ[١]، وأنشدوا قولَ الكِنديِّ:

بَردتْ مَراشِفُها عليَّ فصَدَّني عنها وعن تَقْبيلها البَرْدُ[٢]

يعني النوم. والعربُ تقول: مَنَعَ البَرْدُ البَرْدَ، يعني: أذهبَ البردُ النوم.

قلت: وقد جاء الحديثُ أنه عليه الصلاة والسلام سُئل: هل في الجنَّة نومٌ؟ فقال: «لا، النومُ أخو الموتِ، والجنةُ لا موتَ فيها»[٣] فكذلك النار، وقد قال تعالى: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا﴾ [فاطر: ٣٦].

وقال ابن عباس: البَرْدُ: بردُ الشراب[٤]. وعنه أيضاً: البردُ: النوم، والشرابُ الماء[٥].

وقال الزجَّاج: أي: لا يذوقون فيها بَرْدَ ريحٍ ولا ظلٍّ ولا نومٍ[٦]. فجعل البردَ بردَ كلِّ شيءٍ له راحةٌ، وهذا بردٌ ينفعُهم، فأمَّا الزمهريرُ فهو بردٌ يَتأذَّونَ به، فلا ينفعُهم، فلهم منه من العذاب ما اللهُ أعلمُ به.

وقال الحسنُ وعطاءٌ وابن زيد: «بَرْدًا»، أي: رَوْحًا وراحة[٧]؛ قال الشاعر:

---

(١) في النسخ: وأبو معاذ النحوي، والمثبت من المحرر الوجيز ٥/ ٤٢٦، والبحر ٨/ ٤١٤، وروح المعاني ٣٠/ ١٦. والفضل بن خالد هو أبو معاذ النحوي. ينظر الثقات لابن حبان ٩/ ٥، والجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٧/ ٦١، وبغية الوعاة ٢/ ٢٤٥. ومعاذ النحوي المذكور لعله معاذ بن مسلم الهراء، نحوي كوفي، وهو أستاذ الكسائي. ينظر إنباه الرواة ٣/ ٢٨٨، وبغية الوعاة ٢/ ٢٩٠.

(٢) البيت لامرئ القيس، وهو في ديوانه ص٢٣١ برواية: ... فردّني عنها وعن قبلاتها البرد. قال شارح الديوان: مراشفها: شفاهها.

(٣) سلف ٥/ ١٥٣.

(٤) أخرجه الفراء ٣/ ٢٢٨ من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس.

(٥) ذكره الواحدي في الوسيط ٤/ ٤١٤.

(٦) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٢٧٣.

(٧) تفسير البغوي ٤/ ٤٣٨ عن الحسن وعطاء.

فلا الظلَّ مِن بردِ الضُّحى تَستطيعُه ولا الفَيءَ أوقاتَ العَشِيِّ تَذوقُ[١]

﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾ جملةٌ في موضع الحال من «الطاغين» أو نعتٌ للأحقاب، والأحقابُ ظرفُ زمانٍ، والعاملُ فيه «لابِثين»، أو «لبِثِين» على تعديةِ فَعِل. ﴿إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾ استثناءٌ منقطِعٌ في قولِ مَن جَعَل البردَ النومَ، ومَن جَعلَه من البرودة كان بدلاً منه[٢].

والحميم: الماءُ الحارُّ؛ قاله أبو عبيدة[٣]. وقال ابن زيد: الحميم: دموعُ أعيُنِهم، تُجمعُ في حياضٍ ثم يُسقَونه[٤].

قال النحاس: أصلُ الحميم: الماءُ الحارُّ، ومنه اشتُقَّ الحَمَّام، ومنه الحُمَّى، ومنه ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ﴾ [الواقعة: ٤٣]: إنَّما يرادُ به النهايةُ في الحرِّ. والغَسَّاقُ: صديدُ أهلِ النار وقَيحُهم. وقيل: الزَّمهرير[٥].

وقرأ حمزةُ والكسائيُّ بتشديدِ السين[٦]، وقد مضى في «ص» القولُ فيه[٧].

﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾ أي: مُوافِقاً لأعمالهم. عن ابن عباسٍ ومجاهدٍ وغيرِهما[٨]، فالوِفاقُ بمعنى المُوافقة، كالقِتال بمعنى المقاتلة. و«جزاءً» نصبٌ على المصدر، أي:

---

(١) البيت لحميد بن ثور، وهو في ديوانه ص٤٠، وتهذيب اللغة ٤/ ٣٥٨، والصحاح (فيأ)، ومنتهى الطلب من أشعار العرب ٧/ ٣٨٦، ووقع في المصادر عدا الديوان: ولا الفيء من برد العشي تذوق، ورواية الديوان:

فلا الظلَّ منها بالضحى تستطيعُه ولا الفَيءَ منها بالعشي تذوق

(٢) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٧٩٦.

(٣) في مجاز القرآن ٢/ ٢٨٢.

(٤) أخرجه الطبري ٢٤/ ٣٠.

(٥) أخرج هذا القول الطبري ٢٤/ ٣٠ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٦) وهي قراءة حفص أيضاً. السبعة ص٦٦٨، والتيسير ص١٨٨.

(٧) عند تفسير الآية (٥٧) منها.

(٨) تفسير الطبري ٢٤/ ٣١.

جازَيناهم جزاءً وافَقَ أعمالَهم؛ قاله الفَرَّاء والأخفش[١]. وقال الفرَّاء أيضاً: هو جمعُ الوفْقِ، والوفقُ واللِّفق[٢] واحد.

وقال مقاتل: وافَقَ العذابُ الذنبَ، فلا ذنبَ أعظَمُ من الشرك، ولا عذابَ أعظمُ من النار[٣].

وقال الحسن وعكرمةُ: كانت أعمالُهم سيئةً، فأتاهم الله بما يَسُوءُهم.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ﴾ أي: لا يخافون ﴿حِسَابًا﴾ أي: مُحاسبةً على أعمالهم. وقيل: معناه: لا يرجون ثوابَ حسابٍ[٤]. الزجَّاج: أي: إنهم كانوا لا يؤمنون بالبعث فيرجون حسابَهم[٥].

﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا﴾ أي: بما جاءتْ به الأنبياءُ. وقيل: بما أنزلنا من الكتب. وقراءةُ العامَة: ﴿كِذَّابًا﴾ بتشديدِ الذَّالِ وكَسْرِ الكاف، على كَذَّب، أي: كَذَّبوا تكذيباً كبيراً. قال الفرَّاء[٦]: هي لغةٌ يمانيةٌ فصيحةٌ؛ يقولون: كَذَّبت [به] كِذَّاباً، وخرَّقتُ القميصَ خِرَّاقاً؛ وكلُّ فِعلٍ في وزنِ «فَعَّلَ»، فمصدرُه فِعَّال مشدَّدٌ في لغتهم، وأنشد بعضُ الكلابيين:

لقد طالَ ما ثَبَّطَتَني عن صَحابتي وعن حِوَجٍ قِضَّاؤُها مِن شِفائِيا[٧]

---

(١) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٢٩، وللأخفش ٢/ ٧٢٧.

(٢) اللِّفْقُ: القرين الملائم، يقال للرجلين لا يفترقان: هما لِفْقان. معجم متن اللغة (لفق)، ولم نقف على هذا القول في معاني القرآن للفراء.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٤٣٩.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٥/ ١٣٢.

(٥) بنحوه في معاني القرآن للزجاج ٥/ ٢٧٤.

(٦) في معاني القرآن ٣/ ٢٢٩، وما سيأتي بين حاصرتين منه.

(٧) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٢٩، والبيت للأعور بن براء الكلابي، كما في تهذيب الألفاظ لابن السكيت ٢/ ٥٦٦، والأضداد لأبي حاتم السجستاني ص٧٩، وهو دون نسبة في العين ٣/ ٢٥٩، والأضداد لابن الأنباري ص٢١.

وقرأ عليٌّ ﷺ: «كِذَاباً» بالتخفيف، وهو مصدرٌ أيضاً[١]. وقال أبو عليٍّ: التخفيفُ والتشديدُ جميعاً مصدرُ المكاذَبة، كقول الأعشى:

فصَدَقْتُها وكَذَبتُها والمرءُ ينفعُه كِذَابُهْ[٢]

أبو الفتح: جاءا جميعاً مصدرَ: كَذَبَ وكَذَّب جميعاً[٣].

الزمخشري[٤]: «كِذَاباً» بالتخفيف مصدرُ: كَذَب، بدليلِ قوله:

فصَدَقتُها وكَذَبتُها والمرءُ ينفعُه كِذَابُهْ

وهو مثلُ قوله: ﴿أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ [نوح:١٧] يعني: وكذَّبوا بآياتنا فكذَبوا كِذَابا. أو تنصِبُه بـ«كَذَّبوا»؛ لأنه يتضمَّن معنى كَذَبوا؛ لأنَّ كلَّ مُكَذِّب بالحقِّ كاذِبٌ. [وإنْ جَعَلتَه بمعنى المُكَاذَبة فمعناه: وكذَّبوا بآياتنا فكاذَبوا مُكاذَبةً، أو: وكذَّبوا بها مُكاذِبين] لأنهم إذا كانوا عند المسلمين كاذبين، وكان المسلمون عندهم كاذبين، فبينهم مُكاذَبة.

وقرأ ابن عمر: «كُذَّاباً» بضمِّ الكاف والتشديد، جمع كاذب؛ قاله أبو حاتم. ونصْبُه على الحال[٥]. الزَّمخشريُّ: وقد يكونُ الكُذَّاب بمعنى الواحدِ البليغِ في الكَذِب، يقال: رجلٌ كُذَّاب، كقولك: حُسَّان وبُخَّال، فيُجعَل صفةً لمصدرِ «كَذَّبوا»، أي:

---

(١) المحتسب ٢/ ٣٤٨.

(٢) الحجة للفارسي ٦/ ٣٦٩، والكلام فيه مفصَّل، وهذا القول مع البيت ذكره أيضاً أبو عبيدة في مجاز القرآن ٢/ ٢٨٣، ونقله عنه ابن الجوزي ٩/ ٩. وقال المبرد في الكامل ٢/ ٧٤٧: وأنشدني المازني للأعشى، وليس مما روت الرواة متصلاً بقصيدة، ثم ذكره برواية: فصدقتهم وكَذَبتهم...، ولم نقف عليه في ديوان الأعشى.

(٣) بنحوه في المحتسب ٢/ ٣٤٨.

(٤) في الكشاف ٤/ ٢٠٩، وما سيأتي بين حاصرتين منه.

(٥) المحتسب ٢/ ٣٤٨، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٢٧ وفيه أن الذي قرأ بها هو عبد الله بن عمر بن عبد العزيز، وكذا ذكر أبو حيان في البحر ٨/ ٤١٥، وهي في القراءات الشاذة ص١٦٨ عن عمر بن عبد العزيز والماجشون.

تكذيباً كُذّاباً مُفْرِطاً كَذِبهُ[١].

وفي «الصّحاح»: وقولُه تعالى: ﴿وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا﴾ وهو أحدُ مصادرِ المشدَّد؛ لأنَّ مصدرَه قد يجيءُ على «تفعيل» مثل التكليم، وعلى «فِعَّال» مثل كِذَّابٍ، وعلى «تَفْعِلة» مثل تَوصِية، وعلى «مُفعَّلٍ» مثل: ﴿وَمَزَّقْنَـٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ [سبأ: ١٩][٢].

﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ كِتَـٰبًا﴾ «كلَّ» نصب بإضمارِ فعلٍ يَدُلُّ عليه «أحصيناه»، أي: وأحصينا كلَّ شيءٍ أحصيناه[٣]. وقرأ أبو السَّمَّال: «وكلُّ شيءٍ» بالرفع على الابتداء[٤]. «كِتاباً» نصب على المصدر؛ لأنَّ معنى أحصينا: كتبنا، أي: كتبناه كتاباً[٥].

ثم قيل: أراد به العلمَ، فإنَّ ما كُتِب كان أَبْعَد من النسيان. وقيل: أي: كتبناه في اللوح المحفوظِ لتَعْرِفَه الملائكة. وقيل: أراد ما كُتب على العباد من أعمالهم. فهذه كتابةٌ صَدَرَتْ عن الملائكة الموكَّلين بالعباد بأمر الله تعالى إياهم بالكتابة؛ دليلهُ قولُه تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَـٰفِظِينَ كِرَامًا كَـٰتِبِينَ﴾ [الانفطار: ١٠-١١].

﴿فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ قال أبو بَرْزَةَ: سألتُ النبيَّ ﷺ عن أشدِّ آيةٍ في القرآن؟ فقال: «قولُه تعالى: ﴿فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾»[٦]. أي: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَـٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ [النساء: ٥٦] و﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَـٰهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧].

---

(١) الكشاف ٤/٢٠٩-٢١٠ .

(٢) الصحاح (كذب).

(٣) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٢٧٤ .

(٤) القراءات الشاذة ص١٦٨ .

(٥) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٢٧٤ ، وإعراب القرآن للنحاس ٥/ ١٣٤ . وقال النحاس: من النحويين مَن يقول: العامل فيه مضمر، أي: كتبناه كتاباً.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم والثعلبي، كما في تفسير ابن كثير عند هذه الآية، وتخريج أحاديث الكشاف ص١٨١ ، وهو من طريق جَسر بن فرقد، عن الحسن، عن أبي برزة، عن النبي ﷺ. وأخرجه ابن قانع في معجم الصحابة ٣/ ١٥٩ من طريق جَسْر، عن الحسن، عن أبي برزة موقوفاً. قال ابن كثير: جَسْر بن فرقد ضعيف الحديث بالكلية. قلنا: والحسن لم يسمع من أبي برزة. المراسيل لابن أبي حاتم ص٤٢ .

قوله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ ذَكَر جزاءَ مَن اتَّقى مخالفةَ أمرِ الله، «مَفازاً» مَوْضعَ فوزٍ ونجاةٍ وخَلاصٍ ممّا فيه أهلُ النار. ولذلك قيل للفَلاة إذا قلَّ ماؤها: مَفازة، تفاؤلاً بالخلاص منها.

﴿حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا﴾ هذا تفسيرُ الفوزِ. وقيل: «إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا»: إنَّ للمتقين حدائقَ؛ جمع حديقة، وهي البستانُ المُحَوَّط عليه؛ يقالُ: أحْدَقَ به، أي: أحاط. والأعناب: جمع عنب، أي: كرومَ أعنابٍ، فحذف.

﴿وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا﴾ كواعِب: جمع كاعِب، وهي النَّاهِد؛ يقال: كَعَبَت الجاريةُ تكعُبُ كُعوباً، وكَعَّبت تُكَعِّب تكعِيباً، ونَهَدت تَنهَد نهُوداً. وقال الضحَّاك: الكواعبُ: العَذَارى؛ ومنه قول قيس بن عاصم:

وكم مِن حَصَانٍ قد حَوَيْنا كَرِيمةٍ ومِن كاعبٍ لم تَدْرِ ما البؤسُ مُعصِرِ[1]

والأتراب: الأقرانُ في السنِّ. وقد مضى في سُورة الواقعة[2]، الواحد: تِرْب.

﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾ قال الحسن وقتادةُ وابن زيد وابن عباس: مُترَعة مملوءة[3]؛ يقال: أدْهَقْتُ الكأسَ، أي: ملأتها، وكأسٌ دِهَاقٌ، أي: ممتلِئة؛ قال:

ألَا فاسقِني صِرفاً سقانِي الساقي مِن مائِها بِكأسك الدِّهاقِ[4]

وقال خِدَاش بن زُهَير:

أتانا عامِرٌ يَبْغي قِرَانا فأترَعنا له كأساً دِهاقا[5]

---

(١) النكت والعيون ٦/ ١٨٨ .

(٢) عند الآية (٣٧) منها.

(٣) تفسير الطبري ٢٤/ ٣٩-٤١ ، وتفسير البغوي ٤/ ٤٣٩ .

(٤) في (د): بكأسه الدهاق، ولم نقف على البيت.

(٥) الصحاح (دهق)، والنكت والعيون ٦/ ١٨٩ . ووقع في الصحاح: يرجو، بدل: يبغي.

وقال سعيد بن جُبير وعِكرمةُ ومجاهدٌ وابن عباس أيضاً: متتابعة[١]، يَتْبَعُ بعضُها بعضاً، ومنه: ادَّهَقَتِ الحِجارة ادِّهاقاً، وهو شدّة تَلازُمِها[٢] ودخول بعضِها في بعض؛ فالمتتابعُ كالمُتَدَاخِل.

وعن عِكرمة أيضاً وزيد بن أسْلَم: صافية[٣]؛ قال الشاعر:

لأنـتِ إلـى الـفـؤادِ أحـبُّ قُـرْبـاً ... مِـن الـصَّـادي إلـى كـأسٍ دِهـاقِ[٤]

وهو جمعُ دَهَقٍ، وهو خشبتان يُعْصَرُ بهما[٥]. والمرادُ بالكأس: الخمرُ، فالتقدير: خمراً ذات دِهَاق، أي: عُصِرتْ وصُفِّيتْ؛ قاله القُشيريّ[٦].

وفي «الصحاح»: وأدْهَقْتُ الماء، أي: أفْرَغته إفراغاً شديداً، قال أبو عمرو: الدَّهَقُ ـ بالتحريك ـ: ضَرْبٌ من العذاب. وهو بالفارسية أشْكَنْجَه. المبرِّد: والمَدهوق: المعذَّبُ بجميع العذابِ الذي لا فُرجةَ فيه. ابن الأعرابيّ: دَهَقْتُ الشيء: كسرته وقطعته؛ وكذلك دَهْدَقته، وأنشَدَ لحُجْر بن خالد:

نُدَهْدِقُ بَضْعَ اللحمِ للباعِ والنَّدَى ... وبعضُهُمُ تغلي بذَمٍّ مَرَاجِلُهْ[٧]

(١) تفسير الطبري ٢٤/ ٤٢ ، وأخرجه عن عكرمة البخاري (٣٨٣٩) بلفظ: ملأى متابعة.

(٢) في (م): تلازبها. والمثبت من النسخ الخطية، وهو الموافق لما في العين ٣/ ٣٦٤ ، وتهذيب اللغة ٥/ ٣٩٤ .

(٣) أخرجه الطبري ٢٤/ ٤١ .

(٤) النكت والعيون ٦/ ١٨٩ .

(٥) في العين ٣/ ٣٦٤ ، وتهذيب اللغة ٥/ ٣٩٤ ، والقاموس (دهق): الدَّهَق: خشبتان يُغمز بهما الساق. وفي المعجم الوسيط (دهق): الدهق: خشبتان يُعصَر بهما الساق للتعذيب، وينظر ما سينقله المصنف عن الصحاح.

(٦) وقاله أيضاً الرازي في التفسير ٣١/ ٢٠ .

(٧) الصحاح (دهق)، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٢/ ٥١٥ ، وأساس البلاغة (نقع)، واللسان (بضع). ووقع في المصادر: مناقعه، بدل: مراجله. قوله: بَضْع، البَضْع جمع بَضْعة وهي القطعة من اللحم. القاموس (بضع). وقال المرزوقي: المناقع جمع المِنْقَع والمِنْقَعة، وهو القدور الصغار. وذِكْرُ الباع مَثَل، والمراد الكرم. وقوله: بذمٍّ، في موضع الحال، تقديره: تغلي مذمومة.

ودَهْمَقْتُه بزيادة الميم: مثلُه. وقال الأصمعيُّ: الدَّهْمقَة: لِينُ الطعام وطِيبُه ورِقَّته، وكذلك كلُّ شيءٍ ليِّنٍ، ومنه حديث عمر: لو شئتُ أن يدُهمَقَ لي لفَعلْتُ، ولكنَّ الله عاب قوماً فقال: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ [الأحقاف: ٢٠](١).

قوله تعالى: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا﴾ أي: في الجنة ﴿لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا﴾ اللغو: الباطل، وهو ما يُلْغَى من الكلام ويُطَّرَح، ومنه الحديثُ: «إذا قلتَ لصاحبكَ: أنْصِتْ، يومَ الجمعةِ والإمامُ يخطُبُ، فقد لَغَوت»(٢) وذلك أنَّ أهل الجنةِ إذا شربوا لم تتغيَّر عقولُهم، ولم يتكلَّموا بلغوٍ، بخلافِ أهلِ الدنيا.

«ولا كِذَّابا»: تقدَّم، أي: لا يُكذِّبُ بعضُهم بعضاً، ولا يسمعون كذباً، وقرأ الكسائيُّ: «كِذَاباً» بالتخفيف(٣)، من كَذَبت كِذَاباً، أي: لا يتكاذَبون في الجنة. وقيل: هما مصدران للتكذيب، وإنَّما خفَّفها هاهنا لأنَّها ليست مقيَّدة بفعلٍ يصيرُ مصدراً له، وشدَّد قولَه: ﴿وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا﴾ لأنَّ «كذَّبوا» يقيِّدُ المصدرَ بالكِذَّاب.

﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ﴾ نصب على المصدر؛ لأنَّ المعنى: جزاهم بما تقدَّم ذكرُه جَزاءً، وكذلك ﴿عَطَآءً﴾ لأنَّ معنى أعطاهم وجزاهم واحد. أي: أعطاهم عطاء. ﴿حِسَابًا﴾ أي: كثيراً؛ قاله قتادة(٤)؛ يقال: أحسَبْتُ فلاناً، أي: كَثَّرتُ له العطاءَ حتى قال: حَسْبي؛ قال:

ونُقفي وليدَ الحيِّ إنْ كان جائعاً ... ونُحسِبُهُ إنْ كانَ ليس بجائعِ(٥)

---

(١) الصحاح (دهق)، وخبر عمر ﷺ أخرجه ابن أبي شيبة ١٣/ ٢٧٣، وذكره أبو عبيد في غريب الحديث ٣/ ٢٦٥.

(٢) سلف ٤/ ١٧.

(٣) السبعة ص٦٦٩، والتيسير ص٢١٩.

(٤) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٣٤٣، والطبري ٢٤/ ٤٤.

(٥) البيت لامرأة من بني نمير، أو هو لغنية أمِّ الهيثم، كما ذكر ابن دريد في الاشتقاق ص٧٤، ونسبه =

وقال القُتَبيُّ[١]: ونرى أصلَ هذا: أنْ يُعطيَه حتى يقولَ حَسْبي.

وقال الزجَّاج[٢]: «حِساباً»، أي: ما يكفيهم. وقاله الأخفش. يقال: أحْسَبني كذا: أي: كَفَاني.

وقال الكلبيُّ: حاسَبهم فأعطاهم بالحسنة عَشراً. مجاهد: حساباً لِمَا عملوا. فالحسابُ بمعنى العدِّ[٣]. أي: بقَدْرِ ما وَجْبَ له في وَعد الرَّبِّ؛ فإنَّه وَعَدَ للحسنة عَشراً، ووَعدَ لقومٍ بسبعِ مئةِ ضِعْفٍ، وقد وعد لقوم جزاءً لا نهايةَ له ولا مِقدار، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠][٤].

وقرأ أبو هاشم: «عَطَاء حَسَّاباً» بفتح الحاءِ وتشديدِ السين[٥]، على وزن فَعَّال، أي: كَفافاً؛ قال الأصمعيُّ: تقول العرب: حَسَّبْت الرجلَ بالتشديد: إذا أكرمته، وأنشد قولَ الشاعر:

إذا أتــاهُ ضــيــفُــه يُــحــسِّــبــهْ[٦]

وقرأ ابن عباس: «حساناً» بالنون[٧].

= صاحب اللسان (حسب) لامرأة من بني قشير، وهو دون نسبة في إصلاح المنطق ص٢٦٣ ، وأمالي القالي ٢/ ٢٥٤ و٢٦٢ ، وتفسير الغريب لابن قتيبة ص٥١٠ . قال السيرافي في شرح أبيات إصلاح المنطق ص٤١٦ : نُقفي من القَفِيَّة، وهو المدَّخر في البيت من المأكول، يقول: إن جاء صبي من صبيان الحي جائعاً أطعمناه من القفية. وقوله: ونُحسِبه، قال ابن السكيت: أي نكثر له ونعطيه حتى يقول: حَسْبُ.

(١) في تفسير الغريب ص٥١٠ .

(٢) في معاني القرآن ٥/ ٢٧٥ .

(٣) النكت والعيون ٦/ ١٨٩ ، وأخرجه عن مجاهد الطبري ٢٤/ ٤٤ .

(٤) تفسير الرازي ٣١/ ٢٢ .

(٥) المحتسب ٢/ ٣٤٩ ، والكشاف ٤/ ٢١٠ عن يزيد بن قطيب.

(٦) لم نقف عليه.

(٧) القراءات الشاذة ص١٦٩ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٢٨ ، والبحر ٨/ ٤١٥ ، وعندهم جميعاً: «عطاء حَسَناً».

قوله تعالى: ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴿٤٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ﴾: قرأ ابن مسعود ونافعٌ وأبو عمر وابنُ كثير، وزيدٌ عن يعقوب، والمفضَّلُ عن عاصم: «رَبُّ» بالرفع على الاستئناف، «الرحمنُ» خبرُه[١]. أو بمعنى: هو ربُّ السَّماواتِ، ويكون «الرحمن» مبتدأً ثانياً.

وقرأ ابن عامرٍ ويعقوبُ وابنُ مُحيصِنٍ كلاهما بالخفض، نعتاً لقوله: ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ﴾ أي: جزاءً من ربِّك ربِّ السَّماوات الرحمنِ[٢].

وقرأ ابن عباسٍ وعاصمٌ وحمزةُ والكسائيُّ: «رَبِّ السَّماوات» خفضاً على النعت، «الرحمنُ» رفعاً على الابتداء[٣]، أي: هو الرحمنُ. واختاره أبو عُبيد وقال: هذا أعْدَلُها، خفض «رَبِّ» لقُرْبه من قوله: «مِن رَبِّك» فيكون نعتاً له، ورفع «الرحمن» لبُعْدِه منه ـ على الاستئناف ـ وخبرُه ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ أي: لا يملكون أنْ يسألوه إلَّا فيما أذِن لهم فيه. وقال الكسائيُّ: «لا يملكون منه خطابًا» بالشفاعة إلَّا بإذنه.

وقيل: الخطابُ: الكلام، أي: لا يملكون أنْ يُخاطبوا الربَّ سبحانه إلَّا بإذْنه، دليلُه: ﴿لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [هود:١٠٥].

وقيل: أراد الكفار، أي[٤]: «لا يملِكُون منه خِطاباً»، فأمَّا المؤمنون فيَشفَعُون.

---

(١) وهي أيضاً قراءة أبي جعفر من العشرة، والمشهور عن عاصم ويعقوب بالخفض في كليهما، على ما يأتي.

(٢) وهي قراءة عاصم أيضاً.

(٣) السبعة ص٦٦٩، والتيسير ص٢١٩، والنشر ٢/٣٩٧ عن حمزة والكسائي وخلف، وسلف المشهور عن عاصم.

(٤) قوله: أي، ليس في (م).

قلت: بعد أن يُؤذَنَ لهم؛ لقوله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا﴾ [طه: ١٠٩].

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ صَفًّا﴾ «يومَ» نصب على الظَّرف، أي: لا يملِكون منه خطاباً يومَ يقومُ الروح، واختُلف في الروح على أقوالٍ ثمانيةٍ:

الأول: أنَّه مَلَكٌ من الملائكة. قال ابن عباس: ما خَلَق الله مخلوقاً بعدَ العرشِ أعظَمَ منه، فإذا كان يومُ القيامة قام هو وحده صفًّا، وقامت الملائكةُ كلُّهم صفًّا، فيكونُ عِظَمُ خَلقه مثلَ صفوفهم[1]. ونحوٌ منه عن ابن مسعود؛ قال: الروحُ ملكٌ أعظَمُ من السَّماوات السبع، ومن الأرضينَ السبع، ومن الجبال. وهو حِيَال السماءِ الرابعة، يُسبِّحُ الله كلَّ يوم اثنتي عَشرةَ ألفَ تسبيحةٍ، يخلُق الله من كلِّ تسبيحةٍ مَلَكاً، فيجيءُ يومَ القيامةِ وحدَه صفًّا، وسائر الملائكة صَفًّا[2].

الثاني: أنه جبريلُ عليه السلام. قاله الشَّعبيُّ والضحَّاك وسعيد بن جبير[3]. وعن ابن عباس: إنَّ عن يمين العرشِ نَهراً من نورٍ، مثلَ السماواتِ السبعِ، والأرضينَ السبعِ، والبحارِ السبع، يَدْخل جبريلُ كلَّ يومٍ فيه سَحراً فيغتسلُ، فيزدادُ نوراً على نوره، وجمالاً على جماله، وعظماً على عظمه، ثم ينتفضُ فيخلقُ الله من كلِّ قطرةٍ تقعُ من ريشه سبعين ألفَ مَلكٍ، يدخل منهم كلَّ يومٍ سبعون ألفاً البيتَ المعمور، والكعبةَ سبعون ألفاً، لا يعودُون إليهما إلى يوم القيامة[4].

وقال وَهْبٌ: إنَّ جبريلَ عليه السلام واقفٌ بين يدي الله تعالى ترعد فرائصُه، يخلقُ الله تعالى من كلِّ رَعدةٍ مئةَ ألفِ مَلَك، فالملائكةُ صفوفٌ بين يدي الله تعالى

(١) الوسيط ٤/٤١٧، وتفسير البغوي ٤/٤٤٠، وزاد المسير ٩/١٢، وأخرجه مختصراً الطبري ٢٤/٤٧.
(٢) أخرجه الطبري ٢٤/٤٦-٤٧. وقال ابن كثير عن تفسير هذه الآية: هذا قول غريب جدًّا.
(٣) تفسير الطبري ٢٤/٤٧، والنكت والعيون ٦/١٩٠.
(٤) سلف ١٢/٢٨٨-٢٨٩. ووقع في النسخ الخطية: لا يعودون إليه إلى...

منكَّسةٌ رؤوسُهم، فإذا أذن الله لهم في الكلام قالوا: لا إله إلا أنت، وهو قولُه تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ في الكلام ﴿وَقَالَ صَوَابًا﴾ يعني قولَ: لا إلهَ إلَّا الله.

الثالث: روى ابن عباس عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «الرُّوحُ في هذه الآيةِ جندٌ من جنود الله تعالى، ليسوا ملائكةً، لهم رُؤوسٌ وأيْدٍ وأرْجُلٌ، يأكلون الطعام». ثم قرأ: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا﴾، فإنَّ هؤلاء جُند، وهؤلاء جُند[1]. وهذا قولُ أبي صالح ومجاهد[2]. وعلى هذا هم خَلْقٌ على صورة بني آدمَ، كالناس وليسوا بناس.

الرابع: أنَّهم أشرافُ الملائكة؛ قاله مقاتل بن حَيَّان[3].

الخامس: أنهم حَفَظَةٌ على الملائكة؛ قاله ابن أبي نجيح[4].

السادس: أنهم بنو آدم؛ قاله الحسن وقتادة[5]. فالمعنى: ذَوو الروح.

وقال العَوْفيُّ والقُرَظيُّ: هذا ممّا كان يكتُمه ابن عباس[6]؛ قال: الرُّوح: خَلْقٌ من خَلْقِ الله على صُوَرِ بني آدمَ، وما نزَلَ مَلَكٌ من السماء إلَّا ومعه واحدٌ من الرُّوح[7].

السابع: أرواحُ بني آدمَ تقومُ صَفًّا، وتقومُ الملائكةُ صفًّا، وذلك بين النفختين، قبل أن تُرَدَّ إلى الأجساد؛ قاله عَطية[8].

---

(١) أخرجه أبو الشيخ في العظمة (٤١٢)، ونسبه السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٣٠٩ لابن أبي حاتم وابن مردويه. وذكره ابن كثير عن تفسير هذه الآية عن ابن عباس بنحوه موقوفاً.

(٢) تفسير عبد الرزاق ٢/ ٣٤٤، وتفسير الطبري ٢٤/ ٤٨.

(٣) أخرجه أبو الشيخ في العظمة (٤١٨).

(٤) النكت والعيون ٦/ ١٩٠.

(٥) تفسير الطبري ٢٤/ ٤٩، وأخرجه عن قتادة أيضاً عبد الرزاق ٢/ ٣٤٣.

(٦) أخرجه الطبري ٢٤/ ٤٩ عن قتادة.

(٧) أخرجه أبو الشيخ في العظمة (٤٠٦).

(٨) أخرجه الطبري ٢٤/ ٤٩ من طريق عطية عن ابن عباس.

الثامن: أنه القرآن؛ قاله زيد بن أسلم، وقرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ﴾ [الشورى: ٥٢][١].

و«صفًّا»: مصدر: أي: يقومون صُفوفاً. والمصدرُ يُنْبِئُ عن[٢] الواحدِ والجمع، كالعدل والصوم. ويقال ليوم العيد: يومُ الصَّفّ. وقال في موضع آخر: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر:٢٢] هذا يدلُّ على الصفوف، وهذا حينَ العرضِ والحساب. قال معناه القُتَبِيُّ[٣] وغيره.

وقيل: يقومُ الروحُ صفًّا، والملائكةُ صفًّا، فهم صفَّان. وقيل: يقوم الكلُّ صفًّا واحداً.

﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ﴾ أي: لا يشفعون ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ في الشفاعة ﴿وَقَالَ صَوَابًا﴾ يعني: حقاً؛ قاله الضحَّاك ومجاهد. وقال أبو صالح: لا إله إلا الله[٤]. وروى الضحَّاك عن ابن عباس قال: يَشفعون لمَن قال: لا إله إلا الله.

وأصلُ الصَّواب: السَّدَادُ من القول والفعل، وهو مِن أصاب يصيبُ إصابةً، كالجواب من أجاب يجيب إجابة.

وقيل: «لا يتكلَّمون» يعني الملائكة والرُّوح الذين قاموا صفًّا، لا يتكلَّمون هيبةً وإجلالاً «إلَّا مَن أذِنَ له الرحمنُ» في الشفاعة، وهم قد قالوا صواباً، وأنهم يوحِّدون الله ويسبِّحونه.

وقال الحسن: إنَّ الرُّوح يقول يومَ القيامة: لا يدخلُ أحدٌ الجنةَ إلَّا بالرحمة، ولا النار إلَّا بالعمل. فهو معنى قوله تعالى: ﴿وَقَالَ صَوَابًا﴾[٥].

---

(١) أخرجه الطبري ٢٤/ ٥٠ .

(٢) في (ظ) و(ي): يبنى على.

(٣) في تفسير غريب القرآن ص٥١١ .

(٤) تفسير الطبري ٢٤/٥١-٥٢ ، والنكت والعيون ٦/ ١٩٠ .

(٥) النكت والعيون ٦/ ١٩٠ .

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ﴾ أي: الكائنُ الواقع ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾ أي: مَرجِعاً بالعمل الصالح، كأنه إذا عَمِل خيراً ردَّه إلى الله عزَّ وجلَّ، وإذا عمل شرًّا عدَّه منه. ويَنْظُر إلى هذا المعنى قولُه عليه السلام: «والخيرُ كلُّه بيديك، والشرُّ ليس إليك»[(١)].

وقال قتادةُ: «مآباً»: سبيلاً[(٢)].

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾: يخاطِبُ كفارَ قريش ومشركي العربِ؛ لأنَّهم قالوا: لا نُبْعَثُ. والعذابُ عذابُ الآخرة، وكلُّ ما هو آتٍ فهو قريبٌ، وقد قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ [النازعات:٤٦] قال معناه الكلبيُّ وغيره. وقال قتادةُ: عقوبةُ الدنيا؛ لأنَّها أقربُ العذابين. قال مقاتل: هي قَتْلُ قريشٍ ببدْرٍ[(٣)].

والأظْهَرُ أنه عذابُ الآخرة، وهو الموتُ والقيامة؛ لأنَّ مَن مات فقد قامتْ قيامتُه، فإن كان من أهل الجنةِ رأى مقعدَه من الجنة، وإن كان من أهل النار رأى الخِزْيَ والهَوَانَ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ بيَّن وقتَ ذلك العذاب، أي: أنذرناكم عذاباً قريباً في ذلك اليوم، وهو يومَ ينظُرُ المرء ما قدمتْ يداه، أي: يراه. وقيل: ينظُر إلى ما قدَّمت، فحذف إلى.

والمرءُ هاهنا: المؤمنُ في قول الحسن[(٤)]، أي: يجدُ لنفسه عملاً، فأمَّا الكافرُ فلا يجد لنفسه عملاً، فيتمنَّى أن يكون تراباً، ولمَّا قال: ﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ﴾ عُلم أنه أرادَ بالمرءِ المؤمن.

وقيل: المرءُ هاهنا: أُبيّ بنُ خلف وعُقْبةُ بنُ أبي مُعَيط. «ويقول الكافِر»: أبو جهل.

---

(١) قطعة من حديث أخرجه مسلم (٧٧١) عن علي ﷺ، وسلف ٩/ ١٤٠ .

(٢) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٣٤٤ ، والطبري ٢٤/ ٥٣ .

(٣) النكت والعيون ٦/ ١٩١ .

(٤) أخرجه الطبري ٢٤/ ٥٤ .

وقيل: هو عامٌّ في كلِّ أحدٍ وإنسانٍ يَرَى في ذلك اليوم جزاءَ ما كَسَب.

وقال مُقاتل: نزلت قولُه: ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ في أبي سَلَمةَ بنِ عبد الأسَد المخزوميِّ، ﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِي كُنتُ تُرَٰبًا﴾ في أخيه الأسود بن عبد الأسد[١].

وقال الثعلبيُّ: سمعتُ أبا القاسم بن حبيب يقول: الكافرُ هاهنا إبليس، وذلك أنَّه عاب آدمَ بأنه خُلِق من تراب، وافْتخَر بأنه خُلق من نار، فإذا عايَنَ يومَ القيامةِ ما فيه آدمُ وبنوه من الثواب والراحة والرحمة، ورأى ما هو فيه من الشدة والعذاب، تمنَّى أنه يكونُ بمكانِ آدمَ، فيقول: «يا ليتني كنت ترابا» قال: ورأيتُه في بعض التفاسير للقُشَيريِّ أبي نصر، وقيل: أي يقول إبليسُ: يا ليتني خُلِقتُ من التراب ولم أَقُلْ: أنا خيرٌ من آدم.

وعن ابن عمر: إذا كان يومُ القيامة مُدَّتِ الأرضُ مَدَّ الأدِيم، وحُشِر الدَّوابُّ والبهائمُ والوحوش، ثم يوضعُ القِصاصُ بين البهائم، حتى يُقتَصّ للشاة الجمَّاء من الشاة القَرناء نَطَحتْها، فإذا فُرغ من القِصاص بينها قيل لها: كوني تراباً، فعند ذلك يقول الكافر: «يا ليتني كنتُ تراباً». ونحوه عن أبي هريرةَ وعبدِ الله بن عمرو بن العاص ﷺ[٢]. وقد ذكرناه في كتاب «التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة»، مُجوَّداً[٣]، والحمد لله.

ذكر أبو جعفر النَّحاس: حدَّثنا أحمد بن محمد بن نافع، قال: حدَّثنا سَلَمة بن شبيب، قال: حدثنا عبد الرزاق، قال: حدَّثنا مَعْمر، قال: أخبرني جعفر بن بُرقان الجَزَريُّ، عن يزيد بن الأصمِّ، عن أبي هريرة، قال: إنَّ الله تعالى يحشُر الخلقَ كلَّهم

---

(١) النكت والعيون ٦/ ١٩١ .

(٢) أخرجه عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما الطبري ٢٤/ ٥٤-٥٥ ، والحاكم ٤/ ٥٧٥ ، وذكره البغوي ٤/ ٤٤٠ ، وذكره عن ابن عمر ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٤٢٩ . وأخرجه عن أبي هريرة الطبري ٢٤/ ٥٥ ، وسيأتي نحوه عن أبي هريرة أيضاً. وينظر ما سلف ٨/ ٣٧٢ .

(٣) ص٢٧٣ .

من دابة وطائرٍ وإنسان، ثم يقال للبهائم والطير: كوني تراباً، فعند ذلك يقول الكافر: يا ليتني كنتُ تُراباً[١].

وقال قومٌ: «يا ليتني كنتُ تراباً» أي: لم أُبعَثْ، كما قال: ﴿يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٥].

وقال أبو الزِّناد: إذا قُضِي بين الناسِ، وأُمِر بأهل الجنة إلى الجنة، وأهلِ النار إلى النار، قيل لسائر الأمم [سوى ولدِ آدمَ] ولمؤمني الجنّ: عودوا تراباً، فيعودون تراباً، فعند ذلك يقول الكافر حين يراهم: «يا ليتني كنتُ تراباً»[٢]. وقال ليث بن أبي سليم: مؤمنو الجنِّ يعودون تراباً[٣]. وقال عمر بنُ عبد العزيز والزهريُّ والكلبيُّ ومجاهدٌ: مؤمنو الجِنَّةِ حولَ الجَنةِ في رَبَضٍ ورِحاب، وليسوا فيها. وهذا أصح، وقد مضى في سورة الرحمن بيانُ هذا، وأنَّهم مكلَّفون: يُثابُونَ ويُعاقَبون، فهم كبني آدمَ[٤]، واللهُ أعلمُ بالصواب.

---

(١) تفسير عبد الرزاق ٢/ ٣٤٤ ، وتفسير الطبري ٢٤/ ٥٥ .

(٢) تفسير الطبري ٢٤/ ٥٦ ، وما سلف بين حاصرتين منه، وأبو الزناد هو عبد الله بن ذكوان.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٤٤١ .

(٤) ينظر ٢٠/ ١٣٨ .

سورة النازعات

مَكِّية بإجماع. وهي خمسٌ أو ستٌّ وأربعون آية.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا ﴿٢﴾ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا ﴿٣﴾ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا ﴿٤﴾ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ﴿٥﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ ﴿٩﴾ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا﴾: أَقْسَمَ سبحانه بهذه الأشياء التي ذَكَرها على أنَّ القيامة حقٌّ. و«النازعاتِ»: الملائكةُ التي تَنزِعُ أرواحَ الكفار؛ قاله عليٌّ ﷺ[1]، وكذا قال ابن مسعود وابن عباس ومسروقٌ ومجاهدٌ: هي الملائكةُ تَنزِعُ نفوسَ بني آدم[2]. قال ابن مسعود: يريدُ أنفُسَ الكُفار يَنزِعُها ملكُ الموتِ من أجسادهم، مِن تحت كلِّ شعرةٍ، ومن تحت الأظافير وأصولِ القدمين، نَزْعاً كالسَّفُّود يُنزَعُ من الصُّوف الرَّطب، ثم يُغرِقُها، أي: يُرْجِعُها في أجسادهم، ثم ينزِعُها، فهذا عملُه بالكفار[3]. وقاله ابن عباس[4].

وقال سعيد بن جبير: نُزِعتْ أرواحُهم، ثم غُرِّقتْ، ثم حُرِقت؛ ثم قُذِفَ بها في النار. وقيل: يرى الكافر نفسَه في وقت النَّزعِ كأنَّها تغرق.

---

(١) زاد المسير ٩/ ١٤ ، وأخرجه سعيد بن منصور وابن المنذر، كما في الدر المنثور ٦/ ٣١٠ .

(٢) تفسير الطبري ٢٤/ ٥٧ والنكت والعيون ٦/ ١٩٢ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٣٠ .

(٣) ذكره بنحوه البغوي ٤/ ٤٤١ .

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم، كما ذكر ابن كثير عند تفسير هذه الآية، والسيوطي في الدر المنثور ٦/ ٣١٠ .

وقال السُّدِّيُّ: و«النازِعاتِ»: هي النفوسُ حين تَغرَق في الصدور.

مجاهد: هي الموتُ ينزعُ النفوس.

الحسن وقتادة: هي النجومُ تَنْزِع من أُفقٍ إلى أفق[١]، أي: تذهب، مِن قولهم: نَزَع إليه، أي: ذهب، أو من قولهم: نَزَعَت الخيل، أي: جرت. «غَرْقاً» أي: أنَّها تَغْرَقُ وتَغيبُ وتطلعُ من أفقٍ إلى أفقٍ آخرَ. وقاله أبو عُبيدةَ وابنُ كَيسان والأخفش[٢].

وقيل: النازعات القِسِيُّ تنزعُ بالسِّهام؛ قاله عطاءٌ وعِكرمة[٣]. و«غَرْقاً» بمعنى: إغراقاً، وإغراقُ النازع في القوس أنْ يبلغ غايةَ المدِّ، حتى ينتهيَ إلى النَّصْل. يقال: أغرقَ في القوس، أي: استَوْفى مدَّها، وذلك بأنْ تنتهي إلى العَقَب الذي عند النَّصلِ الملفوفِ عليه. والاستغراقُ: الاستيعاب. ويقال لقِشْرةِ البيضةِ الداخلةِ: «غِرقِئ»[٤].

وقيل: هم الغُزاة الرُّماة[٥].

قلت: هو والذي قَبلَه سواءٌ؛ لأنَّه إذا أقسَمَ بالقِسِيِّ فالمرادُ النَّازِعون بها تعظيماً لها، وهو مثلُ قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَـٰدِيَـٰتِ ضَبْحًا﴾ والله أعلم. وأراد بالإغراق: المبالغةَ في النَّزع، وهو سائغٌ في جميع وجوهِ تأويلها.

وقيل: هي الوحشُ تنزِعُ إلى الكلأ[٦] وتَنْفِرُ. حكاه يحيى بنُ سلام. ومعنى «غرقاً» أي: إبعاداً في النزع.

قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّـٰشِطَـٰتِ نَشْطًا﴾ قال ابن عباس: يعني الملائكةَ تَنْشِطُ نفسَ المؤمنِ

---

(١) أخرج هذه الأقوال الطبري ٢٤/ ٥٨-٥٩ .

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٤٣٠ ، وقول أبي عبيدة في مجاز القرآن ٢/ ٢٨٤ .

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٤٣٠ ، وتفسير البغوي ٤/ ٤٤١ ، وأخرجه الطبري ٢٤/ ٥٩ عن عطاء.

(٤) وهي القشرة الرقيقة الملتزقة ببياض البيض. المعجم الوسيط (غرق).

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٤٤١ .

(٦) في (د) و(م) و(ي): من الكلأ، وكذا وقع في النكت والعيون ٦/ ١٩٢ والكلام منه، وفي (ظ): بين الكلأ، والمثبت من البحر ٨/ ٤١٩ ، وروح المعاني ٣٠/ ٢٥ .

فتقبضُها، كما يُنشَط العِقالُ من يد البعير إذا حُلَّ عنه. وحكى هذا القولَ الفرَّاءُ ثم قال: والذي سمعتُ من العرب أنْ يقولوا: أنْشَطْتُ، وكأنَّما أُنشِطَ من عِقال. وربَطها: نَشَطها، والرابط: الناشِط، وإذا رَبَطْتَ الحبلَ في يد البعير فقد نشَطْتَه، فأنت ناشطٌ، وإذا حَلَلْته فقد أنْشَطْتَه، وأنت مُنشِط[(١)].

وعن ابن عباس أيضاً: هي أنفُسُ المؤمنين عند الموتِ تَنْشطُ للخروج، وذلك أنَّه ما مِن مؤمنٍ إلاَّ وتُعرَضُ عليه الجنةُ قبل أن يموت، فيرى فيها ما أعدَّ الله له من أزواجه وأهله من الحور العين، فهم يَدْعونه إليها، فنفْسُه إليهم نشِطَةٌ أن تخرج فتأتيهم[(٢)].

وعنه أيضاً قال: يعني أنفسَ الكفارِ والمنافقين تُنْشَطُ كما يُنشَط العقَبُ الذي يُعْقَبُ به السهم. والعقَبُ بالتحريك: العَصَبُ الذي تُعمل منه الأوتار، الواحدةُ عَقَبة؛ تقول منه: عَقَبَ السهمَ والقدحَ والقوسَ عَقْباً: إذا لوى شيئاً منه عليه[(٣)]. والنَّشْطُ: الجَذْبُ بسرعة، ومنه الأنشوطةُ: عقدةٌ يسَهُلُ انحِلالُها إذا جُذِبتْ مثل عُقدة التكَّة. وقال أبو زيد: نَشَطْتُ الحبلَ أنشُطه نَشطاً: عَقَدتُه بأُنشوطةٍ. وأنشَطْتُه، أي: حَلَلْته، وأنشطْتُ الحبلَ[(٤)]، أي: مَدَدْتُه حتى يَنحلَّ. وقال الفرَّاء: أُنشِطَ العقالُ، أي: حُلَّ، ونُشِط أي: رُبِطَ الحبلُ في يديه[(٥)].

وقال الليث[(٦)]: أنشطْتُه بأُنشوطة وأُنشوطتين، أي: أوثقته، وأنشطتُ العِقال: أي: مددتُ أُنشوطَته فانحلَّتْ. قال: ويقال: نَشَطَ بمعنى أنشَط، لغتان بمعنى. وعليه

(١) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٣٠، وتفسير الطبري ٢٤/ ٥٩-٦٠.

(٢) ذكره البغوي ٤/ ٤٤١، والطبرسي في مجمع البيان ٣٠/ ٢١.

(٣) الصحاح (عقب).

(٤) في الصحاح (نشط) والكلام منه: وانتشطت الحبل، وكلاهما صواب كما في كتاب العين ٦/ ٢٣٣.

(٥) سلف قول الفراء قريباً.

(٦) بنحوه في العين ٦/ ٢٣٢.

يصحُّ قولُ ابنِ عباس المذكورُ أوَّلاً.

وعنه أيضاً: الناشطاتُ: الملائكةُ؛ لنشاطها، تذهبُ وتَجيءُ بأمرِ الله حيثُما كان.

وعنه أيضاً وعن عليٍّ رضي الله عنهما: هي الملائكةُ تَنْشطُ أرواحَ الكفار، ما بين الجِلْدِ والأظفارِ، حتى تُخْرِجَها من أجوافهم، نشطاً بالكَرْب والغم[١]، كما يُنشَط الصوفُ من سَفُّود الحديد. وهي من النَّشط بمعنى الجَذْبِ، يقال: نَشَطْتُ الدَّلْوَ، أنشِطُها بالكسر، وأنشُطها بالضم: أي: نزعتها. قال الأصمعيُّ: بئرٌ أنشاطٌ: أي: قريبةُ القَعْرِ، تخرجُ الدَّلْوُ منها بجذبةٍ واحدة. وبئرٌ نشوطٌ، قال: وهي التي لا يخرجُ منها الدلوُ حتى تُنشَطَ كثيراً[٢].

وقال مجاهد: هو الموتُ يَنشِطُ نفسَ الإنسان.

السُّدِّيُّ: هي النفوسُ حين تُنشَطُ من القدمين[٣].

وقيل: النازعاتُ: أيْدي الغُزاةِ أو أنفسُهم، تنزع القِسِيَّ بإغراق السهام، والتي تَنشِطُ الأوهاق[٤].

عِكرمةُ وعطاءٌ: هي الأوهاقُ تَنشِط البهائم[٥].

وعن عطاء أيضاً وقتادةُ والحسنُ والأخفشُ: هي النجومُ تَنشِطُ من أُفقٍ إلى أُفق،

---

(١) ذكره عن علي ﷺ البغوي ٤/ ٤٤٢، وأخرجه عنه سعيد بن منصور وابن المنذر كما في الدر المنثور ٦/ ٣١٠.

(٢) الصحاح (نشط).

(٣) تفسير الطبري ٢٤/ ٦٠، والنكت والعيون ٦/ ١٩٣.

(٤) في (م): وهي التي تنشط الأوهاق، والمثبت من النسخ الخطية، والكشاف ٤/ ٢١٢ والكلام منه. وقد سلف نحو هذا القول قريباً. والأوهاق جمع وَهَق، وهو الحبل في أحد طرفيه أنشوطة يُطرح في عنق الدابة والإنسان حتى يؤخذ. المعجم الوسيط (وهق).

(٥) في النسخ عدا (ظ): السهام، والمثبت من (ظ). وأخرج هذا القول عن عطاء الطبري ٢٤/ ٦١ دون قوله: تنشط البهائم. وكذا أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر كما في الدر المنثور ٦/ ٣١١.

أي: تذهبُ[١]. وكذا في «الصِّحَاحِ»: «وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا» يعني النجومَ [تَنْشِطُ] من بُرْجٍ إلى برج، كالثورِ الناشِطِ من بلدٍ إلى بلدٍ. والهمومُ تَنشِطُ بصاحبها؛ قال هِمْيان ابنُ قُحافةَ:

أمْسَتْ همومي تَنْشِطُ المَنَاشِطَا   الشامَ بي طَوراً وطَوْراً واسِطَا[٢]

أبو عبيدَة وعطاءٌ أيضاً: الناشطاتُ: هي الوحشُ حين تنشِطُ من بلد إلى بلد، كما أنَّ الهمومَ تنشِطُ الإنسانَ من بلد إلى بلد؛ وأنشد قول هِميان: أمْسَتْ هُمومي، البيت[٣].

وقيل: «والنازِعاتِ» للكافرين «والناشِطاتِ» للمؤمنين، فالملائكةُ يجذبون رُوح المؤمنِ برِفْقٍ، والنزعُ: جذبٌ بشدةٍ، والنَّشطُ: جذبٌ بِرفْقٍ. وقيل: هما جميعاً للكفار، والآيتان بعدهما للمؤمنين عند فراق الدنيا.

قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا﴾ قال عليٌّ ﷺ: هي الملائكةُ تَسْبَحُ بأرواح المؤمنين[٤].

الكلبيُّ: هي الملائكةُ تقبضُ أرواحَ المؤمنين، كالذي يسبحُ في الماء، فأحياناً يَنْغَمِسُ، وأحياناً يرتفع، يَسلُّونها سَلًّا رفيقاً بسهولة، ثم يَدَعونها حتى تَسْتَريح[٥].

وقال مجاهد وأبو صالح: هي الملائكةُ ينزلون من السماء مُسْرِعين لأمر الله،

---

(١) تفسير الطبري ٢٤/ ٦١، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٣٠، وتفسير البغوي ٤/ ٤٤٢، وزاد المسير ٩/ ١٦.

(٢) الصحاح (نشط)، وما سلف بين حاصرتين منه، والبيت في مجاز القرآن ٢/ ٢٨٤، وتفسير الطبري ٢٤/ ٦٢، وتهذيب اللغة ١١/ ٣١٤، والنكت والعيون ٦/ ١٩٣، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٣٠. وهميان ابن قحافة هو أحد بني عُوافة بن سعد بن زيد مناة بن تميم، ويقال: أحد بني عامر بن عبيد بن الحارث، راجز مُخْضرم إسلامي، وكان في الدولة الأموية. المؤتلف والمختلف للآمدي ص٣٠٤.

(٣) النكت والعيون ٦/ ١٩٣ عن أبي عبيدة، وهو بنحوه في مجاز القرآن ٢/ ٢٨٤، وذكره عن عطاء ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٤٣٠. وذكر الطبري ٢٤/ ٦١-٦٢ جميع هذه الأقوال ثم قال: فكلُّ ناشطٍ فداخِلٌ فيما أقسم به، إلا أن تقوم حجة يجب التسليم لها بأن المعنيَّ بالقَسم من ذلك بعضٌ دون بعض.

(٤) أخرجه سعيد بن منصور وابن المنذر كما في الدر المنثور ٦/ ٣١٠.

(٥) زاد المسير ٩/ ١٦.

كما يقال للفرس الجواد: سابح، إذا أسرعَ في جَرْيه[١]. وعن مجاهد أيضاً: الملائكةُ تَسْبحُ في نزولها وصُعودها[٢].

وعنه أيضاً: السابحات: الموتُ يَسْبحُ في أنفُسِ بني آدم[٣].

وقيل: هي الخيلُ الغُزاةُ؛ قال عنترة:

والخيلُ تعلَمُ حين تَسْـ ... ـبَحُ في حِياضِ الموتِ سَبْحا[٤]

وقال امرؤُ القيس:

مِسَحٌّ إذا ما السَّابحاتُ على الوَنَى ... أثَرْنَ غُباراً بالكَدِيد المُرَكَّلِ[٥]

قتادةُ والحسن: هي النجومُ تَسْبَحُ في أفلاكها، وكذا الشمسُ والقمر؛ قال الله تعالى: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠][٦].

عطاء: هي السُّفن تَسْبحُ في الماء[٧].

ابن عباس: السابحاتُ: أرواحُ المؤمنين تسبحُ شوقاً إلى لقاء الله ورحمته حين تخرج[٨].

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٤٤٢ ، وزاد المسير ٩/ ١٦ ، وأخرجه عن مجاهد الطبري ٢٤/ ٦٢-٦٣ .

(٢) ذكر الطبري ٢٤/ ٦٣ هذا القول مع الذي قبله على أنهما قول واحد، ولم يفرق بينهما.

(٣) النكت والعيون ٦/ ١٩٣ ، وزاد المسير ٩/ ١٦ ، وأخرجه الطبري ٢٤/ ٦٢ .

(٤) النكت والعيون ٩/ ١٩٣ ، ولم نقف على البيت في المطبوع من ديوان عنترة، وذكر القول دون البيت البغوي ٤/ ٤٤٢ .

(٥) ديوان امرئ القيس ص٢٠ . قال النحاس في شرح المعلقات ١/ ٣٧ : المِسَحُّ: الكثير الجَرْي. والسابحات: السريعات. والوَنى: الفتور. والكديد: المكان الغليظ. والمركَّل: الذي أثَّرت فيه بحوافرها. ومعنى البيت: أن الخيل السريعات إذا فترت وأثارت الغبار بأرجلها من التعب، جرى هذا الفرس جَرْياً سهلاً كما تَسِحُّ السحابُ المطرَ.

(٦) النكت والعيون ٦/ ١٩٣ ، وتفسير البغوي ٤/ ٤٤٢ . وأخرجه عن عطاء الطبري ٢٤/ ٦٣ ، وعن الحسن أخرجه ابن المنذر كما في الدر المنثور ٦/ ٣١١ .

(٧) النكت والعيون ٦/ ١٩٣ ، وأخرجه الطبري ٢٤/ ٦٣ .

(٨) أخرجه جويبر في تفسيره، كما ذكر السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٣١٠ .

قوله تعالى: ﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا﴾ قال عليٌّ ﷺ: هي الملائكةُ تَسْبِقُ الشياطين بالوحي إلى الأنبياء عليهم السلام. وقاله مسروقٌ ومجاهد.

وعن مجاهدٍ أيضاً وأبي رَوْق: هي الملائكةُ سبقَتْ ابنَ آدمَ بالخير والعمل الصالح. وقيل: تسبقُ بني آدمَ إلى العمل الصالح فتكتُبه.

وعن مجاهد أيضاً: الموتُ يسبقُ الإنسان.

مقاتل: هي الملائكة تسبقُ بأرواح المؤمنين إلى الجنة.

ابن مسعود: هي أنفُسُ المؤمنين تسبقُ إلى الملائكة الذين يَقْبضونها وقد عايَنَتِ السرور، شوقاً إلى لقاء الله تعالى ورحمته. ونحوه عن الربيع، قال: هي النفوسُ تسبقُ بالخروج عند الموت.

وقال قتادةُ والحسن ومعمر: هي النجومُ يسبقُ بعضُها بعضاً في السير.

عطاء: هي الخيلُ التي تسبقُ إلى الجهاد[١].

وقيل: يحتملُ أن تكون السابقاتُ ما يسبقُ من الأرواح قَبْلَ الأجسادِ إلى جنةٍ أو نار؛ قاله الماوَرْديّ[٢].

وقال الجُرجانيُّ: ذَكَر «فالسابقات» بالفاء لأنَّها مشتقَّةٌ من التي قبلها، أي: واللَّائي يَسبَحْنَ فيَسْبِقْنَ، تقول: قام فذهب؛ فهذا يوجبُ أن يكون القيامُ سبباً للذهاب، ولو قلتَ: قام وذهب، لم يكن القيامُ سبباً للذهاب.

قوله تعالى: ﴿فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا﴾ قال القُشَيريُّ: أجمعوا على أنَّ المرادَ الملائكة.

وقال الماوَرْديُّ[٣]: فيه قولان: أحدُهما: الملائكة؛ قاله الجمهور. والقول

---

(١) تنظر هذه الأقوال في تفسير الطبري ٢٤/ ٦٤، والنكت والعيون ٦/ ١٩٣، وتفسير البغوي ٤/ ٤٤٢، وزاد المسير ٩/ ١٧.

(٢) في النكت والعيون ٦/ ١٩٤.

(٣) المصدر السابق.

الثاني: هي الكواكبُ السبعةُ؛ حكاه خالد مَعْدان عن مُعاذ بن جبل.

وفي تدبيرها الأمرَ وجهان: أحدُهما: تدبيرُ طُلوعِها وأُفولها. الثاني تدبيرُ ما قضاه الله تعالى فيها من تقلُّب الأحوال. وحكى هذا القولَ أيضاً القُشيريُّ في تفسيره، وأنَّ الله تعالى علَّق كثيراً من تدبير أمرِ العالَمِ بحركاتِ النجوم، فأُضيفَ التدبيرُ إليها وإن كان من الله، كما يسمَّى الشيءُ باسمِ ما يُجاوِرُه.

وعلى أنَّ المرادَ بالمدبِّرات الملائكةُ، فتدبيرُها: نزولُها بالحلالِ والحرام وتَفصيلِهِ؛ قاله ابن عباس وقتادةُ وغيرهما[١]. وهو إلى الله جل ثناؤه، ولكنْ لمَّا نزلت الملائكةُ به سمِّيتْ بذلك، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٣] وكما قال تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [البقرة: ٩٧] يعني جبريل، نزَّله على قلبِ محمدٍ ﷺ، واللهُ عزَّ وجلَّ هو الذي أنزله.

وروى عطاءٌ عن ابن عباس: «فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا»: الملائكةُ وُكِّلتْ بتدبيرِ أحوالِ الأرضِ في الرياح والأمطار وغيرِ ذلك. قال عبد الرحمن بنُ سابِطٍ: تدبيرُ أمرِ الدنيا إلى أربعةٍ؛ جبريلُ وميكائيلُ وملكُ الموتِ ـ واسمُه عزرائيل ـ وإسرافيلُ. فأمَّا جبريلُ فموكَّلٌ بالرياح والجنود، وأما ميكائيل فموكَّلٌ بالقَطْرِ والنبات، وأمَّا ملكُ الموتِ فموكَّلٌ بقبضِ الأنفسِ في البرِّ والبحر، وأما إسرافيلُ فهو ينزل بالأمر عليهم[٢]. وليس من الملائكة أقربُ من إسرافيل[٣]، وبينه وبين العرشِ مسيرةُ خمسِ مئةِ عامٍ.

وقيل: أي: وُكِّلوا بأمورٍ عرَّفهم الله بها[٤].

ومن أوَّلِ السورةِ إلى هنا قَسَمٌ أقسمَ الله به، ولله أن يُقْسِمَ بما شاء مِن خَلْقِه،

(١) ذكره الفراء في معاني القرآن ٣/ ٢٣٠ دون نسبة.

(٢) سلف ١٧/ ٨ .

(٣) قطعة من خبر أخرجه أبو الشيخ في العظمة (٣٩٥) عن وهيب بن عروة قال: بلغني أن أقرب الخلق من الله عز وجل إسرافيل...

(٤) ذكره الواحدي في الوسيط ٤/ ٤١٩ ، والبغوي ٤/ ٤٤٢ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وليس لنا ذلك إلَّا به عزَّ وجلّ. وجوابُ القسمِ مُضمَرٌ، كأنه قال: والنازِعاتِ وكذا وكذا لَتُبعثُنَّ ولتحاسَبُنَ. أُضْمِرَ لمعرفةِ السامِعينَ بالمعنى؛ قاله الفراء[1]. ويدلُّ عليه قولُه تعالى: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا نَّخِرَةً﴾ ألَسْتَ تَرى أنه كالجواب لقولهم: «أئِذا كنَّا عِظاماً نَخِرةً» نُبعَث؟ فاكتفى بقوله: «أئِذا كنَّا عِظاماً نَخِرةً».

وقال قومٌ: وقع القسمُ على قوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾ وهذا اختيارُ التِّرمذيّ ابن عليٍّ. أي: فيما قصصتُ مِن ذِكرِ يومِ القيامةِ، وذِكْرِ موسى وفرعونَ «لعِبرةً لِمن يخشى».

ولكنَّ وَقْعَ القسمِ على ما في السورة مذكوراً ظاهراً بارزاً أحرى وأقْمنُ مِن أنْ يُؤتَى بشيءٍ ليس بمذكورٍ فيها، قال ابن الأنباريّ: وهذا قبيح؛ لأنَّ الكلامَ قد طال فيما بينهما.

وقيل: جوابُ القسمِ: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾ لأنَّ المعنى: قد أتاك[2].

وقيل: الجوابُ ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ﴾ على تقدير: لَيوم ترجُف، فحذف اللام[3].

وقيل: فيه تقديمٌ وتأخيرٌ، وتقديرُه: يومَ ترجُف الراجفةُ وتَتْبَعها الرادفةُ والنازعاتِ غرقاً[4].

وقال السِّجِسْتانيُّ: يجوزُ أن يكون هذا من التقديم والتأخير، كأنه قال: فإذا هم بالساهرة والنازعاتِ. ابن الأنباريِّ: وهذا خطأٌ؛ لأنَّ الفاء لا يُفتَحُ بها الكلام، والأوّلُ الوَجْهُ.

وقيل: إنَّما وقع القسمُ على أنَّ قلوبَ أهل النار تجفُّ، وأبصارهم تخشعُ،

---

(١) في معاني القرآن ٣/ ٢٣٠-٢٣١ .

(٢) ذكره أبو حيان في البحر ٨/ ٤٢٠ وقال: ليس بشيء.

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٤٣١ .

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٤٤٢ .

فانتصابُ «يومَ ترجُف الراجفة» على هذا المعنى، ولكن لم يقع عليه. قال الزجّاج[١]: أي: قلوبٌ واجفةٌ يومَ تَرْجُف. وقيل: انتَصَبَ بإضمارِ: اذْكُر.

و«ترجُف» أي: تَضْطَرِبُ. و«الراجفة» أي: المُضطَرِبة، كذا قال عبد الرحمن بن زيد؛ قال: هي الأرضُ، والرادِفةُ: الساعة[٢].

مجاهد: الراجفةُ: الزلزلة، ﴿تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ﴾ الصيْحة.

وعنه أيضاً وابن عباس والحسن وقتادة: هما الصيحتان. أي: النفختان. أمَّا الأُولى فتُمِيتُ كلَّ شيءٍ بإذن الله تعالى، وأمَّا الثانيةُ فتُحيي كلَّ شيءٍ بإذن الله تعالى[٣]. وجاء في الحديث عن النبيِّ ﷺ قال: «بينهما أربعون سنة»[٤].

وقال مجاهد أيضاً: الرادفةُ حين تنشقُّ السماء، وتُحملُ الأرضُ والجبال فتدَكُّ دكَّةً واحدة، وذلك بعد الزلزلة[٥].

وقيل: الراجفةُ تحرُّكُ الأرض، والرادفةُ: زلزلةٌ أخرى تُفني الأرضين. فالله أعلم. وقد مضى في آخرِ «النمل» ما فيه كفايةٌ في النفخ في الصور[٦].

وأصلُ الرجفةِ الحركة، قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ﴾ [المزمل:١٤] وليست الرجفةُ هاهنا من الحركة فقط، بل من قولهم: رجَف الرعدُ يرجُف رَجْفاً ورَجيفاً، أي: أظْهَر الصوتَ والحركة، ومنه سمِّيت الأراجيفُ؛ لاضطراب الأصوات بها، وإفاضةِ الناس فيها؛ قال:

---

(١) في معاني القرآن ٥/ ٢٧٨ .

(٢) أخرجه الطبري ٢٤/ ٦٨ .

(٣) أخرجه الطبري ٢٤/ ٦٥-٦٦ عن ابن عباس والحسن وقتادة.

(٤) سلف ١٦/ ٢١٨ .

(٥) أخرجه الطبري بنحوه ٢٤/ ٦٧ .

(٦) ١٦: ٢١٨ فما بعد .

أبالأراجيفِ يا ابنَ اللؤمِ تُوعِدني وفي الأراجيفِ خِلتُ اللؤمَ والخوَرَا[١]

وعن أُبيّ بن كعبٍ: أنَّ رسول الله ﷺ كان إذا ذهب ربعُ الليلِ قام ثم قال: «يا أيها الناسُ، اذكُروا الله، جاءتِ الرّاجِفةُ تَتبعُها الرَّادِفةُ، جاء الموتُ بما فيه»[٢].

﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾ أي: خائفةٌ وَجِلَةٌ؛ قاله ابنُ عباس، وعليه عامَّةُ المفسّرين[٣]. وقال السُّدِّيُّ: زائلةٌ عن أماكنها، نظيرهُ: ﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ﴾ [غافر:١٨][٤]. وقال المؤرِّج: قلقة مُستوفِزة، مُرْتكِضَةٌ غيرُ ساكنة[٥]. وقال المبرد: مضطربةٌ. والمعنى متقارب.

والمرادُ قلوبُ الكفارِ؛ يقال: وجَفَ القلبُ يجِفُ وجِيفاً: إذا خَفَقَ، كما يقال: وجَب يَجِب وَجيباً، ومنه: وَجيفُ الفرسِ والناقةِ في العَدْو، والإيجافُ: حَملُ الدابّةِ على السَّيرِ السريع، قال:

بُدِّلْنَ بعد جِرَّةٍ صَريفَا وبعد طولِ النَّفَسِ الوجِيفَا[٦]

و«قلوبٌ» رفع بالابتداء، و«واجِفةٌ» صفتُها، و﴿أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ﴾ خبرُها، مثل قوله: ﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ﴾ [البقرة:٢٢١] ومعنى «خاشِعة»: مُنْكَسِرة ذليلة من هَوْلِ ما ترى، نظيره: ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ [القلم:٤٣][٧]. والمعنى: أبصارُ

---

(١) ١٧/ ٢٣٤.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٤٣١، وأخرجه بنحوه أحمد (٢١٢٤١)، والترمذي (٢٤٥٧).

(٣) تفسير الطبري ٢٤/ ٦٩.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٤٤٣.

(٥) تفسير الرازي ٣١/ ٣٤، وقوله: مرتكضة، أي: مضطربة، في القاموس (ركض): ارتكض: اضطرب.

(٦) ذكرهما بهذا اللفظ الطبري ١٧/ ٥١٩ ضمن خبر عن ابن عباس رضي الله عنهما. وقائلهما لبيد، وهما في ديوانه ص٣٥١ برواية:

يدُلْن بعد النَّفَش الوجيفا وبعد طول الخبرة الصريفا

الجرة: ما يفيض به البعير فيأكله ثانية، واللقمة يتعلل بها البعير إلى وقت علفه. والصريف: صرير ناب البعير، القاموس (جرر) و(صرف).

(٧) الكشاف ٤/ ٢٠٢

أصحابِها، فحذف المضاف.

﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي ٱلْحَافِرَةِ﴾ أي: يقولُ هؤلاء المكذِّبون المنكِرون للبعث، إذا قيل لهم: إنكم تُبعثون، قالوا مُنكِرين متعجِّبين: أنردُّ بعد موتنا إلى أولِ الأمر، فنعودَ أحياءً كما كنَّا قبل الموت؟ وهو كقولهم: ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ [الإسراء: ٤٩] يقال: رجع فلانٌ في حافِرته، وعلى حافرته، أي: رجع مِن حيثُ جاء؛ قاله قتادة(١). وأنشد ابن الأعرابيّ:

أحافِرةً على صَلَعٍ وشَيبٍ مَعَاذَ اللهِ مِن سَفَهٍ وعارِ(٢)

يقول: أأَرْجِعُ إلى ما كنتُ عليه في شبابي من الغَزَل والصِّبا بعد أن شِبْتُ وصَلِعت! ويقال: رجع على حافرته، أي: الطَّريقِ الذي جاء منه. وقولُهم في المثل: النقدُ عند الحافرة. قال يعقوب: أي عند أوَّلِ كلمة. ويقال: التقى القومُ فاقتتلوا عند الحافرة، أي: عند أولِ ما التقَوْا(٣).

وقيل: الحافرةُ: العاجلة، أي: أئنَّا لمردودون إلى الدنيا فنَصِيرَ أحياءً كما كنَّا؟ قال الشاعر:

آلَيْتُ لا أنساكُمُ فاعلَمُوا حَتى يُردَّ الناسُ في الحافِرهْ(٤)

وقيل: الحافرة: الأرضُ التي تُحفَر فيها قبورُهم، فهي بمعنى المحفورة، كقوله

---

(١) بنحوه في تفسير الطبري ٢٤/ ٧١.

(٢) أدب الكاتب ص٤١٥، وإصلاح المنطق ص٣٢٧، وأمالي القالي ١/ ٢٧، والصحاح (حفر). قال البَطَلْيَوْسي في الاقتضاب ص٣٩٤: هذا البيت لا أعلم قائله. اهـ. ونصب حافرة على أنه اسم في معنى المصدر أقيم مقامه، والتقدير: أرُجوعاً إلى أول أمري، يريد: أأرجع رجوعاً، فحذف الفعل واكتفى بمصدره. شرح أبيات إصلاح المنطق للسيرافي ص٤٦٧.

(٣) الصحاح (حفر) وقول يعقوب (وهو ابن السكيت) في إصلاح المنطق ص٣٢٧. وقولهم: النقد عند الحافرة، هو لما يباع نقداً، وأصله من بيع الفرس؛ كان يقال: لا يزول حافره حتى ينقد ثمنه. مفردات الراغب (حفر)، وعمدة الحفاظ ١/ ٦٩٥.

(٤) ذكره أبو حيان في البحر ٨/ ٤٢٠، والسمين في الدر المصون ١٠/ ٦٧١.

تعالى: ﴿مَّآءٍ دَافِقٍ﴾ [الطارق: ٦] و﴿عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٢١]. والمعنى: أئنا لمردودون في قبورنا أحياء. قاله مجاهدٌ والخليلُ والفرَّاء[١].

وقيل: سمِّيت الأرضُ الحافرة؛ لأنَّها مستَقَرُّ الحوافر، كما سمِّيت القدمُ أرضاً؛ لأنها على الأرض. والمعنى: أئنَّا لراجِعون بعد الموت إلى الأرض فنمشي على أقدامنا.

وقال ابن زيد: الحافرة: النار، وقرأ: ﴿تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾[٢]. وقال مقاتلٌ وزيد بن أسلم: هي اسمٌ من أسماء النار.

وقال ابن عباس: الحافِرة في كلام العرب: الدنيا[٣].

وقرأ أبو حَيوةَ: «الحَفِرة» بغير ألف[٤]، مقصورٌ من الحافر، وقيل: الحفِرة: الأرضُ المُنتِنةُ بأجسادِ مَوْتاها، من قولهم: حَفِرتْ أسنانُه، إذا ركبها الوسخُ من ظاهرها وباطنها[٥]. يقال: في أسنانه حَفْر، وقد حَفَرت تحفِر حَفْراً، مثل كَسَر يَكسِر كسْراً، إذا فَسَدتْ أصولُها. وبنو أَسدٍ يقولون: في أسنانه حَفَرٌ ـ بالتحريك ـ وقد حَفِرت، مثال: تعِبَ تَعَباً، وهي أردأُ اللغتين؛ قاله في «الصحاح»[٦].

﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً﴾ أي: بالية متفتِّتةً. يقال: نَخِرَ العظمُ بالكسر، أي: بَلِيَ وتَفتَّتَ؛ يقال: عظام نخِرة. وكذا قرأ الجمهورُ من أهلِ المدينة ومكةَ والشام والبصرة[٧]، واختاره أبو عُبيد؛ لأنَّ الآثار التي تُذكَر فيها العظام، نظَرْنا فيها

---

(١) في معاني القرآن ٣/ ٢٣٢ ، وذكره عن مجاهد والخليل ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٤٣٢ ، وأخرجه بنحوه عن مجاهد الطبري ٢٤/ ٧١ .

(٢) أخرجه الطبري ٢٤/ ٧١-٧٢ .

(٣) لم نقف عليه بهذا اللفظ، وأخرج الطبري ٢٤/ ٧٠ عن ابن عباس ﷺ، قال: الحافرة: الحياة.

(٤) القراءات الشاذة ص١٦٨ ، والمحتسب ٢/ ٣٥٠ .

(٥) المحتسب ٢/ ٣٥٠ .

(٦) مادة (حفر).

(٧) قرأ بها من السبعة ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر وحفص. السبعة ص٦٧٠ ، والتيسير ص٢١٩ .

فرأينا نخِرة لا ناخرة.

وقرأ أبو عمرو وابنُه عبد الله وابن عباس وابن مسعود وابن الزبير وحمزةُ والكسائيُّ وأبو بكر: «ناخِرةً» بألفٍ[١]، واختاره الفرَّاء والطبريُّ وأبو معاذٍ النحويُّ؛ لِوفاق رؤوسِ الآي[٢]. وفي «الصحاح»: والناخِرُ من العظام: الذي تدخلُ الريحُ فيه ثم تخرج منه ولها نَخِير. ويقال: ما بها ناخِرٌ، أي: ما بها أحدٌ. حكاه يعقوبُ عن الباهليِّ[٣]. وقال أبو عمرو بن العلاء: الناخِرةُ: التي لم تنخر بعد، أي: لم تَبْلَ، ولابدَّ أن تنخر[٤]. وقيل الناخرة: المُجوَّفة[٥].

وقيل: هما لغتان بمعنى، كذلك تقول العرب: نَخِرَ الشيءُ فهو نَخِرٌ وناخِر، كقولهم: طَمِعَ فهو طَمِعٌ وطامِع، وحَذِرٌ وحاذِر، وبَخِلٌ وباخِل، وفَرِه وفارِه[٦]؛ قال الشاعر:

يظَلُّ بها الشيخُ الذي كان بادِناً ... يَدِبُّ على عُوجٍ له نَخِراتِ[٧]

عُوج: يعني قوائم.

وفي بعض التفسير: ناخِرة بالألف: بالِية، ونَخِرة: تَنخُرُ فيها الريح[٨]، أي تمرُّ

(١) السبعة ص٦٧٠، والتيسير ص٢١٩، وإعراب القرآن للنحاس ٥/ ١٤٢، دون ذكر أبي عمرو وابنه، والمشهور عن أبي عمرو: «نخرة»، كما في التعليق السابق.

(٢) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٣١، وتفسير الطبري ٢٤/ ٧٢.

(٣) الصحاح (نخر).

(٤) بنحوه في المحرر الوجيز ٥/ ٤٣٢.

(٥) ذكره الفراء في معاني القرآن ٣/ ٢٣٢ عن بعض المفسرين أنه قال: النخرة: البالية، والناخرة: العظم المجوف الذي تمر فيه الريح فينخر.

(٦) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٣١-٢٣٢، والكشاف ٤/ ٢١٣. قال الزمخشري: وفَعِلٌ أبلغ من فاعِل.

(٧) البيت للحطيئة، وهو في شرح ديوانه برواية:

فظل به الشيخ الذي كان فانياً ... يَدِفُّ على عوج له نخرات

قال الشارح: يَدِفُّ: كأنه يسرع ويمشي وفيه إبطاء لكبره، والعوج: أراد قوائمه قد اعوَجَّتْ من الكبر.

(٨) النكت والعيون ٦/ ١٩٦.

فيها، على عَكسِ الأولِ؛ قال:

مِن بعدِ ما صِرْتَ عِظاماً ناخِرة[١]

وقال بعضُهم: الناخِرةُ: التي أُكِلتْ أطرافُها وبقيتْ أوساطُها. والنَّخِرةُ: التي فَسَدتْ كلُّها.

قال مجاهد: نَخِرة، أي: مَرْفوتة[٢]، كما قال تعالى: ﴿عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا﴾ [الإسراء:٩٨] ونُخْرةُ الريحِ بالضم: شدَّةُ هُبوبِها. والنُّخْرةُ أيضاً والنُّخَرةُ مثال الهُمَزةِ: مقدَّمُ أنفِ الفرسِ والحمارِ والخنزير؛ يقال: هشَّم نُخْرَته، أي: أنفه[٣].

﴿قَالُواْ تِلۡكَ إِذٗا كَرَّةٌ خَاسِرَةٞ﴾ أي: رَجعةٌ خائبة، كاذبة باطلة، أي: ليست كائنةً؛ قاله الحسن وغيره[٤]. الربيع بن أنس: خاسِرةٌ على مَن كذَّب بها. وقيل: أي: هي كَرَّةُ خُسْران. والمعنى: أهلُها خاسرون؛ كما يقال: تجارةٌ رابِحةٌ، أي: يَرْبَحُ صاحبها. ولا شيءَ أخسَرُ من كَرَّةٍ تقتضي المَصِيرَ إلى النار.

وقال قتادةُ ومحمد بن كعب: أي: لئن رَجَعْنا أحياءً بعد الموتِ لنحشَرَنَّ بالنار[٥]. وإنَّما قالوا هذا لأنَّهم أُوْعِدوا بالنار.

والكَرُّ: الرجوع؛ يقال: كَرَّهُ، وكَرَّ بنفسه، يتعدَّى ولا يتعدَّى. والكَرَّةُ المَرَّة، والجمعُ: الكَرَّات[٦].

﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجۡرَةٞ وَٰحِدَةٞ﴾ ذَكَر جلَّ ثناؤه سهولةَ البعثِ عليه فقال: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجۡرَةٞ

(١) سيأتي قريباً.

(٢) أخرجه الطبري ٢٤/ ٧٣ .

(٣) الصحاح (نخر).

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ٤٣٢ ، وأخرجه الطبري ٢٤/ ٧٣ عن قتادة بلفظ: رجعة خاسرة.

(٥) النكت والعيون ٦/ ١٩٦ ، وفيه لنخسرن، بدل: لنحشرن.

(٦) الصحاح (كرر).

وَٰحِدَةٌ﴾. ورَوى الضحَّاك عن ابن عباس قال: نفخةٌ واحدة[١] ﴿فَإِذَا هُم﴾ أي: الخلائقُ أجمعون ﴿بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ أي: على وَجْهِ الأرض، بَعْدَ ما كانوا في بطنها. قال الفرَّاء: سُمِّيتْ بهذا الاسم؛ لأنَّ فيها نَومَ الحيوانِ وسَهَرَهم[٢]. والعربُ تُسمِّي الفَلاةَ ووَجْهَ الأرضِ: ساهِرة، بمعنى: ذات سَهَرٍ؛ لأنَّه يُسهَرُ فيها خوفاً منها[٣]، فوصَفَها بصِفَةِ ما فيها. واستدلَّ ابنُ عباسٍ والمفسِّرون بقولِ أميةَ بنِ أبي الصَّلْتِ:

وفيها لَحْمُ ساهِرةٍ وبحرٍ ... وما فاهُوا به لَهُمُ مُقيمُ[٤]

وقال آخَرُ يومَ ذي قارٍ لفرسه:

أَقْدِمْ مَحَاجِ إنَّها الأساوِرَهْ ... ولا يَهُولَنَّكَ رِجلٌ نادِرَهْ
فإنَّما قَصرُكَ تُربُ الساهِرهْ ... ثم تعودُ بعدَها في الحافِرهْ
مِن بعدِ ما صِرتَ عِظاماً ناخِرَهْ[٥]

وفي «الصحاح»: ويقال: السَّاهور: ظِلُّ الساهِرة، وهي وجهُ الأرض. ومنه قولُه تعالى: «فإذا هُمْ بالساهِرةِ»، قال أبو كبير الهذليُّ:

يَرتَدْنَ ساهِرةً كأنَّ جَميمَها ... وعَميمَها أسدافُ ليلٍ مُظلِمِ[٦]

(١) أخرجه الطبري ٢٤/ ٧٤ عن ابن زيد، وذكر الماوردي ٦/ ١٩٦ عن الربيع بن أنس، ولم نقف عليه عن ابن عباس.

(٢) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٣٣ .

(٣) بنحوه في إعراب القرآن للنحاس ٥/ ١٤٢ ، وتفسير الرازي ٣١/ ٣٨ .

(٤) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٣٣ ومجاز القرآن ٢/ ٢٨٥ ، وتفسير الطبري ٢٤/ ٧٤-٧٥ ، والنكت والعيون ٦/ ١٩٦ والبيت في ديوان أمية ص١٢١ . قوله: فاهوا، قال أبو عبيدة: أي تكلموا.

(٥) تفسير الطبري ٢٤/ ٧٥ ، والنكت والعيون ٦/ ١٩٦ . وذكرها القالي في أماليه ١/ ٢٦ ، وابن دريد في الجمهرة ٢/ ٢١٥ ، على أنها قيلت في القادسية، مع اختلاف يسير فيها. ونسبت في سمط اللآلي ١/ ١٢٣-١٢٤ للحارث بن سمي بن رؤاس الهمداني. وقال البكري: وكان قد ضُربت رجله فَنَدرتْ، أي: بانت، وقوله: فإنما قَصْرُك، أي: قُصارُك.

(٦) الصحاح (سهر)، والبيت في شرح ديوان الهذليين ٣/ ١٠٩٠ . قال شارح الديوان: الجميم: النبت الذي قد نبت وارتفع قليلاً ولم يتم كل التمام، والعميم: المكتهل التام من النَّبت. اهـ والأسداف جمع سَدَف بالتحريك، وهو ظلمة الليل. اللسان (سدف).

ويقال: الساهور: كالغِلافِ للقمر يَدْخُلُ فيه إذا كُسِف، وأنشدوا قولَ أميةَ بنِ أبي الصَّلْت:

قَمرٌ وساهورٌ يُسَلُّ ويُغْمَدُ[١]

وأنشدوا لآخَر في وَصْفِ امرأةٍ:

كأنَّها عِرْقُ سامٍ عند ضارِبِهِ أو شُقَّةٌ خرجَتْ مِن جَوْفِ ساهورِ[٢]

يريد شُقَّةَ القمر.

وقيل: الساهرة: هي الأرضُ البيضاء.

ورَوى الضَّحاك عن ابن عباس قال: أرضٌ من فِضَّةٍ لم يُعْصَ الله جلَّ ثناؤه عليها قطُّ، خلقَها حينئذٍ.

وقيل: أرضٌ جدَّدها الله يوم القيامة. وقيل: الساهرةُ اسمُ الأرضِ السابعةِ يأتي بها الله تعالى فيحاسِبُ عليها الخلائق، وذلك حين تبدَّلُ الأرضُ غيرَ الأرض.

وقال الثوريُّ: الساهرة: أرضُ الشام[٣]. وهب بنُ منبه: جبلُ بيتِ المَقْدِس. عثمان بنُ أبي العاتِكَةِ: إنه اسمُ مكانٍ من الأرض بعَيْنه بالشام، وهو الصُّقْعُ الذي بين جبل أرِيحاء وجبلِ حسَّان يَمدُّه الله كيف يشاء[٤].

قتادة: هي جهنم[٥]، أي: فإذا هؤلاء الكفارُ في جهنَّم. وإنَّما قيل لها: ساهرة؛

---

(١) ديوان أمية ص٤٩، والصحاح (سهر)، والخزانة ١/ ٢٤٩، وصدره: لا نقص فيه غير أن خبيئه.

(٢) تهذيب اللغة ٦/ ١٢٠، وأساس البلاغة (سهر)، واللسان (سهر). وصدره في تهذيب اللغة وأساس البلاغة: كأنها بُهْثةٌ ترعى بأقرية. وفي اللسان: أو فلقة، بدل: أو شقة. والسام: عروق الذهب والفضة، واحدتها سامَة. والبهثة: البقرة. اللسان (سهر) و(سوم).

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٥/ ١٤٢، وتفسير البغوي ٤/ ٤٤٤، ووقع في إعراب القرآن: أرض بالشام.

(٤) النكت والعيون ٦/ ١٩٦-١٩٧، وأخرج القولين الطبري ٢٤/ ٧٧-٧٨. وحسان: قرية بين دير العاقول وواسط. معجم البلدان ٢/ ٢٥٨.

(٥) أخرجه الطبري ٢٤/ ٧٨.

لأنَّهم لا ينامون عليها حينئذٍ.

وقيل: الساهرة: بمعنى الصحراء على شفير جهنم، أي: يُوقَفون بأرض القيامة، فيدومُ السَّهرُ حينئذ.

ويقال: السَّاهرة: الأرضُ البيضاءُ المستويةُ، سمِّيتْ بذلك لأنَّ السَّراب يجري فيها، من قولهم: عينٌ ساهرةٌ: جاريةُ الماء، وفي ضدِّها: نائمة؛ قال الأشعثُ بنُ قيس:

وساهرة يُضحي السَّرابُ مُجَلِّلاً ... لأقطارِها قد جئتُها مُتلثِّماً

أو لأنَّ سالِكَها لا ينامُ خوفَ الهَلَكة[1].

قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ أي: قد جاءك وبَلَغكَ حديثُ موسى، وهذا تسليةٌ للنبيِّ ﷺ. أي: إنَّ فرعون كان أقوى من كفَّار عَصْرِك، ثم أخذناه، وكذلك هؤلاء. وقيل: «هل» بمعنى «ما»، أي: ما أتاك، ولكنْ أُخْبِرْتَ به، فإنَّ فيه عِبرةً لمن يخشى. وقد مضى من خَبَرِ موسى وفرعونَ في غيرِ موضعٍ ما فيه كفاية.

وفي «طُوى» ثلاثُ قراءاتٍ: قرأ ابنُ مُحيصِنٍ وابنُ عامرٍ والكوفيون: «طُوًى» منوَّناً، واختاره أبو عبيد لخفَّةِ الاسم. الباقون بغير تنوين[2]؛ لأنَّه معدولٌ، مثل: عُمر

(١) الكلام مع البيت في الكشاف ٤/ ٢١٣.

(٢) وهي قراءة ابن كثير ونافع وأبي عمرو من السبعة. السبعة ص٦٧١، والتيسير ص١٥٠.

﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي: وأُرْشِدَكَ إلى طاعةِ ربِّك ﴿فَتَخْشَىٰ﴾ أي: تخافه وتَتَّقيه.

وقرأ نافع وابن كثير: «تَزَّكَّى» بتشديدِ الزاي، على إدغامِ التاء في الزاي، لأنَّ أصلها: تتزكَّى. الباقون: «تَزَكَّى» بتخفيفِ الزاي، على معنَى طَرْحِ التاء[١]. وقال أبو عمرو: «تَزَّكَّى» بالتشديد [تَتَصَدَّق بـ][٢] الصدقة، و«تَزَكَّى»: تكون زَكيًّا مؤمناً، وإنَّما دعا فرعونَ ليكون زكيًّا مؤمناً. قال: فلهذا اختَرْنا التخفيف.

وقال صخر بنُ جُوَيرية: لمَّا بعث الله موسى إلى فرعون قال له: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ ولن يَفعَلَ. فقال: يا رب، وكيف أذهبُ إليه وقد علمتَ أنه لا يفعل؟ فأوْحَى الله إليه: أن امضِ إلى ما أمرْتُكَ به، فإنَّ في السماء اثني عَشَرَ ألفَ مَلَكٍ يطلبون علمَ القَدر، فلم يَبْلُغوه ولا يُدْرِكوه[٣].

﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْآيَةَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ أي: العلامةَ العُظمَى وهي المعجزة. وقيل: العصا. وقيل: اليد البيضاء تَبرُقُ كالشمس. وروى الضحَّاك عن ابن عباس: «الآية الكبرى» قال: العصا. الحسن: يده وعصاه[٤]. وقيل: فَلْق البحر. وقيل: الآية: إشارةٌ إلى جميع آياته ومعجزاته.

﴿فَكَذَّبَ﴾ أي: كذَّب نبيَّ الله موسى ﴿وَعَصَىٰ﴾ أي: عصى ربَّه عزَّ وجلَّ ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ﴾ أي: ولَّى مُدبِراً مُعْرِضاً عن الإيمان، «يسعَى» أي: يعملُ بالفساد في الأرض. وقيل: يعملُ في نكاية موسى. وقيل: «أدبر يسعَى» هارباً من الحية. ﴿فَحَشَرَ﴾ أي: جَمعَ أصحابه ليمنعوه منها. وقيل: جَمعَ جنودَه للقتال والمُحاربة، والسَّحَرةَ للمعارَضَة. وقيل: حشر الناس للحضور. ﴿فَنَادَىٰ﴾ أي: قال لهم بصوتٍ عالٍ ﴿فَقَالَ

(١) السبعة ص٦٧١، والتيسير ص٢١٩.

(٢) ما بين حاصرتين زيادة من تفسير الطبري ٢٤/ ٨١، والكلام فيه بنحوه.

(٣) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٣٤٦. وصخر بن جويرية هو الإمام المحدث أبو نافع التميمي مولاهم، وقيل: مولى بني هلال، البصري، توفي سنة بضع وستين ومئة. السير ٧/ ٤١٠.

(٤) أخرجه الطبري ٢٤/ ٨٢.

وقُثَم. قال الفرَّاء[١]: طُوَى: وادٍ بين المدينةِ ومصرَ. قال: وهو معدولٌ عن طاوٍ، كما عُدِلَ عُمَرُ عن عامر.

وقرأ الحسنُ وعِكرمةُ: «طِوًى» بكَسْرِ الطَّاء، ورُوي عن أبي عمرو. على معنى: المُقَدَّس مرةً بعد مرة؛ قاله الزجَّاج وأنْشَد:

أعَاذِل إنَّ اللومَ في غيرِ كُنْهِهِ عليَّ طِوًى مِن غَيِّكِ المتردِّدِ[٢]

أي: هو لومٌ مُكرَّرٌ عليَّ. وقيل: ضمُّ الطَّاءِ وكَسْرُها لغتان، وقد مضى في «طه» القولُ فيه[٣].

﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ أي: ناداه ربُّه، فحذف؛ لأنَّ النداء قولٌ، فكأنه: قال له ربُّه: «اذْهَبْ إلى فِرعونَ». ﴿إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ أي: جاوَزَ القَدْرَ في العِصْيان.

ورُوي عن الحسن قال: كان فرعون عِلجًا من هَمْدان[٤]. وعن مجاهدٍ قال: كان من أهلِ إصْطَخْر[٥]. وعن الحسن أيضاً قال: من أهلِ أصبهان، يقال له: ذو ظفر، طولُه أربعةُ أشبار.

﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾ أي: تُسْلِم فتَطَّهُر من الذنوب. وروى الضحَّاك عن ابن عباس قال: هل لك أنْ تشْهَد أن لا إلهَ إلاَّ الله[٦].

---

(١) في معاني القرآن ٣/ ٢٣٢-٢٣٣.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٢٧٩، ونسبه الزجاج لطرفة وكذلك الفارسي في الحجة ٦/ ٣٧٢، وليس في ديوانه. ونسب لعدي بن زيد، كما في مجاز القرآن ٢/ ٢٨٥، ومعجم البلدان ٤/ ٤٥، وزاد المسير ٥/ ٢٧٤، واللسان (طوي). والقراءة بكسر الطاء في القراءات الشاذة ص١٦٨، وتفسير الطبري ٢٤/ ٨٠.

(٣) ١٤/ ٢٥.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم، كما في الدر المنثور ٣/ ١٠٥.

(٥) أخرجه الطبري ١٨/ ١٨٨.

(٦) أخرجه البيهقي في الأسماء والصفات (٢٠٥) من طريق عكرمة عن ابن عباس، وأخرجه الطبري ٢٤/ ٨١ عن عكرمة.

أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ أي: لا ربَّ لكم فوقي.

ويُروَى: أنَّ إبليسَ تَصَوَّر لفرعون في صورة الإنس بمصرَ في الحمام، فأنكره فرعون. فقال له إبليس: ويْحَك! أمَا تَعْرفُني؟ قال: لا. قال: وكيف وأنت خلقتني؟ أَلَسْتَ القائلَ: أنا ربُّكم الأعلى! ذكره الثعلبيُّ في كتاب «العرائس»[(١)].

وقال عطاء: كان صنع لهم أصناماً صغاراً وأمرهم بعبادتها، فقال: أنا ربُّ أصنامِكم. وقيل: أراد القادةَ والسادةَ، هو ربُّهم، وأولئك هم أربابُ السَّفِلة.

وقيل: في الكلام تقديمٌ وتأخيرٌ: فنادى فحشر[(٢)].

﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ﴾ أي: نكالَ قولِه: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ [القصص:٣٨] وقولِه بَعْدُ: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ قاله ابن عباس ومجاهدٌ وعِكرمة[(٣)]. وكان بين الكلمتين أربعون سنة؛ قاله ابن عباس[(٤)]. والمعنى: أمْهَلَه في الأُولى، ثم أَخَذَه في الآخرة، فعذَّبه بكلِمتَيْه.

وقيل: نكالُ الأُولى: هو أن أغرقَه، ونكالُ الآخرة: العذابُ في الآخرة. وقاله قتادةُ وغيرُه[(٥)].

وقال مجاهدٌ: هو عذابُ أولِ عمرِه وآخِرِه[(٦)].

وقيل: الآخرةُ قولُه: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ والأُولى تكذيبُه لموسى. عن قتادة أيضاً[(٧)].

---

(١) لم نقف عليه في المطبوع منه.

(٢) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٤٣٣ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) تفسير الطبري ٢٤/ ٨٤-٨٥ عن ابن عباس ومجاهد، وأخرجه عن عكرمة عبد بن حميد كما في الدر المنثور ٦/ ٣١٣ .

(٤) أخرجه الطبري ٢٤/ ٨٤ ، وذكره الماوردي في النكت والعيون ٦/ ١٩٨ . وأخرجه الطبري أيضاً ٢٤/ ٨٦ عن مجاهد.

(٥) النكت والعيون ٦/ ١٩٨ ، والوسيط ٤/ ٤٢٠ .

(٦) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٦/ ١٩٨ ، وأخرجه الطبري ٢٤/ ٨٧ ، وفيه: عمله، بدل: عمره.

(٧) ذكره الرازي ٣١/ ٤٣ دون نسبة.

و«نكالَ» منصوبٌ على المصدر المؤكِّدِ في قول الزجَّاج؛ لأنَّ معنى أخَذَه الله: نكَّل الله به[١]، فأخرَجَ مكانَ مصدرٍ من معناه، لا من لَفْظِه. وقيل: نُصِبَ بنزْعِ حرفِ الصِّفَة، أي: فأخَذَه الله بنكال الآخرة، فلمَّا نُزِعَ الخافِضُ نُصِب. وقال الفرَّاء: أي: أخَذَه الله أخْذاً نكالاً[٢]، أي: للنكال.

والنكال: اسمٌ لما جُعِلَ نَكالاً للغير، أي: عقوبةً له حتى يَعْتَبِر به. يقال: نكَّلَ فلانٌ بفلان: إذا أثْخَنه عقوبةً. والكلمةُ من الامتناع، ومنه النُّكولُ عن اليمين، والنِّكْلُ: القيد. وقد مضى في سورة المزَّمل[٣]، والحمد لله. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً﴾ أي: اعتباراً وعِظَةً. ﴿لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾ أي: يخافُ الله عزَّ وجلَّ.

قوله تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾

قولُه تعالَى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا﴾: يريدُ أهلَ مكةَ، أي: أخَلْقُكم بعدَ الموتِ أشدُّ في تقديركم ﴿أَمِ ٱلسَّمَآءُ﴾، فَمَنْ قَدَر على السماء قَدَر على الإعادة، كقوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧] وقوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ [يس: ٨١]، فمعنى الكلامِ التقريعُ والتوبيخُ.

ثم وَصَف السماءَ فقال: ﴿بَنَىٰهَا﴾ أي: رَفَعها فوقكم كالبناء. ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا﴾ أي: أعْلَى سَقْفَها في الهواء؛ يقال: سَمَكْتُ الشيءَ، أي: رفعته في الهواء، وسَمَكَ الشيءُ سُمُوكاً: ارتفع. وقال الفرَّاء: كلُّ شيءٍ حَمَل شيئاً من البناء وغيره فهو سَمْك. وبناءٌ مَسْمُوك، وسَنامٌ سامِكٌ تامك، أي: عالٍ، والمسموكات: السَّماوات. ويقال:

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٢٨٠.

(٢) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٣٣ وإعراب القرآن، للنحاس ٥/ ١٤٤ والعبارة فيهما: فأخذه الله أخذاً نكالاً للآخرة والأولى.

(٣) ٢١/ ٣٣٥ - ٣٣٦.

اسمُكْ في الرَّيْم، أي: اصْعَدْ في الدرجة[١].

قوله تعالى: ﴿فَسَوَّىٰهَا﴾ أي: خَلَقها خَلْقاً مستوياً، لا تَفاوُتَ فيه، ولا شُقوقَ، ولا فُطور. ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا﴾ أي: جَعَلَه مُظْلماً؛ غَطَشَ الليلُ وأغْطَشَه الله، كقولك: ظَلِم وأظْلَمه الله. ويقال أيضاً: أغْطَشَ الليلُ بنَفْسِه، وأغْطَشَه الله، كما يقال: أظْلَم الليلُ، وأظْلَمه الله. والغَطَشُ والغَبَش: الظُّلْمةُ. ورجلٌ أغْطَشُ، أي: أعْمَى، أو شبيهٌ به، وقد غَطِشَ، والمرأةُ غَطشاءُ، ويقال: ليلةٌ غَطشاءُ، وليلٌ أغْطَشُ. وفلاةٌ غَطشَى: لا يُهتدَى لها؛ قال الأعشى:

وَيَهْماءَ بالليلِ غَطْشَى الفَلا ... ةِ يُؤْنِسُني صوتُ فَيَّادِها[٢]

وقال الأعشى أيضاً:

عَقَرْتُ لَهُمْ مَوْهِناً ناقتي ... وغامِرُهُمْ مُدْلَهِمٌّ غَطِشْ[٣]

يعني بغامِرِهم: ليلَهم؛ لأنه غَمَرَهم بسواده.

وأضاف الليلَ إلى السماء لأنَّ الليل يكونُ بغروب الشمس، والشمسُ مضافٌ إلى السماء، ويقال: نجومُ الليلِ، لأنَّ ظهورها بالليل.

﴿وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا﴾ أي: أبرزَ نهارَها وضوءَها وشمسها. وأضاف الضُّحى إلى السماء كما أضاف إليها الليل[٤]؛ لأنَّ فيها سببَ الظَّلام والضياءِ، بغُروب[٥]

---

(١) الصحاح (سمك). وذكر القالي في الأمالي ١/ ١٦٠ عن أبي عمرو بن العلاء قال: أتيت دار قوم باليمن أسأل عن رجل، فقال لي رجل منهم: اسمُك في الرَّيم، أي: اعل في الدرجة.

(٢) ديوان الأعشى ص١٢٣، وتهذيب اللغة ١٦/ ١٦١، والصحاح (غطش)، واللسان (غطش) وفيه: الأرض اليهماء: التي لا يُهتَدى فيها لطريق، والغطش مثله. وقوله: فيادها، هو ذَكَر البوم. القاموس (فيد).

(٣) لم نقف عليه في ديوان الأعشى، وهو في جمهرة أشعار العرب لأبي زيد القرشي ١/ ١٢١، والنكت والعيون ٦/ ١٩٨، والمحرر الوجيز ٥/ ٤١٤ ووقع في الجمهرة: وغامرنا، وفي المحرر: وليلهم. قوله: موهناً، هو نحوٌ من نصف الليل، أو بعد ساعة منه. القاموس (وهن).

(٤) في النسخ الخطية: كما أضاف الظلمة.

(٥) في (م): وهو غروب.

الشمسِ وطُلوعِها.

و﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ أي: بَسَطَها[1]. وهذا يشيرُ إلى كونِ الأرضِ بعدَ السماء. وقد مضى القولُ فيه في أول «البقرة» عند قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا * ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الآية:٢٩] مستوفى. والعربُ تقول: دَحَوْتُ الشيءَ أدْحُوه دَحْواً: إذا بَسَطْته. ويقال لعشِّ النعامة: أُدحِيٌّ؛ لأنَّه مبسوطٌ على وجه الأرض[2]. وقال أميةُ بنُ أبي الصَّلْتِ:

وبَثَّ الخَلْقَ فيها إذ دَحاها فَهُمْ قُطَّانُها حتى التَّنادي[3]

وأنشد المبرِّد:

دَحَاها فلمَّا رآها اسْتَوتْ على الماءِ أرْسَى عليها الجبالا[4]

وقيل: دحاها: سوَّاها، ومنه قولُ زيد بنِ عمرو:

وأسْلَمتُ وجهي لمَن أسْلَمَتْ له الأرضُ تحمِل صَخْراً ثِقالا

دحاها فلمَّا اسْتَوتْ شَدَّها بأيْدٍ وأرْسَى عليه الجبالا[5]

وعن ابن عباس: خَلَق الله الكعبةَ ووَضَعَها على الماء على أربعةِ أركان قبل أن يخلُقَ الدنيا بألْفَيْ عامٍ، ثم دُحِيت الأرضُ من تحت البيت[6].

وذَكَر بعضُ أهلِ العلم: أنَّ «بعد» في موضع «مع» كأنه قال: والأرضَ مع ذلك

---

(١) أخرج الطبري ٢٤/ ٩٥ هذا القول على قتادة والسدي وسفيان.

(٢) في الصحاح (دحا): وأدْحِيُّها (يعني النعامة): موضعها الذي تفرِّخ فيه؛ لأنها تَدْحوه برجلها ثم تبيض فيه، وليس للنعام عُشٌّ. ومثله في غريب الحديث للخطابي ٣/ ٨١ ، واللسان (دحا).

(٣) النكت والعيون ٦/ ١٩٩ ، وسلف ١٨/ ٣٥٣ برواية: سكانها، بدل: قطانها.

(٤) البيت لزيد بن عمرو بن نفيل، وهو بهذه الرواية في سيرة ابن هشام ١/ ٢٣١ ، وسيكرره المصنف بنحوه مع بيت آخر من القصيدة نفسها.

(٥) الأغاني ٣/ ١٢٨ ، والنكت والعيون ٦/ ١٩٩ ، واللفظ منه، ووقع في الأغاني: سواء، بدل: بأيد.

(٦) أخرجه الطبري ٢٤/ ٩٣ .

دحاها، كما قال تعالى: ﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾ [القلم:١٣] ومنه قولُهم: أنت أحمقُ وأنت بعد هذا سَيِّئُ الخُلُقِ[١]؛ قال الشاعر:

فقلتُ لها فِيئي[٢] إليكِ فإنَّني حَرَامٌ وإنِّي بعدَ ذاكَ لَبِيبُ[٣]

أي: مع ذلك لبيب.

وقيل: «بعدَ» بمعنى: قَبْلَ، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ﴾ [الأنبياء:١٠٥] أي: من قَبْلِ الفرقان؛ قال أبو خِرَاش الهذلي:

حَمِدْتُ إلهي بَعْدَ عروةَ إذ نجا خِراشٌ وبعضُ الشرِّ أهْوَنُ من بَعْضِ[٤]

وزَعَموا أنَّ خِراشاً نجا قبلَ عروة.

وقيل: «دحاها» حَرَثَها وشقَّها. قاله ابن زيد[٥]. وقيل: «دحاها»: مهَّدها للأقْوات. والمعنى مُتَقارِب.

وقراءةُ العامة: «والأرضَ» بالنصب، أي: دحا الأرض. وقرأ الحسن وعمرو بن ميمون: «والأرضُ» بالرفع[٦] على الابتداء؛ لرجوع الهاء.

ويقال: دحا يَدْحُو دَحْواً، ودَحَى يَدحَى دَحْياً، كقولهم: طَغَى يَطْغَى ويَطْغُو،

---

(١) تفسير الطبري ٢٤/ ٩٣، والأضداد لابن الأنباري ص١١٠. وأخرج الطبري هذا القول عن مجاهد والسدي.

(٢) في (م): عني.

(٣) البيت للمضرَّب بن كعب بن زهير بن أبي سلمى، كما في مجاز القرآن ٢/ ٣٠٠، وأمالي القالي ٢/ ١٧١، والاقتضاب ص٤٧٥، وهو دون نسبة في أدب الكاتب ص٦١٥، والأضداد لابن الأنباري ص١١٠. قال البطليوسي: ويروى لشبل بن الصامت المرِّي، وقال في شرحه: معنى فيئي: ارجعي، والحرام: المُحْرِم. ولبيب هنا بمعنى مُلَبٍّ، وصف أن محبوبته لقيها وهو مُحرِمٌ مُلبٍّ فتورَّع عن الكلام معها.

(٤) الأضداد لابن الأنباري ص١٠٨، والبيت في ديوان الهذليين ٢/ ١٥٧. قال الشارح: عروة أخوه، وخراش ابنه.

(٥) أخرجه الطبري ٢٤/ ٩٥، وذكره الماوردي في النكت والعيون ٦/ ١٩٩.

(٦) القراءات الشاذة ص١٦٨ عن الحسن.

وطغِيَ يَطْغَى، ومحا يَمحو ويمْحى، ولحَى العود يَلْحَى ويَلْحو[١]، فَمَن قال: يدحو، قال: دَحَوْتُ، ومَن قال: يَدحَى، قال: دَحَيْتُ.

﴿أَخْرَجَ مِنْهَا﴾ أي: أخْرجَ من الأرض ﴿مَآءَهَا﴾ أي: العيونَ المتفجِّرةَ بالماء ﴿وَمَرْعَىٰهَا﴾ أي: النباتَ الذي يُرعَى. وقال القُتَبيُّ[٢]: دلَّ بشيئين على جميع ما أخرَجه من الأرض قُوتاً ومتاعاً للأنام، من العُشْبِ والشَّجرِ والحَبِّ والتَّمرِ والعَصْفِ والحَطَبِ واللِّباسِ، والنارِ والملح؛ لأنَّ النار من العيدان، والمِلْحَ من الماء.

﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا﴾ قراءةُ العامَّةِ: «والجبالَ» بالنَّصب، أي: وأرْسَى الجِبالَ أرْساها، يعني: أثْبتَها فيها أوْتاداً لها. وقرأ الحسن وعمرو بن ميمون وعمرو بن عبيد ونصر بن عاصم: «والجِبالُ» بالرفع على الابتداء[٣].

ويقال: هلاَّ أدْخَل حرفَ العطفِ على «أخرج». فيقال: إنه حالٌ بإضمارِ قد، كقوله تعالى: ﴿حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ﴾ [النساء: ٩٠][٤].

﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ﴾ أي: منفعةً لكم ﴿وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ من الإبل والبقر والغنم. و«متاعاً» نصب على المصدر من غيرِ اللَّفظ؛ لأنَّ معنى «أَخْرجَ منها ماءَها ومَرْعاها»: أمْتَعَ بذلك[٥]. وقيل: نصب بإسقاطِ حرفِ الصِّفةِ، تقديرُه: لتتمتَّعوا به متاعاً.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ أي: الداهيةُ العُظْمَى، وهي النفخةُ الثانيةُ

---

(١) أي: قشره، في اللسان (لحا): لَحَوْتُ العود ألحوه وألحاه: إذا قشرته.

(٢) في تأويل مشكل القرآن ص٤ .

(٣) القراءات الشاذة ص١٦٨ ، والمحتسب ٢/ ٣٥٠ .

(٤) الكشاف ٤/ ٢١٥ .

(٥) بنحوه في معاني القرآن للزجاج ٥/ ٢٨١ .

التي يكونُ معها البعثُ؛ قاله ابن عباس في روايةِ الضحَّاكِ عنه، وهو قولُ الحسن[١].

وعن ابن عباسٍ أيضاً والضحاك: أنَّها القيامة[٢]، سمِّيتْ بذلك لأنها تَطمُّ على كلِّ شيءٍ، فتعمُّ ما سواها لِعظَمِ هَوْلها، أي: تَغْلبهُ. وفي أمثالهم: جرى الوادي فطَمَّ على القَرِيِّ[٣].

المبرِّد: الطامَّةُ عند العرب: الداهيةُ التي لا تُستَطاع، وإنَّما أُخِذَتْ فيما أحْسبُ من قولهم: طمَّ الفرسُ طميماً: إذا استَفْرَغَ جهدَه في الجَرْي، وطمَّ الماء: إذا ملأ النهرَ كلَّه. غيره: مأخوذةٌ من طَمَّ السيلُ الرَّكيَّة، أي: دَفَنَها، والطَّمُّ: الدَّفْنُ والعُلُوّ[٤]. وقال القاسم بن الوليد الهمْدانيُّ: الطامَّةُ الكبرى حين يُساقُ أهلُ الجنةِ إلى الجنة، وأهلُ النار إلى النار. وهو معنى قولِ مجاهد[٥] وقال سفيان: هي الساعةُ التي يُسْلَم فيها أهلُ النارِ إلى الزَّبانية. أي: الداهيةُ التي طَمَّتْ وعَظُمَتْ؛ قال:

إنَّ بعضَ الحبِّ يُعمِي ويُصِمّ وكذاك البغضُ أدهَى وأطَمّ[٦]

﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَـٰنُ مَا سَعَىٰ﴾ أي: ما عَمِلَ من خيرٍ أو شرٍّ. ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ﴾ أي: ظهرت ﴿لِمَن يَرَىٰ﴾ قال ابن عباس: يُكشَفُ عنها فيراها تَتلَظَّى كلُّ ذي بَصرٍ. وقيل: المرادُ الكافرُ؛ لأنه الذي يرى النارَ بما فيها من أصناف العذاب. وقيل: يراها المؤمنُ ليعرف قَدْرَ النعمةِ ويَصْلَى الكافرُ بالنار. وجوابُ «فإذا جاءتِ الطامَّةُ» محذوفٌ، أي:

---

(١) النكت والعيون ٦/ ٢٠٠ عن الحسن، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٣٤ عن ابن عباس والحسن.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٤٣٤، وأخرجه عن ابن عباس الطبري ٢٤/ ٩٧.

(٣) جمهرة الأمثال ١/ ٣٠٠، ومجمع الأمثال ١/ ١٥٩، والمستقصى ٢/ ٥١. قال الزمخشري: القري: هو مستجمَعُ الماء الكثير، يضرب مثلاً في غلبةِ الرجل قرنَه. وقال العسكري: يضرب مثلاً للأمر العظيم، يجيءُ فيعم الصغير والكبير.

(٤) تفسير الرازي ٣١/ ٤٩، والرَّكِيَّة: البئر. القاموس (ركو).

(٥) النكت والعيون ٦/ ٢٠٠، وقول القاسم بن الوليد أخرجه ابن أبي شيبة ١٣/ ٥٥٨، والطبري ٢٤/ ٩٧. والقاسم بن الوليد هو أبو عبد الرحمن الكوفي القاضي، روى عن المنهال بن عمرو وقتادة ومجاهد وغيرهم، توفي سنة (١٤١هـ). التهذيب ٣/ ٤٢٣.

(٦) لم نقف عليه.

إذا جاءت الطامةُ، دخل أهلُ النارِ النارَ وأهلُ الجنةِ الجنةَ(١).

وقرأ مالك بن دينار: «وَبَرَزَتِ الجحِيمُ»(٢). عِكرمةُ وغيرُه: «لِمن تَرى» بالتاء، أي: لمن تَراه الجحيم، أو لمن تَراه أنتَ يا محمد. والخطابُ له عليه الصلاة والسلام، والمرادُ به الناس(٣).

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝٣٧ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝٣٨ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٣٩ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٤١﴾

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: تَجاوزَ الحدَّ في العِصيان. قيل: نزلت في النَّضر وأبيه(٤) الحارث، وهي عامةٌ في كلِّ كافرٍ آثَرَ الحياةَ الدنيا على الآخرة.

وروي عن يحيى بن أبي كثير قال: مَن اتَّخذ مِن طعامٍ واحدٍ ثلاثةَ ألوانٍ فقد طَغَى.

وروى جُوَيبر عن الضحَّاك قال: قال حذيفةُ: أخْوَفُ ما أخافُ على هذه الأمَّةِ أنْ يُؤْثِروا ما يَرَوْن على ما يَعلَمون(٥).

ويُروَى أنه وُجِدَ في الكتب: إنَّ الله جلَّ ثناؤه قال: لا يُؤْثِرُ عبدٌ لي دنياهُ على آخرته، إلاَّ بَثَثْتُ عليه همومَه وضَيْعَتَه، ثم لا أُبالي في أيِّها هَلَك.

﴿فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ أي: مأواه. والألفُ واللَّامُ بَدَلٌ من الهاء. ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ

---

(١) تفسير الرازي ٣١/ ٥١ ، وذكر الرازي وجهاً آخر، وهو أن يكون الجواب: «فإن الجحيم هو المأوى»، قال: وكأنه جزاء مركب على شرطين، أي: إذا جاءت الطامة الكبرى، فمن جاء طاغياً، فإن الجحيم مأواه.

(٢) القراءات الشاذة ص١٦٨ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٣٤ .

(٣) المحتسب ٢/ ٣٥١ .

(٤) في النسخ: وابنه، والمثبت من تفسير الرازي ٣١/ ٥١ وفيه: «طغى وأثر الحياة الدنيا» النضر وأبوه الحارث.

(٥) أخرجه هناد في الزهد (٩٣٥)، وأبو نعيم في الحلية ١/ ٢٧٨ .

﴿مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ أي: حَذِر مقامَه بين يدي ربِّه. وقال الربيع: مقامه يومَ الحساب[١]. وكان قتادةُ يقول: إنَّ للهِ عزَّ وجلَّ مَقاماً قد خافه المؤمنون. وقال مجاهد: هو خوفُه في الدنيا من الله عزَّ وجلَّ عند مُواقَعةِ الذَّنْبِ فيُقْلِع[٢]. نظيرُه: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦].

﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ أي: زَجَرها عن المعاصي والمَحارِم. وقال سهل: تَرْكُ الهوى مِفتاحُ الجنة؛ لقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾. قال عبد الله بن مسعود: أنتم في زمانٍ يقودُ الحقُّ الهوى، وسيأتي زمانٌ يقودُ الهَوَى الحقَّ، فنعوذُ بالله من ذلك الزمان. ﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ أي: المنزل.

والآيتان نزلتا في مصعَب بن عُمير وأخيه عامر بنِ عمير، فروَى الضحَّاك عن ابن عباسٍ قال: أمَّا مَن طَغَى، فهو أخٌ لمصعب بنِ عمير أُسِر يومَ بدر، فأخذته الأنصار فقالوا: مَن أنت؟ قال: أنا أخو مُصعَب بنِ عُمير، فلم يشدُّوه في الوَثاق، وأكرموه وبيَّتوه عندهم، فلمَّا أصبحوا حدَّثوا مصعَب بنَ عُمير حديثَه، فقال: ما هو لي بأخٍ، شُدُّوا أسيركم، فإنَّ أمَّه أكثرُ أهلِ البطحاءِ حُلِيّاً ومالاً. فأوثَقوه حتى بعثتْ أمُّه في فِدائه. «وأما من خاف مقامَ ربِّه» فمصعَب بنُ عمير، وَقَى رسولَ الله ﷺ بنفسه يومَ أُحُدٍ حين تَفرَّقَ الناس عنه، حتى نفذت المشاقصُ في جَوْفه ـ وهي السهامُ ـ فلمَّا رآه رسولُ الله ﷺ مُتشحِّطاً في دَمِه قال: «عندَ الله أحْتَسِبُكَ»، وقال لأصحابه: «لقد رأيتُه وعليه بُردانِ ما تُعرَفُ قيمتُها، وإنَّ شِراكَ نَعْلَيْه من ذَهب»[٣]. وقيل: إنَّ مصعب بنَ عمير قَتَل أخاه عامِراً يومَ بدر[٤].

(١) ذكره بنحوه الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٢٠٠ .

(٢) أخرج قول قتادة وقول مجاهد الطبري ٢٢/ ٢٣٦-٢٣٧ .

(٣) ذكره الزمخشري في الكشاف ٤/ ٢١٩ مختصراً دون نسبة، وسلف ١٠/ ٧٦ خبر مصعب بن عمير مع أخيه عندما أُسر يوم بدر.

(٤) ذكره الزمخشري في الكشاف ٤/ ٢١٩ ، إلا أنه ذكر أبا عزيز بدل عامر، وقال الحافظ في تخريج أحاديث الكشاف ص١٨١ عن هذا الخبر والذي قبله: لم أجده. اهـ وينظر ما سلف ١٧/ ٣٠٧-٣٠٨ .

وعن ابن عباس أيضاً قال: نزلتْ هذه الآيةُ في رجلين: أبي جهل بن هشام المخزوميِّ، ومصعب بنِ عمير العَبدَريّ.

وقال السُّدِّيُّ: نزلتْ هذه الآيةُ ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾ في أبي بكرٍ الصِّديقِ ﷺ، وذلك أنَّ أبا بكر كان له غلامٌ يأتيه بطعام، وكان يسأله: مِن أين أتيتَ بهذا؟ فأتاه يوماً بطعامٍ فلم يسأله وأكلَه، فقال له غلامُه: لِمَ لا تسألُني اليوم؟ فقال: نسيتُ، فمِنْ أين لك هذا الطعام؟ فقال: تَكَهَّنْتُ لقومٍ في الجاهلية فأعطَوْنيه. فتقايأه من ساعته وقال: يا ربِّ، ما بقي في العروق فأنت حَبَسْتَه، فنزلت: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾[١].

وقال الكلبيُّ: نزلتْ في مَن همَّ بمعصية وقَدَر عليها في خلوة، ثم تركها مِن خوفِ الله. ونحوه عن ابن عباس[٢]. يعني مَن خاف عند المعصيةِ مَقامَه بين يدَي الله، فانتهى عنها. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ قال ابن عباسٍ: سأل مُشركو مكةَ رسولَ الله ﷺ: متى تكون الساعةُ استهزاءً، فأنزل الله عزَّ وجلَّ الآية[٣].

وقال عُروة بنُ الزبير في قوله تعالى: ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ﴾ لم يَزَل النبيُّ ﷺ يسأل عن الساعة حتى نزلت هذه الآية: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ﴾[٤]. ومعنى «مُرْساها»، أي: قيامُها. قال الفرَّاء: رُسُوُّها: قيامُها، كرسوِّ السفينةِ[٥]. وقال أبو عبيدة[٦]: أي:

---

(١) الورع لأحمد ص٨٤، وحلية الأولياء ١/ ٣١، وليس فيهما ذكر نزول الآية.

(٢) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٤٣٥.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم وابن مردويه بسند ضعيف، كما ذكر السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٣١٤.

(٤) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٣٤٧.

(٥) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٣٤، وقال الفراء: وليس قيامها كقيام القائم على رجله ونحوه، إنما هو كقولك: قام العدل، وقام الحق، أي: ظهر وثبت.

(٦) في مجاز القرآن ٢/ ٢٨٥.

مُنتَهاها، ومرسَى السفينةِ حيث تنتهي. وهو قولُ ابنِ عباس. الربيعُ بن أنس: متى زمانُها[١]. والمعنى متقارِبٌ. وقد مضى في «الأعراف» بيانُ ذلك[٢]. وعن الحسن أنَّ رسول الله ﷺ قال: «لا تقومُ الساعةُ إلَّا بغَضبَةٍ يغضَبُها ربُّك»[٣].

﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَآ﴾ أي: في أيِّ شيءٍ أنت يا محمدُ من ذِكرِ القيامةِ والسؤالِ عنها؟ وليس لك السؤالُ عنها. وهذا معنى ما رواه الزُّهريُّ عن عُروةَ بنِ الزُّبير قال: لم يزل النبيُّ ﷺ يسأل عن الساعة حتى نزلت ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَآ؟ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَآ﴾[٤] أي: مُنتَهى عِلْمِها؛ فكأنه عليه الصلاة والسلامُ لمَّا أكثَروا عليه سأل الله أن يعرِّفه ذلك. فقيل له: لا تَسألْ، فلستَ في شيءٍ من ذلك.

ويجوزُ أن يكون إنكاراً على المشركين في مسألتهم له، أي: فيم أنتَ من ذلك حتى يسألوك بيانَه، ولستَ ممَّن يَعلَمُه. رُوِي معناه عن ابن عباس[٥]. والذِّكرَى بمعنى الذِّكْرِ.

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَآ﴾ أي: مُنتهى عِلْمِها، فلا يُوجَدُ عند غيرِه، وهو كقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي﴾ [الأعراف:١٨٧] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [لقمان:٣٤].

﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾ أي: مخوِّفٌ، وخَصَّ الإنذارَ بمَن يَخشى؛ لأنَّهم المنتفعون به، وإنْ كان مُنْذِراً لكلِّ مُكلَّفٍ، وهو كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [يس:١٢]. وقراءةُ العامَّةِ: «منذِرُ» بالإضافةِ غيرَ منوَّنٍ؛ طَلَبَ التخفيفِ، وإلَّا فأصلُه التنوين لأنَّه للمستقبل، وإنَّما لا ينوَّنُ في الماضي. قال

---

(١) النكت والعيون ٦/ ٢٠٠.

(٢) ٩/ ٤٠٥.

(٣) أخرجه الداني في السنن الواردة في الفتن (٣٧٩)، وهو من مراسيل الحسن، ويرويه عنه الحسن بن دينار، قال عنه ابن حبان: تركه وكيع وابن المبارك، فأما أحمد ويحيى فكانا يكذبانه. الميزان ١/ ٤٨٩.

(٤) سلف في بداية تفسير هذه الآية.

(٥) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٢٠٠.

الفرَّاء: يجوزُ التنوينُ وتَرْكُه، كقوله تعالى: ﴿بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ﴾ [الطلاق: ٣] و«بالِغٌ أمْرَه» و﴿مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الأنفال: ١٨] و«موهِنٌ كيدَ الكافِرين»[1]، والتنوينُ هو الأصلُ، وبه قرأ أبو جعفر وشَيبةُ والأعرجُ وابنُ مُحيصنٍ وحُميدٌ، وعباسٌ عن أبي عمرو: «منذِرٌ» منوناً[2]، وتكون [مَن][3] في موضعِ نصب. والمعنى[4]: إنَّما ينتفعُ بإنذارِكَ مَن يخشَى الساعة.

وقال أبو عليٍّ[5]: يجوزُ أن تكون الإضافةُ للماضي، نحو: [هذا] ضاربُ زيدٍ أمسِ؛ لأنَّه قد فَعَل الإنذار.

والآيةُ ردٌّ على مَن قال: أحوالُ الآخرة غيرُ مَحْسوسةٍ، وإنَّما هي راحةُ الرُّوحِ أو تألُّمها من غير حِسٍّ.

﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا﴾ يعني الكفارَ يَرَوْنَ الساعةَ ﴿لَمْ يَلْبَثُوٓا۟﴾ أي: في دُنْياهُم. ﴿إِلَّا عَشِيَّةً﴾ أي: قَدْرَ عشيةٍ ﴿أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ أي: أو قَدْرَ الضُّحا الذي يلي تلك العَشيَّةَ، والمرادُ تقليلُ مدَّةِ الدنيا، كما قال تعالى: ﴿لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ﴾ [الأحقاف: ٣٥] ورَوَى الضحاكُ عن ابن عباس: كأنَّهم يومَ يَرَوْنَها لم يلبثوا إلَّا يوماً واحداً.

وقيل: «لم يلبثوا» في قبورهم «إلَّا عشِيةً أو ضُحاها»، وذلك أنَّهم استقصَروا مدَّة لَبثِهم في القبور لِمَا عاينوا من الهول.

وقال الفرَّاء: يقولُ القائلُ: وهل للعشيةِ ضُحًا؟ وإنَّما الضُّحا لصَدرِ النَهارِ، ولكنْ

---

(١) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٣٤، قال الزمخشري في الكشاف ٤/ ٢١٩: فإذا أريد الماضي فليس إلا الإضافة، كقولك: هو منذرُ زيدٍ أمس.

(٢) النشر ٢/ ٣٩٨ عن أبي جعفر، ورواية عباس عن أبي عمرو في السبعة ص٦٧١، والمشهور عن أبي عمرو: «منذرُ» بالإضافة.

(٣) زيادة يقتضيها السياق.

(٤) بعدها في (م): نصب، ولا معنى لها.

(٥) في الحجة ٦/ ٣٧٥، وما سيأتي بين حاصرتين.

أضيفَ الضُّحا إلى العشية ـ وهو اليومُ الذي يكونُ فيه ـ على عادةِ العرب؛ يقولون: آتيكَ الغَدَاة أو عشيَّتها، وآتيكَ العشيةَ أو غَدَاتَها، فتكونُ العشيةُ في معنى آخِرِ النهار، والغداةُ في معنى أوّلِ النهار؛ قال: وأنشدني بعضُ بني عقيل:

نحنُ صَبَحنا عامِراً في دارِها　　جُردًا تَعَادَى طَرَفَيْ نهارِها
عشيةَ الهلالِ أو سِرَارِها[1]

أراد: عشية الهلالِ، أو عشية سِرارِ العشيةِ، فهذا أشدّ[2] من: آتيكَ الغداةَ أو عَشِيَّها.

(١) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٣٤، وتفسير الطبري ٢٤/ ١٠١، وزاد المسير ٩/ ٢٥، وليس عندهم إلا البيتان الأول والثالث، والأبيات الثلاثة في تهذيب اللغة ١٢/ ٢٨٥، واللسان (سرر)، وذكر الأول والثاني صاحب اللسان (صبح) وقال: يريد أتيناها صباحاً بخيلٍ جُرْدٍ.

(٢) في مطبوع معاني القرآن للفراء: أَسَدُّ.

سورة عَبَس

مكية في قول الجميع، وهي إحدى وأربعون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ۝٤﴾

فيه ستُّ مسائلَ:

الأولى: قوله تعالى: ﴿عَبَسَ﴾ أي: كَلَح بوَجْهِه؛ يقال: عَبَس وبَسَر. وقد تقدَّمَ[1]. ﴿وَتَوَلَّىٰٓ﴾ أي: أعرَضَ بوجهه ﴿أَن جَآءَهُ﴾ «أنْ» في موضع نصبٍ لأنه مفعولٌ له، المعنى: لأنْ جاءه الأعمى، أي: الذي لا يُبْصِرُ بعينيه. فروى أهلُ التفسيرِ أجمع: أنَّ قوماً من أشراف قريشٍ كانوا عند النبيِّ ﷺ وقد طمع في إسلامهم، فأقْبَل عبد الله ابنُ أمِّ مكتوم، فكره رسول الله ﷺ أن يَقطَع عبدُ الله عليه كلامه، فأعْرَضَ عنه، ففيه نزلت هذه الآية.

قال مالك: إنَّ هشام بنَ عُروة حدَّثه عن عروةَ أنه قال: نزلتْ ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ في ابنِ أمِّ مكتوم، جاء إلى النبيِّ ﷺ فجعل يقول: يا محمد اسْتَدْنِني، وعند النبيِّ ﷺ رجلٌ من عظماء المشركين، فجعل النبيُّ ﷺ يُعرِضُ عنه ويُقبِلُ على الآخَرِ، ويقول: «يا فلان، هل ترى بما أقولُ بأساً؟» فيقول: لا والدُّمَى، ما أرى بما تقولُ بأساً، فأنزل الله ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾[2].

---

(١) ٢١/٣٧٨.

(٢) الموطأ ١/٢٠٣، وأحكام القرآن لابن العربي ٤/١٨٩٣. ووقع في الموطأ: لا والدِّماء، قال ابن الأثير في النهاية (دما): لا والدماء، أي: دماء الذبائح. ويروى: لا والدُّمَى، جمع دمية وهي الصورة، ويريد بها الأصنام.

وفي الترمذيِّ مُسنَداً قال: حدَّثنا سعيد بن يحيى بن سعيد الأُمَويُّ، حدَّثني أبي، قال: هذا ما عَرَضنا على هشام بنِ عُروةَ عن أبيه عن عائشة، قالت: نَزلَتْ ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ في ابنِ أمِّ مكتومٍ الأعمى، أتى رسولَ الله ﷺ فجعل يقول: يا رسولَ الله أرشِدْني، وعندَ رسولِ الله ﷺ رجلٌ من عظماء المشركين، فجعل رسولُ الله ﷺ يُعرِضُ عنه، ويُقبِلُ على الآخَرِ، ويقول: «أتَرى بما أقولُ بأساً» فيقول: لا، ففي هذا نزلت. قال: هذا حديث غريب[1].

الثانية: الآيةُ عِتابٌ من الله لنبيِّه ﷺ في إعراضه وتَولِّيه عن عبد الله ابن أمِّ مكتومٍ. ويقال: عمرو بن أمِّ مكتومٍ، واسمُ أمِّ مكتومٍ عاتكةُ بنت [عبد الله بن عنكثة بن] عامر ابن مخزوم، وعمرو هذا: هو ابنُ قيس بنِ زائدة بن الأصمِّ، وهو ابنُ خالِ خديجةَ رضي الله عنها[2]. وكان قد تَشَاغَلَ عنه برجلٍ من عظماء المشركين؛ يقال: كان الوليد بنَ المغيرة. ابن العربيّ[3]: قاله المالكيةُ من علمائنا، وهو يُكْنَى أبا عبد شمس.

وقال قتادةُ: هو أمية بنُ خلف. وعنه: أُبيّ بن خلف[4]. وقال مجاهدٌ: كانوا ثلاثةً: عتبة وشيبة ابنا ربيعة وأُبيّ بن خلف[5]. وقال عطاءٌ: عتبة بن ربيعة. سفيان الثوريُّ: كان النبيُّ ﷺ مع عمِّه العباس[6].

الزمخشريُّ[7]: كان عنده صناديدُ قريشٍ: عتبةُ وشيبةُ ابنا ربيعة، وأبو جهل بنُ هشام، والعباس بنُ عبد المطلِّب، وأميةُ بن خَلف، والوليدُ بن المغيرة، يدعوهم إلى

---

(١) سنن الترمذي (٣٣٣١).

(٢) الاستيعاب ٨/ ٣٥١ ، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٣) في أحكام القرآن ٤/ ١٨٩٣ .

(٤) أخرج القولين الطبري ٢٤/ ١٠٤ .

(٥) أخرجه الطبري ٢٤/ ١٠٧ فلم يذكر أبي بن خلف، وأخرجه عبد بن حميد وابن المنذر كما في الدر المنثور ٦/ ٣١٥ وفيه: عتبة بن ربيعة وأمية بن خلف.

(٦) أخرجه الطبري ٢٤/ ١٠٧ .

(٧) في الكشاف ٤/ ٢١٧ .

الإسلام. رَجاءَ أن يُسلم بإسلامهم غيرُهم.

قال ابن العربيّ: أمّا قولُ علمائنا: إنَّه الوليد بنُ المغيرة، وقال آخرون: إنه أميةُ ابن خلفٍ والعباسُ، وهذا كلُّه باطلٌ وجهلٌ من المفسِّرين الذين لم يتحقَّقوا الدِّينَ، ذلك أنَّ أميةَ والوليدَ كانا بمكةَ وابن أمِّ مكتومٍ كان بالمدينة، ما حَضَر معهما ولا حَضَرا معه، وكان موتُهما كافرين، أحدُهما قَبلَ الهجرةِ، والآخَرُ ببدرٍ، ولم يَقصِدْ قطُّ أميةُ المدينةَ، ولا حَضَر عندَه مُفرَداً، ولا مع أحدٍ[1].

الثالثة: أقبلَ ابنُ أمِّ مكتومٍ والنبيُّ ﷺ مُشتغلٌ بمَن حَضَره من وجوه قريشٍ يدعوهم إلى الله تعالى، وقد قَوِيَ طَمَعُه في إسلامهم، وكان في إسلامهم إسلامُ مَن وراءَهم مِن قومهم، فجاء ابنُ أمِّ مكتومٍ وهو أعمى فقال: يا رسولَ الله، علِّمْني ممَّا عَلَّمكَ الله، وجعل يناديه ويُكثِرُ النداءَ، ولا يدري أنه مشتغلٌ بغيره، حتى ظهرت الكراهةُ في وجه رسولِ الله ﷺ لقَطْعِه كلامَه، وقال في نفسه: يقولُ هؤلاء: إنَّما أتباعُه العُميانُ والسِّفْلةُ والعبيد، فعَبَس وأعرَضَ عنه، فنزلت الآيةُ[2]. قال الثَّوريُّ: فكان النبيُّ ﷺ بعد ذلك إذا رأى ابنَ مكتومٍ يبسُطُ له رداءَه ويقول: «مرحباً بمَن عاتَبني فيه ربِّي». ويقولُ: «هل مِن حاجةٍ»؟ واستخلفه على المدينة مرَّتين في غزوتين غَزَاهما[3]. قال أنس: فرأيتُه يومَ القادسيةِ راكباً وعليه درعٌ ومعه رايةٌ سوداء[4].

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٨٩٣-١٨٩٤ . وذكر أبو حيان في البحر ٨/ ٤٢٧ هذا الكلام عن القرطبي، ثم قال: والغلط من القرطبي كيف ينفي حضورَ ابن أمِّ مكتوم معهما (يعني أمية والوليد)، وهو وهمٌ منه، وكلهم من قريش، والسورة كلها مكية بالإجماع... وكانوا جميعهم بمكة حين نزول هذه الآية.

(٢) أسباب النزول للواحدي ص٤٧٩ ، وتفسير البغوي ٤/ ٤٤٦ ، وأخرجه بنحوه عبد بن حميد عن مجاهد، كما في الدر المنثور ٦/ ٣١٥ .

(٣) الكشاف ٤/ ٢١٧، وتفسير البغوي ٤/ ٤٤٦ ، وتفسير الرازي ٣٠/ ٥٤ .

(٤) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٣٤٨ ، وأحمد (١٢٣٤٤)، والطبري ٢٤/ ١٠٤ ، وزاد أحمد في أوله: استخلف رسول الله ﷺ ابن أم مكتوم مرتين على المدينة، ولقد رأيته...، وأخرجه أبو داود (٢٩٣١) بذكر الاستخلاف فقط.

الرابعة: قال علماؤنا: ما فَعَله ابنُ أمِّ مكتومٍ كان من سوءِ الأدبِ لو كان عالماً بأنَّ النبيَّ ﷺ مشغولٌ بغيره، وأنَّه يَرْجو إسلامَهم، ولكنَّ الله تبارك وتعالى عاتَبه حتى لا تَنكَسِرَ قلوبُ أهلِ الصُّفَّةِ، أو ليعلم أنَّ المؤمن الفقيرَ خيرٌ من الغنيِّ، وكان النظر إلى المؤمن أوْلَى، وإنْ كان فقيراً أصلحُ وأوْلَى من الأمرِ الآخَرِ، وهو الإقبالُ على الأغنياء طمعاً في إيمانهم، وإن كان ذلك أيضاً نوعاً من المصلحة، وعلى هذا يخرج قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ﴾ الآية [الأنفال:٦٧] على ما تقدَّم.

وقيل: إنَّما قَصَدَ النبيُّ ﷺ تأليفَ الرجلِ، ثقةً بما كان في قلبِ ابنِ أمِّ مكتومٍ من الإيمان؛ كما قال: «إنِّي لأُعطي[١] الرجلَ وغيرُه أحبُّ إليَّ منه، مخافةَ أن يَكُبَّه الله في النار على وجهه»[٢].

الخامسة: قال ابن زيد: إنَّما عبس النبيُّ ﷺ لابنِ أمِّ مكتومٍ وأعرَضَ عنه؛ لأنه أشار إلى الذي كان يقودُه أنْ يكفَّه، فدفعه ابنُ أمِّ مكتومٍ، وأبَى إلَّا أنْ يكلِّم النبيَّ ﷺ حتى يعلِّمه[٣]. فكان في هذا نوعُ جفاءٍ منه، ومع هذا أنزل الله في حقِّه على نبيِّه ﷺ: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ بلفظِ الإخبار عن الغائب؛ تعظيماً له[٤]، ولم يَقُلْ: عبَسْتَ وتَولَّيْتَ. ثم أقبلَ عليه بمواجهةِ الخطاب تأنيساً له فقال: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ أي: يُعلِمُكَ ﴿لَعَلَّهُۥ﴾ يعني ابنَ أمِّ مكتوم ﴿يَزَّكَّىٰٓ﴾ بما استدعى منكَ تعليمَه إياه من القرآن والدِّين، بأنْ يزدادَ طهارةً في دينه، وزوال ظلمةِ الجهلِ عنه.

وقيل: الضميرُ في «لعله» للكافر، يعني: إنَّك إذا طمعتَ في أنْ يتزكَّى بالإسلام، أو يذَّكَّرَ فتقرِّبه الذِّكرى إلى قبولِ الحقِّ، وما يُدْريكَ أنَّ ما طَمِعتَ فيه كائن[٥].

---

(١) في (م): لأصل.

(٢) قطعة من حديث أخرجه أحمد (١٥٢٢)، والبخاري (٢٧)، ومسلم (١٥٠) عن سعد بن أبي وقاص ﷺ. والكلام من أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٨٩٣ .

(٣) أخرجه بنحوه الطبري ٢٤/ ١٠٥ .

(٤) في (د): تعليماً.

(٥) تفسير الرازي ٣١/ ٥٦ .

وقرأ الحسن: «آن جاءه الأعمى» بالمدّ على الاستفهام، فـ«أنْ» متعلّقةٌ بفعلٍ محذوفٍ دلَّ عليه ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ التقدير: أأن جاءه أعرَضَ عنه وتَولّى؟ فيوقَفُ على هذه القراءةِ على «وتولَّى»[(١)]. ولا يوقفُ عليه على قراءة الخبر، وهي قراءةُ العامة.

السادسة: نظيرُ هذه الآيةِ في العتاب قولُه تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ [الآية:٥٢] وكذلك قولُه في سورة الكهف: ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الآية:٢٨] وما كان مثلَه، والله أعلم.

﴿أَوْ يَذَّكَّرُ﴾ يتَّعِظ بما تقولُ ﴿فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ﴾ أي: العِظَةُ. وقراءةُ العامَّةِ: «فتنفعُه» بضمِّ العين، عَطفاً على «يَزَّكَّى». وقرأ عاصم وابنُ أبي إسحاقَ وعيسى: «فتنْفَعَه» نصباً[(٢)]. وهي قراءةُ السُّلَميِّ وزِرّ بنِ حُبَيش، على جواب لعلَّ؛ لأنه غيرُ مُوجَبٍ، كقوله تعالى: ﴿لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ﴾ ثم قال: ﴿فَأَطَّلِعَ﴾ [غافر:٣٦-٣٧].

قوله تعالى: ﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ﴾ أي: كان ذا ثروةٍ وغِنًى ﴿فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ﴾ أي: تَعرَّضُ له، وتُصغِي لكلامه. والتَّصدِّي: الإصغاءُ؛ قال الراعي:

تَصَدَّى لِوضاحٍ كأنَّ جبينَه ... سِرَاجُ الدُّجى تُجبَى إليه الأساوِرُ[(٣)]

وأصلُه: تَتَصدَّدُ من الصَّدَد[(٤)]، وهو ما استقبلك، وصار قُبالَتَك؛ يقال: داري

---

(١) المحتسب ٢/ ٣٥٢، وقال ابن جني: فكأنه قال: أَلِأنْ جاءه الأعمى كان ذلك منه. والقراءة في القراءات الشاذة ص١٦٨.

(٢) السبعة ص٦٧٢، والتيسير ص٢٢٠.

(٣) في (ي) و(م): يحني إليه الأساور، والمثبت من باقي النسخ. وروايته في ديوان الراعي ص١٠٩، ومنتهى الطلب من أشعار العرب ٦/ ٩٢:

تَصَدَّى لِوضاحِ الجبين كأنه ... سراجُ الدُّجى تُجْبَى إليه السوائر

(٤) في (م). الصد، وفي (ظ) و(ي): الصدود، والمثبت من (د)، وهو موافق لما في تفسير الرازي ٣١/ ٥٦، والبحر ٨/ ٤٢٥، والدر المصون ١٠/ ٦٨٧.

صَدَدَ دارِه، أي: قُبالتَها، نُصِبَ على الظرف[1]. وقيل: من الصَّدَى وهو العطش. أي: تتعرَّض له كما يتعرَّض العطشانُ للماء، والمصاداةُ: المعارَضة.

وقراءةُ العامَّةِ: «تَصَدَّى» بالتخفيف، على طَرْحِ التاء الثانية تخفيفاً. وقرأ نافعٌ وابنُ مُحيصنٍ بالتشديد على الإدغام[2].

﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾ أي: لا يهتدي هذا الكافر ولا يؤمن، إنَّما أنت رسولٌ، ما عليك إلَّا البلاغ.

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ﴾ يطلبُ العلمَ لله ﴿وَهُوَ يَخْشَىٰ﴾ أي: يخافُ اللهَ ﴿فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾ أي: تُعرِضُ عنه بوجهك وتَشتَغلُ بغيره. وأصلُه: تتلهَّى. يقال: لَهِيتُ عن الشيء ألهَى، أي: تَشاغَلتُ عنه. والتلهِّي: التغافل. ولَهِيتُ عنه وتَلَهَّيْتُ بمعنى.

قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝١٢ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝١٣ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ۝١٤ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ۝١٥ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ۝١٦﴾

قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ «كلَّا» كلمةُ رَدْعٍ وزَجْرٍ، أي: ما الأمرُ كما تفعلُ مع الفريقين، أي: لا تَفْعلْ بعدها مثلها: من إقبالك على الغنيّ، وإعراضِكَ عن المؤمن الفقير، والذي جرى من النبيِّ ﷺ كان تَرْكَ الأولَى كما تقدَّم، ولو حُمِلَ على صغيرةٍ لم يَبْعُدْ؛ قاله القشيرُّي.

والوقفُ على «كلَّا» على هذا الوجهِ جائزٌ. ويجوز أن تقفَ على «تَلَهَّى»، ثم تبتدئ: «كَلَّا»، على معنى: حَقًّا.

﴿إِنَّهَا﴾ أي: السورةُ، أو آياتُ القرآن ﴿تَذْكِرَةٌ﴾ أي: مَوعظةٌ وتَبصِرةٌ للخَلْق ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ أي: اتَّعظ بالقرآن.

قال الجُرْجانيُّ: «إنها» أي: القرآن، والقرآنُ مذكَّر إلَّا أنه لمَّا جُعل القرآنُ

---

(١) الصحاح (صدد).

(٢) أي: «تصَّدَّى»، وقرأ بها من السبعة أيضاً ابن كثير. السبعة ص٦٧٢، والتيسير ص٢٢٠.

تذكرةً، أخرجه على لفظِ التَّذكِرة، ولو ذَكَّره لجاز، كما قال تعالى في موضعٍ آخَر: ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ﴾ [المدثر: ٥٤]. ويدلُّ على أنَّه أرادَ القرآنَ قولُه: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾[1] أي: كان حافظاً له غيرَ ناسٍ، وذكَّر الضمير. لأنَّ التذكرة في معنى الذِّكرِ والوَعظِ. وروى الضحَّاكُ عن ابن عباس في قوله تعالى: «فمن شاء ذَكَره» قال: مَن شاء الله تبارك وتعالى ألْهَمه[2].

ثم أخبر عن جَلَالته فقال: ﴿فِى صُحُفٍ﴾ جمعُ صحيفةٍ ﴿مُّكَرَّمَةٍ﴾ أي: عند الله، قاله السّدِّيّ. الطبريُّ: «مُكَرَّمةٍ» في الدِّين؛ لمَا فيها من العلم والحِكَم. وقيل: «مُكَرمةٍ» لأنها نزل بها كرامُ الحفَظة[3]. أو لأنَّها نازلةٌ من اللوح المحفوظ.

وقيل: «مكرمةٍ» لأنَّها نزلت من كريم؛ لأنَّ كرامةَ الكتابِ من كرامة صاحبِه[4].

وقيل: المرادُ كُتُبُ الأنبياءِ، دليلُه: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ . صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ [الأعلى: ١٨-١٩][5].

﴿مَّرْفُوعَةٍ﴾ رفيعة القَدرِ عند الله. وقيل: مرفوعة عنده تبارك وتعالى. وقيل: مرفوعة في السماء السابعة؛ قاله يحيى بن سلام. الطبريُّ: مرفوعة الذِّكرِ والقَدْر. وقيل: مرفوعة عن الشُّبَه والتناقُض[6].

﴿مُّطَهَّرَةٍۭ﴾ قال الحسن: من كلِّ دَنَس. وقيل: مُصَانة[7] عن أنْ ينالَها الكفَّار.

---

(١) تفسير الرازي ٣١/ ٥٩.

(٢) ذكره الواحدي في الوسيط ٤/ ٤٢٣ بلفظ: فمن شاء الله ألهمه وفهمه القرآن حتى يذكره ويتَّعظ به.

(٣) ذكر هذه الأقوال الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٢٠٣، ولم نقف على قول الطبري في تفسيره.

(٤) النكت والعيون ٦/ ٢٠٣.

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٤٤٧.

(٦) ذكر هذه الأقوال الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٢٠٣-٢٠٤، ولم نقف على قول الطبري في تفسيره.

(٧) كذا في النسخ، والصواب: مصونة، يقال: صنت الشيء فهو مَصُون، ولا تقل: مُصَان. تهذيب اللغة ١٢/ ٢٤٢، والصحاح (صون)، واللسان (صون).

وهو معنى قولِ السُّدِّيّ. وعن الحسن أيضاً: مُطهَّرة من أن تنزل على المشركين(١).

وقيل: أي: القرآن أُثبت للملائكة في صحفٍ يقرؤونها، فهي مكرمةٌ مرفوعةٌ مطهَّرة.

﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ﴾ أي: الملائكة الذين جعلهم الله سُفراءَ بينه وبين رُسُله، فهم بَررةٌ لم يتدنَّسوا بمعصيةٍ. ورَوى أبو صالحٍ عن ابن عباس قال: هي مطهَّرةٌ تجعلُ التطهيرَ لمن حملها، «بأيدي سَفَرةٍ» قال: كَتَبةٍ(٢). وقاله مجاهدٌ أيضاً(٣).

وهم الملائكةُ الكرامُ الكاتبون لأعمالِ العبادِ في الأسفار، التي هي الكتبُ، واحدُهم: سافِرٌ، كقولك: كاتبٌ وكَتَبة. ويقال: سَفَرتُ، أي: كتبتُ، والكتاب: هو السِّفْر، وجَمْعُه أسفار. قال الزجَّاج(٤): وإنَّما قيل للكِتَاب سِفرٌ ـ بكَسرِ السِّين ـ وللكاتب سافِر؛ لأنَّ معناه أنه يبيِّنُ الشيءَ ويوضِّحُه. يقال: أسفَر الصبح: إذا أضاء، وسفَرتِ المرأة: إنما كَشَفَت النقابَ عن وجهها. قال: ومنه سَفَرتُ بين القومِ أسفِرُ سِفارةً: أصلَحتُ بينهم. وقاله الفرَّاء، وأنشد:

فـمـا أدَعُ الـسِّـفـارةَ بـيـنَ قـومـي ولا أمـشـي بـغِـشٍّ إنْ مَـشَـيْـتُ(٥)

والسَّفير: الرسولُ والمُصْلِحُ بين القوم، والجمع: سُفَراء، مثل: فقيهٍ وفقهاء. ويقال للورَّاقين: سُفَراءُ، بلُغةِ العِبرانية.

وقال قتادة: السَّفَرة هنا هم القُرَّاء؛ لأنَّهم يقرؤون الأسفار. وعنه أيضاً كقولِ

---

(١) النكت والعيون ٦/ ٢٠٤.

(٢) أخرجه الطبري ٢٤/ ١٠٨ مختصراً بلفظ: ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ﴾ قال: كتبة.

(٣) أخرجه عبد بن حميد كما في الدر المنثور ٦/ ٣١٥.

(٤) في معاني القرآن ٥/ ٢٨٤.

(٥) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٣٦، وتفسير الطبري ٢٤/ ١٠٩، ونسبه المرزباني في معجم الشعراء ص٢٨٥ لموسى بن جابر الحنفي اليمامي، وهو شاعر نصراني جاهلي يلقب: أُزَيْرِق اليمامة، ويعرف بابن ليلى.

ابن عباس[١].

وقال وهب بن مُنبِّه: ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ هم أصحابُ النبيِّ ﷺ. قال ابن العربي[٢]: لقد كان أصحابُ رسولِ الله ﷺ سَفرةً، كِراماً بَرَرَةً، ولكنْ ليسوا بمُرادِينَ بهذه الآية، ولا قارَبوا المرادِينَ بها، بل هي لفظةٌ مخصوصةٌ بالملائكة عند الإطلاق، ولا يشاركُهم فيها سواهم، ولا يدخل معهم في مُتناولها غيرُهم. ورُوي في الصَّحيح عن عائشةَ رضي الله عنها: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «[مَثَلُ] الذي يقرأ القرآنَ وهو حافظٌ له، مع السَّفَرةِ الكرامِ البررة، ومثَلُ الذي يقرؤه وهو يتَعاهدُه، وهو عليه شديدٌ، فله أجران» متفقٌ عليه، واللفظُ للبخاري[٣].

﴿كِرَامٍ﴾ أي: كرامٍ على ربِّهم؛ قاله الكلبيُّ. الحسن: كرام عن المعاصي، فهم يرفعون أنفسَهم عنها[٤]. وروى الضحاك عن ابن عباس في «كِرامٍ» قال: يتكرَّمون أن يكونوا مع ابنِ آدمَ إذا خلا بزوجته، أو تَبرَّز لغائطه[٥]. وقيل: أي: يُؤْثِرون منافعَ غيرهم على منافع أنفسهم.

﴿بَرَرَةٍ﴾ جمعُ بارٍّ، مثل: كافرٍ وكَفَرة، وساحِرٍ وسَحَرة، وفاجِرٍ وفَجَرة؛ يقال: بَرٌّ وبارٌّ: إذا كان أهلاً للصِّدق، ومنه بَرَّ فلانٌ في يمينه، أي: صَدَق، وفلانٌ يَبرُّ خالقَه ويتبرَّرُه، أي: يطيعُه، فمعنى «بررةٍ» مطيعون لله، صادقون لله في أعمالِهم[٦]. وقد مضى في سورة الواقعة قولُه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ . فِي كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ . لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا

---

(١) أخرج القولين الطبري ٢٤/١٠٨-١٠٩ .

(٢) في أحكام القرآن ٤/ ١٨٩٤ ، وما قبله وما سيأتي بين حاصرتين منه.

(٣) صحيح البخاري (٤٩٣٧)، وصحيح مسلم (٧٩٨)، وسلف ١/ ١٤ .

(٤) النكت والعيون ٦/ ٢٠٤ .

(٥) ذكره الرازي ٣١/ ٥٨ عن عطاء قوله.

(٦) في (د): إيمانهم.

﴿ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ [الآيات: ٧٧-٧٩] أنَّهم الكرامُ البرَرَةُ في هذه السورة[١].

قوله تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ «قتِل» أي: لُعِن. وقيل: عُذِّب. والإنسانُ: الكافر. روى الأعمشُ عن مجاهدٍ قال: ما كان في القرآن «قُتِل الإنسان» فإنَّما عُني به الكافر[٢].

وروى الضحَّاكُ عن ابن عباس قال: نزلت في عُتبةَ بنِ أبي لَهَب، وكان قد آمن فلمَّا نزلتْ «والنجم» ارتدَّ، وقال: آمنت بالقرآن كلِّه إلَّا النجم، فأنزل الله جلَّ ثناؤه فيه ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾[٣] أي: لُعِنَ عُتبةُ، حيث كَفَر بالقرآن، ودعا عليه رسول الله ﷺ فقال: «اللهُمَّ سَلِّطْ عليه كَلْبكَ أسَدَ الغاضِرَة» فخرج من فَورِه بتجارةٍ إلى الشام، فلمَّا انتهى إلى الغاضرة تذكَّر دعاءَ النبيِّ ﷺ، فجعل لمَن معه ألفَ دينارٍ إنْ هو أصبح حيًّا، فجعلوه في وسط الرُّفقةِ، وجعلوا المتاعَ حوله، فبينما هم على ذلك أقبل الأسد، فلمَّا دنا من الرِّحال وثب فإذا هو فوقه فمزَّقه، وقد كان أبوه نَدبه وبكى وقال: ما قال محمدٌ شيئاً قَطُّ إلَّا كان[٤].

---

(١) عند تفسير الآية (٧٩) في المسألة الخامسة.

(٢) أخرجه الطبري ٢٤/ ١١٠.

(٣) أخرجه ابن المنذر عن عكرمة، كما في الدر المنثور ٦/ ٣١٥، وذكره الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٢٠٥ عن ابن جريج ومجاهد، ولم نقف عليه عن ابن عباس.

(٤) سلف المرفوع منه في بداية تفسير سورة النجم بلفظ: «اللهم سلط عليه كلباً من كلابك». وكذا أخرجه أبو الفرج في الأغاني ١٦/ ١٧٦ عن عكرمة، ثم قال: فقال ابن عباس: فخرج إلى الشام في ركب فيهم هبار بن الأسود، حتى إذا كانوا بوادي الغاضرة، وهي مَسبَعة، نزلوا ليلاً...، وذكر الخبر.

وروى أبو صالح عن ابن عباس: «ما أكْفَره»: أيُّ شيءٍ أكفَرَه[١]؟

وقيل: «ما» تعجُّبٌ؛ وعادةُ العربِ إذا تعجَّبوا من شيءٍ قالوا: قاتَلَه الله ما أحسَنه! وأخْزاه الله ما أظْلَمَه! والمعنى: اعجَبوا مِن كُفرِ الإنسانِ، لجميع ما ذَكَرنا بعد هذا[٢].

وقيل: ما أكْفَره بالله ونعمِه مع معرفتِه بكَثرةِ إحسانِه إليه، على التعجُّب أيضاً؛ قال ابنُ جُرَيج: أي: ما أشدَّ كُفرَه[٣]!

وقيل: «ما» استفهامٌ، أي: أيُّ شيءٍ دعاه إلى الكُفْر[٤]؛ فهو استفهامُ توبيخ. و«ما» تَحتَمِلُ التعجُّبَ، وتحتملُ معنى «أيّ» فتكونُ استفهاماً.

﴿مِنْ أَيِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ أي: مِن أيِّ شيءٍ خَلَقَ الله هذا الكافرَ فيتكبَّر؟ أي: اعجَبوا لخَلْقِه. ﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾ أي: من ماءٍ يَسيرٍ مهين جَماد ﴿خَلَقَهُۥ﴾ فلمَ يغْلُظُ[٥] في نفسه؟! قال الحسن: كيف يتكبَّر مَن خرج من سبيل البولِ مرَّتين[٦].

﴿فَقَدَّرَهُۥ﴾ في بَطْنِ أمِّه؛ كذا روى الضحَّاك عن ابن عباس[٧]، أي: قدَّر يديه ورجليه وعينيه وسائر آرابه[٨]، وحَسناً ودَميماً، وقصيراً وطويلاً، وشقيًّا وسعيداً.

وقيل: «فقدَّره» أي: فسوَّاه، كما قال: ﴿أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ

---

(١) ذكره أبو الليث ٣/ ٤٤٨ عن الكلبي، وذكره الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٢٠٥ عن السدي ويحيى ابن سلام.

(٢) النكت والعيون ٦/ ٢٠٥.

(٣) أخرجه ابن المنذر كما في الدر المنثور ٦/ ٣١٥.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٤٤٨، وقد سلف هذا القول قريباً من رواية أبي صالح عن ابن عباس.

(٥) في (م): يغلظ.

(٦) ذكره عن الحسن الجصاص في أحكام القرآن ٣/ ٣٥٢، وأخرجه البيهقي في الشعب (٨٢١٠) عن الأحنف بن قيس ﷺ.

(٧) أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر عن عكرمة، كما في الدر المنثور ٦/ ٣١٦.

(٨) جمع إرْب، وهو العضو. اللسان (أرب).

ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾ [الكهف: ٣٧]. وقال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ﴾ [الانفطار: ٧].

وقيل: فقدَّره أطواراً، أي: من حالٍ إلى حالٍ؛ نطفةً ثم علقةً، إلى أنْ تمَّ خَلقُه.

﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ﴾ قال ابن عباس في روايةِ عطاءٍ، وقتادةُ والسدِّيُّ ومقاتلٌ: يسَّره للخروج من بَطْنِ أمِّه[1].

مجاهدٌ: يسَّره لطريقِ الخيرِ والشرِّ، أي: بيَّن له ذلك، دليلُه: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ [الإنسان: ٣]، ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠]. وقاله الحسن وعطاء[2]، وابنُ عباسٍ أيضاً في روايةِ أبي صالح عنه.

وعن مجاهدٍ أيضاً قال: سبيل الشَّقاءِ والسعادة[3]. ابن زيد: سبيل الإسلام[4].

وقال أبو بكر بن طاهرٍ: يَسَّر على كلِّ أحدٍ ما خَلَقه له، وقدَّره[5] عليه؛ دليلُه قولُه عليه السلام: «اعْمَلوا فكلٌّ مُيسَّرٌ لِمَا خُلِقَ له»[6].

﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ﴾ أي: جَعَل له قبراً يُوارَى فيه إكراماً له، ولم يَجعَله ممَّا يلُقَى على وَجْهِ الأرضِ تأكله الطيرُ والعَوافي، قاله الفرَّاء[7].

وقال أبو عبيدةَ: «أقْبَره»: جَعل له قبراً، وأمَر أنْ يُقبَر. قال أبو عبيدة: ولمَّا قَتَل عمرُ بن هُبيرةَ صالحَ بن عبد الرحمن، قالت بنو تميم ودخلوا عليه: أَقْبِرنا صالحاً، فقال: دونكُموه. وقال: «أقْبَره» ولم يَقُلْ: قَبَره؛ لأنَّ القابِرَ هو الدَّافِنُ بيده، قال الأعشى:

---

(١) تفسير الطبري ٢٤/ ١١١-١١٢ .

(٢) تفسير الطبري ٢٤/ ١١٢-١١٣ عن مجاهد والحسن.

(٣) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٣٤٨ .

(٤) أخرجه الطبري ٢٤/ ١١٣ .

(٥) في (د) و(ظ): وقدر.

(٦) أخرجه أحمد (٦٢١)، والبخاري (٤٩٤٩)، ومسلم (٢٦٤٧) من حديث علي ﷺ، وسلف ١٠/ ٤٢١ .

(٧) في معاني القرآن ٣/ ٢٣٧ ، والعوافي مفردها: العافية والعافي، وهو كل طالب رزق من إنسان أو بهيمة أو طائر. النهاية (عفا).

لو أسندَتْ مَيْتاً إلى نحرِها عاشَ ولم يُنقَلْ إلى قابِرِ[١]

يقال: قبرتُ الميتَ: إذا دفنته، وأقبره الله: أي: صيَّره بحيث يُقْبَر، وجعل له قبراً؛ تقول العرب: بترتُ ذَنَب البعير، وأبترَه الله، وعَضَبْتُ قَرنَ الثورِ، وأعضبه الله، وطَرَدتُ فلاناً، والله أطْرَدَه، أي: صيَّره طَريداً[٢].

﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾ أي: أحياه بعدَ مَوْته. وقراءةُ العامَّة: «أنشرهُ» بالألف. وروى أبو حَيوةَ عن نافعٍ وشعيب بن أبي حمزة: «شاء نَشَره» بغير ألفٍ[٣]، لغتان فصيحتان بمعنى[٤]؛ يقال: أنشَر الله الميتَ ونَشَره؛ قال الأعشى:

حتى يقولَ الناسُ ممَّا رأوْا يا عَجَباً للميِّتِ النَّاشِرِ[٥]

قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾ قال مجاهدٌ وقتادةُ: «لَمَّا يَقضِ»: لا يقضي أحدٌ ما أُمِر به[٦]. وكان ابن عباس يقول: «لمَّا يَقْضِ ما أمَره»: لم يَفِ بالميثاق الذي أُخِذَ عليه في صُلْبِ آدم. ثم قيل: «كَلَّا» رَدْعٌ وزَجرٌ، أي: ليس الأمرُ كما يقول الكافر؛ فإنَّ الكافر إذا أُخبِرَ بالنُّشور وقال[٧]: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠] ربَّما يقول: قد قَضَيتُ ما أَمِرْتُ به. فقال: كلَّا لم يَقْضِ شيئاً،

---

(١) مجاز القرآن ٢/ ٢٨٦ ، والبيت في ديوان الأعشى ١٨٩ . وعمر بن هبيرة هو أبو المثنى الفزاري الشامي، أمير العراقين، توفي سنة (١٠٧هـ). السير ٤/ ٥٦٢ . وصالح بن عبد الرحمن هو كاتب الحجاج، وهو الذي نقل ديوان العراق من الفارسية إلى العربية، وكان يرى رأي الخوارج، ويقال: إن الذي قتله هو الحجاج. ينظر ما سلف ١/ ٣٥١ ، وغريب الحديث لابن قتيبة ١/ ٢٨١ ، والكامل للمبرد ٢/ ٧٢٩ ، وجمهرة اللغة ١/ ٢٧١ .

(٢) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٣٧ .

(٣) المحتسب ٢/ ٣٥٣ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٣٩ ، والبحر ٨/ ٤٢٩ . وشعيب بن أبي حمزة هو أبو بشر الأموي مولاهم الحمصي الكاتب، واسم أبيه دينار. توفي سنة (١٦٢هـ). السير ٧/ ١٨٧ .

(٤) وقال ابن جني في المحتسب ٢/ ٣٥٣ : «أنشر» أقوى اللغتين.

(٥) ديوان الأعشى ص١٩١ .

(٦) أخرجه الطبري ٢٤/ ١١٤ عن مجاهد بلفظ: لا يقضي أحد أبداً ما افتُرض عليه.

(٧) في (د) و(م): قال.

بل هو كافرٌ بي وبرسولي.

وقال الحسن: أي: حَقّاً لم يَقْضِ[١]، أي: لم يَعمَلْ بما أُمِرَ به. و«ما» في قوله: «لمَّا» عمادٌ للكلام[٢]؛ كقوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩] وقوله: ﴿عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٤٠].

وقال الإمامُ ابن فُورَك: أي: كلَّا لَمَّا يَقْضِ الله لهذا الكافرِ ما أمره به من الإيمان، بل أمرَه بما لم يَقضِ له [به][٣].

ابن الأنباريّ: الوَقفُ على «كلَّا» قبيح، والوقفُ على «أمره» و«أنشره» جيد[٤]؛ فـ«كلَّا» على هذا بمعنى حقًّا.

قوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾

قوله: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾ لمَّا ذَكَر جلَّ ثناؤه ابتداءَ خَلْقِ الإنسانِ، ذَكَر ما يسَّر مِن رِزقه، أي: فَلينظرْ كيف خَلَق الله طعامَه. وهذا النظرُ نظرُ القلبِ بالفكر، أي: ليتَدَبَّرْ كيف خَلَق الله طعامَه الذي هو قِوَامُ حياتِه، وكيف هَيَّأ له أسبابَ المعاش، ليستعدَّ بها للمعاد. ورُوي عن الحسن ومجاهدٍ قالا: «فَلينظرِ الإنسان إلى طعامِهِ» أي: إلى مدخله ومخرجه[٥].

وروى ابن أبي خَيثمةَ عن الضحَّاك بن سفيان الكلابيِّ قال: قال لي النبيُّ ﷺ: «يا ضحاكُ، ما طعامُك؟» قلت: يا رسولَ الله! اللَّحمُ واللَّبن. قال: «ثم يصيرُ إلى ماذا؟»

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٤٤٨، وزاد المسير ٩/ ٣٢.

(٢) يعني صلة.

(٣) تفسير الرازي ٣١/ ٦١، وما بين حاصرتين منه.

(٤) بنحوه في إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٩٦٦.

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٤٤٨ عن مجاهد، وأخرجه عنه عبد بن حميد كما في الدر المنثور ٦/ ٣١٦.

قلتُ: إلى ما قد عَلِمتَه؛ قال: «فإنَّ الله ضَرَبَ ما يَخرجُ من ابنِ آدمَ مثلاً للدنيا»[١].
وقال أبيّ بن كعب: قال النبيُّ ﷺ: «إنَّ مَطْعَم ابن آدمَ جُعِل مَثَلاً للدنيا، وإنْ قَزَحَه ومَلَحه، فانظرْ إلى ما يصير»[٢].

وقال أبو الوليد: سألتُ ابنَ عمر عن الرجل يدخلُ الخَلاءَ فينظر ما يخرجُ منه؛ قال: يأتيه الملكُ فيقولُ: انظُر ما بَخِلتَ به إلى ما صار[٣]؟

قوله تعالى: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا﴾ قراءةُ العامَّة: «إنَّا» بالكسر، على الاستئناف. وقرأ الكوفيون ورُوَيس عن يعقوب: «أنَّا» بفتح الهمزة[٤]، فـ«أنَّا» في موضعِ خَفْضٍ على الترجمة عن الطعام، فهو بدَلٌ منه، كأنه قال: فلينظُرِ الإنسانُ إلى طعامِهِ، إلى أنَّا صَبَبنا. فلا يَحسُنُ الوقفُ على «طعامِهِ» من[٥] هذه القراءة، وكذلك إنْ رَفعتَ «أنَّ»[٦] بإضمارٍ: هو أنَّا صببنا؛ لأنَّها في حالِ رَفعِها مُترجمةٌ عن الطعام. وقيل: المعنى: لأنَّا صَببنا الماءَ، فأخْرَجْنا به الطعامَ، أي: كذلك[٧] كان.

وقرأ الحسين بن علي: «أنّى» ممال، بمعنى كيف[٨]؟ فمن أخذَ بهذه القراءة قال:

---

(١) أخرجه أحمد (١٥٧٤٧).

(٢) أخرجه عبد الله بن أحمد في زوائده على مسند أحمد (٢١٢٣٩)، قال السندي كما في حاشية المسند: قَزَحَه، أي: أصلحه بالأبزار (يعني حبوب التوابل)، و«إن» وصلية، أي: انظروا إلى ما يصير إليه وإن أصلحه. و«مَلَحه» بالتخفيف، يقال: مَلحت القدر: إذا طرحت فيها من الملح بقدر، وأملحتها وملَّحتها بالتشديد: إذا كثَّرت فيها الملح حتى فسدت.

(٣) ذكره بنحوه عن ابن عمر ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٤٣٩، وأخرج نحوه عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي قلابة، كما في الدر المنثور ٦/ ٣١٦.

(٤) السبعة ص٦٧٢، والتيسير ص٢٢٠، والنشر ٢/ ٣٩٨.

(٥) في (ظ): على، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٩٦٧، والكلام منه.

(٦) في (م): أنا، وليست في (ظ)، والمثبت من باقي النسخ وإيضاح الوقف والابتداء.

(٧) في (ظ): لذلك.

(٨) الكشاف ٤/ ٢١٩، والبحر ٨/ ٤٢٩، ووقع في النسخ الخطية: الحسن بن علي، وهو موافق لما في الدر المصون ١٠/ ٦٩٢، وفتح القدير ٥/ ٣٨٥، وذكر القراءة ابن الأنباري في إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٩٦٧، وفيه: وقرأ بعض القراء...

الوقفُ على «طعامه» تامٌّ. ويقال: معنى «أنّى»: أين، إلَّا أنَّ فيها كنايةً عن الوجوه، وتأويلُها: من أيِّ وجهٍ صببنا الماء؛ قال الكُميت:

أنَّى ومِن أينَ آبَكَ الطَّرَبُ مِن حيثُ لا صَبوةٌ ولا رِيَبُ[1]

﴿صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا﴾: يعني الغيثَ والأمطارَ ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا﴾: أي: بالنبات ﴿فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا﴾ أي: قمحاً وشعيراً وسُلْتاً، وسائرَ ما يُحصَدُ ويدَّخَر ﴿وَعِنَبًا وَقَضْبًا﴾ وهو القَتُّ والعَلَف؛ عن الحسن[2]. سمِّي بذلك لأنه يقضب، أي: يُقْطَعُ بعد ظهورِه مرَّةً بعد مرةٍ. قاله القُتبيُّ وثعلب[3]. وأهلُ مكةَ يسمُّون القَتَّ: القَضْب[4].

وقال ابن عباس: هو الرُّطَبُ؛ لأنه يُقضَبُ من النخل، ولأنه ذَكَر العِنَبَ قبلَه. وعنه أيضاً: أنه الفِصفِصةُ[5]، وهو القَتُّ الرَّطْبُ.

وقال الخليل: القَضبُ: الفِصْفِصةُ الرَّطْبةُ ـ وقيل: بالسِّين ـ فإذا يبِسَتْ فهو قَتٌّ. قال: والقَضْبُ اسمٌ يقع على ما يُقضَبُ من أغصان الشجرة، ليتَّخَذَ منها سِهامٌ أو قِسيٌّ[6].

ويقال: قَضْباً، يعني جميعَ ما يُقضَبُ، مثل القَتِّ والكُرَّاثِ وسائر البقول التي تُقطَع فينبتُ أصلُها.

---

(١) شرح هاشميات الكميت ص١٠٠، وإيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٩٦٧، والكلام منه. قال أبو رياش القيسي شارح الهاشميات: آبك: أتاك ليلاً، والطَّرَب: الخفَّة من حزن ومن فرح جميعاً. يقول: إنما طربُك إلى بني هاشم لا صبوةٌ في صبا، ولا رِيب، أي: لا ريبة.

(٢) أخرجه الطبري ٢٤/ ١١٦ دون قوله: القت. والقَتُّ: الفِصْفِصة، وهي نبات كالبرسيم. المعجم الوسيط (قت) و(رطب). وفي النهاية (فصفص): الفِصْفِصة: هي الرَّطبةُ من علف الدوابّ، وتسمى: القت، فإذا جفَّ فهو قَضب. ويقال: فِسْفِسة بالسين.

(٣) تفسير الغريب لابن قتيبة ص٥١٤، وذكره عن ثعلب ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٤٣٩، وهو بنحوه في مجالس ثعلب ص٢٢٩، ووقع في النسخ: قال، بدل: قاله.

(٤) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٣٨، وتفسير الطبري ٢٤/ ١١٦.

(٥) أخرجه الطبري ٢٤/ ١١٦، ولم نقف على الذي قبله.

(٦) بنحوه في العين ٥/ ٥٢-٥٣.

وفي «الصحاح»: والقَضبةُ والقَضبُ الرَّطْبةُ، وهي الإسْفِسْتُ بالفارسية، والموضع الذي تَنْبُتُ فيه: مَقضَبة[١].

﴿وَزَيْتُونًا﴾ وهي شجرةُ الزيتونِ ﴿وَنَخْلًا﴾ يعني النخيل ﴿وَحَدَآئِقَ﴾ أي: بساتين، واحدُها حديقة. قال الكلبيُّ: وكلُّ شيءٍ أُحيطَ عليه من نخيلٍ أو شجرٍ فهو حديقةٌ، وما لم يُحَطْ عليه فليس بحديقة[٢].

﴿غُلْبًا﴾ عِظَاماً شجرُها؛ يقال: شجرةٌ غَلباءُ، ويقال للأسد: الأغلَب؛ لأنه مُصمَتُ العنقِ، لا يَلتفتُ إلَّا جميعاً؛ قال العجَّاج:

مازِلتُ يومُ البَينِ ألوِي صَلَبي والرأسَ حتى صِرتُ مِثلَ الأغلَبِ[٣]

ورجلٌ أغلبُ بيِّنُ الغَلبِ: إذا كان غليظَ الرقبة. والأصلُ في الوصف بالغلب: الرقاب، فاستُعير. قال عمرو بن مَعْدِي كَرِب:

يَمشي بها غُلبُ الرقابِ كأنهم بُزُلٌ كُسِينَ من الكُحَيلِ جِلَالا[٤]

وحديقةٌ غَلبَاءُ: ملتفَّةٌ، وحدائقُ غُلبٌ. واغلَوْلَبَ العشبُ: بلغ والتَفَّ البعضُ بالبعض. قال ابن عباس: الغُلْب: جمع أغلَبَ وغَلباءَ، وهي الغِلاظ[٥]. وعنه أيضاً: الطِّوَال. قتادةُ وابنُ زيد: الغُلْبُ: النخلُ الكِرام. وعن ابن زيد أيضاً وعِكرمةُ: عِظَامُ الأوساطِ والجُذوع. مجاهد: ملتفَّة[٦].

---

(١) الصحاح (قضب). والرَّطبة: الفِصْفِصة، وكلُّ ما أكل من النبات غضًّا طريًّا. المعجم الوسيط (رطب).

(٢) تفسير أبي الليث ٣/٤٤٩ .

(٣) ذكره ابن دريد في الجمهرة ١/٢٩٨ و٣١٨ عن الأغلب العجلي، وقال: الصَّلَب: الصُّلْب، لغة تميمية. ولم نقف عليه في ديوان العجاج.

(٤) الكشاف ٤/٢٢٠ . البُزُل: جمع بَزول، وهو البعير طلع نابه وذلك في السنة الثامنة أو التاسعة. المعجم الوسيط (بزل). والجِلال جمع جلٍّ (بضم الجيم وبفتحها) وهو ما تُلْبَسه الدابة لتصان به. والكُحيل كزبير: النفط أو القطران تُطْلى به الإبل. القاموس (جلل) و(كحل).

(٥) أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم، كما في الدر المنثور ٦/٣١٦ ، ولفظه: الغلب: ما غلظ.

(٦) تنظر هذه الأخبار في تفسير الطبري ٢٤/١١٧-١١٩ .

﴿وَفَٰكِهَةً﴾ أي: ما تأكلُه الناسُ من ثمار الأشجار، كالتين والخَوخ وغيرِهما ﴿وَأَبًّا﴾ هو ما تأكلُه البهائم من العُشب؛ قال ابن عباس والحسن: الأَبُّ: كلُّ ما أنبتَت الأرضُ، ممَّا لا يأكلُه الناس[١]، وما يأكلُه الآدميون هو الحَصيدة، ومنه قولُ الشاعر في مَدحِ النبيِّ ﷺ:

لـه دَعـوةٌ مَـيـمـونـةٌ رِيـحُـهـا الـصَّـبـا ... بهـا يُـنـبِـتُ الـلـه الـحـصِـيـدةَ والأَبَّـا[٢]

وقيل: إنَّما سمِّي أبًّا؛ لأنَّه يُؤَبُّ، أي: يُؤَمُّ ويُنتجَعُ. والأَبُّ والأَمُّ أخَوان؛ قال:

جِـذمُـنـا قـيـسٌ ونَـجْـدٌ دارُنـا ... ولـنـا الأَبُّ بـه والـمـكْـرَعُ[٣]

وقال الضحَّاك: الأَبُّ: كلُّ شيءٍ يَنْبتُ على وَجْهِ الأرضُ[٤]. وكذا قال أبو رَزِين: هو النبات. يدلُّ عليه قولُ ابنِ عباس قال: الأَبُّ: ما تُنبتُ الأرضُ ممّا يأكلُ الناسُ والأنعام[٥].

وعن ابن عباسٍ أيضاً وابنِ أبي طلحةَ: الأَبُّ: الثمارُ الرَّطبة[٦].

وقال الضحاك: هو التِّبنُ خاصةً. وهو مَحْكيٌّ عن ابن عباس أيضاً[٧]؛ قال الشاعر:

فـمـا لَـهُـمْ مَـرْتَـعٌ لِـلـسَّـوَا ... مِ والأَبُّ عـنـدَهُـمُ يُـقْـدَرُ[٨]

---

(١) أخرجه عن ابن عباس ابن خزيمة (٢١٧٢) ـ (٢١٧٤)، والطبري ٢٤/ ١٢١ .

(٢) النكت والعيون ٦/ ٢٠٨ ، ونسبه صاحب كتاب الوافي بالوفيات ١١/ ٣٣٢ لحرب بن رَيْطة.

(٣) جمهرة اللغة ١/ ١٣ ، وتهذيب اللغة ١٥/ ٥٩٩ ، والكشاف ٤/ ٢٢٠ ، والكلام منه. قوله: جِذْمنا، الجِذْم بالكسر: الأصل، القاموس (جذم). وقال ابن دريد: المكرع: الذي تكرع فيه الماشية، مثل ماء السماء، ، يقال: كرع في الماء: إذا غابت فيه أكارعه.

(٤) النكت والعيون ٦/ ٢٠٨ .

(٥) أخرج قول أبي رزين وقول ابن عباس الطبري ٢٤/ ١٢١ .

(٦) تفسير الطبري ٢٤/ ١٢٣ ، والنكت والعيون ٦/ ٢٠٨ .

(٧) المحرر الوجيز ٥/ ٤٣٩ عن الضحاك، والنكت والعيون ٦/ ٢٠٨ عن ابن عباس، وأخرجه عن الضحاك عبد بن حميد، كما في الدر المنثور ٦/ ٣١٧ . ووقع في النسخ: التين، والمثبت عن المصادر.

(٨) النكت والعيون ٦/ ٢٠٨ ، والسَّوام: الإبل الراعية. القاموس (سوم).

الكلبيُّ: هو كلُّ نباتٍ سوى الفاكهةِ. وقيل: الفاكهةُ: رَطْبُ الثمارِ، والأبُّ يابِسُها[١].

وقال إبراهيمُ التَّيميُّ: سُئل أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ ﷺ عن تفسير الفاكهةِ والأبِّ، فقال: أيُّ سماءٍ تُظِلُّني، وأيُّ أرضٍ تُقِلُّني، إذا قلتُ في كتابِ اللهِ ما لا أعلَم[٢].

وقال أنس: سمعتُ عمر بنَ الخطاب ﷺ قرأ هذه الآية ثم قال: كلُّ هذا قد عَرفناه، فما الأبُّ؟ ثم رفع عصاً كانت بيده وقال: هذا لَعَمرُ الله التكلُّفُ، وما عليك يا ابنَ أمِّ عمرَ ألَّا تَدري ما الأبُّ؟ ثم قال: اتَّبِعوا ما تَبيَّن[٣] لكم من هذا الكتابِ، وما لَا فَدَعوه[٤].

ورُوي عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «خُلِقتُم من سَبْعٍ، و رزُقتُم من سبعٍ، فاسْجُدوا لله على سبعٍ». وإنَّما أراد بقوله: «خُلقتُم من سبع» يعني: ﴿مِن نُّطْفَةٍ . ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ . ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ﴾ الآية [الحج: ٥]، والرزقُ من سَبعٍ، وهو قولُه تعالى: ﴿فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا وَعِنَبًا﴾ إلى قوله: ﴿وَفَٰكِهَةً﴾[٥]، ثم قال: «وأبًّا»، وهو يدلُّ على أنه ليس برزقٍ لابنِ آدم، وأنَّه مما تَختصُّ به البهائم. والله أعلم.

﴿مَّتَٰعًا لَّكُمْ﴾ نصب على المصدر المؤكَّد؛ لأنَّ إنباتَ هذه الأشياءِ إمتاعٌ لجميعِ

---

(١) النكت والعيون ٦/ ٢٠٨.

(٢) أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن ص٢٢٧، وهو منقطع بين إبراهيم التيمي وأبي بكر رضي الله عنهما. وروي كذلك عن طريق إبراهيم النخعي عن أبي بكر، وهو أيضاً منقطع كما ذكر الحافظ في الفتح ١٣/ ٢٦٥، وقال: لكن أحدهما يقوي الآخر.

(٣) في النسخ عدا (ظ): بين، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق للكشاف ٤/ ٢٢٠، والكلام منه.

(٤) أخرجه ابن سعد ٣/ ٣٢٧، وأبو عبيد في فضائل القرآن ص٢٢٧، وسعيد بن منصور في سننه (٤٣ ـ تفسير)، والطبري ٢٤/ ١٢٠ و١٢٣، ونقله المصنف عن الكشاف ٤/ ٢٢٠. قال ابن كثير عند تفسير هذه الآية: وهذا محمول على أنه أراد أن يعرف شكله وجنسه وعينه، وإلا فهو وكلُّ مَن قرأ هذه الآية يعلم أنه من نبات الأرض.

(٥) تفسير أبي الليث ٣/ ٤٤٩، ولم نقف عليه مسنداً.

الحيوانات. وهذا ضربُ مَثَلٍ؛ ضرَبَه الله تعالى لبَعْثِ الموتى من قبورهم، كنباتِ الزرعِ بعد دُثُوره[١]، كما تقدَّم بيانُه في غيرِ موضعٍ. ويتضمَّنُ امتناناً عليهم بما أنْعَم به وقد مضى في غيرِ موضعٍ أيضاً.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ﴾ لمَّا ذَكَر أمرَ المعاشِ أمرَ ذكَر المَعادِ، ليتزوَّدوا له بالأعمال الصالحة، وبالإنفاق ممَّا امتَنَّ به عليهم. والصَّاخَّةُ: الصيحةُ التي تكون عنها القيامةُ، وهي النفخةُ الثانية، تَصُخُّ الأسماعَ: أي: تُصِمُّها فلا تَسْمَعُ إلَّا ما يُدعَى به للإحياء.

وذكر ناسٌ من المفسرين قالوا: تُصِيخُ لها الأسماعُ، مِن قولك: أصاخَ إلى كذا، أي: اسْتَمَعَ إليه، ومنه الحديثُ: «ما من دابَّةٍ إلَّا وهي مُصيخةٌ يومَ الجمعةِ شَفَقًا من الساعةِ، إلَّا الجنَّ والإنس»[٢]. وقال الشاعر:

يُصِيخُ للنَّبْأةِ أسماعَهُ إصاخةَ الناشِدِ للمُنشِدِ[٣]

قال بعضُ العلماءِ: وهذا يؤخَذُ على جهةِ التسليم للقُدَماء، فأمَّا اللغةُ فمقتضاها القولُ الأولُ؛ قال الخليل: الصاخَّة: صيحةٌ تَصُخُّ الآذانَ صَخًّا، أي: تُصِمُّها بشدةِ

---

(١) النكت والعيون ٦/ ٢٠٨ .

(٢) قطعة من حديث طويل أخرجه مالك في الموطأ ١/ ١٠٨ ، وأحمد (١٠٣٠٣)، وأبو داود (١٠٤٦)، والنسائي في المجتبى ٣/ ١١٣-١١٥ عن أبي هريرة ﷺ. ووقع عند أحمد وأبي داود: مُسيخة، بدل: مصيخة. قال الخطابي في معالم السنن ١/ ٢٤٢ : يقال: أصاخ وأساخ، بمعنى واحد.

(٣) النكت والعيون ٦/ ٢٠٩ ، ووقع في (م): إصاخة المنشد للمنشد. والنَّبْأة: الصوت الخفي. القاموس (نبأ).

وَقعَتها[(١)]. وأصلُ الكلمةِ في اللغة: الصَّكُّ الشديد. وقيل: هي مأخوذةٌ من صخَّه بالحجر: إذا صَكَّه، قال الراجز:

يا جارتي هل لكِ أنْ تجالدي جلادةً كالصَّكِّ بالجَلامِدِ[(٢)]

ومن هذا البابِ قولُ العربِ: صَخَّتْهم الصاخَّةُ وباقَتْهم البائقة[(٣)]، وهي الداهية. الطبريُّ: وأحسبُه من صَخَّ فلانٌ فلاناً: إذا أصْماه[(٤)].

قال ابن العربيّ: الصاخَّة التي تُورِثُ الصمَمَ، وإنَّها لمُسمِعةٌ، وهذا من بديع الفصاحة، حتى لقد قال بعضُ حَديثي الأسنان حديثي الأزمان:

أصَمَّ بِكَ الناعي وإنْ كان أسمَعا[(٥)]

وقال آخر:

أصَمَّني سِرُّهم أيامَ فُرقتهم فهل سمِعتُم بسِرٍّ يُورِثُ الصَّمَما[(٦)]

لعَمْرُ الله إنَّ صيحةَ القيامةِ لمسمِعةٌ تُصِمُّ عن الدنيا، وتُسمِعُ أمورَ الآخرة.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾ أي: يهربُ، أي: تَجيءُ الصاخَّة في هذا اليومِ الذي يهربُ فيه من أخيه، أي: من مُوَالاةِ أخيه ومُكالمَتهِ؛ لأنه لا يتفرَّغُ لذلك لاشتغاله بنفسه، كما قال بعده: ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ أي: يَشْغَلُه عن غيره.

وقيل: إنَّما يفرُّ حذراً من مطالبتهم إياه بمَا[(٧)] بينهم من التَّبِعات. وقيل: لئلَّا يَرَوْا

---

(١) العين ٤/ ١٣٥ ، ووقع في (ظ): بشدة وقعها.

(٢) لم نقف عليه. قوله: بالجلامد، جمع جَلْمد، وهو الصخر. والصك: الضرب الشديد بالشيء العريض. اللسان (جلمد) و(صك).

(٣) في النسخ عدا (ظ): وباتهم البائتة، والمثبت من (ظ). وفي البحر ٨/ ٤٢٩ : ونابتهم النائبة.

(٤) كذا ذكر المصنف، والذي في تفسير الطبري ٢٤/ ١٢٤ : وأحسبها مأخوذة من قولهم: صاخ فلان لصوت فلان: إذا استمع له.

(٥) البيت لأبي تمام، وهو في ديوانه بشرح التبريزي ٤/ ٩٩ ، وعجزه: وأصبح مَغْنَى الجودِ بعدكَ بَلقَعا.

(٦) البيت لأبي تمام، وهو في ديوانه بشرح التبريزي ٣/ ١٦٦ برواية... هل كنت تعرف سرًّا يورث الصمما.

(٧) في (د) و (م): لما.

ما هو فيه من الشدَّة. وقيل: لعِلْمِه أنَّهم لا ينفعونه ولا يُغْنونَ عنه شيئاً، كما قال: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا﴾ [الدخان: ٤١].

وقال عبد الله بنُ طاهِرٍ الأبهَريُّ: يَفِرُّ منهم لِمَا تبيَّنَ له من عَجزِهم وقلَّةِ حيلتهم، إلى مَن يملكُ كَشفَ تلك الكُروبِ والهمومِ عنه، ولو ظَهَر له ذلك في الدنيا لَمَا اعتَمَدَ شيئاً سوى ربِّه تعالى.

﴿وَصَاحِبَتِهِۦ﴾ أي: زوجته. ﴿وَبَنِيهِ﴾ أي: أولاده.

وذكر الضحَّاك عن ابن عباس قال: يفرُّ قابيلُ من أخيه هابيلَ، ويفرُّ النبيُّ ﷺ من أمِّه، وإبراهيمُ عليه السلام من أبيه، ونوحٌ عليه السلام من ابنه، ولوطٌ من امرأته، وآدمُ من سَوأةِ بنيه[1].

وقال الحسن: أولُ مَن يفرُّ يومَ القيامةِ من أبيه: إبراهيمُ، وأولُ مَن يفرُّ من ابنه نوحٌ، ،أولُ مَن يفرُّ من امرأته لوطٌ. قال: فيرَوْنَ أنَّ هذه الآيةَ نزلت فيهم[2] وهذا فرارُ التبرُّؤ.

﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾. في «صحيح» مسلم عن عائشةَ رضي الله عنها قالت: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «يُحشَرُ الناسُ يومَ القيامةِ حُفاةً عُراةً غُرلاً» قلتُ: يا رسولَ الله! الرجالُ والنساءُ جميعاً ينظُر بعضُهم إلى بعضٍ؟ قال: «يا عائشة، الأمر أشدُّ مِن أن ينظرَ بعضُهم إلى بعضٍ»[3].

خرَّجه التِّرمذيُّ عن ابن عباس: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «تُحشَرون حُفاةً عُراةً غُرْلاً» فقالت امرأةٌ: أينْظُرُ بعضُنا ـ أو يرى بعضُنا ـ عورة بعض؟ قال: «يا فلانة، لكلِّ امرِئ

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٢/ ٣٤١ عن قتادة دون قوله: وآدم من سوأة بنيه. ولم نقف عليه عن ابن عباس.

(٢) أخرجه ابن عساكر ٨/٦٤ .

(٣) صحيح مسلم (٢٨٥٩)، وسلف ١٣/ ٢٩٧ . قوله: غرلاً، الغُرْل جمع الأغرل، وهو الأقلف. النهاية (غرل).

مِنهم يومئذٍ شأنٌ يُغنِيهِ». قال: حديثٌ حسنٌ صحيح[(١)].

وقراءةُ العامَّة بالغَيْنِ المعجَمة، أي: حالٌ يشغَله عن الأقرباء. وقرأ ابنُ مُحيصنٍ وحُميدٌ: «يَعنِيهِ» بفتح الياءِ، وعين غير معجَمة[(٢)]، أي: يَعْنيه أمره.

وقال القُتَبيُّ: يُغْنيه[(٣)]: يَصْرِفُه ويصُدُّه عن قرابته، ومنه يقال: أغنِ عنِّي وجهك، أي: اصرِفْه، وأغنِ عنِّي السَّفيه[(٤)]؛ قال خُفاف:

سَيُغْنِيك[(٥)] حربُ بني مالكٍ ... عن الفُحْشِ والجهلِ في المحْفلِ

قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ﴾: أي: مُشرقةٌ مضيئة، قد عَلمتْ مالَها من الفوز والنعيم، وهي وجوهُ المؤمنين. ﴿ضَاحِكَةٌ﴾ أي: مسرورة فَرِحة ﴿مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ أي: بما آتاها الله من الكرامة.

وقال عطاءٌ الخُراسانيُّ: «مُسْفِرة» من طولِ ما اغبرَّتْ في سبيل الله جلَّ ثناؤه. ذكَره أبو نعيم[(٦)].

الضحَّاك: مِن آثارِ الوضوء. ابنُ عباس: من قيام الليلِ؛ لمَا رُوي في الحديث: «مَن كثُرتْ صلاتُه بالليل حَسُنَ وجهُه بالنهار»[(٧)] يقال: أسْفَرَ الصُّبحُ: إذا أضاء.

---

(١) سنن الترمذي (٣٣٣٢).

(٢) المحتسب ٢/ ٣٥٣ عن ابن محيصن.

(٣) في (د) و(م) و(ي): يعنيه، والمثبت من (ظ)، وانظر التعليق الذي بعده.

(٤) في (ظ) و(م) و(ي): اعن عني وجهك ... واعن عن السفيه، وكذلك وقع في مطبوع تفسير الغريب لابن قتيبة ص٥١٥، والمثبت من (د)، وهو موافق لما نقله ابن الجوزي في زاد المسير ٩/ ٣٥ عن ابن قتيبة، وينظر تفسير الرازي ٣١/ ٦٤، واللباب ٢٠/ ١٧١، وفتح القدير ٥/ ٣٨٥، وتهذيب اللغة ٨/ ٢٠٢.

(٥) في (م) و(ي): سيعنيك، ولم تجود في (ظ)، والمثبت من (د) وتفسير الرازي ٣١/ ٦٤، والبيت فيه دون نسبة.

(٦) في الحلية ٥/ ٢٠٠.

(٧) أخرجه ابن ماجه (١٣٣٣)، وابن الجوزي في الموضوعات (٧٩١-٧٩٦) عن جابر ﷺ وأخرجه ابن الجوزي أيضاً (٧٩٧) عن أنس ﷺ، وقال: هذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ، وسلف ١٦/ ٢٩٣. والكلام من الكشاف ٤/ ٢٢٠.

﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾ أي: غبارٌ ودُخانٌ ﴿تَرْهَقُهَا﴾ أي: تغشاها ﴿قَتَرَةٌ﴾ أي: كسوفٌ وسواد. كذا قال ابن عباس[١]. وعنه أيضاً: ذِلَّةٌ وشِدَّة[٢]. والقتَر في كلام العرب: الغبار، جمع القَتَرة، عن أبي عُبيدة[٣]؛ وأنشد الفرزدقُ:

مُتَوَّجٌ بِرداءِ المُلْكِ يَتْبعُه مَوجٌ ترى فوقَه الراياتِ والقَتَرا[٤]

وفي الخبر: إنَّ البهائم إذا صارت تراباً يومَ القيامة، حُوِّلَ ذلك الترابُ في وجوه الكفار[٥].

وقال زيد بن أسلم: القَتَرةُ: ما ارتفعتْ إلى السماء، والغَبَرة: ما انحطَّتْ إلى الأرض، والغبارُ والغَبَرةُ واحدٌ[٦].

﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ﴾ جمعُ كافرٍ ﴿الْفَجَرَةُ﴾ جمعُ فاجرٍ، وهو الكاذبُ المفتري على الله تعالى. وقيل: الفاسق؛ فَجَر فُجوراً، أي: فَسَق. وفَجَر، أي: كذب. وأصلُه: الميل، والفاجِرُ: المائل. وقد مضى بيانُه والكلامُ فيه[٧]. والحمد لله وحده.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم، كما في الدر المنثور ٥/ ٣٠٧ ، ولفظه: «قترة»، قال: سواد الوجوه.

(٢) أخرجه الطبري ٢٤/ ١٢٧ ، دون قوله: وشدة.

(٣) في (د) و(م): عبيد، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في الصحاح (قتر)، والكلام منه، وكذا في اللسان (قتر).

(٤) الصحاح (قتر)، والبيت في ديوان الفرزدق ١/ ٢٣٤ ، برواية: مُعْتَصِبٌ برداء الملك...

(٥) ذكره الطبري ٢٤/ ١٢٧ .

(٦) أخرجه الطبري ٢٤/ ١٢٧ عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

(٧) ٢١/ ٤٠٩ .

سورة التكوير

مكِّيةٌ في قول الجميع، وهي تسعٌ وعشرون آيةً

وفي الترمذيِّ: عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن سرَّه أن ينظر إليَّ يومَ القيامةِ [كأنه رَأيُ عينٍ] فليقرأ: إذا الشمسُ كُوِّرتْ، وإذا السماءُ انفطَرتْ، وإذا السماء انشقَّتْ». قال: هذا حديثٌ حسنٌ [غريب][1].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝٤ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝٩ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ۝١٠ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ۝١١ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ۝١٢ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ۝١٣ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ۝١٤﴾

قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ قال ابن عباس: تكويرُها: إدخالُها في العرش. الحسن: ذهابُ ضَوئِها. وقاله قتادةُ ومجاهدٌ، وروي عن ابن عباسٍ أيضاً[2]. سعيد بن جُبير: غُوِّرَتْ[3]. أبو عبيدة[4]: كوِّرتْ مثلَ تكويرِ العمامة، تُلفُّ فتُمْحَى. وقال الربيع ابن خثيم: «كوِّرتْ»: رُميَ بها[5]، ومنه: كوَّرتُه فتكوَّر، أي: سقط[6].

---

(١) سنن الترمذي (٣٣٣٣)، وما بين حاصرتين منه، وهو عند أحمد (٤٨٠٦).

(٢) أخرجه الطبري ٢٤/ ١٢٦ عن ابن عباس ومجاهد وقتادة.

(٣) في (د) و(م): عورت، ولم تجود في (ظ) و(ي)، والمثبت من تفسير الطبري ٢٤/ ١٣٠ ، والنكت والعيون ٦/ ٢١١ ، وتفسير البغوي ٤/ ٤٥١ ، وزاد المسير ٩/ ٣٨ ، والدر المنثور ٦/ ٣١٨ .

(٤) في مجاز القرآن ٢/ ٢٨٧ .

(٥) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٣٥٠-٣٥١ ، والطبري ٢٤/ ١٣١ .

(٦) الصحاح (كور).

قلت: وأصلُ التكوير: الجمع؛ مأخوذٌ مِن كارَ العمامةَ على رأسه يَكُورُها، أي: لاثَها[١] وجَمَعها، فهي تُكَوَّر ويُمحَى ضَوءُها، ثم يُرمَى بها في البحر[٢]. والله أعلم.

وعن أبي صالح: كوِّرَتْ: نكِّست[٣].

﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ﴾ أي: تَهافَتتْ وتناثَرتْ. وقال أبو عبيدةَ: انصَبَّت كما تَنصَبُّ العُقابُ إذا كَسَرت[٤]. قال العجَّاج يصفُ صقراً:

أبْصَرَ خِرْبانَ قضاءٍ فانكَدرْ تقضِّيَ البازِي إذا البازِي كَسَرْ[٥]

ورَوى أبو صالح عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يَبْقى في السماء يومئذٍ نجمٌ إلَّا سقط في الأرض، حتى يفزَعَ أهلُ الأرضِ السابعةِ ممَّا لَقِيتْ وأصابَ العليا» يعني الأرضَ. وروى الضحاكُ عن ابن عباس قال: تساقَطَتْ؛ وذلك أنها قناديلُ معلَّقةٌ بين السماء والأرض بسلاسلَ من نورٍ، وتلك السلاسلُ بأيدي ملائكةٍ من نور، فإذا جاءت النفخةُ الأولى مات مَن في الأرض ومَن في السماوات، فتناثَرَتَ تلك الكواكبُ وتَساقطت السلاسلُ من أيدي الملائكةِ؛ لأنَّه مات مَن كان يُمسكها[٦].

ويحتمل أن يكون انكدارُها طَمسُ آثارِها[٧]. وسُميت النجومُ نجوماً لظهورها في

---

(١) لاث العمامة على رأسه يَلوثُها لَوثاً، أي: عصبها، الصحاح (لوث).

(٢) وقال الألوسي في روح المعاني ٣٠/ ٥٠: جاء في الأخبار الصحيحة أن الشمس تدنو يوم القيامة من الرؤوس في المحشر حتى تكون على قَدْر ميل، ويُلْجِم الناسَ العرقُ يومئذٍ، ولا بحرَ حينئذٍ لتُلقى فيه بَعْدُ.

(٣) أخرجه الطبري ٢٤/ ١٣٠.

(٤) في النسخ عدا (د): انكسرت، والمثبت من (د)، والعبارة في مجاز القرآن ٢/ ٢٨٧: «انكدرت» يقال: انكدر فلان: انصبَّ.

(٥) ديوان العجاج ص٨٣ على اختلاف في الترتيب بين البيتين، ولم يذكر أبو عبيدة سوى الأول. قوله: خربان، هو جمع خَرَب: وهو ذكر الحُبَارى. ويقال للطائر إذا ضم جناحيه: كسر. سمط اللآلي ٢/ ٧٩١. وتقضَّى البازي: انقضَّ. القاموس (قضى).

(٦) ذكر الخبرين الواحدي في الوسيط ٤/ ٢٢٨ عن الكلبي وعطاء.

(٧) في (ظ): نارها.

السماء بضوئها. وعن ابن عباس أيضاً: «انكدرت»: تغيَّرتْ فلم يَبْقَ لها ضوء[١]؛ لزوالها عن أماكنها. والمعنى متقارِبٌ.

﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ يعني قُلِعَتْ من الأرض، وسيِّرتْ في الهواء؛ وهو مِثْلُ قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ [الكهف: ٤٧]. وقيل: سَيرُها: تَحوُّلُها عن منزلة الحجارة، فتكونُ كثيباً مَهيلاً، أي: رملاً سائلاً، وتكونُ كالعِهْن، وتكونُ هَباءً منثوراً[٢]، وتكون سَراباً، مثل السَّرابِ الذي ليس بشيء. وعادت الأرضُ قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوَجاً ولا أمْتاً. وقد تقدَّم في غير موضعٍ والحمد لله.

﴿وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾ أي: النُّوقُ الحَواملُ التي في بطونها أولادُها، الواحدةُ عُشَراء، وهي التي[٣] أتى عليها في الحمل عشرةُ أشهرٍ، ثم لا يزالُ ذلك اسمها حتى تَضعَ، وبعد ما تضعُ أيضاً. ومن عادة العرب أن يُسَمُّوا الشيءَ باسمه المتقدِّم وإن كان قد جاوَزَ ذلك؛ يقول الرجل لفرسه وقد قَرح[٤]: هاتوا مُهْري، وقرِّبوا مُهْري، يسمِّيه بمتقدِّم اسمِه؛ قال عنترة:

لا تَـذْكُـري مُـهْـري ومـا أطْـعَـمْـتُـه ... فـيكونَ جِلدُك مِثلَ جِلدِ الأجرَبِ[٥]

وقال أيضاً:

وحَمَلْتُ مُهري وسطَها فمضاها[٦]

وإنَّما خصَّ العِشار بالذِّكر؛ لأنَّها أعزُّ ما تكون على العرب، وليس يُعَطِّلها أهلُها إلَّا حالَ القيامة. وهذا على وَجهِ المَثَل؛ لأنَّ في القيامة لا تكونُ ناقةٌ عُشَرَاءُ، ولكنْ

(١) النكت والعيون ٦/ ٢١١ ، وأخرجه الطبري ٢٤/ ١٣٣ دون قوله: فلَم يَبْقَ لها ضوء.

(٢) في (ظ): منبثا.

(٣) في (م): أو التي، بدل: وهي التي.

(٤) قَرَح الفرس يقرح قروحاً، وقَرِح قَرَحاً: إذا انتهت أسنانه، وإنما تنتهي في خمس سنين. اللسان (قرح).

(٥) سلف ١٤/ ٢٠٣ .

(٦) وصدره: وضربتُ قرنَيْ كبشها فتجدَّلا، وهو في ديوان عنترة ص٧٥ ، وسلف صدره ١٤/ ٤٠٠ .

أراد به المثل، [يعني] أنَّ هَوْلَ يوم القيامةِ بحالٍ لو كان للرجل ناقةٌ عُشَراءُ، لعطَّلها واشتغلَ بنفسه[١].

وقيل: إنَّهم إذا قاموا من قبورهم، وشاهد بعضُهم بعضاً، ورَأوا الوُحوشَ والدوابَّ محشورةً، وفيها عِشارُهم التي كانت أنْفَسَ أموالهم، لم يعبؤوا بها، ولم يهمَّهم أمرُها. وخُوطبت العربُ بأمر العِشار لأن مالَها وعيشَها أكثَرُه من الإبل.

وروَى الضحَّاكُ عن ابن عباس: «عُطِّلت»: عَطَّلها أهلُها لاشتغالهم بأنفسهم[٢].

وقال الأعشى:

هو الواهِبُ المئةَ المُصطَفا ... ةَ إمَّا مَخاضاً وإما عِشَارا[٣]

وقال آخرُ:

ترى المرءَ مهجوراً إذا قلَّ مالُهُ ... وبيتُ الغِنَى يُهدَى له ويُزارُ

وما ينفعُ الزوارَ مالُ مَزُورِهم ... إذا سَرَحَتْ شَولٌ له وعِشارُ[٤]

يقال: ناقة عُشَراء، وناقتان عُشَراوان، ونوق عِشارٌ وعُشَراوات، يُبدِلون من همزة التأنيث واواً. وقد عَشَّرت الناقةُ تعشيراً، أي: صارتْ عُشَراء[٥].

وقيل: العِشار: السحابُ يُعَطَّل مما يكونُ فيه ـ وهو الماء ـ فلا يُمطِر؛ والعربُ تشبِّه السحابَ بالحامل[٦].

---

(١) تفسير أبي الليث ٣/ ٤٥١ ، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٢) ذكره بنحوه الرزاي في التفسير ٣١/ ٦٧ .

(٣) ديوان الأعشى ص١٠١ . وقال الشارح: مخاضاً: تهيأ للنتاج.

(٤) لم نقف عليهما. والشَّوْل جمع شائلة، وهي من الإبل ما أتى عليها من حملها أو وضعها سبعة أشهر فجف لبنها. القاموس (شول).

(٥) الصحاح (عشر).

(٦) تفسير الرازي ٣١/ ٦٧ .

وقيل: الديار تُعَطَّلُ فلا تُسكن. وقيل: الأرضُ التي يُعشَّر زَرْعُها تعطَّلُ فلا تُزرَع[١]. والأولُ أشهرُ، وعليه من الناسِ الأكثرُ.

﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ أي: جُمعت، والحَشرُ: الجمع. عن الحسن وقتادةَ وغيرِهما[٢]. وقال ابن عباس: حَشرُها: موتُها ـ رواه عنه عِكرمةُ ـ وحَشرُ كلِّ شيء: الموتُ، غيرَ الجنِّ والإنس، فإنهما يُوافيان[٣] يومَ القيامة.

وعن ابن عباس أيضاً قال: يُحشَر كلُّ شيء حتى الذُّبابُ[٤]. قال ابن عباس: تُحشَر الوحوشُ غداً، أي: تُجمع حتى يُقتصَّ لبعضها من بعض، فيقتصُّ للجَمَّاء من القَرناء، ثم يقال لها: كوني تراباً، فتموتُ. وهذا أصحُّ ممَّا رواه عنه عِكرمة، وقد بينَّاه في كتاب «التذكرة» مستوفى[٥]، ومضى في سورة الأنعام بعضُه[٦]. أي: إنَّ الوحوش إذا كانت هذه حالها فكيف ببني آدم.

وقيل: عُنيَ بهذا أنَّها مع نُفرتها اليومَ من الناس، وتبدُّدِها في الصحارَى، تنضمُّ غداً إلى الناس من أهوال ذلك اليوم[٧]. قال معناه أُبيُّ بنُ كعب[٨].

﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ أي: مُلئتْ من الماء، والعربُ تقول: سَجَرْتُ الحوضَ أسجُره سَجْراً: إذا ملأتَه، وهو مسجورٌ، والمسجورُ والسَّاجِر في اللغة: المَلآن. وروى

---

(١) النكت والعيون ٦/ ٢١٢. قوله: يعشَّر، أي: يؤخذ منه العشر، في القاموس (عشر): عشَّرهم: أخذ عُشر أموالهم.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٥/ ١٥٦ عن قتادة، وأخرجه عنه الطبري بنحوه ٢٤/ ١٣٧.

(٣) في تفسير الطبري ٢٤/ ١٣٩: يوقفان، وكذا وقع في الدر المنثور ٦/ ٣١٩ عن الفريابي وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وغيرهم.

(٤) أخرجه ابن المنذر وابن أبي حاتم، كما في الدر المنثور ٦/ ٣١٩.

(٥) ص٢٧٣.

(٦) ٨/ ٣٧٢.

(٧) تفسير الرازي ٣١/ ٦٨.

(٨) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٢١٢ بلفظ: اختلطت وصارت بين الناس.

الربيع بن خثيم: «سُجِّرتْ»: فاضَتْ ومُلِئت. وقاله الكلبيُّ ومقاتلٌ والحسن والضحَّاك[١]. قال ابن أبي زَمَنين[٢]: «سُجِّرتْ» حقيقتُه: مُلِئتْ، فيفضي[٣] بعضُها إلى بعضٍ، فتصيرُ شيئاً واحداً. وهو معنى قولِ الحسن.

وقيل: أُرسل عَذبُها على مالحها، ومالحُها على عَذبِها، حتى امتلأتْ. عن الضحاك ومجاهد: أي: فُجِّرتْ، فصارت بحراً واحداً[٤]. القُشيريُّ: وذلك بأن يرفع الله الحاجزَ الذي ذَكره في قوله تعالى: ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾ [الرحمن: ٢٠]، فإذا رُفع ذلك البرزخُ تفجَّرت مياهُ البحار، فعمَّتْ الأرضَ كلَّها، وصارت البحار بحراً واحداً[٥]. وقيل: صارتْ بحراً واحداً من الحميم لأهل النار.

وعن الحسن أيضاً وقتادةَ وابنِ حَيَّان: تَيْبَسُ فلا يبقى من مائها قطرة[٦].

القُشيريُّ: وهو من سَجَرتُ التنورَ أسجُره سَجراً: إذا أحْميته، وإذا سُلِّط عليه الإيقادُ نَشِفَ ما فيه من الرطوبة، وتُسيَّر الجبال حينئذٍ، وتصيرُ البحار والأرضُ كلُّها بساطاً واحداً، بأن يُملأَ مكانُ البحارِ بتراب الجبال.

وقال النحاس: وقد تكونُ الأقوالُ متفقةً؛ يكون: تيبسُ من الماء بعد أن يفيض بعضُها إلى بعض، فتقلَبُ ناراً.

قلت: ثم تُسَيَّر الجبالُ حينئذٍ، كما ذكر القشيريُّ، والله أعلم.

وقال ابن زيد وشَمِر وعطية[٧] وسفيانُ ووهبٌ وأُبيٌّ وعليّ بنُ أبي طالب، وابنُ

---

(١) تفسير الطبري ٢٤/ ١٣٩ عن الربيع والكلبي والضحاك.

(٢) هو محمد بن عبد الله بن عيسى المرّي.

(٣) في (م): فيفيض.

(٤) النكت والعيون ٦/ ٢١٣ ، وتفسير البغوي ٤/ ٤٥١ .

(٥) ذكره الرازي ٣١/ ٦٨ عن الكلبي.

(٦) تفسير الطبري ٢٤/ ١٤٠ وتفسير البغوي ٤/ ٤٥١ عن الحسن وقتادة.

(٧) كذا في النسخ، وهو في تفسير الطبري ٢٤/ ١٣٨ والدر المنثور ٦/ ٣١٩ عن شَمِر بن عطية.

عباسٍ في رواية الضحَّاك عنه: أُوقِدَتْ فصارتْ ناراً[١]. قال ابن عباس: يُكوِّرُ الله الشمسَ والقمرَ والنجومَ في البحر، ثم يبعثُ عليها ريحاً دَبُوراً، فتنفخُه حتى يصير ناراً[٢]. وكذا في بعض الحديث: يأمرُ الله جلَّ ثناؤه الشمسَ والقمرَ والنجومَ فيَنْتَثِرون في البحر، ثم يبعثُ الله جلَّ ثناؤه الدَّبورَ فيسجِّرُها ناراً، فتلك نارُ الله الكبرى، التي يعذِّبُ بها الكفار[٣].

قال القشيريُّ: قيل[٤] في تفسير قولِ ابنِ عباس: «سُجِّرتْ»: أُوقِدَتْ، يحتملُ أن تكون جهنم في قُعورٍ من البحار، فهي الآنَ غيرُ مَسجورةٍ؛ لِقوَامِ الدنيا، فإذا انقضت الدنيا سُجِّرت، فصارت كلُّها ناراً يدخِلُها الله أهلَها. ويحتملُ أن تكون تحت البحر نارٌ، ثم يوقِدُ الله البحر كلَّه فيصير ناراً. وفي الخبر: البحرُ نارٌ في نارٍ[٥]. وقال معاويةُ ابن سعيد: بحرُ الرومِ وَسْطَ الأرضِ، أسفلُه آبارٌ مُطبقةٌ بنُحاسٍ يُسجَّر ناراً يومَ القيامة[٦]. وقيل: تكون الشمس في البحر، فيصيرُ البحرُ ناراً بحرِّ الشمس.

ثم جميعُ ما في هذه الآياتِ يجوزُ أن يكون في الدنيا قبلَ يوم القيامة ويكون من أشراطِها، ويجوزُ أن يكون يومَ القيامة، وما بعدَ هذه الآيات فيكونُ في يوم القيامة.

قلت: رُوِي عن عبد الله بن عمرو: لا يتوضَّأ بماء البحر لأنه طبقُ جَهنم[٧].

---

(١) أخرج قولهم الطبري ٢٤/ ١٣٨ .

(٢) أخرجه هناد في الزهد (٣٣٤)، والطبري ٢٤/ ١٣٨ .

(٣) أخرجه أبو الشيخ في العظمة (٩٣١) عن علي ﷺ، أنه كان يقول عن يهودي: ما كان في اليهود أعلم منه، قال: البحر نار الله الكبرى يَنْتَثِر فيها الشمس والقمر والنجوم، فيبعث الله عز وجل الدبور، فيسجره ناراً.

(٤) في (ظ): قال المفسرون.

(٥) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ١٨٩ ، وسلف ٢١/ ٢٦٦ .

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم، كما في تفسير ابن كثير عند هذه الآية. قال ابن كثير: هذا أثر غريب عجيب. ومعاوية بن سعيد التُّجَيْبيُّ الفَهميُّ مولاهم، مصريٌّ، من رجال التهذيب ٤/ ١٠٦ .

(٧) سلف ١٥/ ٤٤١-٤٤٢ ، وينظر الأوسط ١/ ٢٤٩ .

وقال أُبيّ بنُ كعب: ستُّ آياتٍ من قبلِ يومِ القيامة: بينما الناسُ في أسواقهم ذهب ضوءُ الشمس وبدت النجومُ فتحيَّروا ودُهِشوا، فبينما هم كذلك ينظرون إذ تناثرت النجومُ وتَساقطت، فبينما هم كذلك إذ وقعت الجبالُ على وجه الأرض، فتحرَّكت واضطربت واحترقت، فصارت هباءً منثوراً، ففزعت الإنسُ إلى الجنِّ والجنُّ إلى الإنس، واختلطت الدوابُّ والوحوشُ والهوامُّ والطير، وماج بعضُها في بعض؛ فذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ ثم قالت الجنُّ للإنس: نحن نأتيكم بالخبر، فانطَلَقوا إلى البحار فإذا هي نارٌ تأجَّجُ، فبينما هم كذلك إذ تصدَّعتِ الأرضُ صدعةً واحدةً إلى الأرض السابعة السُّفْلَى، وإلى السماء السابعة العليا. فبينما هم كذلك إذ جاءتهم ريحٌ فأماتتهم[١].

وقيل: معنى «سُجِّرت»: هو حُمرةُ مائها، حتى تصير كالدَّم؛ مأخوذٌ من قولهم: عينٌ سَجراء، أي: حمراء[٢].

وقرأ ابن كثير: «سُجِرَتْ» وأبو عمرو أيضاً[٣]، إخباراً عن حالها مرةً واحدةً. وقرأ الباقون بالتشديد إخباراً عن حالها في تكرير ذلك منها مرةً بعد أخرى.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ قال النعمان بنُ بشير: قال النبيُّ ﷺ: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ قال: «يُقرَنُ كلُّ رجلٍ مع كلِّ قومٍ كانوا يعملون كعمله»[٤]. وقال عمر ابن الخطاب: يُقرَنُ الفاجر مع الفاجرِ، ويقرنُ الصالح مع الصالح[٥]. وقال ابن عباس: ذلك حين يكون الناس أزواجاً ثلاثة[٦]، السابقون زوجٌ ـ يعني صنفاً ـ

---

(١) أخرجه الطبري ٢٤/ ١٢٨ .

(٢) النكت والعيون ٦/ ٢١٣ .

(٣) السبعة ص٦٧٣ ، والتيسر ص٢٢٠ .

(٤) أخرجه الطبري ٢٤/ ١٤٢ .

(٥) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٣٥١ ، والطبري ٢٤/ ١٤٢ .

(٦) أخرجه الطبري ٢٤/ ١٤٣ .

وأصحابُ اليمينِ زوجٌ، وأصحابُ الشمالِ زوجٌ.

وعنه أيضاً قال: زُوِّجَتْ نفوسُ المؤمنين بالحُورِ العين، وقُرِنَ الكافر بالشياطين[١]، وكذلك المنافقون.

وعنه أيضاً: قُرِن كلُّ شَكلٍ بشَكلِه من أهلِ الجنة وأهلِ النار، فيُضَمُّ المبرِّزُ في الطاعة إلى مثلِه، والمتوسِّطُ إلى مِثْلِه، وأهل المعصيةِ إلى مِثلِه؛ فالتزويجُ: أنْ يُقرنَ الشيءُ بمثله[٢]؛ والمعنى: وإذا النفوسُ قُرِنَت إلى أشكالها في الجنة والنار.

وقيل: يُضَمُّ كلُّ رجلٍ إلى مَن كان يَلْزَمُه من مَلِكٍ وسلطان، كما قال تعالى: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ [الصافات: ٢٢].

وقال عبد الرحمن بن زيد: جُعِلوا أزواجاً على أشباهِ أعمالِهم، ليس بتزويجٍ، أصحابُ اليمين زوجٌ، وأصحابُ الشمالِ زوجٌ، والسابقون زوجٌ، وقد قال جلَّ ثناؤه: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ أي: أشكالَهم.

وقال عِكرمةُ: «وإذا النفوسُ زُوِّجتْ»: قُرِنَتْ الأرواحُ بالأجساد، أي: رُدَّتْ إليها[٣].

وقال الحسن: أُلْحِقَ كلُّ امرئ بشيعته[٤]؛ اليهودُ باليهود، والنصارى بالنصارى، والمجوسُ بالمجوس، وكلُّ مَن كان يعبدُ شيئاً من دون الله يُلحَقُ بعضُهم ببعضٍ، والمنافقون بالمنافقين، والمؤمنون بالمؤمنين.

وقيل: يُقرَنُ الغاوي بمَن أغواه من شيطانٍ أو إنسان، على جهةِ البغضِ والعداوة، ويُقرَنُ المطيعُ بمَن دعاه إلى الطاعة من الأنبياء والمؤمنين.

---

(١) ذكره الرازي في التفسير ٣١/ ٦٩، وأخرجه عبد بن حميد وابن المنذر عن الكلبي، كما في الدر المنثور ٦/ ٣١٩.

(٢) ذكره الرازي ٣١/ ٦٩ دون نسبة.

(٣) أخرجه الطبري ٢٤/ ١٤٤.

(٤) أخرجه الطبري ٢٤/ ١٤٣.

وقيل: قُرِنت النفوسُ بأعمالها، فصارت لاختصاصِها به كالتزويج[١].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ . بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ الموؤودة المقتولةُ، وهي الجاريةُ تُدفَنُ وهي حيةٌ، سمِّيتْ بذلك لمَا يطرحُ عليها من التراب، فيؤودها، أي: يُثقِلُها حتى تموت، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾ [البقرة:٢٥٥] أي: لا يُثقِلُه؛ وقال متمِّم ابنُ نُويرةَ:

ومَوءودةٍ مَقبورةٍ في مَفازةٍ بآمَتِها مَوسودةٍ لم تُمهَّدِ[٢]

وكانوا يدفنون بناتهم أحياءً لخصلتين؛ إحداهما: كانوا يقولون: إنَّ الملائكة بناتُ الله، فألحقوا البناتِ به. الثانية: إمَّا مخافة الحاجةِ والإملاق، وإمَّا خوفاً من السَّبْيِ والاسْتِرقاق. وقد مضى في سورة النحل هذا المعنى عند قوله تعالى: ﴿أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ﴾ [الآية:٥٩] مستوفًى.

وقد كان ذَوُو الشَّرفِ منهم يمتنعون من هذا ويمنعون منه، حتى افتخر به الفرزدق، فقال:

ومِنَّا الَّذي منعَ الوائِداتِ وأحيا الوئيدَ فلم يُوْأدِ[٣]

يعني جدَّه صَعْصَعة[٤]؛ كان يشتريهنَّ من آبائهن، فجاء الإسلامُ وقد أحيا سبعين موءودةً.

---

(١) النكت والعيون ٦/ ٢١٤، وذكر هذا القول أيضاً الرازي ٣١/ ٦٩ وقال: واعلم أنك إذا تأمَّلتَ في الأقوال التي ذكرناها، أمكَنَك أن تزيد عليها ما شئت.

(٢) في (ظ) و(ي): موسومة لم تمهد، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في النكت والعيون ٦/ ٢١٤، والكلام منه. والبيت في تهذيب اللغة ١٥/ ٦٤٥، واللسان (أوم) و(عوز) منسوب لحسان بن ثابت برواية:

ومَوءودةٍ مقرورةٍ في مَعاوِزٍ بآمتها مرسومة لم تُوَسَّدِ

ولم نقف عليه في ديوانه. الآمة: ما يعلق بسرة المولود إذا سقط من بطن أمه، ويقال: ما لُفَّ فيه من خرقة وما خرج معه. والمعاوِز: خُلْقانُ الثياب. اللسان (أوم) و(عوز).

(٣) ديوان الفرزدق ١/ ١٧٣.

(٤) ابن ناجية التميمي الدارمي، قال ابن السكن: له صحبة، وكان من أشراف بني مجاشع في الجاهلية والإسلام، وهو ابن عم الأقرع ابن حابس. الإصابة ٥/ ١٤٢.

وقال ابن عباس: كانت المرأةُ في الجاهلية إذا حملتْ حَفَرت حفرةً، وتَمخَّضتْ على رأسها. فإنْ ولدت جاريةً رَمَتْ بها في الحفرة، وردَّتِ الترابَ عليها، وإن ولدتْ غلاماً حَبَسَته[1]، ومنه قولُ الراجزِ:

سَمَّيتُها إذ وُلِدتْ تموتُ والقبرُ صِهرٌ ضامِنٌ زِمِّيتُ[2]

الزِّميتُ: الوقور، والزميتُ مثالُ الفِسِّيقِ أوْقَر من الزَّمِيت، وفلانٌ أزْمتُ الناس، أي: أوْقَرُهم، وما أشدَّ تزمُّتَه؛ عن الفرَّاء[3].

وقال قتادةُ: كانت الجاهليةُ يقتلُ أحدهم ابنته، ويَغذُو كَلبَه، فعاتَبَهم الله على ذلك، وتَوعَّدهم بقوله: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ﴾[4].

قال عمر في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ﴾ قال: جاء قيس بنُ عاصم إلى النبيِّ ﷺ فقال: يا رسولَ الله إنِّي وأدْتُ ثمان بناتٍ كنَّ لي في الجاهلية، قال: «فأعتِقْ عن كلِّ واحدةٍ منهنَّ رقبةً» قال: يا رسولَ الله، إنِّي صاحب إبلٍ، قال: «فأهْدِ عن كلِّ واحدةٍ منهنَّ بَدَنةً إنْ شِئْتَ»[5].

وقوله تعالى: «سُئِلت» سؤال الموؤودةِ توبيخٌ[6] لقاتلها، كما يقال للطفل إذا ضُرِب: لم ضُرِبتَ؟ وما ذَنبُك؟ قال الحسن: أراد الله أن يُوبِّخ قاتلها؛ لأنها قُتلت بغير ذنب.

وقال ابن أسلم: بأيِّ ذَنبٍ ضُربت، وكانوا يضربونها.

---

(١) أخرجه الواحدي في الوسيط ٤/ ٤٢٩، وذكره البغوي ٤/ ٤٥٢، وابن الجوزي ٩/ ٤٠.

(٢) الرجز في جمهرة اللغة ٢/ ١٦، واللسان (ربت). والثاني في العين ٧/ ٣٥٩، وتهذيب اللغة ١٣/ ١٨٦، والصحاح (زمت)، واللسان (زمت).

(٣) الصحاح (زمت).

(٤) أخرجه الطبري ٢٤/ ١٤٧، وفيه: نعاب الله عليهم ذلك، بدل: نعاتبهم الله على ذلك...

(٥) أخرجه البزار في مسنده (٢٣٧)، والطبراني في الكبير ١٨/ (٨٦٣)، وابن أبي حاتم، كما في تفسير ابن كثير عند هذه الآية، ووقع عند البزار «فانحر عن كل واحدة...».

(٦) في (د) و(م): سؤال الموؤودة سؤال توبيخ.

وذكر بعض أهل العلم في قوله تعالى: «سُئلتْ» قال: طُلِبت؛ كأنه يريدُ كما يُطلب بدم القتيل، قال: وهو كقوله: ﴿وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا﴾ [الأحزاب: ١٥] أي: مطلوباً. فكأنها طُلِبت منهم، فقيل: أين أولادُكم[١]؟

وقرأ الضحاك وأبو الضُّحا عن جابر بن زيد وأبي صالح: «وإذا الموؤودة سألت»[٢] فتتعلَّق الجارية بأبيها، فتقول: بأيِّ ذنبٍ قَتلتني؟ فلا يكونُ له عذرٌ؛ قاله ابن عباس، وكان يقرأ: «وإذا الموؤودة سألَتْ»[٣]، وكذلك هو في مصحف أُبيٍّ[٤]. وروى عكرمةُ عن ابن عباس عن النبيِّ ﷺ قال: «إنَّ المرأة التي تقتلُ ولدَها تأتي يومَ القيامةِ مُتعلِّقاً ولدُها بثدييها، ملطَّخاً بدمائه، فيقول: ياربِّ، هذه أمِّي، وهذه قَتَلتْني»[٥].

والقولُ الأولُ عليه الجمهور، وهو مثلُ قوله تعالى لعيسى: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ﴾ [المائدة: ١١٦] على جهة التَّوبيخِ والتَّبكيتِ لهم، فكذلك سؤالُ الموؤودة توبيخٌ لوائدِها، وهو أبلغُ من سؤالها عن قَتلِها؛ لأنَّ هذا مما لا يصحُّ إلَّا بذنبٍ، فبأيِّ ذنبٍ كان ذلك. فإذا ظَهَر أنه لا ذنبَ لها، كان أعظمَ في البليةِ وظهور الحجة على قاتلها. والله أعلم.

وقرئ: «قتِّلت» بالتشديد. وفيه دليلٌ بيِّنٌ على أنَّ أطفالَ المشركين لا يُعَذَّبون، وعلى أنَّ التعذيب لا يُستحقُّ إلَّا بذنبٍ[٦].

---

(١) ذكره الفراء في معاني القرآن ٣/ ٢٤١ .

(٢) القراءات الشاذة ص١٦٩ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٤٢ ، وذكر ابن عطية أن بعض مَن قرأ بهذه القراءة قرأ أيضاً: «قُتِلْتُ» بسكون اللام وضم التاء.

(٣) النكت والعيون ٦/ ٢١٤ ، وأخرجه الفراء في معاني القرآن ٣/ ٢٤٠ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٥/ ١٥٨ .

(٥) لم نقف عليه.

(٦) الكشاف ٤/ ٢٢٢ ، وقراءة «قتِّلت» في القراءات الشاذة ص١٦٩ .

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾ أي: فُتِحَتْ بعدَ أنْ كانت مَطوِيَّةً، والمرادُ صحفُ الأعمال التي كَتَبت الملائكةُ فيها ما فعلَ أهلُها من خيرٍ وشرّ، تُطوَى بالموت، وتُنشَر في القيامة، فيقفُ كلُّ إنسانٍ على صحيفته، فيَعْلَم ما فيها، فيقول: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ [الكهف: ٤٩][1].

وروي عن مَرثَد بن وَدَاعة قال: إذا كان يومُ القيامة تطايرت الصحفُ من تحتِ العرش، فتقع صحيفةُ المؤمن في يده ﴿فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ إلى قوله: ﴿ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٢-٢٤] وتقع صحيفة الكافر في يده ﴿فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَا كَرِيمٍ﴾ [الواقعة: ٤٢-٤٤][2].

ورُوي عن أمّ سلمةَ رضي الله عنها أنَّ رسول الله ﷺ قال: «يُحشَرُ الناسُ يوم القيامةِ حُفاةً عُراةً» فقلتُ: يا رسولَ الله! كيف بالنساء؟ قال: «شُغِلَ الناسُ يا أمَّ سَلَمة». قلتُ: وما شَغَلَهم؟ قال: «نَشرُ الصُّحُفِ، فيها مثاقيلُ الذرِّ ومثاقيل الخَرْدَلِ»[3].

وقد مضى في سورة سُبحان[4] قولُ أبي السَّوَّار العدَوِيِّ: هما نَشرَتان وطَيَّةٌ، أما ما حَيِيتَ يا ابنَ آدم فصحيفتُكَ المنشورةُ، فأَمْلِ فيها ما شِئتَ، فإذا متَّ طُوِيتْ، حتى إذا بُعثتَ نُشِرَتْ ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤].

وقال مقاتل: إذا مات المرءُ طُوِيتْ صحيفةُ عمله، فإذا كان يومُ القيامةِ نُشِرتْ.

وعن عمر ﷺ أنه كان إذا قرأها قال: إليكَ يُساقُ الأمرُ يا ابنَ آدم[5].

---

(١) النكت والعيون ٦/ ٢١٥ .

(٢) الكشاف ٤/ ٢٢٣ ، وزاد في آخره: أي مكتوب فيها ذلك، وهي صحف غير صحف الأعمال . اهـ. ومرثَد بن وَداعة هو أبو قتيلة الحمصي، قال البخاري: له صحبة. الإصابة ٩/ ١٦٣ .

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط (٨٣٧). ونقله المصنف عن الكشاف ٤/ ٢٢٢-٢٢٣ .

(٤) ١٣/ ٤١ .

(٥) الكشاف ٤/ ٢٢٢ .

وقرأ نافعٌ وابن عامرٍ وعاصمٌ وأبو عمرو: «نُشِرَت» مخفَّفةً[١]، على نَشرِها مرةً واحدةً، لقيامِ الحجة. الباقون بالتشديد، على تكرار النَّشرِ؛ للمبالغة في تقريع العاصي، وتبشيرِ المطيع. وقيل: لتكرارِ ذلك من الإنسان والملائكةِ الشُّهداءِ عليه.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتۡ﴾: الكَشْطُ: قَلْعٌ عن شدَّةِ الْتِزاقٍ، فالسماءُ تُكشَطُ كما يكشَطُ الجلد عن الكبش وغيره. والقَشطُ لغةٌ فيه، وفي قراءةِ عبدِ الله: «وإذا السماءُ قُشِطَت». وكَشَطْتُ البعيرَ كَشْطاً: نزعت جِلدَه، ولا يقال: سَلختُه؛ لأنَّ العرب لا تقولُ في البعير إلَّا كشَطْته أو جَلَّدته، وانكشط [رَوْعُه]، أي: ذهب[٢]. فالسماءُ تُنزَع من مكانها كما ينزعُ الغِطاءُ عن الشيء.

وقيل: تُطوَى، كما قال تعالى: ﴿يوم نطوِي السماء كطيّ السِّجِلِّ لِلكتابِ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]. فكأنَّ المعنى: قُلِعَتْ فطُوِيتْ. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلۡجَحِيمُ سُعِّرَتۡ﴾ أي: أُوْقِدَتْ فأضرمت للكفار وزِيدَ في إحمائها. يقال: سَعَّرتُ النار وأسعَرتها. وقراءةُ العامَّةِ بالتخفيف، من السعير. وقرأ نافعٌ وابنُ ذكوانَ ورُوَيْس بالتشديد[٣]؛ لأنَّها أوقدَتْ مرةً بعد مرةٍ. قال قتادة: سَعَّرها غضبُ الله، وخطايا بني آدم[٤].

وفي الترمذيِّ[٥] عن أبي هريرةَ عن النبيِّ ﷺ قال: «أُوقِدَ على النار ألف سنةٍ حتى احْمَرَّتْ، ثم أُوْقِدَ عليها ألف سنةٍ حتى ابيَضَّتْ، ثم أُوقِدَ عليها ألف سنةٍ حتى

---

(١) السبعة ص٦٧٣، والنشر ٢/ ٣٩٨ عن نافع وابن عامر وعاصم، أما أبو عمرو فقرأ: «نشّرت» بتشديد الشين.

(٢) الصحاح (كشط)، وما بين حاصرتين منه. وقراءة عبد الله ﷺ ذكرها أيضاً الفراء في معاني القرآن ٣/ ٢٤١.

(٣) وقرأ بها أيضاً من العشرة حفص وأبو جعفر. السبعة ص٦٧٣، والتيسير ص٢٢٠، والنشر ٢/ ٣٩٨.

(٤) أخرجه الطبري ٢٤/ ١٥٠.

(٥) برقم (٢٥٩١).

اسوَدَّتْ، فهي سوداءُ مُظلمة». ورُوي موقوفاً(١).

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾ أي: دَنَتْ وقرّبت من المتَّقين. قال الحسن: إنهم يُقرَّبون منها؛ لا أنَّها تَزولُ عن مَوضِعها. وكان عبدُ الرحمن بنُ زيد يقول: زُيِّنت(٢).

والزُّلفَى في كلام العرب: القُربة؛ قال الله تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الشعراء: ٩٠] وتزلَّف فلانٌ: تَقرَّبَ.

قوله تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾ يعني ما عَمِلَتْ من خيرٍ وشرٍّ. وهذا جوابُ: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ وما بَعدَها. قال عمر ﷺ: لهذا أُجْرِيَ الحديث(٣). ورُوِيَ عن ابن عباس وعمر رضي الله عنهما أنَّهما قرآها، فلمَّا بلغا ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾ قالا: لهذا أُجرِيَت القصةُ. فالمعنى على هذا: إذا الشمسُ كُوِّرَتْ وكانت هذه الأشياء، عَلمتْ نفسٌ ما أَحْضرتْ من عملها.

وفي الصحيحين عن عديّ بن حاتم قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم مِن أحدٍ إلَّا وسيُكلِّمه الله ما بينه وبينه تَرجُمان، فينظر أيمنَ منه فلا يرى إلَّا شيئاً قدَّمه، وينظر أشأمَ منه فلا يرى إلَّا شيئاً قدَّمه، وينظر أمامه، فتستقبلُه النار، فَمَن استطاع منكم أن يتَّقي النارَ ولو بشِقِّ تمرةٍ فلْيفعَلْ»(٤).

وقال الحسن: «إذ الشمسُ كوِّرتْ» قسمٌ وقع على قوله: «علمتْ نفسٌ ما أحضَرتْ»(٥) كما يقال: إذا نَفَر زيدٌ نفرَ عمرو. والقولُ الأولُ أصح.

وقال ابن زيد عن ابن عباس في قوله تعالى: «إذا الشمسُ كُوِّرتْ» إلى قوله:

---

(١) أخرجه الترمذي إثر المرفوع، ثم قال: حديث أبي هريرة في هذا موقوف أصح.

(٢) في (ظ): تزينت.

(٣) أخرجه بهذا اللفظ عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٢٠ ، وأخرجه بنحوه الطبري ٢٤/ ١٥١-١٥٢ .

(٤) صحيح البخاري (١٤١٣)، وصحيح مسلم (١٠١٦)، وهو عند أحمد (١٨٢٤٦).

(٥) النكت والعيون ٦/ ٢١٥ .

«وإذا الجنة أُزلِفت» اثنتا عشرةَ خصلةً: ستَّةٌ في الدنيا، وستَّةٌ في الآخرة[١]، وقد بيَّنَّا السِّتَّةَ الأُولى بقولِ أبيّ بنِ كعب[٢].

قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ۝١٥ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ۝١٦ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ۝١٧ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ۝١٨ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ۝١٩ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ۝٢٠ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ۝٢١ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ ۝٢٢﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ﴾ أي: أُقسِمُ، و«لا» زائدةٌ، كما تقدَّم[٣]. ﴿بِٱلۡخُنَّسِ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ﴾ هي الكواكبُ الخمسةُ الدَّراريُّ: زُحَلُ والمُشتري وعُطارِدٌ والمرِّيخُ والزُّهرةُ، فيما ذكر أهلُ التفسير. والله أعلم. وهو مَرْويٌّ عن عليٍّ كَرَّم الله وَجهَه[٤].

وفي تخصيصها بالذِّكْر من بينِ سائرِ النجوم وجهان: أحدُهما: لأنَّها تستقبلُ الشمس؛ قاله بكر بنُ عبد الله المُزَنيُّ. الثاني: لأنها تقطعُ المجرَّة؛ قاله ابن عباس[٥].

وقال الحسن وقتادةُ: هي النجومُ التي تَخْنسُ بالنهار، وإذا غَرَبَت[٦]، وقاله عليٌّ ﷺ، قال: هي النجومُ تَخنسُ بالنهار، وتَظهَرُ بالليل، وتَكنِسُ في وقتِ غروبها[٧]، أي: تتأخَّر عن البصر لخفائها، فلا تُرَى.

---

(١) زاد المسير ٩/ ٤١ .

(٢) سلف ص١٠٠ من هذا الجزء.

(٣) عند تفسير الآية (٧٥) من سورة الواقعة، والآية (٤٠) من سورة المعارج.

(٤) النكت والعيون ٦/ ٢١٦ ، وزاد المسير ٩/ ٤٢ ، وأخرجه عن علي ﷺ ابن أبي حاتم، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٢٠ ، وفيه: بَهْرام، بدل: المريخ، وهما واحد، كما في زاد المسير، والأزمنة والأمكنة ٢/ ٤٣٨ .

(٥) النكت والعيون ٦/ ٢١٦ ، وأخرجه عن ابن عباس أبو الشيخ في العظمة (٦٨٦). وعن بكر بن عبد الله الطبري ٢٤/ ١٥٣ .

(٦) في (د): إذا غربت، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في النكت والعيون ٦/ ٢١٦ ، والكلام منه. وأخرج القول بنحوه عن قتادة والحسن الطبري ٢٤/ ١٥٤ .

(٧) أخرجه الطبري ٢٤/ ١٥٢-١٥٣ بلفظ: تخنس بالنهار، وتكنس بالليل، وفي رواية: تجري بالليل، وتخنس بالنهار. وفي رواية: تكنس بالنهار، وتبدو بالليل.

وفي «الصحاح»: و«الخُنَّس»: الكواكب كلُّها؛ لأنها تَخنَسُ في المغيب، أو لأنَّها تَخفَى نهاراً[١]. ويقال: هي الكواكبُ السيارةُ منها دون الثابتة. وقال الفرَّاء في قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ . ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ﴾: إنَّها النجومُ الخمسةُ؛ زُحلُ والمشتري والمرِّيخ والزُّهرةُ وعُطاردٌ؛ لأنها تُخنسُ في مجراها، وتَكنِسُ، أي: تَستَتِر كما تَكنِسُ الظِّباءُ في المَغَارِ، وهو الكِنَاس[٢]. ويقال: سمِّيتْ خُنَّساً لتأخُّرها؛ لأنَّها الكواكبُ المتحيِّرةُ التي تَرجعُ وتستقيم؛ يقال: خَنَس عنه يَخنُس ـ بالضَّم ـ خُنوساً: تأخَّر، وأخْنَسه غيرُه: إذا خلَّفه ومَضى عنه[٣]. والخَنَس: تَأخُّر الأنفِ عن الوجه مع ارتفاعٍ قليلٍ في الأرنبة، والرجلُ أخنَسُ، والمرأةُ خَنساءُ، والبقرُ كلُّها خُنسٌ.

وقد روي عن عبد الله بن مسعود في قوله تعالى: «فلا أُقسِم بِالخُنس»: هي بقرُ الوحش؛ روى هُشَيم عن زكريا، عن أبي إسحاقَ، عن أبي ميسرةَ عمرو بنِ شُرحبيل قال: قال لي عبد الله بنُ مسعود: إنكم قومٌ عربٌ، فما الخنَّس؟ قلت: هي بقرُ الوَحشِ، قال: وأنا أرى ذلك[٤]. وقاله إبراهيم وجابر بنُ عبد الله[٥]. وروِي عن ابن عباس: إنَّما أقسمَ الله ببقرِ الوحش[٦]. وروى عنه عِكرمة قال: «الخُنَّسُ»: البقرُ، و«الكُنَّس»: هي الظِّباء[٧]، فهي خُنَّسٌ؛ إذا رأينَ الإنسان خَنَسنَ وانقبضنَ وتأخَّرنْ ودَخَلنَ كِناسَهنَّ.

---

(١) في (م): تخنس نهاراً، وفي الصحاح (خنس): تختفي بالنهار، والمثبت من النسخ الخطية، وهو موافق لما في مختار الصحاح.

(٢) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٤٥، ونقله المصنف عنه بواسطة الجوهري في الصحاح (خنس).

(٣) في مختار الصحاح: وخنس يكون متعدياً ولازماً... وبعضهم لا يجعله متعدياً إلا بالألف، فيقول: أخنسه.

(٤) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٣٥١، والطبري ٢٤/ ١٥٤-١٥٥.

(٥) أخرجه عن إبراهيم الطبري ٢٤/ ١٥٦-١٥٧، ولم نقف عليه عن جابر بن عبد الله.

(٦) أخرجه أبو داود الطيالسي، كما في تفسير ابن كثير، بلفظ: «الجواري الكنس» قال: البقر الوحش تكنس إلى الظل.

(٧) ذكره الواحدي في الوسيط ٤/ ٤٧٣، وفيه: المعز، بدل: البقر.

القشيريُّ: وقيل على هذا: «الخُنَّس» من الخنَس في الأنف، وهو تأخُّر الأرنبةِ وقصَرُ القَصَبةِ، وأنوفُ البقرِ والظِّباءِ خنسٌ، والأصلُ[1] الحملُ على النجوم، لذِكرِ الليلِ والصُّبحِ بعد هذا، فذِكرُ النجومِ أَلْيَقُ بذلك.

قلت: لله أن يقسِمَ بما شاء مِن مخلوقاته من حيوان وجماد، وإن لم يُعلَم وَجهُ الحكمةِ في ذلك. وقد جاء عن ابن مسعود وجابر بنِ عبد الله ـ وهما صحابيَّان ـ والنخعيّ: أنَّها بقرُ الوحش. وعن ابن عباس وسعيد بن جُبير: أنها الظِّباء[2]. وعن الحجاج بن منذر قال: سألتُ جابر بنَ زيد عن الجواري الكنَّس، فقال: الظِّباءُ والبقر[3]. فلا يَبْعُدُ أن يكون المرادُ النجوم.

وقد قيل: إنَّها الملائكة؛ حكاه الماورديُّ[4]. والكنَّس الغُيَّب؛ مأخوذةٌ من الكِناس، وهو كِناسُ الوحشِ الذي يختفي فيه. قال أوس بن حَجَر:

أَلَمْ تَرَ أنَّ اللهَ أنزلَ مُزْنَةً ... وعُفْرُ الظباءِ في الكِناسِ تَقَمَّعُ[5]

وقال طَرَفة:

كأنَّ كِناسَيْ ضالَةٍ يَكْنُفانِها ... وأَطْرَ قِسِيٍّ تحتَ صُلْبٍ مُؤَيَّدِ[6]

---

(١) في (م): والأصح.

(٢) أخرجه عنهما الطبري ٢٤/ ١٥٧ .

(٣) أخرجه البخاري في التاريخ الكبير ٢/ ٣٧٤ ، والطبري ٢٤/ ١٥٥ .

(٤) في النكت والعيون ٦/ ٢١٥ و٢١٦ .

(٥) ديوان أوس بن حجر ص٥٧ ، والمعاني الكبير ٢/ ٦٠٥ ، وسلف ١٧/ ٢٩١ . قال ابن قتيبة: تَقَمَّع: تطرد عنها القمعة، وهو ذباب أزرق، يقول: خصَّه الله بهذه المزنة في غير وقت مطر، في الحر، والذباب لم يَخِفَّ ولم يذهب.

(٦) ديوان طرفة ص٢٥ ، الكناس: بيت يتخذه الوحش في أصل شجرة. والضَّالُ: ضَرْبٌ من الشجر، وهو السِّدر البري، الواحدة ضالَة. كنفت الشيء: صرت في ناحيته، والكنف الناحية. والأطر: العَطْف، ومُنحنَى القوس. والمؤيَّد: المقوَّى. شبَّه إبطي الناقة في السَّعة بيتين من بيوت الوحش في أصل شجرة، وشبَّه أضلاعها بقِسِيٍّ معطوفة وسعةُ الإبط أبْعَدُ لها من العِثَار؛ لذلك مَدحها بها. شرح المعلقات للزوزني في ص٥١ .

وقيل: الكُنوسُ: أنْ تأويَ إلى مَكانسها، وهي المواضعُ التي تأوي إليها الوحشُ والظِّباء.

قال الأعشى:

فلمَّا أتينا الحيَّ أتلَعَ أُنَّسٌ كما أتلَعَتْ تحتَ المكانِسِ رَبْرَبُ[١]

يقال: تَلَع النهار: ارتفع، وأتْلَعتِ الظَّبيةُ من كِناسها، أي: سَمَتْ بجيدِها. وقال امرُؤ القيس:

تَعَشَّى قليلاً ثم أنحى ظُلُوفَه يثِيرُ الترابَ عن مَبيتٍ ومَكنِسِ[٢]

والكُنَّس: جمعُ كانِس وكانِسةٍ، وكذا الخُنَّسُ جمعُ خانِسٍ وخانِسةٍ. والجواري: جمعُ جاريةٍ، مِن جَرى يَجري.

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ﴾ قال الفرَّاء: أجمعَ المفسِّرون على أنَّ معنى عَسْعَسَ: أدْبَر ـ حكاه الجوهريُّ ـ وقال بعضُ أصحابنا: إنه [إذا] دنا من أوَّله وأظْلَم، وكذلك السَّحابُ إذا دنا من الأرض[٣].

المهدويُّ: «والليل إذا عَسْعَسَ»: أدْبَرَ بظَلامِه؛ عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما[٤]. وروي عنهما أيضاً وعن الحسن وغيره: أقبلَ بظلامه[٥]. زيد بن أسلَم: «عسعسَ»: ذهب[٦].

---

(١) ديوان الأعشى ص١١ (طبعة دار صادر) برواية: فلما ادَّرَكْتُ. وهو في تفسير الطبري ٢٤/١٥٨ برواية: فلما لحقنا. قوله: أتلع، يقال: أتلع رأسه، أي: أطلعه فنظر. والربرب: القطيع من بقر الوحش، وقيل: من الظباء، ولا واحد له. اللسان (ربب) و(تلع).

(٢) ديوان امرئ القيس ص١٠٢. قال الشارح: قوله: تعشى، أي: دخل في العشاء، وهو أول الليل، كأنه قال: أمسى قليلاً ثم أنحى ظلوفه، أي: اعتمد بأظلافه يحفر مربضاً يبيت فيه ويكنس.

(٣) الصحاح (عسس)، وما سلف بين حاصرتين منه وكلام الفراء في معاني القرآن ٣/ ٢٤٢.

(٤) تفسير الطبري ٢٤/ ١٥٩-١٦٠.

(٥) تفسير الطبري ٢٤/ ١٦٠ و١٦١ عن مجاهد والحسن. وأخرجه عن ابن عباس عبد الرزاق ٢/ ٣٥٢، وابن الأنباري في الأضداد ص٣٣.

(٦) أخرجه الطبري ٢٤/ ١٦١.

الفراء: العربُ تقول: عَسْعَسَ الليلُ وسَعْسَع: إذا لم يَبْقَ منه إلّا اليسيرُ(١).

الخليلُ وغيرُه: عَسْعَسَ الليلُ: إذا أقبلَ أو أدْبَر. المبرِّد: هو من الأضداد، والمعنيان يرجعان إلى شيءٍ واحدٍ، وهو ابتداءُ الظلامِ في أوَّله، وإدبارُه في آخره(٢)؛ وقال علقمةُ بنُ قُرْطٍ:

حتى إذا الصبحُ لها تَنفَّسا ... وانْجابَ عنها ليلُها وعَسْعَسا(٣)

وقال رُؤبة:

يا هندُ ما أَسْرعَ ما تَسَعْسَعا ... مِن بَعدِ ما كان فَتًى سَرَعرَعَا(٤)

وهذه حجةُ الفرَّاء. وقال امرؤُ القيس:

عَسْعَسَ حتى لو يشاءُ ادَّنا ... كان لنا مِن نارِهِ مَقبِسُ(٥)

فهذا يدلُّ على الدنوِّ.

وقال الحسن ومجاهدٌ: عَسْعَسَ: أظلَم؛ قال الشاعر:

حتى إذا ما ليلُهنَّ عَسْعَسَا ... رَكِبْنَ مِن حدِّ الظلامِ حِنْدِسَا(٦)

---

(١) ذكره البغوي ٤/ ٤٥٣ دون نسبة، ولم نقف عليه في معاني القرآن للفراء.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٢٩٢، وتهذيب اللغة ١/ ٧٩.

(٣) مجاز القرآن ٢/ ٢٨٨، وتفسير الطبري ٢٤/ ٢٣٨، والأضداد لابن السكيت ص١٦٧، والأضداد لابن الأنباري ص٣٣، والأزمنة والأمكنة ١/ ٣٢٥.

(٤) الأول في الديوان ص٨٨، والبيتان في العين ١/ ٧٥. قوله: سرعرعاً، أي: شابًا قويًا، كما ذكر صاحب العين. وتسعسع الرجل، أي: كَبِر حتى هرم وولى. الصحاح (سعسع).

(٥) كذا ذكره ابن الأنباري عن امرئ القيس ضمن خبر أخرجه من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس، وقد ذُكر البيت في ملحقات ديوان امرئ القيس ص٤٦٣ عن ابن الأنباري. وذكر الفراء في معاني القرآن ٣/ ٢٤٢: أن أبا البلاد النحوي كان ينشد هذا البيت، قال: وكانوا يرون أن هذا البيت مصنوع، وذكر في شرحه: أن معناه: لو يشاء إذ دنا، فتركت همزة إذ، وأبدلوا من الذال دالاً، وأدغموها في الدال التي بعدها.

(٦) النكت والعيون ٦/ ٢١٧، وأنشده ابن الأنباري في الأضداد ص٣٤ برواية:

حتى إذا الليل عليها عسعسا ... وادَّرعت منه بهيماً حِندساً

قال ابن الأنباري: الحندس: الشديد السواد، والبهيم: الذي لا يخالط لونَه لونٌ آخر.

الماورديُّ: وأصلُ العسِّ: الامتلاءُ، ومنه قيل للقدح الكبير: عُسٌّ؛ لامتلائه بما فيه، فانْطَلَق على إقبال الليل لابتداءِ امتلائه، وانطلق على إدباره لانتهاءِ امتلائه، وانطلق على ظلامه لاستكمال امتلائه[١]. وأمَّا قولُ امرئ القيس:

أَلِمَّا على الرَّبْعِ القديم بِعسْعَسَا[٢]

فموضعٌ بالبادية، وعسعسٌ أيضاً اسمُ رجلٍ؛ قال الراجز:

وعَسْعَسٌ نِعمَ الفتى تَبَيَّاهُ[٣]

أي: تَعْتَمِدُه. ويقال للذئب: العَسْعَسُ والعَسعاسُ والعَسَّاس؛ لأنه يَعُسُّ بالليل ويَطلبُ. ويقال للقنادفذ: العَسَاعِسُ؛ لكَثْرةِ تَردُّدِها بالليل. قال أبو عمرو: والتَّعَسْعُس: الشمُّ، وأنشد:

كَمنْخَرِ الذِّئبِ إذا تَعَسْعَسَا[٤]

والتَّعَسْعُس أيضاً: طَلَبُ الصيدِ [بالليل].

قوله تعالى: ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ أي: امتدَّ حتى يصيرَ نهاراً واضحاً؛ يقال للنهار إذا زاد: تنفَّس. وكذلك الموجُ إذا نَضحَ الماءَ. ومعنى التنفُّسِ: خروجُ النسيمِ من الجَوْف.

وقيل: «إذا تنفَّس»، أي: انشقَّ وانفَلَقَ، ومنه: تَنفَّستِ القوسُ[٥]، أي: تَصَدَّعتْ.

---

(١) في النكت والعيون ٦/ ٢١٧ ، وليس في مطبوعه: وانطلق على إدباره لانتهاء امتلائه.

(٢) ديوان امرئ القيس ص١٠٥ ، وعجزه: كأني أنادي أو أكلِّم أخرسا. قال شارح الديوان: يقول لصاحبيه: ألمَّا على الرَّبْع، أي: انزلا عليه مساعدة لي حتى أسأله عن أهله، ثم أخبر أنه ناداه فلم يُجبْه.

(٣) البيت لرويشد الأسدي كما في التاج (بيي)، وهو دون نسبة في أدب الكاتب ص٤٥ ، والصحاح (عسس)، والاقتضاب ص٣٠٩ ، وذكر البطليوسي قبله: منَّا يزيد وأبو مُحيَّاهْ.

(٤) الصحاح (عسس)، وما سيأتي بين حاصرتين منه.

(٥) في النسخ: تنفست القوس والنفوس، والمثبت من تهذيب اللغة ١٣/ ١٠ والصحاح (نفس) واللباب ٢٠/ ١٨٨ ، وفتح القدير ٦/ ٣٩١ . واللسان (نفس).

﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ هذا جوابُ القَسَم. والرسولُ الكريم: جبريل؛ قاله الحسنُ وقتادةُ والضحاكُ[١]. والمعنى: «إنه لقولُ رسولٍ» عن الله، «كريمٍ» على الله. وأضاف الكلام إلى جبريلَ عليه السلام، ثم عدَّاه عنه بقوله: «تنزيلٌ مِن ربِّ العالَمِين» ليعلم أهلُ التحقيق في التصديق، أنَّ الكلام للهِ عزَّ وجلَّ.

وقيل: هو محمدٌ عليه الصلاة والسلام[٢] ﴿ذِى قُوَّةٍ﴾: مَن جَعَله جبريلَ فقوَّتُه ظاهرةٌ، فروى الضحاكُ عن ابن عباس قال: مِن قوَّته قَلْعُه مَدائنَ قومِ لُوطٍ بقوادمِ جناحه[٣].

﴿عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ﴾ أي: عند الله جلَّ ثناؤه ﴿مَكِينٍ﴾ أي: ذي منزلةٍ ومكانةٍ، فرُوي عن أبي صالح قال: يدخلُ سبعين سُرادِقاً بغيرِ إذنٍ[٤].

﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ﴾ أي: في السماوات؛ قال ابن عباس: من طاعةِ الملائكةِ جبريلَ، أنه لمَّا أسرِيَ برسول الله ﷺ قال جبريل عليه السلام لرضوان خازِنِ الجِنَان: افتح له، ففتح، فدخل ورأى ما فيها، وقال لمالكٍ خازِنِ النار: افتح له جهنَّم حتى ينظرَ إليها، فأطاعه وفتح له[٥].

﴿أَمِينٍ﴾ أي: مؤتَمن على الوحي الذي يجيءُ به.

ومَن قال: إنَّ المرادَ محمدٌ ﷺ، فالمعنى: «ذي قوةٍ» على تبليغ الرسالة[٦]، «مُطاعٍ» أي: يطيعُه مَن أطاع الله جلّ وعزّ.

﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ يعني محمداً ﷺ، ليس بمجنون حتى يُتَّهم في قوله. وهو من

---

(١) النكت والعيون ٦/٢١٨ ، وأخرجه عن قتادة عبد الرزاق ٢/٣٥٢ ، والطبري ٢٤/١٦٣ .

(٢) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٦/٢١٨ عن ابن عيسى.

(٣) سلف ٢٠/١٢ عن الكلبي، ولم نقف عليه عن ابن عباس.

(٤) أخرجه الطبري ٢٤/١٦٤ ، وذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٩/٤٣ ، كلاهما في تفسير قوله تعالى: ﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ ولفظه: أمين على أن يدخل سبعين سرادقاً من نور بغير إذن.

(٥) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٩/٤٣ دون نسبة.

(٦) في (د) و(ظ): الوحي.

جواب القَسَم.

وقيل: أراد النبيُّ ﷺ أن يرى جبريلَ في الصورة التي يكونُ بها عند ربِّه جلَّ وعزَّ، فقال: ما ذاك إليَّ؛ فأذِنَ له الربُّ جلَّ ثناؤه، فأتاه وقد سَدَّ الأُفقَ، فلمَّا نظرَ إليه النبيُّ ﷺ خرَّ مَغشيًّا عليه، فقال المشركون: إنَّه مجنون، فنزلت: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾ ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ﴾[1] وإنَّما رأى جبريلَ على صورته فهابَه، وورد عليه ما لم تَحْتَمِلْ بِنيتُه، فخرَّ مَغشيًّا عليه.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ رَءَاهُ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢٣ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ بِضَنِينٖ ۝٢٤ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٖ ۝٢٥ فَأَيۡنَ تَذۡهَبُونَ ۝٢٦ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ۝٢٧ لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ۝٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢٩﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ رَءَاهُ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ﴾ أي: رأى جبريلَ في صورته، له ستُّ مئة جناحٍ[2]. «بِالأفقِ المُبينِ» أي: بمطلع الشمس من قِبَلِ المَشرِق؛ لأنَّ هذا الأفقَ إذا كان منه تطلعُ الشمسُ فهو مُبين. أي: من جهته تُرَى الأشياء.

وقيل: الأفقُ المبينُ: أقطارُ السماءِ ونواحيها؛ قال الشاعر:

أخَذْنا بِآفاقِ السماءِ عليكُمُ ... لنا قَمراها والنجومُ الطَّوالِعُ[3]

الماورديُّ: فَعلَى هذا فيه ثلاثةُ أقاويلَ؛ أحدُها: أنه رآه في أفقِ السماءِ الشرقيِّ؛ قاله سفيان. الثاني: في أفق السماء الغربيِّ، حكاه ابن شجرة. الثالث: أنه رآه نَحوَ أجياد، وهو مَشرقُ مكةَ؛ قاله مجاهد[4].

وحكى الثعلبيُّ عن ابن عباس: قال النبيُّ ﷺ لجبريلَ: «إنِّي أحبُّ أن أراكَ في

(١) لم نقف عليه بهذا السياق، وسيأتي خبر رؤية النبي ﷺ لجبريل في صورته التي يكون فيها في السماء.

(٢) أخرجه الطبري ٢٤/ ١٦٦-١٦٧ عن أبي الأحوص، وأخرج عبد الرزاق ٢/ ٣٥٢ عن ابن مسعود ﷺ قال: رأى جبريل له خمس مئة جناح قد سدَّ الأفق.

(٣) البيت للفرزدق، وهو في الكامل للمبرد ١/ ١٨٧، وطبقات فحول الشعراء ١/ ١٨٠، والخزانة ٩/ ١١٤. قوله: قمراها، قال المبرد: يريد الشمس والقمر.

(٤) النكت والعيون ٦/ ٢١٨-٢١٩، وقول مجاهد أخرجه الطبري ٢٤/ ١٦٦.

صورتك التي تكونُ فيها في السماء» قال: لن تقدرَ على ذلك. قال: «بلى» قال: فأين تشاءُ أن أتخيَّل لك؟ قال: «بالأبطح» قال: لا يَسعُني. قال: «فبمِنًى» قال: لا يسعني. قال: «فبعرفات» قال: ذلك بالحريّ أن يَسعني. فَواعَدَه، فخرج النبيُّ ﷺ للوقت، فإذا هو قد أقبلَ بخَشْخَشةٍ وكَلْكلةٍ من جبال عَرفات، قد ملأ ما بينَ المشرقِ والمغرب، ورأسُه في السماء ورجلاه في الأرض، فلمَّا رآه النبيُّ ﷺ خرَّ مغشيًّا عليه، فتحوَّل جبريلُ في صورته، وضمَّه إلى صدره. وقال: يا محمدُ لا تَخَفْ، فكيف لو رأيتَ إسرافيلَ، ورأسُه من تحت العرش ورجلاه في تخوم الأرض السابعة، وإنَّ العرش على كاهله، وإنه ليتضاءلُ أحياناً من خشية الله، حتى يصير مثل الوَصَع ـ يعني العصفور ـ حتى ما يحملُ عرشَ ربِّك إلَّا عظمتُه[1].

وقيل: إنَّ محمداً عليه الصلاة والسلام رأى ربَّه عزَّ وجلَّ بالأفق المبين. وهو معنى قولِ ابنِ مسعود[2]. وقد مضى القولُ في هذا في «والنَّجْمِ» مستوفًى[3]، فتأمَّلْه هناك.

وفي «المبين» قولان: أحدُهما أنه صفةُ الأفقِ؛ قاله الربيع. الثاني: أنه صفةٌ لمن رآه؛ قاله مجاهد.

﴿وما هو على الغيب بِظَنينٍ﴾ بالظاء، قراءةُ ابنِ كثير وأبي عمرو والكسائيِّ[4]، أي: بمتَّهم، والظِّنَّة: التُّهمة؛ قال الشاعر:

أمَا وكتابِ اللهِ لا عن شناءةٍ ... هُجِرتُ ولكنَّ الظَّنِينَ ظَنينُ[5]

---

(١) أخرجه البغوي في التفسير ٤/ ٤٥٤ .

(٢) النكت والعيون ٦/ ٢١٨ .

(٣) ٢٠/ ٢١ وما بعد، وقول ابن مسعود هناك هو أن الذي رآه رسول الله ﷺ هو جبريل، وقد ذكر المصنف ٨/ ٤٨٣-٤٨٤ عن ابن مسعود القولين؛ الأول: أنه إنما رأى جبريل. والثاني: ذكره عن بعض المتكلمين عن ابن مسعود أن محمداً ﷺ رأى ربه. ثم قال: والأول عنه أشهر.

(٤) السبعة ص٦٧٣ ، والتيسير ص٢٢٠ .

(٥) البيت لعبد الرحمن بن حسان، كما في الكامل ١/ ٢٣ ، وتهذيب اللغة ١٤/ ٣٦٤ ، ونسبه ابن بري =

واختاره أبو عُبيد؛ لأنهم لم يُبَخِّلوه ولكن كذَّبوه؛ ولأنَّ الأكثر من كلام العرب: ما هو بكذا، ولا يقولون: ما هو على كذا، إنَّما يقولون: ما أنت على هذا بمتَّهم.

وقرأ الباقون: «بِضَنِينٍ» بالضاد: أي: ببخيل؛ من ضَنِنْتُ بالشيء أضِنُّ ضِنًّا. فروى ابنُ أبي نجيح عن مجاهد قال: لا يَضنُّ عليكم بما يَعلَم[١]، بل يُعَلِّم الخَلقَ كلامَ اللهِ وأحكامَه. وقال الشاعر:

أجُودُ بمكنونِ الحديث وإنَّني ... بِسِرِّكِ عمَّن سالَني لضَنِينُ[٢]

والغَيْب: القرآنُ وخبرُ السماء. ثم هذا صفةُ محمدٍ عليه الصلاة والسلام. وقيل: صفةُ جبريلَ عليه السلام.

وقيل: بظَنين: بضعيف. حكاه الفرَّاء والمبرِّد؛ يقال: رجلٌ ظَنينٌ[٣]، أي: ضعيفٌ. وبئر ظَنونٌ: إذا كانت قليلةَ الماء؛ قال الأعشى:

ما جُعِلَ الجُدُّ الظَّنونُ الذي ... جُنِّبَ صَوبَ اللَّجِبِ الماطِرِ
مِثْلَ الفُرَاتيِّ إذا ما طما ... يَقذِفُ بالبُوصِيِّ والماهِرِ[٤]

والظَّنونُ: الدَّينُ الذي لا يُدْرَى أيقْضِيه آخِذُه أم لا؟ ومنه حديثُ عليٍّ عليه السلامُ في الرجل يكون له الدَّينُ الظَّنون، قال: يزكِّيه لِمَا مضى إذا قَبَضَه إن كان صادقاً[٥].

= لنهار بن تَوسِعة، كما في اللسان (ظنن). ووقع في هذه المصادر: جناية، بدل: شناءة. والشناءة: أشدُّ البغض. المعجم الوسيط (شنا).

(١) أخرجه الطبري ٢٤/ ١٦٨ .

(٢) البيت لقيس بن الخطيم، كما في أمالي القالي ٢/ ١٧٧ ، وفيه: أجود بمكنون التلاد...، وذكره أيضاً القالي في الأمالي ٢/ ٢٠٢ ، وابن عبد البر في بهجة المجالس ١/ ٤٦٠ برواية: أجود بمضنون التلاد. والتلاد: ما ولد عندك من مالك أو نتج. القاموس (تلد).

(٣) في معاني القرآن للفراء: ظنون، وكذا نقل عنه الطبري ٢٤/ ١٧٠ ، والأزهري في تهذيب اللغة ١٤/ ٣٦٣ .

(٤) ديوان الأعشى ص١٩١ ، واللسان (مهر)، وفيه: الجُدُّ: البئر، والفراتي: الماء المنسوب إلى الفرات. وطما: ارتفع. والبوصي: الملاح. والماهر: السابح. قال شارح الديوان: أي: ليس البئر القليل الماء قد جانَبه السيل الزاخر، مثلَ الفرات إذا جاش بالماء يقذف بالسُّفين وبالسبَّاح.

(٥) أخرجه أبو عبيد في غريب الحديث ٣/ ٤٦٤ ، وأحمد كما في مسائل ابنه عبد الله ٢/ ٥٣٢ .

والظَّنون: الرجلُ السيِّئُ الخُلُقِ[١]؛ فهو لفظٌ مُشتَرَكٌ.

﴿وَمَا هُوَ﴾ يعني القرآن ﴿بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾ أي: مرجومٍ ملعونٍ، كما قالت قريش. قال عطاءٌ: يريدُ بالشيطان الأبيضَ الذي كان يأتي النبيَّ ﷺ في صورةِ جبريلَ يريدُ أنْ يَفْتِنَه.

﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ قال قتادةُ: فإلى أين تَعدِلون عن هذا القول وعن طاعته؟ كذا روَى مَعمر عن قتادة[٢]، أي: أين تذهبون عن كتابي وطاعتي؟

وقال الزجَّاج[٣]: فأيَّ طريقةٍ تَسلُكون أبينَ من هذه الطريقةِ التي بيّنت لكم؟ ويقال: أين تذهبُ؟ وإلى أين تذهبُ؟ وحَكَى الفرَّاء[٤] عن العرب: ذهبتُ الشامَ وخرجتُ العراقَ وانطلقتُ السوقَ، أي: إليها. قال: سمعناه في هذه الأحرفِ الثلاثة، وأنشدني بعضُ بني عقيل:

تصيحُ بنا حنيفةُ إذْ رَأتْنا وأيَّ الأرضِ تَذْهبُ بالصِّياحِ[٥]

يريد: إلى أيِّ أرضٍ تذهبُ، فحذف إلى. وقال الجنيد: معنى الآيةِ مقرونٌ[٦] بآيةٍ أخرى، وهي قولُه تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ [الحجر: ٢١] المعنى: أيَّ طريقٍ تسلُكون أبينَ من الطريق الذي بينه الله لكم. وهذا معنى قولِ الزجّاج.

(١) في المعاجم: الظنون: الرجل السيء الظن. زاد الأزهري عن الليث، والظنون: الرجل القليل الخير. تهذيب اللغة ٤/ ٣٦٣.

(٢) أخرجه بنحوه الطبري ٢٤/ ١٧١ من طريق سعيد عن قتادة، وذكره الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٢١٩.

(٣) في معاني القرآن ٥/ ٢٩٣.

(٤) في معاني القرآن ٣/ ٢٤٣.

(٥) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٤٣، وإصلاح المنطق ص٩٩، وفيهما: تذهب للصياح. والبيت كما قال السيرافي في شرح أبيات إصلاح المنطق ص٢٤٨ لعتي بن مالك العقيلي من قصيدة قالها في يوم الفَلَج، وهو يوم كان بينهم وبين بني حنيفة. ومعناه: أنهم شجعان لا يبرحون مكاناً، إذا صيح بهم في الحرب ثبتوا.

(٦) في (د): معروف.

﴿إِنْ هُوَ﴾ يعني القرآن ﴿إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: موعظةٌ وزَجرٌ. و«إنْ» بمعنى «ما». وقيل: ما محمدٌ إلاَّ ذِكر. ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ أي: يتَّبع الحقَّ ويُقيم عليه.

وقال أبو هريرةَ وسليمان بنُ موسى: لمَّا نزلتْ ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ قال أبو جهل: الأمرُ إلينا، إنْ شئنا استقمْنا، وإنْ شئنا لم نَسْتَقِمْ ـ وهذا هو القَدَرُ، وهو رأسُ القَدَرية ـ فنزلت ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[١]، فبيَّن بهذا أنه لا يعملُ العبدُ خيراً إلَّا بتوفيقِ الله، ولا شرًّا إلَّا بخذلانه. وقال الحسن: والله ما شاءت العربُ الإسلامَ حتى شاءه الله لها.

وقال وهب بن مُنبِّه: قرأتُ في سبعةٍ وثمانين كتاباً ممَّا أنزلَ الله على الأنبياء: مَن جعل إلى نفسه شيئاً من المشيئة فقد كَفَر[٢]. وفي التنزيل: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ١١١]. وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٠٠]. وقال: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦] والآيُ في هذا كثير، وكذلك الأخبارُ، وأنَّ الله سبحانه هَدَى بالإسلام، وأضلَّ بالكفر، كما تقدَّم في غيرِ موضعٍ.

خُتمت السورة والحمد لله.

---

(١) أخرجه الطبري ٢٤/ ١٧٣ عن سليمان بن موسى، وأخرجه عن أبي هريرة ابن أبي حاتم وابن مردويه كما في الدر المنثور ٦/ ٣٢٢.

(٢) أخرجه اللالكائي في شرح أصول الاعتقاد (١١٧٠) و(١٢٥٨)، وأبو نعيم في الحلية ٤/ ٢٤، وفيه: قرأت نيِّفاً وتسعين كتاباً...

سورة الانفطار

مكية عند الجميع، وهي تسعَ عَشرةَ آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۝٤ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ۝٥﴾

قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ أي: تَشقَّقتْ بأمر الله لنزول الملائكة، كقوله: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٥].

وقيل: تفطَّرتْ لهيبةِ اللهِ تعالى.

والفَطْر: الشَّقُّ؛ يقال: فَطرتُه فانْفطر، ومنه: فَطَر نابُ البعير: طَلَع، فهو بعيرٌ فاطِرٌ، وتَفَطَّر الشيءُ: تشقَّق، وسيفٌ فُطارٌ، أي: فيه شقوق؛ قال عنترة:

وسيفي كالعقيقةِ وهو كِمْعي ... سلاحي لا أفلَّ ولا فُطارا

وقد تقدَّم في غير موضع[1].

﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ﴾ أي: تَساقَطتْ؛ نَثرْتُ الشيءَ أَنثرُه نَثراً، فانتثر، والاسمُ: النِّثار[2]. والنُّثار بالضم: ما تَناثَر من الشيء، ودُرٌّ مُنثَّر، شُدِّد للكَثْرة.

﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ أي: فُجِّر بعضُها في بعضٍ، فصارتْ بحراً واحداً، على ما تقدَّم[3]. قال الحسن: فُجِّرت: ذهب ماؤها ويَبِسَت[4]، وذلك أنها أوّلاً راكدةٌ

---

(١) سلف الكلام مع البيت ١٧/ ٣٤٠.

(٢) بكسر النون كما في مختار الصحاح، والكلام من الصحاح (نثر).

(٣) ص٩٨ من هذا الجزء.

(٤) أخرجه الطبري ٢٤/ ١٧٥ بلفظ: فجرٌ بعضها في بعض فذهب ماؤها.

مجتمعةٌ، فإذا فُجّرتْ تفرَّقَتْ، فذهب ماؤها. وهذه الأشياءُ بين يدي الساعة، على ما تقدَّم في «إذا الشمس كورت».

و﴿وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾ أي: قُلِبتْ فأُخرِجَ ما فيها من أهلها أحياءً؛ يقال: بَعثرتُ المتاعَ: قلبته ظهراً لبَطْنٍ، وبَعثَرتُ الحوضَ وبحثَرته: إذا هدمته وجعلت أسفله أعلاه. وقال قوم منهم الفرّاء[(١)]: «بعثِرت»: أَخْرجتْ ما في بطنها من الذهب والفضة. وذلك من أشراط الساعة: أن تُخرِجَ الأرضُ ذَهبَها وفضَّتها.

﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ مثل: ﴿يُنَبَّؤُا ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة:١٣]، وتقدَّم. وهذا جوابُ «إذا السماءُ انْفَطرَتْ» لأنه قَسَمٌ في قولِ الحسنِ وَقَع على قوله تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ﴾[(٢)]. يقول: إذا بَدَتْ هذه الأمورُ من أشراطِ الساعة خُتِمَت الأعمالُ، فعَلِمَتْ كلُّ نفسٍ ما كَسَبتْ، فإنَّها لا ينفعُها عملٌ بعد ذلك.

وقيل: أي: إذا كانت هذه الأشياءُ قامت القيامة، فحوسِبَتْ كلُّ نفسٍ بما عَمِلَتْ، وأُوتِيَتْ كتابَها بيمينها أو بشمالها، فتذكَّرتْ عند قراءتِه جميعَ أعمالها.

وقيل: هو خبرٌ وليس بقَسَمٍ، وهو الصحيحُ إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ۝٩﴾

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ خاطَبَ بهذا مُنكِري البعثِ. وقال ابن عباس: الإنسانُ هنا: الوليدُ بن المغيرة[(٣)]. وقال عكرمة: أبيّ بنُ خَلَف[(٤)]. وقيل: نزلت في

(١) في معاني القرآن ٣/ ٢٤٣.

(٢) النكت والعيون ٦/ ٢٢١.

(٣) ذكره الرازي ٣١/ ٧٩ من طريق عطاء عن ابن عباس. وذكره الواحدي في الوسيط ٤/ ٤٣٤، والبغوي ٤/ ٤٥٥ عن عطاء قوله.

(٤) أخرجه ابن المنذر، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٢٣.

أبي الأشدِّ بنِ كَلَدة الجُمَحِيّ. عن ابن عباس أيضاً[١].

﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ أي: ما الذي غَرَّك حتى كَفَرْتَ بربِّك الكريم، أي: المتجاوِزِ عنك. قال قتادةُ: غرَّه شيطانُه المسلَّطُ عليه[٢]. الحسن: غرَّه شيطانُه الخبيث[٣].

وقيل: حُمقُه وجَهْلُه؛ رواه الحسن عن عمر ﷺ[٤].

وروى غالبٌ الحنفيُّ قال: لمَّا قرأ رسول الله ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ قال: «غرَّه الجَهْلُ»[٥].

وقال صالح بنُ مسمار: بلغنا أنَّ رسول الله ﷺ قرأ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾؟ فقال: «غرَّه جَهْلُه»[٦]. وقاله عمر ﷺ؛ قال: كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢][٧].

وقيل: غرَّه عَفْوُ اللهِ، إذ لم يُعاقِبْه في أوّل مرَّةٍ[٨]. قال إبراهيم بن الأشعث: قيل للفُضَيل بن عياض: لو أقامك الله تعالى يومَ القيامةِ بين يديه، فقال لك: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾، ماذا كنتَ تقول؟ قال: كنتُ أقولُ: غَرَّني سُتُورُك الْمُرْخَاةُ؛ لأنَّ الكريم هو السَّتَّار. نَظَمه ابنُ السَّمَّاكِ فقال:

يا كاتمَ الذنبِ أمَا تستحي والله في الخُلْوةِ ثانيكا

---

(١) النكت والعيون ٦/ ٢٢١ ، وزاد المسير ٩/ ٤٧ .

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٤٥٥ ، وأخرجه بنحوه الطبري ٢٤/ ١٧٨ .

(٣) الكشاف ٤/ ٢٢٧ .

(٤) النكت والعيون ٦/ ٢٢٢ ، وأخرجه بنحوه ابن أبي حاتم، كما ذكر ابن كثير عند تفسير هذه الآية.

(٥) لم نقف عليه.

(٦) أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن ص ٧١ ، والواحدي في الوسيط ٤/ ٤٣٥ . وصالح بن مسمار بصريٌّ سكن الجزيرة، وروى عن الحسن البصري وابن سيرين. ذكره الحافظ في التهذيب ٢/ ٢٠٠ تمييزاً.

(٧) المحرر الوجيز ٥/ ٤٤٦ .

(٨) ذكره الواحدي في الوسيط ٤/ ٤٣٤ ، وفيه: ... في أول أمره.

غَرَّك من ربِّك إمهالُهُ وسَتْرُه طولَ مَساوِيكا[١]

وقال ذو النون المِصْريُّ: كم من مغرورٍ تحت السَّتْرِ وهو لا يَشْعرُ.

وأنشد أبو بكر بن طاهر الأبهريُّ:

يا مَن غلا في العُجْبِ والتِّيهِ وغرَّه طولُ تَمادِيهِ

أَمْلَى لك اللهُ فبارَزْتَه ولم تَخَفْ غِبَّ مَعاصِيهِ[٢]

ورُوي عن عليٍّ ﷺ أنه صاح بغلامٍ له مرَّاتٍ فلم يُلَبِّه، فنظر فإذا هو بالباب، فقال: مالك لم تُجِبْني؟ فقال: لِثقَتي بِحِلْمِكَ، وأَمْني من عقوبتك. فاستَحْسَنَ جوابَه فأَعتقه[٣].

وناسٌ يقولون: ما غرَّك: ما خَدَعك وسَوَّل لك حتى أضعتَ ما وَجَبَ عليك؟

وقال ابن مسعود: ما منكم من أحدٍ إلَّا وسَيَخْلو الله به يومَ القيامة، فيقول له: يا ابن آدمَ، ماذا غرَّك بي؟ يا ابن آدمَ ماذا عَمِلْتَ فيما عَلِمْتَ؟ يا ابن آدمَ، ماذا أجبتَ المُرْسَلين[٤]؟

﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ﴾ أي: قدَّر خَلْقَكَ من نطفةٍ ﴿فَسَوَّىٰكَ﴾ في بطن أمِّك، وجعل لك يدين ورجلين وعينين، وسائرَ أعضائك ﴿فعدَّلكَ﴾ أي: جعلك معتدلاً سَوِيَّ الخَلْقِ؛ كما يقال: هذا شيءٌ معدَّلٌ. وهذه قراءةُ العامَّةِ[٥]، وهي اختيارُ أبي عبيد وأبي حاتم؛ قال الفرَّاء وأبو عبيد: يدلُّ عليه قولُه تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤][٦].

---

(١) الوسيط ٤/ ٤٣٥ ، وخبر الفضيل دون الأبيات في الكشاف ٤/ ٢٢٨ ، وتفسير البغوي ٤/ ٤٥٥ .

(٢) الوسيط ٤/ ٤٣٥ .

(٣) الكشاف ٤/ ٢٢٧ . قال الحافظ في تخريج أحاديث الكشاف ص١٨٢ : لم أجده.

(٤) أخرجه ابن المبارك في الزهد (٣٨)، وعبد الله بن أحمد في السنة (٤٧٥)، والطبراني في الكبير (٨٨٩٩).

(٥) وهي قراءة ابن كثير ونافع وأبي عمرو وابن عامر من السبعة. السبعة ص ٦٧٤ ، والتيسير ص ٢٢٠ .

(٦) ينظر معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٤٤ .

وقرأ الكوفيون عاصمٌ وحمزةُ والكسائيُّ: ﴿فَعَدَلَكَ﴾ مخفَّفاً، أي: أمالَكَ وصَرَفَكَ إلى أيِّ صورةٍ شاء، إمَّا حَسَنًا وإمَّا قبيحاً، وإمَّا طويلاً وإمَّا قصيراً. وقال [موسى بن عُليّ بن رَباحٍ اللَّخْميُّ، عن أبيه، عن جده:][1] قال لي النبيُّ ﷺ: «إنَّ النطفةَ إذا استقرَّتْ في الرَّحِمِ أَحْضَرها الله كلَّ نسبٍ بينها وبين آدم، أمَا قرأتَ هذه الآية: ﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾؟» قال: «فيما بينك وبين آدم»[2].

[وقال عكرمةُ وأبو صالح: «في أيِّ صورةٍ ما شاء ركَّبك»]: إنْ شاء في صورةِ إنسانٍ، وإن شاء في صورة حمار، وإن شاء في صورة قرد، وإن شاء في صورة خنزير[3].

وقال مكحول: إنْ شاء ذَكَراً، وإن شاء أنثى.

وقال مجاهد: «في أيِّ صورةٍ» أي: في أيِّ شَبَهٍ؛ من أبٍ أو أمٍّ أو عمٍّ أو خالٍ أو غيرهم[4].

و«في» متعلِّقةٌ بـ «ركَّبك». ولا تتعلَّق بـ «عَدَلك» على قراءةِ مَن خفَّف؛ لأنك تقول: عَدَلْتُ إلى كذا، ولا تقول: عَدَلتُ في كذا، ولذلك مَنَع الفرَّاء[5] التخفيفَ؛ لأنه قدَّر «في» متعلِّقةً بـ «عدَّلك».

و«ما» يجوزُ أن تكون صِلَةً مؤكِّدةً، أي: في أيِّ صورةٍ شاء ركَّبكَ. ويجوزُ أن تكونَ شرطيةً، أي: إن شاء ركَّبك في غيرِ صورة الإنسانِ، من صورة قِرْدٍ أو حمارٍ أو

(١) ما بين حاصرتين من مصادر التخريج، على ما يأتي، ووقع بدلاً منه في (د) و(ي): نجدة، وفي (ظ): أبو عبيدة.

(٢) أخرجه مطولاً الطبري ٢٤/ ١٨٠، والطبراني في الكبير (٤٦٢٤)، وعزاه السيوطي في الدر ٦/ ٣٢٣ للبخاري في تاريخه، وابن المنذر وابن شاهين وابن قانع. قال ابن كثير: وهذا الحديث لو صح لكان فيصلاً في هذه الآية، ولكن إسناده ليس بالثابت. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ١٣٥: فيه مطهّر ابن الهيثم، وهو متروك.

(٣) بنحوه في تفسير البغوي ٤/ ٤٥٦، وما سلف بين حاصرتين منه، وأخرجه عن عكرمة وأبي صالح الطبري ٢٤/ ١٧٩.

(٤) أخرجه الطبري ٢٤/ ١٧٩.

(٥) في معاني القرآن ٣/ ٢٤٤.

خنزير، فـ «ما» بمعنى الشَّرْطِ والجزاء، أي: في أيِّ صورةٍ ما شاء أن يُركِّبكَ فيها ركَّبك[1].

قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾ يجوز أن تكون «كَلَّا» بمعنى: حقًّا و«أَلَا»، فيبتدأ بها. ويجوزُ أن تكون بمعنى «لا»، على أن يكون المعنى: ليس الأمرُ كما تقولون من أنكم في عبادتكم غيرَ اللهِ مُحِقُّون. يدلُّ على ذلك قولُه تعالى: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ وكذلك يقول الفراء، يصير المعنى: ليس كما غُرِرْتَ به.

وقيل: أي: ليس الأمرُ كما تقولون، من أنه لا بعثَ. وقيل: هو بمعنى الرَّدْعِ والزَّجْر، أي: لا تغترُّوا بِحلْمِ الله وكرمه، فتتركوا التفكُّر في آياته.

ابن الأنباريِّ: الوقفُ الجيِّد على «الدِّينِ»، وعلى «ركَّبك»، والوقفُ على «كَلَّا» قبيح.

﴿بَلْ تُكَذِّبُونَ﴾ يا أهلَ مكةَ ﴿بِٱلدِّينِ﴾ أي: بالحساب. و«بل» لنفي شيءٍ تقدَّمَ وتحقيقِ غيره. وإنكارُهم للبعث كان معلوماً، وإنْ لم يَجْرِ له ذكرٌ في هذه السورة.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝١٢﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ﴾ أي: رُقباء من الملائكة ﴿كِرَامًا﴾ أي: على الله، كقوله: ﴿كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ [عبس: ١٦]. **وهنا ثلاثُ مسائلَ:**

الأولى: رُوِي عن رسول الله ﷺ: «أكرِمُوا الكرامَ الكاتبين الذين لا يُفارِقونكم إلَّا عند إحدى حالتين: الخِرَاءةُ أو الجماعُ، فإذا اغتسل أحدُكم فلْيَسْتَتر بِجذْمِ [حائِطٍ] أو بغيره، أو ليَسْتُرْه أخوه»[2]. ورُوِي عن عليٍّ ﷺ قال: لا يزالُ المَلَك مُوَلِّياً عن العبد ما دام باديَ العورةِ[3]. ورُوِي: إنَّ العبد إذا دخل الحمَّامَ بغيرِ مئزرٍ لَعَنه مَلَكاه[4].

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٢٩٦.

(٢) أخرجه البزار (٣١٧ - كشف)، وابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير عند هذه الآية، وابن مردويه كما في الدر المنثور ٦/ ٣٢٣، وما سلف بين حاصرتين من هذه المصادر. ووقع فيها: ببعيره، بدل: بغيره. والجِذْم: الأصل. القاموس (جذم). وقوله الخراءة، ليس في المصادر، ووقع بدلاً منه عند البزار وابن أبي الحاتم: الغائط، وعند ابن مردويه: حيث يكون الرجل على خلائه.

(٣) لم نقف عليه.

(٤) أخرجه الشيرازي عن أنس ﷺ، كما ذكر السيوطي في الجامع الصغير، ورمز لضعفه. قال المناوي: =

الثانية: واختلف الناسُ في الكُفَّار؛ هل عليهم حفَظَةٌ أم لا؟ فقال بعضهم: لا؛ لأنَّ أمرهم ظاهِرٌ، وعملهم واحدٌ؛ قال الله تعالى: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ﴾ [الرحمن: ٤١].

وقيل: بل عليهم حفظةٌ؛ لقوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ . وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ . كِرَامًا كَٰتِبِينَ . يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾. وقال: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ﴾ [الحاقة: ٢٥] وقال: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ﴾ [الانشقاق: ١٠]، فأخبر أنَّ الكفار يكونُ لهم كتَابٌ، ويكونُ عليهم حفَظَةٌ. فإن قيل: الذي على يمينه أيَّ شيء يكتبُ ولا حسنةَ له؟ قيل له: الذي يكتبُ عن شماله يكونُ بإذنِ صاحبه، ويكونُ شاهداً على ذلك وإن لم يَكْتُبْ. والله أعلم.

الثالثة: سئل سفيان: كيف تَعْلَم الملائكةُ أنَّ العبدَ قد هَمَّ بحسنةٍ أو سيئة؟ قال: إذا همَّ العبدُ بحسنةٍ وَجَدوا منه ريحَ المسك، وإذا همَّ بسيئةٍ وَجَدوا منه ريحَ النَّتْن. وقد مضى في «ق» عند قوله: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [الآية: ١٨] زيادةُ بيانٍ لمعنى هذه الآيةِ.

وقد كَرِه العلماءُ الكلامَ عند الغائطِ والجماعِ، لمفارَقةِ المَلَكِ العبدَ عند ذلك. وقد مضى في آخر «آل عمران» القولُ في هذا[1].

وعن الحسن: «يعلمون»: لا يَخْفَى عليهم شيءٌ من أعمالكم.

وقيل: يعلمون ما ظَهَرَ منكم دون ما حدَّثتم به أنفسَكم. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ۝١٤ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ۝١٥ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ۝١٦ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝١٧ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝١٨ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ۝١٩﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ . وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ تقسيمٌ مثل قوله: ﴿فَرِيقٌ

= وفيه أن كشف العورة أو بعضها بحضرة من لا يحل له النظر حرام، فإن كان بحضرة مَن يحلُّ له النظر إليها، أو كان خالياً وكشفها لحاجة جاز. فيض القدير ٦/ ١٢٤.

(١) ٥/ ٤٦٦.

فِى ٱلْجَنَّةِ . وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧]. وقال: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ[١] . فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ الآيتين [الروم: ١٤-١٥].

﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ أي: يصيبُهم لهبُها وحَرُّها ﴿يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ أي: يومَ الجزاءِ والحساب، وكرَّر ذِكْرَه تعظيماً لشأنه، نحو قوله تعالى: ﴿ٱلْقَارِعَةُ . مَا ٱلْقَارِعَةُ . وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ وقال ابن عباس فيما روي عنه: كلُّ شيءٍ من القرآن من قوله: «وما أَدْرَاكَ»، فقد أَدْرَاه، وكلُّ شيءٍ من قوله: «وما يُدْرِيكَ»، فقد طُوِيَ عنه[٢].

﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو: «يومُ» بالرفع[٣]، على البدل من «يومُ الدينِ»، أو ردًّا على اليوم الأوّل، فيكون صفةً ونعتاً لـ «يوم الدينِ». ويجوزُ أن يُرفع بإضمارِ «هو». الباقون بالنصب على أنه في موضعِ رفعٍ، إلّا أنه نُصِبَ لأنه مضاف غير مَحْضٍ[٤]، كما تقول: أَعْجبني يومَ يقومُ زيدٌ. وأنشد المبرِّد:

مِنْ أيِّ يَومَيَّ من الموتِ أَفِرّ أيومَ لم يُقْدَرَ أم يومَ قُدِرْ[٥]

فاليومان الثَّانيان مخفوضان على الترجمة[٦] عن اليومين الأوَّلَيْن، إلَّا أنَّهما نُصِبا في اللفظ لأنَّهما أُضيفا إلى غيرِ مَحْضٍ[٧]. وهذا اختيارُ الفرَّاء والزجَّاج[٨].

(١) في النسخ: يصدعون، والمثبت هو الصواب.

(٢) لم نقف عليه عن ابن عباس، وسلف في بداية تفسير سورة الحاقة عن يحيى بن سلام وسفيان بن عيينة.

(٣) السبعة ص ٦٧٤، والتيسير ص ٢٢٠.

(٤) في (د) و(م): غير متمكن، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٩٦٩، والكلام منه.

(٥) نسبه صاحب العقد الفريد ١/ ١٠٥ لعلي ﷺ، وهو دون نسبة في سر صناعة الإعراب ١/ ٧٥، والخصائص ٣/ ٩٤، والخزانة ١١/ ٤٥١. والكلام من إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٩٦٩. قوله: لم يُقْدَرَ، قال البغدادي: يريد: لم يقدَرْن. وقال ابن جني: أراد: لم يُقْدَرْ أم، ثم خفف همزة أم، فحذفها وألقى حركتها على راء يُقْدَر.

(٦) في (د) و(م): مخفوضان بالإضافة عن الترجمة، وفي (ظ) و(ي): مخفوضان بالإضافة على الترجمة، والمثبت من إيضاح الوقف والابتداء.

(٧) في (ظ) و(ي): إلى غير متمكن، والمثبت من باقي النسخ وإيضاح الوقف والابتداء.

(٨) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٤٥، وللزجاج ٥/ ٢٩٦، وقال فيه: يكون في موضع رفع وهو مبني على =

وقال قومٌ: اليومُ الثاني منصوبٌ على المحلِّ، كأنه قال: في يومِ لا تَملِكُ نفسٌ لنفسٍ شيئاً[(١)].

وقيل: بمعنى: إنَّ هذه الأشياءَ تكون يومَ، أو على معنى: يُدَانون يومَ؛ لأنَّ «الدِّين» يدلُّ عليه، أو بإضمارِ اذكُر[(٢)].

﴿وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ لا يُنازِعُه فيه أحدٌ، كما قال: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ . ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ﴾ [غافر:١٦-١٧]. تمت السورة والحمد لله.

سورة المطففين

مكيةٌ في قول ابنِ مسعود والضحاك[(٣)]. ومدنية في قولِ الحسنِ وعكرمةَ ومقاتل[(٤)]. قال مقاتل: وهي أولُ سورةٍ نزلتْ بالمدينة. وقال ابنُ عباس وقتادةُ: مدنيةٌ إلَّا ثمان آياتٍ من قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ إلى آخِرها مكيٌّ. وقال الكلبيُّ وجابر بنُ زيد: نزلتْ بين مكَّةَ والمدينة. وهي ستٌّ وثلاثون آيةً[(٥)].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣﴾

فيه أربع مسائل:

= الفتح لإضافته إلى قوله: «لا تملك»؛ لأن ما أضيف إلى غير المتمكن قد يبنى على الفتح وإن كان في موضع رفع أو جر.

(١) إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٩٦٩ .

(٢) الكشاف ٤/ ٢٢٩ .

(٣) بعدها في النسخ: ومقاتل، والمثبت من النكت والعيون ٦/ ٢٢٥ ، والكلام منه.

(٤) قوله: ومقاتل، ليس في (د) و(م)، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في النكت والعيون.

(٥) النكت والعيون ٦/ ٢٢٥ .

الأولى: روى النَّسائيُّ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لمَّا قَدِمَ النبيُّ ﷺ المدينةَ كانوا من أَخْبثِ الناسِ كيلاً، فأنزل الله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾، فأَحْسَنُوا الكيلَ بعد ذلك[1]. قال الفرَّاء[2]: فهم من أَوْفَى الناسِ كيلاً إلى يومهم هذا.

وعن ابن عباس أيضاً قال: هي أوّلُ سورةٍ نزلت على رسول الله ﷺ ساعةَ نزل المدينةَ، وكان هذا فيهم؛ كانوا إذا اشتَرَوا استَوْفَوا بكيلٍ راجحٍ، فإذا باعوا بَخَسوا المكيالَ والميزانَ، فلمَّا نزلت هذه السورةُ انتهوا، فهم أَوْفَى الناسِ كيلاً إلى يومهم هذا[3].

وقال قومٌ: نزلتْ في رجلٍ يُعْرَفُ بأبي جهينةَ ـ واسمُه عمرو ـ كان له صاعان يأخذُ بأحدهما، ويعطي بالآخَرِ[4]؛ قاله أبو هريرةَ رضي الله عنه[5].

الثانية: قولُه تعالى: «وَيْلٌ» أي: شدةُ عذابٍ في الآخرة. وقال ابن عباس: إنَّه وادٍ في جهنمَ يسيلُ فيه صَديدُ أهلِ النار[6]، فهو قولُه تعالى: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾ أي: الذين يَنْقُصُون مَكاييلَهم ومَوازينَهم.

ورُوِي عن ابن عمر قال: المطفِّف: الرجلُ يَستأجِرُ الكيَّالَ وهو يَعْلمُ أنه يَحِيفُ في كيله، فوِزْرُه عليه[7].

---

(١) السنن الكبرى للنسائي (١١٥٩٠)، وأخرجه أيضاً ابن ماجه (٢٢٢٣).

(٢) في معاني القرآن ٣/ ٢٤٥ .

(٣) لم نقف عليه بهذا اللفظ، وهو في معنى خبر ابن عباس الذي سلف. وأخرج ابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال: أول ما نزل بالمدينة «ويل للمطففين». الدر المنثور ٦/ ٣٢٣ .

(٤) أخرجه الثعلبي عن السدي، كما في الإصابة ١١/ ٦٩ ، وذكره الواحدي في أسباب النزول ص ٤٨٣ .

(٥) ينظر ما سيأتي ص١٣٤-١٣٥ من هذا الجزء.

(٦) أخرجه البيهقي في البعث والنشور (٥١٥) عن ابن مسعود رضي الله عنه، ولم نقف عليه عن ابن عباس، وقد سلف عنه أن الويل: المشقة والعذاب. ينظر ٢/ ٢٢١ .

(٧) أخرجه الحاكم في المستدرك ٢/ ٥١٧ . وفي إسناده إبراهيم بن يزيد، قال عنه الذهبي في التلخيص: واه.

وقال آخَرون: التطفيفُ في الكيلِ والوزنِ والوضوءِ والصلاةِ والحديث. وفي «الموطّأ»[(١)] قال مالك: ويقالُ: لكلِّ شيءٍ وفاءٌ وتَطْفيفٌ، وروي عن سالم بن أبي الجَعْد قال: [قال سلمان: الصلاةُ مِكْيالٌ]، فَمَن أوفَى أُوْفِيَ له، ومَن طَفَّف فقد عَلِمْتُم ما قال الله عز وجل في ذلك: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾[(٢)].

الثالثة: قال أهلُ اللغةِ: المطفِّفُ مأخوذٌ من الطَّفِيف، وهو القليلُ، والمطفِّفُ هو المقلِّلُ حقَّ صاحبِهِ بنقصانه عن الحقِّ في كيلٍ أو وَزْنٍ. وقال الزجَّاج: إنَّما قيل للفاعل من هذا مطفِّفٌ؛ لأنه لا يكاد يسرقُ من المكيال والميزان إلَّا الشيءَ الطفيفَ الخفيَّ[(٣)]، وإنَّما أُخِذَ من طَفِّ الشيءِ، وهو جانبه.

وطِفَافُ المكُّوكِ وطَفَافُه بالكسر والفتح: ما ملأ أصْبارَه، وكذلك طَفُّ المَكُّوكِ وطَفَفُه؛ وفي الحديث: «كلُّكم بنو آدمَ، طَفُّ الصَّاعِ لم تَمْلَؤوه». وهو أن يَقرُبَ أن يمتلئَ فلا يفعل[(٤)]؛ والمعنى: بعضُكم قريبٌ من بعضٍ، فليس لأحدٍ على أحدٍ فضلٌ إلَّا بالتقوى[(٥)]. والطُّفَافُ والطُّفَافةُ بالضم: ما فوقَ المِكيالِ، وإناءٌ طَفَّانٌ: إذا بلغ الكيلُ[(٦)] طفافَه؛ تقول منه: أَطْفَفْتُ. والتطفيفُ: نَقْصُ المِكيالِ، وهو ألَّا تَملأه إلى أصبارِه، أي: جوانبه؛ يقال: أَدْهَقْتُ الكأسَ إلى أصبارها، أي: إلى رأسها. وقولُ ابنِ عمرَ حين ذَكَر [أنَّ] النبيَّ ﷺ سَبَّق [بينَ] الخيلِ: كنتُ فارساً يومئذٍ فسبقتُ الناسَ، حتى طَفَّف بي الفرسُ مسجدَ بني زُرَيقٍ، حتى كاد يساوي المسجد. يعني: وثب بي[(٧)].

---

(١) ١/١٢ .

(٢) أخرجه ابن المبارك في الزهد (١١٩٢)، وعبد الرزاق (٣٧٥٠)، والدولابي في الكنى ٢/١٤١ ، وما سلف بين حاصرتين من هذه المصادر.

(٣) في (م): الخفيف، وفي معاني القرآن للزجاج ٥/٢٩٧ : الحقير.

(٤) الصحاح (طفف)، والحديث أخرجه أحمد (١٧٣١٣) و(١٧٦٤٦) عن عقبة بن عامر ﷺ. قال السندي كما في حاشية المسند: أي: كلكم في الانتساب إلى أب واحد بمنزلة واحدة في النقص والتقاصر عن غاية التمام. وهو بالرفع خبرٌ بعد خبر، وقيل: بدلٌ أو خبرُ محذوفٍ، أو بالنصب حالٌ مؤكِّدة.

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٤/١٨٩٥ ، وقوله: فليس لأحد...، قطعة من الحديث.

(٦) في (م) واللسان: الملء، والمثبت من النسخ الخطية والصحاح (طفف) والكلام منه.

(٧) الصحاح (طفف)، وما سلف بين حاصرتين منه.والحديث أخرجه أحمد (٤٤٨٧)، وبنحوه البخاري (٢٨٦٩)، ومسلم (١٨٧٠).

الرابعة: المطفِّفُ: هو الذي يُخْسِرُ في الكَيْلِ والوزن، ولا يُوفي، حَسْبَ ما بيَّناه. وروى ابن القاسم عن مالك: أنه قرأ: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ فقال: لا تُطَفِّفْ ولا تَخْلُبْ[١]، ولكنْ أَرْسِلْ وصُبَّ عليه صَبًّا، حتى إذا استوى[٢] أَرْسِلْ يَدَكَ ولا تُمْسِك. وقال عبد الملك بن الماجشون: نهى رسول الله ﷺ عن مَسْحِ الطُّفاف، وقال: إنَّ البركةَ في رأسه. قال: وبلغني أنَّ كيلَ فرعونَ كان مسحاً بالحديدة[٣].

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾ قال الفرَّاء: أي: مِن الناس؛ يقال: اكْتَلْتُ منكَ، أي: استَوْفَيتُ منك، ويقال: اكتلتُ عليك[٤]، أي: أخذتُ ما عليك. وقال الزجَّاج: أي: إذا اكتالوا من الناس استَوْفَوْا عليهم الكيلَ[٥]. والمعنى: الذين إذا استَوْفَوا أخذوا الزيادة، وإذا أَوْفَوا أو وَزَنوا لغيرهم نَقَصُوا، فلا يَرْضَوْن للناس ما يرضون لأنفسهم. الطبريُّ: «على» بمعنى عند[٦].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾.

فيه مسألتان:

الأولى: قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ﴾: أي: كالوا لهم أو وَزَنوا لهم، فحذفت اللام، فتعدَّى الفعلُ فَنَصب، ومثلُه: نَصَحتُك ونصحتُ لك، وأَمَرْتُك به وأَمَرْتُكَه؛ قاله الأخفشُ والفرَّاء[٧]. قال الفرَّاء: وسمعتُ أعرابيةً تقولُ: إذا صَدَرَ

---

(١) أي: لا تخدع. القاموس (خلب).

(٢) في (م): استوفى، والمثبت من النسخ الخطية، وأحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٨٩٦، والكلام منه.

(٣) في أحكام القرآن لابن العربي: كان طفافاً مسحاً بالحديدة.

(٤) في النسخ: اكتلت ما عليك، والمثبت من معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٤٦، والكشاف ٤/ ٢٣٠، وزاد المسير ٩/ ٥٢.

(٥) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٢٩٧.

(٦) كذا ذكر المصنف، والذي في تفسير الطبري ٢٤/ ١٨٦: «الذين إذا اكتالوا على الناس»: الذين إذا اكتالوا من الناس، و«على» و«من» في هذا الموضع يتعاقبان.

(٧) معاني القرآن للأخفش ٢/ ٧٣٤، وللفراء ٣/ ٢٤٥ – ٢٤٦، وما سيأتي منه أيضاً.

الناسُ أتينا التاجِرَ فيَكِيلُنا المُدَّ والمُدَّينِ إلى الموسم المقبل. قال: وهو مِن كلامِ أهل الحجازِ ومَن جاوَرَهم من قيس.

قال الزجاج[١]: لا يجوزُ الوقفُ على «كالُوا» و«وَزَنوا» حتى تَصِلَ به «هُمْ» قال: ومِن الناس مَن يجعلُها توكيداً، ويُجيز[٢] الوقفَ على «كالُوا» و«وزَنوا»، والأوّلُ الاختيارُ؛ لأنها حرفٌ واحدٌ. وهو قولُ الكسائيِّ[٣].

قال أبو عبيد: وكان عيسى بن عمر يجعلُها حرفين، ويقفُ على «كالوا» و«وزنوا»، ويبتدئُ: «هُمْ يُخسِرون»، قال: وأحسبُ قراءةَ حمزةَ كذلك أيضاً[٤].

قال أبو عبيد: والاختيارُ أن يكونا كلمةً واحدةً من جهتين:

إحداهما: الخطُّ؛ وذلك أنهم كتبوهما بغير ألف، ولو كانتا مقطوعتين لكانتا: «كالوا» و«وزنوا»، بالألف.

والأخرى: أنه يقال: كِلْتُكَ ووزنتُك، بمعنى: كِلْتُ لك، ووزنتُ لك، وهو كلامٌ عربيٌّ، كما يقال: صِدْتُك وصِدْتُ لك، وكَسَبتُك وكَسَبْتُ لَك، وكذلك شكرتُكَ ونَصَحْتُكَ ونحو ذلك.

قوله: «يُخْسِرون»، أي: يَنْقُصون، والعربُ تقول: أَخْسَرتُ الميزانَ وخَسَرتُه.

و«هم» في موضع نصبٍ على قراءةِ العامَّة، راجعٌ إلى الناس، تقديرُه: وإذا كالوا الناسَ أو وزنوهم يُخْسِرون. وفيه وجهان: أحدهما: أن يراد كالوا لهم أو وَزَنُوا لهم، فحُذف الجارُّ، وأُوْصِلَ الفعلُ، كما قال:

---

(١) في معاني القرآن ٥/ ٢٩٨.

(٢) في (د) و(ظ): ويجوز، وفي معاني القرآن: فيجوز.

(٣) ذكره عنه أبو الليث ٣/ ٤٥٦.

(٤) ذكر قول أبي عبيد البغوي ٤/ ٤٥٨ دون قوله: وأحسب قراءة حمزة كذلك أيضاً، وذكرها عن حمزة ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٤٥٠، والمشهور عنه كقراءة الجماعة.

ولـقـد جَـنَـيْـتُـكَ أَكْـمُـؤاً وعَـسـاقِـلًا ولـقـد نـهـيـتُـكَ عـن بـنـاتِ الأَوْبَـرِ[١]

أراد: جنيتُ لك.

والوجهُ الآخرُ: أن يكون على حذفِ المضافِ، وإقامةِ المضافِ إليه مُقامَه، والمضافُ هو المكيلُ والموزونُ[٢].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: إنَّكم معاشرَ الأعاجِمِ وَلِيتُم أمرين بهما هَلَكَ مَن كان قبلكم: المِكيالَ والمِيزان. وخَصَّ الأعاجِمَ لأنَّهم كانوا يجمعون الكيلَ والوزنَ جميعاً، وكانا مُفَرَّقينِ في الحَرَمين؛ كان أهلُ مكةَ يَزِنون، وأهلُ المدينةِ يَكيلون[٣].

وعلى القراءةِ الثانيةِ «هُمْ» في موضعِ رفعٍ بالابتداء، أي: وإذا كالوا للناس أو وَزَنوا لهم فهم يُخْسِرون. ولا يصحُّ؛ لأنه تكون الأُولى مُلْغاةً ليس لها خبر، وإنَّما كانت تستقيمُ لو كان بعدها: وإذا كالواهم يَنْقُصون، أو وَزَنوا هم يُخْسِرون.

الثانية: قال ابن عباس: قال النبيُّ ﷺ: «خمسٌ بخمسٍ: ما نَقَضَ قومٌ العهدَ إلَّا سَلَّط الله عليهم عدوَّهم، ولا حَكَموا بغيرِ ما أَنْزَلَ اللهُ إلَّا فشا فيهم الفقرُ، وما ظَهَرَت الفاحشةُ فيهم إلا فشا فيهم الطاعون، وما طَفَّفوا الكيلَ إلَّا مُنِعوا النَّباتَ، وأُخِذوا بالسِّنين، ولا مَنعوا الزكاةَ إلا حَبَس الله عنهم المَطَر»[٤] خرَّجه أبو بكر البزارُ بمعناه، ومالك بنُ أنسٍ أيضاً من حديث ابن عمر[٥]. وقد ذكرناه في كتاب «التذكرة»[٦].

---

(١) المقتضب ٤/ ٤٨، ومجالس ثعلب ص ٥٥٦، وإعراب القرآن للنحاس ٥/ ١٧٤، وسر صناعة الإعراب ١/ ٣٦٦، والخصائص ٣/ ٥٨، والإنصاف في مسائل الخلاف ١/ ٣١٩، والكشاف ٤/ ٢٣٠، والكلام منه. قال ثعلب: وعساقل وبنات أوبر: ضربان من الكمأة.

(٢) الكشاف ٤/ ٢٣٠.

(٣) المصدر السابق، وخبر ابن عباس أخرجه هناد في الزاهد (٦٨١).

(٤) الوسيط ٤/ ٤٤٠ - ٤٤١، وتفسير الرازي ٣١/ ٨٨.

(٥) حديث ابن عمر في مسند البزار (١٦٧٦)، وأخرجه من طريق مالك ابن عبد البر في الاستذكار ١٤/ ٢١١، وهو في الموطأ ١/ ٤٦٠ عن ابن عباس رضي الله عنهما موقوفاً.

(٦) ص٥٨٠.

وقال مالك بن دينار: دَخَلْتُ على جارٍ لي قد نزل به الموتُ، فجعل يقول: جَبَلَيْنِ من نار! جَبَلَيْنِ من نار! فقلتُ: ما تقولُ؟ أتَهْجُر؟ قال: يا أبا يحيى، كان لي مكيالان؛ أَكيلُ بأحدهما، وأكتالُ بالآخر؛ فقمتُ فجعلتُ أضربُ أحدَهما بالآخر، حتى كَسَرتُهما، فقال: يا أبا يحيى، كلَّما ضربتُ أحدَهما بالآخَرِ ازدادَ عِظَماً، فمات من وَجَعِه[١].

وقال عكرمةُ: أشهدُ على كلِّ كيَّالٍ أو وزَّانٍ أنه في النار. قيل له: فإنَّ ابنك كيالٌ ـ أو وَزَّان ـ فقال: أشهدُ أنه في النار[٢].

قال الأصمعيُّ: وسمعتُ أعرابيةً تقولُ: لا تَلْتَمِس المروءةَ ممَّن مروءتُه في رؤوسِ المكاييل، ولا أَلْسِنةِ الموازين[٣]. ورُوي ذلك عن عليٍّ ﷺ. وقال عبدُ خير: مرَّ عليٌّ ﷺ على رجلٍ وهو يَزِنُ الزعفرانَ وقد أَرْجَح، فأكْفَأَ الميزانَ ثم قال: أَقِمِ الوزنَ بالقِسْطِ؛ ثم أَرْجِحْ بعد ذلك ما شئت. كأنه أَمَرَه بالتسويةِ أولاً؛ ليعتادها، ويَفْصِلَ الواجبَ من النفل[٤].

وقال نافع: كان ابنُ عمر يمرُّ بالبائع فيقول: اتَّقِ اللهَ وأَوْفِ الكيلَ والوزنَ بالقسط، فإنَّ المطفِّفين يومَ القيامة يُوْقَفون حتى إنَّ العَرَق لَيُلْجِمُهم إلى أنصاف آذانهم[٥].

وقد رُوِي أنَّ أبا هريرةَ قَدِمَ المدينةَ وقد خرج النبيُّ ﷺ إلى خيبرَ واستَخْلَفَ على المدينة سِباع بنَ عُرْفُطة، فقال أبو هريرةَ: فوجدناه في صلاةِ الصُّبحِ، فقرأ في الركعةِ

---

(١) الوسيط ٤/ ٤٤١ دون قولِه: حتى كسرتهما. وقولُه: أتهجر، أي: أتهذي، في القاموس (هجر): هَجَر في نومه ومرضه هُجْراً بالضم: هذى.

(٢) الكشاف ٤/ ٢٣٠ ، وأخرجه الطبري ٢٤/ ١٨٦ مطولاً دون قوله: قيل له إن ابنك..

(٣) ذكره الزمخشري في الكشاف ٤/ ٢٣٠ ، عن أبيٍّ ﷺ. وذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٤٤٩ عن بعض العرب.

(٤) الكشاف ٤/ ٢٣٠ .

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٤٥٨ .

الأولى: ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ وقرأ في الركعة الثانية: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾. قال أبو هريرة: فأقولُ في صلاتي: ويْلٌ لأبي فلان؛ كان له مكيالان، إذا اكتالَ اكتالَ بالوافي، وإذا كالَ كالَ بالناقِص[١].

قوله تعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰٓئِكَ﴾ إنكارٌ وتَعْجيبٌ عظيمٌ من حالهم في الاجتراء على التطفيف، كأنهم لا يُخْطِرون[٢] ببالهم، ولا يُخمِّنون تخميناً ﴿أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ﴾ فمسؤولون عمَّا يفعلون. والظنُّ هنا بمعنى اليقينِ، أي: ألا يُوقنُ أولئك، ولو أيْقنوا ما نَقَصوا في الكيل والوزن. وقيل: الظنُّ بمعنى التردُّدِ، أي: إن كانوا لا يستيقنون بالبعث، فهلَّا ظَنُّوه، حتى يتدبَّروا ويبحثوا عنه، ويأخذوا بالأَحْوَط ﴿لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ شأنُه وهو يومُ القيامة.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ **فيه أربعُ مسائلَ:**

الأولى: العاملُ في «يومَ» فعلٌ مُضْمَرٌ دلَّ عليه «مبعوثون»، والمعنى: يُبْعثون يومَ يقومُ الناسُ لربِّ العالمين. ويجوز أن يكونَ بدلاً من «يوم» في «لِيوم عظِيم»، وهو مبنيٌّ. وقيل: هو في موضع خفضٍ؛ لأنَّه أُضيفَ إلى غيرِ متمكِّن. وقيل: هو منصوبٌ على الظَّرف، أي: في يوم. ويقال: أَقِمْ إلى يومَ يَخْرجُ فلان، فتنصبُ يوم، فإنْ أضافوا إلى الاسم فحينئذٍ يخفضون ويقولون: أقم إلى يومِ خُروجِ فلان[٣]. وقيل: في الكلام

---

(١) أخرجه أحمد (٨٥٥٢). وسباع بن عُرفُطة الغفاري، ويقال له: الكناني، له ذكر في حديث أبي هريرة هذا، وقال أبو حاتم: استعمله النبي ﷺ في غزوة دُومة الجندل. الإصابة ٤/ ١١٩ .

(٢) بعدها في (م): التطفيف، والمثبت من النسخ الخطية والكشاف ٤/ ٢٣١ ، والكلام منه.

(٣) وهذا على مذهب الكوفيين، وهو بناء الظرف على الفتح إذا أضيف إلى الجملة الفعلية وإن كانت معربة، وأما البصريون فلا يجيزون البناء إلا إذا صدِّرت الجملة المضاف إليها بفعل ماض. الدر المصون ٤/ ٥٢٠ .

تقديمٌ وتأخيرٌ، والتقديرُ: إنَّهم مبعوثون يومَ يقومُ الناسُ لربِّ العالمين ليومٍ عظيم.

الثانية: وعن عبد الملك بن مروان: أنَّ أعرابيًّا قال له: قد سمعتَ ما قال الله تعالى في المطفِّفين ـ أراد بذلك أنَّ المطفِّفين قد تَوَجَّه عليهم هذا الوعيدُ العظيمُ الذي سمعتَ به ـ فما ظنُّك بنفسك وأنت تأخُذُ أموالَ المسلمين بلا كيلٍ ولا وزْنٍ[(١)]؟

وفي هذا الإنكارِ والتعجيبِ وكلمةِ الظَّنِّ، ووَصْفِ اليومِ بالعظيم، وقيامِ الناس فيه لله خاضعين، ووصفِ ذاته بربِّ العالمين، بيانٌ بليغٌ لِعظَمِ الذَّنْبِ، وتَفاقُمِ الإثم في التَّطْفيف، وفيما كان في مثلِ حاله من الحَيْفِ وتركِ القيامِ بالقِسْطِ، والعَمَلِ على التسوية والعَدْل في كلِّ أَخْذٍ وإعطاءٍ، بل في كلِّ قولٍ وعملٍ[(٢)].

الثالثة: قرأ ابن عمر: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ حتى بلغ ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فبكى حتى سَقَط، وامتنع من قراءةِ ما بَعْدَه، ثم قال: سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول: «يومَ يقومُ الناسُ لربِّ العالمين، في يومٍ كان مقدارُه خمسين ألفَ سنةٍ، فمنهم مَن يَبْلُغ العرَقُ كعبيه، ومنهم مَن يَبْلُغ ركبتيه، ومنهم مَن يبلغُ حِقْوَيْه، ومنهم مَن يبلغُ صدرَه، ومنهم مَن يبلغُ أذنيه، حتى إنَّ أحدهم ليغيبُ في رَشْحِه كما يغيبُ الضِّفدع»[(٣)].

وروى ناسٌ عن ابن عباس قال: يقومون مقدارَ ثلاثِ مئةِ سنة. قال: ويَهونُ على المؤمنين قدر صلاتهم الفريضة[(٤)].

---

(١) الكشاف ٤/ ٢٣١.

(٢) المصدر السابق.

(٣) لم نقف عليه بهذا السياق، والموقوف منه أخرجه أحمد في الزهد ص٢٤٠، وهناد في الزهد (٣٣٠)، وأبو نعيم في الحلية ١/ ٣٠٥. وأخرج المرفوع مختصراً أحمد (٥٩١٢). وللمرفوع شاهد من حديث المقداد ﷺ عند أحمد (٢٣٨١٣)، ومسلم (٢٨٦٤). وآخر من حديث عقبة بن عامر عند أحمد (١٧٤٣٩). وثالث من حديث أبي أمامة عند أحمد (٢٢١٨٦). وينظر ما سيأتي من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٤) ذكر الجزء الثاني منه الرازي ٣١/ ٩١، وأخرجه بتمامه ابن مردويه عن حذيفة، وعبد بن حميد عن قتادة، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٢٤.

ورُوي عن عبد الله بن عمر عن النبيِّ ﷺ قال: «يقومون ألفَ عامٍ في الظُّلْمَة»[١].

ورَوَى مالك عن نافعٍ، عن ابن عمر، عن النبيِّ ﷺ قال: «يومَ يقومُ الناسُ لربِّ العالمين، حتى إنَّ أحدهم ليقومُ في رَشْحِه إلى أنصافِ أُذنيه»[٢]. وعنه أيضًا عن النبيِّ ﷺ: «يقوم مئةَ سنةٍ»[٣].

وقال أبو هريرةَ: قال النبيُّ ﷺ لبشيرٍ الغِفاريِّ: «كيف أنت صانعٌ في يومٍ يقومُ الناسُ فيه مقدارَ ثلاثِ مئة سنةٍ لربِّ العالمين، لا يأتيهم فيه خبرٌ، ولا يؤمَرُ فيه بأمرٍ» قال بشير: المستعانُ الله[٤].

قلت: قد ذكرناه مرفوعاً من حديث أبي سعيدٍ الخُدْريِّ عن النبيِّ ﷺ: «إنَّه لَيُخفَّفُ عن المؤمن، حتى يكونَ أخفَّ عليه من صلاةِ المكتوبة يصلِّيها في الدنيا» في ﴿سَأَلَ سَآئِلٌ﴾[٥].

وعن ابن عباس: يَهونُ على المؤمنين قدر صلاتهم الفريضة[٦].

وقيل: إنَّ ذلك المقامَ على المؤمن كزوال الشمس. والدليلُ على هذا من الكتاب قولُه الحقُّ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ثم وَصَفَهم فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢-٦٣] جَعَلَنا الله منهم بفضله وكرمه وجُوده ومَنِّه آمين.

وقيل: المرادُ بالناسِ جبريلُ عليه السلام يقومُ لربِّ العالمين؛ قاله ابن جُبير[٧].

---

(١) في (د) و(م): في الظلة. ولم نقف عليه، وأخرج نحوه مطولاً الطبراني من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما كما ذكر الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٣٣٧ وقال: فيه هشام بن بلال لم أعرفه، وبقية رجاله وثقوا.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٨٩٧، وأخرجه من طريق مالك البخاري (٤٩٣٨)، ومسلم (٢٨٦٢).

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٨٩٧، وأخرجه موقوفاً الطبري ٢٤/ ١٨٩ - ١٩٠.

(٤) أخرجه الطبري ٢٤/ ١٩٠، وفي إسناده عبد السلام بن عجلان، قال الذهبي في الميزان ٢/ ٦١٨: قال أبو حاتم: يكتب حديثه، وتوقَّف غيره في الاحتجاج به.

(٥) ٢١/ ٢٢٥، وسلف أيضاً ١٥/ ٣٩٩، وأخرجه أحمد (١١٧١٧).

(٦) سلف قريباً.

(٧) النكت والعيون ٦/ ٢٢٧.

وفيه بُعدٌ؛ لِمَا ذَكَرْنا من الأخبار في ذلك، وهي صحيحةٌ ثابتةٌ، وحَسْبُك بما في «صحيح» مسلم والبخاريِّ والترمذيِّ من حديثِ ابنِ عمرَ عن النبيِّ ﷺ ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قال: «يقومُ أحدُهم في رَشْحِه إلى نِصْفِ أُذُنَيْه»(١).

ثم قيل: هذا القيامُ يومَ يقومون من قبورهم. وقيل: في الآخرة بحقوقِ عبادهِ في الدنيا. وقال يزيد الرشك: يقومون بين يديه للقضاء(٢).

الرابعة: القيامُ لله ربِّ العالمين سبحانه حَقيرٌ بالإضافة إلى عَظَمتِه وحَقِّه، فأمَّا قيامُ الناسِ بعضِهم لبعضٍ فاختَلفَ فيه الناس؛ فمنهم مَن أجازه، ومنهم مَن مَنَعه. وقد رُوي أنَّ النبيَّ ﷺ قام إلى جعفر بنِ أبي طالب واعْتَنَقَه، وقام طلحةُ لكعب بنِ مالكٍ يومَ تِيبَ عليه. وقال النبيُّ ﷺ للأنصار حين طلع عليه سعد بنُ مُعاذ: «قوموا إلى سيدكم». وقال أيضاً: «مَن سرَّه أن يَتَمثَّلَ له الناسُ قياماً فلْيتبوَّأْ مقعدَه من النار». وذلك يَرجعُ إلى حالِ الرجلِ ونيَّته، فإن انتظرَ ذلك واعتقده لنفسه [حقًّا]، فهو ممنوعٌ، وإن كان على طريق البشاشةِ والوُصْلةِ فإنَّه جائز، وخاصةً عند الأسباب، كالقدوم من السَّفر ونحوِه(٣). وقد مضى في آخر سورة يوسف شيءٌ من هذا(٤).

قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ۝٧ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ۝٨ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝٩ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ۝١١ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣﴾

قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ﴾ قال قومٌ من أهل العلم بالعربية:

---

(١) صحيح البخاري (٤٩٣٨)، وصحيح مسلم (٢٨٦٢)، وسنن الترمذي (٣٣٣٦)، وهو عند أحمد (٤٦١٣)، وسلف قريباً.

(٢) النكت والعيون ٦/ ٢٢٦ – ٢٢٧ . ويزيد الرشك هو ابن أبي يزيد الضُّبَعيُّ مولاهم، أبو الأزهر البصري، قيل: كان غيوراً فسمي بالفارسية أرشك، فقيل: الرشك. وقيل: الرشك بالفارسية: الكبير اللحية، توفي سنة (١٣٠هـ). التهذيب ٤/ ٤٣٤ .

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٨٩٧ ، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٤) ١١/ ٤٥٧ ، وسلف ثمة حديث: «قوموا إلى سيدكم» وحديث: «من سره...». أما حديث قيام طلحة لكعب فسلف ١٠/ ٤١٨ ضمن حديث كعب بن مالك الطويل في التخلف عن غزوة تبوك.

«كَلَّا»: رَدْعٌ وتنبيهٌ، أي: ليس الأمرُ على ما هم عليه من تَطْفيفِ الكَيْلِ والميزان، أو تكذيبٍ بالآخرة، فلْيرتَدِعوا عن ذلك. فهي كلمةُ رَدْعٍ وزَجْرٍ، ثم استأنفَ فقال: ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ﴾.

وقال الحسن: «كلَّا» بمعنى حَقًّا[١]. ورَوَى ناسٌ عن ابن عباس: «كَلَّا» قال: ألَا تصدِّقون[٢]. فعلى هذا: الوقفُ «لِربِّ العالمِين».

وفي تفسير مقاتل: إنَّ أعمالَ الفجَّار. وروى ناسٌ عن ابن عباس قال: إنَّ أرواحَ الفجَّارِ وأعمالَهم «لَفي سِجِّينٍ».

وروى ابنُ نَجيح عن مجاهد قال: سجِّين صخرةٌ تحت الأرضِ السابعة، تُقْلَبُ فيُجْعَلُ كتابُ الفجَّار تحتها[٣]. ونحوه عن ابن عباسٍ وقتادةَ وسعيد بن جُبير ومقاتلٍ وكعبٍ؛ قال كعب: تحتها أرواحُ الكفَّارِ تحت خدِّ إبليس[٤].

وعن كعب أيضاً قال: سجِّين صخرةٌ سوداءُ تحت الأرضِ السابعة، مكتوبٌ فيها اسمُ كلِّ شيطانٍ، تُلْقَى أَنْفُسُ الكفَّارِ عندها.

وقال سعيد بن جبير: سجِّين تحت خدِّ إبليس[٥]. يحيى بنُ سلام: حجرٌ أسودُ تحت الأرض، يُكْتَبُ فيه أرواحُ الكفار[٦]. وقال عطاءُ الخُراسانيُّ: هي الأرضُ السابعةُ السُّفْلَى، وفيها إبليسُ وذرِّيته[٧].

وعن ابن عباس قال: إنَّ الكافر يَحْضُره الموت، وتَحْضُره رسلُ الله، فلا

---

(١) الوسيط ٤/٤٤٣، وتفسير البغوي ٤/٤٥٨ ولفظه: «كلا» ابتداء يتصل بما بعده على معنى: حقًّا.

(٢) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/٤٥١ عن أبي حاتم.

(٣) أخرجه الطبري ٢٤/١٩٧ .

(٤) تفسير الطبري ٢٤/١٩٣ - ١٩٤ .

(٥) أخرجه الطبري ٢٤/١٩٦ .

(٦) النكت والعيون ٦/٢٢٨ .

(٧) تفسير البغوي ٤/٤٥٩ .

يستطيعون لبُغْضِ اللهِ وبُغْضِهم إياه أنْ يؤخِّروه ولا يعجلوه حتى تجيءَ ساعتُه، فإذا جاءت ساعتُه قَبَضوا نَفْسَه، ورفعوه إلى ملائكة العذاب، فأَرَوْه ما شاء الله أنْ يُرُوه من الشرِّ، ثم هَبَطوا به إلى الأرض السابعة، وهي سِجِّين، وهي آخِرُ سلطانِ إبليسَ، فأَثْبَتوا فيها كتابه[١].

وعن كعبِ الأحبارِ في هذه الآية قال: إنَّ رُوحَ الفاجرِ إذا قُبضَتْ يُصْعَدُ بها إلى السماء، فتأبَى السماء أن تقبلها، ثم يُهْبَطُ بها إلى الأرض، فتأبى الأرضُ أن تَقْبلَها، فتدخلُ في سبعِ أَرَضِينَ، حتى يُنْتَهى بها إلى سِجِّين، وهو خدُّ إبليسَ، فيُخرجُ لها من سجينٍ من تحت خدِّ إبليس رَقٌّ، فيُرْقَم فيوضعُ تحت خدِّ إبليس[٢]. وقال الحسن: سجين في الأرض السابعة.

وقيل: هو ضربُ مثلٍ وإشارةٌ إلى أنَّ الله تعالى يَردُّ أعمالَهم التي ظنُّوا أنَّها تنفعُهم.

قال مجاهد: المعنى: عملُهم في الأرضِ السابعةِ لا يصعدُ منها شيء[٣]. وقال: سجين صخرةٌ في الأرض السابعة[٤].

وروى أبو هريرةَ عن النبيِّ ﷺ قال: «سجين جُبٌّ في جهنَمَ وهو مفتوحٌ» وقال في الفَلَق: «إنه جُبٌّ مُغَطًّى»[٥].

وقال أنس: هي دَرَكَةٌ في الأرض السُّفلى. وقال أنس: قال النبيُّ ﷺ: «سجِّين أسفلَ سبع أرضين»[٦].

---

(١) قطعة من خبر طويل أخرجه عبد بن حميد كما في الدر المنثور ٦/ ٣٢٧، وهو فيه من كلام كعب الأحبار في جوابه على سؤال ابن عباس عن قوله تعالى: ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ﴾.

(٢) أخرجه الطبري ٢٤/ ١٩٤.

(٣) المصدر السابق.

(٤) سلف قريباً.

(٥) أخرجه الطبري ٢٤/ ١٩٦. وذكر ابن كثير عند تفسير هذه الآية أن هذا الحديث غريب منكر لا يصح.

(٦) ذكره الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب (٣٥٢٠)، والماوردي في النكت والعيون ٦/ ٢٢٧، والبغوي ٤/ ٤٥٩ من حديث البراء بن عازب ﷺ، ولم نقف عليه عن أنس ﷺ.

وقال عِكرمة: سِجِّين: خَسارٌ وضلال[١]، كقولهم لمن سَقَط قَدْرُه: قد زَلَق بالحضيض.

وقال أبو عبيدةَ والأخفشُ والزجَّاج: «لفي سجِّين» لفي حَبْسٍ وضيقٍ شديدٍ، فِعيِّل من السّجن، كما يقالُ: فِسِّيق وشِرِّيب[٢]؛ قال ابنُ مُقْبِلٍ:

ورُفقةٍ يَضْرِبون البَيْضَ ضاحِيةً ضَرْبًا تَوَاصَتْ به الأبطالُ سِجِّينا[٣]

والمعنى: كتابُهم في حَبْسٍ، جُعل ذلك دليلاً على خساسةِ منزلتهم، أو لأنه يَحُلُّ من الإعراضِ عنه والإبعادِ له مَحَلَّ الزَّجْرِ والهَوَان.

وقيل: أصلُه سجِّيل، فأُبْدِلَتْ اللامُ نوناً. وقد تقدَّم ذلك[٤].

وقال زيد بنُ أَسْلَمَ: سِجين الأرضُ السَّافِلة، وسِجِّيل السماء الدنيا[٥].

القُشيريُّ: سجِّين: موضعٌ في السَّافِلِينَ، يُدْفَنُ فيه كتابُ هؤلاء، فلا يَظْهَرُ بل يكون في ذلك الموضع كالمسجون. وهذا دليلٌ على خُبْثِ أعمالهم، وتحقيرِ اللهِ إياها، ولهذا قال في كتاب الأبرار: ﴿يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾.

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ﴾ أي: ليس ذلك ممَّا كنتَ تَعْلَمه يا محمدُ أنت ولا قومُك. ثم فسَّره له فقال: ﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ﴾ أي: مكتوبٌ كالرَّقْم في الثوب، لا يُنْسَى ولا يُمْحَى. وقال قتادة: «مرقومٌ» أي: مكتوبٌ، رُقِمَ له بَشَرٌ[٦]، لا يُزادُ فيهم أحدٌ ولا ينقصُ منهم أحد.

(١) أخرجه ابن المنذر، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٢٥ دون قوله: وضلال.

(٢) مجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/ ٢٨٩، ومعاني القرآن للزجاج ٥/ ٢٩٨، وقول الأخفش في النكت والعيون ٦/ ٢٢٨.

(٣) ديوان ابن مقبل ص٣٣٣، والمعاني الكبير ٢/ ٩٩١، وتهذيب اللغة ١١/ ٢٩، والصحاح (سجن)، ومنتهى الطلب ١/ ٣٦٦، وفيها جميعاً: ورَجْلةً يضربون البيض عن عُرُضٍ. البيض جمع بيضة، وهي الخوذة. المعجم الوسيط (بيض). وسلف البيت ١١/ ١٨٨.

(٤) ١١/ ١٨٦ - ١٨٨.

(٥) النكت والعيون ٦/ ٢٢٧.

(٦) في النسخ: رقم لهم بشر، والمثبت من النكت والعيون ٦/ ٢٢٨، والكلام منه. وأخرجه الطبري ٢٤/ ١٩٨ دون قوله: لا يزاد فيهم...، وهو في تفسير البغوي ٤/ ٤٥٩، وزاد المسير ٩/ ٥٥ بلفظ: رقم له بشرٌ كأنه عُلِّم بعلامة يعرف بها أنه كافر. وفي تفسير الرازي ٣٢/ ٩٣: رقم لهم بسوء، أي: كتب لهم بإيجاب النار.

وقال الضحَّاك: مَرْقُومٌ: مختومٌ، بلغةِ حِمْيَر[1]. وأصلُ الرَّقْمِ: الكتابةُ؛ قال:

سأرقُمُ في الماءِ القَراحِ إليكُمُ ... على بُعْدِكم إن كان للماءِ راقِمُ[2]

وليس في قوله: «وما أدراك ما سِجّين؟» ما يدلُّ على أنَّ لَفْظَ سجينٍ ليس عربيًّا، كما لا يدلُّ في قوله: ﴿ٱلْقَارِعَةُ . مَا ٱلْقَارِعَةُ . وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ بل هو تعظيمٌ لأمرِ سجّينٍ. وقد مضى في مقدِّمة الكتاب ـ والحمدُ لله ـ أنه ليس في القرآن غيرُ عربيٍّ[3].

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي: شدةٌ وعذابٌ يومَ القيامةِ للمكذِّبين. ثم بيَّن تعالى أمْرَهم فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ أي: بيوم الحسابِ والجزاء والفَصْل بين العباد ﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾ أي: فاجرٍ جائرٍ عن الحقِّ، مُعْتَدٍ على الخَلْقِ في معاملته إياهم، وعلى نفسه، وهو أثيمٌ في تَرْكِ أمرِ الله. وقيل: هذا في الوليد بن المغيرة وأبي جهلٍ ونُظَرائِهما؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا قَالَ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

وقراءةُ العامَّةِ: «تُتْلَى» بتاءين، وقرأ أبو حَيْوَة وأبو سِمَاكٍ وأشهبُ العُقَيليُّ والسُّلَميُّ: «إذا يُتْلَى» بالياء[4]. وأساطيرُ الأولين: أحاديثُهم وأباطيلُهم التي كتبوها وزَخْرفوها. واحدُها أُسْطورة وإِسطارة، وقد تقدَّم[5].

قوله تعالى: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَـٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾: «كلَّا»: رَدْعٌ وزَجْر، أي: ليس هو أساطيرَ الأولينَ. وقال الحسن: معناها: حقًّا رانَ على قلوبهم.

---

(١) ذكره البغوي ٤/ ٤٥٩ دون نسبة، وذكره عن الضحاك الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٢٢٨ دون قوله: بلغة حمير.

(٢) البيت لأوس بن حجر، وهو في ديوانه ص ١١٦، واللسان (رقم)، وفيه: وقولهم: هو يَرقم في الماء، أي: بلغ من حذقه بالأمور أن يرقم حيث لا يثبت الرقم. اهـ. والقراح: الخالص. القاموس (قرح).

(٣) ١/ ١١٠.

(٤) القراءات الشاذة ص ١٧٠.

(٥) ٨/ ٣٤٦.

وفي الترمذيّ عن أبي هُريرة عن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ العبدَ إذا أخْطَأَ خَطيئةً نُكِتَتْ في قلبه نُكْتةٌ سوداء، فإذا هو نَزَعَ واستَغْفَرَ الله وتاب صُقِلَ قلبُه، فإن عاد زِيدَ فيها، حتى تَعْلُوَ على قلبه، وهو الرَّانُ الذي ذَكَر اللهُ في كتابه: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾». قال: هذا حديث حسن صحيح[(١)].

وكذا قال المفسِّرون: هو الذنبُ على الذنبِ حتى يَسْودَّ القلبُ. قال مجاهد: هو الرجل يُذْنِبُ الذَّنْبَ، فيحيطُ الذنبُ بقلبه، ثم يُذْنِبُ الذَّنْبَ فيحيطُ الذَّنْبُ بقلبه، حتى تُغشّيَ الذنوبُ قلبه. قال مجاهد: هي مِثْلُ الآيةِ التي في سورةِ البقرة: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً﴾ الآيةَ [الآية: ٨١][(٢)]. ونحوه عن الفراء[(٣)]؛ قال: يقول: كَثُرتِ المعاصي منهم والذنوبُ، فأحاطَتْ بقلوبهم، فذلك الرَّيْنُ عليها.

ورُوي عن مجاهد أيضاً قال: القلبُ مثلُ الكفِّ ـ ورَفَع كفَّه ـ فإذا أَذْنبَ العبدُ الذَّنْبَ انْقَبضَ، وضمَّ إصْبعَه، فإذا أَذْنبَ الذَّنْبَ[(٤)] انْقَبَضَ، وضمَّ أخرى ـ حتى ضمَّ أصابعَه كلَّها ـ حتى يُطْبَع على قلبه. قال: وكانوا يَرَوْنَ أنَّ ذلك هو الرَّين، ثم قرأ: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾[(٥)]. ومثلُه عن حذيفة ﷺ سواء[(٦)].

وقال بكر بن عبد الله: إنَّ العبد إذا أَذْنَبَ صار في قلبه كوخزةِ الإبرة، ثم إذا أَذْنَبَ ثانياً صار كذلك، ثم إذا كَثُرتِ الذنوبُ صار القلبُ كالمُنْخُلِ، أو كالغِرْبالِ، لا يعي خيراً، ولا يثبُتُ فيه صلاحٌ. وقد بيَّنا في «البقرة» القولَ في هذا المعنى بالأخبارِ الثابتةِ عن رسول الله ﷺ، فلا معنًى لإعادتها[(٧)].

وقد روى عبدُ الغنيِّ بنُ سعيد، عن موسى بنِ عبد الرحمن، عن ابن جُريجٍ، عن

---

(١) سنن الترمذي (٣٣٣٤)، وهو عند أحمد (٧٩٥٢)، وسلف بنحوه ١/ ٢٨٧ .
(٢) أخرجه الطبري ٢٤/ ٢٠١ و٢٠٤ .
(٣) في معاني القرآن ٣/ ٢٤٦ .
(٤) في (د): أخرى.
(٥) أخرجه الطبري ٢٤/ ٢٠١ - ٢٠٢ .
(٦) أخرجه البيهقي في الشعب (٧٢٠٦).
(٧) ينظر ما سلف ١/ ٢٨٧ - ٢٨٨ .

عطاءٍ، عن ابن عباس. وعن موسى، عن مقاتلٍ، عن الضحَّاكِ، عن ابن عباس شيئاً اللهُ أَعْلَمُ بصحَّته؛ قال: هو الرّانُ الذي يكونُ على الفخذينِ والساقِ والقدم، وهو الذي يُلْبَسُ في الحرب. قال: وقال آخرون: الران: الخاطِرُ الذي يَخْطُر بقلب الرجل[1]. وهذا ممَّا لا يُضْمَنُ عُهْدةُ صِحَّتِهِ. فالله أعلم.

فأمَّا عامَّةُ أهلِ التفسيرِ فَعَلَى ما قد مضى ذِكْرُه قبلَ هذا. وكذلك أهلُ اللغة عليه؛ يقال: رَانَ على قلبه ذَنْبُه يَرِين رَيْناً ورُيوناً، أي: غَلَبَ. قال أبو عُبيدةَ في قوله: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي: غَلَبَ. وقال أبو عُبيدٍ: كلُّ ما غَلَبَك فقد رانَ بك، ورانَك، ورانَ عليك[2]؛ وقال الشاعر:

وكَمْ رانَ مِن ذنبٍ على قَلْبِ فاجِرٍ ... فتابَ مِن الذَّنْبِ الذي رَانَ وانْجَلَى[3]

ورانت الخمرُ على عقله، أي: غلبته، وران عليه النُّعاسُ: إذا غطَّاه، ومنه قولُ عمرَ في الأُسَيفع ـ أُسَيْفع جُهَيْنَةَ ـ: فأصبح قد رِيْنَ به[4]. أي: غَلَبَتْه الديون، وكان يَدَّانُ. ومنه قولُ أبي زُبَيْدٍ يَصِفُ رجلاً شرب حتى غَلَبه الشرابُ سُكْراً، فقال:

ثم لمَّا رآه رانَتْ به الخمـ ... ـرُ وأنْ لا تَرِينَه باتِّقاءِ[5]

فقوله: رانَتْ به الخمرُ، أي: غَلَبتْ على عَقْلِه وقلبه. وقال الأمويُّ: قد أران

---

(١) لم نقف عليه، وموسى بن عبد الرحمن الثقفي الصنعاني، قال عنه ابن حبان: دجَّال، وضع على ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس كتاباً في التفسير. الميزان ٤/ ٢١١ .

(٢) الصحاح (رين)، وقول أبي عبيدة في مجاز القرآن ٢/ ٢٨٩ . وقول أبي عبيد في غريب الحديث ٣/ ٢٧٠ .

(٣) النكت والعيون ٦/ ٢٢٩ .

(٤) أخرجه مالك في الموطا ٢/ ٧٧٠ ، وسلف ٦/ ٥٣ .

(٥) مجاز القرآن ٢/ ٢٨٩ ، وغريب الحديث لأبي عبيد ٣/ ٢٧٠ ، وتفسير الطبري ٢٤/ ١٩٩ ، والبيت في طبقات الفحول ٢/ ٦٠٤ ، والمعاني الكبير ١/ ٤٦٢ ، والأغاني ١٢/ ١٣٢ برواية: يريبه، بدل: ترينه.
قال الأستاذ محمود شاكر في حاشية طبقات الفحول: رابه يريبه: شك في أمره. ودعاه إلى الريبة فيه، أراد: لم يشك فيه ولم يتق شره.

القومُ فيهم مُرِينُون: إذا هَلَكَتْ مواشيهم أو هُزِلَتْ. وهذا من الأمر الذي أتاهم مما يغلبهم ولا يستطيعون احتمالَه. قال أبو زيد: يقال: قد رِينَ بالرجل رَيْناً: إذا وقع فيما لا يستطيعُ الخروجَ منه، ولا قِبَلَ له به[١].

وقال أبو مُعاذٍ النَّحْويُّ: الرَّينُ: أن يسودَّ القلبُ من الذنوب، والطَّبعُ: أن يُطْبَع على القلب، وهذا أشدُّ من الرَّين، والإقفالُ أشدُّ من الطَّبع[٢].

الزَّجَّاج: الرَّيْن: هو كالصَّدأ يُغَشِّي القلبَ كالغيم الرقيق، ومثلُه الغين، يقال: غِينَ على قلبه: غُطِّي[٣]. والغِيْنُ: شجرٌ ملتفٌّ، الواحدةُ غَيْناءُ، أي: خَضْراءُ كثيرةُ الورقِ مُلْتَفَّةُ الأغصان[٤]. وقد تقدَّم قولُ الفراءِ: أنه إحاطةُ الذَّنبِ بالقلوب. وذَكَر الثعلبيُّ عن ابن عباس: «ران على قلوبهم»، أي: غطَّى عليها[٥]. وهذا هو الصحيحُ عنه إن شاء الله.

وقرأ حمزةُ والكسائيُّ والأعمشُ وأبو بكر والمفضَّلُ: «ران» بالإمالة؛ لأنَّ فاءَ الفعل الراءُ، وعينه الألفُ منقلبة من ياء، فحَسُنَتِ الإمالةُ لذلك. ومَن فَتَحَ فعلَى الأصلِ؛ لأنَّ بابَ فاءِ الفعلِ في «فَعَلَ» الفتحُ، مثل: كالَ وباعَ ونحوه. واختاره أبو عُبيد وأبو حاتم. ووقف حفصٌ «بَلْ» ثم يبتدئُ «رَانَ»[٦] وَقْفاً يُبيِّن اللامَ، لا للسَّكْت.

قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ﴾ أي: حقًّا، «إنَّهم» يعني الكفارَ ﴿عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يومَ القيامة: ﴿لَّمَحْجُوبُونَ﴾. وقيل: «كلَّا» ردعٌ وزَجْر، أي: ليس كما يقولون، بل «إنَّهم عن ربِّهم يومَئذٍ لمحجوبون».

---

(١) غريب الحديث لأبي عبيد ٣/ ٢٧١، وتهذيب اللغة ١٥/ ٢٢٥ - ٢٢٦.

(٢) تهذيب اللغة ١٥/ ٢٢٥.

(٣) بنحوه في معاني القرآن للزجاج ٥/ ٢٩٩.

(٤) الصحاح (غين).

(٥) أخرجه الطبري ٢٤/ ٢٠٣ بلفظ: طبع على قلوبهم ما كسبوا.

(٦) التيسير ص ١٤٢ و٢٢٠.

قال الزجّاج[١]: في هذه الآيةِ دليلٌ على أنَّ الله عزَّ وجلَّ يُرَى في القيامة، ولولا ذلك ما كان في هذه الآيةِ فائدةٌ، ولا خَسَّتْ منزلةُ الكفارِ بأنَّهم يُحْجَبون. وقال جلَّ ثناؤه: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٢-٢٣] فأَعْلَمَ الله جلَّ ثناؤه أنَّ المؤمنين ينظرون إليه، وأَعْلَمَ أنَّ الكفار محجوبون عنه.

وقال مالك بن أنس في هذه الآيةِ: لمَّا حَجَبَ أعداءَه فلم يَرَوْه تجلَّى لأوليائه حتى رَأَوْه. وقال الشافعيُّ: لمَّا حجب قوماً بالسُّخْطِ، دلَّ على أنَّ قوماً يَرَوْنه بالرضا. ثم قال: أمَا واللهِ لو لم يُوْقِنْ محمد بنُ إدريس أنَّه يَرى ربَّه في المَعَادِ لَمَا عَبَدَه في الدنيا. وقال الحسين بن الفضل: كما[٢] حجبهم في الدنيا عن نور تَوْحيدِه حجبهم في الآخرة عن رؤيته[٣].

وقال مجاهدٌ في قوله تعالى: ﴿لَّمَحْجُوبُونَ﴾، أي: عن كرامته ورحمته ممنوعون[٤]. وقال قتادةُ: هو أنَّ الله لا ينظرُ إليهم برحمته، ولا يزكِّيهم، ولهم عذابٌ أليم[٥].

وعلى الأول الجمهورُ، وأنَّهم محجوبون عن رؤيته فلا يَرَوْنه.

﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ﴾ أي: مُلازِمُوها ومُحْتَرِقون فيها غير خارِجين منها ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ [النساء:٥٦] و﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء:٩٧]. ويقال: الجحيم: البابُ الرابعُ من النار. ﴿ثُمَّ يُقَالُ﴾ لهم، أي: تقولُ لهم خَزَنةُ جهنَّم ﴿هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ رسلَ اللهِ في الدنيا.

---

(١) في معاني القرآن ٥/ ٢٩٩.

(٢) في (م): لما.

(٣) ذكره هذه الأقوال الواحدي في الوسيط ٤/ ٤٤٦.

(٤) ذكره البغوي ٤/ ٤٦٠ دون نسبة.

(٥) أخرجه الطبري ٢٤/ ٢٠٤ - ٢٠٥. وذكره البغوي ٤/ ٤٦٠.

قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ۝١٨ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ۝١٩ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝٢٠ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝٢١﴾

قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ﴾ «كَلَّا» بمعنى: حقًّا، والوقفُ على «تكذِّبون». وقيل: أي: ليس الأمرُ كما يقولون ولا كما ظنُّوا، بل كتابُهم في سجِّين، وكتابُ المؤمنين في علِّيين. وقال مقاتل: كَلَّا، أي: لا يؤمنون بالعذاب الذي يَصْلَونه. ثم استأنف فقال: «إن كتاب الأبرارِ» مرفوعٌ في علِّيين على قَدْرِ مَرْتَبتهم. قال ابن عباس: أي: في الجنة. وعنه أيضاً قال: أعمالُهم في كتابٍ [عند] الله في السماء.

وقال الضحَّاك ومجاهدٌ وقتادةُ: يعني السماءَ السابعةَ فيها أرواحُ المؤمنين.

ورَوَى الأَجْلَحُ عن الضحَّاك قال: هي سِدْرةُ المنتهى، ينتهي إليها كلُّ شيءٍ من أَمْرِ اللهِ لا يَعْدُوها، فيقولون: ربِّ! عَبْدُكَ فلان، وهو أَعْلَمُ به منهم، فيأتيه كتابٌ من الله عزَّ وجلَّ مختومٌ بأمانه من العذاب. فذلك قولُه تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ﴾.

وعن كعب الأحبار قال: إنَّ روحَ المؤمنِ إذا قُبِضَتْ صُعِدَ بها وفُتِحَتْ لها أبوابُ السماءِ، وتلقَّتها الملائكةُ بالبُشْرَى، ثم يَخْرجون معها حتى ينتهوا إلى العرش، فيخرجُ لهم من تحت العرشِ رَقٌّ، فيُرْقَم ويُختَم فيه النجاةُ من الحساب يومَ القيامة، ويَشْهدُه المقرَّبون.

وقال قتادةُ أيضاً: «في علِّيين» هي فوقَ السماءِ السابعةِ عند قائمةِ العرشِ اليمنى[(١)]. وقال البَرَاء بن عازِبٍ: قال النبيُّ ﷺ: «عِلِّيون في السماء السابعةِ تحت العرش»[(٢)].

وعن ابن عباسٍ أيضاً: هو لوحٌ من زَبَرْجَدَةٍ خضراءَ معلَّقٌ بالعرش، أعمالُهم مكتوبةٌ فيه[(٣)].

---

(١) أخرج هذه الأقوال الطبري ٢٤/ ٢٠٧ و٢١٠، وما بين سلف بين حاصرتين منه.

(٢) أخرجه الواحدي في الوسيط ٤/ ٤٤٧، وينظر الحديث (١٨٥٣٤) في مسند أحمد عن البراء ﷺ.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٤٦٠.

وقال الفرَّاء: عِلِّيون: ارتفاعٌ بعد ارتفاع[١]. وقيل: علِّيون: أَعْلَى الأمكنةِ[٢]. وقيل: معناه: علوٌّ في علوٍّ مضاعَف كأنه لا غايةَ له؛ ولذلك جُمع بالواو والنُّون. وهو معنى قولِ الطبريِّ[٣]. قال الفرَّاء: هو اسمٌ موضوعٌ على صفةِ الجمع، ولا واحدَ له من لَفْظِه، كقولك: عشرون وثلاثون، والعربُ إذا جَمَعَتْ جمعاً ولم يكن له بناءٌ مِن واحدِهِ ولا تثنيةٌ، قالوا في المذكَّر والمؤنَّث بالنون[٤]. وهو معنى قولِ الطبريِّ[٥]. وقال الزجَّاج[٦]: إعرابُ هذا الاسم كإعرابِ الجمع [لأنه على لفظ الجمع]، كما تقول: هذه قِنَّسرون، ورأيتُ قِنَّسرين.

وقال يونس النحويُّ: واحدُها: علِّيٌّ وعِلِّيَةٌ. وقال أبو الفتح: عِلِّيين: جمعُ عِلِّيٍّ، وهو فِعِّيل من العُلُوِّ. وكان سبيلُه أن يقول: عِلِّية، كما قالوا للغرفة عِلِّية؛ لأنَّها من العلوِّ، فلمَّا حُذِفَتِ التاءُ من عِلِّية عوَّضوا منها الجمعَ بالواو والنون، كما قالوا في أَرضين[٧].

وقيل: إنَّ علِّيين صفةٌ للملائكة، فإنَّهم الملأُ الأعلى، كم يقال: فلانٌ في بني فلانٍ؛ أي: هو في جُمْلتهم وعندهم. والذي في الخبر من حديثِ ابنِ عمر أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إنَّ أهلَ عِلِّيين لَيَنْظُرون إلى الجنة من كذا[٨]»، فإذا أشْرَفَ رجلٌ

---

(١) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٤٧ .

(٢) هو قول الزجاج في معاني القرآن ٥/ ٢٩٩ .

(٣) في تفسيره ٢٤/ ٢١٠ .

(٤) بنحوه في معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٤٧ .

(٥) في تفسيره ٢٤/ ٢١٠ .

(٦) في معاني القرآن ٥/ ٣٠٠ ، وما سيأتي بين حاصرتين منه.

(٧) يعني أن كلمة أرض اسم مؤنث، فكان فيها هاءٌ مُرادةٌ، وكأن تقديرها: أرْضة، فلما حذفت التاء التي كان القياس يوجبها، عوَّضوا منها الجمع بالواو والنون، فقالوا: أرضون. ينظر سر صناعة الإعراب لابن جني ٢/ ٦١٤ و٦٢٥ .

(٨) كذا في النسخ، والذي في مصنف ابن أبي شيبة ١٣/ ١٢٢ : كوى، وكذا نقلها عنه السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٣٢٧ .

من أهل عِلِّيين أشرقت الجنةُ لضياء وجهه، فيقولون: ما هذا النور؟! فيقال: أشْرفَ رجل من أهل علِّيين الأبرارِ أهلِ الطَّاعةِ والصِّدْقِ». وفي خبرٍ آخَرَ: «إنَّ أهلَ الجنة لَيَرْون أهلَ عِلِّيين كما يُرى الكوكبُ الدُّرِّيُّ في أُفُقِ السماء»[١] يدلُّ على أنَّ عِلِّيين اسمُ الموضعِ المرتفعِ.

وروى ناسٌ عن ابن عباس في قوله: «عِلِّيين»، قال: أَخْبَرَ أنَّ أعمالهم وأرواحَهم في السماء الرابعة[٢].

ثم قال: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ﴾ أي: ما الذي أَعْلَمَكَ يا محمدُ أيُّ شيءٍ علِّيون؟ على جهةِ التفخيم والتعظيم له في المنزلة الرفيعة. ثم فسَّره له فقال: ﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾.

وقيل: إنَّ «كتابٌ مرقومٌ» ليس تفسيراً لعلِّيين، بل تَمَّ الكلام عند قوله: «علِّيون»، ثم ابتدأ وقال: «كتاب مرقوم» أي: كتابُ الأبرارِ كتابٌ مَرْقومٌ، ولهذا عكس الرقْم في كتاب الفجَّار؛ قاله القشيريُّ.

وروي: أنَّ الملائكة تصعَدُ بعمل العبد، فيَسْتقِلُّونه[٣] فإذا انتَهَوْا به إلى ما شاء الله من سلطانه أَوْحَى إليهم: إنَّكم الحفَظَةُ على عبدي، وأنا الرقيبُ على ما في قلبه، وإنَّه أَخلَصَ لي عملَه، فاجعلوه في علِّيين، فقد غَفَرْتُ له، وإنَّها لتصعدُ بعملِ العبد، فيزكُّونه، فإذا انتَهَوْا به إلى ما شاء الله أَوْحَى إليهم: أنتم الحفظةُ على عبدي وأنا الرقيبُ على ما في قلبه، وإنه لم يُخْلِصْ لي عملَه، فاجعلوه في سِجِّين[٤].

---

(١) أخرجه أحمد (١١٥٨٨) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

(٢) في (ظ) و(ي): السابعة، وهما روايتان عن ابن عباس ذكرهما الرازي ٣١/ ٩٧ .

(٣) في النسخ عدا (د): فيستقبلونه، والمثبت من (د)، وهو الموافق لما في المصادر، على ما يأتي.

(٤) الكشاف ٤/ ٢٣٢ ، وأخرجه ابن المبارك في الزهد (٤٥٢)، وأبو الشيخ في العظمة (٥٢٢) من طريق أبي بكر بن أبي مريم عن ضمرة بن حبيب، عن النبي ﷺ. وابن أبي مريم ضعيف، كما ذكر الحافظ في التقريب، كما أن الخبر مرسل.

قوله تعالى: ﴿يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ أي: يَشْهدُ عملَ الأبرارِ مقرَّبو كلِّ سماءٍ من الملائكة. وقال وهبٌ وابنُ إسحاقَ: المقرَّبون هنا إسرافيلُ عليه السلامُ، فإذا عَمِلَ المؤمنُ عَملَ البِرِّ، صَعدت الملائكةُ بالصحيفة وله نورٌ يتلألأُ في السماوات كنورِ الشمس في الأرض، حتى يُنْتَهى بها إلى إسرافيل، فيختمُ عليها ويكتبُ، فهو قولُه: «يشهده المقربون» أي: يشهدُ كتابتهم[١].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ﴾ أي: أهلَ الصِّدْقِ والطاعة. ﴿لَفِى نَعِيمٍ﴾ أي: نَعْمةٍ، والنَّعمةُ بالفتح: التنعيم؛ يقال: نَعَّمه الله وناعَمَه فتنعَّم، وامرأةٌ منعَّمةٌ ومنُاعَمةٌ بمعنى[٢]. أي: إنَّ الأبرار في الجنات يتنعَّمون. ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ وهي الأسِرَّةُ في الحِجال[٣] ﴿يَنظُرُونَ﴾ إلى ما أعدَّ الله لهم من الكرامات؛ قاله عكرمةُ وابن عباسٍ ومجاهد[٤]. وقال مقاتل: ينظُرون إلى أهل النار. وعن النبيِّ ﷺ: «ينظُرون إلى أعدائهم في النار»[٥] ذكره المَهْدَوِيُّ. وقيل: على أرائكِ أَفْضالِه ينظرون إلى وجهه وجلاله.

قوله تعالى: ﴿تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾ أي: بهجَته وغَضَارتَه ونورَه؛ يقال: نَضَر النبات؛ إذا ازْهَرَّ ونَوَّر[٦]. وقراءةُ العامَّةِ: «تَعرِفُ» بفتح التاء وكَسْرِ الراء «نَضْرةَ»

---

(١) في (ظ): كتابهم.

(٢) الصحاح (نعم).

(٣) جمع حَجَلة، وهو موضع مثل القبة يتخذ للعروس، يزين بالثياب والسُّتور والأَسِرَّة. معجم متن اللغة (حجل).

(٤) ذكره الواحدي في الوسيط ٤/ ٤٤٨ ، والبغوي ٤/ ٤٦١ دون نسبة.

(٥) ذكره مرفوعاً ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٤٥٣ . وذكره الواحدي ٤/ ٤٤٨ ، والبغوي ٤/ ٤٦١ عن مقاتل قوله.

(٦) نوَّر: أخرج نَوْرَه، والنَّوْر: الزَّهر. القاموس (نور).

نصباً، أي: تَعْرِفُ يا محمد. وقرأ أبو جعفر بنُ القعقاع ويعقوبُ وشيبةُ وابن أبي إسحاق: «تُعْرَف» بضمِّ التاء وفتحِ الراء على الفعل المجهول، «نضرةُ» رفعاً[1].

﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ﴾ أي: من شرابٍ لا غِشَّ فيه. قاله الأخفشُ والزجَّاج[2]. وقيل: الرحيقُ: الخمرُ الصافية. وفي «الصحاح»[3]: الرحيقُ صفوةُ الخمر. والمعنى واحدٌ. الخليل: أَصْفى[4] الخمرِ وأجودُها. وقال مقاتل وغيره: هي الخمرُ العتيقةُ البيضاءُ الصافيةُ من الغشِّ النيِّرةُ، قال حسان:

يَسْقُونَ مَن وَرَدَ البَرِيصَ عليهِمُ ... بَرَدَى يُصَفَّقُ بالرَّحيقِ السَّلْسَلِ[5]

وقال آخر:

أَمْ لا سبيلَ إلى الشبابِ وذِكْرُه ... أَشْهى إليَّ مِن الرحيقِ السَّلْسَلِ[6]

﴿مَّخْتُومٍ . خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ﴾ قال مجاهدٌ: يُختَمُ به آخِرُ جُرْعةٍ. وقيل: المعنى: إذا شربوا هذا الرحيقَ فَفَني ما في الكأس، انختم ذلك بخاتمِ المِسْكِ. وكان ابنُ مسعود يقول: يجدون عاقبتها طَعْمَ المِسْكِ[7]. ونحوه عن سعيد بنِ جبير وإبراهيمَ النخعيِّ قالا: ختامُه: آخِرُ طَعْمِه[8]. وهو حسنٌ؛ لأنَّ سبيل الأشربةِ أن يكون الكَدَرُ في آخرها، فوصف شراب أهلِ الجنة بأنَّ رائحةَ آخِرِه رائحةُ المِسْكِ.

---

(١) النشر ٢/ ٣٩٧ عن يعقوب وأبي جعفر.

(٢) في معاني القرآن ٥/ ٣٠٠، وذكره عن الأخفش الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٢٣٠.

(٣) مادة (رحق).

(٤) في النسخ: أقصى، والمثبت من النكت والعيون ٦/ ٢٣٠، والكلام منه. وفي العين ٣/ ٤٥: الرحيق من أسماء الخمر.

(٥) ديوان حسان ص ١٨٠، وسلف ٢١/ ٤٧٨.

(٦) البيت لأبي كبير، وهو في ديوان الهذليين ص ٨٩. قال شارح الديوان: السلسل: السهلُ في الحَلْقِ السَّلِسُ.

(٧) أخرجه هناد في الزهد (٦٤).

(٨) أخرجه بهذا اللفظ عن سعيد بن جبير ابن أبي شيبة ٣/ ١٤٣. وأخرجه عن إبراهيم الطبري ٢٤/ ٢١٨ بلفظ: عاقبته مسك.

وعن مسروق عن عبد الله. قال: المختومُ: الممزوج[١].

وقيل: مختوم، أي: خُتِمتْ ومُنِعتْ عن أن يمسَّها ماسٌّ إلى أن يَفُكَّ ختامَها الأبرارُ.

وقرأ عليٌّ وعلقمةُ وشقيقٌ والضحاكُ وطاوسٌ والكسائيُّ: «خاتَمه» بفتح الخاء والتاء وألفٌ بينهما[٢]. قال علقمةُ: أمَا رأيتَ المرأةَ تقولُ للعطار: اجْعَلْ خاتَمه مِسْكاً، تريدُ آخِرَه. والخاتمَ والخِتام متقارِبان في المعنى، إلَّا أنَّ الخاتم الاسمُ، والخِتام المصدرُ؛ قاله الفراء[٣].

وفي «الصحاح»: والخِتامُ: الطِّينُ الذي يُخْتَم به[٤]. وكذا قال مجاهدٌ وابن زيد: خُتم إناؤه بالمسك بدلاً من الطِّين. حكاه المهدويُّ. وقال الفرزدق:

وبِتُّ أَفُضُّ أغلاقَ الخِتامِ[٥]

وقال الأعشى:

وأَبْرزَها وعليها خَتَمْ[٦]

أي: عليها طينةٌ مختومةٌ، مثل نَفَضٍ بمعنى منفوضٍ، وقَبَض بمعنى مقبوضٍ[٧].

وذكر ابنُ المبارك وابنُ وَهْبٍ، واللفظُ لابنِ وَهْبٍ، عن عبد الله بن مسعود في قوله تعالى: «خِتامه مِسْك»: خِلْطُه، ليس بخاتمٍ يَخْتِم، ألَا ترى إلى قولِ المرأةِ من

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة ١٣/ ١٤٢، وهناد في الزهد (٦٦)، والطبري ٢٤/ ٢١٦.

(٢) السبعة ص ٦٨٦، والتيسير ص ٢٢١ عن الكسائي. وذكرها عن علي وعلقمة الفراء في معاني القرآن ٣/ ٢٤٨.

(٣) في معاني القرآن ٣/ ٢٤٨.

(٤) الصحاح (ختم).

(٥) وصدره: فبتن بجانبيَّ مُصَرَّعات، وسلف ١٣/ ١٤٨.

(٦) وصدره: وصهباء طاف يَهوديُّها. وهو في ديوان الأعشى ص ٨٥، والصحاح (ختم). قال الشارح: أي: يبرزها صاحبها اليهودي مختومة لم تُفَضَّ ولم تعبث بها يد. والصهباء: الخمر. القاموس (صهب).

(٧) الصحاح (ختم). والنَّفَض: ما تساقط من ورق الشجر والثمر. الصحاح (نفض).

نسائكم: إنَّ خِلْطَه من الطِّيب كذا وكذا. إنَّما خِلْطُه مسك[(١)].

قال [أبو الدرداء]: شرابٌ أبيضُ مثلُ الفضةِ يَخْتِمون به آخِرَ أَشْرِبَتِهم، لو أنَّ رجلاً من أهل الدنيا أَدْخَل فيه يده ثم أَخْرَجَها، لم يَبْقَ ذو روحٍ إلَّا وَجَدَ ريحَ طِيْبِها[(٢)].

وروى أُبَيُّ بنُ كعب قال: قيل: يا رسول الله، ما الرحيقُ المختوم؟ قال: «غُدْرانُ الخمر»[(٣)]. وقيل: مختومٌ في الآنية، وهو غيرُ الذي يجري في الأنهار. فالله أعلم.

﴿وَفِى ذَٰلِكَ﴾ أي: وفي الذي وصفناه من أمر الجنة ﴿فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ أي: فلْيَرْغَب الراغبون؛ يقال: نَفِسْتُ عليه الشيءَ أَنْفَسُه نفاسةً، أي: ضَنِنتُ به، ولم أُحِبَّ أنْ يصيرَ إليه[(٤)]. وقيل: الفاءُ بمعنى إلى، أي: وإلى ذلك فليتبادرِ المتبادِرون في العمل، نظيرُه: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾ [الصافات: ٦١].

﴿وَمِزَاجُهُۥ﴾ أي: ومِزَاجُ ذلك الرحيقِ ﴿مِن تَسْنِيمٍ﴾ وهو شرابٌ ينصبُّ عليهم من علوٍّ، وهو أشرفُ شرابٍ في الجنة. وأصلُ التسنيم في اللغة: الارتفاعُ، فهي عينُ ماءٍ تجري من علوٍّ إلى أسفل، ومنه: سنام البعير؛ لعلوِّه من بَدَنِه، وكذلك تسنيمُ القبور.

وروي عن عبد الله قال: «تسنيم» عينٌ في الجنة يشربُ بها المقرَّبون صِرْفاً، ويُمزجُ منها كأسُ أصحابِ اليمين فتطيب[(٥)].

وقال ابن عباس في قوله عز وجل: ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ﴾ قال: هذا ممَّا قال الله

---

(١) الزهد لابن المبارك (٢٧٧ - زوائد نعيم)، وأخرجه أيضاً الطبري ٢١٦/٢٤، والطبراني في الكبير (٩٠٦٢).

(٢) الزهد لابن المبارك (٢٧٦ - زوائد نعيم)، وتفسير مجاهد ٧٣٩/٢، وتفسير الطبري ٢١٨/٢٤، والبعث والنشور للبيهقي (٢٦٥)، وما بين حاصرتين من هذه المصادر.

(٣) النكت والعيون ٢٣٠/٦.

(٤) تفسير الرازي ١٠٠/٣١.

(٥) أخرجه الحسين المروزي في زوائده على الزهد لابن المبارك (١٥٢٢)، وابن أبي شيبة ١٤٢/١٣، وهناد في الزهد (٦٥)، والطبري ٢٢١/٢٤.

تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧][(١)].

وقيل: التسنيم: عينٌ تجري في الهواء بقدرةِ الله تعالى، فتنصبُّ في أواني أهلِ الجنةِ على قَدْرِ مائها، فإذا امتلأتْ أَمْسَكَ الماء، فلا تقع منه قطرةٌ على الأرض، ولا يحتاجون إلى الاستقاء؛ قاله قتادة[(٢)].

ابن زيد: بَلَغَنا أنَّها عينٌ تجري من تحت العرش[(٣)]. وكذا في مراسيلِ الحسن. وقد ذكرناه في سورة الإنسان[(٤)].

﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ أي: يشربُ منها أهلُ جنةِ عَدْنٍ ـ وهم أفاضِلُ أهلِ الجنةِ ـ صِرْفًا، وهي لغيرهم مِزَاجٌ.

و«عيناً» نصب على المدح. وقال الزجَّاج: نصب على الحال من تسنيم، وتسنيم معرفةٌ، ليس يُعرفُ له اشتقاق، وإن جَعَلْته مصدراً مشتقًّا من السَّنام فـ«عيناً» نصب لأنه مفعولٌ به، كقوله تعالى: ﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ . يَتِيمًا﴾ [البلد: ١٤-١٥] وهذا قولُ الفراءِ: أنه منصوبٌ بتسنيم. وعند الأخفش بـ«يُسْقَون» أي: يُسقونَ عيناً، أو: من عين. وعند المبرِّد بإضمارِ أعني على المدح[(٥)].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟﴾ وَصَفَ أحوالَ الكفَّارِ في الدنيا مع المؤمنين في

---

(١) ذكره الرازي ٣١/ ١٠٠، والبغوي ٤/ ٤٦٢، والواحدي في الوسيط ٤/ ٤٤٩.

(٢) ذكره البغوي ٤/ ٤٦١.

(٣) تفسير الطبري ٢٤/ ٢٢٤.

(٤) عند تفسير الآية السادسة منها.

(٥) ينظر معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٤٩، وللزجاج ٥/ ٣٠١، وللأخفش ٢/ ٧٣٤، وإعراب القرآن للنحاس ٥/ ١٨٢.

استهزائهم[١] بهم، والمرادُ رؤساءُ قريشٍ من أهلِ الشِّرْك. رَوَى ناسٌ عن ابن عباسٍ قال: هو الوليدُ بنُ المغيرةِ، وعُقْبةُ بنُ أبي مُعَيْطٍ، والعاصُ بنُ وائلٍ، والأسودُ بنُ عبدِ يَغوث، والعاصُ بن هشام، وأبو جهل، والنَّضْرُ بنُ الحارثِ، وأولئك ﴿كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ من أصحاب محمدٍ ﷺ، مثل عَمارٍ وخَبَّابٍ وصُهَيبٍ وبلال ﴿يَضْحَكُونَ﴾ على وجهِ السُّخْرية[٢]. ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ﴾ عند إتيانهم رسولَ الله ﷺ ﴿يَتَغَامَزُونَ﴾ يغمزُ بعضُهم بعضاً، ويشيرون بأعينهم. وقيل: أي: يعيِّرونهم بالإسلام ويَعِيبونَهم به. يقال: غمزْتُ الشيءَ بيدي، قال:

وكُنْتُ إذا غَمَزتُ قَناةَ قومٍ كَسَرْتُ كُعوبَها أو تستقِيما[٣]

وقالت عائشةُ: كان النبيُّ ﷺ إذا سجد غَمزَني، فقبضتُ رِجْليَّ، الحديثَ، وقد مضى في «النساء»[٤]. وغمزتُه بعيني.

وقيل: الغمز: بمعنى العيب، يقال: غمزه، أي: عابَه، وما في فلانٍ غَمْزة[٥]، أي: عيب.

وقال مقاتل: نزلت في عليِّ بنِ أبي طالب؛ جاء في نَفَرٍ من المسلمين إلى النبيِّ ﷺ فَلَمَزهم المنافقون، وضحكوا عليهم وتَغامَزوا[٦].

﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟﴾ أي: انْصَرفوا إلى أهلهم وأصحابهم وذَويهم ﴿انقلبوا فاكِهين﴾ أي: مُعَجَّبين منهم. وقيل: مُعْجَبون بما هم عليه من الكفر، متفكِّهون بِذِكْرِ المؤمنين. وقرأ ابنُ القعقاع وحَفْصٌ والأعرجُ والسُّلميُّ: «فَكِهِين» بغيرِ ألفٍ. الباقون بألف[٧].

(١) في (د) و(م): باستهزائهم، وفي (ظ): واستهزاءهم.

(٢) ذكره الواحدي في الوسيط ٤/ ٤٤٩ ، والبغوي ٤/ ٤٦٢ ، والرازي ٣١/ ١٠١ دون نسبة.

(٣) سلف ٥/ ١٧٣ .

(٤) ٦/ ٣٧٥ .

(٥) كذا في النسخ، وفي المعاجم: غميزة.

(٦) تفسير أبي الليث ٣/ ٤٥٨ ، والكشاف ٤/ ٢٣٣ ، وتفسير الرازي ٣١/ ١٠١ .

(٧) السبعة ص ٦٧٦ ، والتيسير ص ٢٢١ ، والنشر ٢/ ٢٥٤ - ٢٥٥ و٣٩٩ .

قال الفرَّاء[١]: هما لغتان، مثل: طَمِع وطامِع، وحَذِر وحاذِر، وقد تقدَّم في سورة الدخان[٢]، والحمد لله. وقيل: الفَكِهُ: الأَشِرُ البَطِرُ، والفاكِه: الناعِم المتنعِّم.

﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ﴾ أي: إذا رأى هؤلاء الكفارُ أصحابَ محمدٍ ﷺ ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ في اتِّباعهم محمداً ﷺ ﴿وَمَآ أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ﴾ لأعمالهم، مُوَكَّلين بأحوالهم، رُقَباءَ عليهم. ﴿فَٱلْيَوْمَ﴾ يعني هذا اليوم الذي هو يومُ القيامة ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بمحمدٍ ﷺ ﴿مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ كما ضحك الكفارُ منهم في الدنيا. نظيرُه في آخِر سورةِ المؤمنين، وقد تقدَّم[٣].

وذكر ابن المبارك: أخبرنا محمد بن يسار عن قتادة في قوله تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ قال: ذُكِر لنا أنَّ كعباً كان يقول: إنَّ بين الجنةِ والنارِ كُوًى، فإذا أراد المؤمنُ أن ينظر إلى عدوٍّ كان له في الدنيا اطَّلَع من بعضِ الكُوَى؛ قال الله تعالى في آيةٍ أخرى: ﴿فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات:٥٥] قال: ذُكِر لنا أنه اطَّلع فرأى جماجمَ القومِ تَغْلِي[٤].

وذكر ابن المبارك أيضاً: أخبرنا الكلبيُّ عن أبي صالح في قوله تعالى: ﴿الله يستهزِئ بِهِم﴾ [البقرة:١٥] قال: يقال لأهل النارِ وهم في النار: اخرجوا، فتفتَّحُ لهم أبوابُ النارِ، فإذا رَأَوْها قد فُتِحَتْ أَقْبَلوا إليها يريدون الخروج، والمؤمنون ينظرون إليهم على الأرائك، فإذا انْتَهَوْا إلى أبوابها غُلِّقتْ دونهم، فذلك قولُه: ﴿الله يستهزِئ بِهِم﴾ ويَضْحكُ منهم المؤمنون حين غُلِّقتْ دونهم، فذلك قولُه تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ . عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ . هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾[٥] وقد

---

(١) في معاني القرآن ٣/ ٢٤٩ بنحوه.

(٢) ١٩/ ١١٧ - ١١٨.

(٣) ١٥/ ٩٥.

(٤) لم نقف عليه عند ابن المبارك، وأخرجه الطبري ٢٤/ ٢٢٨.

(٥) لم نقف عليه عند ابن المبارك، وأخرجه ابن المنذر، كما في الدر المنثور ١/ ٣١.

مضى هذا في أولِ سورة البقرة[١].

ومعنى «هل ثُوِّب» أي: هل جُوزي [الكفار] بسُخْرِيتهم في الدنيا بالمؤمنين إذا فُعِل بهم ذلك[٢]. وقيل: إنه متعلّق بـ «ينظرون» أي: ينظرون: هل جُوزيَ الكفار؟ فيكون معنى هل وموضعُها نصباً بـ «ينظرون». وقيل: استئنافٌ لا موضعَ له من الإعراب. وقيل: هو إضمارٌ على القول، والمعنى: يقول بعضُ المؤمنين لبعضٍ: «هل ثُوِّب الكفار» أي: أُثيبَ وجُوزي. وهو مِن ثابَ يثوبُ، أي: رجع، فالثَّوابُ ما يرجع على العبد في مقَابَلَةِ عَمَلِه، ويُستعمل في الخير والشَّرّ. خُتِمَتِ السورةُ والله أعلم.

سورة الانشقاق

مكية في قول الجميع، وهي خمس وعشرون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ۝٣ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۝٤ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٥﴾

قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ أي: انْصَدَعَتْ[٣] وَتَفَطَّرَتْ بالغَمام، والغَمامُ مثلُ السَّحاب الأبيض. وكذا رَوَى أبو صالح عن ابن عباس. وروي عن عليٍّ عليه السلامُ قال: تُشَقُّ من المَجَرَّة[٤]. وقال: المَجرَّةُ بابُ السماء[٥]. وهذا من أشراطِ الساعةِ

---

(١) ١/٣١٥.

(٢) بنحوه في مجمع البيان ٣٠/٧٤، وما سلف بين حاصرتين منه. قال الطبرسي: وهو استفهام يراد به التقرير، ويكون استئنافَ كلام لا موضع له من الإعراب.

(٣) في (د) و(ظ): تصدعت.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم، كما في الدر المنثور ٦/٣٢٩.

(٥) أخرجه الطبراني (١٠٥٩١)، وأبو الشيخ في العظمة (٧٩٦) عن ابن عباس بلفظ: المجرة باب السماء الذي تنشق منه.

وعلاماتها.

﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ أي: سمِعتْ، وحُقَّ لها أن تسمع. رُوي معناه عن ابن عباس ومجاهدٍ وغيرهما[1]؛ ومنه قولُه ﷺ: «ما أَذِنَ الله لشيءٍ كَأَذَنِه لنبيٍّ يتغنَّى بالقرآن»[2] أي: ما استمع الله لشيء؛ قال الشاعر:

صُمٌّ إذا سمِعوا خيراً ذُكِرْتُ بِه وإنْ ذُكرتُ بسوءٍ عندهم أَذِنوا[3]

أي: سمعوا: وقال قَعْنَب بنُ أمِّ صاحب:

إنْ يأذَنوا رِيبةً طاروا بها فرحاً وما هُمُ أَذِنوا من صالحٍ دَفَنُوا[4]

وقيل: المعنى: وحقَّق الله عليها الاستماعَ لأمره بالانشقاق. وقال الضحاك: حُقَّتْ: أَطاعَتْ[5]، وحُقَّ لها أن تُطيعَ ربَّها؛ لأنه خَلَقَها؛ يقال: فلانٌ مَحقوقٌ بكذا. وطاعةُ السَّماء: بمعنى أنها لا تمتنعُ مما أراد الله بها، ولا يَبْعدُ خَلْقُ الحياةِ فيها حتى تُطيعَ وتُجيبَ. وقال قتادة: حُقَّ لها أن تفعل ذلك؛ ومنه قولُ كثير:

فإن تَكُنِ العُتْبَى فأهلاً ومَرْحباً وحُقَّتْ لها العُتْبَى لدينا وقَلَّتِ[6]

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ﴾ أي: بُسِطت ودُكَّتْ جِبالُها. قال النبيُّ ﷺ: «تُمدُّ

---

(١) تفسير الطبري ٢٤/ ٢٣١ - ٢٣٢.

(٢) أخرجه أحمد (٧٦٧٠)، والبخاري (٥٠٢٣)، ومسلم (٧٩٢) من حديث أبي هريرة ﷺ، وسلف ١/ ٢٨.

(٣) البيت لقعنب بن أم صاحب، كما في عيون الأخبار ٣/ ٨٤، وشرح ديوان الحماسة للتبريزي ٤/ ١٢، وبهجة المجالس ١/ ٧٢٤، ومختارات ابن الشجري ص ٧، واللسان (أذن) و(شور)، وهو دون نسبة في تفسير الطبري ٢٤/ ٢٣٠، ومعاني القرآن للزجاج ٥/ ٣٠٣.

(٤) عيون الأخبار ٣/ ٨٤، وشرح ديوان الحماسة للتبريزي ٤/ ١٢، وللمرزوقي ٣/ ١٤٥٠، وبهجة المجالس ١/ ٧٢٥، ومختارات ابن الشجري ص ٧، واللسان (أذن) و(شور)، وهو في هذه المصادر برواية:

إن يسمعوا ريبة طاروا بها فرحاً مني وما سمعوا من صالح دفنوا

(٥) أخرجه الطبري ٢٤/ ٢٣٢ بلفظ: ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ قال: سمعت وأطاعت.

(٦) ديوان كثير ص٧٩، والنكت والعيون ٦/ ٢٣٤، والكلام منه.

مَدَّ الأديم»[١] لأنَّ الأديم إذا مدَّ زال كُلُّ انثناءٍ فيه وامتدَّ واسْتَوَى. قال[٢] ابنُ عباسٍ وابنُ مسعود: ويُزادُ في سَعَتها كذا وكذا؛ لوقوفِ الخلائقِ عليها للحساب، حتى لا يكون لأحدٍ من البشر إلَّا موضعُ قدمه، لكَثْرةِ الخلائقِ فيها. وقد مضى في سورة «إبراهيم» أنَّ الأرض تبدَّلُ بأرضٍ أخرى[٣]، وهي السَّاهرةُ في قولِ ابنِ عباسٍ على ما تقدَّم عنه[٤].

﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ أي: أَخرجَتْ أمواتَها، وتخلَّتْ منهم[٥]. وقال ابن جُبَير: أَلْقَتْ ما في بطنها من الموتى، وتخلَّتْ ممَّن على ظَهْرِها من الأحياء[٦].

وقيل: أَلْقَتْ ما في بطنها من كنوزها ومَعادِنها، وتخلَّت منها، أي: خلا جوفُها، فليس في بطنها شيءٌ، وذلك يُؤْذِنُ بعِظَمِ الأمر، كما تُلْقي الحاملُ ما في بَطْنها عند الشدَّة.

وقيل: تَخَلَّت مما على ظهرها من جبالها وبحارها.

وقيل: أَلْقَتْ ما استُودِعتْ، وتَخلَّتْ ممَّا استُحْفِظَتْ؛ لأنَّ الله تعالى استَوْدَعَهَا عِبَادَه أحياءً وأمواتاً، واستحفظها بلادَه مزارعةً وأقواتاً[٧].

﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا﴾ أي: في إلقاءِ مَوْتاها ﴿وَحُقَّتْ﴾ أي: وحُقَّ لها أنْ تَسْمعَ أمرَه.

واختُلف في جوابِ «إذا»؛ فقال الفرَّاء[٨]: «أذِنت»، والواوُ زائدةٌ، وكذلك

---

(١) سلف ١٢/ ١٦٨ .

(٢) في (ي): وقاله، وفي (د) و(ظ): وقال، وينظر ما سلف ١٢/ ١٦٨ .

(٣) ١٢/ ١٦٩ .

(٤) ص٥١ من هذا الجزء.

(٥) في (م): عنهم.

(٦) النكت والعيون ٦/ ٢٣٥ .

(٧) النكت والعيون ٦/ ٢٣٥ ، وفيه: مزارع وأقواتاً.

(٨) في معاني القرآن ٣/ ٢٤٦ .

«وأَلْقَتْ». ابن الأنباريّ: قال بعضُ المفسِّرين: جوابُ «إذا السماء انشقَّتْ»: «أَذِنَتْ»، وزَعَم أنَّ الواوَ مُقْحمَةٌ، وهذا غَلَطٌ؛ لأنَّ العرب لا تُقْحِمُ الواوَ إلَّا مع «حتى إذا» كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ [الزمر:٧٣] ومع «لمَّا» كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ . وَنَٰدَيْنَٰهُ﴾ [الصافات:١٠٣-١٠٤] معناه: «ناديناهُ»، والواوُ لا تُقْحمَ مع غيرِ هذين. وقيل: الجوابُ فاءٌ مُضْمَرةٌ، كأنه قال: «إذا السماء انشقَّت» فيا أيها الإنسانُ إنَّك كادح[١].

وقيل: جوابُها ما دلَّ عليه «فمُلاقِيهِ»، أي: إذا السماء انشقَّتْ لاقَى الإنسانُ كَدْحَه[٢].

وقيل: فيه تقديمٌ وتأخير، أي: «يا أيها الإنسانُ إنك كادحٌ إلى ربِّك كَدْحاً فملاقِيهِ» «إذا السماء انشقَّت». قاله المبرد[٣]. وعنه أيضاً: الجوابُ: «فأمَّا مَن أوتيَ كتابه بيمينه» وهو قولُ الكسائيّ[٤]؛ أي: إذا السماء انشقَّتْ فَمَن أُوتيَ كتابه بيمينه فحُكْمُه كذا. قال أبو جعفر النحَّاس: وهذا أصحُّ ما قيل فيه وأَحْسَنُه.

وقيل: هو بمعنى: اذْكُرْ إذا السماءُ انشقَّتْ[٥].

وقيل: الجوابُ محذوفٌ لِعلْم المخاطَبينَ به، أي: إذا كانت هذه الأشياءُ عَلِمَ المكذِّبون بالبعث ضلالتَهم وخُسْرانَهم.

وقيل: تقدَّم منهم سؤالٌ عن وقتِ القيامة، فقيل لهم: إذا ظَهَرَتْ أشراطُها كانت القيامةُ، فرأيتم عاقبةَ تكذيبِكم بها. والقرآنُ كالآيةِ الواحدةِ في دلالةِ البعضِ على البعض.

---

(١) إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٩٧١ .

(٢) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٣٠٣ .

(٣) زاد المسير ٩/ ٦٣ .

(٤) ذكره عنه الرازي ٣١/ ١٠٥ .

(٥) ذكره النحاس في إعراب القرآن ٥/ ١٨٥ وقال: فعلى هذا لا تحتاج إلى جواب.

وعن الحسن: إنَّ قوله: «إذا السماءُ انشقَّتْ» قَسَمٌ. والجمهورُ على خلافِ قوله، من أنه خبرٌ وليس بقَسَم.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ۝٦ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝٩﴾

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا﴾ المرادُ بالإنسان الجنسُ، أي: يا ابنَ آدمَ. وكذا روى سعيدٌ عن قتادةَ: يا ابنَ آدمَ، إنَّ كَدْحَكَ لضعيفٌ، فَمَن استطاع أن يكونَ كَدْحُه في طاعة الله فليفعلْ، ولا قوَّةَ إلَّا بالله[١].

وقيل: هو مُعَيَّنٌ؛ قال مقاتل: يعني الأسودَ بنَ عبد الأسد. ويقال: يعني أُبيَّ بنَ خَلفَ. ويقال: يعني جميعَ الكفَّارِ، يعني: يا أيها الكافرُ إنك كادحٌ. والكَدْحُ في كلام العرب: العملُ والكَسْبُ؛ قال ابن مُقْبِلٍ:

وما الدَّهْرُ إلَّا تارَتانِ فمنهما أموتُ وأُخرى أبتغي العيشَ أَكْدَحُ[٢]

وقال آخَرُ:

ومَضَتْ بشاشةُ كلِّ عيشٍ صالِحٍ وبَقِيتُ أَكْدَحُ لِلحياةِ وأَنصبُ[٣]

أي: أَعْمَلُ. وروى الضحَّاكُ عن ابن عباس: «إنك كادِحٌ» أي: راجعٌ، «إلى ربِّك كدحاً» أي: رجوعاً لا مَحالةَ، «فملاقِيهِ» أي: مُلاقٍ ربِّك. وقيل: مُلاقٍ عَملَك. القُتَبيُّ[٤]: «إنك كادحٌ» أي: عامِلٌ ناصِبٌ في معيشتك إلى لقاء ربك.

والملاقاةُ بمعنى اللقاءِ، أي: تَلْقَى ربَّك بعملك. وقيل: أي: تُلاقي كتابَ عملك؛ لأنَّ العمل قد انْقَضَى ولهذا قال: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾[٥].

---

(١) أخرجه الطبري ٢٤/ ٢٣٥ .

(٢) ديوانه ص٢٤ ، وسلف ١٦/ ٤١٤ .

(٣) النكت والعيون ٦/ ٢٣٥ .

(٤) في تفسير غريب القرآن ص ٥٢١ .

(٥) تفسير الرازي ٣١/ ١٠٥ .

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ وهو المؤمنُ ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ لا مناقشةَ فيه. كذا روي عن رسول الله ﷺ من حديث عائشةَ قالت: قال رسول الله ﷺ: «مَن حُوسِبَ يومَ القيامةِ عُذِّب» قالت: فقلتُ: يا رسولَ الله: أليس قد قال الله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ. فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ فقال: «ليس ذاكِ الحسابُ، إنَّما ذلك العَرْضُ، مَنْ نُوقِشَ الحسابَ يومَ القيامةِ عُذِّب» أخرجه البخاريُّ ومسلم والترمذيّ، وقال: حديثٌ حسنٌ صحيحٌ[1].

﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ﴾ أزواجِه في الجنة من الحور العين ﴿مَسْرُورًا﴾ أي: مُغْتبطاً قريرَ العين.

ويقال: إنها نزلت في أبي سلمةَ بن عبد الأسد، وهو أوّلُ مَن هاجَرَ من مكةَ إلى المدينة.

وقيل: إلى أهله الذين كانوا له في الدنيا، ليُخْبِرَهم بخَلاصِه وسلامته. والأوّلُ قولُ قتادة؛ أي: إلى أهله الذين قد أعدَّهم الله له في الجنة[2].

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ﴿١٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾ نزلتْ في الأسود بنِ عبد الأسد أخي أبي سلمةَ؛ قاله ابنُ عباس. ثم هي عامةٌ في كلِّ مؤمنٍ وكافرٍ. قال ابن عباس: يمدُّ يدَه اليمنى ليأخذَ كتابه، فيجذبُه مَلَكٌ فيخلعُ يمينه، فيأخذُ كتابه بشماله من وراء ظهره. وقال قتادةُ ومقاتلٌ: تُفَكُّ ألواحُ صدرِه وعظامُه، ثم تَدْخُلُ يدُه وتَخْرجُ من ظهره، فيأخذُ كتابَه كذلك.

﴿فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا﴾ أي: بالهلاك، فيقول: يا وَيْلاه، يا ثُبوراه. ﴿وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا﴾

---

(١) سنن الترمذي (٢٤٢٦) و(٣٣٣٧)، وهو عند البخاري (٤٩٣٩)، ومسلم (٢٨٧٦)، وسلف ١٧/ ٢٩٨ .

(٢) النكت والعيون ٦/ ٢٣٦ ، وأخرجه بنحوه الطبري ٢٤/ ٢٣٩ .

أي: ويدخُلُ النارَ حتى يَصْلَى بحرِّها.

وقرأ الحِرْميَّانِ وابنُ عامرٍ والكسائيُّ: ﴿ويُصَلَّى﴾ بضم الياء وفتحِ الصَّاد وتشديدِ اللَّام، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾ [الحاقة: ٣١] وقوله: ﴿وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ [الواقعة: ٩٤]. الباقون: «ويَصْلَى» بفتح الياءِ مخفَّفاً[١]، فِعْلٌ لازمٌ غيرُ متعدٍّ[٢]؛ لقوله: ﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ١٦٣] وقوله: ﴿يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ [الأعلى: ١٢] وقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا﴾ [المطففين: ١٦].

وقراءةٌ ثالثةٌ رواها أبانٌ عن عاصمٍ، وخارجةُ عن نافعٍ، وإسماعيلُ المكِّيُّ عن ابن كثير: «ويُصْلَى» بضمِّ الياءِ وإسكانِ الصَّادِ وفتحِ اللَّام مخفَّفاً[٣]، كما قُرئ: ﴿وسَيُصْلَون﴾ [النساء: ١٠] بضمِّ الياء[٤]، وكذلك في «الغاشية» قد قُرئ أيضاً: ﴿تُصْلَى ناراً﴾ [الآية: ٤][٥]. وهما لغتان: صلَّى وأَصْلَى، كقوله: نزَّل وأَنْزَل.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ﴾ أي: في الدنيا ﴿مَسْرُورًا﴾ قال ابن زيد: وَصَفَ الله أهلَ الجنةِ بالمَخافةِ والحزنِ والبكاءِ والشفقةِ في الدنيا، فأَعْقَبهم به النعيمَ والسرورَ في الآخرة، وقرأ قولَ الله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ . فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾ [الطور: ٢٦-٢٧]. قال: ووصَفَ أهلَ النارِ بالسرور في الدنيا والضَّحِكِ فيها والتفكُّهِ، فقال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾.

﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾ أي: لن يرجعَ حيًّا مبعوثًا فيحاسَب، ثم يثاب أو يُعاقَب. يقال: حارَ يحورُ: إذا رجع؛ قال لبيد:

---

(١) السبعة ص ٦٧٧، والتيسير ص ٢٢١.

(٢) ويكون نصبُ «سعيراً» على هذا بنزع الخافض، ينظر ما سلف ٦/ ٤٢٠، والدر المصون ٣/ ٥٩٥ - ٥٩٦.

(٣) القراءات الشاذة ص١٧٠.

(٤) وهي قراءة ابن عامر وعاصم في رواية أبي بكر وقد سلفت ٦/ ٩١.

(٥) وهي قراءة أبي عمرو وعاصم في رواية أبي بكر، وستأتي.

وما المرءُ إلَّا كالشِّهابِ وضَوْئِهِ يحورُ رَماداً بعد إذ هو ساطِعُ[١]

وقال عِكرمةُ وداودُ بنُ أبي هند: يحورُ كلمةٌ بالحَبَشيَّة، ومعناها: يرجع[٢]. ويجوزُ أن تتَّفق الكلمتان فإنهما كلمةُ اشتقاقٍ. ومنه: الخبزُ الحُوَّارَى[٣]؛ لأنه يرجع إلى البياض.

وقال ابن عباس: ما كنتُ أدري ما يحور، حتى سمعتُ أعرابيةً تدعو بُنيةً لها: حُوري، أي: ارجعي إليّ[٤]. فالحَوْرُ في كلام العرب: الرجوعُ، ومنه قولُه عليه الصلاة والسلام: «اللهمَّ إنِّي أعوذُ بك من الحَوْرِ بَعْدَ الكَوْر»[٥] يعني: من الرجوع إلى النقصان بعد الزيادة، وكذلك الحُوْرُ بالضم. وفي المثل: «حُورٌ في مَحَارَةٍ» أي: نقصان في نقصان. يُضْرَبُ للرجل إذا كان أَمْرُه يُدْبِرُ؛ قال الشاعر:

واستَعْجَلوا عن خفيفِ المَضْغِ فازْدَرَدُوا والذمُّ يَبْقَى وزادُ القومِ في حُوْرِ[٦]

والحُوْرُ أيضًا: الاسمُ من قولِكَ: طحَنَتِ الطاحنةُ فما أحارتْ شيئًا، أي: ما ردَّتْ شيئاً من الدقيق. والحُوْر أيضًا: الهَلَكةُ؛ قال الراجزُ:

في بِئرِ لا حُورٍ سَرَى وما شَعَرْ[٧]

---

(١) ديوان لبيد ص ١٦٩ .

(٢) النكت والعيون ٦/ ٢٣٦ ، وأخرجه عن عكرمة عبد بن حميد، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٣٠ .

(٣) الحوَّارَى بالضم وتشديد الواو والراء مفتوحة: الدقيق الأبيض، وكلُّ ما حوِّر من الطعام، أي: بُيِّضَ. الصحاح (حور)، والمعجم الوسيط (حور).

(٤) الكشاف ٤/ ٢٣٥ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٥٨ ، وتفسير الرازي ٣١/ ١٠٨ .

(٥) أخرجه أحمد (٢٠٧٧٢)، ومسلم (١٣٤٣) والترمذي (٣٤٣٩) من حديث عبد الله سَرْجِسَ ﷺ. ووقع في صحيح مسلم والترمذي: بعد الكون. قال الترمذي: ويروى: الحور بعد الكور، وكلاهما له وجه. اهـ. وسيأتي الكلام عن الروايتين قريباً.

(٦) البيت لسبيع بن الخطيم، كما في شرح أبيات إصلاح المنطق للسيرافي ص ٢٨٨ ، واللسان (حور)، وهو دون نسبة في إصلاح المنطق ص ١٤١ ، والصحاح (حور) والكلام منه. قال السيرافي: الازدراد الابتلاع، وقوله: والذم يبقى...، يريد: الذم يبقى على الأيام، والأكل يذهب.

(٧) البيت للعجاج، وهو في ديوانه ص ٧٢ ، والصحاح (حور) والكلام منه. قال الأصمعي شارح =

قال أبو عبيدةَ: أي: في بئرِ حُوْرٍ، و«لا» زائدةٌ.

وروي: «بعد الكَوْنِ» ومعناه: من انتشارِ الأمرِ بعد تَمَامِهِ(١). وسُئِل معمرٌ عن الحَوْرِ بعد الكَوْنِ، فقال: هو الكُنْتيُّ. فقال له عبد الرزاق: وما الكُنْتيُّ؟ فقال: الرجلُ يكون صالحاً ثم يتحوَّلُ رجلَ سوءٍ(٢). قال أبو عمرو: يقال للرجل إذا شاخ: كُنْتيٌّ، كأنه نُسِبَ إلى قوله: كنتُ في شبابي كذا وكذا. قال:

فأصبحت كُنْتيًّا وأصبحتُ عاجِنًا وشرُّ خِصَالِ المرءِ كُنْتُ وعاجِنُ(٣)

عَجَنَ الرجلُ: إذا نَهضَ مُعْتمداً [بيديه] على الأرض من الكِبَر(٤). وقال ابن الأعرابيِّ: الكُنْتيُّ: هو الذي يقول: كنتُ شابًّا، وكنتُ شجاعًا، والكانيُّ هو الذي يقول: كان لي مالٌ وكنتُ أَهَبُ، وكان لي خيلٌ وكنتُ أَرْكَبُ(٥).

قوله تعالى: ﴿بَلَىٰٓ﴾ أي: ليس الأمرُ كما ظنَّ، بل يحورُ إلينا ويرجع. ﴿إِنَّ رَبَّهُۥ

= الديوان: يريد: في بئر حور سرى الحَرُوريُّ وما شعر.

والبيت من قصيدة في مدح عمر بن عبد الله بن معمر، وكان عبد الملك وجهه إلى أبي فديك الحروري، فقتله وأصحابه.

(١) النكت والعيون ٦/ ٢٣٦، قال النووي في شرح صحيح مسلم ٩/ ١١١: هو في معظم النسخ من صحيح مسلم: «بعد الكون» بالنون، بل لا يكاد يوجد في نسخ بلادنا إلا بالنون. اهـ. وقد رواه بعض رواة صحيح مسلم بالراء، كما ذكر القاضي عياض في إكمال المعلم ٤/ ٤٥٢، وأبو العباس في المفهم ٣/ ٤٥٥. قال النووي: معناه بالراء والنون جميعاً: الرجوع من الاستقامة أو الزيادة إلى النقص، قالوا: ورواية الراء مأخوذة من تكوير العمامة، وهو لفُّها وجَمْعها، ورواية النون مأخوذة من الكون، مصدر كان يكون كونًا: إذا وُجد واستقر.

(٢) أخرجه الخطابي في غريب الحديث ٢/ ١٩٤.

(٣) الصحاح (كون) و(عجن)، وأساس البلاغة (كون)، والتكملة للصاغاني ١/ ٣٣٦. وهو في تهذيب اللغة ١٠/ ١٤١ برواية:

وما كنت كنتيًّا ولا كنت عاجنًا وشر الرجال الكُنْتُنِيُّ وعاجِنُ

(٤) الصحاح (عجن)، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٥) النكت والعيون ٦/ ٢٣٦، وذكره بنحوه الأزهري في تهذيب اللغة ١٠/ ١٤١.

كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا﴾ قبل أنْ يَخْلُقَه، عالماً بأنَّ مَرْجِعَه إليه. وقيل: بلَى لَيَحُورَنَّ ولَيَرْجِعَنَّ. ثم استأنف فقال: «إنَّ ربَّه كان بِهِ بصيرًا» مِن يومِ خَلَقَه إلى أنْ بَعَثَه. وقيل: عالمًا بما سبق له من الشقاء والسعادة.

قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ١٦ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ١٧ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ١٨ لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ ١٩ فَمَا لَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٢٠ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقُرۡءَانُ لَا يَسۡجُدُونَ ٢١﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ﴾ أي: فأُقْسِمُ و«لا» صِلَةٌ. ﴿بِٱلشَّفَقِ﴾ أي: بالحُمْرةِ التي تكونُ عندَ مغيبِ الشمسِ حتى تأتيَ صلاةُ العشاءِ الآخِرةِ. قال أشهبُ وعبد الله ابنُ الحكم ويحيى بنُ يحيى وغيرُهم ـ كثيرٌ عددُهم ـ عن مالك: الشَّفَقُ: الحُمْرةُ التي في المغرب، فإذا ذهبت الحمرةُ فقد خَرَجْتَ من وقتِ المغرب ووَجَبتْ صلاةُ العشاءِ[(١)].

وروى ابنُ وهب قال: أخبرني غيرُ واحدٍ عن عليّ بنِ أبي طالب ومُعاذ بنِ جبل وعُبادةَ بنِ الصامتِ وشدَّاد بنِ أوْسٍ وأبي هريرةَ: أنَّ الشفَقَ الحمرةُ، وبه قال مالك ابن أنس. وذَكَر غيرُ ابنُ وَهْبٍ من الصحابة: عمرَ وابنَ عمرَ وابنَ مسعودٍ وابنَ عباسٍ وأنَساً وأبا قتادةَ وجابر بنَ عبد الله وابنَ الزبير، ومن التابعين: سعيد بن جبير، وابن المسيب، وطاوس، وعبد الله بن دينار، والزهريّ، وقال به من الفقهاء: الأوزاعيُّ ومالكٌ والشافعيُّ وأبو يوسفَ وأبو ثورٍ وأبو عُبيدٍ وأحمدُ وإسحاقُ.

وقيل: هو البياض؛ رُوي ذلك عن ابن عباس وأبي هريرةَ أيضاً وعمر بنِ عبد العزيز والأوزاعيّ[(٢)]، وأبي حنيفةَ في إحدى الروايتين عنه، ورَوَى أسد بنُ عمرو أنه

(١) الموطأ ١/ ١٣، وأحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٨٩٨ .

(٢) تنظر أقوال الأئمة المذكورين في الأوسط ٢/ ٣٣٩ - ٣٤١ ، والتمهيد ٨/ ٩١ - ٩٢ ، وأحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٨٩٨ ، وزاد المسير ٩/ ٦٥ - ٦٦ . وسلف بعضها ١٩/ ١٢٢ .

رجع عنه[١]. ورُوي عن ابن عمرَ أيضًا أنه البياضُ، والاختيارُ الأولُ؛ لأنَّ أكثر الصحابةِ والتابعين والفقهاءِ عليه؛ ولأنَّ شواهدَ كلامِ العربِ والاشتقاق والسنة تشهدُ له. قال الفرَّاء[٢]: سمعتُ بعضَ العربِ يقول لثوبٍ عليه مصبوغٍ: كأنه الشَّفَقُ، وكان أحمرَ، فهذا شاهدٌ للحُمْرة، وقال الشاعر:

أحمر[٣] اللونِ كمُحْمَرِّ الشَّفَقْ

وقال آخر:

قُمْ يا غلامُ أَعِنِّي غيرَ مُرْتَبِكٍ ... على الزمانِ بِكأسٍ حَشْوُها شَفَقُ[٤]

ويقال للمَغْرة[٥]: الشَّفَق. وفي «الصحاح»: الشَّفقُ بقيةُ ضوءِ الشمسِ وحُمْرتِها في أوّل الليل إلى قريبٍ من العَتَمة. قال الخليل: الشَّفقُ: الحمرةُ، من غروبِ الشمس إلى وقتِ العشاء الآخرة، إذا ذهب قيل: غاب الشَّفَق[٦]. ثم قيل: أصلُ الكلمةِ من رِقَّةِ الشيءِ؛ يقال: شيءٌ شَفِقٌ، أي: لا تَماسُكَ له لرقَّته. وأَشْفَقَ عليه: أي: رقَّ قلبه عليه، والشَّفَقةُ: الاسمُ من الإشفاق، وهو رِقَّةُ القلب، وكذلك الشَّفَق؛ قال الشاعر:

تَهْوَى حَياتي وأَهْوَى موتَها شَفَقًا ... والموتُ أكرمُ نزَّالٍ على الحُرَمِ[٧]

فالشَّفَقُ: بقيةُ ضوءِ الشمسِ وحمرتِها، فكأنَّ تلك الرقَّةَ من ضوء الشمس. وزعم

---

(١) الكشاف ٤/ ٢٣٥. وأسد بن عمرو هو أبو المنذر - وقيل: أبو عمرو - القاضي القشيري البجلي الكوفي، سمع أبا حنيفة وتفقه عليه، توفي سنة (١٨٨هـ). الجواهر المضيَّة ١/ ٣٧٦.

(٢) في معاني القرآن ٣/ ٢٥١.

(٣) في (م): وأحمر، ولم نقف على البيت.

(٤) لم نقف عليه.

(٥) المَغْرة ويحرك: طين أحمر. القاموس (مغر).

(٦) الصحاح (شفق).

(٧) نسب لإسحاق بن خلف، كما في زهر الآداب ١/ ٤٨٥، والحماسة البصرية ١/ ٢٧٥، وفوات الوفيات ١/ ١٦٤، واللسان (شفق). قال صاحب اللسان: وقيل: هو لابن المعلى. ونسبه ابن المعتز في طبقات الشعراء ص٢٨١-٢٨٢ لمحمد بن يسير الرياشي. وهو دون نسبة في عيون الأخبار ٣/ ٩٤، والصحاح (شفق).

الحكماءُ أنَّ البياضَ لا يغيبُ أصلاً. وقال الخليل: صعدتُ مَنارةَ الإسكندريةِ فرمقتُ البياضَ، فرأيتُه يتردَّدُ من أفقٍ إلى أفقٍ ولم أرَه يغيبُ[(١)]. وقال ابن أبي أويس: رأيتُه يتمادَى إلى طلوعِ الفجرِ. قال علماؤنا[(٢)]: فلمَّا لم يتحدَّدْ وقتُه سَقَطَ اعتبارُه.

وفي «سُنَن» أبي داودَ عن النعمان بن بَشير قال: أنا أَعْلَمُكم بوقتِ صلاةِ العشاءِ الآخِرة؛ كان النبيُّ ﷺ يصلِّيها لسقوطِ القمرِ لثالثةٍ[(٣)]. وهذا تحديدٌ، ثم الحكمُ معلَّقٌ بأولِ الاسم. لا يقال: فينقَضُ عليكم بالفجر الأوّل، فإنَّا نقولُ: الفجرُ الأوّل لا يتعلَّقُ به حكمٌ من صلاةٍ ولا إمساكٍ؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ بيَّن الفجرَ بقوله وفِعْلِه فقال: «وليس الفجرُ أن تقول هكذا ـ ورَفَعَ يدَه إلى فوق ـ ولكنَّ الفجرَ أن تقول هكذا». وبَسَطها، وقد مضى بيانُه في آيةِ الصيامِ من سورة البقرة[(٤)]، فلا معنى للإعادة.

وقال مجاهد: الشفقُ: النهارُ كلُّه، ألا تراه قال: ﴿وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ﴾[(٥)]. وقال عِكرمةُ: ما بقي من النهار[(٦)].

والشفقُ أيضاً: الرديءُ من الأشياء؛ يقال: عطاءٌ مُشَفَّقٌ، أي: مقلَّل؛ قال الكُميت:

مَلِكٌ أغَرُّ مِن الملوك تَحلَّبتْ للسائلين يداه غير مُشفَّقِ[(٧)]

---

(١) ذكره الجصاص في أحكام القرآن ٢/ ٢٧٨ ، وقال: وقد راعيته في البوادي في ليالي الصيف، والجوُّ نقي، والسماء مصحيةٌ، فإذا هو يغيب قبل أن يمضي من الليل ربعه بالتقريب، ومن أراد أن يعرف ذلك فليجرب حتى يتبين له غلط هذا القول.

(٢) هو ابن العربي في أحكام القرآن ٤/ ١٨٩٩ .

(٣) سنن أبي داود (٤١٩)، وهو عند أحمد (١٨٤١٥)، والترمذي (١٦٥)، والنسائي في المجتبى ١/ ٢٦٤ . قوله: «لسقوط القمر» أي: وقت غروبه أو سقوطه إلى الغروب «لثالثة» أي: في ليلة ثالثة من الشهر. تحفة الأحوذي ١/ ٥٠٧ .

(٤) ٣/ ١٩٣ .

(٥) أحكام القرآن للكيا الطبري ٣/ ٤٢٨ ، وأخرجه الطبري ٢٤/ ٢٤٤ دون قوله: ألا تراه...

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٤٦٤ .

(٧) ديوان الكميت ص ٢٤٨ ، والصحاح (شفق) والكلام منه.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ﴾ أي: جَمعَ وضمَّ ولفَّ، وأصلُه من سَواد[١] السلطانِ وغَضَبِه؛ فلولا أنه خرج إلى العباد من بابِ الرحمةِ ما تَمالك العبادُ لمجيئه، ولكن خرج من باب الرحمة فمزج بها، فسَكَنَ الخَلْقُ إليه، ثم ابْذَعَرُّوا[٢] والْتفُّوا وانْقَبَضوا، ورجع كلٌّ إلى مأواه فسَكَن فيه مِن هَوْلِه وحشاً، وهو قولُه تعالى: ﴿وَمِن رَّحۡمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ﴾ أي: بالليل ﴿وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ [القصص: ٧٣] أي: بالنهار، على ما تقدَّم. فالليلُ يَجْمعُ ويضمُّ ما كان منتشراً بالنهار في تَصَرُّفه. هذا معنى قولِ ابنِ عباسٍ ومجاهدٍ ومقاتلٍ وغيرهم[٣]؛ قال ضابئ بنُ الحارث البُرْجُميُّ:

فإنِّي وإيَّاكُمْ وشوقًا إليكُمُ كقابِضِ ماءٍ لم تَسِقْهُ أَنامِلُهْ[٤]

يقول: ليس في يدي من ذلك شيءٌ، كما أنه ليس في يدِ القابضِ على الماء شيءٌ. فإذا جلَّل الليلُ الجبالَ والأشجارَ والبحارَ والأرضَ فاجتمعت له، فقد وَسَقَها[٥]. والوَسْقُ: ضَمُّكَ الشيءَ بعضَه إلى بعضٍ، تقول: وَسَقْتُه أَسِقُه وَسْقًا. ومنه قيل للطعام الكثيرِ المجتمِع: وَسْقٌ، وهو ستُّونَ صاعاً. وطعامٌ مُوْسَق، أي: مجموع. وإبلٌ مُسْتَوْسِقةٌ، أي: مُجتمِعةٌ؛ قال الراجز:

إنَّ لنا قَلائِصاً حَقائِقا مُسْتَوْسقاتٍ لو يَجِدْنَ سائِقا[٦]

---

(١) في (م): سورة.

(٢) أي: نفَرُوا وجفلوا. تاج العروس (بذعر).

(٣) تفسير الطبري ٢٤/ ٢٤٥ - ٢٤٧ .

(٤) الصحاح (وسق)، والمستقصى ٢/ ٢٠٩ ، والخزانة ٩/ ٣٢٣ .

(٥) الصحاح (وسق).

(٦) نسبهما صاحب اللسان (وسق) للعجاج، وليسا في ديوانه، وهما بلا نسبة في الكامل ٣/ ١١٤٥ ، والفاضل للمبرِّد ص١٠ ، والثاني في مجاز القرآن ص ٢٩١ ، وتفسير الطبري ٢٤/ ٢٤٥ . القلائص جمع قَلُوص، وهي الناقة الشابة. والحقائق جمع حِقَّة، وهي من الإبل ما دخل في السنة الرابعة إلى آخرها، سمي بذلك لأنه استحق الركوب والتحميل. النهاية (قلص) و(حقق).

وقال عِكرمةُ: «وما وَسَق» أي: وما ساق من شيءٍ إلى حيث يَأوي[١]، فالوَسْقُ بمعنى الطَّرْد، ومنه قيل للطريدة من الإبل والغنم والحمر: وسِيقة، قال الشاعر:

كما قافَ آثارَ الوسِيقةِ قائِفُ[٢]

وعن ابن عباس: «وما وَسَق»، أي: وما جَنَّ وسَتر[٣]. وعنه أيضاً: وما حَمَل. وكلُّ شيءٍ حَملْتَه فقد وَسَقْتَه، والعربُ تقول: لا أفعلُه ما وَسَقَتْ عيني الماءَ، أي: حَمَلَتْه. ووسَقَتِ الناقةُ تَسِقُ وَسْقًا، أي: حَمَلَتْ وأَغْلَقَتْ رَحِمَها على الماء، فهي ناقةٌ واسِقٌ، ونُوْقٌ وِسَاقٌ، مثل: نائِم ونيام، وصاحِب وصِحاب، قال بشر بن أبي خازم:

أَلَظَّ بِهِنَّ يَحْدوهُنَّ حتى تَبَيَّنَتِ الحِيالُ مِن الوِساقِ[٤]

ومَواسيقُ[٥] أيضًا. وأَوْسَقْتُ البعيرَ: حَمَّلْته حِمْلَه. وأوسَقَتِ النخلةُ: كَثُر حملُها[٦].

وقال يمان والضحاك ومقاتل بن سليمان: حَمَلَ من الظُّلْمةِ. قال مقاتل: أو حَمَلَ من الكواكب. القشيريُّ: ومعنى حَمَل: ضَمَّ وجمع، والليلُ يجلِّلُ بظُلْمتِه كلَّ شيءٍ،

---

(١) أخرجه الطبري ٢٤/٢٤٨ .

(٢) وصدره: كذبتُ عليك لا تزال تقوفني. والبيت للأسود بن يعفر، كما في شرح أبيات إصلاح المنطق ص ٥٠٥ ، ونسب للقطامي كما في اللسان (قوف). وهو بلا نسبة في إصلاح المنطق ص ٣٢٤ ، والصحاح (وسق)، واللسان (كذب) وفيه: معنى كذب عليكم معنى الاغراء، أي: عليكم به. فقوله كذبت عليك، إنما أغراه بنفسه، أي: عليك بي. قال السيرافي: يهجو بذلك تولباً أحد بني معاوية بن مالك، وقافه يقوفه: إذا اتَّبعه. يقول: عليك بي فاتبعني كما تُتَّبعُ آثار الطريدة إذا أُخذت، فإنك لا تضيرني بذلك. اهـ. والطريدة: ما سرق من الإبل. القاموس (طرد).

(٣) النكت والعيون ٦/٢٣٧ .

(٤) الصحاح (وسق) و(لظظ)، والبيت في ديوان بشر ص ١٧٨ برواية: تبيَّن حُوْلهن من الوساق. والحيال والحُوْل جمع حائل، وهي الناقة التي حُمل عليها فلم تلقح. القاموس (حول). وقوله: ألظ، أي: ألحَّ، وفي الصحاح (لظظ): الإلظاظ: الإلحاح.

(٥) في (ي) و(ظ): ومواسق، وكلاهما صواب، يقال: نوق مواسيق ومواسق، وهو جمع على غير قياس. الصحاح (وسق).

(٦) الصحاح (وسق).

فإذا جلَّلها فقد وَسَقَها، ويكونُ هذا القَسَمُ قسماً بجميع المخلوقات؛ لاشتمالِ الليلِ عليها، كقوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ . وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الحاقة: ٣٨-٣٩].

وقال ابن جُبير: «وما وَسَق» أي: وما عُمِلَ فيه[١]. يعني التهجُّدَ والاستغفارَ بالأسحار، قال الشاعر:

ويومًا ترانا صالحين وتارةً تقومُ بِنا كالواسِقِ المتلَبِّبِ

أي: كالعامل[٢].

قوله تعالى: ﴿وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ﴾ أي: تمَّ واجْتَمَعَ واسْتَوَى. قال الحسن: اتَّسق، أي: امْتَلأ واجْتَمَع. ابن عباس: اسْتَوَى. قتادةُ: استدار[٣]. الفرَّاءُ: اتِّساقُه: امتلاؤه واستواؤه لياليَ البدر، وهو افتعالٌ من الوَسْقِ الذي هو الجمع[٤]، يقال: وَسَقْتُه فاتَّسَقَ، كما يقال: وَصَلْتُه فاتَّصَلَ، ويقال: أمرُ فلانٍ مُتَّسِقٌ، أي: مُجتمِعٌ على الصلاح مُنْتظِمٌ. ويقال: اتَّسقَ الشيءُ: إذا تتابع.

﴿لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ قرأ عمرُ وابنُ مسعودٍ وابنُ عباسٍ وأبو العاليةِ ومسروقٌ وأبو وائلٍ ومجاهدٌ والنخَعيُّ والشعبيُّ وابنُ كثيرٍ وحمزةُ والكسائيُّ: «لَتَرْكَبَنَّ» بفتح الباء[٥]، خطاباً للنبيِّ ﷺ، أي: لتركَبَنَّ يا محمدُ حالاً بَعْدَ حالٍ؛ قاله ابن عباس[٦]. الشعبيُّ: لتركَبَنَّ يا محمدُ سماءً بعد سماءٍ، ودرجةً بعد درجةٍ، ورُتبةً بعد رتبةٍ، في

---

(١) النكت والعيون ٦/ ٢٣٧، وأخرجه عبد بن حميد، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٣٠.

(٢) النكت والعيون ٦/ ٢٣٧، وذكر البيت أيضاً صاحب اللسان (وسق).

(٣) أخرج أقوالهم الطبري ٢٤/ ٢٤٩ - ٢٥٠، وقول قتادة أخرجه أيضاً عبد الرزاق ٢/ ٣٥٨.

(٤) الوسيط ٤/ ٤٥٥، وقول الفراء في معاني القرآن ٣/ ٢٥١: اتساقه: امتلاؤه ثلاث عشرة إلى ست عشرة.

(٥) السبعة ص ٦٧٧، والتيسير ص ٢٢١ عن ابن كثير وحمزة والكسائي. وذكرها عن عمر وابن مسعود وابن عباس الطبري ٢٤/ ٢٥٠.

(٦) أخرجه البخاري (٤٩٤٠)، والطبري ٢٤/ ٢٥١.

القربةِ من الله تعالى[(١)].

ابن مسعود: لَتَرْكَبَنَّ السماءُ حالاً بعد حالٍ، يعني حالاتها التي وَصَفَها الله تعالى بها؛ من الانشِقاق والطَّيِّ، وكونها مرةً كالمُهلِ ومرةً كالدِّهانِ[(٢)]. وعن إبراهيم عن عبد الله: «طبقاً عن طبقٍ» قال: السماءُ تقلَّبُ حالاً بعد حال. قال: تكونُ وردةً كالدِّهانِ، وتكونُ كالمهل[(٣)].

وقيل: أي: لتركَبَنَّ أيها الإنسانُ حالاً بعدَ حالٍ، من كَوْنِكَ نطفةً ثم عَلَقةً ثم مضغةً، ثم حيًّا وميتاً وغنيًّا وفقيرًا. فالخطابُ للإنسان المذكورِ في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ﴾ وهو اسمٌ للجنس، ومعناه الناس.

وقرأ الباقون: «لتركَبُنَّ» بضمِّ الباءِ، خطاباً للناس، واختاره أبو عُبيد وأبو حاتم، قال: لأنَّ المعنى بالناسِ أشبهُ منه بالنبيِّ ﷺ، لما ذكر قبل هذه الآية: فَمَن أُوتي كتابه بيمينه ومَن أُوتي كتابه بشماله. أي: لتركُبنَّ حالاً بعد حالٍ من شدائد القيامة. أو لتركَبُنَّ سُنَّةَ مَن كان قَبْلَكم في التكذيب والاختلافِ[(٤)] على الأنبياء.

قلت: وكلُّه مُرادٌ، وقد جاءتْ بذلك أحاديثُ، فروى أبو نعيم الحافظُ عن أبي جعفر محمد بنِ علي[(٥)] عن جابرٍ ﷺ، قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إنَّ ابن آدمَ لفي غَفْلةٍ ممَّا[(٦)] خَلَقَه الله عزَّ وجلَّ له؛ إنَّ الله لا إله غيرُه إذا أراد خَلْقَه قال للمَلكِ: اكتُبْ رزقَه وأَثَره وأجَلَه، واكتب شقيًّا أو سعيداً، ثم يرتفعُ ذلك الملكُ، ويبعث الله

---

(١) أخرجه الطبري ٢٤/ ٢٥٤ ، وقوله: ودرجة بعد درجة...، ليس منه، وإنما ذُكر في شرحه، كما في الوسيط ٤/ ٤٥٥ ، وتفسير البغوي ٤/ ٤٦٥ .

(٢) أخرجه الطبري ٢٤/ ٢٥٤ - ٢٥٥ .

(٣) أخرجه من طريق إبراهيم عن عبد الله بن مسعود الطبري ٢٤/ ٢٥٥ - ٢٥٦ ، وهو والذي قبله في المعنى سواء.

(٤) في (م): واختلاق.

(٥) في النسخ: عن جعفر بن محمد بن علي، والمثبت هو الصواب.

(٦) في (م): عما.

مَلَكاً آخَرَ فيحفظُه حتى يُدْرِكَ، ثم يبعثُ الله مَلَكين يكتبان حسناتِه وسيئاته، فإذا جاءه الموتُ ارتفع ذانِكَ الملكان، ثم جاءه ملكُ الموتِ عليه السلامُ فيقبضُ روحَه، فإذا أُدْخِل حُفْرتَه رُدَّ الروحُ في جسده، ثم يرتفعُ مَلكُ الموتِ، ثم جاءه مَلَكا القبرِ فامتَحَنَاه، ثم يرتفعان، فإذا قامت الساعةُ انحطَّ عليه مَلَكُ الحسناتِ ومَلَكُ السيئاتِ، فأَنْشَطا كتاباً معقوداً في عنقه، ثم حضرا معه، واحدٌ سائقٌ والآخَرُ شهيدٌ، ثم قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ * فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢] قال رسول الله ﷺ: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ قال: «حالاً بعدَ حالٍ» ثم قال النبيُّ ﷺ: «إنَّ قُدَّامَكُمْ أمراً عظيماً فاستعينوا بالله العظيم»[١] فقد اشتمل الحديثُ على أحوالٍ تعتري الإنسانَ، من حين يُخْلقُ إلى حين يُبعثُ، وكلُّه شدَّةٌ بعد شدَّةٍ، حياةٌ ثم موتٌ، ثم بعثٌ ثم جزاءٌ، وفي كلِّ حالٍ من هذه شدائدُ.

وقال ﷺ: «لتَرْكَبُنَّ سَنَن مَن قَبْلَكم، شبراً بشبرٍ، وذراعاً بذراعٍ، حتى لو دَخَلوا جُحرَ ضَبٍّ لدخَلْتُموه» قالوا: يا رسولَ الله: اليهود والنصارى؟ قال: «فَمَنْ؟» خرَّجه البخاريُّ[٢].

وأمَّا أقوال المفسِّرين، فقال عكرمةُ: حالاً بعد حالٍ، فطيماً بعد رضيعٍ، وشيخاً بعد شَابٍّ[٣]، قال الشاعر:

كَذلِكَ المرءُ إن يُنْسَأْ له أَجَلٌ   يَرْكَبْ على طَبقٍ مِن بَعْدِه طَبَقُ[٤]

---

(١) الحلية ٣/ ١٩٠، وسلف ١٩/ ٤٤٥. قال ابن كثير: هذا حديث منكر، وإسناده فيه ضعفاء، ولكن معناه صحيح.

(٢) في صحيحه (٣٤٥٦)، وهو عند أحمد (١١٨٠٠)، ومسلم (٢٦٦٩) وهو من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ، ووقع في هذه المصادر: لتتبعن، بدل: لتركبن. وأخرج أحمد (١٨٨٩٧) من حديث أبي واقد الليثي ﷺ: «لتركبن سنن مَن كان قبلكم سُنَّةً سُنَّةً».

(٣) في (د) و(م) و(ي): شباب، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق لما في النكت والعيون ٦/ ٢٣٨ والكلام منه.

(٤) البيت لكعب بن زهير، وهو في ديوانه ص ٦٨، وغريب الحديث لابن قتيبة ١/ ١٢٩، وهو فيهما برواية: يُرْكَب به طبق...، قال ابن قتيبة: أي ينقل من حال الشباب إلى حال الهرم.

وعن مكحول: كلَّ عشرين عاماً تجدون أمراً لم تكونوا عليه[١].

وقال الحسن: أمراً بعد أمرٍ، رَخاءً بعد شدَّةٍ، وشدَّةً بعد رَخاءٍ، وغنًى بعد فَقْرٍ، وفقرًا بعد غِنًى، وصحةً بعد سُقْمٍ، وسقماً بعد صحةٍ.

سعيد بن جبير: منزلةً بعد منزلةٍ، قومٌ كانوا في الدنيا متَّضِعينَ فارتفعوا في الآخرة، وقومٌ كانوا في الدنيا مُرْتَفعين فاتَّضَعوا في الآخرة[٢].

وقيل: منزلةً عن منزلةٍ، وطَبَقاً عن طَبَقٍ، وذلك أنَّ مَن كان على صلاحٍ دعاه إلى صلاحٍ فوقَه، ومَن كان على فسادٍ دعاه إلى فسادٍ فوقه، لأنَّ كلَّ شيء يجري إلى شَكْلِه.

ابن زيد: ولتصيرُنَّ من طَبَق الدنيا إلى طَبَق الآخرة[٣].

وقال ابن عباس: الشدائد والأهوال: الموتُ، ثم البعث، ثم العَرْض[٤]. والعربُ تقولُ لمن وقع في أمرٍ شديدٍ: وَقَع في بَنَاتِ طَبَقٍ، وإحدى بناتِ طَبَقٍ، ومنه قيل للدَّاهية الشَّديدة: أمُّ طَبَقٍ، وإحدى بناتِ طَبَقٍ، وأصلُها من الحيَّات؛ إذ يُقال للحية: أمُّ طَبَق لتَحَوِّيها[٥]. والطَّبَقُ في اللغة: الحالُ، كما وصفنا؛ قال الأقرعُ بنُ حابس التميميُّ:

إنِّي امرؤٌ قد حَلَبْتُ الدَّهْرَ أَشْطُرَه ... وساقني طَبَقٌ منه إلى طَبَقِ[٦]

وهذا أَدَلُّ دليلٍ على حدوث العالَم، وإثباتِ الصانع؛ قالت الحكماء: مَن كان

---

(١) الكشاف ٤/ ٢٣٦، وأخرجه ابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير والدر المنثور ٦/ ٣٣١، وفيهما: تُحدثون، بدل: تجدون.

(٢) ذكر قول الحسن وقول سعيد بن جبير الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٢٣٨.

(٣) أخرجه بنحوه الطبري ٢٤/ ٢٥٤.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٤٦٥.

(٥) تحوَّى: تجمَّع واستدار. المعجم الوسيط (حوى).

(٦) زاد المسير ٩/ ٦٧. ويقال: حَلَب فلانٌ الدهرَ أَشْطُرَه، أي: خبر ضروبه، أي: مرَّ به خير وشر. تهذيب اللغة ١١/ ٣٠٧.

اليومَ على حالةٍ، وغداً على حالةٍ أُخرى، فلْيَعلَم أنَّ تدبيره إلى سواه. وقيل لأبي بكرٍ الورَّاقِ: ما الدليلُ على أنَّ لهذا العالَم صانعاً؟ فقال: تحويلُ الحالاتِ، وعجزُ القوَّةِ، وضَعْفُ الأركان، وقَهْرُ المنيةِ، ونَسْخُ العزيمة.

ويقال: أتانا طَبَقٌ من الناس وطَبَقٌ من الجراد، أي: جماعة[١]: وقولُ العباسِ في مَدْحِ النبيِّ ﷺ:

تُنْقَلُ مِن صالبٍ إلى رَحِمٍ إذا مضَى عالَمٌ بدا طَبَقُ[٢]

أي: قَرْنٌ من الناس يكونُ طِبَاقَ الأرض: أي: مِلْأها.

والطَّبق أيضاً: عَظْمٌ رقيق يَفْصِلُ بين الفَقَارين. ويقال: مضَى طَبقٌ من اللَّيل، وطَبَقٌ من النهار، أي: مُعْظَمٌ منه. والطَّبَقُ: واحدُ الأطباق[٣]، فهو مُشْتركٌ.

وقُرِئ: «لَتَرْكَبِنَّ» بكَسْرِ الباء، على خطابِ النَّفْسِ، و«لَيَرْكَبَن» بالياءِ على: لَيَرْكَبَنَّ الإنسان[٤].

و«عن طبقٍ» في محلِّ نصبٍ على أنَّه صفةٌ لـ «طبقًا»، أي: طبقاً مُجاوزاً لطبقٍ. أو حالٌ من الضمير في «لتَركَبُنَّ» أي: لتركبُنَّ طبقاً مُجاوِزينَ لطبَقٍ، أو مُجاوِزاً، أو مُجاوِزَةً، على حَسَبِ القراءة[٥].

قوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ يعني: أيُّ شيءٍ يمنعُهم من الإيمان بعد ما وَضَحَتْ لهم الآياتُ، وقامتِ الدلالاتُ. وهذا استفهامُ إنكارٍ. وقيل: تعجيب، أي: اعْجَبوا منهم في تَرْكِ الإيمانِ مع هذه الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ﴾ أي: لا يُصَلُّون. وفي الصحيح: أنَّ

---

(١) الصحاح (طبق).

(٢) المعاني الكبير ٢/ ٥٥٧، واللسان (صلب)، وسلف ١٤/ ٨٧. قال صاحب اللسان: أراد بالصالب: الصُّلْب، وهو قليل الاستعمال. وقال ابن قتيبة: العالَم: القرن من الناس، وكذلك الطبق من الناس.

(٣) الصحاح (طبق).

(٤) الكشاف ٤/ ٢٣٦، وذكر الثانية ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ١٧٠ عن عمر ﷺ.

(٥) الكشاف ٤/ ٢٣٦.

أبا هريرة قرأ: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ فسَجَدَ فيها، فلمَّا انْصَرَفَ أَخْبَرَهم أنَّ رسول الله ﷺ سَجَدَ فيها[١]. وقد قال مالكٌ: إنَّها ليستْ من عزائم السُّجود[٢]؛ لأنَّ المعنى: لا يُذْعِنون ولا يطيعون في العمل بواجباته. ابنُ العربيّ[٣]: والصحيحُ أنَّها منه، وهي روايةُ المَدَنيين عنه، وقد اعْتَضَد فيها القرآنُ والسنَّةُ.

قال ابنُ العربيّ: لمَّا أَمَمْتُ بالناسِ تَرَكْتُ قراءتها؛ لأنِّي إنْ سجدتُ أنْكَروه، وإنْ تركتُها كان تقصيراً منِّي، فاجتنبتُها إلَّا إذا صلَّيتُ وحدي. وهذا تحقيقُ وَعْدِ الصَّادقِ بأنْ يكونَ المعروفُ مُنْكَراً، والمنكَرُ معروفاً؛ وقد قال ﷺ لعائشةَ: «لولا حِدْثانُ قومِكِ بالكفرِ لهَدَمْتُ البيتَ، ولَرَدَدْتُه على قواعِدِ إبراهيمَ»[٤]. ولقد كان شيخُنا أبو بكرٍ الفِهْريُّ يرفعُ يديه عند الركوعِ، وعند الرفعِ منه، وهو مذهبُ مالكٍ والشافعيِّ، ويفعلُه الشِّيعةُ، فحضر عندي يوماً في مَحْرَسِ ابنِ الشَّواء بالثغر ـ مَوْضع تَدْريسي ـ عند صلاةِ الظُّهْرِ، ودخل المسجدَ من المَحْرسِ المذكورِ، فتقدَّم إلى الصفِّ [الأولِ] وأنا في مؤخَّرِه قاعدٌ[٥] على طاقاتِ البحر، أتنسَّمُ الريح من شدَّة الحرِّ، ومعي في صفٍّ واحدٍ أبو ثمنةَ رئيسُ البحرِ وقائدُه، مع نَفَرٍ من أصحابه يَنتظِرُ الصلاة، ويتطلَّع على مراكب تَحت المنار[٦]، فلمَّا رفع الشيخُ يديه في الركوعِ وفي رَفْعِ الرأس منه، قال أبو ثمنةَ وأصحابُه: أَلَا تَرَوْنَ إلى هذا المَشْرِقيِّ كيف دخل مَسْجِدَنا؟ فقوموا إليه فاقتلوه وارْمُوا به إلى البحر، فلا يراكم أحدٌ. فطار قلبي من بين جَوَانحي وقلتُ: سبحان الله! هذا الطُّرْطُوشيُّ فقيهُ الوقتِ. فقالوا لي: ولِمَ يَرفعُ يديه؟ فقلت: كذلك كان النبيُّ ﷺ يفعلُ،

---

(١) صحيح البخاري (٧٦٦)، وصحيح مسلم (٥٧٨)، واللفظ له، وسلف ٩/ ٤٤٠.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٨٩٩.

(٣) في أحكام القرآن ٤/ ١٨٩٩ - ١٩٠٠، وما سيأتي بين حاصرتين منه.

(٤) أخرجه أحمد (٢٤٢٩٧)، والبخاري (١٥٨٥)، ومسلم (١٣٣٣)، وسلف ٢/ ٣٩٢.

(٥) في النسخ: قاعداً، والمثبت من أحكام القرآن.

(٦) في (م) ومطبوع أحكام القرآن: الميناء، والمثبت من النسخ الخطية، وهو أيضاً نسخة في أحكام القرآن ذكرت في الحاشية.

وهذا مذهبُ مالكٍ في روايةِ أهلِ المدينة عنه. وجعلتُ أُسَكِّتُهم وأُسْكِتُهم حتى فرغ من صلاته، وقمتُ معه إلى المَسكَنِ من المحرس، ورأى تغيُّرَ وجهي، فأنْكَره، وسألني فَأعْلَمْتُه، فضحك وقال: ومِن أين لي أنْ أُقتلَ على سنَّةٍ؟ فقلتُ له: ولا يَحِلُّ لك هذا، فإنَّك بين قومٍ إنْ قُمْتَ بها قاموا عليك، وربَّما ذهبَ دمُكَ. فقال: دَعْ هذا الكلامَ، وخُذْ في غيره.

قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍۭ ﴿٢٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُكَذِّبُونَ﴾ محمداً ﷺ وما جاء به. وقال مقاتلٌ: نزلتْ في بني عمرو بنِ عُمَير وكانوا أربعةً، فأسْلَم اثنان منهم. وقيل: هي في جميع الكفار.

﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾ أي: بما يُضمِرونه في أنفسهم من التكذيب. كذا رَوى الضحاكُ عن ابنِ عباسٍ[١]. وقال مجاهدٌ: يكتُمون من أفعالهم[٢]. ابنُ زيدٍ: يَجْمعون من الأعمال الصالحةِ والسيئةِ؛ مأخوذٌ من الوِعاء الذي يَجْمع ما فيه؛ يقال: أَوْعَيْتُ الزادَ والمتاعَ: إذا جَعَلْته في الوِعاء؛ قال الشاعر:

الخيرُ أَبْقَى وإن طالَ الزمانُ بِه ... والشرُّ أخْبَثُ ما أوْعَيتَ مِن زادِ[٣]

وَوَعَاه، أي: حَفِظَه؛ تقول: وَعَيْتُ الحديثَ أَعِيْهِ وَعْيًا، وأُذُنٌ واعِيةٌ. وقد تقدَّم[٤].

﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي: مُوْجِعٍ في جهنَّمَ على تكذيبهم. أي: اجْعَلْ ذلك بمنزلةِ البِشَارةِ. ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ استثناءٌ منقطعٌ، كأنه قال: لكنِ الذين صَدَّقوا بشهادةِ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وأنَّ محمداً رسولُ الله، وعَمِلوا الصالحات،

---

(١) ذكره الواحدي في الوسيط ٤/ ٤٥٦، وأخرجه ابن أبي حاتم وابن المنذر بلفظ: يُسِرُّون. الدر المنثور ٦/ ٣٣١.

(٢) النكت والعيون ٦/ ٢٣٩، وأخرجه الطبري ٢٤/ ٢٥٧ - ٢٥٨.

(٣) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٣٦٨.

(٤) ٢١/ ١٩٧ - ١٩٨.

أي: أدّوا الفرائضَ المفروضةَ عليهم ﴿لَهُمْ أَجْرٌ﴾ أي: ثوابٌ ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أي: غيرُ مَنقوصٍ ولا مَقْطوعٍ؛ يقال: مَنَنْتُ الحبلَ: إذا قطعته. وقد تقدَّم[١].

وسأل نافع بنُ الأزرقِ ابنَ عباس عن قوله: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ فقال: غيرُ مقطوعٍ. فقال: هل تَعْرِفُ ذلك العربُ؟ قال: نعم قد عَرَفَه أخو يشكرَ حيث يقول:

فترى خَلْفَهُنَّ مِن سُرْعةِ الرَّجْـ ـعِ مَنِيناً كأنَّه أهْبَاءُ[٢]

قال المبرِّدُ: المَنينُ: الغبارُ؛ لأنها تقطّعُه وراءها[٣]. وكلُّ ضعيفٍ مَنينٌ وممنونٌ.

وقيل: «غيرُ ممنونٍ»: لا يُمنُّ عليهم به.

وذكر ناسٌ من أهلِ العلم أنَّ قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ ليس استثناءً، وإنما هو بمعنى الواو، كأنَّه قال: والذين آمنوا. وقد مضى في «البقرة» القولُ فيه[٤]، والحمدُ لله. تمت سورة الانشقاق.

---

(١) عند تفسير الآية (٨) من سورة فصلت.

(٢) ذكر هذا الخبر المبرد في الكامل ٣/ ١١٥١، والبيت من معلقة الحارث بن حِلِّزةَ اليشكري، كما في شرح المعلقات للنحاس ٢/ ٥٧، وسلف ١٥/ ٣٩٦.

(٣) في الكامل: تقطعه قطعاً وراءها.

(٤) ٢/ ٤٥٥.

سورة البروج

مكية باتفاق. وهي ثنتان وعشرون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ۝١﴾

قَسَمٌ أَقْسَمَ الله به جلَّ وعزَّ. وفي «البروج» أقوالٌ أربعةٌ:

أحدُها: ذات النجوم؛ قاله الحسنُ وقتادةُ ومجاهدٌ والضحَّاك[1].

الثاني: القُصُور؛ قاله ابن عباس[2] وعِكرمةُ ومجاهدٌ أيضاً. قال عِكرمةُ: هي قُصورٌ في السماء. مجاهدٌ: البُروج فيها الحرس.

الثالث: ذات الخَلْقِ الحَسَنِ؛ قاله المِنهالُ بنُ عمرو[3].

الرابع: ذات المنازِلِ؛ قاله أبو عبيدةَ ويحيى بنُ سلام. وهي اثْنَا عَشَرَ بُرْجاً، وهي منازِلُ الكواكبِ والشمسِ والقمرِ. يسيرُ القمرُ في كلِّ بُرْجٍ منها يومين وثُلُثِ يومٍ؛ فذلك ثمانيةٌ وعشرون يوماً، ثم يَسْتَتِرُ ليلتين. وتَسيرُ الشمسُ في كلِّ بُرْجٍ منها شهراً[4]. وهي: الحَمَلُ، والثَّورُ، والجَوزاءُ، والسَّرَطانُ، والأسدُ، والسُّنْبلةُ، والمِيزانُ، والعَقْرَبُ، والقَوسُ، والجَدْي، والدَّلْوُ، والحُوتُ.

والبروجُ في كلامِ العرب: القصور؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨] وقد تقدّم[5].

---

(١) النكت والعيون ٦/ ٢٤٠، وأخرجه عن قتادة عبد الرزاق ٢/ ٣٦١، والطبري ٢٤/ ٢٦١، وعن مجاهد الطبري ٢٤/ ٢٦١.

(٢) أخرجه الطبري ٢٤/ ٢٦٠، وذكره الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٢٤٠.

(٣) النكت والعيون ٦/ ٢٤٠.

(٤) مجاز القرآن ٢/ ٢٩٣، وذكر القول عن يحيى بن سلام الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٢٤٠.

(٥) ٦/ ٤٦٥، وينظر في الكلام عن البروج وعن منازل الشمس والقمر ١٢/ ١٨٦ و١٧/ ٤٤٩.

قوله تعالى: ﴿وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡمَوۡعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٖ وَمَشۡهُودٖ ۝٣﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡمَوۡعُودِ﴾ أي: الموعود به. وهو قَسَمٌ آخَرُ، وهو يومُ القيامةِ، من غيرِ اختلافٍ بين أهل التأويل. قال ابن عباس: وُعِدَ أهلُ السماءِ وأهلُ الأرضِ أنْ يجتمعوا فيه.

﴿وَشَاهِدٖ وَمَشۡهُودٖ﴾ اختُلِفَ فيهما؛ فقال عليٌّ وابنُ عباسٍ وابنُ عمرَ وأبو هريرة ﷺ: الشاهدُ يومُ الجمعةِ، والمشهودُ يومُ عرفةَ. وهو قولُ الحسن[١]. ورواه أبو هُريرةَ مرفوعاً قال: قال رسول الله ﷺ: «اليومُ الموعودُ يومُ القيامةِ، واليومُ المشهودُ يومُ عَرَفةَ، والشاهدُ يومُ الجمعةِ...» خرَّجه أبو عيسى الترمذيُّ في جامِعِه، وقال: هذا حديثٌ غريبٌ، لا نَعْرِفُهُ إلَّا مِن حديثِ موسى بنِ عُبيدةَ، وموسى بنُ عبيدةَ يُضَعَّفُ في الحديث، ضَعَّفه يحيى بنُ سعيدٍ وغيرُه. وقد رَوَى شُعبةُ وسفيانُ الثوريُّ وغيرُ واحدٍ من الأئمة عنه[٢]. قال القشيريُّ: فيومُ الجمعةِ يَشْهدُ على كلِّ عاملٍ بما عَمِلَ فيه.

قلت: وكذلك سائرُ الأيامِ واللَّيالي؛ فكلُّ يومٍ شاهدٌ، وكذا كلُّ ليلةٍ؛ ودليلُه ما رواه أبو نعيمٍ الحافظُ عن معاويةَ بنِ قُرَّةَ، عن مَعْقِل بنِ يسارٍ، عن النبيِّ ﷺ قال: «ليس مِن يومٍ يأتي على العبدِ إلَّا يُنادَى فيه: يا ابنَ آدمَ، أنا خَلْقٌ جديدٌ، وأنا فيما تَعْمَلُ عليك [غداً] شهيدٌ، فاعْمَلْ فيَّ خيراً أَشْهَدْ لك به غداً، فإنِّي لو قد مَضَيْتُ لم تَرَنِي أبداً، ويقولُ الليلُ مثلَ ذلك». حديثٌ غريبٌ من حديثِ معاويةَ، تفرَّد به عنه زيدٌ العَمِّيُّ، ولا أَعْلَمُه مرفوعاً عن النبيِّ ﷺ إلَّا بهذا الإسناد[٣].

---

(١) أخرج قولهم الطبري ٢٤/ ٢٦٤-٢٦٥ عدا ابن عمر رضي الله عنهما. وفي الوسيط ٤/ ٤٥٨ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٦٠ ، وتفسير البغوي ٤/ ٤٦٦-٤٦٧ ، وزاد المسير ٩/ ٧١ عن ابن عمر أن الشاهد يوم الجمعة، والمشهود يوم النحر. وقول أبي هريرة أخرجه أيضاً أحمد (٧٩٧٣).

(٢) سنن الترمذي (٣٣٣٩)، ووقع في مطبوعه: حسن غريب. وفي تحفة الأحوذي ٩/ ٢٥٨ : هذا حديث لا نعرفه إلا من حديث موسى...، ونحوه في تحفة الأشراف ١٠/ ١٣٤ . قال ابن كثير عند تفسير هذه الآية: وقد روي موقوفاً على أبي هريرة، وهو أشبه. اهـ. وقد سلف الموقوف آنفاً.

(٣) الحلية ٢/ ٣٠٣-٣٠٤ ، وما سلف بين حاصرتين منه.

وحكى القُشَيريُّ عن ابنِ عمرَ وابنِ الزُّبير: أنَّ الشاهدَ يومُ الأضحى[(١)].

وقال سعيد بن المسيب: الشاهدُ: يومُ التَّرْوِيةِ، والمشهودُ: يومُ عَرَفةَ[(٢)].

وروى إسرائيلُ، عن أبي إسحاقَ، عن الحارث، عن عليٍّ ﷺ: الشاهدُ يومُ عرفة، والمشهودُ يومُ النحر[(٣)]. وقاله النخعيُّ[(٤)].

وعن عليٍّ أيضاً: المشهودُ يومُ عرفةَ[(٥)]. وقال ابنُ عباسٍ والحسينُ بن عليٍّ رضي الله عنهما: المشهودُ يومُ القيامةِ؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ﴾ [هود: ١٠٣][(٦)].

قلت: وعلى هذا اختَلَفَتْ أقوالُ العلماءِ في الشاهد، فقيل: اللهُ تعالى؛ عن ابن عباسٍ والحسنِ وسعيد بنِ جُبير[(٧)]، بيانُه: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا﴾ [النساء: ٧٩]، ﴿قُلۡ أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ قُلِ ٱللَّهُۖ شَهِيدُۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ﴾ [الأنعام: ١٩].

وقيل: محمدٌ ﷺ؛ عن ابنِ عباسٍ أيضاً والحسينِ بنِ عليٍّ، وقرأ ابنُ عباس: ﴿فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا﴾ [النساء: ٤١] وقرأ الحسين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾ [الأحزاب: ٤٥][(٨)].

---

(١) أخرجه عنهما الطبري ٢٤/ ٢٦٦ و٢٦٩.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٤٦٧، وزاد المسير ٩/ ٧٢.

(٣) ذكره الرازي ٣١/ ١١٦-١١٧ دون نسبة، وفي تفسير مجاهد ٢/ ٧٤٥ من طريق شريك، عن أبي إسحاق، عن الحارث عن علي: الشاهد يوم الجمعة، والمشهود يوم النحر.

(٤) لم نقف عليه، وروي عنه عكسه، وهو أن الشاهد يوم النحر، والمشهود يوم عرفة. النكت والعيون ٦/ ٢٤١، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٦١، وزاد المسير ٩/ ٧٢.

(٥) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٣٦١، والطبري ٢٤/ ٢٦٥، وسلف في بداية تفسير هذه الآية.

(٦) أخرجه عن ابن عباس النسائي في الكبرى (١١٥٩٩)، والطبري ٢٤/ ٢٦٦، وأخرجه عن الحسين الطبري ٢٤/ ٢٦٦-٢٦٧، والطبراني في الصغير (١١٣٧)، وهو في تفسير مجاهد ٢/ ٧٤٦، ووقع في تفسير الطبري: الحسن، بدل: الحسين.

(٧) أخرجه عن ابن عباس الطبري ٢٤/ ٢٦٩، وذكره عن سعيد بن جبير البغوي ٤/ ٤٦٧، وابن الجوزي ٩/ ٧٢.

(٨) أخرجه عن ابن عباس النسائي في الكبرى (١١٥٩٩)، وعن الحسين الطبراني في الصغير (١١٣٧). وقد سلفت قطعة منه قريباً.

قلت: وأقرأُ أنا: ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًاۗ﴾ [البقرة:١٤٣].

وقيل: الأنبياءُ يَشْهَدون على أُممهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾ [النساء:٤١]. وقيل: آدمُ. وقيل: عيسى بنُ مريم؛ لقوله: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْۖ﴾ [المائدة:١١٧]. والمشهودُ: أمّتُهُ.

وعن ابن عباس أيضاً ومحمد بنِ كعب: الشاهدُ: الإنسان؛ دليلُه: ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء:١٤].

مقاتل: أعضاؤه، بيانُه: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النور:٢٤].

الحسين بنُ الفَضْلِ: الشاهدُ هذه الأمَّةُ، والمشهودُ سائرُ الأممِ، بيانُه: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة:١٤٣].

وقيل: الشاهد: الحفَظَة، والمشهودُ: بنو آدم[١]. وقيل: الليالي والأيامُ. وقد بيَّناه[٢].

قلت: وقد يشهدُ المالُ على صاحبِه، والأرضُ بما عملَ عليها؛ ففي «صحيح» مسلم[٣] عن أبي سعيد الخُدريِّ عن النبيِّ ﷺ: «إنَّ هذا المالَ خَضِرٌ حُلْوٌ، ونِعْمَ صاحبُ المُسْلِم هو لمَن أَعْطَى منه المسكينَ واليتيمَ وابنَ السبيلِ ـ أو كما قال رسول الله ﷺ ـ وإنَّه مَن يأخذُه بغيرِ حقِّه كان كالذي يأكلُ ولا يَشْبَعُ، ويكونُ عليه شهيداً يومَ القيامة».

وفي الترمذيِّ عن أبي هريرةَ قال: قرأ رسولُ الله ﷺ هذه الآية: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ [الزلزلة:٤] قال: «أتدرون ما أخبارُها»؟ قالوا: اللهُ ورسولهُ أعلم. قال:

---

(١) تنظر هذه الأقوال وغيرها في النكت والعيون ٦/ ٢٤١ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٦١ ، وتفسير البغوي ٤/ ٤٦٧ ، وزاد المسير ٩/ ٧٢-٧٣ .

(٢) في الصفحة السابقة.

(٣) برقم (١٠٥٢).

«فإنَّ أخبارَها أنْ تَشْهَدَ على كلِّ عبدٍ أو أَمَةٍ بما عَمِلَ على ظَهْرِها، تقولُ: عَمِلَ يومَ كذا كذا وكذا. قال: فهذه أخبارُها». قال: حديثٌ حسنٌ غريبٌ صحيح[1].

وقيل: الشاهدُ الخَلْقُ، شهدوا للهِ عزَّ و جلَّ بالوحدانية. والمشهودُ له بالتوحيدِ هو اللهُ تعالى.

وقيل: المشهودُ يومُ الجمعةِ، كما رَوَى أبو الدَّرداءِ قال: قال رسول الله ﷺ: «أَكْثِروا عليَّ من الصلاةِ يومَ الجمعةِ فإنه يومٌ مشهودٌ تَشْهَدُه الملائكةُ.... »وذَكر الحديث. خرَّجه ابنُ ماجه وغيرُه[2].

قلت: فعلى هذا يومُ عرفةَ مشهودٌ؛ لأنَّ الملائكةَ تَشْهدُه، وتنزلُ فيه بالرحمة. وكذا يومُ النَّحْرِ إنْ شاءَ الله.

وقال أبو بكرٍ العطارُ: الشاهدُ الحجرُ الأسودُ، يَشْهدُ لِمَنْ لَمَسَه بصدقٍ وإخلاصٍ ويقينٍ. والمشهودُ الحاجُّ. وقيل: الشاهدُ الأنبياءُ، والمشهودُ محمدٌ ﷺ، بيانُه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ﴾إلى قوله تعالى: ﴿وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١][3].

قوله تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝٤ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧﴾

قوله تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ﴾أي: لُعن. قال ابنُ عباسٍ: كلُّ شيءٍ في القرآن«قُتل»، فهو لُعِن. وهذا جوابُ القَسَم في قولِ الفرَّاء، واللام فيه مُضْمَرةٌ، كقوله: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا﴾ثم قال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس: ١٢] أي: لقد أَفْلَح[4].

---

(١) سنن الترمذي (٢٤٢٩) و(٣٣٥٣)، وهو عند أحمد (٨٨٦٧).

(٢) سنن ابن ماجه (١٦٣٧)، وتفسير الطبري ٢٤/ ٢٧٠ .

(٣) زاد المسير ٩/ ٧٣ .

(٤) بنحوه في معاني القرآن للفراء٣/ ٢٥٣ ، وللأخفش ٢/ ٧٣٦ . وعقب عليه الفراء بقوله: هذا في التفسير، ولم نجد العرب تَدَعُ القسم بغير لام يستقبل بها، أو «لا»، أو «إنَّ»، أو«ما»، فإن يكن كذلك فكأنه مما ترك فيه الجواب، ثم استؤنف موضع الجواب بالخبر.

وقيل: فيه تقديمٌ وتأخيرٌ، أي: قُتل أصحابُ الأخدود والسماء ذاتِ البُروجِ، قاله أبو حاتمٍ السِّجِسْتانيُّ. ابنُ الأنباريِّ: وهذا غَلَطٌ؛ لأنه لا يجوزُ لقائلٍ أنْ يقولَ: واللهِ قام زيدٌ؛ على معنى: قام زيدٌ واللهِ. وقال قومٌ: جوابُ القَسَمِ: «إنَّ بطْشَ ربك لشديد» وهذا قبيحٌ، لأنَّ الكلامَ قد طال بينهما[1].

وقيل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟﴾[2]. وقيل: جوابُ القَسَمِ محذوفٌ، أي: والسماءِ ذاتِ البروجِ لَتُبْعَثُنَّ. وهذا اختيارُ ابنِ الأنباريِّ[3]. والأخدودُ: الشقُّ العظيمُ المستطيلُ في الأرض كالخندق، وجَمْعُه أخاديد. ومنه الخدُّ، لمجاري الدموع، والمخدَّةُ، لأنَّ الخدَّ يوضعُ عليها[4]. ويقال: تَخدَّد وجه الرجلِ: إذا صارتْ فيه أخاديدُ من جِراحٍ، قال طَرَفة:

ووجهٌ كأنَّ الشمسَ حَلَّتْ رداءها ... عليه نَقيُّ اللونِ لم يَتَخدَّدِ[5]

﴿ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ﴾«النارِ» بدلٌ من «الأخدودِ» بدلُ الاشتمال. و«الوَقود» بفتحِ الواو قراءةُ العامَّةِ، وهو الحَطَبُ. وقرأ قتادةُ وأبو رجاءٍ ونصر بنُ عاصم بضمِّ الواوِ على المصدر[6]، أي: ذاتِ الاتِّقادِ والالتهابِ. وقيل: ذاتِ الوُقودِ بأبدان الناس. وقرأ أشهبُ العُقَيْليُّ وأبو السَّمَّالِ العَدَويُّ وابنُ السَّمَيْفَع: «النارُ ذاتُ» بالرفعِ فيهما[7]، أي: أَحْرقَتْهم النارُ ذاتُ الوقود.

---

(١) إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٩٧٣ .

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٤٦٢ .

(٣) في إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٩٧٢- ٩٧٣ .

(٤) النكت والعيون ٦/ ٢٤١ .

(٥) ديوان طرفة ص٢١ . قوله: ووجْهٌ، أي: ولها وجهٌ، ومعنى حلت رداءها عليه: قَلَعتْه وألْبسَتْه إياه. شرح المعلقات للنحاس ١/ ٥٩ .

(٦) القراءات الشاذة ص١٧١ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٦٢ .

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٥/ ١٩٢ عن أبي عبد الرحمن السلمي. وذكرها ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٤٦٢ دون نسبة.

﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ﴾ أي: الذين خدَّدوا الأخاديدَ وقَعَدوا عليها يُلْقونَ فيها المؤمنين، وكانوا بنَجْرانَ في الفترة بين عيسى ومحمدٍ صلى الله عليهما وسلم. وقد اختلفت الروايةُ[1] في حديثهم. والمعنى متقارِبٌ. ففي «صحيح» مسلم عن صُهَيب: أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «كانَ مَلِكٌ فيمَن كان قَبْلَكم، وكان له ساحرٌ، فلمَّا كَبِرَ قال للملك: إنِّي قد كَبِرْتُ، فابْعَثْ إليَّ غلاماً أُعَلِّمْه السِّحْرَ، فبعَثَ إليه غلاماً يعلِّمُه، فكان في طريقه إذا سَلَك راهبٌ، فَقَعَدَ إليه وسَمِعَ كلامَه، فأعجبه، فكان إذا أَتَى السَّاحرَ مرَّ بالراهبِ وقَعَدَ إليه، فإذا أَتَى السَّاحر ضَرَبَه، فشكا ذلك إلى الراهب، فقال: إذا خَشِيْتَ السَّاحِرَ فقُلْ: حَبَسني أَهْلي. وإذا خَشيت أَهْلَك فقُلْ: حَبَسني السَّاحرُ. فبينما هو كذلك إذ أتى على دابَّةٍ عظيمةٍ قد حَبَسَت الناسَ، فقال: اليومَ أَعْلَمُ السَّاحِرُ أَفْضَلُ أم الراهبُ أَفْضَلُ؟ فَأَخَذَ حجراً فقال: اللهمَّ إنْ كان أمرُ الراهبِ أحبَّ إليكَ من أَمْرِ السَّاحرِ فاقْتُلْ هذه الدابةَ حتى يمضي الناسُ، فرماها فقتلها، ومضى الناسُ. فَأَتى الراهبَ فَأَخبَره، فقال له الراهبُ: أي بنيَّ، أنت اليومَ أفضلُ منِّي، قد بَلَغَ مِنْ أَمْرِكَ ما أرى، وإنَّك ستُبْتَلَى، فإنِ ابتُلِيْتَ فلا تَدُلَّ عليَّ. وكان الغلامُ يُبْرِئُ الأَكْمهَ والأَبْرَصَ، ويُداوي الناسَ من سائرِ الأَدْوَاءِ. فسمع جليسٌ للملك كان قد عَمِي، فأتاه بهدايا كثيرةٍ فقال: ماهاهُنا لك أَجْمعُ إنْ أنتَ شَفَيْتَني. فقال: إنِّي لا أَشْفي أحداً، إنَّما يَشْفي اللهُ، فإنْ أنتَ آمنتَ بالله دَعَوْتُ الله فشَفَاكَ، فآمَنَ بالله فشَفَاه الله. فأتَى الملكَ فجلس إليه كما كان يجلس، فقال له الملكُ: مَنْ رَدَّ عليك بَصَرَكَ؟ قال: ربِّي. قال: ولكَ ربٌّ غيري؟! قال: ربِّي وربُّكَ اللهُ. فَأَخَذَه فلم يَزَلْ يُعذِّبُه حتى دَلَّ على الغلام، فجيءَ بالغلام فقال له الملكُ: أي بنيَّ! قَدْ بَلَغَ مِن سِحْرِكَ ما تُبْرِئُ الأَكْمَه والأَبرصَ، وتَفْعلُ وتفعلُ؟! قال: إنِّي لا أَشْفي أحداً، إنَّما يَشْفي اللهُ. فَأَخَذَه فلم يَزَلْ يُعذِّبه حتى دَلَّ على الراهب، فجيءَ بالراهب، فقيل له: ارْجِعْ عن دِينِكَ، فأَبَى، فدعا بالمنشار، فوَضَعَ المنشار في مَفْرِق رأسِه، فشقَّه حتى

(١) في(م): الرواة.

وقع شِقَّاه. ثم جيءَ بجليسِ الملِكِ فقيل له: ارجعْ عن دينِكَ، فأبى، فوضَعَ المنشارَ في مَفرق رأسِه، فشقَّه به حتى وقع شِقَّاه. ثم جيء بالغلام فقيلَ له: ارْجِعْ عن دِينِكَ، فأبى، فدَفَعه إلى نَفَرٍ من أصحابه فقال: اذْهَبوا به إلى جبلِ كذا وكذا، فاصْعَدوا به الجبل، فإذا بلغتُم ذِرْوَتَه، فإنْ رَجَع عن دينه، وإلّا فاطْرَحوه، فَذَهبوا به فصَعِدوا به الجبل، فقال: اللهمَّ اكْفِنِيهِم بما شِئْتَ، فرَجَفَ بهم الجبلُ فسَقَطوا. وجاء يمشي إلى الملِكِ، فقال له الملك: ما فَعَلَ أصحابكَ؟! قال: كَفَانِيهمُ اللهُ. فَدَفَعَه إلى نَفَرٍ من أصحابه فقال: اذْهَبوا به فاحمِلوه في قُرْقُور[١]، فتوسَّطوا به البحرَ، فإنْ رَجَع عن دينه، وإلّا فاقْذِفوه، فذهبوا به فقال: اللهمَّ اكْفِنِيهِم بما شِئْتَ، فانْكَفأتْ بهم السفينةُ فغرقوا. وجاء يمشي إلى الملك، فقال له الملكُ: ما فَعَل أصحابُك؟! قال: كَفَانِيهمُ اللهُ. فقال للملك: إنَّك لَسْتَ بقاتِلي حتى تَفْعَل ما آمرُكَ به. قال: وما هو؟ قال: تَجْمعُ الناسَ في صعيدٍ واحدٍ، وتَصْلُبُني على جِذْعٍ، ثم خُذْ سهماً من كِنانَتي، ثم ضَعِ السَّهمَ في كَبِدِ القَوْسِ، ثم قل: بِاسْمِ اللهِ ربِّ الغلامِ، ثم ارْمِني، فإنَّك إذا فعلتَ ذلك قَتَلْتني. فجمع الناسَ في صعيدٍ واحدٍ، وصَلَبه على جِذْعٍ، ثم أَخَذَ سهماً من كنانته، ثم وضع السهمَ في كَبِدِ القَوْسِ، ثم قال: بِاسْمِ اللهِ ربِّ الغلامِ، ثم رماه فوقع السهمُ في صُدْغِه، فوضَعَ يَده في صُدْغِه في موضع السهم، فمات، فقال الناس: آمَنَّا بربِّ الغلامِ! آمنَّا بربِّ الغلامِ! آمنَّا بربِّ الغلامِ! فأُتي الملِكُ فقيل له: أرأيتَ ما كنتَ تَحْذَرُ؟ قد واللهِ نَزَلَ بك حَذَرُكَ، قد آمنَ الناسُ، فأمر بالأُخدودِ في أفواه السِّككِ، فخُدَّت، وأَضْرمَ النيرانَ، وقال: من لم يَرْجِعْ عن دِينِهِ فأَحْموه فيها[٢] ـ أو قيل له: اقْتَحِمْ ـ ففعلوا، حتى جاءتِ امرأةٌ ومعها صبيٌّ لها، فتقاعَسَتْ أن تقع فيها، فقال لها الغلامُ: «ياأُمَّهْ اصْبِري فإنَّكِ على الحقِّ»[٣].

---

(١) هو السفينة العظيمة، وجمعها قراقير. النهاية (قرقر).

(٢) أي: ارموه فيها، شرح النووي لصحيح مسلم ١٨/١٣٣ .

(٣) صحيح مسلم (٣٠٠٥)، وهو عند أحمد (٢٣٩٣١).

خرَّجه الترمذيُّ بمعناه، وفيه: «وكان على طريق الغلامِ راهبٌ في صومعةٍ» قال معمر: أَحْسَبُ أنَّ أَصحابَ الصَّوامع كانوا يومئذٍ مسلمين. وفيه: أنَّ الدابةَ التي حَبَستِ الناس كانت أَسَداً، وأنَّ الغلام دُفِنَ، قال: فيُذْكَر أنه أُخرِجَ في زمن عمر بن الخطاب وأصبعهُ على صِدْغِه كما وَضَعَهَا حين قُتِل. وقال: حديثٌ حسنٌ غريب[١].

ورواه الضحاك عن ابن عباس قال: كان مَلِكٌ بنَجْران، وفي رعيته رجُل له بُنَيٌّ[٢]، فبعثه إلى ساحرٍ يعلِّمه السِّحرَ، وكان طريقُ الفتى على راهبٍ يقرأ الإنجيل، فكان يُعْجِبُه مايَسْمَعهُ من الراهب، فدخل في دينِ الراهبِ، فأقبل يوماً فإذا حيةٌ عظيمةٌ قَطَعتْ على الناس طريقَهم، فأخذ حجراً فقال: باسم الله ربِّ السمواتِ والأرضِ وما بينَهما، فقتلها. وذَكَر نحوَ ما تقدَّم. وأنَّ الملك لمَّا رماه بالسَّهم وقَتَلَه، قال أهلُ مملكةِ الملكِ: لا إله إلَّا إلهُ عبدِ الله[٣] بن ثامرٍ ـ وكان اسمَ الغلام ـ فغضب الملك، وأَمر فخُدَّتْ أخاديدُ، وجُمِع فيها حطبٌ ونارٌ، وعَرَضَ أهلَ مملكته عليها، فَمَن رَجَعَ عن التوحيد تَرَكَه، ومَن ثَبَتَ على دِينه قَذَفه في النار. وجيءَ بامرأةٍ مُرْضِعٍ، فقيل لها: ارجِعي عن دينك وإلا قذفناكِ ولَدَكِ، قال: فأَشْفَقتْ وهَمَّتْ بالرجوع، فقال لها الصَّبيُّ المُرْضَع: يا أمِّي، اثْبُتي على ما أنتِ عليه، فإنَّما هي غُمَيْضَةٌ، فَأَلْقَوْها وابنَها.

وروى أبو صالح عن ابن عباس: أنَّ النار ارتفعتْ من الأخدودِ فصارت فوقَ الملكِ وأصحابِه أربعينَ ذراعاً فَأَحْرَقَتْهم[٤].

وقال الضحاك: هم قومٌ من النصارى كانوا باليمن قبل مَبْعَثِ رسول الله ﷺ بأربعين سنةً، أَخَذَهم يوسف بنُ شراحيل بن تُبَّع الحميريُّ، وكانوا نيفاً وثمانين

---

(١) سنن الترمذي (٣٣٤٠).

(٢) في (م): فتى.

(٣) في النسخ: لا إله إلا الله عبد الله، والمثبت من تفسير البغوي ٤/ ٤٦٩ والخبر فيه بنحوه من طريق عطاء عن ابن عباس، وذكره مطولاً الثعلبي في عرائس المجالس ص٤٣٩-٤٤١ ، وفيه: لا إله إلا الله آمنا بدين عبد الله...

(٤) ذكر نحوه الثعلبي في عرائس المجالس ص٤٤٢ عن الكلبي.

رجلاً، وحَفَر لهم أُخدوداً وأَحْرقَهم فيه. حكاه الماورديُّ[١]. وحَكَى الثعلبيُّ عنه: أنَّ أصحابَ الأخدودِ من بني إسرائيل، أَخَذوا رجالاً ونساءً، فخدُّوا لهم الأخاديدَ، ثم أَوْقَدوا فيها النارَ، ثم أُقيم المؤمنون عليها، وقيل لهم: تكفُرونَ أو تُقْذَفون في النار[٢]؟ ويزعمون أنه دانيال وأصحابُه، وقاله عَطِيةُ العَوْفيُّ. ورُوي نحوُ هذا عن ابن عباس[٣].

وقال عليٌّ ﷺ: إنَّ مِلِكاً سكِر فوقعَ على أُخته، فأراد أن يجعل ذلك شرعاً في رَعيَّته، فلم يقبلوا، فأشارتْ إليه أنَّ يخطُبَ بأنَّ الله ـ عزَّ وجل ـ أَحَلَّ نكاحَ الأَخواتِ، فلم يُسْمَعْ منه، فأشارتْ عليه أن يخُدَّ لهم الأخدودَ، ويُلقي فيه كلَّ من عَصَاه، ففعل. قال: وبقاياهم ينكِحون الأخوات وهم المَجُوسُ، وكانوا أهلَ كتاب[٤].

ورُوي عن عليٍّ أيضاً أنَّ أصحاب الأخدودِ كان سببُهم أنَّ نبيًّا بَعَثه الله تعالى إلى الحبشة، فاتَّبعه ناسٌ، فخدَّ لهم قومُهم أخدوداً، فَمَن اتَّبع النبيَّ رُمي فيها، فجيءَ بامرأةٍ لها بُنَيٌّ رضيعٌ فجزِعتْ، فقال لها: يا أمَّاه، امْضي ولا تَجْزعي[٥].

وقال أيوب عن عِكرمةَ قال: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ﴾ قال: كانوا من قومِكَ من السِّجِسْتان. وقال الكلبيُّ: هم نصارى نجران، أَخَذوابها قوماً مؤمنين، فخدُّوا لهم سبعةَ أخاديد، طولُ كلِّ أخدودٍ أربعون ذراعاً، وعرضُه اثنا عَشَر ذراعاً. ثم طُرِحَ فيه النِّفْطُ والحطبُ، ثم عَرَضوهم عليها، فَمَنْ أَبَى قَذَفوه فيها. وقيل: قومٌ من النصارى كانوا بالقُسْطَنْطينيةِ زمانَ قُسْطَنطين.

وقال مقاتل: أصحابُ الأخدودِ ثلاثةٌ، واحدٌ بنجرانَ، والآخرُ بالشَّامِ، والآخَرُ

---

(١) في النكت والعيون ٦/ ٢٤٢ .

(٢) أخرجه الطبري ٢٤/ ٢٧٣ .

(٣) أخرجه الطبري ٢٤/ ٢٧٢ من طريق عطية العوفي عن ابن عباس، وذكره عن عطية الماوردي ٦/ ٢٤٢ .

(٤) أخرجه مطولاً الطبري ٢٤/ ٢٧٠-٢٧١ .

(٥) أخرجه ابن مردويه كما في الدر المنثور ٦/ ٣٣٣ ، وذكره البغوي ٤/ ٤٦٩ .

بفارس. أمَّا الذي بالشامِ، فأنطنيانوس الروميُّ، والذي بفارس بختنصَّر، والذي بأرض العربِ يوسف بن ذي نُواس. فلم يُنْزِل الله في الذي بفارس والشام قرآناً، وأنزل قرآناً في الذي كان بنجرانَ. وذلك أنَّ رجلين مسلمين كان أحدُهما بتهامةَ، والآخرُ بنجران، آجَرَ أحدُهما نفسَه، فجعل يعملُ ويقرأُ الإنجيلَ، فرأت ابنةُ المستأجر النور في قراءة الإنجيل، فأخبرتْ أباها فأسْلَم. وبلغوا سبعةً وثمانين بين رجلٍ وامرأةٍ، بعدَ ما رُفع عيسى، فخدَّ لهم يوسف بنُ ذي نُواس بن تُبَّعٍ الحِميريُّ أُخدوداً، وأَوْقَد فيه النارَ، وعَرَضهم على الكفر، فَمَن أَبَى أنْ يكفر قَذفه في النار، وقال: مَن رجع عن دين عيسى لم يُقْذَف. وإنَّ امرأةً معها ولدُها صغيرٌ لم يتكلَّم، فرجعت، فقال لها ابنُها: يا أمَّاه، إنِّي أرى أمامك ناراً لا تُطْفَأ، فقَذَفا جميعاً أنفسهما في النار، فجعلها اللهُ وابنَها في الجنة. فقُذِفَ في يومٍ واحدٍ سبعةٌ وسبعون إنساناً[١].

وقال ابن إسحاق عن وهب بن منبِّهٍ: كان رجلٌ من بقايا أهلِ دينِ عيسى ابن مريم عليه السلام، يقال له: قيميون، وكان رجلاً صالحاً مجتهداً، زاهداً في الدنيا، مُجابَ الدعوة، وكان سائحاً في القرى، لا يُعْرَفُ بقريةٍ إلَّا مَضَى عنها، وكان بَنَّاءً يعملُ الطِّين[٢].

قال محمد بن كعب القُرَظيُّ: وكان أهلُ نَجْرانَ أهلَ شِرْكٍ يعبدون الأصنام، وكان في قريةٍ من قُراها قريباً من نجران ساحرٌ يعلِّم غلمانَ أهلِ نجران السِّحرَ، فلمَّا نزل بها قيميون، بنى بها خيمةً بين نجرانَ وبين تلك القريةِ التي بها السَّاحر، فجعل أهلُ نجران يبعثون غلمانَهم إلى ذلك الساحرِ يعلِّمهم السِّحرَ، فبعث إليه الثامر عبدَالله ابنَ الثامر، فكان مع غلمانِ أهلِ نجران، فكان عبدُ الله إذا مرَّ بصاحبِ الخيمةِ أعْجبَه ما يرى من أمرِ صَلاتِه وعبادته، فجعل يجلسُ إليه ويسمعُ منه، حتى أَسْلَم، فوحَّد الله

---

(١) ذكره بنحوه البغوي ٤/ ٤٦٩-٤٧٠.

(٢) سيرة ابن هشام ١/ ٣١-٣٢.

وعَبَدَه، وجعل يسألُهُ عن اسمِ اللهِ الأعظم، وكان الراهبُ يعلّمه، فَكَتَمَه إياه وقال: يا ابن أخي، إنَّك لن تَحْمِلَه، أخشى ضَعْفَكَ عنه، وكان أبوه الثامرُ لايظنُّ إلَّا أنَّ ابنه يختلفُ إلى الساحر كما يختلف الغلمان. فلمَّا رأى عبدُ الله أنَّ الراهبَ قد بَخِلَ عليه بتعليم اسم الله الأعظم، عمدَ إلى قِداحٍ فجمعَها، ثم لم يُبْقِ للهِ تعالى اسماً يعلَمُه إلَّا كتبه في قِدْح، لكلِّ اسمٍ قِدْحٌ، حتى إذا أحصاها أَوْقَدَ لها ناراً، ثم جعل يقذفُها فيها قِدْحاً قِدْحاً، حتى إذا مرَّ بالاسم الأعْظَمِ قذف فيها بقِدْحِه، فوثَبَ القِدْحُ حتى خرج منها لم يضرَّه شيءٌ، فأخذه ثم قام إلى صاحبه، فأخبره أنه قد عَلِمَ اسمَ الله الأعظمَ الذي كَتَمه إياه؛ فقال: وماهو؟ قال: كذا وكذا. قال: وكيف عَلِمْتَه؟ فأخبره بما صنع. فقال له: يا ابن أخي، قد أَصَبْتَه، فأمْسِكْ على نفسك، وما أظنُّ أنْ تَفْعَلَ. فجعل عبد الله بن الثامر إذا دخل نجران لم يَبْقَ أحدٌ به ضُرٌّ إلَّا قال: يا عبد الله، أَتُوَحِّدُ الله وتَدْخُلُ في ديني، فأَدْعوَ الله لك فيعافِيكَ مما أنت فيه من البلاء؟ فيقول: نعم، فيوحِّد الله ويُسْلِم، فيدعو الله له فيشفَى، حتى لم يَبْقَ أحدٌ بنجران به ضرٌّ إلَّا أتاه فاتَّبعه على دينه، ودعا له فعُوفي، حتى رُفِع شأنُه إلى مَلِكِهم، فدعاه فقال له: أَفْسَدْتَ عليَّ أهلَ قريتي، وخالَفْتَ ديني ودين آبائي، فلأُمثِّلَنَّ بك. قال: لا تقدرُ على ذلك. فجعل يرسلُ به إلى الجبل الطويل، فيُطْرَحُ عن رأسه، فيقعُ على الأرض ليس به بأسٌ. وجعل يبعثُ به إلى مياهِ نجرانَ، بحار لا يُلْقَى فيها شيءٌ إلَّا هَلَكَ، فيُلْقَى فيها فيخرجُ ليس به بأسٌ، فلمَّا غلبه قال له عبد الله بن الثامر: والله لا تقدرُ على قتلي حتى توحِّدَ الله وتؤمنَ بما آمنتُ به، فإنك إن فعلتَ ذلك سُلِّطْتَ عليَّ وقَتَلْتني. فوحَّد الله ذلك الملكُ وشَهِدَ شهادتَه، ثم ضَرَبه بعصاً فشجَّه شجةً صغيرةً ليست بكبيرةٍ، فقتله، وهَلَكَ الملك مكانهُ، واجْتَمَعَ أهلُ نجرانَ على دينِ عبد الله بن الثَّامِر، وكان على ما جاء به عيسى ابنُ مريم من الإنجيل وحُكْمِه. ثم أصابهم ما أصاب أهلُ دينهم من الأحداث، فَمِن ذلك كان أصلُ النصرانيةِ بنجرانَ. فسار إليهم ذو نُواس اليهوديُّ بجنوده من حِمْير، فدعاهم إلى اليهودية، وخيَّرهم بين ذلك أو

القتلِ، فاختاروا القتلَ، فخدَّ لهم الأخدودَ؛ فحرَّق بالنار وقَتَلَ بالسيف، ومَثَّل بهم حتى قَتَلَ منهم عشرين ألفاً[١]. وقال وهب ابن منبه: اثني عَشَر ألفاً. وقال الكلبيُّ: كان أصحابُ الأخدودِ سبعين ألفاً[٢].

قال وهبٌ: ثم لمَّا غَلَبَ أرياط على اليمن خرج ذو نُواس هارباً، فاقتحم البحر بفرسه فغرِق. قال ابن إسحاق: وذو نُواس هذا اسمُه زُرْعةُ بنُ تُبَّان أسعد الحميريُّ، وكان أيضاً يسمَّى يوسف، وكان له غَدَائرُ من شعرٍ تَنُوسُ، أي: تضطربُ، فسُمِّي ذا نُواس، وكان فَعَلَ هذا بأهلِ نجران، فأفْلَتَ منهم رجلٌ اسمُه دَوْسٌ ذو ثُعْلُبان، فساق الحبشة لينتصر بهم، فملكوا اليمن وهلك ذو نُواس في البحر، ألْقَى نفسَه فيه[٣]، وفيه يقولُ عمرو بن معدي كَرِب:

أَتُوْعِدني كأنَّك ذو رُعَيْنٍ ... بِأَنْعَمِ عِيشةٍ أو ذو نُواسِ
وكائن كان قبلَك من نَعِيمٍ ... ومُلْكٍ ثابتٍ في الناس راسِ
قديمٍ عهدُه من عهدِ عادٍ ... عظيمٍ قاهرِ الجبروتِ قاسِ
أزالَ الدهرُ مُلْكَهم فأضْحَى ... يُنَقَّلُ من أناسٍ في أناسِ[٤]

وذو رُعينٍ: ملكٌ من ملوك حمير. ورُعَينٌ حصنٌ له، وهو من ولد الحارث بن عمرو بن حمير بن سَبَأ.

مسألة: قال علماؤنا: أعْلَم الله عزَّ وجلَّ المؤمنين من هذه الأمةِ في هذه الآية ما كان يلقاه مَن وَحَّد قبلهم من الشدائد، يُؤَنِّسهم بذلك. وذكر لهم النبيُّ ﷺ قصةَ الغلامِ ليَصْبِروا على ما يلاقون من الأذى و الآلام، والمَشَقَّات التي كانوا عليها، ليتأسَّوْا

---

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٣٤-٣٥.

(٢) ذكر القولين الثعلبي في عرائس المجالس ص٤٤٢.

(٣) التعريف والإعلام ص١٨٢، وبنحوه في سيرة ابن هشام ١/ ٣٠ و٣١ و٣٧.

(٤) سيرة ابن هشام ١/ ٤٠، وعرائس المجالس ص٤٤٢ وصدر البيت الأخير فيهما: فأمسى أهله بادوا وأمسى...

بمثل هذا الغلام في صبره وتصلُّبه في الحقِّ وتمسُّكه به، وبَذْلِه نَفْسَه في حقِّ إظهارِ دعوته، ودخولِ الناس في الدين، مع صِغَرِ سنِّه وعظيم صَبْرِهِ. وكذلك الراهبُ صبر على التمسُّك بالحقِّ حتى نُشِرَ بالمنشار. وكذلك كثيرٌ من الناس لمَّا آمنوا بالله تعالى وَرَسَخَ الإيمانُ في قلوبهم، صبروا على الطَّرْح في النار ولم يرجعوا في دينهم(١). ابن العربيّ: وهذا منسوخٌ عندنا، حَسْبَ ما تقدَّم بيانُه في سورة النحل(٢).

قلت: ليس بمنسوخٍ عندنا، وإنَّ الصَّبر على ذلك لِمَن قَوِيَتْ نَفْسُه وصَلُب دينُه أَوْلَى، قال الله تعالى مُخْبِراً عن لقمان: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [لقمان:١٧]. وروى أبو سعيد الخدريُّ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «إنَّ من أَعْظَمِ الجهادِ كلمةَ عَدْلٍ عند سلطانٍ جائرٍ»: خرَّجه الترمذيُّ وقال: حديثٌ حسنٌ غريب(٣).

ورَوَى ابن سنجر - محمد بنُ سنجر - عن أميمةَ مولاة النبيِّ ﷺ قالت: كنتُ أوضِّئُ النبيَّ ﷺ، فأتاه رجلٌ فقال: أَوْصِني. فقال: «لاتُشْرِكْ بالله شيئاً وإنْ قُطِّعْتَ أو حُرِّقْتَ بالنار...» الحديث(٤).

قال علماؤنا: ولقد امتُحِنَ كثيرٌ من أصحاب النبيِّ ﷺ بالقتل والصَّلب والتعذيب الشديد، فصَبَروا ولم يلتفتوا إلى شيءٍ من ذلك، ويكفيكَ قصةُ عاصمٍ وخُبيبٍ

---

(١) المفهم ٧/ ٤٢٦ ، وفيه: .... ولم يرجعوا عن دينهم.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٩٠٤ ، وينظر أحكام القرآن ٣/ ١١٦٥ وما بعدها، وينظر ما سلف ١٢/ ٤٣٢ وما بعدها.

(٣) سنن الترمذي (٢١٧٤)، وأخرجه أيضاً أبو داود (٤٣٤٤)، وابن ماجه (٤٠١١)، وله شاهد من حديث أبي أمامة ﷺ سلف ١٤/ ٤٥١ . وآخر من حديث طارق بن شهاب عند أحمد (١٨٨٢٨)، والنسائي في المجتبى ٧/ ١٦١ .

(٤) لعله في مسند ابن سنجر، وقد سلف الكلام عنه ٥/ ١٤ ، و أخرجه مطولاً ابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٣٤٤٧)، والطبراني في الكبير ٢٤/ (٤٧٩). وأخرجه عبد بن حميد (١٥٩٤) من حديث أم أيمن رضي الله عنها. وينظر الإصابة ١٢/ ١٤١ .

وأصحابِهما، ومالَقُوا[١] من الحروبِ والمحنِ والقتلِ والأسرِ والحَرْقِ، وغير ذلك، وقد مضى في «النحل» أنَّ هذا إجماعٌ ممن قَوِيَ في ذلك، فتأمَّلْه هناك[٢].

قول تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ﴾ دعاءٌ على هؤلاء الكفَّار بالإبعاد من رحمة الله تعالى.

وقيل: معناه: الإخبارُ عن قَتْلِ أولئك المؤمنين، أي: إنهم قُتلو بالنار فصَبروا.

وقيل: هو إخبارٌ عن أولئك الظالمين، فإنه رُوي أنَّ الله قَبَضَ أرواح الذين أُلْقُوا في الأخدود قبل أن يصلوا إلى النار، وخرجتْ نارٌ من الأخدود فأَحْرقَت الذين هم عليها قعود[٣]. وقيل: إنَّ المؤمنين نَجَوا، وأَحْرقَت النارُ الذين قعدوا، ذكره النحاس[٤].

ومعنى«عليها» أي: عندها، وعلى بمعنى عند. وقيل: «عليها»: على ما يدنو منها من حافاتِ الأخدود، كما قال:

وباتَ على النارِ النَّدى والمحلَّقُ[٥]

والعامل في«إذ»: «قُتِل»، أي: لُعنوا في ذلك الوقت.

﴿وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾أي: حضورٌ، يعني الكفارَ، كانوا يعرِضون الكفرَ على المؤمنين، فَمَن أَبى أَلْقَوْه في النار، وفي ذلك وصفهم بالقسوة ثم بالجِدِّ في ذلك.

---

(١) يعني أصحاب النبي ﷺ عامةً، والكلام من المفهم ٧/٤٢٦ .

(٢) ينظر ١٢/٤٣٢ وما بعدها، وسلفت قصة عاصم وخبيب وأصحابهما ١٣/٣٤٣ وما بعد .

(٣) أخرجه الطبري ٢٤/٢٧٦ عن الربيع بن أنس قوله.

(٤) وذكره كذلك الفراء في معاني القرآن ٣/٢٥٣ وقال: هو أشبه بالصواب.

(٥) وصدره: تُشَبُّ لمَقْرورَيْنِ يصطليانها. والبيت للأعشى، وهو في ديوانه ص٢٧٥ ، من قصيدة في مدح المحلَّق بن حنتم بن شداد. قال الشارح: أي: بات عليها اثنان يستدفئان من البرد ويَسْمُران، هما الكرَم والمحلَّق.

وقيل: «على» بمعنى مع، أي: وهم مع ما يفعلون بالمؤمنين شهود.

قوله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ﴾ وقرأ أبو حَيْوة: «نَقِموا» بالكسر، والفصيحُ هو الفتح[1]، وقد مضى في «براءة» القولُ فيه[2]، أي: ما نَقَم الملِكُ وأصحابُه من الذين حَرَّقهم ﴿إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟﴾ أي: إلَّا أنْ يصدِّقوا ﴿بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ﴾ أي: الغالبِ المنيعِ ﴿ٱلْحَمِيدِ﴾ أي: المحمودِ في كلِّ حال. ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لاشريكَ له فيهما ولانديدَ ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي: عالمٌ بأعمالِ خَلْقِه لاتَخْفَى عليه خافيةٌ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾أي: حَرَّقوهم بالنار. والعربُ تقول: فَتَنَ فلانٌ الدرهمَ والدينارَ: إذا أَدْخَلَه النارَ[3] لينظرَ جودَتَه. ودينارٌ مفتونٌ. ويسمَّى الصَّائغ: الفتَّان، وكذلك الشيطانُ، ووَرِقٌ فَتِين، أي: فضةٌ مُحْرَقةٌ[4]. ويقال للحَرَّة[5]: فَتين، أي: كأنها[6] أُحْرِقَتْ حجارتُها بالنار، وذلك لسَوَادها.

﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟﴾أي: مِن قبيحِ صَنيعِهم مع ما أظْهَره الله لهذا الملِكِ الجبارِ الظالم

(١) الكشاف ٤/ ٢٣٩، والقراءة في القراءات الشاذة ص١٧١.

(٢) ١٠/ ٣٠٤.

(٣) في (د) و(م): الكور.

(٤) في (ظ) و(م): محترقة، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في الصحاح (فتن)، والكلام منه.

(٥) الحرَّة: أرض ذات حجارة سودٍ نَخِرةٍ كأنها أحرقت بالنار. الصحاح (حرر).

(٦) في (ي) و(ظ): كأنما.

وقومِه من الآيات البيناتِ على يدِ الغلام. ﴿فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ لكُفْرهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ في الدنيا لإحراقهم المؤمنين بالنار. وقد تقدَّم عن ابن عباس[١].

وقيل: «ولهم عذاب الحريق»، أي: ولهم في الآخرة عذابٌ زائدٌ على عذابِ كُفْرِهم بما أحْرقوا المؤمنين.

وقيل: لهم عذابُ الجحيم وعذابُ الحريق[٢]. والحريق: اسمٌ من أسماء جهنم، كالسَّعير. والنارُ دَرَكاتٌ وأنواعٌ ولها أسماء، وكأنَّهم يعذَّبون بالزَّمْهَرير في جهنم، ثم يعذَّبون بعذابِ الحريق. فالأولُ عذابٌ بِبَرْدها، والثاني عذابٌ بحرِّها.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: هؤلاء الذين كانوا آمنوا بالله، أي: صدَّقوا به وبرسُله. ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ﴾ أي: بساتين ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ من ماءٍ غيرِ آسِنٍ، ومن لَبَنٍ لم يتغيَّر طَعْمُهُ، ومن خَمْرٍ لَذَّةٍ للشاربين، وأنهارٍ من عسلٍ مُصَفًّى. ﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾ أي: العظيم، الذي لا فوزَ يُشْبِهه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ أي: أَخْذَه الجبابِرَةَ والظَّلَمَةَ، كقوله جلَّ ثناؤه: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢]. وقد تقدَّم. قال المبرد[٣]: «إنَّ بَطْشَ ربِّك» جوابُ القَسَم. المعنى: والسماءِ ذاتِ البروج إنَّ بَطْشَ ربِّك، وما بينهما معتَرِضٌ مؤكِّدٌ للقَسَم. وكذلك قال التِّرمذيُّ الحكيمُ في «نوادر الأصول»[٤]: إنَّ القسم واقعٌ على[٥] ذِكْرِ صفتِه بالشِّدة.

---

(١) ص١٨٧ من هذا الجزء.

(٢) في (د) و(م): لهم عذاب وعذاب جهنم الحريق.

(٣) في المقتضب ٢/ ٣٣٧.

(٤) قوله: نوادر الأصول، ليس في (ي) و(ظ)، ولم نقف على هذا الكلام في المطبوع منه.

(٥) في (م): عما.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾ يعني الخَلْقَ ـ عند أكثر العلماء ـ يخلُقهم ابتداءً، ثم يعيدُهم عند البعث. وروى عكرمةُ قال: عَجِبَ الكفارُ من إحياءِ اللهِ جلَّ ثناؤه الأمواتَ.

وقال ابن عباس: يبدئُ لهم عذابَ الحريقِ في الدنيا، ثم يعيدُه عليهم في الآخرة. وهذا اختيارُ الطبريِّ(١).

﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ﴾ أي: السَّتُورُ لذنوبِ عبادِه المؤمنين، لا يفضحُهم بها. ﴿ٱلْوَدُودُ﴾ أي: المحبُّ لأوليائه. ورَوَى الضحَّاك عن ابن عباس قال: كما يَوَدُّ أحدُكم أخاه بالبشرى والمحبةِ. وعنه أيضاً: «الودود»، أي: المتودِّدُ إلى أوليائه بالمغفرة(٢). وقال مجاهد: الوادُّ لأوليائه، فعولٌ بمعنى فاعِلٍ. وقال ابن زيد: الرحيم(٣).

وحكى المبرِّدُ عن إسماعيل بن إسحاق القاضي: أنَّ الودودَ هو الذي لا وَلَدَ له، وأنشد قولَ الشاعر:

وأرْكَبُ في الرَّوْعِ عُرْيانةً ... ذَلولَ الجِنَاحِ لَقَاحاً وَدُودا(٤)

أي: لا ولَد لها تَحِنُّ إليه، ويكونُ معنى الآيةِ: إنه يَغْفِرُ لعباده وليس له ولدٌ يَغْفِرُ لهم من أَجْلِه، ليكونَ بالمَغْفِرة متفضِّلاً من غير جزاء(٥).

وقيل: الودودُ بمعنى المَوْدودِ، كرَكوب وحَلُوب، أي: يَوَدُّه عبادُه الصالحون ويحبُّونه(٦).

---

(١) في التفسير ٢٤/ ٢٨٣، وقول ابن عباس منه.

(٢) ذكره الرازي ٣١/ ١٢٣ عن الكلبي.

(٣) أخرجه الطبري ٢٤/ ٢٨٤.

(٤) النكت والعيون ٦/ ٢٤٣، والبيت في البحر ٨/ ٤٥٢ برواية: ذلول الجماع، وفي الدر المصون ١٠/ ٤٧٨ برواية: خيفانة ذلول الجماح. وورد صدر البيت في ديوان امرئ القيس ص١٦٣. وذكر الرازي ٣١/ ١٢٤، وصاحب اللسان (ورد) البيت برواية:

وأَعْددتُ للحرب خَيْفانةً ... جَمُومَ الجِراءِ وَقَاحاً ودودا

(٥) النكت والعيون ٦/ ٢٤٣.

(٦) الوسيط ٤/ ٤٦٢، وتفسير الرازي ٣١/ ١٢٣.

﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ﴾ قرأ الكوفيون إلَّا عاصماً: «المجيدِ» بالخفض[١]، نعتاً للعرش. وقيل: لـ «ربِّك»، أي: إنَّ بَطْشَ ربِّك المجيدِ لشديدٌ، ولم يمتنع الفَصْلُ، لأنه جارٍ مجرى الصفةِ في الشديد.

الباقون بالرفع نعتاً لـ «ذو» وهو اللهُ تعالى. واختاره أبو عُبيد وأبو حاتم؛ لأنَّ المجدَ هو النهايةُ في الكرم والفَضْلِ، والله سبحانه هو المنعوتُ بذلك. وإن كان قد وصف عرشه بالكريم في آخر «المؤمنون»، تقول العرب: في كلِّ شجرٍ نارٌ، واسْتَمْجَدَ المَرْخُ والعَفَار[٢]، أي: تناهَيا فيه، حتى يُقْتَبَس منهما.

ومعنى ذو العرش: أي: ذو المُلْكِ والسُّلْطانِ، كما يقال: فلانٌ على سريرِ مُلْكِه، وإن لم يكن على سرير. ويقال: ثُلَّ عرشُه، أي: ذهب سلطانُه. وقد مضى بيانُ هذا في «الأعراف»[٣] وخاصَّةً في «كتاب الأَسْنَى في شرح أسماءِ اللهِ الحُسْنَى»[٤].

﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ أي: لا يمتنعُ عليه شيءٌ يريدهُ. الزمخشريُّ[٥]: «فَعَّالٌ» خبرُ ابتداءٍ محذوفٍ. وإنَّما قيل: «فَعَّالٌ» لأنَّ ما يريدُ ويفعلُ في غاية الكَثْرةِ. وقال الفرَّاء: هو رفعٌ على التكرير والاستئناف؛ لأنه نكرةٌ مَحْضَةٌ. وقال الطبريُّ: رُفِعَ «فعالٌ» ـ وهي نكرةٌ مَحْضَةٌ ـ على وجهِ الإتباعِ لإعراب «الغفورُ الودودُ»[٦].

وعن أبي السَّفَرِ قال: دخل ناسٌ من أصحاب النبيِّ ﷺ على أبي بكرٍ ﷺ يَعُودونه

---

(١) هي قراءة حمزة والكسائي. السبعة ص٦٧٨، والتيسير ص٢٢١.

(٢) يريد بذكر المثل أن المجد والتمجيد قد يوصف بهما الجمادات، وقد سلف هذا المثل ١٥/ ٦٠. وكذلك حين وصف العرش بالكرم في قوله تعالى: ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٦] جاز أن يوصف العرش بالمجد؛ لأن معناه الكمال، والعرش على ما ذكر أحسن شيء وأكمله وأجمعه لصفات الحُسن. ينظر الوسيط ٤/ ٤٦٢، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٦٣.

(٣) ٩/ ٢٤٠.

(٤) ص١٨٣ وما بعدها.

(٥) في الكشاف ٤/ ٢٣٩.

(٦) ينظر تفسير الطبري ٢٤/ ٢٨٤-٢٨٥.

فقالوا: أَلَا نأتيك بطبيب؟ قال: قد رآني! قالوا: فما قال لك؟ قال: قال: إنِّي فعالٌ لِمَا أُريد[(١)].

قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ۝١٧ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ۝١٨ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ ۝١٩﴾

قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ﴾ أي: قد أتاك يا محمدُ خبرَ الجموعِ الكافرةِ المكذِّبةِ لأنبيائِهم؛ يؤنِّسه بذلك ويُسلِّيه. ثم بَيَّنهم فقال: ﴿فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ﴾ وهما في موضعِ جرٌّ على البَدَلِ من «الجنودِ». المعنى: إنَّك قد عَرَفْتَ ما فَعَلَ الله بهم حين كذَّبوا أنبياءَه ورُسُلَه.

﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: من هؤلاء الذين لا يؤمنون بك. ﴿فِى تَكْذِيبٍ﴾ لك، كدأبِ مَن قَبْلَهم. وإنَّما خص فرعون وثمود؛ لأنَّ ثمودَ في بلاد العرب، وقصتُهم عندهم مشهورةٌ وإن كانوا من المتقدِّمين. وأمرُ فرعون كان مشهوراً عند أهل الكتَاب وغيرهم، وكان من المتأخِّرين في الهلاك، فدلَّ بهما على أمثالهما في الهلاك. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ۝٢٠ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝٢١ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ۝٢٢﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ﴾ أي: يَقْدِرُ على أن يُنْزِلَ بهم ما أنزل بفرعون. والمحاطُ به كالمحصور. وقيل: أي: واللهُ عالمٌ بهم فهو يُجازيهم.

﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ﴾ أي: مُتَنَاهٍ في الشَّرفِ والكرمِ والبركة، وهو بيانُ ما بالناس الحاجةُ إليه من أحكام الدِّين والدنيا، لا كما زعم المشركون. وقيل: «مَجيد»، أي: غيرُ مخلوقٍ.

﴿فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ﴾ أي: مكتوبٌ في لوح. وهو محفوظٌ عند الله تعالى من وصول

---

(١) أخرجه ابن سعد ٣/ ١٩٨، وهناد في الزهد (٣٨٢)، وأبو السَّفَر هو سعيد بن يُحْمِد الهمدانيُّ الكوفي، من رجال التهذيب.

الشياطين إليه. وقيل: هو أمُّ الكتاب، ومنه انتسخَ القرآنُ والكتب.

وروى الضحَّاك عن ابن عباس قال: اللوحُ من ياقوتةٍ حمراءَ، أعلاه معقودٌ بالعرش وأسفلُه في حِجْرِ مَلَكٍ يقال له: ماطريون، كتابُه نورٌ، وقَلَمُه نورٌ، ينظر الله عزَّ وجلَّ فيه كلَّ يومٍ ثلاثَ مئةٍ وستِّين نظرةً، ليس منها نظرةٌ إلَّا وهو يفعلُ ما يشاءُ؛ يرفعُ وضيعاً، ويَضَعُ رفيعاً، ويُغني فقيراً، ويُفْقِرُ غنيّاً؛ يُحيي ويُميتُ، ويفعلُ ما يشاء، لا إلهَ إلَّا هو[1].

وقال أنس بن مالك ومجاهد: إنَّ اللوحَ المحفوظَ الذي ذكره الله تعالى في جَبْهَةِ إسرافيل[2].

وقال مقاتل: اللوحُ المحفوظُ عن يمين العرش[3].

وقيل: اللوحُ المحفوظُ: الذي فيه أصنافُ الخلْقِ والخليقةِ، وبيانُ أمورِهم، وذِكْرُ آجالهم وأرزاقهم وأعمالهم، والأقضية النافذة فيهم، ومآل عواقبِ أمورِهم، وهو أمُّ الكتاب.

وقال ابن عباس: أوَّلُ شيءٍ كَتَبَه الله تعالى في اللوح المحفوظ: إنِّي أنا اللهُ لا إلهَ إلَّا أنا، محمدٌ رسولي، مَن استسلم لقضائي، وصَبر على بلائي، وشَكَر نَعْمائي، كتبتُه صدِّيقاً وبعثتُه مع الصِّدِّيقين، ومَن لم يستسلم لقضائي، ولم يَصْبر على بلائي، ولم يَشْكُر نَعْمائي، فليتَّخِذْ إلهاً سواي[4].

وكتب الحجَّاجُ إلى محمد ابن الحنفية ﷺ يتوعَّدهُ، فكتب إليه ابنُ الحنفيةِ: بلغني

---

(١) أخرجه بنحوه الحاكم ٢/ ٥١٩ ، والواحدي في الوسيط ٤/ ٤٦٣ من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس، وأخرجه مختصراً بنحوه عبد الرزاق ١/ ٣٨٩ من طريق مجاهد عن ابن عباس.

(٢) أخرجه الطبري ٢٤/ ٢٨٧ عن أنس.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٤٧٢ ، وذكره الألوسي ٣٠/ ٩٤ وقال: وجاء فيه أخبار غير ذلك، ونحن نؤمن به ولا يلزمنا البحث عن ماهيته وكيفية كتابته وغير ذلك.

(٤) أخرجه الديلمي كما ذكر المناوي في الإتحافات السنية بالأحاديث القدسية ص٤٦ .

أنَّ للهِ تعالى في كلِّ يوم ثلاثُ مئةٍ وستِّين نظرةً في اللوح المحفوظ؛ يُعِزُّ ويُذِلُّ، ويَبْتلي ويُفْرِحُ، ويفعلُ ما يريد، فلعلَّ نظرةً منها تَشْغَلُك بنفسك، فتشتغلُ بها ولا تفرَّغ[(١)].

وقال بعضُ المفسِّرين: اللوحُ شيءٌ يلوحُ للملائكة فيقرؤونه.

وقرأ ابن السَّمَيْفَع وأبو حَيْوة: «قرآنُ مجيدٍ» على الإضافة[(٢)]، أي: قرآنُ ربٍّ مجيدٍ.

وقرأ نافعٌ: «في لوحٍ محفوظٌ» بالرفعِ[(٣)] نعتاً للقرآن، أي: بل هو قرآنٌ مجيدٌ محفوظٌ في لوح. الباقون بالجرِّ نعتاً للَّوح.

والقرَّاءُ متَّفقُون على فتح اللام من «لَوْح»، إلَّا ما روي عن يحيى بن يعمر؛ فإنه قرأ: «في لُوحٍ» بضمِّ اللام[(٤)]، أي: إنه يَلُوحُ، وهو ذو نورٍ وعلوٍّ وشرف. قال الزمخشريُّ[(٥)]: واللُّوحُ الهواء، يعني اللُّوح فوقَ السماءِ السابعةِ الذي فيه اللَّوح. وفي «الصِّحاح»[(٦)]: لاحَ الشيءُ يَلُوحُ لَوْحاً، أي: لَمَحَ[(٧)]. ولاحَهُ السَّفرُ: غيَّره. ولاحَ لَوْحاً ولُواحاً: عَطِشَ، والْتَاحَ مثلُه. واللَّوحُ: الكَتِفُ، وكلُّ عظمٍ عريضٍ. واللَّوحُ: الذي يُكْتَبُ فيه. واللُّوحُ بالضم: الهواءُ بين السماءِ والأرض. والحمد لله.

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٣/ ١٧٦.

(٢) القراءات الشاذة ص١٧١، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٦٣.

(٣) السبعة ص٦٧٨، والتيسير ص٢٢١.

(٤) الكشاف ٤/ ٢٤٠، وذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٧١ عن اليماني.

(٥) في الكشاف ٤/ ٢٤٠.

(٦) مادة (لوح).

(٧) لمح: لمع. مختار الصحاح (لوح).

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة «الطارق»

مَكِّيَّةٌ، وهي سبع عشرة آية

قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝٢ ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ۝٣﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾ قَسَمان: «السماء» قَسَمٌ، و«الطارِقُ» قَسَم. والطارق: النَّجم. وقد بيَّنه الله تعالى بقوله: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ﴾. واختُلف فيه؛ فقيل: هو زُحَل، الكوكب الذي في السماء السابعة؛ ذكره محمد بن الحسن في تفسيره، وذكر له أخباراً، الله أَعْلَمُ بصحَّتها[(١)].

وقال ابن زيد: إنَّه الثُّريَّا. وعنه أيضاً أنَّه زُحَل[(٢)]. وقاله الفرَّاء[(٣)].

ابن عباس: هو الجَدْي[(٤)]. وعنه أيضاً وعن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنهما ـ والفرَّاء: «النجم الثاقِب»: نجمٌ في السماء السابعة، لا يسكنُها غيرُه من النجوم؛ فإذا أَخَذَت النجومُ أَمْكِنَتها من السماء، هبط فكان معها، ثم يرجع إلى مكانه من السماء السابعة، وهو زُحَل؛ فهو طارقٌ حين ينزل، وطارقٌ حين يصعد[(٥)]. وحكى الفراء[(٦)]: ثَقَبَ الطائرُ: إذا ارتفع وعَلاَ.

---

(١) التعريف والإعلام ص١٨٢ ، ومحمد بن الحسن هو أبو بكر النقاش.

(٢) أخرج القولين الطبري ٢٤/ ٢٩٠ .

(٣) في معاني القرآن ٣/ ٢٥٤ .

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ٤٦٥ .

(٥) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٩/ ٨١ عن ابن عباس رضي الله عنهما، ولم نقف عليه عن علي ﷺ والفراء.

(٦) في معاني القرآن ٣/ ٢٥٤ .

وروى أبو صالح عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ قاعداً مع أبي طالب، فانحطَّ نجم، فامتلأت الأرضُ نوراً، ففزع أبو طالب وقال: أيُّ شيءٍ هذا؟ فقال: «هذا نجمٌ رُميَ به، وهو آيةٌ من آيات الله» فعَجِبَ أبو طالب، ونزل: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾[(١)].

وروي عن ابن عباس أيضاً «والسماءِ والطارِقِ»: وما يَطْرُقُ فيها[(٢)].

وعن ابن عباس وعطاء: «الثاقب»: الذي تُرْمَى به الشياطين[(٣)].

قتادةُ: هو عامٌّ في سائر النجوم؛ لأنَّ طلوعها بليلٍ، وكلُّ مَن أتاك ليلاً فهو طارِقٌ[(٤)]؛ قال:

ومِثْلِكِ حُبْلَى قد طَرَقْتُ ومُرضِعًا ... فألْهَيْتُها عن ذي تَمائمَ مُغْيِلِ[(٥)]

وقال:

ألم تَرَياني كلَّما جئتُ طارقًا ... وَجَدْتُ بها طِيبًا وإنْ لم تَطَيَّبِ[(٦)]

فالطارق: النجم، اسمُ جنسٍ، سمِّي بذلك لأنه يَطْرُقُ ليلاً، ومنه الحديث: «نهى النبيُّ ﷺ أن يَطْرُقَ المسافر أهلَه ليلاً، كي تَسْتَحِدَّ المُغِيبةُ، وتَمْتَشِطَ الشَّعِثة»[(٧)].

---

(١) ذكره البغوي ٤/ ٤٧٢ عن الكلبي، وذكره الواحدي في أسباب النزول ص٤٨٤ ، والزمخشري في الكشاف ٤/ ٢٤١ ، والثعلبي كما في تخريج أحاديث الكشاف ص١٨٣ دون نسبة.

(٢) أخرجه الطبري ٢٤/ ٢٨٨ .

(٣) ذكره أبو الليث ٣/ ٤٦٧ عن الحسن البصري.

(٤) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٣٦٥ ، والطبري ٢٤/ ٢٨٩ بلفظ: ﴿وَٱلطَّارِقِ﴾ قال: ظهور النجوم، يقول: تَطْرُقك ليلاً.

(٥) البيت لامرئ القيس، وهو في ديوانه ص١٢ ، وسلف عند تفسير الآية (٨٤) من سورة ص . قال الشارح: مَن نصب مثلك، فعلى قوله: طرقت، ومن خفضه فعلى معنى رُبَّ. والمغيل: المرضَع وأمه حبلى، أو المرضَع وأمه تُجامع.

(٦) البيت لامرئ القيس، وهو في ديوانه ص٤١ ، وسلف ١٧/ ٤٨١ .

(٧) أخرجه بنحوه أحمد (١٤١٨٤)، والبخاري (١٨٠١) و(٥٢٤٣-٥٢٤٧)، ومسلم ص١٥٢٧ ، قوله: المُغيبة، هي التي غاب عنها زوجها. شرح النووي لصحيح مسلم ١٣/ ٧١ .

والعربُ تسمّي كلَّ قاصدٍ في الليل طارقًا. يقال: طَرَقَ فلانٌ: إذا جاء بليل. وقد طَرَقَ يَطْرُقُ طُروقًا، فهو طارق. ولابن الروميّ:

يا راقدَ الليلِ مسروراً بأوّلهِ ... إنَّ الحوادثَ قد يَطْرُقْنَ أسحارا

لا تَفْرَحَنَّ بليلٍ طابَ أوّلُه ... فرُبَّ آخِرِ ليلٍ أجّج النّارا[(١)]

وفي «الصِّحاح»: والطارق: النجمُ الذي يقال له كوكبُ الصُّبح. ومنه قولُ هند:

نحنُ بناتُ طارقِ ... نمشي على النمارقِ

أي: إنَّ أبانا في الشَّرف كالنجم المضيء[(٢)].

الماوَرْديُّ: وأصلُ الطَّرْق: الدَّقُّ، ومنه سمِّيت المِطْرقة، فسمِّي قاصدُ الليلِ طارقًا؛ لاحتياجه في الوصول إلى الدَّق[(٣)].

وقال قومٌ: إنه قد يكون نهاراً. والعربُ تقول: أتيتُك اليومَ طَرْقَتين، أي: مرَّتين. ومنه قولُه ﷺ: «أعوذُ بكَ مِن شَرِّ طَوارِقِ الليلِ والنَّهار، إلّا طارقاً يَطْرُقُ بخيرٍ يا رحمن»[(٤)]. وقال جرير في الطُّروق:

طَرَقَتْكَ صائدةُ القلوبِ وليس ذا ... حينَ الزيارة فارجِعي بسلامِ[(٥)]

ثم بيَّن فقال: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ﴾ والثاقبُ: المضيءُ. ومنه: ﴿شِهَابٞ ثَاقِبٞ﴾ [الصافات: ١٠]. يقال: ثَقَبَ يَثْقُبُ ثُقُوبًا وثَقَابةً: إذا أضاء. وثُقوبُه: ضَوْءُه.

---

(١) البيتان ليسا في ديوان ابن الرومي، والأول منهما نسبه المرزباني في معجم معجم الشعراء ص٣٧١ لمحمد بن حازم الباهلي، ونسبه الثعالبي في التمثيل والمحاضرة ص٥٣ لعدي بن زيد العبادي. وهو دون نسبة في البيان والتبيين للجاحظ ٣/ ٢٠٢ . وذكر في كتاب الحيوان ٦/ ٥٠٨ أن أبا عبد الحميد المكفوف كان يتمثل به في قصصه. وذكر البيتين دون نسبة ابن عرب شاه في فاكهة الخلفاء ص٣٩٥ .

(٢) الصحاح (طرق)، والبيت في طبقات ابن سعد ٢/ ٤٠ ، وورد ضمن حديث للزبير ﷺ في مسند البزار (٩٧٩).

(٣) النكت والعيون ٦/ ٢٤٥ .

(٤) سلف ١٦/ ١٦٧ .

(٥) النقائض ١/ ٢٧٠ ، والخزانة ٥/ ٤٣١ .

والعربُ تقول: أَثْقِبْ نارَك، أي: أَضِئْها. قال:

أذاعَ بـه فـي الـنـاسِ حـتـى كـأنـه بـعـلـيـاءَ نـارٌ أُوْقِـدَتْ بـثَـقُـوبِ[1]

الثَّقوب: ما تُشْعَلُ به النارُ من دِقاق العِيدان.

وقال مجاهد: الثاقب: المتوهِّج[2].

القشيريُّ: والمُعْظَمُ على أنَّ الطارقَ والثاقبَ اسمُ جنسٍ أُرِيدَ به العُمومُ، كما ذكرنا عن مجاهد.

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ﴾ تفخيمًا لشأن هذا المُقْسَم به. وقال سفيان: كلُّ ما في القرآن: «وما أدْراكَ»، فقد أَخبَره به، وكلُّ شيء قال فيه: «وما يدريك»، لم يُخبِره به[3].

قوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ نَفۡسٍ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٞ ۝٤﴾

قال قتادةُ: حَفَظةٌ يحفظون عليكَ رِزقكَ وعملكَ وأَجَلك[4]. وعنه أيضاً قال: قرينُه يَحْفظُ عليه عملَه من خيرٍ أو شرٍّ[5]. وهذا هو جوابُ القَسَم. وقيل: الجوابُ: «إنَّه على رَجْعِهِ لقادِر» في قول الترمذيِّ محمد بنِ عليٍّ[6].

و«إنْ» مخفَّفةٌ من الثقيلة، و«ما» مؤكِّدة، أي: إنْ كلُّ نفسٍ لعليها حافظ. وقيل: المعنى: إنْ كلُّ نفسٍ إلَّا عليها حافظ[7]، يحفظُها من الآفات، حتى يُسْلِمها إلى

---

(١) البيت لأبي الأسود الدؤلي، كما في الحيوان ٥/ ٦٠١، والأضداد لابن الأنباري ص٢١٤، والخزانة ١/ ٢٨٣.

(٢) أخرجه الطبري ٢٤/ ٢٩٠.

(٣) سلف ٢١/ ١٨٩.

(٤) أخرجه الطبري ٢٤/ ٢٩٢.

(٥) ذكر الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٢٤٦، بلفظ: الملائكة يحفظون عليه عمله...

(٦) ذكر هذا القول السمين في الدر المصون ١٠/ ٧٥٢ وقال: وفيه بعد.

(٧) وهذا القول على قراءة «لمَّا» بالتشديد، والذي قبله على القراءة بالتخفيف، حيث تكون فيه «ما» زائدة مؤكدة، كما سيرد. ينظر تفسير الطبري ٢٤/ ٢٩٠، ومعاني القرآن للزجاج ٥/ ٣١١، وإعراب القرآن للنحاس ٥/ ١٩٨، والحجة للفارسي ٦/ ٣٩٧، والوسيط ٤/ ٤٦٤-٤٦٥.

القَدَر. قال الفراء[١]: الحافظُ من الله، يحفظُها حتى يُسْلِمَها إلى المقادير. وقاله الكلبيُّ.

وقال أبو أُمامةَ: قال النبيُّ ﷺ: «وُكِّل بالمؤمن مئةٌ وستُّون مَلَكاً يذبُّون عنه ما لم يُقَدَّرْ عليه. من ذلك البصرُ، سبعةُ أملاكٍ يَذُبُّون عنه، كما يُذَبُّ عن قصعةِ العَسَلِ الذبابُ. ولو وُكِلَ العبدُ إلى نَفْسِه طَرْفَةَ عينٍ لاخْتَطَفَتْه الشياطين»[٢].

وقراءةُ ابنِ عامرٍ وعاصم وحمزة: «لَمَّا» بتشديد الميم[٣]، أي: ما كلُّ نفسٍ إلَّا عليها حافظٌ، وهي لغةُ هذيل؛ يقولُ قائلُهم: نَشَدْتُكَ لَمَّا قمتَ. الباقون بالتخفيف، على أنَّها زائدةٌ مؤكِّدة، كما ذَكَرْنا. ونظيرُ هذه الآية قولُه تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾ [الرعد:١١] على ما تقدَّم.

وقيل: الحافظُ هو اللهُ سبحانه؛ فلولا حِفْظُه لها لم تَبْقَ.

وقيل: الحافظُ عليه عقلُه، يرشدُه إلى مصالحه، ويَكُفُّه عن مَضَارِّه[٤].

قلت: العقلُ وغيرُه وسائطُ، والحافظُ في الحقيقة هو اللهُ جلَّ وعزَّ؛ قال الله عز وجل: ﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ﴾ [يوسف:٦٥]، وقال: ﴿قُلۡ مَن يَكۡلَؤُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحۡمَٰنِۗ﴾ [الأنبياء:٥٢]، وما كان مثلَه.

قوله تعالى: ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ ۝٦ يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٞ ۝٨﴾

قوله تعالى: ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ أي: ابنُ آدمَ ﴿مِمَّ خُلِقَ﴾ وجهُ الاتِّصالِ بما قَبْلَه

(١) في معاني القرآن ٣/ ٢٥٥ .

(٢) ذكره بهذا اللفظ الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب (٧١١٧)، وأخرجه بنحوه الطبراني في الكبير (٧٧٠٤)، وفي إسناده عفير بن معدان، وهو ضعيف كما ذكر الحافظ في تخريج أحاديث الكشاف ص١٨٣.

(٣) السبعة ص٦٧٨ ، والتيسير ص٢٢١ .

(٤) النكت والعيون ٦/ ٢٤٦ .

توصيةُ الإنسان بالنظرِ في أوّل أمرِه وسُنَّته[١] الأُولى، حتى يعلمَ أنَّ مَن أنْشأه قادرٌ على إعادته وجزائه، فيعمل ليومِ الإعادةِ والجزاء، ولا يُمْلي على حافِظه إلَّا ما يسرُّه في عاقبةِ أمرِه.

و«مِمَّ خُلِق». استفهامٌ، أي: من أيِّ شيءٍ خُلِق؟ ثم قال: ﴿خُلِقَ﴾ وهو جوابُ الاستفهام ﴿مِن مَّآءٖ دَافِقٖ﴾ أي: من المنيِّ. والدَّفْقُ: صبُّ الماءِ، دَفَقْتُ الماءَ أدْفُقُه دفقًا: صَبَبته، فهو ماءٌ دافق، أي: مدفوق، كما قالوا: سِرٌّ كاتِم، أي: مَكْتوم. لأنَّه من قولك: دُفِق الماءُ، على ما لم يُسَمَّ فاعِلُه. ولا يقال: دَفَقَ الماءُ. ويقال: دفَقَ الله رُوحَه: إذا دُعي عليه بالموت[٢].

قال الفرَّاء والأخفشُ: «من ماءٍ دافِقٍ» أي: مَصْبوبٍ في الرَّحِم. الزجَّاج[٣]: من ماءٍ ذي انْدِفاقٍ. يقال: دارعٌ وفارِسٌ ونابِلٌ، أي: ذو فرسٍ، ودِرعٍ، ونبلٍ. وهذا مذهبُ سيبويه[٤]. فالدافقُ هو المندفقُ بشدَّة قوتِه. وأراد ماءين: ماءَ الرجلِ وماءَ المرأة؛ لأنَّ الإنسان مخلوقٌ منهما، لكِنْ جَعَلهما ماءً واحداً لامْتِزاجِهما.

وعن عكرمة عن ابن عباس: «دافِقٍ»: لَزِج.

﴿يَخۡرُجُ﴾ أي: هذا الماءُ ﴿مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ﴾ أي: الظَّهْر. وفيه لغاتٌ أربعُ: صُلْب، وصُلُب ـ وقرئ بهما[٥] ـ وصَلَب بفتح اللَّام، وصالب على وزن قالب، ومنه قولُ العباس:

تُنْقَلُ من صالبٍ إلى رَحِمٍ[٦]

(١) في (ظ): ونسبته.

(٢) الصحاح (دفق). وفي تهذيب اللغة ٩/ ٣٩: وقال الليث: يقال: دَفَق الماء دفوقاً ودفقاً إذا انصبَّ، قال الأزهري: ولم أسمع دفقت الماء فدَفَق لغير الليث. وينظر العين ٥/ ١٢٠.

(٣) في معاني القرآن ٥/ ٣١١.

(٤) ينظر الكتاب ٣/ ٣٨١.

(٥) «الصُّلْب» قراءة الجمهور، و«الصُّلُب» بضمتين ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٧١ عن عيسى.

(٦) وعجزه: إذا مضى عالَمٌ بدا طَبَقٌ، وسلف ١٤/ ٨٧ و ص١٧٥ من هذا الجزء.

﴿وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ أي: الصَّدْر، الواحدةُ: تَرِيْبَة؛ وهي موضعُ القِلادةِ من الصَّدر. قال:

مُهَفهفةٌ بيضاءُ غيرُ مُفَاضَةٍ ترائبُها مَصْقولةٌ كالسَّجَنْجَلِ[(١)]

والصُّلْبُ من الرجل، والترائبُ من المرأة. قال ابن عباس: الترائب: موضعُ القلادة. وعنه: ما بين ثَدْيَيْها. وقاله عكرمة[(٢)].

ورُوي عنه: يعني ترائبَ المرأة: اليدين والرجلين والعينين[(٣)]. وبه قال الضحَّاك[(٤)].

وقال سعيد بن جبير: هو الجِيْدُ.

مجاهد: هو ما بين المَنْكِبين والصَّدْرِ[(٥)]. وعنه: الصَّدْر. وعنه: التراقي[(٦)].

وعن ابن جبير عن ابن عباس: الترائب: أربعةُ أضلاعٍ من هذا الجانب[(٧)].

وحكى الزجَّاج[(٨)]: أنَّ الترائبَ أربعةُ أضلاعٍ من يَمنةِ الصَّدر، وأربعةُ أضلاعٍ من يَسْرةِ الصَّدر.

وقال معمر بن أبي حبيبة المَدَنيُّ: الترائبُ: عُصارةُ القلبِ، ومنها يكونُ الولد[(٩)].

---

(١) البيت لامرئ القيس، وهو في ديوانه ص١٥ . قال النحاس في شرح المعلقات ١/ ٢٣ : المهفهفة: الحسنة الخَلْقِ، ولا تكون مهفهفةً حتى تكون مع حُسْن خَلْقِها ضامرةَ الخاصرة. والمفاضة: المسترخية البطن. والسجنجل: المرآة، وقيل: الفضة.

(٢) في النسخ: وقال عكرمة، والمثبت هو الصواب، وأخرج هذه الأخبار الطبري ٢٤/ ٢٩٣ .

(٣) أخرجه الطبري ٢٤/ ٢٩٥ ، وذكره ابن الجوزي ٩/ ٨٣ ، وليس فيهما: يعني ترائب المرأة. وذكره مكي عن ابن عباس، كما في روح المعاني ٣٠/ ٩٧ ، وفيه: أطراف المرء، بدل: ترائب المرأة.

(٤) أخرجه الطبري ٢٤/ ٢٩٥ .

(٥) أخرجه الطبري ٢٤/ ٢٩٤ .

(٦) ذكرهما ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٤٦٥ .

(٧) أخرجه الحاكم ٢/ ٥٢٠ بلفظ: الترائب أربعة أضلاعٍ من كل جانب من أسفل الأضلاع.

(٨) في معاني القرآن ٥/ ٣١٢ .

(٩) أخرجه الطبري ٢٤/ ٢٩٦ .

والمشهورُ من كلام العرب: أنَّها عظامُ الصَّدر والنحر، قال دُريد بن الصمة:

فإنْ تُدْبِروا نأخُذْكُمُ في ظهورِكُمْ ... وإنْ تُقْبِلوا نأخُذْكم في الترائبِ(١)

وقال آخر:

وبَدَتْ كأنَّ ترائباً من نحرِها ... جَمْرُ الغَضَى في ساعدٍ تَتوقَّدُ(٢)

وقال آخر:

والزَّعْفرانُ على تَرائِبِها ... شَرِقٌ به اللَّبَّاتُ والنحرُ(٣)

وعن عكرمةَ: الترائبُ الصَّدر، ثم أنشد:

نِظامُ دُرٍّ على ترائبها(٤)

وقال ذو الرمّة:

ضَرَجْنَ البُرودَ عن ترائبِ حُرةٍ(٥)

أي: شَقَقْنَ. ويُروى «ضَرَحْنَ» بالحاء، أي: أَلْقَيْنَ(٦). وفي «الصحاح»: والتَّرِيبَةُ: واحدةُ الترائب، وهي عظامُ الصدرِ، مابين التَّرْقُوةِ والثَّنْدُوة. قال الشاعر:

---

(١) ديوان دريد بن الصمة ص٢٨، والأصمعيات ص١١٢، وفيهما: يأخُذْنكم، بدل: نأخذكم.

(٢) لم نقف عليه. قوله: جمر الغضى، الغضى: شجر من الأثل خشبه من أصلب الخشب، وجمره يبقى زماناً طويلاً لا ينطفئ. المعجم الوسيط (غضي).

(٣) البيت للمخبل، كما في اللسان (شرق)، وهو دون نسبة في معاني القرآن للفراء ٣/١٤٦، وتفسير الطبري ٢٢/٥٤٦، و٢٤/٢٩٦، وإعراب القرآن للنحاس ٤/٤٠١، ووقع في هذه المصادر: شَرِقاً، بدل: شرق، وذكره في البحر ٨/٤٥٣ برواية: شرقت. وهو برواية المصنف في النكت والعيون ٦/٢٤٧، واللسان (ترب).

(٤) أخرجه عبد بن حميد، كما في الدر المنثور ٦/٣٣٦، وفيه:

نظامُ اللؤلؤِ على ترائبها ... شَرِقاً به اللَّبَّاتُ والنحرُ

(٥) وعجزه: وعن أعْيِنٍ قتلننا كلَّ مقتل. وهو في الديوان ٣/١٤٦٧.

(٦) الصحاح (ضرج).

أشـرفَ ثَـديـاهـا عـلـى الـتَّـرِيـبِ[١]

وقال المثقَّبُ العَبْدِيُّ:

ومِـن ذَهَـبٍ يَـبـيـنُ[٢] عـلـى تَـرِيـبٍ كـلـونِ الـعـاجِ لـيـس بـذي غُـضـونِ

عن غير الجوهريِّ.

الثُّنْدُؤةُ للرجل: بمنزلةِ الثَّدي للمرأة. وقال الأصمعيُّ: مَغْرِزُ الثَّدْي. وقال ابنُ السِّكِّيت: هي اللحمُ الذي حَوْلَ الثَّدْيِ، إذا ضَمَمْتَ أوّلها هَمَزْتَ، وإذا فَتَحْتَ لم تَهْمِز[٣].

وفي التفسير: يخلق من ماء الرجل الذي يخرجُ من صُلْبِه العظم والعَصَب. ومن ماء المرأة الذي يخرجُ من ترائبها اللحم والدَّم. وقاله الأعمش[٤]. وقد تقدَّم مرفوعاً في أوَّلِ سورةِ آلِ عمران[٥]. وفي «الحجرات»: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ [الآية: ١٣] وقد تقدَّم.

وقيل: إنَّ ماء الرجلِ ينزلُ من الدماغ، ثم يجتمعُ في الأُنْثَيين[٦]. وهذا لا يُعارِضُ قولَه: «مِن بينِ الصُّلْبِ»؛ لأنه إنْ نَزَلَ من الدِّماغ، فإنَّما يمرُّ بين الصُّلْبِ والترائب.

وقال قتادةُ: المعنى: ويخرج من صُلْبِ الرجلِ وترائبِ المرأة. وحكى الفراء[٧]

---

(١) الصحاح (ترب)، والبيت للأغلب العجلي، كما في اللسان (ترب)، وعجزه: لم يَعْدُوَا التَّفليكَ في النُّتوبِ. فلَّك ثديها: استدار. والنتوب: النهود، وهو ارتفاعه. القاموس (فلك)، واللسان (ترب).

(٢) في (م) و(ز) وتفسير الطبري: يسن، ولم تجود في (د)، وسقط هذا الموضع من (ي)، والمثبت من (ظ) وروح المعاني ٣٠/ ٩٧ . والبيت في المفضليات ص٢٨٩ ، وتهذيب اللغة ١٤/ ٢٧٥ ، ومنتهى الطلب من أشعار العرب ٤/ ١٦ برواية: يلوح.

(٣) من قوله: الثندؤة للرجل، إلى هذا الموضع ليس في النسخ الخطية، والكلام من الصحاح (ثدأ).

(٤) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٣٦٦ .

(٥) ٥/ ١٤ .

(٦) أي: الخصيتين. القاموس (أنث).

(٧) في معاني القرآن ٣/ ٢٥٥ .

أنَّ مِثْلَ هذا يأتي عن العرب، وعليه فيكونُ معنى «من بينِ الصُّلْب»: من الصُّلْب.

وقال الحسن: المعنى: يخرج من صُلْبِ الرجلِ وترائبِ الرجلِ، ومن صُلْبِ المرأةِ وترائبِ المرأة(١).

ثم إنَّا نعلم أنَّ النطفة من جميع أجزاء البدن؛ ولذلك يُشْبِهُ الرجلُ والديه كثيراً. وهذه الحكمةُ في غَسْلِ جميعِ الجسدِ من خروج المني. وأيضاً المكْثِرُ من الجماع يجدُ وَجَعاً في ظَهْرِه؛ وليس ذلك إلَّا لخلوِّ صُلْبِه عمَّا كان مُحْتَبِساً من الماء.

ورَوَى إسماعيلُ عن أهلِ مكة: «يخرج من بين الصُّلُب» بضمِّ اللام. ورُوِيتْ عن عيسى الثقفيِّ(٢). حكاه المهدويُّ وقال: مَن جَعَلَ المنيَّ يخرج من بين صُلْبِ الرجل وترائبه، فالضميرُ في «يَخْرجُ» للماء. ومَن جَعَلَه من بين صُلْبِ الرجلِ وترائبِ المرأة، فالضميرُ للإنسان.

وقُرئ: «الصَّلَب»، بفتح الصَّاد واللام. وفيه أربُع لغاتٍ: صُلْبٌ وصُلُبٌ وصَلَبٌ وصَالبٌ. قال العَجَّاج:

فـي صَـلَـبٍ مِـثْـلِ العِـنـانِ الـمُـؤْدَمِ(٣)

وفي مَدْحِ النبيِّ ﷺ:

تُـنْـقَـل مـن صَـالـبٍ إلـى رَحِـمِ(٤)

الأبياتُ مشهورةٌ معروفةٌ.

---

(١) ذكره بنحوه ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٤٦٥ .

(٢) القراءات الشاذة ص١٧١ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٦٥ .

(٣) الكشاف ٤/ ٢٤١ ، وقد سلف نحو هذا الكلام ص٢٠٦ من هذا الجزء، والبيت في ديوان العجاج ص٢٨١ ، وقبله: ريَّا العظامِ فَعْمةُ المخدَّم. قال شارح الديوان: الفَعْم: الممتلئ، والمخدَّم: موضع الخِدام، وهو الخلخال. وقال السيرافي في شرح أبيات إصلاح المنطق ص١٢٣ : ريَّا: ليست بمهزولةٍ تَبِينُ عظامها، وصُلْبُها مثلُ العنان نعمةً واستواءً. والعنان المؤدم: الذي لم تُقْشَر أَدَمتُه، فهو الينُ له. وقوله: في صَلَب، أي: مع صَلَبٍ. وفي أساس البلاغة (عنن): امرأة معنَّنة، أي: مجدولة جَدْلَ العنان.

(٤) سلف ١٤/ ٨٧ ، و ص١٧٥ و ص٢٠٦ من هذا الجزء.

﴿إِنَّهُۥ﴾ أي: إنَّ الله جلَّ ثناؤه ﴿عَلَىٰ رَجْعِهِۦ﴾ أي: على ردِّ الماءِ في الإحليل، ﴿لَقَادِرٌ﴾ كذا قال مجاهدٌ والضحاك[١]. وعنهما أيضاً أنَّ المعنى: إنَّه على ردِّ الماءِ في الصُّلْب. وقاله عكرمة[٢].

وعن الضحَّاك أيضاً: أنَّ المعنى: إنَّه على ردِّ الإنسان ماءً كما كان لقادر[٣]. وعنه أيضاً أنَّ المعنى: إنه على ردِّ الإنسانِ من الكِبَر إلى الشباب، ومن الشباب إلى الكبر، لقادر؛ كذا في المهدويِّ. وفي الماوردِيِّ والثعلبيِّ: إلى الصِّبا، ومن الصبا إلى النطفة[٤].

وقال ابن زيد: إنه على حَبْسِ ذلك الماءِ حتى لا يخرج، لقادر[٥].

وقال ابن عباس وقتادةُ والحسن وعكرمةُ أيضاً: إنه على ردِّ الإنسانِ بعد الموتِ لقادر[٦]. وهو اختيارُ الطبريِّ[٧]. الثعلبيُّ: وهو الأقوى؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾.

قال الماورديُّ[٨]: ويحتمل: إنه على أنْ يُعِيدَه إلى الدنيا بعد بَعْثِه في الآخرة؛ لأنَّ الكفار يَسألون الله تعالى فيها الرَّجْعةَ.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ⑨﴾

فيه مسألتان:

---

(١) أخرجه الفراء في معاني القرآن ٣/ ٢٥٥، والطبري ٢٤/ ٢٩٧ عن مجاهد.

(٢) الوسيط ٤/ ٤٦٥ عن عكرمة والضحاك، وأخرجه عن عكرمة الطبري ٢٤/ ٢٩٧.

(٣) أخرجه الطبري ٢٤/ ٢٩٨.

(٤) النكت والعيون ٦/ ٢٤٧، ومثله في تفسير الطبري ٢٤/ ٢٩٩، وإعراب القرآن للنحاس ٥/ ٢٠٠، وزاد المسير ٩/ ٨٤.

(٥) زاد المسير ٩/ ٨٤، وأخرجه بنحوه الطبري ٢٤/ ٢٩٩.

(٦) النكت والعيون ٦/ ٢٤٧، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٦٦، وأخرجه الطبري ٢٤/ ٢٩٩-٣٠٠ عن قتادة.

(٧) في التفسير ٢٤/ ٣٠٠.

(٨) في النكت والعيون ٦/ ٢٤٧.

الأولى: العاملُ في «يومَ» ـ في قولِ مَن جَعَلَ المعنى: إنَّه على بعثِ الإنسان ـ قولُه «لقادر»، ولا يَعْملُ فيه «رَجْعِه»؛ لمَا فيه من التَّفْرِقةِ بين الصِّلةِ والموصولِ بخبرِ «إنَّ» (١).

وعلى الأقوال الأُخَر التي في «إنه على رجْعِه لقادِر»، يكونُ العاملُ في «يومَ» فعلٌ مُضْمَرٌ، ولا يعملُ فيه «لقادر»؛ لأنَّ المراد: في الدنيا. و﴿تُبْلَى﴾ أي: تُمتَحَنُ وتُختَبَر؛ قال أبو الغُول الطُّهَوِيُّ:

ولا تُبْلَى بَسالَتُهُمْ وإنْ هُمْ ... صَلُوا بالحَرْبِ حِيناً بعدَ حِينِ (٢)

ويروى: «تَبْلَى بَسالَتُهم»، فَمَن رواه «تُبلى» ـ بضم التاء ـ جَعَلَه من الاختبار، وتكون البسالةُ على هذه الرواية: الكراهةَ، كأنه قال: لا يُعْرفُ لهم فيها كراهةٌ. و«تُبْلى»: تُعْرَف. قال الراجز:

قد كنتَ قبلَ اليومِ تَزْدَرِيني ... فاليومَ أَبْلُوكَ وتَبْتَلِيني (٣)

أي: أَعْرِفُكَ وتَعْرِفُني. ومَن رواه: تَبْلَى ـ بفتح التاء ـ فالمعنى: أنهم لا يَضْعُفون عن الحرب وإنْ تَكَرَّرتْ عليهم زمانًا بعدَ زمانٍ. وذلك أنَّ الأمورَ الشِّدادَ إذا تَكَرَّرتْ على الإنسان هَدَّتْه وأَضْعفَتْه.

وقيل: «تُبْلَى السرائر»، أي: تخرج مخبَّآتُها وتَظْهَر، وهو كلُّ ما كان استسرَّه

---

(١) وأجاز بعض العلماء أن يكون العامل فيه «رجعه»، مثل الطبري ٢٤/ ٢٠٠ ، والزمخشري ٤/ ٢٤١ . وقال ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٤٦٦ : قالوا: وفي المصدر من القوة بحيث يعمل وإن حال خبر إنَّ بينه وبين معموله، وقال الحذَّاق: العامل فعل مضمر تقديره: فرَجْعُه يومَ تبلى السرائر.

(٢) أمالي القالي ١/ ٢٦٠ ، والصحاح (صلي)، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١/ ١٣٩ ، والخزانة ٦/ ٤٣٣ . قال البكري في سمط اللآلي ١/ ٥٨٠ : أي: لا يختبر ما عندهم من النجدة والبأس وإن طال أمد الحرب. اهـ. وأبو الغول قال عنه الآمدي في المؤتلف والمختلف ص٢٤٥ : هو من قوم من بني طهية يقال لهم: بنو عبد شمس بن أبي سود، وكان يكنى أبا البلاد، وقيل له: أبو الغول؛ لأنه فيم زعم رأى غولاً فقتلها. وقال البغدادي في الخزانة ٦/ ٤٤٠ : لم أقف على كونه إسلاميًّا أو جاهليًّا.

(٣) ذكره الشوكاني في فتح القدير ٥/ ٤٢٠ .

الإنسانُ من خيرٍ أو شرٍّ، وأضْمرَه من إيمانٍ أو كفر، كما قال الأَحْوَصُ:

سيَبْقَى لها[1] في مُضْمَرِ القلبِ والحَشَا سريرةُ وُدٍّ يومَ تُبْلَى السَّرائرُ

الثانية: رُوِيَ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «ائتَمنَ الله تعالى خَلْقَه على أربعٍ: على الصلاة، والصوم، والزكاة، والغُسْلِ، وهي السرائرُ التي يَخْتَبِرُها الله عزَّ وجلَّ يومَ القيامة»[2]. ذَكَره المَهْدَويُّ.

وقال ابنُ عمرَ: قال النبيُّ ﷺ: «ثلاثٌ مَن حافَظَ عليها فهو وليُّ الله حقًّا، ومَن اختانَهنَّ فهو عدوُّ الله حقًّا: الصلاةُ، والصَّوْمُ، والغُسْلُ من الجنابة»[3] ذَكَره الثعلبيُّ.

وذكر الماوَرْدِيُّ عن زيد بن أسلم قال: قال رسول الله ﷺ: «الأمانةُ ثلاثٌ: الصلاةُ، والصومُ، والجنابةُ. استَأْمَنَ الله عزَّ وجلَّ ابنَ آدمَ على الصلاة، فإنْ شاء قال: صلَّيْتُ، ولم يُصَلِّ. استأمنَ الله عزَّ وجلَّ ابنَ آدمَ على الصوم، فإن شاء قال: صُمْتُ، ولم يَصُمْ. استأمنَ الله عزَّ وجلَّ ابنَ آدمَ على الجنابة، فإن شاء قال: اغْتَسَلْتُ، ولم يَغْتَسِلْ، اقرؤوا إنْ شئتُم: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾[4]»، وذكره الثعلبيُّ عن عطاء قوله[5].

وقال مالكٌ في روايةِ أشهبَ عنه، وسألْتُه عن قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾: أبَلَغكَ أنَّ الوضوءَ مِن السَّرائر؟ قال: قد بلغني ذلك فيما يقولُ الناسُ، فأمَّا حديثٌ أُحدِّثُ به فلا[6]. والصَّلاةُ من السرائر، والصِّيامُ من السرائر، إنْ شاء قال: صلَّيتُ، ولم يُصَلِّ. ومِن السرائرِ ما في القلوب، يجزي اللهُ به العبادَ.

---

(١) في (ظ): سيبلى لكم، وهو موافق لما في الشعر والشعراء ١/ ٥١٨ ، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في الديوان ص٨٤ ، والخزانة ٢/ ١٨ .

(٢) أخرجه البيهقي في الشعب (٢٧٥١)، والواحدي في الوسيط ٤/ ٤٦٦ من حديث أبي الدرداء ﷺ.

(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط (٨٩٥٦) من حديث أنس ﷺ. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ١/ ٢٩٣ : فيه عدي بن الفضل وهو ضعيف.

(٤) النكت والعيون ٦/ ٢٤٨ ، وسلف بنحوه ١٧/ ٢٤٥ .

(٥) أخرجه الطبري ٢٤/ ٣٠٠ .

(٦) في أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٩٠٦ (والكلام منه): فأما حديث أخذته فلا.

قال ابن العربي: قال ابن مسعود: يُغفر للشهيدِ إلّا الأمانةَ، والوضوءُ من الأمانة، والصلاةُ والزكاةُ من الأمانة، والوديعةُ من الأمانة، وأشدُّ ذلك الوديعةُ؛ تُمَثَّلُ له على هيئتها يومَ أَخَذَها، فيُرْمَى بها في قَعْرِ جهنَّم، فيقال له: أَخْرِجْها، فَيَتْبَعُها فيجعلها في عُنُقِه، فإذا رَجَا أن يخرج بها زَلَّتْ منه، فيتبعُها، فهو كذلك دَهْرَ الداهرين. وقال أُبيُّ بن كعب: من الأمانةِ أنِ ائتُمنتِ المرأةُ على فَرْجِها[١].

قال أشهبُ: قال لي سفيان: في الحيضة والحمل، إن قالت: لم أَحِضْ وأنا حامِلٌ صُدِّقتْ، ما لم تأتِ بما يُعْرَفُ فيه أنَّها كاذبةٌ. وفي الحديث: «غُسْلُ الجنابةِ من الأمانة»[٢].

وقال ابن عمرَ: يُبدي اللهُ يومَ القيامةِ كلَّ سرٍّ خفيٍّ، فيكونُ زيناً في الوجوه، وشَيْناً في الوجوه[٣]. واللهُ عالمٌ بكلِّ شيءٍ، ولكنْ يظهر[٤] علامات الملائكةِ والمؤمنين.

قوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ۝١٠﴾

قوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُۥ﴾ أي: للإنسان ﴿مِن قُوَّةٍ﴾ أي: منعةٍ تَمنعُه ﴿وَلَا نَاصِرٍ﴾ ينصرُه ممَّا نزل به. وعن عِكرمةَ «فما له مِن قوةٍ لا ناصِرٍ» قال: هؤلاء الملوكُ، مالهم يومَ القيامةِ من قوةٍ ولا ناصرٍ. وقال سفيان: القوّة: العَشِيرة. والناصر: الحليف[٥].

وقيل: «فماله من قوةٍ» في بدنه، و«لا ناصِرٍ» من غيره يمتنعُ به من الله. وهو معنى قولِ قتادة[٦].

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٩٠٦ . وقول أبيٍّ ﷺ سلف ١٧/ ٢٤٥ .

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٩٠٦ ، وقوله: غسل الجنابة. . . ، أخرجه بنحوه أبو داود (٤٢٩) من حديث أبي الدرداء ﷺ موقوفاً، وسلف ١٧/ ٢٤٥ .

(٣) الوسيط ٤/ ٤٦٦ ، وتفسير البغوي ٤/ ٤٧٤ .

(٤) في (ظ): تظهر.

(٥) أخرجه الطبري ٢٤/ ٣٠١-٣٠٢ .

(٦) النكت والعيون ٦/ ٢٤٨ ، وأخرجه عن قتادة عبد الرزاق ٢/ ٣٦٥ ، والطبري ٢٤/ ٣٠١ .

قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ⑪ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ⑫ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ⑬ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ⑭ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ⑮ وَأَكِيدُ كَيْدًا ⑯﴾

قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ﴾ أي: ذاتِ المطر. تَرجِعُ كلَّ سنةٍ بمطرٍ بعدَ مطرٍ. كذا قال عامَّةُ المفسِّرين. وقال أهلُ اللغةِ: الرَّجْعُ: المطر، وأنشدوا للمُتَنَخِّل يصفُ سيفاً شبَّهه بالماء:

أبيضُ كالرَّجْعِ رَسُوبٌ إذا ... ما ثاخ في مُحْتَفَلٍ يَخْتَلي[1]

قال الخليلُ: الرَّجْعُ: المطر نَفْسُه، والرَّجْعُ أيضاً: نباتُ الربيع[2]. وقيل: «ذاتِ الرَّجْعِ»، أي: ذاتِ النَّفْع[3].

وقد يُسمَّى المطرُ أيضاً أَوْباً، كما يسمَّى رَجْعاً، قال:

رَبَّاءُ شَمَّاءَ لا يأوِي لِقُلَّتِها ... إلَّا السَّحابُ وإلَّا الأَوْبُ والسَّبَلُ[4]

وقال عبد الرحمن بن زيد: الشمسُ والقمرُ والنجومُ يَرْجِعْنَ في السماء، تَطْلعُ من ناحيةٍ وتَغيبُ في أخرى[5].

وقيل: ذاتِ الملائكة؛ لرجوعهم إليها بأعمال العباد.

---

(١) ديوان الهذليين ٢/ ١٢، ومجاز القرآن ٢/ ٢٩٤، ومعاني القرآن للزجاج ٥/ ٣١٢، وتفسير الطبري ٢٤/ ٣٠٢، والصحاح (رجع) و(ثوخ). قال شارح ديوان الهذليين: المحتفل: مُعْظَم الشيء، محتفل الوادي: معظمه، وثاخ وساخ واحد، أي: غاب. يختلي: يقطع. والرسوب: الذي إذا وقع غَمُضَ مكانه لسرعة قَطْعِه. اهـ. وقال الجوهري: ثاخت قدمه بالوحل تثوخ وتثيخ: خاضت وغابت فيه.

(٢) العين ١/ ٢٢٧.

(٣) الصحاح (رجع).

(٤) الكشاف ٤/ ٢٤١، والبيت للمتنخل الهذلي، وهو في ديوان الهذليين ٢/ ٣٧ ضمن قصيدة يرثي فيها الشاعر ابنه. قوله: ربَّاء، هو صيغة مبالغة، من ربأت الجبل: إذا صعدته، فيكون رباءُ شمَّاءَ، كقولهم: طلَّاعُ أَنْجُدٍ، وهو مضاف إلى شماء، والمعنى: ربَّاءُ هضبةٍ شماءَ. وقوله: لايدنو لقلَّتها، أي: لرأسها، أي: لا يعلو هذه الهضبة من طولها إلا السحاب، والسَّبَل: المطر النازل. ينظر الخزانة ٥/ ٣-٦.

(٥) أخرجه بنحوه الطبري ٢٤/ ٣٠٤.

وهذا قَسَمٌ. ﴿وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ﴾ قَسَمٌ آخَرُ، أي: تتصدَّعُ عن النباتِ والشَّجرِ والثِّمارِ والأنهارِ، نظيرُه: ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا﴾ الآيةَ [عبس:٢٦]. والصَّدْعُ: بمعنى الشَّقِّ؛ لأنَّه يَصْدَعُ الأرضَ، فتنصَدِعُ به. وكأنه قال: والأرضِ ذاتِ النباتِ؛ لأنَّ النباتَ صادِعٌ للأرض[١].

وقال مجاهدٌ: والأرضِ ذاتِ الطُّرُقِ التي تَصْدَعُها المُشَاةُ. وقيل: ذاتِ الحَرْثِ؛ لأنه يَصْدَعُها. وقيل: ذاتِ الأموات؛ لانْصِداعِها عنهم للنشور[٢].

﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾ على هذا وَقَعَ القَسَم. أي: إنَّ القرآن يَفْصِلُ بينَ الحقِّ والباطل. وقد تقدَّم في مقدمة الكتاب[٣] ما رواه الحارثُ عن عليٍّ ﷺ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «كتاب اللهِ فيه خَبَرُ ما قَبْلَكم وحُكْمُ ما بَعْدَكم، هو الفَصْلُ ليس بالهَزْلِ، مَن تَرَكَه من جَبَّارٍ قَصَمَه الله، ومَن ابْتَغَى الهُدَى في غيره أَضَلَّه الله».

وقيل: المرادُ بالقول الفَصْلِ: ما تقدَّم من الوعيدِ في هذه السورةِ، من قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾[٤].

﴿وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ﴾ أي: ليس القرآنُ بالباطِلِ واللَّعِب. والهَزْلُ: ضدُّ الجِدِّ، وقد هَزَلَ يَهْزِلُ. قال الكُميت:

يُجَدُّ بنا في كلِّ يومٍ ونَهْزِلُ[٥]

﴿إِنَّهُمْ﴾ أي: إنَّ أعداءَ الله ﴿يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ أي: يمكُرون بمحمدٍ ﷺ وأصحابِه

---

(١) أخرج هذا القول عبد الرزاق ٢/ ٣٦٥ ، والطبري ٢٤/ ٣٠٤ عن ابن عباس قال: ﴿وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ﴾ قال: ذات النبات.

(٢) ذكر هذه الأقوال الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٢٤٩ .

(٣) ١/ ١٠-١١ .

(٤) النكت والعيون ٦/ ٢٤٩ .

(٥) وصدره: أرانا على حبِّ الحياة وطولها، وهو في شرح هاشميات الكميت ص١٤٨ . قال ابن زيد الأسدي الشارح: يقول: نحب أن تطول حياتنا، ونحن كلَّ يوم نقرب إلى آجالنا.

مَكْراً. ﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ أي: أُجازيهم جزاءَ كَيْدِهم. وقيل: هو ما أَوْقَع الله بهم يومَ بدرٍ من القتل والأسر.

وقيل: كَيْدُ اللهِ: استِدْراجُهم من حيث لا يعلمون. وقد مضى هذا المعنى في أوّلِ «البقرة» عند قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [الآية: ١٥] مُسْتَوفًى.

قوله تعالى: ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴿١٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: أَخِّرهم، ولا تَسْألِ اللهَ تعجيلَ إهلاكِهم، وارْضَ بما يُدبِّره في أمورهم. ثم نُسِخَتْ بآيةِ السيفِ: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥](١).

﴿أَمْهِلْهُمْ﴾ تأكيدٌ. ومَهَّل وأَمْهَلَ: بمعنىً، مثل: نَزَّل وأَنْزل. وأَمْهَلَه: أَنْظَرَه، ومهَّله تمهيلاً، والاسمُ: المُهْلَة. والاسْتِمهالُ: الاستنظار. وتَمهَّلَ في أمره، أي: اتَّأَدَ. واتْمَهَلَ اتْمِهْلالاً، أي: اعْتدَلَ وانْتَصبَ. والاتْمِهلالُ أيضاً: سكونٌ وفتور(٢). ويقال: مهلاً يافلانُ، أي: رِفْقاً وسكوناً(٣).

﴿رُوَيْدًۢا﴾ أي: قريباً، عن ابن عباس. قتادة: قليلاً(٤)، والتقدير: أَمْهِلْهم إمهالاً قليلاً. والرُّوَيْد في كلام العرب: تصغيرُ رُوْد. وكذا قال أبو عبيد(٥)، وأنشد:

كأنَّها ثَمِلٌ يمشي على رُودِ(٦)

---

(١) الوسيط ٤/٤٦٧، والمحرر الوجيز ٥/٤٦٧، ونواسخ القرآن لابن الجوزي ص٢٥١، قال ابن الجوزي: وإذا قلنا: إنه وعيد، فلا نسخ.

(٢) الصحاح (مهل).

(٣) تهذيب اللغة ٦/٣٢١.

(٤) أخرج القولين الطبري ٢٤/٣٠٧-٣٠٨.

(٥) في (د): عبيدة.

(٦) الصحاح (رود)، وصدره: تكاد لا تثلم البطحاء وطأتها، والبيت للجَموح الظَّفَري، كما في اللسان (رود)، وذكره الزمخشري في أساس البلاغة (رويد) برواية: خطوتها، بدل: وطأتها. وذكره ابن قتيبة في تأويل مشكل القرآن ص٤٢٣ برواية: كأنها مِثْلُ مَن يمشي على رُودِ.

أي: على مَهَل. وتفسيرُ «رُوَيداً»: مَهْلاً، وتفسيرُ رُوَيْدَكَ: أَمْهِلْ؛ لأنَّ الكافَ إنَّما تَدْخُله إذا كان بمعنى أفْعِلْ دون غيرِه[١]، وإنَّما حرِّكت الدالُ لالتقاءِ الساكِنَيْنِ، فنُصِبَ نَصْبَ المصادرِ، وهو مصغَّرٌ مأمورٌ به؛ لأنه تصغيرُ التَّرْخيمِ من إرواد، وهو مصدرُ أَرْوَدَ يُرْوِد[٢]. وله أربعةُ أَوْجُهٍ: اسمٌ للفعل، وصفةٌ، وحالٌ، ومصدرٌ. فالاسمُ نحوُ قولِكَ: رُوَيْدَ عَمْراً، أي: أَرْوِدْ عمراً، بمعنى أَمْهِلْه. والصفةُ نحوُ قولِكَ: ساروا سَيْراً رُوَيْداً، والحالُ نحوُ قولك: سار القومُ رُوَيْدًا، لمَّا اتَّصلَ بالمعرفة صار حالاً لها. والمصدرُ نحو قولك: رُوَيْدَ عَمرٍو بالإضافة، كقوله تعالى: ﴿فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ [محمد: ٤]. قال جميعهَ الجوهريُّ[٣].

والذي في الآية من هذه الوجوه أن يكون نعتًا للمصدر، أي: إمهالاً رُوَيداً. ويجوزُ أن يكون للحال، أي: أَمْهِلْهم غيرَ مستعجِلٍ لهم العذابَ. خُتِمَتِ السورة.

---

(١) وتقول رويدَكَ عمراً، أي: أَمْهِلْه وهذه الكاف للخطاب لا موضعَ لها من الإعراب لأنها ليست بِاسْمٍ، ورويد غير مضاف إليها. وهو متعدٍّ إلى عمرو؛ لأنه اسم سمِّي به الفعل يعمل عمل الأفعال. الصحاح (رود).

(٢) وتقول: أَرْوِدْه إرواداً، بمعنى: أَمْهِلْه إمهالاً، ثم صغَّروا الإرواد تصغير الترخيم، ثم نقلوه وسمَّوْا به فِعْلَه فقالوا: رويدَ عمراً. وتصغير الترخيم: هو أن تصغر الاسم على حذف الزوائد التي فيه، كقولك في حارث: حريث، وفي سرحوب: سُرَيْحِب؛ لأن الواو فيه زائدة. ينظر المقتضب ٢/ ٢٩٣، وأوضح المسالك ص٥٤٧-٥٤٨.

(٣) في الصحاح (رود).

سورة «الأعلى»

مَكِّيةٌ في قولِ الجمهورِ، وقال الضحَّاكُ: مَدَنِيَّةٌ[1]. وهي تسعَ عَشْرةَ آيةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾

يُستحبُّ للقارئ إذا قرأ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ أن يقول عَقِبَه: سبحانَ ربِّي الأَعْلَى؛ قاله النبيُّ ﷺ، وقاله جماعةٌ من الصحابة والتابعين، على ما يأتي.

وروى جعفر بن محمد عن أبيه عن جدِّه قال: إنَّ لله تعالى مَلَكاً يقال له: حزقيائيل، له ثمانيةَ عَشَرَ ألفَ جَناحٍ، ما بين الجناحِ إلى الجناحِ مَسيرةُ خمسِ مئةِ عام، فخطَر له خاطِرٌ: هل تَقْدِرُ أن تُبْصِر العرشَ جميعَه؟ فزادَه الله أجنحةً مِثْلَها، فكان له ستةٌ وثلاثون ألفَ جناحٍ، ما بين الجناحِ إلى الجناح خمسُ مئةِ عامٍ. ثم أَوْحَى الله إليه: أيُّها المَلَك، أنْ طِرْ، فطار مقدارَ عشرين ألفَ سنةٍ، فلم يبلغ قائمةً[2] من قوائم العرش. ثم ضاعف الله في الأجنحةِ والقوةِ، وأَمَره أن يطير، فطار مقدارَ ثلاثين ألفَ سنةٍ أخرى، فلم يَصِلْ أيضاً، فأَوْحَى الله إليه: أيُّها المَلَك، لو طِرْتَ إلى نفخِ الصورِ مع أَجْنِحَتِك وقوتك لم تبلغ ساقَ عرشي. فقال المَلَك: سبحانَ ربِّي الأعلى؛ فأنزل الله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾، فقال النبيُّ ﷺ: «اجْعَلوها في سُجودكم». ذكره الثعلبيّ في «كتاب العرائس» له[3]. وقال ابن عباس والسُّديُّ: معنى ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ أي: عَظِّمْ ربَّك الأعلى. والاسمُ صِلةٌ قُصِد بها تعظيمُ المسمَّى؛ كما قال لَبِيد:

---

(١) حكاه عنه النقاش، كما في المحرر الوجيز ٥/٤٦٨، قال ابن عطية: وهو ضعيف، وإنما دعا إليه قولُ مَن قال: إنَّ ذكر صلاة العيد فيها.

(٢) في (م): رأس قائمة.

(٣) ص١٦.

إلى الحَوْلِ ثم اسمُ السلامِ عليكما[١]

وقيل: نَزِّه ربَّك عن السوء، وعمَّا يقولُ فيه المُلْحِدون.

وذكر الطبريّ أنَّ المعنى: نزّه اسمَ ربِّك عن أن يسمَّى به أحدٌ سواه[٢].

وقيل: نَزِّهْ تَسْمِيةَ ربِّك وذِكْرَكَ إياه، أن تَذْكُره إلَّا وأنت خاشعٌ مُعَظِّمٌ، ولذِكْرِه محترِمٌ. وجعلوا الاسمَ بمعنى التَّسْمِيةِ[٣]، والأَوْلَى أن يكون الاسمُ هو المسَمَّى. روى نافع عن ابن عمر قال: لا تَقُلْ على اسمِ الله؛ فإنَّ اسمَ الله هو الأعلى[٤].

وروى أبو صالح عن ابن عباس: صَلِّ بأمر ربِّك الأعلى[٥]. قال: وهو أن تقولَ: سبحان ربِّي الأعلى. وروي عن عليٍّ ﷺ وابنِ عباس وابنِ عمر وابنِ الزبير وأبي موسى وعبد الله بن مسعود ﷺ: أنَّهم كانوا إذا افْتَتَحوا قراءةَ هذه السورةِ قالوا: سبحان ربِّيَ الأعلى[٦]؛ امتثالاً لأمره في ابتدائها. فيُختارُ الاقتداءُ بهم في قراءتهم، لا أنَّ سبحان ربِّي الأعلى من القرآن؛ كما قال بعضُ أهلِ الزَّيغ.

وقيل: إنَّها في قراءةِ أُبيٍّ: «سبحان ربِّي الأعلى». وكان ابنُ عمر يقرؤها كذلك[٧].

وفي الحديث كان رسولُ الله إذا قرأها قال: «سبحان ربِّيَ الأعلى». قال أبو بكر

---

(١) وعجزه: ومَن يَبْكِ حولاً كاملاً فقد اعتذرْ، وهو في ديوان لبيد ص٧٩ ، وسلف ١/ ١٥٣ ، والكلام من النكت والعيون ٦/ ٢٥١ .

(٢) النكت والعيون ٦/ ٢٥١ ، وينظر تفسير الطبري ٢٤/ ٣١١ .

(٣) تفسير الطبري ٢٤/ ٣١٠-٣١١ ، وتفسير البغوي ٤/ ٤٧٥ .

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة ٣/ ٣٨٤-٣٨٥ .

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٤٧٥ ، وذكره أبو الليث ٣/ ٤٦٩ عن الكلبي.

(٦) أخرج هذه الآثار ابن أبي شيبة ٢/ ٥٠٨ -٥٠٩ ، والطبري ٢٤/ ٣٠٩-٣١٠ .

(٧) النكت والعيون ٦/ ٢٥٢ ، وأخرج الطبري ٢٤/ ٣٠٩ من طريق سعيد بن جبير عن ابن عمر أنه كان يقرأ: «سبح اسم ربك الأعلى سبحان ربي الأعلى الذي خلق فسوى». قال: وهي في قراءة أبي بن كعب كذلك.

الأنباريُّ: حدَّثني محمد بنُ شَهْريار، قال: حدَّثنا حسين بن الأسود، قال: حدَّثنا عبد الرحمن بن أبي حَمَّاد قال: حدَّثنا عيسى بن عمر، عن أبيه، قال: قرأ عليّ بن أبي طالب ﷺ في الصلاة: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾، فقال: سبحان ربِّي الأعلى، فلمَّا انقضت الصلاةُ قيل له: يا أمير المؤمنين، أتَزيدُ هذا في القرآن؟ قال: ما هو؟ قالوا: سبحان ربِّي الأعلى. قال: لا، إنَّما أُمِرنا بشيءٍ فقُلْتُه[١].

وعن عقبةَ بن عامر الجُهَنيِّ قال: لمَّا نزلت ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ قال رسول الله ﷺ: «اجْعَلوها في سجودكم»[٢].

وهذا كلُّه يدلُّ على أنَّ الاسم هو المسمَّى؛ لأنهم لم يقولوا: سبحان اسمِ ربِّي الأعلى.

وقيل: إنَّ أوّلَ مَن قال: سبحان ربي الأعلى، ميكائيلُ عليه السلام. وقال النبيُّ ﷺ لجبريل: «يا جبريلُ، أَخْبِرْني بثوابِ مَن قال: سبحان ربِّي الأعلى، في صلاته أو في غيرِ صلاته». فقال: «يا محمدُ، ما مِن مؤمنٍ ولا مؤمنةٍ يقولهُا في سجوده أو في غير سجوده، إلَّا كانت له في ميزانه أثْقلَ من العرش والكرسيّ وجبالِ الدنيا، ويقول الله تعالى: صَدَقَ عبدي، أنا فوقَ كلِّ شيءٍ، وليس فوقي شيءٌ، اشْهَدوا يا ملائكتي أنِّي قد غَفَرْتُ له، وأدْخلْته الجنةَ. فإذا مات زاره مِيكائيلُ كلَّ يومٍ، فإذا كان يومُ القيامةِ حَمَلَه على جناحه، فأوْقَفه بين يدي الله تعالى، فيقول: ياربِّ، شَفِّعني فيه، فيقول: قد شَفَّعْتُك فيه، فاذهَبْ به إلى الجنة»[٣].

وقال الحسن: «سبِّحِ اسمَ ربِّك الأعلى» أي: صلِّ لربِّك الأعلى. وقيل: أي:

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٣٣٨ وعزاه لابن الأنباري في المصاحف وللفريابي وابن أبي شيبة وعبد بن حميد.

(٢) أخرجه أحمد (١٧٤١٤)، وأبو داود (٨٦٩)، وابن ماجه (٨٨٧)، وسلف عند تفسير الآية (٩٦) من سورة الواقعة.

(٣) أخرجه القزويني في التدوين في أخبار قزوين ٣/ ٢٥٧-٢٥٨ دون قوله: فإذا كان يوم القيامة حمله على جناحه... ، وفي إسناده محمد بن الحسن النقاش المفسر، قال عنه البرقاني: كل حديث النقاش منكر. الميزان ٣/ ٥٢٠.

صلِّ بأسماء الله، لا كما يصلِّي المشركون بالمُكَاءِ والتَّصْدِيَة.

وقيل: ارْفعْ صوتك بذِكْرِ ربِّك. قال جرير:

قَبَحَ الإلهُ وُجوهَ تَغْلِبَ كلَّما سَبَحَ الحجيجُ وكَبَّروا تَكْبيرا[١]

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ﴿٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ قد تقدَّم معنى التَّسْويةِ في «الانفطار» وغيرِها[٢].

أي: سوَّى ماخَلَق، فلم يكن في خَلْقِه تَثْبيج[٣]. وقال الزجَّاج: أي: [خَلَقَ الإنسانَ سَوِيًّا. ومعنى «سوَّى»] عدَّل قامَتَه[٤]. وعن ابن عباس: حَسَّنَ ما خَلَق.

وقال الضحَّاك: خَلَق آدمَ فسوَّى خَلْقَه. وقيل: خَلَق في أصلاب الآباءِ، وسوَّى في أرحام الأمَّهات. وقيل: خَلَقَ الأجساد، فسوَّى الأفهام[٥]. وقيل: أي: خَلَق الإنسانَ وهيَّأه للتكليف.

﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ قرأ عليٌّ ﷺ والسُّلَميُّ والكسائيُّ: «قَدَر» مخفَّفةَ الدَّالِ، وشدَّد الباقون[٦]. وهما بمعنًى واحدٍ. أي: قدر ووفَّق لكلِّ شَكْلٍ[٧] شَكْلَه، «فَهَدَى» أي:

---

(١) النكت والعيون ٦/ ٢٥١، والتاج (سبح). وهو في ديوان جرير ١/ ٥٢ برواية:

قبح الإله وجوه تغلب كلما شَبَح الحجيج وكبروا إهلالا

قال محمد بن حبيب شارح الديوان: الشبح: رفع الأيدي بالدعاء، والإهلال: رفع الصوت.

(٢) ينظر ص١٢٣ من هذا الجزء.

(٣) أي: تخليط. اللسان (ثبج).

(٤) الوسيط ٤/ ٤٦٩، وتفسير البغوي ٤/ ٤٧٥، وما بين حاصرتين منهما. وقول الزجاج في معاني القرآن ٥/ ٣١٥ دون قوله: ومعنى سوى...

(٥) ذكر هذه الأقوال الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٢٥٢.

(٦) السبعة ص٦٨٠، والتيسير ص٢٢١، ومعاني القرآن للفراء ٣/ ٢٥٦.

(٧) في (ظ): شيء.

أَرْشَدَ. قال مجاهد: قدَّر الشقاوةَ والسعادةَ، وهَدى للرُّشدِ والضلالة. وعنه[1] قال: هَدَى الإنسانَ للسعادة والشَّقاوة، وهَدَى الأنعامَ لمراعيها.

وقيل: قدَّر أقواتَهم وأرزاقهم، وهداهم لمعاشهم إن كانوا إنساً، ولمراعيهم إنْ كانوا وَحْشاً.

وروي عن ابن عباس والسُّديِّ ومقاتلٍ والكلبيِّ في قوله: «فَهَدَى»، قالوا: عَرَّفَ خَلْقَه كيف يأتي الذَّكَرُ الأنثى، كما قال في «طه»: ﴿ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [الآية: ٥٠] أي: الذَّكَرَ للأنثى.

وقال عطاء: جَعَل لكلِّ دابَّةٍ ما يُصْلِحُها، وهداها له[2].

وقيل: خَلَق المنافعَ في الأشياء، وهدى الإنسانَ لوجه استخراجِها منها.

وقيل «قَدَّر فهدَى»: قدَّر لكلِّ حيوانٍ ما يُصْلِحهُ، فهداه إليه، وعرَّفه وجهَ الانتفاعِ به. يُحكَى أنَّ الأفعى إذا أتت عليها ألفُ سنةٍ عَمِيتْ، وقد أَلْهمَها الله أنَّ مَسْحَ العينِ بورقِ الرازيانج الغضِّ يردُّ إليها بَصَرَها، فربما كانت في برِّيةٍ بينها وبين الريف مسيرةُ أيامٍ، فتَطوِي تلك المسافة على طولها وعلى عَمَاها، حتى تهجُم في بعض البساتين على شجرةِ الرازيانج لا تخطئُها، فتحكُّ بها عينها وترجع باصرةً بإذن الله تعالى[3].

وهداياتُ الإنسانِ إلى مالا يُحَدُّ من مصالحه، ومالا يُحْصَرُ من حَوَائجه، في أغذيته وأدويته، وفي أبوابِ دنياه ودِينِه، وإلهاماتُ البهائمِ والطيورِ وهوامِّ الأرضِ بابٌ واسعٌ، وشَوْطٌ بَطِينٌ[4]، لا يحيطُ به وصفُ واصفٍ؛ فسبحان ربِّي الأعلى.

وقال السُّدِّيُّ: قدَّر مدَّةَ الجنينِ في الرَّحِم تسعةَ أشهرٍ، وأقلَّ وأكثرَ، ثم هداه

---

(١) بعدها في (ظ): أيضاً.

(٢) تنظر هذه الأقوال في تفسير الطبري ١٦/ ٧٩-٨٠ و٢٤/ ٣١١-٣١٢، والنكت والعيون ٦/ ٢٥٢، وتفسير البغوي ٤/ ٤٧٥، وزاد المسير ٩/ ٨٨.

(٣) الكشاف ٤/ ٢٤٣، والرازيانج: نبات يعرف اليوم بالشَّمَر. معجم متن اللغة (رزن).

(٤) أي: بعيد. القاموس (بطن)، والكلام من الكشاف ٤/ ٢٤٣.

للخروج من الرَّحِم[١].

وقال الفراء[٢]: أي: قدَّر فهدى وأضلَّ؛ فاكتفَى بذِكْرِ أحدِهما، كقوله تعالى: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١].

ويحتملُ أن يكون بمعنى: دعا إلى الإيمان، كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ﴾ [الشورى: ٥٢] أي: لتَدْعو، وقد دعا الكلَّ إلى الإيمان.

وقيل: «فهدى»، أي: دلَّهم بأفعاله على توحيده، وكونِه عالماً قادراً.

ولا خلافَ أنَّ مَن شدَّد الدال مِن «قَدَّر» أنه مِن التقدير، كقوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢]. ومَن خفَّف، فيحتملُ أن يكون من التقدير فيكونان بمعنى. ويحتملُ أن يكون من القُدْرة والمُلْك، أي: مَلَكَ الأشياءَ، وهَدَى مَن يشاء.

قلت: وسمعتُ بعضَ أشياخي يقول: «الذي خَلَق فسوَّى والذي قدَّر فهدَى» هو تفسيرُ العلوِّ الذي يليقُ بجلالِ الله سبحانه على جميع مخلوقاته.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ﴾ أي: النباتَ والكلأ الأخضَر. قال الشاعر:

وقد ينْبُتُ المَرْعَى على دِمَنِ الثَّرَى ... وَتبقَى حَزازاتُ النفوسِ كما هِيَا[٣]

﴿فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ﴾ الغُثاء: ما يَقْذِفُ به السيلُ على جوانب الوادي من الحشيش والنبات والقُماش[٤]. وكذلك الغُثَّاء بالتشديد. والجمع: الأغثاء. قتادة: الغُثَاء:

(١) تفسير البغوي ٤/ ٤٧٥، وزاد المسير ٩/ ٨٨.

(٢) في معاني القرآن ٣/ ٢٥٦.

(٣) البيت لزُفَر بن الحارث الكلابي، كما في مجالس ثعلب ص٣٦٧، والمعاني الكبير ٢/ ٨٤٨، وجمهرة الأمثال ١/ ١٧، وديوان المعاني ٢/ ٢٠٠، والحماسة البصرية ١/ ٢٦. قال العسكري: معناه: أن الدِّمْنة هي الموضع الذي تبرك فيه الإبل، فتبول وتبعر فيه فلا يُنْبِتُ شيئاً، فإذا أصابته السماء وسَفَتْه الرياح أنبت، فيقول: إن ذلك الموضع قد يُنبت بعد أن لم يكن ينبت، فيتغير بالنبات، وتبقى حزازات النفوس لا تتغير.

(٤) القماش: هو ما على وجه الأرض من فتات الأشياء. القاموس (قمش).

الشيء اليابس[١]. ويقال للبقل والحشيش إذا تحطَّم ويَبِس: غُثاءٌ وهَشِيم. وكذلك للَّذي يكون حولَ الماء من القُماش: غثاء، كما قال:

كـأنَّ طَـمِـيَّـةَ الـمُـجَـيْـمِـرِ غُـدْوةً من السَّيْل والأغثاء فَلْكَةُ مِغْزَلِ[٢]

وحكى أهلُ اللغةِ: غثا الوادي وجفأ[٣]. وكذلك الماء إذا علاه من الزَّبَد والقُماش مالا يُنتفَعُ به.

والأحْوى: الأسود، أي: أنَّ النبات يَضْرِبُ إلى الحُوَّة من شدَّة الخضرةِ كالأسود. والحوَّةُ: السَّوَاد؛ قال الأعشى:

لَـمْـيَـاءُ فـي شَـفَـتـيـهـا حُـوَّةٌ لَـعَـسٌ وفي اللِّثاتِ وفي أنيابها شَنَبُ[٤]

وفي «الصحاح»: والحوَّةُ: سُمْرةُ الشَّفةِ. يقال: رجلٌ أحْوَى، وامرأةٌ حوَّاء، وقد حَوِيَتْ. وبعيرٌ أحْوَى: إذا خالَطَ خضرتَه سوادٌ وصُفْرةٌ. وتصغيرُ أحْوَى: أُحَيْوٍ، في لغةِ مَن قال: أُسَيْوِد[٥].

ثم قيل: يجوزُ أن يكون «أحْوَى» حالاً من «المَرْعَى»، ويكون المعنى: كأنه من

(١) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٣٦٧، والطبري ٢٤/ ٣١٣-٣١٤.

(٢) البيت لامرئ القيس، وهو في ديوانه ص٢٥ برواية: من السيل والغُثَّاء. ووقع في (ظ): كأن ذرى رأس المجيمر... ، وهو موافق لرواية البيت في شرح المعلقات للنحاس ١/ ٤٨، وللتبريزي ص٧٠. قال التبريزي: روى الأصمعي: كأن طمية المجيمر، والمجيمر أرض لبني فزارة، وطميةُ: جبل في بلادهم، يقول: قد امتلأ المجيمر، فكأن الجبل في الماء فلكة مغزل؛ لِمَا جمع السيلُ حوله من الغثاء. ورواه الفراء: من السيل والأغثاء، جمع الغُثَاء وهو قليل في الممدود.

(٣) في النسخ: وانجفى، والمثبت من المعاجم، وفي الصحاح (جفأ): جَفَأَ الوادي جَفْأً: إذا رمى بالقذى والزَّبَد.

(٤) البيت ليس للأعشى كما ذكر المصنف، وإنما هو لذي الرمة، وهو في ديوانه ١/ ٣٢. قال أبو نصر الباهلي شارح الديوان: اللَّمى: سُمْرةٌ في الشفتين، وكذلك الحُوَّة شبيهة باللمى تضرب إلى السواد، وكذلك اللَّعَس يكون بالشفتين واللثة. والشنب، قال الأصمعي: بردٌ وعذوبة في الأسنان، وغيره يقول: تمديد الأسنان ودقتها، والأول أجود.

(٥) في الصحاح (حوا).

خُضْرته يَضْرِبُ إلى السواد، والتقدير: أَخْرجَ المرعَى أَحْوَى، فجعله غُثاءً. يقال: قد حَوِيَ النَّبْتُ؛ حكاه الكسائيُّ. وقال:

وغَيثٍ من الوَسْمِيِّ حُوٌّ تِلاعُه تَبطَّنْتُه بشَيظَمٍ صَلَتانِ[١]

ويجوزُ أن يكون «أحوى» صفةً لـ «غُثاء». والمعنى: أنه صار كذلك بعد خضرته. قال أبو عبيدةَ[٢]: فجعله أسودَ من احتراقه وقِدَمِه؛ والرَّطْبُ إذا يَبِسَ اسْوَدَّ. وقال عبد الرحمن بن زيد: أخرج المرعى أخضرَ، ثم لمَّا يَبِسَ اسودَّ[٣]، فصار غُثاءً تذهبُ به الرياحُ والسيول[٤]. وهو مَثَلٌ ضربه الله تعالى للكفار، لذهاب الدنيا بعد نضارتها[٥].

قوله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ۝٧ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ۝٨﴾

قوله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ﴾ أي: القرآنَ يا محمدُ، فنُعلِّمُكَه ﴿فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ أي: فتحفظُ؛ رواه ابنُ وهبٍ عن مالك[٦]. وهذه بُشْرَى من الله تعالى؛ بشَّره بأنْ أعطاه آيةً بيِّنةً، وهي أنْ يقرأَ عليه جبريلُ ما يَقْرأُ عليه من الوحي، وهو أُميٌّ لا يَكتبُ ولا يقرأ، فيحفظُه ولا ينساه.

وعن ابن أبي نَجِيح عن مجاهد قال: كان يتذكَّر مخافةَ أنْ يَنْسى[٧]، فقيل:

---

(١) البيت لامرئ القيس، وهو في ديوانه ص٨٧ . قوله: الوسمي، هو مطر الربيع الأول. والتلاع جمع التَّلعة، وهي مسيل الماء، أو ما اتسع من فوهة الوادي، أو القطعة المرتفعة من الأرض. والصَّلَتان: الحديد الفؤاد من الخيل. القاموس (وسم) و(تلع) و(صلت). وقال شارح الديوان: الحوَّة لون يضرب إلى السواد، يصف أن نبات التِّلاع حُوٌّ ناعم ريَّان، فخضرته تضرب إلى السواد، وقوله: تبطَّنته، أي: سلكت بطنه وسرت فيه. والشيظم: الطويل.

(٢) في مجاز القرآن ٢/ ٢٩٥ .

(٣) بعدها في (م): من احتراقه.

(٤) أخرجه بنحوه الطبري ٢٤/ ٣١٤ .

(٥) النكت والعيون ٦/ ٢٥٣ .

(٦) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٩٠٧ .

(٧) أخرجه الطبري ٢٤/ ٣١٥ .

كَفَيتُكَه. قال مجاهد والكلبيُّ: كان النبيُّ ﷺ إذا نزل عليه جبريلُ بالوحي، لم يَفْرَغْ جبريلُ من آخرِ الآيةِ، حتى يتكلَّم النبيُّ ﷺ بأوَّلها مخافةَ أن يَنْساها، فنزلت: «سَنُقْرِئُكَ فلا تَنْسَى» بعد ذلك شيئاً[1]، فقد كَفَيتُكَه.

ووجهُ الاستثناءِ على هذا، ما قاله الفرَّاءُ: إلَّا ما شاء الله، وهو لم يشأ أن تنسى شيئاً، كقوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ [هود: ١٠٨] ولا يشاءُ. ويقال في الكلام: لأُعْطينَّكَ كلَّ ما سألتَ إلَّا ما شئتُ، وإلَّا أنْ أشاء أنْ أمنعكَ، والنيةُ على ألَّا يمنعه شيئاً. فعلى هذا مَجارِي الأيمان؛ يُسْتثنَى فيها ونيةُ الحالفِ التمامُ[2].

وفي روايةِ أبي صالحٍ عن ابن عباس: فلم يَنْسَ بعد نزولِ هذه الآيةِ حتى مات، إلَّا ما شاء الله. وعن سعيد عن قتادة، قال: كان رسول الله ﷺ لا ينسى شيئاً، إلَّا ما شاء الله[3]. وعلى هذه الأقوالِ قيل: إلَّا ما شاء اللهُ أن يَنْسَى، ولكنه لم يَنْسَ شيئاً منه بعد نزول هذه الآية.

وقيل: إلَّا ما شاء الله أن يَنْسَى، ثم يَذْكُر بعد ذلك، فإذًا قد نسي، ولكنه يتذكَّر ولا ينسى نسياناً كُلِّياً. وقد رُوِي أنه أَسْقَطَ آيةً في قراءته في الصلاة، فحسِبَ أُبَيٌّ أنها نُسِخَتْ، فسأله فقال: «نُسِّيتُها»[4].

وقيل: هو من النسيان، أي: إلَّا ما شاء الله أن يُنْسِيَكَ. ثم قيل: هذا بمعنى النسخ، أي: إلَّا ما شاء الله أن يَنْسَخَه. والإنساءُ[5] نوعٌ من النَّسْخ. وقيل: النسيانُ بمعنى التَّرك، أي: يَعْصِمُكَ مِن أنْ تتركَ العملَ به، إلَّا ما شاء الله أن تتركه لنَسْخِه إياه. فهذا في نَسْخِ العملِ، والأوّلُ في نَسْخِ القراءة.

(١) تفسير البغوي ٤/ ٤٧٦.
(٢) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٥٦.
(٣) أخرجه الطبري ٢٤/ ٣١٥.
(٤) أخرجه أحمد (١٥٣٦٥)، والبخاري في القراءة خلف الإمام (١٩٣)، والنسائي في الكبرى (٨١٨٣).
(٥) في النسخ: والاستثناء، والمثبت من الوسيط ٤/ ٤٧٠، وتفسير البغوي ٤/ ٤٧٦.

قال الفَرْغانيُّ[(١)]: كان يَغْشَى مجلسَ الجنيد أهلُ البَسْطِ من العلوم، وكان يغشاه ابنُ كَيْسانَ النحويُّ، وكان رجلاً جليلاً، فقال يوماً: ما تقولُ يا أبا القاسم في قوله تعالى: ﴿سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾؟ فأجابه مسرعاً ـ كأنه تقدَّم له السؤالُ قبل ذلك بأوقاتٍ ـ: لا تَنسَى العملَ به. فقال ابن كيسانَ: لا يَفْضُضِ الله فاكَ مِثْلُكَ مَن يُصْدَر عن رأيه[(٢)].

وقوله: «فلا»: للنفي لا للنهي. وقيل: للنهي، وإنَّما أُثبتتِ الياء لأنَّ رؤوسَ الآيِ على ذلك[(٣)]. والمعنى: لا تَغْفَلْ عن قراءته وتَكْرارِه فتنساه، إلَّا ما شاء الله أن يُنْسِيَكَه برفع تلاوته للمصلحة[(٤)]. والأوّلُ هو المختار؛ لأنَّ الاستثناء من النهي لا يكاد يكون إلَّا مؤقَّتاً معلوماً. وأيضاً فإنَّ الياء مُثْبتةٌ في جميع المصاحف، وعليها القرَّاءُ.

وقيل: معناه: إلَّا ما شاء الله أن يؤخِّر إنزالَه. وقيل: المعنى: فجعله غثاءً أحوى إلَّا ما شاء الله أن يناله بنو آدمَ والبهائمُ، فإنَّه لا يصير كذلك.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ﴾ أي: الإعلانَ من القول والعمل. ﴿وَمَا يَخۡفَىٰ﴾ من السرِّ. وعن ابن عباس: ما في قلبك ونفسك. وقال محمد بن حاتم[(٥)]: يعلم إعلانَ الصدقةِ وإخفاءَها. وقيل: الجهرُ ما حَفِظْتَه من القرآن في صدرك، «وما يَخْفَى» هو ما نُسِخ من صدرك[(٦)].

﴿وَنُيَسِّرُكَ﴾: معطوفٌ على «سنُقْرِئك»، وقولُه: «إنَّه يعلمُ الجهرَ وما يَخْفَى»

---

(١) هو أبو جعفر أحمد بن عباد، ولقبه حمدون وهو الغالب عليه، توفي سنة (٢٧٠هـ). تاريخ بغداد ٤/ ٢٧١ و٨/ ١٧٧.

(٢) ذكره الخطيب في تاريخ بغداد ٧/ ٢٤٦ عن جعفر بن محمد الخلدي قال: حضرت شيخنا جنيداً، وسأله ابن كيسان... ، وذكر القصة بنحوها.

(٣) بنحوه في المحرر الوجيز ٥/ ٤٦٩، والكشاف ٤/ ٢٤٣، وتفسير الرازي ٣١/ ١٤٢، ويعني بالياء الألف في «تنسى»، والتي أصلها ياء.

(٤) الكشاف ٤/ ٢٤٣.

(٥) لعله محمد بن حاتم بن ميمون المروزي ثم البغدادي السمين، الحافظ المفسِّر، جمع كتاباً في تفسير القرآن، كتبه الناس عنه ببغداد. توفي سنة (٢٣٥هـ). السير ١١/ ٤٥٠.

(٦) النكت والعيون ٦/ ٢٥٣، وفيه:... وما يخفى هو ما نسخ من حفظك.

اعتراضٌ. ومعنى ﴿لِلْيُسْرَىٰ﴾ أي: للطَّريقة اليُسْرَى؛ وهي عملُ الخير. قال ابن عباس: نيسِّركَ لأنْ تعملَ خيراً. ابن مسعود: «لِلْيُسْرى» أي: للجنة. وقيل: نوفِّقُكَ للشريعة اليُسْرى؛ وهي الحنيفيةُ السَّمْحةُ السَّهْلةُ؛ قال معناه الضحَّاك. وقيل: أي: نهوِّنُ عليك الوحيَ حتى تَحْفَظَه وتعملَ به[١].

قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩﴾

قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ﴾ أي: فَعِظْ قومَكَ يا محمدُ بالقرآن. ﴿إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ أي: الموعظةُ. وروى يونس عن الحسن قال: تذكرةٌ للمؤمن، وحجةٌ على الكافر. وكان[٢] ابن عباس يقول: تنفعُ أوليائي، ولا تنفعُ أعدائي.

وقال الجُرْجانيُّ: التذكيرُ واجبٌ وإنْ لم يَنْفَعْ، والمعنى: فذكِّر إنْ نفعت الذكرى، أو لم تَنْفَع، فحذف، كما قال: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١][٣].

وقيل: إنه مخصوصٌ بأقوامٍ بأعيانهم. وقيل: «إنْ» بمعنى ما، أي: فذكِّر ما نَفَعتِ الذكرى، فتكون «إنْ» بمعنى ما، لا بمعنى الشَّرْطِ؛ لأنَّ الذكرى نافعةٌ بكلِّ حالٍ؛ قاله ابنُ شَجَرة.

وذكر بعضُ أهلِ العربية: أنَّ «إنْ» بمعنى إذْ، أي: إذْ نَفَعْت، كقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩] أي: إذ كنتم، فلم يُخْبِرْ بعلوِّهم إلَّا بعد إيمانهم. وقيل: بمعنى قد.

قوله تعالى: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠﴾

أي: مَن يَتَّقي اللهَ ويخافُه. فروى أبو صالح عن ابن عباس قال: نزلتْ في ابنِ أمِّ

---

(١) تنظر هذه الأقوال في النكت والعيون ٦/ ٢٥٤، وتفسير البغوي ٤/ ٤٧٦.

(٢) في (د): وقال.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٥/ ٢٠٦، والوسيط ٤/ ٤٧٠.

مكتوم[١]. الماوَرْديُّ[٢]: وقد يذَّكَّرُ مَن يرجوه، إلَّا أنَّ تَذْكِرةَ الخاشي أبْلَغُ من تذكرة الراجي، فلذلك علَّقها بالخشية دون الرجاء، وإنْ تَعلَّقتْ بالخشية والرجاء.

وقيل: أي: عَمِّمْ أنت التذكيرَ والوَعْظَ، وإنْ كان الوعظُ إنَّما ينفعُ مَن يَخْشَى، ولكنْ يحصلُ لك ثوابُ الدعاءِ؛ حكاه القُشيريُّ.

قوله تعالى: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ۝١١ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝١٢ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۝١٣﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا﴾ أي: ويتجنَّبُ الذكرى ويبعدُ عنها ﴿ٱلْأَشْقَى﴾ أي: الشقيُّ في علم الله. وقيل: نزلت في الوليد بنِ المغيرة وعتبةَ بنِ ربيعة[٣].

﴿ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ أي: العُظْمَى، وهي السُّفْلى من أطباقِ النار؛ قاله الفرَّاء[٤]. وعن الحسن: الكبرى نارُ جهنم، والصغرى نارُ الدنيا. وقاله يحيى بن سلام[٥].

﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ أي: لا يموتُ فيستريح من العذاب، ولا يحيا حياةً تنفعُه، كما قال الشاعر:

أَلَا مَا لنفسٍ لا تموتُ فينقضِي ... عَناها ولا تَحيا حياةً لها طَعْمُ[٦]

وقد مضى في «النساء» وغيرِها حديثُ أبي سعيد الخُدْريِّ، وأنَّ الموحِّدين من

(١) ذكره الرازي ٣١/ ١٤٦ دون نسبة.

(٢) في النكت والعيون ٦/ ٢٥٤.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٥/ ٢٠٦.

(٤) في معاني القرآن ٣/ ٢٥٦.

(٥) تفسير الرازي ٣١/ ١٤٩ عن الحسن، والنكت والعيون ٦/ ٢٥٤ عن يحيى بن سلام.

(٦) البيت لعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، كما في مجالس ثعلب ص٢٣٦، والأغاني ٩/ ١٥٠، ومصارع العشاق ١/ ٣٢١، ووقع في هذه المصادر: ألا مَن لنفسي...، والبيت برواية المصنف في اللسان (طعم).

المذنبين[١] إذا دخلوا جهنم ـ وهي النارُ الصُّغرى على قول الفرَّاء ـ احترقوا فيها وماتوا؛ إلى أن يُشفع فيهم. خرَّجه مسلم[٢].

وقيل: أهلُ الشَّقاءِ متفاوتون في شقائهم، وهذا الوعيدُ للأشقى، وإن كانَ ثَمَّ شقيٌّ لا يبلغُ هذه المرتبة.

قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾﴾

فيه ثلاثُ مسائلَ:

الأولى: قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ أي: قد صادفَ البقاءَ في الجنة، أي: مَن تَطَهَّر من الشِّرك بالإيمان؛ قاله ابن عباس وعطاءٌ وعكرمة[٣]. وقال الحسن والربيع: مَن كان عملُه زاكياً نامِياً[٤]. وقال مَعْمر عن قتادة: «تزَكَّى»، قال: بعملٍ صالح[٥].

وعنه وعن عطاءٍ وأبي العالية: نزلت في صدقة الفِطْرِ. وعن ابن سِيرينَ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ قال: خرج فصلَّى بعد ما أدَّى. وقال عكرمة: كان الرجل يقول: أقدِّم زكاتي بين يَدَيْ صلاتي. فقال سفيان: قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ . وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾. وروي عن أبي سعيد الخُدْرِيِّ وابنِ عمر: أنَّ ذلك في صدقة الفطر، وصلاةِ العيد[٦]. وكذلك قال أبو العالية، وقال: إنَّ أهلَ المدينةِ لا يَرَوْنَ

(١) في (م): المؤمنين.

(٢) في صحيحه (١٨٥)، وسلف ٦/ ٩٢.

(٣) تفسير الطبري ٢٤/ ٣١٩، وتفسير البغوي ٤/ ٤٧٦.

(٤) النكت والعيون ٦/ ٢٥٥، وأخرجه عن الحسن الطبري ٢٤/ ٣١٩.

(٥) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٣٦٧.

(٦) تنظر أقوالهم في الوسيط ٤/ ٤٧١-٤٧٢، وتفسير البغوي ٤/ ٤٧٦-٤٧٧، وأحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٩٠٨، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٧٠، والدر المنثور ٦/ ٣٤٠.

صدقةً أفضلَ منها، ومن سِقاية الماء[١].

وروى كَثير بن عبد الله عن أبيه، عن جدِّه، عن النبيِّ ﷺ في قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ قال: «أَخرِجَ زكاةَ الفِطْرِ»، ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ﴾ قال: «صلاة العيد»[٢].

وقال ابن عباس والضحاك: «وذَكَر اسمَ ربِّه» في طريقِ المُصَلَّى، «فصلَّى» صلاةَ العيد[٣].

وقيل: المرادُ بالآية زكاةُ الأموالِ كلِّها؛ قاله أبو الأحوص وعطاء[٤]. وروى ابن جُرَيج قال: قلت لعطاء: «قد أَفْلحَ مَن تَزَكَّى» للفِطْر؟ قال: هي للصَّدَقات كلِّها[٥].

وقيل: هي زكاةُ الأعمال، لا زكاةُ الأموال، أي: تطهَّر في أعماله من الرياء والتقصير؛ لأنَّ الأكثر أن يقال في المال: زَكَّى، لا تَزَكَّى. وروى جابر بن عبد الله قال: قال النبيُّ ﷺ: «﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ أي: مَن شَهِدَ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ، وخَلَعَ الأندادَ، وشَهِدَ أنِّي رسولُ الله»[٦]. وعن ابن عباس: «تزكَّى»، قال: لا إلهَ إلَّا الله[٧].

وروى عنه عطاءٌ قال: نزلت في عثمان بنِ عفان ﷺ. قال: كان بالمدينة منافقٌ كانت له نخلةٌ مائلةٌ في دار رجلٍ من الأنصار، إذا هبَّتِ الرياحُ أَسْقطَتِ البُسْرَ والرُّطَبَ

---

(١) أخرجه الطبري ٢٤/ ٣٢٠ مطولاً.

(٢) أخرجه ابن خزيمة (٢٤٢٠)، والبزار (٣٣٨٣)، وابن عدي ٦/ ٢٠٨٠ ، والواحدي في الوسيط ٤/ ٤٧١ . وكثير بن عبد الله، قال عنه الحافظ في مختصر زوائد مسند البزار ١/ ٣٩٨ : ضعيف جدًّا.

(٣) الكشاف ٤/ ٢٤٥ عن الضحاك.

(٤) زاد المسير ٩/ ٢٢ عن أبي الأحوص، وسيأتي عن عطاء، وأخرجه عن أبي الأحوص بنحوه الطبري ٢٤/ ٣١٩-٣٢٠ .

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٤٠ ، وفيه أن السائل هو عطاء والمسؤول ابن عباس.

(٦) أخرجه البزار (٢٢٨٤-كشف) والواحدي في الوسيط ٤/ ٤٧١ ، وفي إسناده عباد بن أحمد العرزمي، قال عنه الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ١٣٧ : متروك.

(٧) أخرجه البيهقي في الأسماء والصفات (٢٠٥)، وهو عند الطبري ٢٤/ ٣١٩ بلفظ: تزكَّى من الشرك.

إلى دار الأنصاريِّ، فيأكلُ هو وعيالهُ، فخاصمه المنافقُ، فشكا ذلك إلى رسول الله ﷺ، فأرسل إلى المنافق وهو لا يعلم بنفاقه، فقال: «إنَّ أخاك الأنصاريَّ ذكر أن بُسْرَكَ ورُطَبك يقع إلى منزله، فيأكل هو وعيالهُ، فهل لك أنْ أُعطيكَ نخلةً في الجنة بَدَلَها؟» فقال: أبيعُ عاجلاً بآجلٍ! لا أفعلُ. فذَكَروا أنَّ عثمان بن عفان أعطاه حائطاً من نخلٍ بَدَلَ نخلته، ففيه نزلتْ: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾. ونزلت في المنافق ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلۡأَشۡقَى﴾[(١)].

وذكر الضحاك: أنَّها نزلت في أبي بكر الصدِّيق ﷺ[(٢)].

الثانية: قد ذَكَرنا القولَ في زكاة الفِطْرِ في سورة البقرة مستوفىً[(٣)]. وقد تقدَّم أنَّ هذه السورةَ مكيةٌ، في قول الجمهور، ولم يكن بمكةَ عِيدٌ ولا زكاةُ فِطْرٍ. القشيريُّ: ولا يَبْعدُ أن يكون أثْنَى على مَن يَمتثلُ أمره في صدقة الفِطر وصلاةِ العيد، فيما يأمُر به في المستقبل.

الثالثة: قولهُ تعالى: ﴿وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ أي: ذَكَر ربَّه. وروى عطاءٌ عن ابن عباس قال: يريدُ ذِكْر مَعَادَه وموقفَه بين يدي اللهِ جلَّ ثناؤه، فعَبَدَه وصلَّى له[(٤)].

وقيل: ذَكَر اسمَ ربِّه بالتكبير في أوّل الصلاة؛ لأنَّها لا تنعقدُ إلَّا بِذِكْره، وهو قولُه: الله أكبر، وبه يُحتَجُّ على وجوب تكبيرةِ الافتتاح، وعلى أنَّها ليست من الصلاة؛ لأنَّ الصلاة معطوفةٌ عليها. وفيه حجةٌ لمن قال: إنَّ الافتتاح جائزٌ بكلِّ اسمٍ من أسماءِ اللهِ عزَّ وجلَّ[(٥)]. وهذه مسألةٌ خلافيةٌ بين الفقهاء. وقد مضى القولُ في هذا في أوَّلِ سورة البقرة[(٦)].

---

(١) ذكره البغوي ٤/ ٤٩٥ عن عطاء في سبب نزول سورة الليل، وفيه: أبو الدحداح، بدل: عثمان. وأخرجه بنحوه مطولاً عن ابن عباس الواحدي في أسباب النزول ص٤٨٥ في سبب نزول سورة الليل أيضاً.

(٢) النكت والعيون ٦/ ٢٥٥ .

(٣) ينظر ما سلف ٢/ ٢٤ و٤/ ٣٦٨ .

(٤) الكشاف ٤/ ٢٤٥ .

(٥) الكشاف ٤/ ٢٤٥ ، وينظر أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٩٠٩-١٩١٠ .

(٦) ١/ ٢٦٩ .

وقيل: هي تكبيراتُ العيد؛ قال الضحاك: «وذَكَر اسمَ ربِّهِ» في طريقِ المُصَلَّى، «فصلَّى»، أي: صلاةَ العيد[١].

وقيل «وذكر اسم ربِّهِ» هو أنْ يَذْكُره بقلبه عند صلاته، فيخافُ عقابَه، ويرجو ثوابَه؛ ليكون استيفاؤه لها، وخشوعُه فيها، بحَسَبِ خوفه ورجائه[٢].

وقيل: هو أنْ يفتتحَ أوّلَ كلِّ سورةٍ ببسم الله الرحمن الرحيم[٣]. «فصلَّى» أي: فصلَّى وذكر. ولا فَرْقَ بين أن تقول: أكْرمتني فزُرْتني، وبين أن تقول: زُرْتَني فأكْرَمْتني. قال ابن عباس: هذا في الصلاة المفروضة، وهي الصلواتُ الخمس[٤]. وقيل: الدعاء، أي: دعاء الله بحوائج الدنيا والآخرة. وقيل: صلاة العيد؛ قاله أبو سعيد الخُدرِيُّ وابنُ عمر وغيرهما. وقد تقدَّم[٥].

وقيل: هو أن يتطوَّع بصلاةٍ بعد زكاته؛ قاله أبو الأحوص[٦]، وهو مقتضى قولِ عطاء. ورُوِيَ عن عبد الله قال: مَن أقام الصلاةَ ولم يُؤْتِ الزكاةَ فلا صلاةَ له[٧].

قوله تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾﴾

قراءة العامة: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ﴾ بالتاء، تصديقُه قراءةُ أبيٍّ: «بل أنتم تُؤْثِرون»[٨]. وقرأ أبو عمرو ونصر بن عاصم: «بل يؤثِرون» بالياء على الغيبة[٩]، تقديرهُ: بل يؤثِرُون

---

(١) الكشاف ٤/ ٢٤٥، وسلف في المسألة الأولى.

(٢) النكت والعيون ٦/ ٢٥٥.

(٣) المصدر السابق.

(٤) أخرجه الطبري ٢٤/ ٣٢١.

(٥) في المسألة الأولى.

(٦) النكت والعيون ٦/ ٢٥٥، وأخرجه الطبري ٢٤/ ٣١٩-٣٢٠.

(٧) أخرجه الطبراني في الكبير (٨٩٧٤).

(٨) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٥٧، وذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٧٢ عن ابن مسعود ﷺ.

(٩) السبعة ص٦٨٠، والتيسير ص٢٢١ عن أبي عمرو.

الأَشْقَونَ الحياةَ الدنيا[١]. وعلى الأوّل فيكونُ تأويلُها: بل تُؤْثِرون أيُّها المسلمون الاستكثارَ من الدنيا على الاستكثار[٢] من الثواب.

وعن ابن مسعود أنه قرأ هذه الآية، فقال: أتَدْرون لم آثَرْنا الحياةَ الدنيا على الآخرة؟ لأنَّ الدنيا حَضَرتْ وعُجِّلَتْ لنا طيباتُها، وطعامُها وشرابُها، ولذَّاتُها وبَهْجَتُها، والآخرة غُيِّبتْ عنَّا. فأخَذْنا العاجلَ، وتَرَكْنا الآجِلَ[٣].

وروى ثابتٌ عن أنسٍ قال: كُنَّا مع أبي موسى في مَسِيرٍ، والناسُ يتكلَّمون ويَذْكُرون الدنيا. قال أبو موسى: يا أنس، إنَّ هؤلاء يكادُ أحدُهم يَفْرِي الأديمَ بلسانه فَرْياً، فتعال فلْنَذْكُر ربَّنا ساعةً. ثم قال: يا أنس، ما ثَبَرَ الناس! ما بَطَّأَ بهم؟ قلت: الدُّنيا والشيطانُ والشهواتُ. قال: لا، ولكنْ عُجِّلَتِ الدنيا، وغُيِّبت الآخرة، أمَا واللهِ لو عاينوها ما عَدَلوا ولا مَيَّلوا[٤].

قوله تعالى: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٧﴾﴾

أي: والدارُ الآخرةُ، أي: الجنة ﴿خَيْرٌ﴾ أي: أفضلُ ﴿وَأَبْقَىٰ﴾ أي: أدْوَمُ من الدنيا. وقال النبيُّ ﷺ: «ما الدنيا في الآخرة إلَّا كما يضعُ أحدُكم أصبعَه في اليمِّ، فلْيَنْظُرْ بِمَ يرجع» صحيح. وقد تقدم[٥]. وقال مالك بنُ دينارٍ: لو كانت الدنيا من ذهبٍ يَفْنَى، والآخرةُ من خزفٍ يبقَى، لكان الواجبُ أنْ يُؤْثَر خزفٌ يبقَى على ذهبٍ يفنَى.

---

(١) يعني أنه مردود على الأشقى في قوله تعالى: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى﴾.

(٢) في النسخ: للاستكثار، بدل: على الاستكثار، والمثبت من اللباب ٢٠/٢٨٦.

(٣) أخرجه الطبري ٢٤/٣٢٢، والطبراني في الكبير (٩١٤٧). قال ابن كثير عند تفسير هذه الآية: وهذا منه على وجه التواضع والهضم، أو هو إخبار عن الجنس من حيث هو.

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة ١٣/٣٨٦، وأحمد في الزهد ص٢٤٧، وأبو نعيم في الحلية ١/٢٥٩.
قوله: يفري الأديم، الفَرْي: الشَّق، والأديم: الجلد. القاموس (أدم) و(فري).
وقوله: ما ثبر الناس، أي: مالذي صدَّهم ومنعهم. قوله: ما عدلوا، أي: ما ساوَوا بها شيئاً. ولا ميَّلوا، أي: ما شكُّوا ولا تردَّدوا. النهاية (ثبر) و(ميل).

(٥) ٥/٤٨١، وهو في صحيح مسلم (٢٨٥٨).

قال: فكيف والآخرةُ من ذهبٍ يبقَى، والدنيا من خزفٍ يفنَى!

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾ قال قتادة وابنُ زيد: يريد قولَه: ﴿وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ وقالا: تتابعتْ كتبُ اللهِ جلَّ ثناؤه ـ كما تسمعون ـ أنَّ الآخرة خيرٌ وأبقَى من الدنيا[١].

وقال الحسن: «إِنَّ هذا لَفي الصحفِ الأُولى» قال: كُتُبِ الله جلَّ ثناؤه كلِّها[٢].

الكلبيُّ: «إنَّ هذا لفي الصُّحفِ الأولى»: من قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾ إلى آخر السورة[٣]؛ لحديثِ أبي ذرٍّ على ما يأتي.

ورَوى عِكرمةُ عن ابن عباس: «إنَّ هذا لفي الصحف الأولى» قال: هذه السورة[٤].

وقال الضحاك: إنَّ هذا القرآنَ لفي الصُّحُفِ الأولى[٥]، أي: الكتبِ الأولى.

﴿صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ يعني الكتبَ المنزلةَ عليهما. ولم يُرِدْ أنَّ هذه الألفاظَ بعينها في تلك الصحف، وإنَّما هو على المعنى، أي: إنَّ معنَى هذا الكلامِ واردٌ في تلك الصُّحف. وروى الآجُرِّيُّ من حديثِ أبي ذرٍّ قال: قلتُ: يا رسولَ الله، فما كانت صحفُ إبراهيم؟ قال: «كانت أمثالاً كلُّها: أيها الملكُ المتسلِّطُ المُبْتَلَى المغرورُ، إنِّي لم أَبْعثْكَ لتَجْمَعَ الدنيا بعضَها على بعضٍ، ولكنْ بَعثْتُكَ لتردَّ عني دعوةَ المظلوم، فإنِّي لا أردُّها ولو كانت من فمِ كافرٍ. وكان فيها أمثالٌ: وعلى العاقلِ أن يكون له ساعاتٌ: ساعةٌ يُناجي فيها ربَّه، وساعةٌ يحاسبُ فيها نفسَه، يفكِّر فيها في صُنْعِ اللهِ عزَّ وجلَّ

---

(١) أخرجه قولهما الطبري ٢٤/ ٣٢٤-٣٢٥ .

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٤١ .

(٣) ذكره الطبري ٢٤/ ٣٢٥ واختاره.

(٤) أخرجه النسائي في الكبرى (١١٦٠٤)، وسعيد بن منصور، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٤١ .

(٥) ذكره ابن العربي في أحكام القرآن ٤/ ١٩١٠ وقال: قول ضعيف؛ لأنه باطل قطعاً.

إليه، وساعةٌ يخلو فيها لحاجته من المَطْعَم والمَشْرَب. وعلى العاقل ألَّا يكون ظاعنًا إلَّا في ثلاثٍ: تزوُّدٌ لمعَادٍ، وَمَرمَّةٌ لمعاشٍ، ولذةٌ في غير محرَّم. وعلى العاقل أن يكون بصيراً بزمانه، مُقْبلاً على شأنه، حافظاً للسانه. ومَن عدَّ[1] كلامَه من عمله قلَّ كلامُه إلَّا فيما يعنيه». قال: قلتُ: يا رسول الله، فما كانت صحفُ موسى؟ قال: «كانت عِبراً كلُّها: عجِبْتُ لمن أيْقَنَ بالموت كيف يفرح! وعجبتُ لمن أيقنَ بالقَدَر كيف ينْصَب! وعجبتُ لمن رأى الدنيا وتقلُّبَها بأهلها كيف يطمئنُّ إليها! وعجبتُ لمن أيقنَ بالحساب غداً ثم هو لا يعمل!» قال: قلتُ: يا رسول الله، فهل في أيدينا شيءٌ ممَّا كان في يَدَيْ إبراهيم وموسى، مما أنزل الله عليك؟ قال: «نعم، اقرأ يا أبا ذرّ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ . وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ . بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا . وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ . إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ . صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾. وذَكَر الحديث[2].

---

(١) في المصادر: ومن حسب.

(٢) أخرجه ابن حبان (٣٦١) مطولاً، وفي إسناده إبراهيم بن هشام بن يحيى الغساني، قال عنه أبو حاتم: كذاب، كما في الجرح والتعديل ٢/ ١٤٢-١٤٣ . وأخرجه ابن عدي ٧/ ٢٦٩٩ ، وابن عساكر في تاريخه ٢٣/ ٢٧٨ بإسناد آخر عن أبي ذر، وفيه يحيى بن سعد السعدي عن ابن جريج، قال ابن عدي: هذا حديث منكر من هذا الطريق عن ابن جريج، ويحيى بن سعد هذا يعرف بهذا الحديث.

سورة «الغاشية»

وهي مكية في قول الجميع، وهى ستٌّ وعشرون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ۝١﴾

«هل» بمعنى قد، كقوله: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾ [الإنسان: ١]؛ قاله قُطْرب[١]. أي: قد جاءك يا محمدُ حديثُ الغاشية، أي: القيامةِ التي تَغْشَى الخلائقَ بأهوالها وأفْزاعِها؛ قاله أكثرُ المفسِّرين.

وقال سعيد بن جُبير ومحمد بن كعب: «الغاشية»: النار تَغْشَى وجوهَ الكفارِ ـ ورواه أبو صالحٍ عن ابن عباس ـ ودليلهُ قولهُ تعالى: ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ [إبراهيم: ٥٠][٢]. وقيل: تَغشَى الخَلْق.

وقيل: المرادُ النفخةُ الثانيةُ للبعث؛ لأنها تَغشَى الخلائق. وقيل: «الغاشية»: أهلُ النار يَغْشَوْنها، ويقتحمون فيها. وقيل: معنى «هل أتاك»، أي: هذا لم يكن مِن عِلْمِك، ولا مِن عِلْمِ قومِك، قال ابن عباس: لم يكن أتاه قبل ذلك على هذا التفصيلِ المذكورِ هاهنا.

وقيل: أنّها خرجتْ مخرجَ الاستفهامِ لرسوله، ومعناه: إنْ لم يكن أتاك حديث الغاشيةِ فقد أتاك؛ وهو معنى قولِ الكلبيِّ.

قوله: تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣﴾

قال ابن عباس: لم يكن أتاه حديثُهم، فأخبره عنهم، فقال: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾ أي:

---

(١) النكت والعيون ٦/ ٢٥٧، وزاد المسير ٩/ ٩٤.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٤٧٢ دون قوله: ورواه أبو صالح عن ابن عباس. وأخرجه عن سعيد بن جبير الطبري ٢٤/ ٣٢٧.

يومَ القيامة. ﴿خَٰشِعَةٌ﴾ قال سفيان: أي: ذليلةٌ بالعذاب. وكلُّ متضائلٍ ساكنٍ: خاشعٌ. يقال: خَشَع في صلاته: إذا تذلَّل ونَكَّس رأسَه. وخَشَع الصوتُ: خَفِيَ؛ قال الله تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ [طه:١٠٨].

والمرادُ بالوجوه أصحابُ الوجوه. وقال قتادةُ وابن زيد: «خاشعةٌ»، أي: في النار[١]. والمرادُ وجوهُ الكفارِ كلِّهم؛ قاله يحيى بن سلام. وقيل: أراد وجوهَ اليهودِ والنصارى؛ قاله ابنُ عباس[٢].

ثم قال: ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾ فهذا في الدنيا؛ لأنَّ الآخرة ليست دارَ عَمَلٍ. فالمعنى: وجوهٌ عاملةٌ ناصبةٌ في الدنيا، «خاشعةٌ» في الآخرة. قال أهلُ اللغة: يقال للرجل إذا دَأَبَ في سيره: قد عَمِلَ يَعْمَلُ عَمَلاً. ويقال للسَّحاب إذا دام بَرْقُه: قد عَمِلَ يَعْمَلُ عَمَلاً. وذا سحابٌ عَمِلٌ. قال الهذليُّ:

حتى شَآها كَليلٌ مَوْهِنًا عَمِلٌ ... باتَتْ طِرَاباً وباتَ الليلَ لم يَنَمِ[٣]

﴿نَّاصِبَةٌ﴾ أي: تَعِبةٌ. يقال: نَصِبَ ـ بالكَسْر ـ يَنْصَبُ نَصَبًا: إذا تَعِبَ، ونَصْبًا أيضاً، وأَنْصَبه غيرُه. فروى الضحَّاك عن ابن عباس قال: هم الذين أَنْصَبوا أنفسَهم في الدنيا على معصية اللهِ عزَّ وجلَّ، وعلى الكفر، مثل عَبَدةِ الأوثان، وكفَّارِ أهلِ الكتاب مثل الرهبان وغيرِهم، لا يقبلُ الله جلَّ ثناؤه منهم إلَّا ما كان خالصاً له[٤].

وقال سعيد عن قتادة: «عاملةٌ ناصبةٌ» قال: تكبَّرتْ في الدنيا عن طاعة الله عزَّ وجلَّ، فأَعْمَلَها الله وأَنْصَبَها في النار، بجرِّ السلاسل الثِّقال، وحَمْلِ الأغلال،

---

(١) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٣٦٨، والطبري ٢٤/ ٣٢٨ عن قتادة.

(٢) النكت والعيون ٦/ ٢٥٧-٢٥٨، وأخرج قول ابن عباس ابن أبي حاتم، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٤٠.

(٣) البيت لساعدة بن جؤية، وهو في ديوان الهذليين ١/ ١٩٨، والكتاب ١/ ١١٤، والخزانة ٨/ ١٥٥.
قوله: شآها، أي: ساقها. كليل، أي: برق ضعيف. والموهن: القطعة من الليل. والعَمِل: الدائب المجتهد في أمره، الذي لا يفتر. وباتت طراباً. يعني البقر الوحشية طراباً إلى السير إلى الموضع الذي فيه البرق. وبات الليلَ لم ينم، أي: بات البرق يبرق ليلته. الخزانة ٨/ ١٦٠.

(٤) ذكره الوحدي في الوسيط ٤/ ٤٧٣ من طريق عطاء عن ابن عباس.

والوقوفِ حُفاةً عُراةً في العَرَصات، في يومٍ كان مقدارُه خمسين ألفَ سنة[١]. قال الحسن وسعيد بن جبير: لم تَعْمَلْ لله في الدنيا، ولم تَنْصَبْ له، فأعْملَها وأنْصبَها في جهنَّم[٢].

وقال الكلبيُّ: يُجَرُّون على وجوههم في النار. وعنه وعن غيره: يُكَلَّفون ارْتِقاءَ جبلٍ من حديدٍ في جهنَّم، فيَنْصَبون فيها أشدَّ ما يكونُ من النَّصَب، بمعالجةِ السلاسل والأغلال، والخوضِ في النار كما تخوضُ الإبلُ في الوَحَل، وارتقائها في صَعُودٍ من نار، وهبوطِها في حَدُورٍ منها؛ إلى غير ذلك من عذابها. وقاله ابن عباس[٣].

وقرأ ابن مُحيصِنٍ وعيسى وحميد، ورواها عبيد عن شبل عن ابن كثير: «ناصبةً»[٤] بالنصب على الحال. وقيل: على الذمّ. الباقون بالرفع على الصِّفة، أو على إضمارِ مبتدأ، فيوقَفُ على «خاشعة». ومَن جَعَل المعنى في الآخرة، جاز أن يكون خبراً بعد خبرٍ عن «وجوهٌ»، فلا يوقَفُ على «خاشعة».

وقيل: «عاملة ناصبة»، أي: عاملةٌ في الدنيا ناصبةٌ في الآخرة. وعلى هذا يحتمل: وجوهٌ يومئذٍ عاملةٌ في الدنيا، ناصبةٌ في الآخرة، خاشعةٌ. قال عكرمةُ والسدِّيُّ: عَمِلتْ في الدنيا بالمعاصي[٥]. وقال سعيد بن جبير وزيد بنُ أسْلَمَ: هم الرُّهبان أصحابُ الصوامع. وقاله ابن عباس[٦]. وقد تقدَّم في روايةِ الضحَّاك عنه. ورُوي عن الحسن قال: لمَّا قَدِمَ عمر بنُ الخطاب ﷺ الشامَ أتاه راهبٌ شيخٌ كبيرٌ

---

(١) أخرجه الطبري ٢٤/٣٢٨ دون قوله: يجر السلاسل... ، والعَرَصات جمع عَرْصة، وهي كلُّ موضعٍ واسع لا بناء فيه. اللسان (عرص).

(٢) أخرجه الطبري ٢٤/٣٢٨ .

(٣) تفسير البغوي ٤/٤٧٨ .

(٤) المحتسب ٢/٣٥٦ ، والمحرر الوجيز ٥/٤٧٢ .

(٥) ذكر قولهما البغوي ٤/٤٧٨ ، وابن الجوزي ٩/٩٥ ولفظه: عاملة في الدنيا بالمعاصي ناصبة في النار يوم القيامة.

(٦) ذكر قولهم الواحدي في الوسيط ٤/٤٧٣ .

مُتَقَهِّلٌ، عليه سوادٌ، فلمَّا رآه عمرُ بَكَى. فقيل له: يا أميرَ المؤمنين، ما يُبْكيكَ؟ قال: هذا المسكين طَلَبَ أمراً فلم يُصِبْه، ورَجَا رجاءً فأَخْطأَه، وقرأ قول الله عز وجل: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾[1]. قال الكسائيُّ: التقَهُّل: رثاثةُ الهيئة، ورجلٌ مُتَقَهِّل: يابسُ الجِلْدِ سَيِّئُ الحال، مثل المتقحِّل. وقال أبو عمرو: التقهُّل: شَكْوَى الحاجة، وأنشد:

لَـعْـوًا إذا لاقـيـتـه تـقـهَّـلا[2].

والقَهْل: كُفْرانُ الإحسانِ. وقد قَهَلَ يَقْهَلُ قَهْلاً: إذا أَثْنَى ثناءً قبيحاً. وأَقْهَلَ الرجلُ: تكلَّف ما يَعيبهُ ودنَّس نَفْسَه. وانْقَهَلَ: ضَعُفَ وسَقَطَ؛ قاله الجوهريُّ[3].

وعن عليٍّ ﷺ: أنهم أهلُ حَرُوراء، يعني الخوراجَ الذين ذَكَرهم رسول الله ﷺ فقال: «تَحقِرون صلاتَكم مع صلاتِهم، وصيامَكم مع صيامِهم، وأعمالَكم مع أعمالِهم، يَمْرُقون من الدِّين كما يَمْرُقُ السهمُ من الرَّمِيَّة» الحديث[4].

قوله تعالى: ﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝٤﴾

أي: يُصيبها صِلاؤُها وحرُّها ﴿حَامِيَةً﴾ شديدةَ الحرِّ، أي: قد أُوْقِدَتْ وأُحْمِيتْ المدةَ الطويلة. ومنه حَمِيَ النهارُ بالكَسْر، وحَمِيَ التنورُ حَمْياً فيهما، أي: اشتدَّ حرُّه. وحكى الكِسائيُّ: اشتدَّ حَمْيُ الشمسِ وحَمْوُها، بمعنى[5].

---

(١) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٣٦٨، والحاكم ٢/ ٥٢١-٥٢٢، والواحدي في الوسيط ٤/ ٤٧٣ بنحوه من طريق أبي عمران الجوني عن عمر.

(٢) وقبله: فلا تكونن ركيكاً تنتلا، وهو في الصحاح (قهل) والكلام منه، وأساس البلاغة. (قهل)، واللسان (قهل) و(ذرمل). قوله: لعواً، اللعو: السَّيِّئُ الخلُق، والشَّرِه الحريص. القاموس (لعو).

(٣) في الصحاح (قهل).

(٤) ينظر حديث أبي سعيد الخدري ﷺ عن أحمد (١١٠٠٨) و(١١٢٩١) و(١١٥٧٩)، والبخاري (٣٦١٠)، ومسلم (١٠٦٤).

(٥) الصحاح (حمى).

وقرأ أبو عمرو وأبو بكر ويعقوبُ: «تُصْلَى» بضم التاء. الباقون بفتحها[١]. وقرئ: «تُصَلَّى» بالتشديد[٢]. وقد تقدَّم القولُ فيها في ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾[٣].

الماوَرْدِيُّ[٤]: فإنْ قيل: فما معنى وَصْفِها[٥] بالحَمْي وهي لا تكونُ إلّا حاميةً، وهو أقلُّ أحوالها، فما وَجْهُ المبالغةِ بهذه الصِّفة الناقصة؟

قيل: قد اختُلف في المراد بالحامية هاهنا على أربعةِ أوْجُهٍ:

أحدُها: أنَّ المراد بذلك أنَّها دائمةُ الحَمْي، وليستْ كنارِ الدنيا التي ينقطعُ حَمْيُها بانطفائها.

الثاني: أنَّ المراد بالحامية أنَّها حِمًى [يمنع] من ارتكابِ المحظورات، وانتهاكِ المحارِم، كما قال النبيُّ ﷺ: «إنَّ لكلِّ مَلِكٍ حِمًى، وإنَّ حِمَى اللهِ مَحَارِمُه، ومَن يَرْتَعْ حَوْلَ الحِمَى يُوشك أنْ يقعَ فيه»[٦].

الثالث: أنَّها تَحمي نفسها عن أن تطاقَ مُلامَستُها، أو ترامَ مُماسَّتُها، كما يحمي الأسدُ عَرِينَه، ومثلُه قولُ النابغةِ:

تعدو الذئابُ على مَن لا كلابَ له ... وتتَّقي صَولةَ المُسْتأسِدِ الحامي[٧]

---

(١) السبعة ص٦٨١، والتيسير ص٢٢١، والنشر ٢/ ٤٠٠.

(٢) القراءات الشاذة ص١٧٢.

(٣) ص١٦٠ من هذا الجزء.

(٤) في النكت والعيون ٦/ ٢٥٨-٢٥٩.

(٥) في النسخ الخطية: صفتها.

(٦) أخرجه مطولاً أحمد (١٨٣٧٤)، والبخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير ﷺ.

(٧) طبقات الفحول ١/ ٥٧، والأغاني ١/ ٧٩، وتهذيب اللغة ١٥/ ٧٦، ونُسب للزبرقان كما في جمهرة الأمثال للعسكري ١/ ٥٤٠، والصحاح (ثفر). قال ابن سلام: سألت يونس عن البيت فقال: هو للنابغة، أظن الزبرقان استزاده في شعره، كالمَثَل حين جاء موضعه، لا مجتلباً له. اهـ. ووقع في المصادر عدا الأغاني: وتتقي مَرْبِضَ المستثفر الحامي. قال الأزهري: استثفار الكلب: إدخالهُ ذَنَبَه بين فخذيه حتى يلزقه ببطنه.

الرابع: أنَّها حامِيةٌ حَمْيَ غيظٍ وغضب؛ مبالغةً في شدَّة الانتقام. ولم يُرِدْ حَمْيَ جِرْمٍ وذاتٍ، كما يقال: قد حَمِيَ فلانٌ: إذا اغتاظَ وغضب عند إرادةِ الانتقام. وقد بيَّن الله تعالى هذا المعنى بقوله: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ [الملك: ٨].

قوله تعالى: ﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ۝٥﴾

الآني: الذي قد انتهى حَرُّه؛ من الإيناء، بمعنى التأخير. ومنه «آنَيْتَ وآذَيْتَ»[١]. وآناه يُؤْنيه إيناءً، أي: أخَّره وحبَسَه وأبْطأه ومنه: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ [الرحمن: ٤٤]. وفي التفاسير: «مِن عينٍ آنيةٍ»، أي: تَناهَى حرُّها؛ فلو وَقَعتْ نقطةٌ منها على جبالِ الدنيا لذابَتْ[٢]. وقال الحسن: «آنيةٍ» أي: حرُّها أدرك[٣]؛ أُوْقِدَتْ عليها جهنَّمُ منذ خُلِقَتْ، فدُفِعوا إليها وِرْداً عِطاشاً[٤]. وعن ابنِ أبي نجيحٍ عن مجاهدٍ قال: بَلَغتْ إِنَاها، وحان شربها[٥].

قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝٦﴾

قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ﴾ أي: لأهل النار. ﴿طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾ لمَّا ذَكَر شرابَهم ذَكَر طعامهم. قال عكرمةُ ومجاهدٌ: الضَّريع، نبتٌ ذو شوكٍ لاصِق بالأرض، تُسمِّيه قريشٌ الشِّبْرِق إذا كان رطباً، فإذا يبِس فهو الضَّريع، لا تَقْرَبُه دابةٌ ولا بهيمةٌ، ولا ترعاه، وهو سُمٌّ قاتلٌ، وهو أخبثُ الطعامِ وأشْنَعُه. على هذا عامَّةُ المفسِّرين[٦]، إلَّا أنَّ الضحَّاكَ روى عن ابن عباس قال: هو شيءٌ يَرْمي به البحر، يُسمَّى الضَّريعَ، من أقوات الأنعام لا الناسِ، فإذا وقعتْ فيه الإبلُ لم تَشْبَعْ، وهَلَكتْ هُزْلاً. والصحيحُ ما

---

(١) أخرجه أحمد (١٧٦٩٧).

(٢) تفسير الرازي ٣١/ ١٥٣ .

(٣) في (د) ادارك.

(٤) الوسيط ٤/ ٤٧٤ دون قوله: أي حرها أدرك.

(٥) أخرجه الطبري ٢٤/ ٣٣٠ .

(٦) تفسير الطبري ٢٤/ ٣٣١-٣٣٢ ، وتفسير البغوي ٤/ ٤٧٨ ، وتفسير الرازي ٣١/ ١٥٣ .

قاله الجمهورُ: أنه نَبْتٌ. قال أبو ذُؤيب:

رَعَى الشِّبرِقَ الريَّانَ حتى إذا ذَوَى ... وعاد ضَريعاً بانَ عنه النَّحائصُ[١]

وقال الهُذَليُّ وذَكَر إبلاً وسوءَ مَرْعاها:

وحُبِسْنَ في هَزْمِ الضَّريعِ فكلُّها ... حَدْباءُ دامِيةُ اليدينِ حَرُودُ[٢]

وقال الخليل: الضَّريعُ: نباتٌ أخضرُ مُنتنُ الريحِ، يَرْمي به البحر.

وقال الوالِبيُّ عن ابن عباس: هو شجرٌ من نار[٣]، ولو كانت في الدنيا لأحْرقت الأرضَ وما عليها.

وقال سعيد بن جُبير: هو الحجارة. وقاله عكرمة[٤].

والأظْهَرُ أنه شجرٌ ذو شوكٍ حَسْبَ ما هو في الدنيا. وعن ابن عباس عن النبيِّ ﷺ قال: «الضريعُ: شيءٌ يكونُ في النار، يُشبه الشوكَ، أشدُّ مرارةً من الصَّبر، وأنْتَنُ من الجيفة، وأَحَرُّ من النار، سمَّاه الله ضريعاً»[٥].

وقال خالد بن زياد[٦]: سمعتُ المتوكِّلَ بنَ حمدان[٧] يُسألُ عن هذه الآية:

---

(١) الكشاف ٤/ ٢٤٥، وتفسير الرازي ٣١/ ١٥٣، ولم نقف عليه في ديوان الهذليين. قوله: النحائص، هي جمع نحوص: وهي الناقة الشديدة السِّمَن. القاموس (نحص).

(٢) البيت لقيس بن عيزارة، وهو في ديوان الهذليين ٣/ ٧٣. قال الشارح: الهَزْم: ما تكسَّر من الضريع. وحَرود: لا تكاد تَدُرّ.

(٣) تفسير الطبري ٢٤/ ٣٣٣، وزاد المسير ٩/ ٩٦.

(٤) أخرجه عن سعيد بن جبير الطبري ٢٤/ ٣٣٢، وذكره عن عكرمة النحاس في إعراب القرآن ٥/ ٢١١.

(٥) أخرجه الواحدي في الوسيط ٤/ ٤٧٤، وابن مردويه كما في الدر المنثور ٦/ ٣٤٢، وسنده واه كما ذكر السيوطي.

(٦) الأزدي، أبو عبد الرحمن الترمذي، قال ابن حبان: يروي عن نافع صحيفة مستقيمة، وعن قتادة الحرف بعد الحرف، مات وهو ابن مئة سنة وسنة، وكان على القضاء بترمذ. الثقات ٦/ ٢٦٣، وتهذيب التهذيب ١/ ٥١٩.

(٧) لعله المتوكل بن حمران البلخي، ذكره ابن حبان في الثقات ٩/ ١٩٨ وقال: من العبَّاد، يروي عن كثير ابن زياد وأبي سهل، روى عنه أهل بلده.

﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾. قال: بلغني أنَّ الضَّريعَ شجرةٌ من نارِ جهنَّم، حَمْلُها القيحُ والدَّمُ، أشدُّ مرارةً من الصَّبر، فذلك طعامُهم. وقال الحسن: هو بعضُ ما أخفاه الله من العذاب.

وقال ابن كيسان: هو طعامٌ يَضْرَعون عنده ويَذِلُّون، ويتضرَّعون منه إلى الله تعالى طلباً للخلاص منه، فسمِّي بذلك لأنَّ آكِلَه يَضْرَعُ في أنْ يُعْفَى منه، لكراهته وخُشونته[1]. قال أبو جعفر النحاس: قد يكون مشتقًّا من الضَّارِع، وهو الذليلُ، أي: ذو ضراعةٍ، أي: مَن شَرِبه ذليلٌ تلحقُه ضَراعةٌ. وعن الحسن أيضاً: هو الزَّقُّوم[2]. وقيل: هو وادٍ في جهنم. فالله أعلم.

وقد قال الله تعالى في موضعٍ آخر: ﴿فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ﴾ [الحاقة: ٣٥-٣٦]. وقال هنا: ﴿إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾ وهو غيرُ الغِسْلِين. ووَجْهُ الجمعِ: أنَّ النار دَرَكاتٌ؛ فمنهم مَنْ طعامُه الزَّقومُ، ومنهم مَن طعامُه الغِسْلينُ، ومنهم مَن طعامُه الضَّريعُ، ومنهم مَن شرابُه الحميمُ، ومنهم مَن شرابُه الصَّديد[3]. قال الكلبيُّ: الضريعُ في درجةٍ ليس فيها غيرُه، والزَّقومُ في درجةٍ أُخرى. ويجوزُ أنْ تُحْمل الآيتان على حالتين كما قال: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ [الرحمن: ٥٥].

القُتَبيُّ[4]: ويجوزُ أن يكون الضريعُ وشجرةُ الزَّقومِ نَبْتَينِ من النار، أو مِن جوهرٍ لاتأكلُه النار. وكذلك سلاسلُ النارِ وأغلالُها، وعقاربُها وحَيَّاتها، ولو كانت على ما نَعْلَم ما بقيتْ على النار. قال: وإنَّما دلَّنا الله على الغائبِ عنده، بالحاضرِ عندنا، فالأسماءُ متَّفقةُ الدلالةِ، والمعاني مختلفةٌ. وكذلك ما في الجنة من شجرها وفُرُشها.

القُشَيريُّ: وأَمْثَلُ من قولِ القُتَبيِّ أن نقول: إنَّ الذي يُبقي الكافرين في النار ليدومَ

---

(١) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٩/ ٩٧ مختصراً.

(٢) بنحوه في إعراب القرآن للنحاس ٥/ ٢١١.

(٣) تأويل مشكل القرآن ص٤٨، وتفسير الرازي ٣١/ ١٥٤.

(٤) في تأويل مشكل القرآن ص٥٠.

عليهم العذابُ، يُبقي النباتَ وشجرةَ الزقومِ في النار ليعذِّب بها الكفار.

وزعم بعضُهم أنَّ الضَّريع بعَيْنِهِ لا يَنْبتُ في النار، ولا أنَّهم يأكلونه. فالضريعُ مِن أَقْواتِ الأنعام، لا مِن أَقْواتِ الناس. وإذا وقعت الإبلُ فيه لم تَشْبَعْ، وهلكتْ هزلاً، فأراد أنَّ هؤلاء يقتاتون بما لا يُشْبِعُهم، وضَرَب الضَّريعَ له مثلاً، أنهم يعذَّبون[1] بالجوع كما يَعذَّبُ مَن قُوتُه الضَّريعُ.

قال الترمذيُّ الحكيم: وهذا نظرٌ سقيمٌ من أهله وتأويلٌ دنيءٌ، كأنه يدلُّ على أنَّهم تحيَّروا في قدرة الله تعالى. وإنَّ الذي أَنْبتَ في هذا الترابِ هذا الضريعَ قادرٌ على أنْ يُنْبِتَه في حريق النار، كما [2] جعل لنا في الدنيا من الشجر الأخضر ناراً، فلا النارُ تُحْرِقُ الشجرَ، ولا رطوبةُ الماءِ في الشجر تُطْفِئُ النارَ، فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ [يس: ٨٠]. وكما قيل حين نزلت ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ [الإسراء: ٩٧]، قالوا: يا رسول الله، كيف يَمشونَ على وجوههم؟ فقال: «الذي» أمشاهم على أَرْجُلِهم قادرٌ على أن يُمْشِيَهم على وجوههم»[3]. فلا يتحيَّرُ في مثلِ هذا إلا ضعيفُ القلب. أَوَليس قد أخبَرنا أنه ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ [النساء: ٥٦]، وقال: ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ﴾ [إبراهيم: ٥٠]، وقال: ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا﴾ أي: قُيوداً ﴿وَجَحِيمًا . وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾ [المزمل: ١٢-١٣] قيل: ذا شوك. فإنَّما يَتلوَّنُ عليهم العذابُ بهذه الأشياء.

قوله تعالى: ﴿لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ ۝٧﴾

يعني الضريعَ لا يُسْمِنُ آكلَه. وكيف يَسْمَنُ مَن يأكلُ الشوك! قال المفسِّرون: لمَّا نزلت هذه الآيةُ قال المشركون: إنَّ إبلَنا لتَسْمَنُ بالضَّريع، فنزلتْ: ﴿لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى

(١) في تأويل مشكل القرآن ص٤٩ (والكلام منه): أو يعذبون، بدل: أنهم يعذبون.

(٢) قوله: كما، ليس في (م).

(٣) أخرجه أحمد (١٣٣٩٢)، والبخاري (٦٥٢٣)، ومسلم (٢٨٠٦) من حديث أنس ﷺ، وأخرجه أحمد (٨٦٤٧) من حديث أبي هريرة ﷺ.

مِن جُوعٍ﴾[١]. وكَذَبوا، فإنَّ الإبل إنَّما ترعاه رَطْباً، فإذا يَبِسَ لم تأكلْه[٢]. وقيل: اشْتَبَه عليهم أمرُه فظنُّوه كغيره من النَّبْتِ النافع؛ لأنَّ المضارَعةَ: المشابهة، فوجدوه لا يُسْمِنُ[٣] ولا يغني من جوع.

قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۝٨ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ۝٩ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝١٠﴾

قوله تعالى ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ﴾ أي: ذاتُ نَعْمةٍ. وهي وجوهُ المؤمنين، نَعِمَتْ بما عايَنَتْ من عاقبة أَمْرِها وعَمَلِها الصالح. ﴿لِّسَعْيِهَا﴾ أي: لعملها الذي عَمِلَتْه في الدنيا. ﴿رَاضِيَةٌ﴾ في الآخرة حين أُعطيتِ الجنةَ بعَمَلِها. ومَجازُه: لثوابِ سَعْيِها راضيةٌ. وفيها واوٌ مُضْمَرةٌ، المعنى: ووجوهٌ يومئذٍ، للفصل بينها وبين الوجوهِ المتقدِّمة. والوجوهُ عبارةٌ عن الأنفُس.

﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ أي: مُرْتفعةٍ؛ لأنَّها فوق السماوات حَسْبَ ما تقدَّم. وقيل: عاليةِ القَدْرِ؛ لأنَّ فيها ما تَشْتَهيه الأنفسُ وتَلَذُّ الأَعْيُن، وهم فيها خالدون.

قوله تعالى: ﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ۝١١﴾

أي: كلاماً ساقطاً غيرَ مَرْضِيٍّ. وقال: «لاغية»، واللَّغْو واللَّغَا واللَّاغية: بمعنًى واحدٍ؛ قال:

عنِ اللَّغَا ورَفَثِ التَّكَلُّمِ[٤]

وقال الفرَّاء والأخفش: أي: لا تَسمعُ فيها كلمةَ لغوٍ[٥]. وفي المراد بها ستةُ

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٣١٧، والوسيط ٤/ ٤٧٥، والكشاف ٤/ ٢٤٦، وتفسير البغوي ٤/ ٤٧٩.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٤٧٩.

(٣) في (د): لا يشبع.

(٤) البيت للعجاج، وهو في ديوانه ص٢٨٣، وقبله: ورَبِّ أسرابِ حجيجٍ كُظَّمِ. أقسم بربِّ أسرابِ حجيج، وأسراب الحجيج: جماعات الحاجِّ. والكظَّم: السكوت. شرح أبيات إصلاح المنطق للسيرافي ص٢٥٩.

(٥) النكت والعيون ٦/ ٢٦٠، وقول الأخفش في معاني القرآن ٢/ ٧٣٧. ولم نقف عليه في معاني القرآن للفراء.

أَوْجُهٍ: أحدها: يعني كذبًا وبُهتانًا وكفراً بالله عز وجل؛ قاله ابن عباس. الثاني: لا باطلَ ولا إثم؛ قاله قتادة. الثالث: أنه الشتم؛ قاله مجاهد. الرابع: المعصية؛ قاله الحسن[١]. الخامس: لا يُسْمَعُ فيها حالفٌ يحلفُ بكذبٍ؛ قاله الفرَّاء[٢]. وقال الكلبيُّ: لا يُسمع في الجنة حالفٌ بيمينٍ برَّةٍ ولا فاجرة[٣]. السادس: لا يُسمع في كلامهم كلمةٌ تُلْغَى؛ لأنَّ أهلَ الجنةِ لا يتكلَّمون إلَّا بالحكمةِ وحَمْدِ الله على ما رَزَقَهم من النعيم الدائم؛ قاله الفرَّاء أيضاً[٤]. وهو أحسنُها لأنه يَعمُّ ما ذُكر.

وقرأ أبو عمرو وابن كثير: «لا يُسْمَع» بياءٍ غير مسمَّى الفاعل. وكذلك نافع، إلَّا أنَّه بالتاء المضمومة[٥]؛ لأنَّ اللاغيةَ اسمٌ مؤنثٌ فأنثَ الفعل لتأنيثه. ومَن قرأ بالياء فلأنه حالَ بين الاسم والفعلِ الجارُّ والمجرور. وقرأ الباقون بالتاء مفتوحةً، «لاغِيةً» نَصْباً[٦]، على إسنادِ ذلك للوجوه، أي: لا تسمعُ الوجوهُ فيها لاغيةً.

قوله تعالى: ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ۝١٢ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ۝١٣ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ۝١٤ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ۝١٥ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ۝١٦﴾

قوله تعالى: ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ أي: بماءٍ مُنْدَفِقٍ، وأنواعِ الأشربةِ اللذيذةِ على وَجْهِ الأرضِ من غيرِ أُخدود. وقد تقدَّم في سورة الإنسان[٧] أنَّ فيها عيونًا، فـ«عينٌ» بمعنى: عيون. والله أعلم.

﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ﴾ أي: عالية. ورُوي أنه كان ارتفاعُها قَدْرَ ما بين السماءِ

---

(١) ذكر هذه الأقوال الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٢٦٠، وقول قتادة أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٣٦٨، وقول مجاهد أخرجه الطبري ٢٤/ ٣٣٥.

(٢) في معاني القرآن ٣/ ٢٥٧.

(٣) النكت والعيون ٦/ ٢٦٠.

(٤) النكت والعيون ٦/ ٢٦١، ولم نقف عليه في معاني القرآن للفراء.

(٥) ومَن قرأ بهاتين القراءتين قرأ: «لاغيةٌ» بالرفع. السبعة ص٦٨١، والتيسير ص٢٢٢.

(٦) في (م): نصاً.

(٧) ٢١/ ٤٥٦.

والأرض، ليرَى وليُّ اللهِ مُلْكَه حَوْلَه.

﴿وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ﴾ أي: أباريقُ وأوانٍ. والإبريق: هو ماله عُروةٌ وخُرطوم. والكوبُ: إناءٌ ليس له عروةٌ ولا خرطوم. وقد تقدَّم هذا في سورة «الزخرف»[١] وغيرِها.

﴿وَنَمَارِقُ﴾ أي: وسائدُ، الواحدةُ: نُمْرُقة. ﴿مَصْفُوفَةٌ﴾ أي: واحدة إلى جَنْبِ الأخرى، قال الشاعر:

وإنا لَنُجْرِي الكأسَ بين شُروبنا   وبينَ أبي قابوسَ فَوقَ النَّمارِقِ[٢]

وقال آخر:

كُهولٌ وشبَّانٌ حِسانٌ وجوهُهُمْ   على سُرُرٍ مَصفوفةٍ ونَمارِقِ[٣]

وفي «الصحاح»: النُّمْرُقُ والنُّمرُقةُ: وسادةٌ صغيرة. وكذلك النِّمرِقة ـ بالكسر ـ لغةٌ حكاها يعقوب. وربَّما سَمَّوا الطِّنْفِسةَ التي فوق الرَّحْلِ نُمرقة؛ عن أبي عُبيد[٤].

﴿وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾: قال أبو عُبيدة[٥]: الزرابيُّ: البُسُط. وقال ابن عباس: الزَّرابيُّ: الطَّنافسُ التي لها خَمْلٌ رقيقٌ، واحدتُها: زربية[٦]. وقاله الكلبيُّ والفرَّاء[٧].

والمبثوثة: المبسوطةُ؛ قاله قتادة. وقيل: بعضُها فوق بعضٍ؛ قاله عكرمةُ. وقيل: كثيرة؛ قاله الفرَّاء. وقيل: متفرقةٌ في المجالس؛ قاله القُتَبيّ[٨].

---

(١) ١٩/ ٨١ - ٨٢.

(٢) البيت للفرزدق، وهو في الكامل للمبرد ٣/ ١٣٦٩. قوله: شُروبنا، الشُّروب: القوم يشربون. القاموس (شرب).

(٣) نسبه ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٤٧٤ لزهير، ولم نقف عليه في ديوانه.

(٤) الصحاح (نمرق).

(٥) في مجاز القرآن ٢/ ٢٩٦.

(٦) تكسر زايها وتفتح وتضم. النهاية (زرب).

(٧) في معاني القرآن ٣/ ٢٥٨، وذكره عن الكلبي الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٢٦١.

(٨) النكت والعيون ٦/ ٢٦١-٢٦٢. وقول قتادة أخرجه الطبري ٢٤/ ٣٣٨، وقول الفراء في معاني =

قلت: هذا أَصْوَبُ، فهي كثيرةٌ متفرِّقةٌ. ومنه: ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ [البقرة: ١٦٤].

وقال أبو بكر الأنباريُّ: وحدَّثنا أحمد بن الحسين، قال: حدَّثنا حسين بن عرفة، قال: حدَّثنا عمار بن محمد، قال: صلَّيتُ خَلْفَ منصور بنِ المعتمر، فقرأ: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ﴾، وقرأ فيها: «وزَرَابيُّ مَبْثُوثةٌ متَّكئين فيها ناعمين»[١].

قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾﴾

قال المفسِّرون: لمَّا ذكر الله عزَّ وجلَّ أَمْرَ أهلِ الدارَيْنِ، تعجَّب الكفار من ذلك، فكذَّبوا وأنكروا، فذكَّرهُمُ الله صنعته وقُدْرتَه، وأنه قادرٌ على كلِّ شيء، كما خَلَقَ الحيواناتِ والسماءَ والأرضَ. ثم ذَكَر الإبلَ أولاً، لأنَّها كثيرةٌ في العرب، ولم يَرَوُا الفِيلةَ، فنبَّههم جلَّ ثناؤه على عظيمٍ مِن خَلْقِه، قد ذلَّله للصغير يقودُه ويُنيخُه ويُنْهِضُه، ويحملُ عليه الثقيل من الْحِمْلِ وهو بارِكٌ، فينهضُ بثقيلِ حِمْلِه، وليس ذلك في شيءٍ من الحيوان غيرِه. فأراهم عظيماً من خَلْقِه، مسخَّراً لصغيرٍ مِن خَلْقِه؛ يدلُّهم بذلك على توحيده وعظيمِ قدرته.

وعن بعضِ الحكماءِ: أنَّه حُدِّثَ عن البعير وبديعِ خَلْقِه، وقد نشأ في بلادٍ لا إبلَ فيها، ففكَّر ثم قال: يوشكُ أنْ تكونَ طِوالَ الأعناقِ. وحين أراد بها أن تكونَ سفائنَ البرِّ، صبَّرها على احتمالِ العطش، حتى إنَّ إظماءها ليرتفعُ إلى العَشْرِ فصاعداً، وجعلها ترعَى كلَّ شيءٍ نابتٍ في البراري والمفاوِزِ، ممَّا لا يرعاه سائرُ البهائم[٢].

وقيل: لَمَّا ذَكَر السُّرُرَ المرفوعةَ قالوا: كيف نَصْعدُها؟ فأنزل الله هذه الآيةَ، وبيَّن أنَّ الإبلَ تَبْرُكُ حتى يُحمل عليها ثم تقوم، فكذلك تلك السُّرُر تَتَطامنُ ثم ترتفع. قال

= القرآن ٣/ ٢٥٨، وقول ابن قتيبة في تفسير الغريب ص٥٢٥. وقول عكرمة أخرجه عبد بن حميد وابن أبي حاتم، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٤٣.

(١) الخبر في كتاب المصاحف لابن الأنباري، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٤٣.

(٢) الكشاف ٤/ ٢٤٧.

معناه قتادةُ ومقاتلٌ وغيرهما[١].

وقيل: الإبلُ هنا القِطَعُ العظيمةُ من السحاب؛ قاله المبرِّد[٢]. قال الثعلبيُّ: وقيل في الإبِل هنا: السحابُ، ولم أجِدْ لذلك أصلاً في كتب الأئمة.

قلت: قد ذَكَر الأصمعيُّ أبو سعيدٍ عبدُ الملك بن قُرَيب، قال أبو عمرو: مَن قرأها: «أفلا ينظُرون إلى الإبِلِ كيف خُلِقتْ» بالتخفيف: عنَى به البعير؛ لأنَّه من ذواتِ الأربع، يَبرُك فتُحْمَلُ عليه الحمولةُ، وغيرهُ من ذواتِ الأربع لا يُحملُ عليه إلَّا وهو قائم. ومَن قرأها بالتثقيل فقال: «الإبِلّ» عنَى بها السحابَ التي تحملُ الماءَ للمطر[٣].

وقال الماوَرْديُّ[٤]: وفي الإبل وجهان: أحدُهما ـ وهو أظْهَرُهما وأشْهرُهما ـ: أنَّها الإبلُ من النَّعَم. الثاني: أنَّها السَّحابُ. فإنْ كان المرادُ بها السحابَ، فلِمَا فيها من الآيات الدالَّةِ على قُدْرَته، والمنافع العامَّة لجميع خَلْقِه. وإن كان المرادُ بها الإبلَ من النَّعَم، فلأنَّ الإبلَ أَجْمعُ للمنافع من سائر الحيوان؛ لأنَّ ضُروبَه أربعةٌ: حَلُوبة، ورَكُوبة، وأَكُولة، وحَمُولة. والإبلُ تجمع هذه الخِلالَ الأربع، فكانت النعمةُ بها أعمَّ، وظهورُ القدرةِ فيها أَتمَّ.

وقال الحسن: إنَّما خصَّها الله بالذِّكْرِ لأنها تأكلُ النَّوى والقَتَّ، وتُخرِجُ اللَّبن. وسئل الحسن أيضاً عنها وقالوا: الفيلُ أعظمُ في الأعجوبة! فقال: العربُ بعيدةُ العهدِ بالفيل، ثم هو خنزيرٌ لا يُؤكل لحمُه، ولا يُركبُ ظَهْرُه، ولا يُحلَبُ دَرُّه[٥].

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٤٨٠ وزاد المسير ٩/ ٩٩ عن قتادة دون قوله: وبين أن الإبل تبرك . . .

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٤٧٤ ، وذكره النحاس في إعراب القرآن ٥/ ٢١٣ ، والماوردي في النكت والعيون ٦/ ٢٦٢ دون نسبة.

(٣) اللسان (أبل)، وذكر قول أبي عمرو مختصراً ابن خالويه في القراءة الشاذة ص١٧٢ .

(٤) في النكت والعيون ٦/ ٢٦٢ .

(٥) الوسيط ٤/ ٤٧٦ ، وتفسير البغوي ٤/ ٤٨٠ .

وكان شُرَيْح يقول: اخرجوا بنا إلى الكُناسة حتى ننظرَ إلى الإبل كيف خُلِقت[(١)].

والإبل: لا واحدَ لها من لفظها، وهي مؤنثة؛ لأنَّ أسماء الجموع التي لا واحد لها من لفظها إذا كانت لغير الآدميين فالتأنيثُ لها لازم، وإذا صغَّرتَها دَخَلَتْها الهاءُ، فقلتَ: أُبيلة وغُنيمة، ونحو ذلك. وربما قالوا للإبل: إبْل، بسكون الباء للتخفيف، والجمع: آبال[(٢)].

قوله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾ أي: رُفعت عن الأرض بلا عَمَد. وقيل: رفعت، فلا ينالُها شيء. ﴿وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ أي: كيف نُصبت على الأرض بحيث لا تزول، وذلك أن الأرض لمَّا دُحِيت مادت، فأرساها بالجبال، كما قال: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾ [الأنبياء: ٣١].

﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ أي: بُسطت ومدّت. وقال أنس: صلَّيت خلف عليّ ﷺ، فقرأ: «كَيفَ خَلَقْتُ» و«رَفَعْتُ» و«نَصَبْتُ» و«سَطَحْتُ»، بضم التاءات[(٣)]؛ أضاف الضمير إلى الله تعالى. وبه كان يقرأ محمد بن السَّمَيْفَع وأبو العالية، والمفعول محذوف، والمعنى: خلقتها. وكذلك سائرُها.

وقرأ الحسن وأبو حَيْوة وأبو رجاء: «سُطِّحَتْ» بتشديد الطاء وإسكان التاء[(٤)]. وكذلك قرأ الجماعة، إلا أنَّهم خفَّفوا الطاء. وقدَّم الإبل في الذكر، ولو قدَّم غيرها لجاز.

---

(١) أخرجه الطبري ٢٤/ ٣٣٩ ، والكناسة: محلةٌ بالكوفة. معجم البلدان ٤/ ٤٨١ .

(٢) الصحاح (أبل).

(٣) القراءات الشاذة ص١٧٢ ، والمحتسب ٢/ ٣٥٦ .

(٤) القراءات الشاذة ص١٧٢ ، والمحتسب ٢/ ٣٥٦ عن هارون الرشيد، وذكرها عن الحسن ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٤٧٥ .

قال القشيري: وليس هذا ممَّا يُطلب فيه نوعُ حكمة. وقد قيل: هو أقرب إلى الناس في حقِّ العرب، لكثرتها عندهم، وهم من أعرفِ الناس بها. وأيضاً: مَرافق الإبل أكثر من مرافق الحيوانات الأُخَر، فهي مأكولة، ولبنها مشروب، وتصلح للحمل والركوب، وقطع المسافات البعيدة عليها، والصبر على العطش، وقلة العَلَف، وكثرة الحَمْل، وهي مُعْظَم أموال العرب. وكانوا يسيرون على الإبل منفردين مستوحشين عن الناس، ومَنْ هذا حاله تَفكَّر فيما يحضره، فقد ينظر في مركوبه، ثم يمد بصره إلى السماء، ثم إلى الأرض. فأُمِروا بالنظر في هذه الأشياء؛ فإنها أدل دليل على الصانع المختار القادر.

قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ﴾ أي: فعِظْهُم يا محمدُ وخوِّفْهم. ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ أي: واعِظٌ. ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ أي: بمسَلَّط عليهم فتقتلَهم. ثم نَسَخَتْها آيةُ السَّيف.

وقرأ هارون الأعور: «بِمُسَيْطَرٍ» بفتح الطاء، و«المُسَيْطَرون» [الطور: ٣٧]. وهي لغةُ تميم[(١)].

وفي «الصِّحَاح»: المُسَيطِر والمُصَيْطِر: المُسَلَّطُ على الشيء، ليُشْرِفَ عليه، ويتعهَّدَ أحواله، ويكتبَ عملَه، وأصلهُ من السَّطر؛ لأنَّ الكتاب مُسَطَّرٌ[(٢)]، والذي يفعلُه مُسَطِّر ومُسَيْطِر؛ يقال: سَيْطَرْتَ علينا، وقال تعالى: «لَسْتَ عليهم بمسَيْطِرٍ».

---

(١) البحر ٨/ ٤٦٤. قال الزمخشري في الكشاف ٤/ ٢٤٨: قيل: هو في لغة تميم مفتوح الطاء، على أن سيطر متعدٍّ عندهم، وقولهم: تَسَيْطَر، يدل عليه.

(٢) في (م): لأن من معنى السطر ألا يتجاوز فالكتاب مسطر، وفي النسخ الخطية: لأن معنى السطر ألا يتجاوز فالكتاب مسطر، والمثبت من الصحاح (سطر)، ومثله في اللسان (سطر).

ومَطَرَه، أي: صَرَعَه.

﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ﴾ استثناءٌ مُنْقَطِعٌ، أي: لكنْ مَن تولَّى عن الوعظِ والتذكير ﴿فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ﴾ وهي جهنمُ الدائمُ عذابُها ـ وإنَّما قال: «الأكبر» لأنهم عذِّبوا في الدنيا بالجوع والقَحْطِ والأَسْرِ والقتل ـ ودليلُ هذا التأويلِ قراءةُ ابنِ مسعود: «إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وكَفَر فإنَّه يعذِّبُه الله»[(١)].

وقيل: هو استثناءٌ متَّصِلٌ، والمعنى: لَسْتَ بمسَلَّطٍ إلَّا على مَن تولَّى وكَفَر، فأنت مُسَلَّطٌ عليه بالجهاد، واللهُ يعذِّبه بعد ذلك العذابَ الأكبرَ، فلا نَسْخَ في الآية على هذا التقدير.

ورُوِي أنَّ عليًّا أُتِي برجلٍ ارتدَّ، فاستتابه ثلاثةَ أيام، فلم يُعاوِدِ الإسلامَ، فضرب عنقَه، وقرأ: ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ﴾[(٢)].

وقرأ ابنُ عباس وقتادةُ: «أَلَا» على الاستفتاح والتنبيه[(٣)]، كقولِ امرئ القيس:

أَلَا رُبَّ يومٍ لكَ منهنَّ صالِحٍ[(٤)]

و«مَنْ» على هذا: للشرط. والجوابُ: «فيعذِّبه اللهُ» والمبتدأُ بعد الفاءِ مُضْمَرٌ، والتقدير: فهو يعذِّبُه الله؛ لأنه لو أُرِيدَ الجوابُ بالفعل الذي بَعْدَ الفاءِ لكان: أَلَا مَن تولَّى وكَفَر يعذِّبْه الله[(٥)].

﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴾ أي: رُجوعَهم بعد الموت. يقال: آبَ يؤوب، أي: رجع. قال عَبِيد:

---

(١) الكشاف ٤/ ٢٤٨.

(٢) أخرجه بنحوه مطولاً دون ذكر الآية البيهقي ٨/ ٢٠٦.

(٣) المحتسب ٢/ ٣٥٧.

(٤) وعجزه: ولا سيما يوم بدارة جلجل، وهو في الديوان ص١٠. قال شارح الديوان: دارة جلجل: موضع يقال له: الحمى. والدار والدارة واحد.

(٥) المحتسب ٢/ ٣٥٧.

وكُــلُّ ذي غَـيْـبَـةٍ يَـؤُوبُ وغـائـبُ الـمـوتِ لايَـؤُوبُ[١]

وقرأ أبو جعفر: «إِيّابُهمْ» بالتشديد[٢]. قال أبو حاتم: لا يجوز التشديد، ولو جاز لجاز مثله في الصيام والقيام. وقيل: هما لغتان بمعنى. الزمَخْشَريُّ[٣]: وقرأ أبو جعفر المدنيُّ: «إِيَّابهم» بالتشديد، ووجهه أن يكون فِيْعالاً: مصدر أَيَّب فيْعَلَ من الإِيَّاب[٤]. أو أن يكون أصلُه إِوَّاباً فِعَّالاً من أوَّب، ثم قيل: إيواباً، كديوان في دِوَّان. ثم فُعِل [به] ما فُعِل بأصل سيِّد[٥] ونحوِه.

(١) ديوان عبيد بن الأبرص ص٢٦.

(٢) النشر ٢/ ٤٠٠، وما سيأتي بين حاصرتين منه.

(٣) في الكشاف ٤/ ٢٤٨.

(٤) ويقال منه: أَيَّبَ يؤَيِّبُ إِيَّاباً، والأصل: أَيْوَب يُؤَيْوِبُ إيواباً ـ كبَيْطَر يُبَيْطِر ـ ثم قلبت الواو ياءً وأدغمت الياء المزيدة فيها، فإِيَّاب على هذا: فيعال. ينظر الدر المصون ١٠/ ٢٧٢-٢٧٣.

(٥) يعني أن أصله: سَيْوِد، فقلبت الواو ياءً وأدغمت. الدر المصون ١٠/ ٢٧٣.

سورة «الفجر»

مكِّيةٌ، وهي ثلاثون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿وَالْفَجْرِ ① وَلَيَالٍ عَشْرٍ ②﴾

قوله تعالى: ﴿وَالْفَجْرِ﴾ أقْسَمَ بالفجر. ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ أقسامٌ خمسةٌ. واختُلِف في «الفجر»؛ فقال قومٌ: الفجر هنا: انفجارُ الظُّلْمةِ عن النهار من كلِّ يومٍ؛ قاله عليٌّ وابن الزُّبير وابن عباس ﷺ[(١)].

وعن ابن عباس أيضاً: أنَّه النهارُ كلُّه، وعَبَّر عنه بالفجر لأنه أوَّله[(٢)].

وقال ابن مُحَيْصن عن عطية عن ابن عباس: يعني فجرَ يومِ المحرَّمِ. ومثلُه قال قتادة. قال: هو فجرُ أوّلِ يومٍ من المحرَّم، منه تنفجرُ السنة[(٣)].

وعنه أيضًا: صلاة الصبح[(٤)].

وروى ابنُ جريجٍ عن عطاءٍ عن ابن عباس قال: «والفجر»: يريدُ صبيحةَ يومِ النَّحْرِ؛ لأنَّ الله تعالى جلَّ ثناؤه جعل لكلِّ يومٍ ليلةً قَبْلَه، إلاَّ يومَ النَّحْرِ لم يَجعَلْ له ليلةً قبله ولا ليلةً بعده؛ لأنَّ يومَ عرفةَ له ليلتان: ليلةٌ قبله وليلةٌ بعده، فَمَن أدركَ الموقفَ ليلةً بعد عرفةَ، فقد أدْركَ الحجَّ إلى طلوع الفجر، فجرِ يومِ النَّحْرِ. وهذا قولُ مجاهد[(٥)].

---

(١) الوسيط ٤/٤٧٨ ، وزاد المسير ٩/ ١٠٢ عن ابن عباس، وذكره عن علي بنحوه الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٢٦٥ .

(٢) النكت والعيون ٦/ ٢٦٥ وأخرجه الطبري ٢٤/ ٣٤٤ .

(٣) الوسيط ٤/٤٧٨ .

(٤) أخرجه الطبري ٢٤/ ٣٤٤ .

(٥) ذكره عن مجاهد الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٢٦٥ ، وأخرجه ابن أبي حاتم، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٤٤ .

وقال عكرمةُ: «والفجر» قال: انْشِقاقُ الفجرِ من يومِ جَمْع[١]. وعن محمد بن كعب القُرَظيِّ: «والفجرِ»: آخر أيامِ العَشْرِ، إذا دفَعْتَ من جَمْع.

وقال الضحاك: فجر ذي الحجة؛ لأنَّ الله تعالى قَرَنَ الأيامَ به فقال: «وليالٍ عشرٍ»، أي: ليالِ عشرٍ مِن ذي الحجة[٢]. وكذا قال مجاهدٌ والسدِّيُّ والكلبيُّ في قوله: «وليالٍ عَشْرٍ»: هو عَشْرُ ذي الحجة، وقاله ابن عباس. وقال مسروق: وهي العَشْرُ التي ذَكَرها الله في قصةِ موسى عليه السلام: ﴿وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ﴾ [الأعراف: ١٤٢]، وهي أفضلُ أيامِ السَّنة[٣].

وروى أبو الزبير عن جابر أنَّ رسول الله ﷺ قال: ﴿وَالْفَجْرِ وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ قال: «عشر الأضحى»[٤] فهي ليالِ عشر على هذا القول؛ لأنَّ ليلةَ يومِ النحر داخلةٌ فيه، إذ قد خصَّها الله بأنْ جَعَلَها موقفاً لمن لم يُدْرِكِ الوقوفَ يومَ عرفةَ. وإنَّما نكِّرتْ ولم تعرَّفْ لفضيلتها على غيرها، فلو عُرِّفت لم تَسْتَقِلَّ بمعنى الفضيلةِ الذي في التنكير، فنكِّرتْ مِن بينِ ما أقسم به، للفضيلة التي ليست لغيرها. والله أعلم.

وعن ابن عباس أيضاً: هي العشرُ الأواخِرُ من رمضان. وقاله الضحاك[٥].

وقال ابن عباس أيضاً ويمان والطبريُّ: هي العشرُ الأوَّلُ من المحرَّم، التي عاشِرُها يومُ عاشوراءَ[٦]. وعن ابن عباس: «وليالِ عشرٍ» ـ بالإضافة ـ يريد: وليالِ أيامِ عشر[٧].

---

(١) أخرجه عبد بن حميد، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٤٤ بلفظ: طلوعُ الفجر غداةَ جمع. وجمع هو المزدلفة. القاموس (جمع).

(٢) الوسيط ٤/ ٤٧٨.

(٣) تفسير الطبري ٢٤/ ٣٤٥-٣٤٧.

(٤) قطعة من حديث أخرجه أحمد (١٤٥١١)، والنسائي في الكبرى (٤٠٨٦)، وسيأتي لفظه بتمامه.

(٥) المحرر الوجيز ٥/ ٤٧٦، وأخرجه عن ابن عباس الواحدي في الوسيط ٤/ ٤٧٩.

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٤٨١، وزاد المسير ٩/ ١٠٤ عن يمان (وهو ابن رئاب)، وحكى الطبري ٢٤/ ٣٤٨ هذا القول دون نسبة ثم قال: والصواب من القول في ذلك عندنا أنها عشر الأضحى؛ لإجماع الحجة من أهل التأويل عليه.

(٧) الكشاف ٤/ ٢٤٩. قال السمين في الدر المصون ١٠/ ٧٨٠: بعضهم يكتب «ليال» في هذه القراءة دون ياء، وبعضهم قال: وليالي بالياء، وهو القياس.

قوله تعالى: ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ۝٣﴾

الشفع: الاثنان، والوتر: الفرد. واختُلف في ذلك؛ فرُوي مرفوعاً عن عِمران بن الحصين عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «الشفع والوتر: الصلاةُ؛ منها شَفْعٌ، ومنها وَتْر»(١).
وقال جابر بنُ عبد الله: قال النبيُّ ﷺ: ﴿وَالْفَجْرِ . وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ قال: «هو الصبحُ، وعَشْرُ النَّحْرِ، والوتر: يومُ عرفةَ، والشفعُ: يومُ النحر»(٢). وهو قولُ ابن عباس وعكرمة(٣). واختاره النحاس، وقال: حديثُ أبي الزبيرِ عن جابرٍ هو الذي صحَّ عن النبيِّ ﷺ، وهو أصحُّ إسناداً من حديث عِمران بن حُصين. فيومُ عرفةَ وترٌ لأنه تاسِعُها، ويومُ النحرِ شفعٌ لأنه عاشِرُها.

وعن أبي أيوب قال: سُئل النبيُّ ﷺ عن قوله تعالى: ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾ فقال: «الشَّفعُ: يومُ عرفةَ ويومُ النحرِ، والوترُ: ليلةُ يومِ النحر»(٤).

وقال مجاهدٌ وابن عباس أيضاً: الشَّفعُ خَلْقُه؛ قال الله تعالى: ﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾ [النبأ:٨]، والوَتْر هو الله عزَّ وجل(٥). فقيل لمجاهد: أتَرْوِيهِ عن أحد؟ قال: نعم، عن أبي سعيد الخُدْرِيِّ، عن النبيِّ ﷺ(٦). ونَحوَه قال محمد بن سيرين ومسروقٌ وأبو صالحٍ وقتادةُ، قالوا: الشفعُ: الخَلْقُ؛ قال الله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ [الذاريات:٤٩]: الكفر والإيمان، والشقاوة والسعادة، والهدى والضلال، والنور والظلمة، والليل والنهار، والحر والبرد، والشمس والقمر، والصيف والشتاء،

(١) أخرجه أحمد (١٩٩١٩)، والترمذي (٣٣٤٢) وقال: غريب لا نعرفه إلا من حديث قتادة. اهـ. وإسناده ضعيف لإبهام الراوي عن عمران.

(٢) أخرجه أحمد (١٤٥١١)، والنسائي في الكبرى (٤٠٨٦)، واللفظ له، وسلف قريباً.

(٣) أخرج قولهما الطبري ٢٤/ ٣٤٩.

(٤) أخرجه الطبراني في الكبير (٤٠٧٣). قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ١٣٧: فيه واصل بن السائب وهو متروك.

(٥) أخرج قولهما الطبري ٢٤/ ٣٥١ و٣٥٢.

(٦) لم نقف عليه، وقال البغوي ٤/ ٤٨١: روي ذلك عن أبي سعيد.

والسماء والأرض، والجنّ والإنس. والوتر: هو الله عزَّ وجلَّ، قال جلَّ ثناؤه: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾(١). وقال النبيُّ ﷺ: «إنَّ للهِ تسعةً وتسعين اسماً، واللهُ وِتْرٌ يُحبُّ الوِتر»(٢).

وعن ابن عباس أيضاً: الشفعُ: صلاةُ الصبح، والوترُ: صلاةُ المغرب.

وقال الربيع بن أنس وأبو العالية: هي صلاةُ المغرب؛ الشفعُ فيها ركعتان، والوترُ الثالثة.

وقال ابن الزُّبير: الشفعُ: يوما مِنًى؛ الحادي عشر، والثاني عشر. والثالث عشر: الوتر؛ قال الله تعالى: ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة:٢٠٣]

وقال الضحاك: الشَّفعُ: عَشْرُ ذي الحجة، والوتر: أيامُ مِنًى الثلاثة. وهو قولُ عطاء.

وقيل: إنَّ الشفعَ والوتر: آدمُ وحوّاء؛ لأنَّ آدم كان فرداً فشُفِع بزوجته حوّاء، فصار شفعاً بعد وترٍ. رواه ابن أبي نَجِيح، وحكاه القشيريُّ عن ابن عباس.

وفي رواية: الشفع: آدمُ وحوّاء، والوتر هو الله تعالى.

وقيل: الشفع والوتر: الخَلْقُ؛ لأنهم شفعٌ ووتر، فكأنه أَقْسَم بالخلق(٣). وقد يُقْسِمُ الله تعالى بأسمائه وصفاته لعِلْمِه، ويقسمُ بأفعاله لقدرته، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ [الليل:٣]. ويقسمُ بمفعولاته، لعجائب صُنْعِه، كما قال: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا﴾، ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا﴾، ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾.

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٤٨١ عن مجاهد ومسروق، وأخرجه الطبري ٢٤/ ٣٥١ عن مجاهد وأبي صالح.

(٢) أخرجه أحمد (٧٥٠٢)، والبخاري (٦٤١٠)، ومسلم (٢٦٧٧) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) تنظر هذه الأقوال في تفسير الطبري ٢٤/ ٣٥٠-٣٥٤، والنكت والعيون ٦/ ٢٦٦، وزاد المسير ٩/ ١٠٦-١٠٧.

وقيل: الشفعُ: دَرَجاتُ الجنة، وهي ثمان. والوترُ دَرَكاتُ النارِ؛ لأنها سبعةٌ. وهذا قولُ الحسين بن الفضل، كأنه أقسم بالجنة والنار.

وقيل: الشَّفعُ: الصفا والمروةُ، والوترُ: الكَعْبة.

وقال مقاتل بن حَيَّان: الشفع: الأيامُ والليالي، والوتر: اليوم الذي لا ليلةَ بعده، وهو يومُ القيامةِ.

وقال سفيان بن عُيينة: الوترُ هو الله، وهو الشفع أيضاً؛ لقوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [المجادلة: ٧].

وقال أبو بكر الورَّاقُ: الشفعُ: تَضَادُّ أوصافِ المخلوقين: العِزُّ والذلُّ، والقدرةُ والعجزُ، والقوّةُ والضعفُ، والعلمُ والجهلُ، والحياةُ والموتُ، والبصرُ والعَمَى، والسَّمْعُ والصَّمَم، والكلامُ والخَرَس. والوتر: انفرادُ صفاتِ الله تعالى: عِزٌّ بلا ذلٍّ، وقدرةٌ بلا عجزٍ، وقوّةٌ بلا ضعفٍ، وعلمٌ بلا جهلٍ، وحياةٌ بلا موتٍ، وبصرٌ بلا عَمًى، وكلامٌ بلا خَرَسٍ، وسمعٌ بلا صَمَمٍ، وما وازاها.

وقال الحسن: المرادُ بالشَّفْعِ والوَتْرِ: العددُ كلُّه؛ لأنَّ العددَ لا يخلو عنهما، وهو إقسامٌ بالحساب.

وقيل: الشَّفعُ: مسجدُ مكةَ والمدينةِ، وهما الحرمان. والوتر: مسجدُ بيتِ المقدس.

وقيل: الشَّفع: القِرَانُ بين الحجِّ والعمرةِ، أو التمتُّعُ بالعمرة إلى الحج. والوتر: الإفرادُ فيه.

وقيل: الشفع: الحيوان؛ لأنه ذَكَرٌ وأُنثَى. والوتر: الجماد.

وقيل: الشفع: ما يَنْمي، والوتر: ما لا يَنْمي. وقيل غيرُ هذا[1].

(١) تنظر هذه الأقوال في النكت والعيون ٦/ ٢٦٦، وتفسير البغوي ٤/ ٤٨١-٤٨٢، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٧٧، وزاد المسير ٩/ ١٠٦-١٠٧ قال الزمخشري في الكشاف ٤/ ٢٤٩: وقد أكثروا في الشفع والوتر حتى كادوا يستوعبون أجناسَ ما يقعان فيه، وذلك قليلُ الطائل، جديرٌ بالتَّلهي عنه.

وقرأ ابن مسعود وأصحابُه والكسائيُّ وحمزةُ وخلف: «والوِترِ» بكسر الواو. والباقون بفتح الواو[١]، وهما لغتان بمعنًى واحدٍ. وفي «الصحاح»[٢]: الوِتر بالكسر: الفرد، والوَتْر بفتح الواو: الذَّحْل[٣]. هذه لغةُ أهلِ العالية. فأمَّا لغُة أهلِ الحجاز فبالضِّدِّ منهم. فأمَّا تميمٌ فبالكسرِ فيهما.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ ۝٤ هَلۡ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٞ لِّذِي حِجۡرٍ ۝٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ﴾ وهذا قَسَمٌ خامسٌ. وبعدَ ما أَقْسَم بالليالي العَشْرِ على الخصوص، أَقْسَم بالليل على العموم. ومعنى «يسري» أي: يُسْرَى فيه، كما يقال: ليلٌ نائمٌ، ونهارٌ صائمٌ؛ قال:

لَقَدْ لُمْتِنا يا أمَّ غَيلانَ في السُّرَى ... ونِمْتِ وما ليلُ المطِيِّ بنائمِ[٤]

ومنه قولُه تعالى: ﴿بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [سبأ: ٣٣]. وهذا قولُ أكثرِ أهلِ المعاني، وهو قولُ القُتَبيِّ والأخفش[٥].

وقال أكثرُ المفسِّرين: معنى «يَسْرِي»: سار فذهب[٦].

وقال قتادةُ وأبو العاليةِ: جاء وأَقْبَل[٧].

ورُوِي عن إبراهيم: «والليلِ إذا يَسْرِ» قال: إذا استوى.

وقال عكرمةُ والكلبيُّ ومجاهدٌ ومحمد بن كعب في قوله «والليلِ»: هي ليلةُ

(١) السبعة ص٦٨٣، والتيسير ص٢٢٢، والنشر ٢/ ٤٠٠.

(٢) مادة (وتر).

(٣) الذحل: الحقد والعداوة. الصحاح (ذحل).

(٤) البيت لجرير، وهو في ديوانه ٢/ ٩٩٣، وسلف ١١/ ٢٠.

(٥) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص٥٢٦، وسيأتي عن الأخفش.

(٦) أخرجه الطبري ٢٤/ ٣٥٦-٣٥٧ عن ابن الزبير وابن عباس ومجاهد وقتادة وأبي العالية وابن زيد.

(٧) ذكره عن قتادة البغوي ٤/ ٤٨٢، وابن الجوزي ٩/ ١٠٨.

المزدلفةِ خاصةً؛ لاختصاصها باجتماع الناسِ فيها لطاعة الله[١].

وقيل: ليلة القَدْر؛ لسِرايةِ الرحمةِ فيها، واختصاصِها بزيادةِ الثوابِ فيها[٢].

وقيل: إنه أراد عمومَ الليلِ كلِّه.

قلت: وهو الأظهرُ كما تقدَّم. والله أعلم.

وقرأ ابنُ كثيرٍ وابنُ محُيصنٍ ويعقوبُ: «يسري» بإثباتِ الياءِ في الحالين، على الأصل؛ لأنها ليست بمجزومةٍ، فتَثْبتُ فيها الياء. وقرأ نافعٌ وأبو عمرو بإثباتها في الوصل، وبحذفها في الوقف[٣]، ورُوي عن الكسائيّ. قال أبو عبيد: كان الكسائيُّ يقول مرةً بإثبات الياء في الوصل، وبحذفها في الوقف؛ اتّباعاً للمصحف، ثم رجع إلى حَذْفِ الياءِ في الحالين جميعاً[٤]؛ لأنَّه رأسُ آيةٍ، وهي قراءةُ أهلِ الشَّامِ والكوفةِ، واختيارُ أبي عُبيد، اتّباعًا للخطّ؛ لأنّها وقعت في المصحفِ بغيرِ ياءٍ. قال الخليل: تسقُطُ الياءُ منها اتّفاقًا لرؤوسِ الآي.

قال الفرَّاء: قد تحذفُ العربُ الياءَ وتكتفي بكَسْرِ ما قَبْلَها، وأنشد بعضُهم:

كفَّاكَ كَفٌّ ما تُليقُ دِرهَمًا جُوداً وأخرى تُعْطِ بالسَّيفِ الدَّمَا[٥]

يقال: فلانٌ ما يُلِيقُ درهماً من جُودِه، أي: ما يُمسِكُه، ولا يلصقُ به.

وقال المؤرِّج: سألتُ الأخفشَ عن العِلّة في إسقاطِ الياءِ من «يَسْرِ»، فقال: لا أُجِيبُكَ حتى تَبِيتَ على بابِ داري سنةً، فبِتُّ على بابِ دارِه سنةً[٦]، فقال: الليلُ لا

(١) النكت والعيون ٦/ ٢٦٦ ، وتفسير البغوي ٤/ ٤٨٢ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٧٨ ، وأخرجه عن عكرمة الطبري ٢٤/ ٣٥٧-٣٥٨ .

(٢) النكت والعيون ٦/ ٢٦٦ .

(٣) وهي قراءة أبي جعفر أيضاً. السبعة ص٦٨٣ ، والتيسير ص٢٢٢ ، والنشر ٢/ ٤٠٠ .

(٤) وهذا هو المشهور عنه: حذف الياء في الحالين، وذكر قول أبي عبيد ابن مجاهد في السبعة ص٦٨٣ .

(٥) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٦٠ . وسلف البيت ١١/ ٢٠٩ .

(٦) كذا في النسخ، ولعل الصواب في الموضعين: ليلة، كما في البرهان للزركشي ٣/ ١٠٧ ، وذكر القصة أيضاً صاحب كتاب الوافي بالوفيات ١٥/ ٢٦٠ وفيه: حتى تبيت على باب داري، دون تعيين.

يَسْري وإنَّما يُسْرَى فيه، فهو مصروفٌ، وكلُّ ما صَرَفْتَه عن جِهَتِه بَخَسْتَه من إعرابه، ألَا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ [مريم:٢٨]، ولم يَقُلْ: بغيَّةً، لأنه صَرَفَها عن باغية[١].

الزمخشريُّ: وياءُ «يسري» تُحذفُ في الدَّرْج اكتفاءً عنها بالكسرة، وأمَّا في الوقف فتُحذَفُ مع الكسرة. وهذه الأسماءُ كلُّها مجرورةٌ بالقَسَم، والجوابُ محذوفٌ، وهو: لَيُعَذَّبُنَّ، يدلُّ عليه قولُه تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾[٢].

وقال ابن الأنباريِّ: هو: «إنَّ رَبَّكَ لبِالمِرْصادِ»[٣].

وقال مقاتلٌ: «هل» هنا في موضع إنَّ؛ تقديرهُ: إنَّ في ذلك قَسَماً لذي حِجْر. فـ«هل» على هذا في موضعِ جوابِ القَسَم[٤]. وقيل: هل[٥] على بابها من الاستفهام الذي معناه التقدير، كقولك: أَلَمْ أُنْعِمْ عليك؟ إذا كنتَ قد أنْعَمْتَ.

وقيل: المرادُ بذلك التأكيدُ لِمَا أَقْسَم به وأَقْسَم عليه. والمعنى: بل في ذلك مَقْنَعٌ لذي حِجْرٍ. والجوابُ على هذا: «إنَّ رَبَّكَ لبِالمِرْصادِ». أو مُضْمَرٌ محذوفٌ.

ومعنى ﴿لِّذِى حِجْرٍ﴾ أي: لذي لُبٍّ وعقلٍ، قال الشاعر:

وكيفَ يُرجَّى أنْ تَتوبَ وإنَّما ... يُرَجَّى من الفِتيانِ مَن كان ذا حِجْرِ[٦]

---

(١) ذكر قول الأخفش دون ذكر القصة البغوي ٤/ ٤٨٢ .

(٢) الكشاف ٤/ ٢٤٩ و٢٥٠ .

(٣) إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٩٧٦ .

(٤) قال أبو حيان في البحر ٨/ ٤٦٩ : هذا قولٌ لم يَصْدُرْ عن تأمُّل؛ لأن المقسَمَ عليه ـ على تقدير أن يكون التركيب: إن في ذلك قسماً لذي حجر ـ لم يُذْكَر، فيبقى قسم بلا مُقْسمٍ عليه؛ لأن الذي قدَّره لا يصح أن يكون مُقْسَماً عليه . اهـ. وذكر قول مقاتل الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٢٦٧ دون قوله: فـ«هل» على هذا ...

(٥) في (م): هي.

(٦) البيت للحارث بن مُنَبِّه الجنبي، كما روى ابن الأنباري عن السدي في إيضاح الوقف والابتداء ١/ ٧٥ ، وفيه: وكيف رجائي أن تتوب وإنما...

كذا قال عامَّةُ المفسِّرين[١]، إلَّا أنَّ أبا مالكٍ قال: «لِذِي حِجْرٍ» لذي سِتْرٍ من الناس[٢]. وقال الحسن: لذي حِلْم[٣]. قال الفرَّاء: الكلُّ يرجعُ إلى معنًى واحدٍ: لذي حجْر، ولذي عقلٍ، ولذي حِلْمٍ، ولذي سِتْرٍ؛ الكلُّ بمعنى العقل[٤].

وأصلُ الحِجر: المنعُ. يقال لِمَن مَلَكَ نفسَه ومَنَعها: إنه لذو حِجْر، ومنه سمِّي الحَجَر؛ لامتناعه بصلابته، ومنه: حَجر الحاكمُ على فلان، أي: مَنَعه وضَبَطَه عن التصرُّف؛ ولذلك سمِّيتِ الحُجْرةُ حجرةً؛ لامتناعِ ما فيها بها. وقال الفرَّاء[٥]: العربُ تقول: إنه لذو حِجْر: إذا كان قاهراً لنفسِه، ضابطاً لها كأنه أُخِذَ من: حَجَرتُ على الرجل.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ﴾ أي: مالِكُكَ وخالِقُكَ. ﴿بِعَادٍ * إِرَمَ﴾ قراءةُ العامَّةِ: «بعادٍ» منوَّناً. وقرأ الحسن وأبو العالية: «بِعادِ إرَمَ» مضافاً[٦]. فمَن لم يُضِفْ جعل «إرَمَ» اسمَه، ولم يَصْرِفْه؛ لأنه جعل عادًا اسمَ أبيهم، وإرمَ اسمَ القَبِيلة، وجعله بدلاً منه أو عَطْفَ بيانٍ. ومَن قَرَأه بالإضافة ولم يَصْرِفه جعله اسمَ أمِّهم[٧]، أو اسمَ بلدتهم.

وتقديرُه[٨]: بعادٍ أهلِ إرمَ، كقوله: ﴿وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢]. ولم تنصرفْ ـ

(١) تنظر أقوالهم في تفسير الطبري ٢٤/ ٣٥٨-٣٦٠.

(٢) النكت والعيون ٦/ ٢٦٧.

(٣) أخرجه الطبري ٢٤/ ٣٦٠.

(٤) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٦٠ بنحوه.

(٥) في معاني القرآن ٣/ ٢٦٠.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٥/ ٢٢٠ عن الحسن، وذكرها الزمخشري في الكشاف ٤/ ٢٥٠ عن ابن الزبير رضي الله عنهما.

(٧) في (ظ): أبيهم، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في الصحاح (أرم) والكلام منه.

(٨) يعني على قراءة العامة وليس على قراءة الإضافة، وذلك على القول بأن «إرم» هو اسم البلدة أو المدينة. ينظر الكشاف ٤/ ٢٥٠، وتفسير الرازي ٣١/ ١٦٧، والدر المصون ١٠/ ٧٨٢، واللباب ٢٠/ ٣١٥.

قبيلةً كانت أو أرضًا ـ للتعريفِ والتأنيث(١).

وقراءةُ العامةِ: «إِرَمَ» بكَسْرِ الهمزة. وعن الحسن أيضاً: «بعادَ إِرَمَ» مفتوحتين(٢).

وقرِئ: «بعادِ أَرْمَ» بسكونِ الراء، على التخفيف، كما قرئ: «بوَرْقِكم»(٣).

وقرئ: «بِعادِ إِرَمِ ذاتِ العِمادِ» بإضافة «إِرَمِ» إلى «ذاتِ العِمادِ». والإِرَمُ: العَلَم. أي: بعادِ أهلِ أعلامِ ذاتِ العماد(٤).

وقرئ: «بِعادٍ أَرَمَّ ذاتَ العِمادِ» أي: جعل الله ذاتَ العمادِ رميمًا(٥).

وقرأ مجاهدٌ والضحاكُ وقتادةُ: «أَرم» بفتح الهمزة(٦). قال مجاهد: مَن قرأ بفتح الهمزة شبَّههم بالآرام، التي هي الأعلام، واحدُها: أَرِم(٧).

وفي الكلام تقديمٌ وتأخيرٌ، أي: والفجرِ وكذا وكذا إنَّ ربَّك لبالمِرصاد «أَلَمْ تَرَ» أي: أَلَم يَنْتهِ عِلْمُكَ إلى ما فعل ربُّك بعاد. وهذه الرؤيةُ رؤيةُ القلب، والخطابُ للنبيِّ ﷺ، والمرادُ عامٌّ. وكان أمرُ عادٍ وثمودَ عندهم مشهوراً؛ إذ كانوا في بلادِ

---

(١) الكشاف ٤/ ٢٥٠.

(٢) القراءات الشاذة ص١٧٣، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٧٨، والكشاف ٤/ ٢٥٠، و«عادَ» على هذه القراءة غير مصروفة كما ذكر ابن خالويه وابن عطية.

(٣) الكشاف ٤/ ٢٥٠، وهي بفتح الهمزة من «أرم»، كذا ذكرها ابن جني في المحتسب ٢/ ٣٥٩، وأبو حيان في البحر ٨/ ٤٦٩ عن الضحاك. قال السمين في الدر المصون ١٠/ ٧٨٣: هي تخفيف «أرِم» بكسر الراء، وهي لغة في اسم المدينة. اهـ. و«عاد» على هذه القراءة رويت مصروفة وغير مصروفة، كما ذكر أبو حيان.

(٤) في النسخ: أي بعاد أهل ذات العلم، والمثبت من الكشاف ٤/ ٢٥٠ والكلام منه. وهي أعلام كان قوم عاد يبنونها على هيئة المنارة وعلى هيئة القبور، كما ذكر الرازي ٣١/ ١٦٧.

(٥) الكشاف ٤/ ٢٥٠. وهي بدل من: «فَعَل ربك» كما ذكر الزمخشري، أو دعاء عليهم، كما ذكر السمين في الدر المصون ١٠/ ٧٨٣. والقراءة ذكرها ابن جني في المحتسب ٢/ ٣٥٩ وستأتي.

(٦) القراءة بفتح الهمزة ذكرها ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٤٧٨ عن الضحاك وقيدها بفتح الراء، وعن ابن الزبير وقيدها بكسر الراء، وقرئت أيضاً: «أَرْم» بسكون الراء كما سلف.

(٧) مثل كَتِف، وكذلك إرَم، مثل: عِنب. القاموس (أرم).

العرب، وحِجْرُ ثمودَ موجودٌ اليوم. وأمرُ فرعونَ كانوا يسمعونه من جيرانهم من أهل الكتاب، واستفاضتْ به الأخبار، وبلادُ فرعونَ متّصلةٌ بأرضِ العرب. وقد تقدَّم هذا المعنى في سورة البروج[١] وغيرها.

﴿بِعَادٍ﴾ أي: بقومِ عاد. فروى شَهر بن حَوْشَب عن أبي هريرة قال: إنْ كان الرجلُ من قومِ عادٍ لَيتَّخذُ المِصْراعَ من حجارة، ولو اجتمع عليه خمسُ مئةٍ من هذه الأمةِ لم يستطيعوا أن يُقِلُّوه، وإنْ كان أحدُهم ليُدخِلُ قدمَه في الأرض فتدخلُ فيها[٢].

و«إِرَم»، قيل: هو سام بنُ نوح؛ قاله ابنُ إسحاق[٣]. وروى عطاء عن ابن عباس - وحكي عن ابن إسحاق أيضاً - قال: عاد بن إرَم. فإرَمُ على هذا أبو عاد، وعاد بن إرَم ابن عوص بن سام بن نوح[٤]. وعلى القول الأوّل: هو اسمُ جدِّ عاد. قال ابن إسحاق: كان سام بنُ نوح له أولاد، منهم إرم بنُ سام، وأرْفَخْشَذ بن سام. فَمِن ولد إرم بنِ سام العمالقةُ والفراعنةُ والجبابرةُ والملوكُ الطغاةُ والعصاة.

وقال مجاهد: «إرَم» أمّةٌ من الأمم. وعنه أيضاً: أنَّ معنى إرَمَ: القديمة، ورواه ابن أبي نَجِيح[٥]. وعن مجاهدٍ أيضاً أنَّ معناها: القوية.

وقال قتادة: هي قبيلةٌ من عاد[٦]. وقيل: هما عادان. فالأولى هي إرَم؛ قال الله عز وجل: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ﴾ [النجم: ٥٠]. فقيل لعقِب عاد بن عَوْص بن إرَمَ بن سام بن نوح: عاد، كما يقال لنبي هاشم: هاشم. ثم قيل للأولين منهم: عاد الأولى

---

(١) ص١٩٨ من هذا الجزء.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم ٩/ ٢٧٩٨ (١٥٨٣٧).

(٣) الذي قال إن إرم هو سام بن نوح، الكلبي كما في تهذيب اللغة ١٥/ ٣٠١، وقول ابن إسحاق الذي ذكره ابن هشام في السيرة ١/ ٧: أن إرم هو ابن سام بن نوح. وسيأتي.

(٤) ذكر هذه الرواية عن ابن إسحاق الطبري ٢٤/ ٣٦٣، والماوردي ٦/ ٢٦٨.

(٥) أخرج القولين عن مجاهد الطبري ٢٤/ ٣٦٢.

(٦) أخرجه الطبري ٢٤/ ٣٦٢-٣٦٣.

ـ وإِرَم: تسميةٌ لهم باسمِ جَدِّهم ـ ولِمَن بعدهم: عادٌ الأخيرة[١]. قال ابن الرُّقَيّات:

مَـجْـدًا تـلِـيـداً بـنـاهُ أوَّلُـهـم أدْرَكَ عـاداً وقـبـلـهُ إرَمَـا[٢]

وقال مَعْمر: «إرم»: إليه مجمعُ عاد وثمود، وكان يقال: عادُ إرَمَ، وعادُ ثَمُودَ[٣]. وكانت القبائلُ تنتسب[٤] إلى إرم.

﴿ذَاتِ ٱلْعِمَادِ، ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَـٰدِ﴾ قال ابن عباس في رواية عطاء: كان الرجلُ منهم طولُه خمسُ مئةِ ذراع، والقصيرُ منهم طولُه ثلاثُ مئةِ ذراعٍ بذراع نفسه. ورُوي عن ابن عباس أيضاً أنَّ طولَ الرجلِ منهم كان سبعين ذراعاً. ابن العربيّ[٥]: وهو باطلٌ؛ لأنَّ في الصحيح: «إنَّ الله خَلَقَ آدمَ طولُه ستُّونَ ذراعاً في الهواء، فلم يَزَل الخَلْقُ يَنقُصُ إلى الآن»[٦]. وزعم قتادة: أنَّ طولَ الرجلِ منهم اثنا عَشَرَ ذراعاً[٧].

قال أبو عبيدة[٨]: «ذاتِ العِمادِ»: ذات الطُّول. يقال: رجلٌ مُعَمَّدٌ: إذا كان طويلاً. ونحوه عن ابن عباس ومجاهد[٩].

وعن قتادة أيضاً: كانوا عِمادًا لقومهم؛ يقال: فلانٌ عميدُ القومِ وعَمودُهم، أي: سيدُهم وعنه أيضاً: قيل لهم ذلك؛ لأنهم كانوا ينتقلون بأبياتهم للانتجاع، وكانوا

---

(١) تفسير الرازي ٣١/ ١٦٧، وذكر هذا القول مختصراً أبو عبيدة في مجاز القرآن ٢/ ٢٩٧، والزجاج في معاني القرآن ٥/ ٣٢٢.

(٢) ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات ص١٥٥.

(٣) ذكره البغوي ٤/ ٤٨٢ عن الكلبي، وفيه: عاد إرم وثمود إرم، وهو أشبه.

(٤) في (د) و(ظ): تنسب.

(٥) في أحكام القرآن ٤/ ١٩١٨.

(٦) أخرجه مطولاً أحمد (٨١٧١)، والبخاري (٣٣٢٦)، ومسلم (٢٨٤١) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٧) أخرجه الطبري ٢٤/ ٣٦٧.

(٨) في مجاز القرآن ٢/ ٢٩٧.

(٩) أخرج قولهما الطبري ٢٤/ ٣٦٥.

أهلَ خيامٍ وأعمدة، ينتجعون الغيوثَ، ويطلبون الكلأ، ثم يرجعون إلى منازلهم[(١)].

وقيل: «ذاتِ العِمادِ» أي: ذاتِ الأبنيةِ المرفوعةِ على العَمَد. وكانوا ينصبون الأعمدةَ، فيبنون عليها القصور. قال ابن زيد: «ذاتِ العِمادِ»: يعني إحكامَ البُنيانِ بالعَمَد[(٢)]. وفي «الصحاح»: والعماد: الأبنيةُ الرفيعةُ، تُذكَّر وتؤنَّث، قال عمرو بن كلثوم:

ونحن إذا عِمادُ الحيِّ خَرَّتْ ... على الأَحْفاضِ نَمْنعُ مَن يَلِينا

والواحدةُ عِمادة. وفلانٌ طويلُ العِماد: إذا كان منزلُه مَعْلَماً لزائرِه[(٣)]. والأحفاض: جمعُ حَفَضٍ بالتحريك، وهو متاعُ البيتِ إذا هُيِّء ليُحْمَلَ، أي: خَرَّتْ على المتاع. ويروى: عن الأحفاض، أي: خرَّت عن الإبل التي تحملُ خُرْثيَّ البيت[(٤)].

وقال الضحاك: «ذاتِ العِمادِ» ذات القوَّةِ والشدَّة، مأخوذٌ من قوَّةِ الأعمدة[(٥)]، دليلُه قولُه تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥].

وروى عوفٌ عن خالد الرَّبعيِّ: «إرم ذاتِ العِمادِ» قال: هي دمشق. وهو قولُ عكرمةَ وسعيدٍ المَقْبُرِيِّ. ورواه ابنُ وهبٍ وأشهبُ عن مالك[(٦)]. وقال محمد بن كعب القُرظيُّ: هي الإسكندرية[(٧)].

---

(١) تفسير الطبري ٢٤/ ٣٦٥-٣٦٦.

(٢) النكت والعيون ٦/ ٢٦٨، وزاد المسير ٩/ ١١٢.

(٣) الصحاح (عمد)، وبيت عمرو بن كلثوم في شرح المعلقات للنحاس ٢/ ١٠١.

(٤) الصحاح (حفض). والخُرْثي: أثاث البيت، أو أردأ المتاع والغنائم. القاموس (خرث).

(٥) النكت والعيون ٦/ ٢٦٨، وأخرجه الطبري ٢٤/ ٣٦٦، دون قوله: مأخوذ...

(٦) تفسير الطبري ٢٤/ ٣٦٢ عن المقبري، وإعراب القرآن للنحاس ٥/ ٢٢٠-٢٢١، وأحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٩١٩ عن مالك، وأخرجه عن عكرمة وخالد الربعي عبد بن حميد، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٤٧.

(٧) أخرجه الطبري ٢٤/ ٣٦١. قال النحاس في إعراب القرآن ٥/ ٢٢١: فأما أن يكون إرم الإسكندرية =

قوله تعالى: ﴿ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَـٰدِ ﴿٨﴾﴾

الضمير في «مِثْلِها» يرجعُ إلى القبيلة. أي: لم يُخْلَقْ مثلُ القبيلةِ في البلاد: قوةً وشدةً، وعِظَمَ أجسادٍ، وطولَ قامةٍ؛ عن الحسن[(١)] وغيرِهِ. وفي حرف عبدِ الله: «التي لم يُخْلَقْ مِثْلُهُم في البلاد»[(٢)]. وقيل: يرجع للمدينة. والأوّلُ أظْهَرُ، وعليه الأكثرُ، حَسْبَ ما ذكرنا.

ومَن جعل «إِرم» مدينةً قدَّر حَذْفًا، المعنى: كيف فَعَلَ ربُّك بمدينةِ عادٍ إرم، أو بعادٍ صاحبةِ إرم. وإرمُ على هذا: مؤنَّثةٌ معرفة [فلذلك لم تنصرف][(٣)].

واختار ابن العربيّ أنها دِمشق؛ لأنه ليس في البلاد مثلُها. ثم أخذ يَنْعتُها بكَثْرةِ مياهِها وخيراتها. ثم قال: وإنَّ في الإسكندرية لعجائبُ، لو لم يَكُنْ إلَّا المنارةُ، فإنَّها مَبْنيةُ الظاهرِ والباطنِ على العَمَد، ولكنْ لها أمثالٌ، فأمَّا دِمشقُ فلا مِثلَ لها. وقد روى مَعْنٌ عن مالكٍ: أنَّ كتاباً وُجِد بالإسكندرية، فلم يُدْرَ ما هو؟ فإذا فيه: أنا شدّاد بن عاد، الذي رفع العماد، بنيتُها حين لا شَيْبَ ولا مَوْت. قال مالك: إنْ كان لتمرُّ بهم مئةُ سنةٍ لا يَرَوْنَ فيها جنازةً[(٤)].

وذُكر عن ثور بن زيد أنه قال: أنا شدَّاد بن عاد، وأنا الذي رفعتُ العماد، وأنا الذي شَدَدْتُ بذراعي بطنَ الوادي، وأنا الذي كنزتُ كنزاً على سبعةِ أَذْرُعٍ، لا يُخْرِجه إلَّا أمّةُ محمدٍ ﷺ[(٥)].

ورُوِي أنه كان لعاد ابنان: شدَّاد وشديد، فَملَكا وقَهَرا، ثم مات شديدٌ وخلصَ

= أو دمشق فبعيد؛ لقول الله تعالى: ﴿واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف﴾ والحقف ما التوى من الرمل، وليس كذا دمشق ولا الإسكندرية. وردَّ هذا القول أيضاً ابن كثير عند تفسير هذه الآية.

(١) النكت والعيون ٦/ ٢٦٨ .

(٢) لم نقف على هذه القراءة عند غير المصنف.

(٣) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٨١٧ ، وما بين حاصرتين منه.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٩١٩ .

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم، كما في تفسير ابن كثير عند هذه الآية، وفتح الباري ٨/ ٧٠٢ ، وذكره الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٢٦٨ ، وابن العربي في أحكام القرآن ٤/ ١٩٢٠ .

الأمرُ لشدَّاد، فملك الدنيا ودانَتْ له ملوكُها؛ فسمع بذِكْرِ الجنة، فقال: أبني مِثْلَها. فبنَى إرَمَ في بعض صحارى عَدَن في ثلاثِ مئةِ سنةٍ، وكان عمرُه تسعَ مئةِ سنةٍ. وهي مدينةٌ عظيمةٌ، قصورُها من الذهب والفضة، وأساطينُها من الزَّبَرْجد والياقوت، وفيها أصنافُ الأشجار والأنهارِ المُطَّرِدة. ولمَّا تمَّ بناؤها سار إليها بأهل مملكته، فلمَّا كان منها على مسيرةِ يومٍ وليلة، بعث الله عليهم صحيةً من السماء فهلكوا[١].

وعن عبد الله بن قِلابة: أنه خرج في طلب إبلٍ له، فوقع عليها، فحمل ما قدرَ عليه مما ثَمَّ، وبلغ خبرُه معاويةَ فاستحضره، فقصَّ عليه، فبعث إلى كعبٍ فسأله، فقال هي إرَمُ ذاتُ العماد، وسيدخلها رجلٌ من المسلمين في زمانك، أحمرُ أشقرُ قصير، على حاجبه خالٌ، وعلى عَقِبه خال، يخرج في طلب إبلٍ له، ثم التَفتَ فأبْصرَ ابنَ قِلابة، وقال: هذا واللهِ ذلك الرجل[٢].

وقيل: أي: لم يُخْلق مثلُ أبنيةِ عاد المعروفةِ بالعَمَد. فالكنايةُ للعماد. والعمادُ على هذا: جمع عَمَد[٣].

وقيل: الإرَم: الهلاكُ؛ يقال: أَرِمَ بنو فلان، أي: هلكوا. وقاله ابن عباس[٤]. وقرأ الضحاك: «أَرَمَّ ذاتَ العِمادِ»[٥]، أي: أهْلَكَهم، فجعلهم رَمِيماً.

---

(١) الكشاف ٤/ ٢٥٠ . والأساطين: جمع أسطوانة، وهي السارية. القاموس (سطن).

(٢) الكشاف ٤/ ٢٥٠ ، وأخرجه مطولاً جدًا أبو الشيخ في العظمة (٩٩٥) ، وفيه: وعلى عنقه خال، بدل: وعلى عقبه خال. قال الحافظ في تخريج أحاديث الكشاف ص١٨٤ : آثار الوضع عليه لائحة. . وقال ابن كثير: هذه الحكاية ليس يصح إسنادها، ولو صح إلى ذلك الأعرابي (يعني عبد الله بن قلابة) فقد يكون اختلق ذلك، أو أنه أصابه نوع من الهوس والخبال، فاعتقد أن ذلك له حقيقة في الخارج، وليس كذلك، وهذا مما يُقطع بعدم صحته.

(٣) تفسير الرازي ٣١/ ١٦٨ . وأخرج الطبري ٢٤/ ٣٦٨ هذا القول عن ابن زيد. قال ابن كثير: قول ابن زيد ومن ذهب مذهبه ضعيف؛ لأنه لو كان أراد ذلك لقال: التي لم يعمل مثلها في البلاد، وإنما قال: ﴿لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾.

(٤) أخرجه الطبري ٢٤/ ٣٦٣ .

(٥) المحتسب ٢/ ٣٥٩-٣٦٠ عن ابن عباس والضحاك. وقد سلفت.

قوله تعالى: ﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴿٩﴾﴾

ثمود: هم قومُ صالحٍ. و«جابوا»: قَطَعوا. ومنه: فلانٌ يجوب البلادَ، أي: يقطعُها. وإنَّما سمِّي جيبُ القميصِ لأنه جِيبَ، أي: قطع. قال الشاعرُ وكان قد نَزَلَ على ابنِ الزبيرِ بمكةَ، فكتب له بستِّين وسْقًا يأخذُها بالكوفة، فقال:

راحَتْ رَوَاحًا قَلُوصِي وهي حامدةٌ آلَ الزُّبَيرِ ولم تَعْدِلْ بهم أَحدَا
راحتْ بستِّينَ وَسْقًا في حَقِيبتها ما حمَّلتْ حِمْلَها الأدنَى ولا السَّددا
ما إنْ رأيتُ قَلُوصًا قبْلَها حَمَلتْ سِتِّين وَسْقًا ولا جابَتْ به بلدا[1]

أي: قَطعتْ. قال المفسِّرون: أوّلُ مَن نَحَتَ الجبالَ والصخورَ والرخامَ: ثمود. فبَنَوْا من المدائنِ ألفاً وسبعَ مئةِ مدينةٍ كلُّها من الحجارة. ومن الدُّورِ والمنازلِ ألفَيْ ألفٍ وسبعَ مئةِ ألف، كلُّها من الحجارة. وقد قال تعالى: ﴿وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٢]. وكانوا لقوَّتهم يُخرجون الصخورَ، وينقبون الجبال، ويجعلونها بيوتاً لأنفسهم.

﴿بالوادي﴾[2] أي: بوادي القُرَى؛ قاله محمد بنُ إسحاق[3]. وروى أبو الأشهب عن أبي نَضْرةَ قال: أَتَى رسولُ الله ﷺ في غَزاةِ تَبوك على وادي ثمود، وهو على فَرَسٍ أَشْقَرَ، فقال: «أَسْرِعوا السيرَ، فإنَّكم في وادٍ ملعون»[4].

---

(١) الأبيات لأبي وجزة السعدي، والخبر مع الأبيات في الكامل للمبرد ١/ ٢٤٣ ، والأغاني ١٢/ ٢٤٤ ، ووقع فيهما في أول الخبر: آل الزبير، بدل: ابن الزبير.

(٢) بإثبات الياء وصلاً: ورش، وفي الحالين: البزي ويعقوب، وأما قنبل فأثبتها وصلاً، واختلف عنه وقفاً، فروي عنه إثباتها وروي عنه حذفها، وحَذفها الباقون في الحالين. ينظر السبعة ص٦٨٣ ، والتيسير ص٢٢٢-٢٢٣ ، والنشر ٢/ ٤٠٠ .

(٣) النكت والعيون ٦/ ٢٦٩ ، ووادي القرى: واد بين الشام والمدينة، وهو بين تيماء وخيبر، من أعمال المدينة كثير القرى. معجم البلدان ٤/ ٣٣٨ و٥/ ٣٤٥ .

(٤) النكت والعيون ٦/ ٢٦٩ ، وأخرجه البغوي في الجعديات (٣١٧٧)، والذهبي في السير ٧/ ٢٨١ وقال: هذا مرسل جيد. وأبو الأشهب هو جعفر بن حيان العطاري البصري، وأبو نضرة هو المنذر بن مالك بن قُطَعة العبدي البصري، توفي سنة (١٠٨هـ). التهذيب ٤/ ١٥٤ .

وقيل: الوادي بين جبالٍ، وكانوا ينقُبون في تلك الجبال بيوتاً ودُوراً وأحواضاً. وكلُّ مُنْفَرَجٍ بين جبالٍ أو تلالٍ يكون مسلكاً للسيل ومنفذاً فهو وادٍ.

قوله تعالى: ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ۝١٠﴾

أي: الجنودِ والعساكرِ والجموعِ والجيوشِ التي تشدُّ مُلْكَه؛ قاله ابن عباس[١].

وقيل: كان يعذِّب الناس بالأوتاد، ويشدُّهم بها إلى أن يموتوا، تجبُّراً منه وعُتُوًّا. وهكذا فعل بامرأته آسيةَ وماشطةِ ابنته، حَسْبَ ما تقدَّم في آخر سورة التحريم[٢].

وقال عبد الرحمن بن زيد: كانت له صخرةٌ تُرفع بالبكرات، ثم يؤخذُ الإنسان فتُوتَدُ له أوتادُ الحديد، ثم يرسلُ تلك الصخرة عليه فتشدخُه. وقد مضى في سورة «ص»[٣] مِن ذِكْرِ أوتادِه ما فيه كفايةٌ. والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣﴾

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ﴾ يعني عادًا وثمودًا[٤] وفرعونَ، «طَغَوْا» أي: تمرَّدوا وعَتَوْا وتَجاوَزوا القَدْرَ في الظُّلْم والعُدوان. ﴿فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ﴾ أي: الجَوْرَ والأذى.

و«الذين طَغَوْا» أَحْسنُ الوجوهِ فيه أن يكون في محلِّ النَّصْبِ على الذَّمِّ. ويجوزُ أنْ يكونَ مرفوعاً على: هم الذين طَغَوْا، أو مجروراً على وصفِ المذكورِينَ: عادٍ، وثمودَ، وفرعونَ[٥].

---

(١) أخرجه الطبري ٢٤/ ٣٧١.

(٢) ٢١/ ١٠٤ - ١٠٥.

(٣) عند تفسير الآية (١٢).

(٤) مَن صَرَفه ذهب به إلى الحي؛ لأنه اسم عربي مذكَّر سمي بمذكَّر، ومَن لم يَصْرِفه ذهب به إلى القبيلة، وهي مؤنثة. اللسان (ثمد).

(٥) تفسير الرازي ٣١/ ١٦٩.

﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ أي: أَفْرغَ عليهم وأَلْقى؛ يقال: صبَّ على فلان خِلْعةً، أي: ألقاها عليه وقال النابغة:

فَصبَّ عليه اللهُ أَحْسَنَ صُنْعِه وكان له بينَ البَرِيَّة ناصِرا[(١)]

﴿سَوْطَ عَذَابٍ﴾ أي: نَصِيبَ عذابٍ. ويقال: شِدَّته؛ لأنَّ السوطَ كان عندهم نهايةَ ما يُعَذَّب به، قال الشاعر:

أَلَمْ تَرَ أنَّ اللهَ أظهرَ دِينَه وصبَّ على الكفَّار سَوْطَ عَذابِ[(٢)]

وقال الفرَّاء[(٣)]: هي كلمةٌ تقولُها العربُ لكلِّ نوعٍ من أنواع العذاب. وأصلُ ذلك: أنَّ السَّوْطَ هو عذابُهم الذي يُعذَّبون به، فجرى لكلِّ عذابٍ؛ إذ كان فيه عندهم غايةُ العذاب.

وقيل: معناه: عذاب يخالطُ اللَّحمَ والدَّمَ، مِن قولهم: ساطَه يَسُوطُه سَوْطاً، أي: خَلَطَه، فهو سائطٌ. فالسَّوْطُ: خَلْطُ الشيءِ بعضِه ببعضٍ؛ ومنه سمِّي المِسْواط[(٤)]. وسَوَّطَهُ، أي: خَلَطه[(٥)] وأَكْثرَ ذلك؛ يقال: سَوَّط فلانٌ أمورَه، قال:

فَسُطْها ذَمِيمَ الرأيِ غيرَ مُوَفَّقٍ فلَسْتَ على تَسْوِيطِها بمُعَانِ[(٦)]

قال أبو زيد: يقال: أموالهُم سَوِيطةٌ بينهم؛ أي: مختلطةٌ. حكاه عنه يعقوب[(٧)]. وقال الزجَّاج: أي: جَعَلَ سَوْطَهم[(٨)] الذي ضَرَبهم به العذابَ. يقال: ساط دابَّته

---

(١) ديوان النابغة الذبياني ص٦٥ برواية: وربَّ عليه الله...

(٢) ذكره الحافظ في الإصابة ١/ ١٨٧ عن أوس بن بجير الطائي برواية:

ألم تر أن الله لا ربَّ غيره يصب على الكفار سوط عذاب

(٣) في معاني القرآن ٣/ ٢٦١.

(٤) المِسْوَط والمِسْواط: ما يخلط به من عصاً ونحوها. القاموس (سوط).

(٥) بعدها في (د) و(م): فهو سائط، والمثبت من باقي النسخ والصحاح (سوط)، والكلام منه.

(٦) العين ٧/ ٢٧٨، والصحاح (سوط) والكلام منه، وتهذيب اللغة ١٣/ ٢٤، وأساس البلاغة (سوط).

(٧) الصحاح (سوط)، ويعقوب هو ابن السكيت، وكلامه في إصلاح المنطق ص٣٩٠.

(٨) في معاني القرآن للزجاج ٥/ ٣٢٢: سوطه.

يَسُوطُها، أي: ضربها بسَوْطه.

وعن عمرو بن عُبيد: كان الحسن إذا أتى على هذه الآيةِ قال: إنَّ عندَ الله أسواطاً كثيرةً، فأخَذَهم بسوطٍ منها[(١)]. وقال قتادةُ: كلُّ شيءٍ عذَّب الله تعالى به فهو سوطُ عذابٍ[(٢)].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ⑭﴾

أي: يَرْصُدُ عملَ كلِّ إنسانٍ حتى يُجازِيَه به؛ قاله الحسن وعكرمةُ[(٣)]. وقيل: أي: عليه طريقُ العبادِ لا يفوتُه أحد[(٤)]. والمَرْصَد والمِرصاد: الطريق. وقد مضى في سورة براءة[(٥)]، والحمد لله.

وروى الضحاك عن ابن عباس قال: إنَّ على جهنَّمَ سبعَ قَناطِرَ، يُسأل الإنسان عند أوَّلِ قنطرةٍ عن الإيمان، فإن جاء به تامًّا جازَ إلى القنطرةِ الثانية، ثم يُسألُ عن الصلاة، فإن جاء بها جاز إلى الثالثة، ثم يُسأل عن الزكاة، فإن جاء بها جاز إلى الرابعة، ثم يُسأل عن صيام شهرِ رمضانَ، فإن جاء به جاز إلى الخامسة، ثم يُسأل عن الحجِّ والعُمْرة، فإن جاء بهما جاز إلى السادسة، ثم يسأل عن صلةِ الرَّحِم، فإن جاء بها جاز إلى السابعة. ثم يُسأل عن المظالم، وينادِي منادٍ: ألَا مَن كانت له مَظْلِمةٌ فلْيأْتِ؛ فيُقتصُّ للناس منه، ويُقتصُّ له من الناس؛ فذلك قولُ عز وجل: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾[(٦)].

---

(١) الكشاف ٤/ ٢٥١ .

(٢) النكت والعيون ٦/ ٢٧٠ ، وأخرجه ابن أبي حاتم، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٤٨ .

(٣) ذكره عنهما بنحوه الواحدي في الوسيط ٤/ ٤٨٢ ، وأخرجه عن الحسن عبد الرزاق ٢/ ٣٧١ ، والطبري ٢٤/ ٣٧٦ .

(٤) ذكره الواحدي في الوسيط ٤/ ٤٨٢ ، والبغوي ٤/ ٤٨٤ عن الكلبي. قال الواحدي: والمعنى لا يفوته شيء من أعمال العباد كما لا يفوت مَن بالمرصاد، وهذا معنى قول الحسن وعكرمة.

(٥) ١٠/ ١١١ .

(٦) ذكره بنحوه السمعاني في تفسيره ٦/ ٢٢١ ، والواحدي في الوسيط ٤/ ٤٨٣. وأخرجه بنحوه أيضاً البيهقي من الأسماء والصفات (٩١٥) عن مقاتل بن سليمان قوله .

وقال الثوريُّ: «لبِالمِرصادِ» يعني جهنَّمَ؛ عليها ثلاثُ قناطرَ: قنطرةٌ فيها الرَّحِمُ، وقنطرةٌ فيها الأمانةُ، وقنطرةٌ فيها الربُّ تبارك وتعالى[١].

قلت: أي: حُكْمُه[٢] وإرادتُه وأمرُه. والله أعلم.

وعن ابن عباس أيضاً: «لبِالمِرصادِ»، أي: يَسْمعُ ويَرى[٣].

قلت: هذا قولٌ حسن، يَسْمعُ أقوالَهم ونجواهم، ويَرَى، أي: يعلمُ أعمالَهم وأسرارَهم، فيجازِي كلًّا بعمله. وعن بعض العرب أنه قيل له: أين ربُّك؟ فقال: بالمرصاد.

وعن عمرو بن عُبيد أنه قرأ هذه السورةَ عند المنصور حتى بلغ هذه الآيةَ، فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ يا أبا جعفر[٤]! قال الزمخشريُّ[٥]: عَرَّض له في هذا النداء، بأنه بعضُ من تُوُعِّد بذلك من الجبابرة، فِللهِ دَرُّه، أيُّ أَسَدِ فِراصٍ[٦] كان بين يديه[٧]؟ يَدُقُّ الظَّلمةَ بإنكاره، ويَقْصَعُ[٨] أهلَ الأهواءِ والبدعِ باحتجاجه!

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ يعني الكافر. قال ابن عباس: يريد عُتبةَ بنَ ربيعةَ وأبا

---

(١) أخرجه الطبري ٢٤/ ٣٧٥-٣٧٦.

(٢) في (ظ) و(م): حكمته.

(٣) أخرجه الطبري ٢٤/ ٣٧٥.

(٤) أخرجه مطولاً الخطيب في تاريخ بغداد ١٢/ ١٦٧-١٦٨.

(٥) في الكشاف ٤/ ٢٥١.

(٦) في (م) والكشاف: فراس. المثبت من النسخ الخطية. والفِرَاص: الشديد. والفَرَّاس: الأسد. القاموس (فرس) و(فرص).

(٧) في (ي): ثدييه، وفي الكشاف: ثوبيه.

(٨) في (ظ): ويقنع، وفي (د) و(م): ويقمع، والمثبت من (ي) والكشاف، ومعنى قصع: صغَّر وحقَّر. القاموس (قصع).

حذيفةَ بنَ المغيرة. وقيل: أُمية بن خلف. وقيل: أبيّ بن خلف[١].

﴿إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ﴾ أي: امْتَحَنه واخْتَبَره بالنعمة. و«ما»: زائدةٌ صِلَةٌ. ﴿فَأَكْرَمَهُۥ﴾ بِالمال ﴿وَنَعَّمَهُۥ﴾ بما أَوْسَع عليه. ﴿فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ﴾ فيفرحُ بذلك ولا يحمَدُه.

و﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ﴾ أي: امْتَحَنه بالفقر واخْتَبَره. ﴿فَقَدَرَ﴾ أي: ضيَّق ﴿عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ﴾ على مقدارِ البُلْغة. ﴿فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾ أي: أَوْلاني هَواناً. وهذه صفةُ الكافِر الذي لا يؤمنُ بالبعث، إنما الكرامةُ عنده والهوانُ بكثرةِ الحظِّ في الدنيا وقِلَّتِه. فأمَّا المؤمنُ فالكرامةُ عنده أنْ يُكْرِمَه الله بطاعته وتوفيقِه المؤدِّي إلى حظِّ الآخرة[٢]، وإنْ وسَّع عليه في الدنيا حَمِدَه وشَكَره.

قلت: الآيتان صفةُ كلِّ كافرٍ. وكثيرٌ من المسلمين يظنُّ أنَّ ما أعطاه الله لكرامته وفضيلته عند الله، وربَّما يقولُ بجهله: ولو لم أَسْتَحقَّ هذا لم يُعْطِنِيه الله. وكذا إنْ قَتَّر عليه يظنُّ أنَّ ذلك لهوانه على الله.

وقراءةُ العامَّةِ: «فَقَدر» مخفَّفةَ الدال. وقرأ ابنُ عامرٍ مشدَّداً[٣]، وهما لغتان. والاختيارُ التخفيفُ؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ﴾ [الطلاق: ٧]. قال أبو عمرو: و«قَدَر» أي: قَتَر. و«قدَّر» مشدَّدا: هو أنْ يعطيه ما يَكْفِيه. ولو فعل به ذلك ما قال: «ربِّي أهانَن».

وقرأ أهلُ الحَرَمين وأبو عمرو: «ربِّيَ» بفتح الياء في الموضعين. وأَسْكَن الباقون[٤].

وأَثْبَتَ البَزِّيُّ وابنُ مُحَيْصِنٍ ويعقوبُ الياءَ من «أكرمنِ»، و«أهاننِ» في الحالين[٥]؛

(١) ذكر هذه الأقوال الواحدي في الوسيط ٤/ ٤٨٣، وابن الجوزي في زاد المسير ٩/ ١١٨.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٣٢٣.

(٣) ذكرها أبو عمرو الداني في جامع البيان ٢/ ٤٨٢ وقال: ولم يذكر ابن مجاهد هذا الحرف في كتابه. ولم ترد هذه القراءة في مطبوع التيسير. وهي في النشر ٢/ ٤٠٠ عن ابن عامر وأبي جعفر.

(٤) وهم الكوفيون وابن عامر. التيسير ص٢٢٢.

(٥) السبعة ص٦٨٤، والتيسر ص٢٢٢، والنشر ٢/ ٤٠٠.

لأنها اسمٌ فلا تُحذَف. وأثبتها المدنيُّون في الوصل دون الوقف، اتِّباعاً للمصحف[١]. وخَيَّر أبو عمرو في إثباتها في الوصل أو حَذْفِها؛ لأنَّها رأسُ آيةٍ، وحَذَفها في الوقف لخطِّ المصحف. الباقون بحَذْفِها لأنَّها وقعت في الموضعين بغير ياءٍ، والسُّنةُ ألَّا يُخالَفَ خطُّ المصحف؛ لأنه إجماعُ الصحابة.

قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿كَلَّا﴾ ردٌّ، أي: ليس الأمرُ كما يُظَنُّ، فليس الغِنَى لفَضْلِه، ولا الفقرُ لهوانه، وإنَّما الفقرُ والغنى من تقديري وقضائي. وقال الفرَّاء[٢]: «كَلَّا» في هذا الموضع بمعنى: لم يكن ينبغي للعبد أن يكون هكذا، ولكنْ يحمدُ الله عزَّ وجلَّ على الغنى والفقر. وفي الحديث: «يقولُ الله عزَّ وجلَّ: كلَّا إنِّي لا أُكْرمَ مَن أكْرمتُ بكَثْرةِ الدنيا، ولا أُهِينُ مَن أهَنْتُ بقلَّتها، إنَّما أُكْرِمُ مَن أكْرمتُ بطاعتي، وأُهينُ مَن أهَنْتُ بمعصيتي»[٣].

قوله تعالى: ﴿بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ﴾ إخبارٌ عن ما كانوا يصنعونه من مَنْعِ اليتيمِ الميراثَ، وأَكْلِ مالِه إسْرافاً وبِدَارًا أنْ يَكْبَروا. وقرأ أبو عمرو ويعقوبُ: «يُكْرِمون»، و«يَحُضُّون» و«يأكلون»، و«يُحِبُّونَ» بالياء[٤]؛ لأنَّه تقدَّم ذِكْرُ الإنسانِ، والمرادُ به الجنسُ، فعبَّر عنه بلفظِ الجمع. الباقون بالتاء في الأربعة، على الخطاب والمواجهة، كأنه قال لهم ذلك تقريعاً وتوبيخاً.

وتركُ إكرامِ اليتيم بدَفْعِه عن حقِّه وأَكْلِ ماله، كما ذَكَرْنا. قال مقاتل: نزلت في قُدامةَ بنِ مظعون، وكان يتيماً في حِجْرِ أُميةَ بنِ خَلَف[٥].

---

(١) أثبتها في الوصل من العشرة نافع وأبو جعفر.

(٢) في معاني القرآن ٣/ ٢٦١.

(٣) أخرجه الطبري ٢٤/ ٣٧٧ عن قتادة قوله.

(٤) السبعة ص٦٨٥، والتيسير ص٢٢٢، والنشر ٢/ ٤٠٠.

(٥) الوسيط ٤/ ٤٨٤، وتفسير البغوي ٤/ ٤٨٥، وتفسير الرازي ٣١/ ١٧٢.

﴿ولا يَحُضُّونَ[(١)] على طعامِ المسكينِ﴾ أي: لا يأمرون أهليهم بإطعام مسكينٍ يَجيئُهم. وقرأ الكوفيون: ﴿وَلَا تَحَٰٓضُّونَ﴾ بفتح التاءِ والحاءِ والألف[(٢)]، أي: يَحُضُّ بعضُهم بعضًا، وأصلُه تتحاضُّون، فحذف إحدى التاءينِ لدلالةِ الكلامِ عليها. وهو اختيارُ أبي عُبيد.

ورُوِي عن إبراهيمَ، والشَّيْزَرِيِّ عن الكسائي، والسُّلَمِيِّ: «تُحَاضُّون» بضمّ التاء[(٣)]، وهو تُفاعِلون من الحضّ، وهو الحثُّ.

﴿ويَأْكُلُون التُّراثَ﴾ أي: ميراثَ اليتامَى. وأصلُه: الوُرَاث من وَرِثْتُ، فأبْدَلوا الواوَ تاءً، كما قالوا في تُجاه وتُخَمة وتُكَأة وتُؤَدة ونحوِ ذلك[(٤)]. وقد تقدَّم[(٥)].

﴿أَكۡلٗا لَّمّٗا﴾ أي: شديداً؛ قاله السُّدِّيّ[(٦)]. وقيل «لَمًّا»: جمعاً، من قولهم: لَمَمْتُ الطعامَ لَمًّا: إذا أكلته جمعًا؛ قاله الحسنُ وأبو عُبيدة[(٧)]. وأصلُ اللَّمِّ في كلام العرب: الجمع؛ يقال: لَمَمْتُ الشيءَ أَلُمُّه لَمًّا: جمعته، ومنه يقال: لَمَّ الله شَعَثَه، أي: جَمع ما تفرَّقَ من أموره، قال النابغة:

ولَسْتَ بِمُسْتَبْقٍ أخاً لا تَلُمُّه عَلَى شَعَثٍ أيُّ الرجَالِ المُهَذَّبُ[(٨)]

ومنه قولُهم: إنَّ دارك لَمُومَةٌ، أي: تَلُمُّ الناسَ وتَرُبُّهم وتَجمعُهم. وقال المِرناقُ

---

(١) في (م): تحضون، وهي قراءة نافع وابن كثير وابن عامر من السبعة.

(٢) وهي قراءة حمزة والكسائي وعاصم من السبعة. السبعة ص٦٨٥ ، والتيسير ص٢٢٢ .

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٤٨٠ ، والبحر ٨/ ٤٧١ . والشيزري هو عيسى بن سليمان.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٣٢٣ .

(٥) ينظر ٥/ ٨٨ ، وكذلك تفسر الآية (٣١) من سورة الكهف.

(٦) النكت والعيون ٦/ ٢٧٠ ، وأخرجه الطبري ٢٤/ ٣٨٠ عن ابن عباس وقتادة والضحاك.

(٧) النكت والعيون ٦/ ٢٧٠ عن الحسن، وقول أبي عبيدة بنحوه في مجاز القرآن ٢/ ٢٩٨ .

(٨) ديوان النابغة ص١٨ ، والخزانة ٩/ ٤٦٧ ، وجمهرة الأمثال للعسكري ١/ ١٨٨ . قال البغدادي: يقول: أي الرجال يكون مبرَّأً من العيوب؟ فإن قَطَعْتَ إخوانك بذنب لم يبق لك أخ. وقوله: أي الرجال المهذب، قال العسكري: يضرب مثلاً للرجل يُعرف بالإصابة في الأمور، وتكون منه السَّقْطة.

الطائيُّ يمدحُ علقمةَ بنَ سيف:

لأحبَّني حُبَّ الصبيِّ ولمَّني لَمَّ الهَدِيِّ إلى الكريمِ الماجِدِ[١]

وقال الليث: اللمُّ: الجمعُ الشديد، ومنه: حَجَرٌ مَلْمومٌ، وكتيبةٌ مَلْمومةٌ. والآكِلُ يَلُمُّ الثَّريدَ، فيجمعهُ لُقَماً ثم يأكلُه[٢].

وقال مجاهد: يَسفُّه سَفًّا. وقال الحسن: يأكلُ نصيبَه ونصيبَ غيرِه[٣]؛ قال الحُطيئةُ:

إذا كانَ لَمًّا يُتْبِعُ الذمَّ ربَّه فلا قدَّسَ الرحمنُ تلك الطواحِنا

يعني أنَّهم يجمعون في أَكْلِهم بين نَصِيبِهم [من الميراث] ونصيبِ غيرِهم[٤].

وقال ابن زيد: هو أنَّه إذا أكل مالَه أَلَمَّ بمالِ غيرِهِ فأَكَلَه، ولا يفكِّر فيما أَكَلَ من خبيثٍ وطيِّبٍ[٥]. قال: وكان أهلُ الشِّركِ لا يورِّثون النساءَ ولا الصبيان، بل يأكلون ميراثَهم مع مِيراثِهم، وتُراثَهم مع تُراثِهم[٦].

وقيل: يأكلون ما جَمَعه الميتُ من الظَّلَمةِ[٧] وهو عالمٌ بذلك، فَيَلُمُّ في الأكل بين

---

(١) الصحاح (لمم) والكلام منه، والحيوان ٣/ ٤٦٨، ومعجم الشعراء للمرزباني ص٤٤٦، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٤/ ١٥٩١، وللتبريزي ٤/ ٧٠. ووقع في المصادر عدا الصحاح: ورمَّني رمَّ الهديِّ، قال التبريزي: رمَّني: أصلح حالي. رمَّ الهديِّ، الهديُّ: العروس. وقال المرزوقي: أي: أحبني كما يُحَبُّ الصبي، وأصلح من أموري ما يُصْلَح من شأن العروس إذا زفت إلى الموسر الغني. والمرناق هو فدكي بن أعبد كما ذكر الجوهري، وكان قد سرقت إبل له، فردها عليه علقمة بن سيف. وعلقمة بن سيف من تغلب، وكان شريفاً رئيساً في الجاهلية، ذكره عمرو بن كلثوم في معلقته، ويقال: إنه هو الذي أنزل بني تغلب الجزيرة. الاشتقاق ص٣٣٧، وشرح المعلقات للتبريزي ص٢٧٦، وشرح ديوان الحماسة للتبريزي ٤/ ٧١-٧٢.

(٢) تهذيب اللغة ١٥/ ٣٤٣-٣٤٤.

(٣) أخرج القولين الطبري ٢٤/ ٣٨٠.

(٤) الكشاف ٤/ ٢٥٣، وما سلف بين حاصرتين منه، ولم نقف على البيت في ديوان الحطيئة.

(٥) في (م): ولا يفكر أكل من خبيث أو طيب.

(٦) أخرجه بنحوه الطبري ٢٤/ ٣٨١.

(٧) في (م) الظلم، والمثبت من النسخ الخطية والكشاف ٤/ ٢٥٣، والكلام منه.

حَرامِه وحَلَاله.

ويجوزُ أنْ يذمَّ الوارثَ الذي ظَفِر بالمال سَهْلاً مَهْلاً، مِن غيرِ أنْ يَعرَقَ فيه جبينُه، فَيُسْرِفُ في إنفاقه، ويأكلُه أكلاً واسعاً، جامعاً بين المُشتَهَيات[١] من الأطعمة والأشربة والفواكه، كما يفعل الوُرَّاثُ البطَّالون.

﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ أي: كثيرًا، حلالَه وحرامَه. والجمُّ: الكثير. يقال: جمَّ الشيءُ يُجُمُّ جُموماً، فهو جَمٌّ وجامٌّ. ومنه جَمَّ الماءُ في الحوض: إذا اجتمع وكَثُر؛ وقال الشاعر:

إنْ تَغْفِرِ اللَّهُمَّ تَغْفِرْ جمّا وأيُّ عبدٍ لكَ لا ألَمّا[٢]

والجَمَّةُ: المكانُ الذي يجتمعُ فيه ماؤه. والجَمومُ: البئرُ الكثيرةُ الماءِ. والجُمومُ بالضمِّ المصدرُ؛ يقال: جَمَّ الماءُ يجم[٣] جموماً: إذا كثُر في البئر واجتمع، بعد ما استُقي ما فيها.

قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿كَلَّآ﴾ أي: ما هكذا ينبغي أن يكونَ الأمر. فهو ردٌّ لانْكِبابِهم على الدنيا، وجَمْعِهم لها؛ فإنَّ مَن فَعَل ذلك يندمُ يومَ تُدَكُّ الأرضُ، ولا ينفعُه النَّدمُ. والدَّكُّ: الكَسْرُ والدقُّ، وقد تقدَّم[٤]. أي: زُلْزِلتِ الأرضُ، وحُرِّكتْ تحريكاً بعدَ تحريكٍ.

وقال الزجَّاج[٥]: أي: زُلزلتْ فَدَكَّ بعضُها بعضاً. وقال المبرِّد: أي: أُلصِقَتْ وذَهبَ ارتفاعُها؛ يقال ناقةٌ: دَكَّاءُ، أي: لا سنامَ لها، والجمعُ دُكٌّ. وقد مضى في

---

(١) في النسخ الخطية: المشتبهات، والمثبت من (م) والكشاف.
(٢) البيت لأمية بن أبي الصلت أو لأبي خراش، وقد سلف عند تفسير الآية (٣٢) من سورة النجم.
(٣) بالكسر والضم في الجيم. مختار الصحاح (جمم)، والكلام من الصحاح (جمم).
(٤) ينظر ٩/ ٣٢٥، وتفسير الآية (٩٨) من سورة الكهف، والآية (١٤) من سورة الحاقة.
(٥) في معاني القرآن ٥/ ٣٢٣.

سورة الأعرافِ والحاقَّةِ القولُ في هذا[١]. ويقولون: دُكَّ الشيءُ، أي: هُدِمَ. قال:

هـل غـيـرُ غـارٍ دَكَّ غـاراً فـانْـهـدَمْ[٢]

﴿دَكًّا دَكًّا﴾ أي: مرةً بعد مرةٍ، زُلْزِلَتْ فكسَّر بعضُها بعضًا، فتكسَّر كلُّ شيءٍ على ظَهْرِها. وقيل: دُكَّتْ جبالُها وأنْشازُها[٣] حتى اسْتَوَتْ. وقيل: «دُكَّتْ» أي: استَوَتْ في الانْفِراش، فذهب دُورُها وقُصورُها وجبالُها وسائرُ أبنيتها. ومنه سمِّي الدُّكَّان[٤]؛ لاستوائه في الانفراش. والدكُّ: حَطُّ المرتفعِ من الأرض بالبَسْطِ؛ وهو معنى قولِ ابنِ مسعودٍ وابنِ عباس: تُمدُّ الأرضُ مَدَّ الأديم[٥].

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَـٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ أي أمرُه وقضاؤُه؛ قاله الحسن[٦]. وهو من باب حَذْفِ المضافِ.

وقيل: أي: جاءهم الربُّ بالآياتِ العظيمة، وهو كقوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾ [البقرة: ٢١٠]، أي: بظُللٍ.

وقيل: جُعل مجيءُ الآياتِ مجيئاً له؛ تفخيماً لشأن تلك الآياتِ، ومنه قولُه[٧] تعالى في الحديث: «يا ابنَ آدمَ، مَرِضْتُ فلم تَعُدْني، واسْتسقَيتُك فلم تَسْقِني، واستطعمتُكَ فلم تُطْعِمْني»[٨].

---

(١) ٩/ ٣٢٥ ، وتفسير الآية (١٤) من سورة الحاقة.

(٢) سلف عند تفسير الآية (٩٨) من سورة الكهف.

(٣) جمع نَشَز، وهو المكان المرتفع. الصحاح (نشز).

(٤) الدكان: المِصْطَبة. المعجم الوسيط (دكن).

(٥) أخرجه عن ابن عباس مطولاً الطبري ٢٤/ ٣٨٤-٣٨٦ ، و سلف ١٢/ ١٦٨ و١٩/ ٢٧٠ .

(٦) الوسيط ٤/ ٤٨٤ .

(٧) في (ظ): وهي كقوله.

(٨) أخرجه مطولاً مسلم (٢٥٦٩).

وقيل: «وجاءَ رَبُّك» أي: زالتِ الشُّبَهُ ذلك اليومَ، وصارتِ المعارفُ ضروريةً، كما تزولُ الشُّبَه والشكُّ عند مجيءِ الشيءِ الذي كان يُشَكُّ فيه.

وقال أهلُ الإشارةِ: ظَهرتْ قدرتُه واسْتَوْلتْ[1]، والله جلَّ ثناؤه لا يُوْصَفُ بالتحوُّلِ من مكانٍ إلى مكان، وأنَّى له التحوُّلُ والانتقالُ، ولا مكانَ له ولا أوان، ولا يجري عليه وقتٌ ولازمان؛ لأنَّ في جَرَيانِ الوقتِ على الشيء فَوْتُ الأوقات، ومَن فاته شيءٌ فهو عاجِز.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَكُ﴾ أي: الملائكةُ ﴿صَفًّا صَفًّا﴾ أي: صفوفا ﴿وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ﴾: قال ابن مسعود ومقاتل: تقادُ جهنَّمُ بسبعين ألفَ زمام، كلُّ زمامٍ بيدِ سبعين ألفَ مَلَكٍ، لها تغيُّظٌ وزفير، حتى تنصبَّ عن يسار العرش[2]. وفي «صحيح» مسلم عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «يُؤْتَى بجهنَّم يومئذٍ، لها سبعون ألفَ زمامٍ، مع كلِّ زمامٍ سبعون ألفَ مَلَكٍ يَجرُّونها»[3].

وقال أبو سعيد الخُدريُّ: لمَّا نزلت: ﴿وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ﴾ تَغيَّر لونُ رسولِ الله ﷺ، وعُرِفَ في وجهه، حتى اشتدَّ على أصحابه، ثم قال: «أقرأني جبريلُ: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا . وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا . وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ﴾. قال عليٌّ رضي الله عنه: قلتُ: يا رسول الله، كيف يُجاءُ بها؟ قال: «يؤتَى بها تقادُ بسبعين ألفَ زمامٍ، يقودُ بكلِّ زمامٍ سبعون ألفَ مَلَك، فَتَشْرُدُ شَرْدَةً لو تُرِكَتْ لأَحْرقَتْ أهلَ الجمعِ، ثم تَعْرِضُ لي جهنَّم فتقول: مالي ولك يا مُحمد، إنَّ الله قد حرَّم لحمك عَلَيَّ» فلا يَبْقَى أحدٌ إلَّا قال: نَفْسي نَفْسي! إلَّا محمدٌ ﷺ فإنه يقول: ربِّ أمتي! ربِّ أمتي![4]

قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ أي: يتَّعِظُ ويتوبُ. وهو الكافرُ، أو مَن

---

(١) في النسخ الخطية: واستوت.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٤٨٦ .

(٣) صحيح مسلم (٢٨٤٢)، سلف ٢١/ ٣٨٦ .

(٤) خبر علي وخبر أبي سعيد أخرجهما الواحدي في الوسيط ٤/ ٤٥٨-٤٥٩ في خبر واحد.

هِمَّتُه معظَم الدنيا. ﴿وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ أي: ومِن أين له الاتِّعاظُ والتوبةُ وقد فرَّط فيها في الدنيا.

ويقال: أي: ومِن أين له مَنْفَعةُ الذِّكرى. فلا بدَّ من تقديرِ حَذْفِ المضافِ، وإلَّا فبَيْنَ «يَوْمَئذٍ يتذكَّرُ» وبينَ «وأنَّى له الذكرى» تَنَافٍ؛ قاله الزمخشريُّ[1].

قوله تعالى: ﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾﴾

أي: في حياتي. فاللامُ بمعنى في. وقيل: أي: قدَّمتُ عملاً صالحاً لحياتي، أي: لحياةٍ لا موتَ فيها. وقيل: حياةُ أهلِ النارِ ليست هنيئةً، فكأنهم لا حياةَ لهم، فالمعنى: ياليتني قدَّمتُ من الخير لنجاتي من النار، فأكون فيمَن له حياةٌ هنيئةٌ.

قوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ أي: لا يعذِّبُ كعذابِ الله أَحَدٌ، ولا يُوْثِقُ كوَثاقِه أحدٌ. والكنايةُ ترجعُ إلى الله تعالى. وهو قولُ ابنِ عباسٍ والحسن[2]. وقرأ الكسائيُّ: «لا يُعَذَّبُ» «ولا يُوثَقُ» بفتح الذَّالِ والثاء[3]، أي: لا يعذَّب أحدٌ في الدنيا كعذابِ اللهِ الكافرَ يَوْمَئذٍ، ولا يوثَقُ كما يوثَق الكافر[4]. والمرادُ إبليسُ؛ لأنَّ الدليل قام على أنه أشدُّ الناسِ عذاباً؛ لأَجْلِ إجرامِه، فأطلق الكلام لأجْلِ ما صَحِبَه من التفسير.

وقيل: إنه أميةُ بنُ خلف؛ حكاه الفرَّاء[5]. يعني أنه لا يعذَّبُ كعذاب هذا الكافرِ

---

(١) في الكشاف ٤/ ٢٥٣.

(٢) أخرجه عن ابن عباس ابن أبي حاتم، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٥٠.

(٣) السبعة ص٦٨٥، والتيسير ص٢٢٢.

(٤) تفسير الطبري ٢٤/ ٣٩٣، وذكر ابن الجوزي ٩/ ١٢٢ أن هذه القراءة تختص بالآخرة، وأن القراءة الأولى تختص بالدنيا. ومثله قال الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٢٧٢.

(٥) كذا ذكر المصنف، والذي في معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٦٢: وقد وجهه بعضهم على أنه رجل مسمًّى لا يعذَّبُ كعذابه أحد. فلم يعيِّنه الفراء، وقال البغوي ٤/ ٤٨٦: هو أمية بن خلف.

المعيَّنِ أحدٌ، ولا يوثَقُ بالسلاسلِ والأغلالِ كَوثاقه أحدٌ؛ لِتَناهيه في كُفْرِه وعنادِه.

وقيل: أي: لا يعذَّبُ مَكانَه أحدٌ، فلا يؤخَذُ منه فِداءٌ.

والعذابُ بمعنى التعذيبِ، والوَثاقُ بمعنى الإيثاقِ. ومنه قولُ الشاعر:

وبَعْدَ عَطائِكَ المئةَ الرِّتاعا[1]

وقيل: لا يعذَّبُ أحدٌ ليس بكافرٍ عذابَ الكافرِ.

واختار أبو عبيد وأبو حاتم فتحَ الذَّالِ والثاء. وتكونُ الهاء ضميرَ الكافر؛ لأنَّ ذلك معروفٌ: أنه لا يعذِّب أحدٌ كعذاب الله. وقد روى أبو قِلابةَ عن النبيِّ ﷺ أنه قرأ بفتح الذَّال والثاء[2]. وروي أنَّ أبا عمرو رجع إلى قراءة النبيِّ ﷺ[3].

وقال أبو عليٍّ[4]: يجوزُ أن يكون الضميرُ للكافر على قراءة الجماعة، أي: لا يعذِّبُ أحدٌ أحداً مثلَ تعذيبِ هذا الكافر؛ فتكونُ الهاءُ للكافر. والمرادُ بـ «أحدٌ» الملائكةُ الذين يتولَّوْن تعذيبَ أهلِ النار.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ﴾ لـمَّا ذَكَر حالَ مَن كانت هِمَّتُه الدنيا، فاتَّهم اللهَ في إغنائه وإفقاره، ذَكَر حالَ مَن اطمأنَّتْ نفسُه إلى الله تعالى، فسلَّم لأمره، واتَّكَلَ عليه. وقيل: هو من قولِ الملائكةِ لأولياء الله عزَّ وجلَّ. والنفسُ المطمئنةُ: الساكنةُ المُؤقِنةُ؛ أيقنتْ أنَّ الله ربُّها، فأَخْبَتَتْ لذلك؛ قاله مجاهدٌ وغيره.

---

(١) وصدره: أكُفراً بعد ردِّ الموت عني، والبيت للقطامي، وهو في ديوانه ص٣٧، وسلف ٥/ ١٠٥، والكلام من تفسير الرزاي٣١/ ١٧٧.

(٢) أخرجه أحمد (٢٠٦٩١)، وأبو داود (٣٩٩٦) و(٣٩٩٧).

(٣) الكشاف ٤/ ٢٥٣.

(٤) في الحجة ٦/ ٤١٢.

وقال ابن عباس: أي: المطمئنةُ بثوابِ الله. وعنه: المؤمنةُ. وقال الحسن: المؤمنةُ الموقنةُ.

وعن مجاهد أيضاً: الراضيةُ بقضاء الله، التي علمت أنَّ ما أخطأها لم يكن لِيُصيبَها، وأنَّ ما أصابها لم يكن لِيُخطِئَها. وقال مقاتل: الآمنةُ من عذاب الله[١]. وفي حرفِ أُبيّ بن كعب: «يا أيتها النفسُ الآمنةُ المطمئنةُ»[٢].

وقيل: التي عمِلت على يقينٍ بما وَعَدَ الله في كتابه.

وقال ابن كَيسان: المطمئنةُ هنا: المُخْلِصةُ.

وقال ابن عطاء: العارفةُ التي لا تصبرُ عنه طرفةَ عينٍ.

وقيل: المطمئنةُ بذِكْرِ الله تعالى، بيانُه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ٢٨].

وقيل: المطمئنةُ بالإيمان، المُصدِّقةُ بالبعث والثواب.

وقال ابن زيد: المطمئنةُ لأنها بشِّرت بالجنة عند الموتِ، وعند البعثِ، ويومَ الجمع[٣].

وروى عبد الله بن بُرَيدة عن أبيه قال: يعني نفسَ حمزةَ[٤]. والصحيحُ أنَّها عامةٌ في كلِّ نفسٍ مؤمنٍ مخلصٍ طائع.

قال الحسن البصريُّ: إنَّ الله تعالى إذا أراد أن يقبضَ رُوحَ عَبْدِه المؤمِن، اطمأنَّت النفسُ إلى الله تعالى، واطمأنَّ الله إليها[٥].

---

(١) تنظر هذه الأقوال في تفسير الطبري ٢٤/ ٣٩٣-٣٩٥، والوسيط ٤/ ٤٨٧، والنكت والعيون ٦/ ٢٧٢، وتفسير البغوي ٤/ ٤٨٦.

(٢) القراءات الشاذة ص١٧٣.

(٣) أخرجه الطبري ٢٤/ ٣٩٦.

(٤) أخرجه ابن المنذر وابن أبي حاتم، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٥٠.

(٥) النكت والعيون ٦/ ٢٧٢.

وقال عمرو بن العاص: إذا تُوُفِّيَ المؤمنُ أرسلَ الله إليه مَلَكين، وأرسل معهما تُحْفةً من الجنة، فيقولان لها: اخرجي أيتها النفُس المطمئنةُ راضية مَرْضِيَّةً ومَرْضيًّا عنكِ، اخرُجي إلى رَوْحٍ وريَحْانٍ وربٌّ راضٍ غيرِ غضبان، فتخرجُ كأطيبِ ريحِ المسكِ وَجَدَ أحدٌ من أنْفِه على ظَهْرِ الأرض. وذَكَر الحديث[(١)].

وقال سعيد بن جبير[(٢)]: قرأ رجلٌ عند النبيِّ ﷺ ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ﴾، فقال أبو بكر: ما أَحْسنَ هذا يا رسولَ الله! فقال النبيُّ ﷺ: «إنَّ المَلَكَ سيقولُها لك يا أبا بكر [عند الموت][(٣)]».

وقال سعيد بن جبير: مات ابن عباس بالطائف، فجاء طائرٌ لم يُرَ على خِلْقَتِه طائرٌ قطُّ، فدخل نَعْشَه، ثم لم يُرَ خارجًا منه، فلمَّا دُفِنَ تُلِيَتْ هذه الآيةُ على شَفِيرِ القبر ـ لا يُدْرَى مَن تَلَاها ـ: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ . ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾[(٤)].

وروى الضحاك أنها نزلت في عثمان بنِ عفان ﷺ حين وقف بئرَ رُومَةَ[(٥)].

وقيل: نزلت في خُبَيب بن عديٍّ الذي صَلَبه أهلُ مكةَ، وجعلوا وَجْهَه إلى المدينة، فحوَّل الله وجهَه نحو القِبلة[(٦)]. والله أعلم.

ومعنى ﴿إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ أي: إلى صاحبك وجسدِك؛ قاله ابنُ عباس وعِكرمةُ وعطاء.

---

(١) ذكره الواحدي في الوسيط ٤/ ٤٨٧، والبغوي ٤/ ٤٨٦ عن عبد الله بن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ وفيهما: ... فتخرج كأطيب ريح مسك وجده أحد في أنفه. وأخرج نحوه مطولاً أحمد (٨٧٦٩) من حديث أبي هريرة ﷺ، و (١٨٥٣٤) من حديث البراء ﷺ.

(٢) في (م): زايد، وفي النسخ الخطية: زيد، والمثبت من المصادر على ما يأتي.

(٣) أخرجه الطبري ٢٤/ ٣٩٦، وأبو نعيم في الحلية ٤/ ٢٨٣، وابن أبي حاتم، كما في تفسير ابن كثير عند هذه الآية، وما بين حاصرتين من هذه المصادر. قال ابن كثير: وهذا مرسل حسن.

(٤) أخرجه أحمد في فضائل الصحابة (١٨٧٩)، والطبراني في الكبير (١٠٥٨١)، والذهبي في السير ٣/ ٣٥٨ وقال: هذه قضية متواترة.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٥٠ من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس.

(٦) الكشاف ٤/ ٢٥٤.

واختاره الطَّبَريُّ[١]، ودليلُه قراءةُ ابنِ عباسٍ: «فادْخُلي في عَبْدي» على التوحيد[٢]، فيأمرُ الله تعالى الأرواحَ غداً أنْ ترجع إلى الأجساد. وقرأ ابن مسعود: «في جَسَدِ عبدي»[٣].

وقال الحسن: ارجعي إلى ثوابِ ربِّكِ وكرامتِه[٤].

وقال أبو صالح: المعنى: ارجعي إلى الله. وهذا عند الموت[٥].

﴿فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى﴾ أي: في أجسادِ عبادي، دليلهُ قراءةُ ابنِ عباسٍ وابن مسعود. قال ابن عباس: هذا يومَ القيامة. وقاله الضحَّاك[٦].

والجمهورُ على أنَّ الجنةَ هي دارُ الخلودِ التي هي مَسْكَنُ الأبرارِ، ودارُ الصالحين والأخيار. ومعنى «في عبادي» أي: في الصالحين من عبادي، كما قال: ﴿لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٩] وقال الأخفش: «في عبادي» أي: في حزبي. والمعنى واحدٌ، أي: انْتَظِمي في سِلْكِهم ﴿وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾ معهم.

(١) تفسير الطبري ٢٤/٣٩٧.

(٢) القراءات الشاذة ص١٧٣، والمحتسب ٢/٣٦٠.

(٣) الكشاف ٤/٢٥٤.

(٤) تفسير البغوي ٤/٤٨٧، وزاد المسير ٩/١٢٤.

(٥) أخرجه الطبري ٢٤/٣٩٧.

(٦) أخرج قولهما الطبري ٢٤/٣٩٧.

سورة «البلد»

مكية باتفاق. وهي عشرون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ①﴾

يجوزُ أن تكونَ «لا» زائدةً، كما تقدَّم في ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾؛ قاله الأخفش. أي: أُقسم؛ لأنه قال: ﴿بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ وقد أَقْسَم به في قوله: ﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ [التين: ٣] فكيف يَجْحَد القسم به وقد أَقْسَم به. قال الشاعر:

تَذَكَّرتُ ليلَى فاعْتَرتْني صَبابةٌ وكاد صمِيمُ القلبِ لا يَتقطَّعُ[(١)]

أي: يتقطَّعُ، ودخل حرفُ «لا» صلةً، ومنه قولُه تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف: ١٢] بدليل قوله تعالى في «صٓ»: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ﴾ [الآية: ٧٥].

وقرأ الحسنُ والأعمشُ وابنُ كثير: «لَأُقْسِم» من غيرِ ألفٍ بعد اللام إثباتاً[(٢)].

وأجاز الأخفشُ أيضاً أن تكون بمعنى «أَلَا»[(٣)].

وقيل: ليستْ بنفي القَسَم، وإنَّما هو كقولِ العربِ: لا واللهِ لا فعلتُ كذا، ولا واللهِ ما كان كذا، ولا واللهِ لأَفْعَلَنَّ كذا.

وقيل: هي نفيٌ صحيحٌ، والمعنى: لا أقسمُ بهذا البلدِ إذا لم تكن فيه، بعد خروجك منه. حكاه مكِّيٌّ. ورواه ابنُ أبي نَجِيحٍ عن مجاهد قال: «لا» رَدٌّ عليهم[(٤)]،

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٩٢١ وفيه: ضمير، بدل: صميم، وسلف ٢١/ ٤٠٤.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٩٢١، وذكرها عن الحسن ابن جني في المحتسب ٢/ ٣٦١، والمشهور عن ابن كثير في هذه الآية كقراءة الجماعة، وينظر ما سلف ٢١/ ٤٠٤ - ٤٠٥.

(٣) ذكره عن الأخفش النحاس في إعراب القرآن ٥/ ٢٢٧.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٥/ ٢٢٧.

وهذا اختيارُ ابنِ العربيِّ؛ لأنه قال: وأمَّا مَن قال: إنها رَدٌّ، فهو قولٌ ليس له ردٌّ؛ لأنه يصحُّ به المعنى، ويتمكَّن اللفظُ والمراد. فهو ردٌّ لكلامِ مَن أنْكَر البعثَ ثم ابتدأ القسم[١].

وقال القشيرِيُّ: قولهُ «لا»: ردٌّ لمَا تَوهَّم الإنسانُ المذكورُ في هذه السورة، المغرورُ بالدنيا. أي: ليس الأمرُ كما يَحْسَبُه، مِن أنَّه لن يقدرَ عليه أحدٌ، ثم ابتدأ القسم.

و«البلد»: هي مكة، أجمعوا عليه. أي: أُقسِمُ بالبلد الحرامِ الذي أنت فيه، لكرامتك عليَّ وحبِّي لك. وقال الواسطيُّ: أي: نحلفُ لك بهذا البلد الذي شَرَّفْتَه بمكانكَ فيه حيًّا، وببركتِكَ ميتاً، يعني المدينة. والأوّلُ أصح؛ لأنَّ السورةَ نزلت بمكةَ باتِّفاق.

قوله تعالى: ﴿وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝٢﴾

يعني في المستقبل، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]. ومثلُه واسعٌ في كلام العِبَاد[٢]؛ تقولُ لمَن تَعِدُه الإكرامَ والحِباءَ: أنت مُكرمٌ مَحْبُوٌّ. وهو في كلام اللهِ أوسَعُ[٣]، لأنَّ الأحوال المستقبَلَةَ عنده كالحاضرة المشاهَدَة؛ وكفاك دليلاً قاطعاً على أنه للاستقبال، وأنَّ تفسيره بالحالِ مُحالٌ: أنَّ السورة بالاتِّفاق مكيةٌ قبلَ الفتح. فروى منصورٌ عن مجاهد: «وأنتَ حِلٌّ» قال: ما صنعت فيه من شيءٍ فأنت في حِلٌّ. وكذا قال ابن عباس: أُحِلَّ له يومَ دخل مكةَ أن يقتلَ مَن شاء، فقتل ابنَ خَطَلٍ ومِقْيس بنَ صبَابةَ وغيرَهما. ولم يَحِلَّ لأحدٍ من الناس أن يقتلَ بها أحداً بعد رسول الله ﷺ[٤]. وروى السُّديُّ قال: أنت في حِلٌّ ممن قاتلك أن تقتله. وروى أبو

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٩٢١ و١٩٢٢.

(٢) في (د) و(م): العرب، والمثبت من باقي النسخ والكشاف ٤/ ٢٥٥، والكلام منه.

(٣) في النسخ: واسع، والمثبت من الكشاف.

(٤) أخرج قول ابن عباس ومجاهد الطبري ٢٤/ ٤٠٣-٤٠٤.

صالح عن ابن عباس قال: أُحِلَّتْ له ساعةً من نهار، ثم أُطبقتْ وحرِّمتْ إلى يوم القيامة، وذلك يومَ فتحِ مكةَ.

وثبت عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «إنَّ الله حرَّم مكةَ يومَ خَلَق السماواتِ والأرضَ، فهي حَرامٌ إلى أن تقومَ الساعةُ، فلمْ تَحِلَّ لأحدٍ قَبْلي، ولا تَحِلُّ لأحدٍ بعدي، ولم تَحِلَّ لي إلَّا ساعةً من نهار» الحديث[١]. وقد تقدَّم في سورة «المائدة»[٢].

ابن زيد: لم يكن بها أحدٌ حَلالاً غير النبيِّ ﷺ[٣].

وقيل: وأنت مُقيمٌ فيه وهو مَحلُّك. وقيل: وأنت فيه مُحْسِنٌ، وأنا عنك فيه راضٍ. وذَكرَ أهلُ اللغةِ أنه يقال: رجلٌ حِلٌّ وحَلالٌ ومُحِلٌّ، ورجلٌ حَرَامٌ ومُحْرِمٌ وحِرْمٌ[٤]. وقال قتادةُ: أنت حِلٌّ به لَستَ بآثم[٥].

وقيل: هو ثناءٌ على النبيِّ ﷺ، أي: إنك غيرُ مرتكبٍ في هذا البلدِ ما يَحرُمُ عليك ارتكابُه؛ معرفةً منك بحقِّ هذا البيتِ، لا كالمشركين الذين يرتكبون الكفرَ بالله فيه. أي: أُقسِمُ بهذا البيتِ المعظَّم الذي قد عَرَفْتَ حُرْمتَه، فأنتَ مقيمٌ فيه معظِّمٌ له، غير مرتكِبٍ فيه ما يحرُمُ عليك.

وقال شُرَحْبِيل بن سعد: ﴿وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ أي: حلالٌ، أي: هم يحرِّمون مكةَ أن يقتلوا بها صيداً أو يَعضِدوا بها شجرةً، ثم هم مع هذا يَسْتحلُّون إخراجَك وقتلَك[٦].

---

(١) أخرجه أحمد (٢٣٥٣)، والبخاري (١٣٤٩)، ومسلم (١٣٥٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. وأخرجه أحمد (٧٢٤٢)، والبخاري (١١٢)، ومسلم (١٣٥٥) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) سلف في سورة البقرة ٢/ ٣٨٣-٣٨٤ ، وينظر ٨/ ٢٢١ .

(٣) أخرجه مطولاً الطبري ٢٤/ ٤٠٥ .

(٤) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٣٢٧ .

(٥) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٣٧٣ ، والطبري ٢٤/ ٤٠٤-٤٠٥ .

(٦) الكشاف ٤/ ٢٥٥ ، وتفسير البغوي ٤/ ٤٨٨ ، وأخرجه سعيد بن منصور وابن المنذر، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٥٢ .

قوله تعالى: ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ③﴾

قال مجاهدٌ وقتادةُ والضحاكُ والحسنُ وأبو صالح: «وَوَالِدٍ»: آدم عليه السلام. «وما وَلَدَ» أي: وما نَسَلَ مِن وَلَدِه[١]. أقسَم بهم لأنهم أعْجَبُ ما خَلَقَ اللهُ تعالى على وَجْهِ الأرض؛ لمَا فيهم من التِّبيان[٢] والنُّطْقِ والتدبير، وفيهم الأنبياءُ والدُّعاةُ إلى الله تعالى.

وقيل: هو إقسامٌ بآدم والصالحين من ذريته، وأمَّا غيرُ الصالحين فكأنهم بهائم.

وقيل: الوالدُ إبراهيم. وما وَلَد: ذرِّيتُه؛ قاله أبو عمران الجونيُّ[٣]، ثم يحتملُ أنه يريد جميعَ ذرِّيتِه، ويحتملُ أنه يريدُ المسلمين من ذريته.

قال الفرَّاء: وصَلحَتْ «ما» للناس، كقوله: ﴿مَا طَابَ لَكُم﴾ [النساء:٣]، وكقوله: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ [الليل:٣] وهو الخالقُ للذَّكرِ والأنثى.

وقيل: «ما» مع ما بعدَها في موضع المصدر؛ أي: ووالدٍ وولادته، كقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا﴾ [الشمس:٥][٤].

وقال عكرمة وسعيد بن جُبير: «ووالدٍ» يعني الذي يُوْلَدُ له، «وما ولد» يعني العاقرَ الذي لا يُولدُ له ـ وقاله ابن عباس[٥]. و«ما» على هذا نفيٌ. وهو بعيدٌ، ولا يصحُّ إلَّا بإضمارِ الموصول، أي: ووالدٍ والذي ما وَلَد، وذلك لا يجوزُ عند البصريين[٦].

وقيل: هو عمومٌ في كلِّ والدٍ وكلِّ مولودٍ؛ قاله عطيةُ العَوفيُّ. ورُوِي معناه عن ابن عباس أيضاً[٧]. وهو اختيارُ الطبريِّ[٨].

---

(١) أخرج قولهم الطبري ٢٤/ ٤٠٦-٤٠٧.

(٢) في (ظ) و(ي): البيان.

(٣) أخرجه الطبري ٢٤/ ٤٠٨.

(٤) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٦٤.

(٥) تفسير الطبري ٢٤/ ٤٠٦ عن ابن عباس وعكرمة.

(٦) تفسير الرازي ٣١/ ١٨٢.

(٧) أخرجه الطبري ٢٤/ ٤٠٦ من طريق عطية عن ابن عباس.

(٨) في التفسير ٢٤/ ٤٠٨.

قال الماوَرْديُّ[١] : ويحتملُ أنَّ الوالد النبيُّ ﷺ؛ لتقدُّم ذِكْرِه. وما وَلَد أمَّتُه؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: «إنَّما أنا لكم بمنزلةِ الوالدِ أُعلِّمكم»[٢]. فأقسم به وبأمَّته بعد أن أقْسَم ببلده؛ مبالغةً في تشريفه عليه الصلاة والسلام.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ۝﴾

إلى هنا انتهى القَسَم، وهذا جوابُه. ولله أن يُقسِمَ بما يشاء من مخلوقاته لتعظيمها، كما تقدَّم. والإنسانُ هنا ابنُ آدم. ﴿فِى كَبَدٍ﴾ أي: في شدَّةٍ وعناءٍ من مُكابدة الدنيا. وأصلُ الكَبَدِ: الشدَّةُ. ومنه: تَكَبَّد اللَّبَنُ: غَلُظَ وخَثُر واشتدَّ. ومنه الكَبِد؛ لأنَّه دمٌ تَغلَّظ واشتدَّ[٣]. ويقال: كابَدْتُ هذا الأمر: قاسَيْتُ شدَّته، قال لَبيد:

يا عينُ هلَّا بَكَيْتِ أرْبدَ إذْ قُمْنا وقام الخصومُ في كَبَدِ[٤]

قال ابن عباس والحسن: «في كَبَد» أي: في شدَّةٍ ونَصَب. وعن ابن عباس أيضاً: في شدَّةٍ من حَمْلِه ووِلَادتِه ورضاعِه ونَبْتِ أسنانِه، وغيرِ ذلك من أحواله[٥]. وروى عكرمةُ عنه قال: منتصباً في بَطْنِ أمّه[٦]. والكَبَدُ: الاستواءُ والاستقامةُ. فهذا امتنانٌ عليه في الخِلْقة. ولم يَخْلقِ الله جلَّ ثناؤه دابةً في بطن أمّها إلَّا مُنْكَبَّةً على وجهها إلا ابنَ آدم، فإنه منتصبٌ انتصاباً. وهو قولُ النخَعِيِّ ومجاهدٍ وغيرِهما.

ابنُ كيسان: منتصباً رأسُه في بطن أمِّه، فإذا أذِنَ الله أن يخرجَ من بطن أمّه قَلَبَ رأسَه إلى رجلَيْ أمّه[٧].

---

(١) في النكت والعيون ٦/ ٢٧٥ .

(٢) سلف ١٧/ ٦٦ .

(٣) تفسير الرازي ٣١/ ١٨٢ .

(٤) ديوان لبيد ص١٦٠، وأربد هو أخو لبيد، وقد سلفت قصته مع البيت ١٢/ ٣٦-٣٧ .

(٥) تفسير الطبري ٢٤/ ٤٠٨-٤١٠ ، وتفسير البغوي ٤/ ٤٨٨ .

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٥٣ . وذكره الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٢٧٥ عن عكرمة وابن عباس بلفظ: في انتصابٍ في بطن أمه وبعد ولادته، ولم يخلق غيره من الحيوان منتصباً.

(٧) تفسير البغوي ٤/ ٤٨٨ .

وقال الحسن: يُكابِد مصائبَ الدنيا وشدائدَ الآخرة[١].

وعنه أيضاً: يكابدُ الشُّكْرَ على السَّرَّاءِ، ويكابدُ الصَّبرَ على الضَّرَّاء؛ لأنه لا يخلو من أحدهما. ورواه ابن عمر[٢].

وقال يَمانٌ: لم يَخْلُقِ الله خَلْقاً يكابِدُ ما يكابِدُ ابنُ آدمَ؛ وهو مع ذلك أضعفُ الخَلْقِ[٣].

قال عُلماؤنا: أولُ ما يكابدُ قَطْعَ سُرَّته، ثم إذا قُمِطَ قِماطاً، وشدَّ رِباطاً، يكابدُ الضِّيقَ والتَّعبَ، ثم يكابدُ الارْتِضاعَ، ولو فاته لضاع، ثم يكابدُ نَبْتَ أسنانِه، وتحرُّكَ لسانِه، ثم يكابدُ الفِطامَ الذي هو أشدُّ من اللِّطام، ثم يكابدُ الختانَ، والأوجاعَ والأحزانَ، ثم يكابدُ المُعَلِّم وصَوْلَتَه، والمؤدِّبَ وسياستَه، والأستاذَ وهَيبتَه، ثم يكابدُ شُغْلَ التَّزْويجِ والتعجيل فيه[٤]، ثم يكابدُ شُغْلَ الأولادِ، والخدمِ والأجناد، ثم يكابدُ شغلَ الدُّورِ وبناءَ القصور. ثم الكِبرَ والهَرَمَ وضَعْفَ الرُّكْبةِ والقدم، في مصائبَ يكثرُ تعدادُها، ونوائبَ يطولُ إيرادُها، من صُداعِ الرأس، ووجع الأضْراسِ، ورَمَدِ العين، وغَمِّ الدَّين، ووجعِ السِّنِّ، وألَمِ الأُذُنِ. ويكابِدُ مِحَناً في المالِ والنَّفْس، مثل الضَّربِ والحَبْس، ولا يمضي عليه يومٌ إلَّا يُقاسي فيه شدَّةً، ولا يكابدُ إلَّا مَشَقَّةً، ثم الموتُ بعد ذلك كلِّه، ثم مُساءلةُ المَلَكِ، وضَغطةُ القبرِ وظلمتُهُ، ثم البعثُ والعَرْضُ على الله، إلى أنْ يستقرَّ به القرارُ، إمَّا في الجنة وإمَّا في النار؛ قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾، فلو كان الأمرُ إليه لَمَا اختار هذه الشدائد. ودلَّ هذا على أنَّ له خالقاً دبَّره، وقضى عليه بهذه الأحوال، فلْيَمْتثِلْ أمرَه.

وقال ابن زيد: الإنسانُ هنا: آدمُ، وقولُه: «في كَبَدٍ» أي: في وَسَطِ السماء[٥].

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٤٨٨ ، وأخرجه ابن المبارك في الزهد (٢٣١)، والطبري ٢٤/ ٤٠٩ .

(٢) تفسير الرازي ٣١/ ١٨٣ عن الحسن، والنكت والعيون ٦/ ٢٧٦ عن ابن عمر.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٤٨٨ .

(٤) بعده في النسخ الخطية: والتزويج.

(٥) النكت والعيون ٦/ ٢٧٦ ، وأخرجه بنحوه الطبري ٢٤/ ٤١٢ .

وقال الكَلْبيُّ: إنَّ هذا نزل في رجلٍ من بني جُمَحَ، كان يقال له: أَبُو الأشدّين، وكان يأخذُ الأديمَ العُكاظِيَّ فيجعلُه تحت قدميه، ويقولُ: مَن أزالني عنه فله كذا. فيجذبهُ عشرةٌ حتى يتمزَّق ولا تزولُ قدماه، وكان من أعداء النبيِّ ﷺ، وفيه نزل: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ يعني: لقوَّته[١]. وروي عن ابن عباس. ومعنى «في كَبَدٍ» أي: شديداً، يعني شديدَ الخَلْقِ، وكان مِن أشدِّ رجالِ قريش. وكذلك رُكانةُ بنُ هاشم ابنِ عبد المطلب، وكانا مَثَلاً في البأس والشدَّة.

وقيل: «في كَبَدٍ» أي: جريء القلب، غليظ الكَبِد، مع ضَعْفِ خِلْقتِه، ومهانةِ مادَّته. ابن عطاء: في ظلمةٍ وجهلٍ. الترمذيُّ: مُضِيعاً ما يَعْنيه، مُشْتغِلاً بما لا يَعْنيه.

قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۝٥ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ۝٦ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٧ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩﴾

قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ أي: أَيَظُنُّ ابنُ آدمَ أنْ لن يُعاقِبَه الله عزَّ وجلَّ. ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ﴾ أي: أنفقتُ ﴿مَالًا لُّبَدًا﴾ أي: كثيراً مجتمعاً ﴿أَيَحْسَبُ﴾ أي: أيظنُّ ﴿أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ﴾ أي: أنْ لم يُعايِنْه ﴿أَحَدٌ﴾. بل عَلِمَ الله عزَّ وجلَّ ذلك منه، فكان كاذباً في قوله: أَهْلَكتُ، ولم يكن أنفقَه.

وروى أبو هريرةَ قال: يوقفُ العبدُ، فيقال: ماذا عَمِلْتَ في المال الذي رزقتُك؟ فيقول: أنفقتُه وزَكّيتُه. فيقال: كأنك إنَّما فعلتَ ذلك ليقال سَخِيٌّ، فقد قيل ذلك. ثم يؤمرُ به إلى النار[٢].

وعن سعيد عن قتادة: إنَّك مسؤولٌ عن مالِكَ من أينَ جمعتَ؟ وكيف أنفقتَ[٣]؟

وعن ابن عباس قال: كان أبو الأشدّين يقول: أنفقتُ في عداوة محمدٍ مالاً

---

(١) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٦٤، والوسيط ٤/ ٤٨٩، وتفسير البغوي ٤/ ٤٨٨-٤٨٩.

(٢) أخرجه أحمد (٨٢٧٧)، ومسلم (١٩٠٥) مطولاً من حديث أبي هريرة ﷺ مرفوعاً، وسلف ١/ ٣٣.

(٣) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٣٧٣، والطبري ٢٤/ ٤١٤.

كثيراً، وهو في ذلك كاذب[١].

وقال مقاتل: نزلت في الحارث بن عامر بن نوفل، أَذْنَبَ فاستَفْتَى النبيَّ ﷺ، فأَمَره أن يُكَفِّر. فقال: لقد ذهب مالي في الكفَّارات والنفقات منذ دخلتُ في دِين محمدٍ[٢]. وهذا القولُ منه يحتملُ أن يكونَ استطالةً بما أَنفقَ، فيكونُ طغياناً منه. أو أسفاً عليه، فيكونُ ندماً منه.

وقرأ أبو جعفر: «مالاً لُبَّداً» بتشديد الباءِ مفتوحةً[٣]، على جمعِ: لابِدٍ، مثل: راكِعٍ ورُكَّع، وساجِدٍ وسُجَّد، وشاهد وشُهَّد، ونحوه.

وقرأ مجاهد وحُمَيد بضمِّ الباءِ واللام مخفَّفاً، جمع لَبُود[٤]. الباقون بضمِّ اللامِ وكَسْرِها وفتح الباءِ مخفَّفاً، جمع لُبْدَةٍ ولِبْدَةٍ، وهو ما تَلبَّد، يريدُ الكَثْرة[٥]. وقد مضى في سورة الجن القولُ فيه[٦].

وروي عن النبيِّ ﷺ أنه كان يقرأ: «أَيَحسب» بضم السين في الموضعين[٧].

وقال الحسن: يقولُ: أتلفتُ مالاً كثيراً، فَمَن يحاسبني به، دعني أحسبه. أَلَمْ يعلم أنَّ الله قادر على مُحاسبته، وأنَّ الله عزَّ وجلَّ يرى صنيعه[٨].

(١) الوسيط ٤/ ٤٨٩-٤٩٠ عن الكلبي ومقاتل، وذكره الفراء في معاني القرآن ٣/ ٢٦٤ دون نسبة.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٤٨٤ ، وزاد المسير ٩/ ١٢٩ .

(٣) النشر ٢/ ٤٠١ .

(٤) القراءات الشاذة ص١٧٤ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٨٤ .

(٥) الكشاف ٤/ ٢٥٦ ، وقراءة الجمهور (لُبَداً) بضم اللام وفتح الباء.

(٦) عند تفسير الآية (١٩) منها.

(٧) لم نقف على هذه الرواية بضم السين، وأخرج أبو عمر الدوري في جزء قراءات النبي ﷺ (١٢٨) من طريق رجل من بني عامر عن أبيه قال: صليت خلف النبي ﷺ فقرأ: «أيحسِب أن لن يقدر عليه أحد» مكسورة السين. وأخرجه أبو يعلى شاهداً على القراءة بفتح السين كما ذكر الحافظ في المطالب العالية ٣/ ٣٩٦ ، والسيوطي في الدر المنثور ٦/ ٣٥٧ . وقد قرأ بكسر السين نافع وابن عامر والكسائي، والباقون بفتحها. السبعة ص١٩١-١٩٢ ، والتيسير ص٨٤ .

(٨) ذكره بنحوه الرازي ٣١/ ١٨٤ .

ثم عَدَّد عليه نعمَه فقال: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ﴾ يُبْصِرُ بهما ﴿وَلِسَانًا﴾ يَنْطِقُ به. ﴿وَشَفَتَيْنِ﴾ يستُر بهما ثغرَه. والمعنى: نحن فَعَلنا ذلك، ونحن نقدرُ على أنْ نبعثه ونُحصِيَ عليه ما عَمِلَه.

وقال أبو حازم: قال النبيُّ ﷺ: «إنَّ الله تعالى قال: يا ابنَ آدمَ، إنْ نازَعَكَ لسانُكَ فيما حرَّمْتُ عليك، فقد أعنتُكَ عليه بِطِبْقَين فأَطْبِقْ، وإنْ نازَعَكَ بَصَرُكَ فيما حرَّمتُ عليك، فقد أعنتُكَ عليه بِطِبْقَين فأَطْبِقْ، وإن نازعَكَ فَرْجُكَ إلى ما حرَّمتُ عليك، فقد أعنتُكَ عليه بِطِبْقَين، فأَطْبِقْ»[١].

والشَّفَةُ: أصلُها شَفَهةٌ، حُذفت منها الهاء، وتصغيرُها: شُفَيهة، والجمع: شِفاهٌ. ويقال: شَفَهات وشَفَوات، والهاء أقْيَسُ، والواوُ أعمُّ، تشبيهاً بالسَّنوات. وقال الأزهريُّ[٢]: يقال: هذه شَفَةٌ - في الوصل - وشَفَهٌ، بالتاء والهاء.

وقال قتادة: نِعَمُ الله ظاهرةٌ، يقرِّرك بها حتى تشكر[٣].

قال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾

يعني الطريقين: طريق الخير وطريق الشرّ. أي: بيَّناهما له بما أرسلنا من الرسُل. والنَّجْدُ: الطريقُ في ارتفاع. وهذا قولُ ابنِ عباسٍ وابنِ مسعودٍ وغيرهما[٤]. وروى قتادةُ قال: ذُكِر لنا أنَّ النبيَّ ﷺ كان يقول: «يا أيُّها الناسُ، إنَّما هما النَّجْدان: نجدُ الخيرِ، ونجدُ الشرِّ، فلِمَ تجعلُ نَجْدَ الشرِّ أحبَّ إليكَ من نَجْدِ الخير؟!»[٥].

---

(١) الوسيط ٤/ ٤٩٠، وتفسير البغوي ٤/ ٤٨٩، وأخرجه بنحوه ابن عساكر في تاريخه ٦٦/ ٢٢٩ من طريق مكحول عن النبي ﷺ.

(٢) في تهذيب اللغة ٦/ ٨٦، وما قبله منه.

(٣) أخرجه الطبري ٢٤/ ٤١٥.

(٤) تفسير الطبري ٢٤/ ٤١٥-٤١٨، وأخرجه عن ابن مسعود أيضاً عبد الرزاق ٢/ ٣٧٤.

(٥) أخرجه الطبري ٢٤/ ٤١٨، وأخرجه عبد الرزاق ٢/ ٣٧٤، والطبري ٢٤/ ٤١٧-٤١٨ من طريق الحسن عن النبي ﷺ.

ورُوي عن عكرمةَ قال: النَّجْدان: الثَّدْيان. وهو قولُ سعيد بنِ المسيِّب والضحَّاك، ورُوِي عن ابن عباس وعليٍّ رضي الله عنهما[١]؛ لأنهما كالطريقين لحياةِ الولدِ ورزْقِه. فالنَّجْدُ: العُلُوُّ، وجَمْعُه: نُجُود؛ ومنه سُمِّيَتْ «نجد»؛ لارتفاعها عن انخفاض تِهامةَ. فالنَّجْدان: الطَّريقان العاليان. قال امرؤ القيس:

فريقان منهم جازعٌ بَطْنَ نخلةٍ ... وآخَرُ منهم قاطِعٌ نَجْدَ كَبْكَبِ[٢]

قوله تعالى: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ۝١١﴾

أي: فهلَّا أنفق مالَه الذي يزعمُ أنه أنفقه في عداوة محمدٍ، هلَّا أنفقه لاقتحامِ العَقَبةِ فيأمنَ! والاقتحامُ: الرَّمْيُ بالنفس في شيءٍ من غيرِ رَوِيَّةٍ؛ يقال منه: قَحَمَ في الأمر قُحوماً، أي: رَمَى بنفسه فيه من غير رَوِيَّةٍ. وقَحَّم الفَرَسُ فارسَه تَقْحيماً على وجهه: إذا رمَاه. وتَقْحيمُ النفسِ في الشيء: إدخالُها فيه من غير رَوِيةٍ. والقُحْمةُ بالضمّ: المَهْلكةُ، والسنةُ الشديدة. يقال: أصابت الأعرابَ القُحْمةُ: إذا أصابهم قَحْطٌ، فدخلوا الرِّيف. والقُحَم: صِعابُ الطريق[٣].

وقال الفرَّاء والزَّجَّاج: وذكر «لا» مرةً واحدةً، والعربُ لا تكاد تُفْرِدُ «لا» مع الفعلِ الماضي في مثل هذا الموضع، حتى يُعيدوها في كلامٍ آخَرَ، كقوله تعالى: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى﴾ [القيامة: ٣١] ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢]. وإنَّما

---

(١) تفسير الطبري ٤١٩/٢٤، وتفسير البغوي ٤٨٩/٤ عن ابن عباس والضحاك وسعيد بن المسيب. ولم نقف عليه عن علي ﷺ، وأخرج عنه الفراء في معاني القرآن ٣/ ٢٦٤، أن النجدين هما الخير والشر. وكذا أخرج الفريابي وعبد بن حميد عنه أنه قيل له: إن ناساً يقولون: إن النجدين الثديان، قال: الخير والشر. الدر المنثور ٦/ ٣٥٣.

(٢) ديوان امرئ القيس ص٤٣. قوله: جازع بطن نخلة، يعني بستانَ ابن معمر، وهو مجتمعٌ لواديين؛ نخلةِ الشامية، ونخلةِ اليمانية، وكبكب: اسم جبل. يعني: افترق الحيان بعد انقضاء المرتبع الذي كان يجمعهم، ورجع كل حيٍّ إلى مائه وموضع إقامته، فكانوا فرقتين، فمنهم آخذٌ سُفْلاً، ومنهم آخِذٌ عُلُوًّا. ينظر شرح الديوان، ومعجم البلدان ١/ ٤١٤ و٥/ ٢٧٧.

(٣) الصحاح (قحم).

أَفْرَدوها لدلالةِ آخِرِ الكلامِ على معناه؛ فيجوزُ أن يكون قوله: «ثم كان من الذين آمنوا» قائماً مقامَ التكرير، كأنه قال: فلا اقتحَمَ العقبةَ ولا آمَنَ[١]. وقيل: هو جارٍ مجرى الدعاء، كقوله: لا نَجا ولا سَلِم.

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ﴾ قال سفيان بن عُيينة: كلُّ شيءٍ قال فيه: «وما أدراك» فإنه أخْبَر به، وكلُّ شيءٍ قال فيه: «وما يدريك» فإنه لم يُخْبِر به[٢]. وقال: معنى «فلا اقتحم العقبة»، أي: فلم يقتحم العقبةَ، كقول زُهَير:

وكان طَوَى كَشْحاً على مُسْتكِنَّةٍ ... فلا هو أبداها ولَمْ يَتَقَدَّمِ[٣]

أي: فلَمْ يُبْدِها ولم يتقدَّم. وكذا قال المبرِّد وأبو عليٍّ[٤]: «لا» بمعنى لم. وذكره البخاريُّ[٥] عن مجاهد. أي: فلم يقتحم العقبةَ في الدنيا، فلا يحتاجُ إلى التكرير. ثم فَسَّر العقبةَ وركوبَها فقال: «فَكُّ رَقَبَةٍ» وكذا وكذا، فبيَّن وجوهاً من القُرَبِ المالية.

وقال ابن زيد وجماعةٌ من المفسِّرين: معنى الكلامِ الاستفهامُ الذي معناه الإنكار، تقديره: أفَلا اقْتَحَم العقبة، أو هلَّا اقتحمَ العقبة. يقول: هلَّا أنفق مالَه في فكِّ الرقاب، وإطعام السَّغْبان؛ ليُجاوِزَ به العقبةَ، فيكون خيراً له من إنفاقه في عداوةِ محمدٍ ﷺ[٦].

ثم قيل: اقتحامُ العقبةِ هاهنا ضربُ مَثَلٍ، أي: هلَّا[٧] تَحَمَّلَ عِظامَ الأمورِ في

---

(١) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٦٤-٢٦٥، وللزجاج ٥/ ٣٢٩، وتفسير الطبري ٢٤/ ٤٢١.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٤٩٠، وسلف ٢١/ ١٨٩ و ص٢٠٤ من هذا الجزء.

(٣) ديوان زهير ص٢٢. قال الشارح: الكشح: الخاصرة. على مستكنة: على أمر أكنَّه في نفسه، يقال: طوى كشحه على كذا، أي: لم يُظْهِره.

(٤) هو الفارسي، وقوله في تفسير الرازي ٣١/ ١٨٥.

(٥) في صحيحه، قبل الحديث (٤٩٤٢).

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٤٨٩، وأخرجه بنحوه عن ابن زيد الطبري ٢٤/ ٤٢١. والسغبان: الجائع. القاموس (سغب).

(٧) في (م): هل.

إنفاقِ مالِه في طاعةِ ربِّه، والإيمانِ به. وهذا إنَّما يليقُ بقولِ مَن حَمَلَ «فلا اقتحَمَ العَقَبَةَ» على الدعاء، أي: فلا نَجا ولا سَلِمَ مَن لم يُنفِقْ مالَه في كذا وكذا.

وقيل: شبَّه عِظَمَ الذنوبِ وثِقلَها وشدَّتَها بعقبةٍ، فإذا أعتق رقبةً وعَمِلَ صالحاً، كان مَثَلُه كَمَثَلِ مَن اقتحم العقبةَ، وهي الذنوبُ التي تَضرُّه وتؤذيه وتُثقِلُه.

وقال ابن عمر: هذه العقبةُ جبلٌ في جهنَّم[١].

وعن أبي رجاءٍ قال: بَلَغنا أنَّ العقبةَ مَصْعَدُها سبعةُ آلافِ سنةٍ، ومَهْبِطُها سبعةُ آلافِ سنةٍ[٢].

وقال الحسن وقتادةُ: هي عقبةٌ شديدةٌ في النار دونَ الجِسْرِ، فاقْتَحِمُوها بطاعةِ الله[٣].

وقال مجاهدٌ والضحَّاك والكلبيُّ: هي الصِّراطُ يُضرَبُ على جهنَّم كحدِّ السيف، مسيرة ثلاثةِ آلافِ سنةٍ، سَهْلاً وصُعوداً وهُبوطاً[٤]. واقتحامُه على المؤمن كما بَيْنَ صلاةِ العصرِ إلى العشاء. وقيل: اقتحامُه عليه قدر ما يصلِّي صلاةَ المكتوبة[٥].

وروي عن أبي الدَّرْداءِ أنه قال: إنَّ وراءَنا عقبةً، أَنْجَى الناسِ منها أخفُّهم حِمْلاً[٦].

وقيل: النارُ نفسُها هي العقبةُ؛ فروى أبو رجاءٍ عن الحسن قال: بلغنا أنه ما من مسلم يُعتقُ رقبةً إلَّا كانت فداءَه من النار[٧]. وعن عبد الله بن عمر قال: مَن أَعْتَقَ رقبةً

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة ٣/ ٣٢٦ بلفظ: جبلٌ زلالٌ في جهنم، وبنحوه في تفسير الطبري ٢٤/ ٤٢٠.

(٢) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم، كما ذكر السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٣٥٤.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٤٩٠، وأخرجه عنهما بنحوه الطبري ٢٤/ ٤٢٠.

(٤) ذكره عنهم البغوي ٤/ ٤٨٩-٤٩٠ مطولاً.

(٥) ينظر ما سلف ١٣/ ٤٩٤.

(٦) أخرجه ابن مردويه بنحوه من حديث أبي الدرداء ﷺ مرفوعا، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٤٥.

(٧) أخرجه الطبري ٢٤/ ٤٢٢.

أعْتَقَ الله عزَّ وجلَّ بكلِّ عضوٍ منها عضواً منه.

وفي «صحيح» مسلمٍ عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ، قال: «مَن أعْتقَ رقبةً أَعْتَقَ الله بكلِّ عضوٍ منها عضواً من أعضائه من النار، حتى فَرْجَه بفَرْجِه»[١].

وفي الترمذيِّ عن أبي أمامةَ وغيرِه من أصحاب النبيِّ ﷺ قال: «أيُّما امرئٍ مُسْلِمٍ أعتقَ امرَأً مُسْلِماً، كان فَكَاكَهُ من النار، يَجزي كلُّ عضوٍ منه عضواً منه، وأيُّما امرأةٍ مسلمةٍ أعتقتِ امرأةً مُسلمةً، كانت فَكاكَها من النار، يَجزي كلُّ عضوٍ منها عضواً منها». قال: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ غريب[٢].

وقيل: العقبةُ: خلاصُه من هَوْلِ العَرْض. وقال قتادةُ وكعب: هي نارٌ دون الجسر[٣].

وقال الحسن: هي واللهِ عقبةٌ شديدةٌ: مجاهدةُ الإنسانِ نفسَه وهواه وعدوَّه الشيطان[٤]. وأنشد بعضهم:

إنِّي بُلِيتُ بأربعٍ يَرْمِينَني ... بالنَّبْلِ قد نَصَبوا عَليَّ شِرَاكا
إبليسُ والدنيا ونفسي والهوى ... من أين أرجو بينهنَّ فَكَاكا
يا ربِّ ساعِدْني بعفوٍ إنَّني ... أصبحتُ لا أرجو لهنَّ سِواكا

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ۝١٢﴾

فيه حذفٌ، أي: وما أدراك ما اقتحامُ العقبة. وهذا تعظيمٌ لالتزامِ أمرِ الدِّين، والخطابُ للنبيِّ ﷺ، ليعلِّمه اقتحامَ العقبة. قال القشيريُّ: وحَمْلُ العقبةِ على عَقَبةِ جهنَّم بعيدٌ؛ إذ أحدٌ في الدنيا لم يقتحم عقبةَ جهنَّم، إلَّا أنْ يُحملَ على أنَّ المرادَ:

---

(١) صحيح مسلم (١٥٠٩)، وهو عند أحمد (٩٤٤١)، والبخاري (٦٧١٥).

(٢) سنن الترمذي (١٥٤٧).

(٣) أخرجه عن قتادة الطبري ٢٤/ ٤٢٠، وسلف عنه بنحوه قريباً.

(٤) الكشاف ٤/ ٢٥٦، وأحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٩٢٦.

فهلَّا صَيَّر نفسَه بحيث يُمكِنُه اقتحامُ عقبةِ جهنَّمَ غداً.

واختار البخاريُّ قولَ مجاهدٍ: إنه لم يقتحم العقبةَ في الدنيا. قال ابن العربيّ[1]: وإنَّما اختار ذلك لأجْلِ أنه قال بعد ذلك في الآيةِ الثانيةِ: «وما أدراكَ ما العَقَبةُ»، ثم قال في الآيةِ الثالثة: «فَكُّ رَقَبةٍ»، وفي الآية الرابعة: «أوْ إطْعامٌ في يومٍ ذي مَسْغَبةٍ»، ثم قال في الآية الخامسة: «يتيماً ذا مَقْرَبةٍ»، ثم قال في الآيةِ السادسةِ: «أو مسكيناً ذا مَتْرَبةٍ»، فهذه الأعمالُ إنَّما تكون في الدنيا. المعنى: فلم يأتِ في الدنيا بما يُسَهِّل عليه سلوكَ العقبةِ في الآخرة.

قوله تعالى: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ۝﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قولُه تعالى: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ فكُّها: خلاصُها من الأَسْرِ. وقيل: من الرِّقِّ. وفي الحديث: «وفكُّ الرقبةِ أنْ تُعينَ في ثَمَنِها» من حديث البرَاء، وقد تقدَّم في سورة براءة[2]. والفكُّ: هو حَلُّ القيدِ، والرِّقُّ قَيْدٌ. وسمِّي المرقوقُ رَقَبةً؛ لأنه بالرِّق كالأسيرِ المربوطِ في رقبته[3]. وسُمِّي عتقُها فَكًّا [لأنه] كَفَكِّ الأسيرِ من الأمر؛ قال حسان:

كَمْ من أسيرٍ فَكَكْناه بلا ثَمَنٍ ... وجَزِّ ناصيةٍ كنَّا مَوَاليها[4]

وروى عُقبةُ بنُ عامرٍ الجهنيُّ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «مَن أَعْتَقَ رقبةً مؤمنةً كانت فداءَه من النار»[5].

---

(١) في أحكام القرآن ٤/١٩٢٦-١٩٢٧ ، وينظر صحيح البخاري قبل الحديث (٤٩٤٢).

(٢) ١٠/٢٦٩ .

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٤/١٩٢٦ .

(٤) ديوان حسان ص٤٨٥ ، والكلام من النكت والعيون ٦/٢٧٩ ، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٥) أخرجه أحمد (١٧٣٢٦) و(١٧٣٥٧). ونقله المصنف عن الماوردي في النكت والعيون ٦/٢٧٩ .

قال الماوَرْدِيُّ(١): ويحتمِلُ ثانياً: أنه أراد فكَّ رقبتِه وخلاصَ نفسِه، باجتناب المعاصي، وفِعْلِ الطاعات، ولا يمتنع(٢) الخبرُ من هذا التأويل، وهو أشبهُ بالصَّواب.

الثانية: قوله تعالى: ﴿رَقَبَةٍ﴾ قال أصبَغُ: الرقبةُ الكافرةُ ذاتُ الثَّمنِ أفضلُ في العِتق من الرقبةِ المؤمنةِ القليلةِ الثَّمنِ؛ لقول النبيِّ ﷺ وقد سُئل: أيُّ الرقابِ أفضلُ؟ قال: «أغلاها ثمناً، وأنفسُها عند أهلها»(٣). ابن العربيِّ(٤): والمرادُ في هذا الحديثِ: مِن المسلمين. بدليل قوله عليه الصلاة والسلام: «مَن أعْتَقَ امرأً مُسْلماً» و«مَن أعتقَ رقبةً مُؤمِنةً». وما ذكره أصبغُ وَهْلَةٌ(٥)، وإنَّما نَظَرَ إلى تنقيص المال، والنظرُ إلى تجريد المعتَقِ للعبادة، وتفريغِه للتوحيد، أَوْلَى.

الثالثة: العِتْقُ والصَّدقةُ من أفضل الأعمال. وعن أبي حنيفةَ: أنَّ العتقَ أفضلُ من الصدقة. وعند صاحبيه الصدقةُ أفضلُ. والآيةُ أدلُّ على قولِ أبي حنيفةَ؛ لتقديم العتقِ على الصدقة. وعن الشعبيِّ في رجلٍ عنده فَضْلُ نفقةٍ: أيضَعُه في ذي قرابةٍ، أو يعتِقُ رقبةً؟ قال: الرقبةُ أفضلُ؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ قال: «مَن فكَّ رقبةً فكَّ الله بكلِّ عضوٍ منها عضواً من النار»(٦).

قوله تعالى: ﴿أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ ۝١٤ يَتِيمٗا ذَا مَقۡرَبَةٍ ۝١٥ أَوۡ مِسۡكِينٗا ذَا مَتۡرَبَةٖ ۝١٦﴾

قوله تعالى: ﴿أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ﴾ أي: مَجاعةٍ. والسَّغَبُ: الجوع.

---

(١) في النكت والعيون ٦/ ٢٧٩.

(٢) في النكت والعيون: ولا يمنع.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٩٢٧، والحديث أخرجه أحمد (٢١٣٣١)، والبخاري (٢٥١٨)، ومسلم (٨٤) عن أبي ذر ﷺ، وسلف ١٠/ ٥٨.

(٤) في أحكام القرآن ٤/ ١٩٢٨.

(٥) أي: سهو وغلط، وَهَل فلان: سَها، ووَهِل عنه: غلط فيه ونسيه. المعجم الوسيط (وهل).

(٦) الكشاف ٤/ ٢٥٦، وسلف الحديث عند تفسير الآية (١١) من هذه السورة.

والساغبُ: الجائع. وقرأ الحسن: «أو إطعامٌ في يومٍ ذا مَسْغَبةٍ» بالألف في «ذا»[١].
وأنشد أبو عبيدة[٢]:

فلَوْ كنتَ جاراً يا ابنَ قيس بنِ عاصمٍ لَمَا بِتَّ شَبْعاناً وجارُك ساغِبا[٣]

وإطعامُ الطعامِ فضيلةٌ، وهو مع السَّغَبِ الذي هو الجوعُ أفضلُ. وقال النَّخَعيُّ في قوله تعالى: ﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ﴾ قال: في يومٍ عزيزٍ فيه الطعامُ[٤]. ورُوي عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «مِن مُوْجِباتِ الرَّحمةِ إطعامُ المُسْلِم السَّغْبان»[٥].

﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ﴾ أي: قَرابةٍ. يقال: فلانٌ ذو قَرابتي وذو مَقْرَبتي. يعلِّمك أنَّ الصَّدقةَ على القرابة أفضلُ منها على غيرِ القرابة، كما أنَّ الصَّدقة على اليتيم الذي لا كافلَ له أفضلُ من الصدقة على اليتيم الذي يجدُ مَن يَكْفلُه.

وأهلُ اللغةِ يقولون: سُمِّي يتيمًا لضَعْفِه. يقال: يَتُمَ الرجلَ يُتْماً: إذا ضَعُفَ. وذَكَروا أنَّ اليَتيمَ في الناس مِن قِبَلِ الأب، وفي البهائم مِن قِبَلِ الأمهات. وقد مضى في سورة البقرة مُستوفًى[٦]، وقال بعضُ أهلِ اللغةِ: اليتيمُ الذي يموتُ أبواه. وقال قيس بن الملوَّح:

---

(١) القراءات الشاذة ص١٧٤، والمحتسب ٢/ ٣٦٢، وستأتي.

(٢) في (ظ): عبيد.

(٣) ذكره السمعاني في تفسيره ٦/ ٢٣٠ برواية: ساغبُ.

(٤) أخرجه عبد بن حميد وابن أبي حاتم، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٥٥.

(٥) أخرجه الحاكم ٢/ ٥٢٤، والبيهقي في الشعب (٣٣٦٥) من طريق محمد بن المنكدر عن جابر ﷺ، وفي إسناده طلحة بن عمرو المكي، ضعفه ابن معين وغيره، وقال أحمد والنسائي: متروك، وقال البخاري وابن المديني: ليس بشيء. الميزان ٢/ ٣٤٠.
وأخرجه البيهقي في الشعب (٣٣٦٣) بإسناد آخر عن محمد بن المنكدر قوله، و(٣٣٦٤) عن محمد بن المنكدر عن النبي ﷺ مرسلاً. وأخرجه هناد في الزهد (٦٣٤) عن مجاهد قوله.

(٦) ٢/ ٢٢٩ - ٢٣٠.

إلى اللهِ أشكو فقدَ لَيْلَى كما شَكا إلَى اللهِ فَقْدَ الوالِدَيْنِ يَتِيمُ[١]

قوله تعالى: ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ أي: لا شيءَ له، حتى كأنه قد لَصِقَ بالتُّراب من الفقر، ليس له مَأْوًى إلَّا الترابُ. وقال ابن عباس: هو المطروحُ على الطريق، الذي لا بيتَ له. مجاهد: هو الذي لا يَقيه من التراب لِباسٌ ولا غيرُه. وقال قتادةُ: إنَّه ذو العيال[٢].

عكرمةُ: المديون. أبو سنان: ذُو الزَّمانَةِ. ابن جبير: الذي ليس له أحد. وروى عكرمةُ عن ابن عباس: ذو المَتْرَبَةِ: البعيدُ التُّرْبةِ، يعني الغريب البعيد عن وطنه[٣].

وقال أبو حامد الخارْزَنْجِيُّ: المَتْربةُ هنا: من التَّرِيب، وهي شدَّةُ الحالِ؛ يقال: تَرِبَ، إذا افتقرَ. قال الهُذَليُّ:

وكُنَّا إذا ما الضيفُ حَلَّ بأرْضِنا سَفَكْنا دِماءَ البُدْنِ في تُرْبةِ الحالِ[٤]

وقرأ ابنُ كثير وأبو عمرو والكسائيُّ: «فَكَّ» بفتحِ الكاف على الفعل الماضي، «رقبةً» نَصْباً لكونها مفعولاً، «أو أطْعَمَ» بفَتْحِ الهمزةِ ونَصْبِ الميم، من غيرِ ألف، على الفعل الماضي أيضاً؛ لقوله: «ثم كان مِن الذين آمنوا»، فهذا أَشْكَلُ بـ«فكَّ» و«أطْعمَ».

وقرأ الباقون: «فَكُّ» رفعاً على أنَّه مصدرُ فَكَكْتُ، «رقبةٍ» خفض بالإضافة، «أو إطعامٌ» بكَسْرِ الهمزة وألفٍ ورفعِ الميم وتَنوينِها، على المصدر أيضاً[٥]. واختاره أبو عُبيد وأبو حاتم؛ لأنه تفسيرٌ لقوله تعالى: «وما أدْرَاكَ ما العَقَبةُ»، ثم أخْبَره فقال:

---

(١) ديوان مجنون ليلى ص٢٤٤.

(٢) ذكر هذه الأقوال الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٢٧٩، وأخرجها الطبري ٢٤/ ٤٢٦ - ٤٣٠.

(٣) ذكر هذه الأقوال الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٢٧٩، وخبر ابن عباس أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٥٥.

(٤) سيرة ابن هشام ١/ ٥٩٣، واللسان (حول) دون نسبة. قال ابن هشام: يعني بالحال: الطين الذي يخالطه الرمل.

(٥) السبعة ص٦٨٦، والتيسير ص٢٢٣.

«فَكُّ رَقَبةٍ. أو إطْعَامٌ». المعنى: اقتحامُ العقبةِ: فكُّ رقبةٍ أو إطعامٌ. ومَن قرأ بالنَّصب فهو محمولٌ على المعنى، أي: ولا فَكَّ رقبةً، ولا أطعمَ في يومٍ ذي[1] مَسْغَبة، فكيف يُجاوِزُ العَقَبة.

وقرأ الحسن وأبو رَجاء: «ذا مَسْغبةٍ» بالنَّصب على أنه مفعولُ «إطعامٌ»، أي: يُطْعِمون ذا مَسْغَبةٍ، و«يَتيماً» بدلٌ منه. الباقون: «ذِي مَسْغَبةٍ»، فهو صفةٌ لـ«يومٍ». ويجوزُ أنْ تكونَ قراءةُ النَّصْبِ صفةً لموضعِ الجارِّ والمجرور؛ لأنَّ قوله: «في يومٍ» ظَرْفٌ منصوبُ الموضعِ، فيكونُ وصفاً له على المعنى دونَ اللَّفْظ[2].

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ﴿٢٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ يعني: أنَّه لا يقتحمُ العقبةَ مَن فكَّ رقبةً، أو أطعمَ في يومٍ ذي[3] مَسْغَبةٍ، حتى يكون مِن الذين آمنوا، أي: صدَّقوا، فإنَّ شَرْطَ قَبولِ الطاعاتِ الإيمانُ بالله. فالإيمانُ بالله بَعْدَ الإنفاقِ لا ينفعُ، بل يجبُ أن تكونَ الطاعةُ مصحوبةً بالإيمان، قال الله تعالى في المنافقين: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ﴾ [التوبة: ٥٤]. وقالت عائشة: يا رسولَ الله، إنَّ ابنَ جُدْعَانَ كان في الجاهلية يَصِلُ الرَّحِمَ، ويُطْعِمُ الطعامَ، ويَفُكُّ العانيَ، ويُعتِقُ الرقابَ، ويحملُ على إبله لله، فهل ينفعُه ذلك شيئاً؟ قال: «لا، إنَّه لم يَقُلْ يوماً: ربِّ اغفرْ لي خطيئتي يومَ الدِّين»[4].

وقيل: «ثُمَّ كانَ مِن الذينَ آمَنوا» أي: فَعَلَ هذه الأشياءَ وهو مؤمنٌ، ثم بقي على

---

(١) في (م): ذا.

(٢) المحتسب ٢/ ٣٦٢، وسلفت القراءة في بداية تفسير هذه الآية.

(٣) في (م): ذا.

(٤) أخرجه أحمد (٢٤٦٢١)، ومسلم (٢١٤) من حديث عائشة رضي الله عنها، وسلف ١٦/ ٤٠.

إيمانه حتى الوفاةِ، نظيرُه قولُه تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢].

وقيل: المعنى: ثم كان من الذين يؤمنون بأنَّ هذا نافعٌ لهم عند الله تعالى.

وقيل: أتَى بهذه القُرَبِ لوجهِ الله، ثم آمَنَ بمحمدٍ ﷺ؛ وقد قال حكيم بنُ حزام بعدَ ما أسْلَم: يا رسول الله، إنَّا كنَّا نَتَحنَّثُ بأعمالٍ في الجاهلية، فهل لنا منها شيءٌ؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «أسْلَمْتَ على ما أسْلَفْتَ من الخير»(١).

وقيل: إنَّ «ثم» بمعنى الواو، أي: وكان هذا المُعْتِقُ الرقبةَ، والمُطْعِمُ في المسغبة، من الذين آمنوا. ﴿وَتَوَاصَوْا۟﴾ أي: أوْصَى بعضُهم بعضاً ﴿بِٱلصَّبْرِ﴾ على طاعة الله، وعن معاصيه، وعلى ما أصابهم من البلايا والمصائب ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾ أي: بالرَّحمة على الخَلْق؛ فإنهم إذا فعلوا ذلك رَحِموا اليتيمَ والمسكين.

﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ أي: الذين يُؤْتَوْنَ كتبَهم بأيمانهم؛ قاله محمد بن كعب القُرَظيُّ وغيرُه. وقال يحيى بن سلام: لأنهم ميامينُ على أنفسهم. زيد بن أسلم: لأنهم أُخِذوا من شِقِّ آدمَ الأيمنِ. وقيل: لأنَّ منزلتهم عن اليمين؛ قاله مَيمون بن مِهران.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ أي: القرآن. ﴿هُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ أي: يأخذون كُتُبَهم بشَمائلهم؛ قاله محمد بن كعب. يحيى بن سلام: لأنَّهم مَشائيمُ على أنفسهم. زيد بن أسلم(٢): لأنهم أُخِذوا من شِقِّ آدمَ الأيسرِ. ميمون: لأنَّ منزلتهم عن اليسار.

قلت: ويجمعُ هذه الأقوالَ أن يُقال: إنَّ أصحاب الميمنةِ أصحابُ الجنةِ، وأصحابَ المَشأمةِ أصحابُ النارِ؛ قال الله تعالى: ﴿وَأَصْحَـٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَـٰبُ ٱلْيَمِينِ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾ [الواقعة: ٢٧-٢٨] وقال: ﴿وَأَصْحَـٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَـٰبُ ٱلشِّمَالِ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ﴾ [الواقعة: ٤١-٤٢]. وما كان مِثْلَه.

---

(١) أخرجه أحمد (١٥٣١٨)، والبخاري (١٤٣٦)، ومسلم (١٢٣)، وسلف ١٠/ ٢٣٧، والتحنث: التعبُّد.

(٢) وقع في النسخ: ابن زيد، بدل: زيد بن أسلم، في الموضعين، والمثبت من النكت والعيون ٦/ ٢٨٠، والكلام منه، وسلف هذا القول عن زيد بن أسلم في تفسير الآية (٨) من سورة الواقعة.

ومعنى ﴿مُّؤْصَدَةٌۢ﴾ أي: مُطْبَقة مُغْلَقَة، قال:

تَـحِـنُّ إلـى أجـبـالِ مـكـةَ نـاقَـتـي ومِن دُونِها أبوابُ صنعاءَ مُؤْصَدَهْ[1]

وقيل: مُبْهمة، لا يُدْرَى ما داخِلُها. وأهلُ اللُّغةِ يقولون: أَوْصَدْتُ البابَ وآصدْتُهُ، أي: أغلقتُه. فَمَن قال: أَوْصَدْتُ، فالاسمُ الوِصاد، ومَن قال: آصَدْتُه، فالاسمُ الإصاد.

وقرأ أبو عمرو وحفصٌ وحمزةُ ويعقوبُ، والشَّيزَرِيُّ عن الكسائيّ: «مُؤْصَدَة» بالهَمْزِ هنا وفي «الهُمَزة»[2]. الباقون بلا هَمْزٍ. وهما لُغتان. وعن أبي بكر بن عياش قال: لنا إمامٌ يهمزُ «مُؤْصَدَة»، فأشْتَهي أنْ أَسُدَّ أذنيَّ إذا سمعتُه[3].

سورة «الشمس»

وهي مكِّيةٌ باتِّفاقٍ، وهي خَمْسَ عَشْرةَ آيةً

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١﴾

قال مجاهد: ﴿وَضُحَىٰهَا﴾ أي: ضوئِها وإشْراقِها. وهو قَسَمٌ ثانٍ. وأضاف الضُّحَى إلى الشمس؛ لأنه إنَّما يكون بارتفاعِ الشمس. وقال قتادةُ: نَهارها[4]. السُّدِّيُّ:

(١) إصلاح المنطق ص١٨٠، وأنشده ابن عباس لنافع بن الأزرق، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٥٥ عن الطستي.

(٢) السبعة ص٦٨٦، والتيسير ص٢٢٣، والنشر ١/ ٣٩٥ عن أبي عمرو وحفص وحمزة ويعقوب وخلف. والمشهور عن الكسائي: «موصدة» بغير همز.

(٣) الكشاف ٤/ ٢٥٧. قال السمين في الدر المصون ١١/ ١٢: وكأنه لم يحفظ عن شيخه إلا تركَ الهمز، مع حِفْظِ حفص إياه (يعني الهمز) عنه.

(٤) أخرجه الطبري ٢٤/ ٤٣٤، ووقع في (م): بهاؤها.

حرّها(١). وروى الضحاك عن ابن عباس: «وضحاها»، قال: جَعَلَ فيها الضوءَ وجَعَلَها حارَّة(٢).

وقال اليزيديُّ: هو انبساطُها. وقيل: ما ظَهَر بها من كلِّ مخلوقٍ، فيكون القَسَمُ بها وبمخلوقاتِ الأرض كلِّها. حكاه الماوردِيّ(٣).

والضُّحَى: مؤنثةٌ. يقال: ارتفعت الضُّحى فوق الصُّخور. وقد تُذَكَّر. فَمَن أنَّث ذهب إلى أنها جمعُ ضَحْوَةٍ. ومَن ذكَّر ذهب إلى أنه اسمٌ على فُعَل، نحو صُرَدٍ ونُغَرٍ. وهو ظرفٌ غيرُ متمكِّنٍ مثل سَحَر. تقول: لقِيتُه ضحًى وضُحَى؛ إذا أردتَ به ضُحا يومِك لم تنوِّنه(٤). وقال الفرَّاء(٥): الضُّحى هو النهار، كقول قتادة(٦). والمعروفُ عند العرب: أنَّ الضُّحى إذا طلعت الشمسُ وبُعَيد ذلك قليلاً، فإذا زاد فهو الضَّحَاء بالمدِّ. ومَن قال: الضُّحى: النهارُ كلُّه، فذلك لدوامِ نورِ الشمس. ومَن قال: إنه نورُ الشمسِ أو حرُّها، فنورُ الشمسِ لا يكون إلَّا مع حرِّ الشمس. وقد استدلَّ مَن قال: إنَّ الضحى حرُّ الشمس بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَضْحَىٰ﴾ [طه: ١١٩] أي: لا يؤذيك الحرّ.

وقال المبرِّد: أصلُ الضُّحَى من الضّحّ، وهو نورُ الشمسِ، والألفُ مقلوبةٌ من الحاءِ الثانية. تقول: ضَحوَة وضَحَوات(٧) وضُحًى، فالواوُ من ضَحْوَة مقلوبةٌ عن

---

(١) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٢٨١ .

(٢) لم نقف عليه بهذا اللفظ، وأخرج الحاكم ٢/ ٥٢٤ من طريق مجاهد عن ابن عباس: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا﴾ قال: ضوءها.

(٣) في النكت والعيون ٦/ ٢٨١ .

(٤) الصحاح (ضحا)، وينظر ما سلف عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍۢ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ﴾ [القمر: ٣٤]، وتفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾ [طه: ٥٩].

(٥) في معاني القرآن ٣/ ٢٦٦ .

(٦) أخرجه الطبري ٢٤/ ٤٣٤ ، وسلف قريباً.

(٧) بعدها في (م) و(ي): وضحوات. وكل اسم واحدة فَعْلة فإنَّ جَمعه على فَعَلات بفتح العين، فإن كان نعتاً فإنك تدع ثانيه ساكناً، مثل: ضَخْمَة، تجمعها: ضَخْمات، وربما سكنت العين في الأسماء، كما قال الشاعر: فتستريح النفس من زَفْراتها. ينظر تفسير الطبري ٣/ ٣٢ .

الحاء الثانية[١]، والألفُ في ضُحا مقلوبةٌ عن الواو.

وقال أبو الهيثم: الضِّح: نقيض الظِّلِّ، وهو نورُ الشمسِ على وجه الأرض، وأصلُه: الضِّحْيُ، فاستَثْقَلوا الياءَ مع سكونِ الحاءِ، فقَلَبوها ألفاً[٢].

قوله تعالى: ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢﴾

أي: تَبِعَها، وذلك إذا سقطت رُئي الهلال. يقال: تَلَوْتُ فلاناً: إذا تَبِعته. قال قتادة: إنَّما ذلك ليلةَ الهلال، إذا سَقَطت الشمس رُئي الهلال[٣].

وقال ابن زيد: إذا غَرَبت الشمسُ في النصف الأول من الشهر، تلاها القمرُ بالطُّلوع، وفي آخِرِ الشهرِ يتلُوها بالغروب[٤].

الفرَّاء: «تلاها»: أخذ منها. يذهبُ إلى أنَّ القمر يأخذُ من ضوء الشمس[٥]. وقال قومٌ: «والقمرِ إذا تَلاَها» حين استوى واستدار، فكان مِثْلَها في الضياء والنور؛ وقاله الزجَّاج[٦].

قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣﴾

أي: كَشَفَها. فقال قومٌ: جلَّى الظُّلْمةَ، وإنْ لم يَجْرِ لها ذِكْرٌ، كما تقول: أضْحَتْ باردةً، تريد: أَضْحَتْ غَداتُنا باردةً. وهذا قولُ الفرّاءِ[٧] والكلبيِّ وغيرِهما. وقال قومٌ:

---

(١) قال أبو حيان في البحر ٨/ ٤٧٨ لعله مختلَقٌ عليه؛ لأن المبرد أجلُّ من أن يذهب إلى هذا، وهاتان مادتان مختلفتان لا تشتقُّ إحداهما من الأخرى.

(٢) كذا في النسخ، ومثله في تفسير الرازي ٣١/ ١٩٠ ، والذي في تهذيب اللغة ٣/ ٣٩٨ عن أبي الهيثم: ... فاستثقلوا الياء مع سكون الحاء فثقلوها؛ قالوا: ضِح. ومثله العبدُ القِنُّ، وأصله: قِنْي من القِنْية.

(٣) أخرجه الطبري ٢٤/ ٤٣٦ .

(٤) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٢٨٢ بلفظ: في النصف الأول يتلوها، وتكون أمامه وهو وراءها، وإذا كان في النصف الأخير كان هو أمامها وهي وراءه، ونحوه في تفسير الطبري ٢٤/ ٤٣٦.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٥/ ٢٣٥ ، وقول الفراء في معاني القرآن ٣/ ٢٦٦ .

(٦) في معاني القرآن ٥/ ٣٣١ .

(٧) في معاني القرآن ٣/ ٢٦٦ .

الضمير في «جَلاَّها» للشمس، والمعنى: أنه يُبينُ بضوئه جرمَها. ومنه قولُ قيس بنِ الخَطِيم:

تَجَلَّت لنا كالشَّمسِ تحتَ غَمامةٍ بدا حاجبٌ منها وضَنَّت بحاجِبِ[1]

وقيل: جَلَّى ما في الأرض من حيوانها حتى ظهر؛ لاستتاره ليلاً وانتشاره نهاراً[2]. وقيل: جَلَّى الدنيا. وقيل: جَلَّى الأرض، وإنْ لم يَجْرِ لها[3] ذِكْرٌ، ومثلُه قولُه تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾ [ص:٣٢] على ما تقدَّم آنفاً.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ۝٤﴾

أي: يغشَى الشمس، فيَذهَبُ بَضوئها عند سقوطها؛ قاله مجاهدٌ وغيره. وقيل: يغشى الدنيا بالظُّلَم، فتُظلم الآفاق. فالكنايةُ تَرْجعُ إلى غيرِ مذكور.

قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥﴾

أي: وبنيانها. فـ«ما» مَصْدَريةٌ، كما قال: ﴿بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي﴾ [يس:٢٧] أي: بغفران ربِّي؛ قاله قتادة، واختاره المبرِّد.

وقيل: المعنى: ومَن بناها؛ قاله الحسن ومجاهد[4]؛ وهو اختيارُ الطَّبَرِيِّ[5]. أي: ومَن خَلَقَها ورَفَعَها، وهو الله تعالى. وحُكِي عن أهل الحجاز: سُبحان ما سَبَّحت له، أي: سبحان مَنْ سَبَّحت له[6].

---

(١) طبقات فحول الشعراء ١/ ٢٢٨، وجمهرة أشعار العرب ٢/ ١٤٦، وديوان المعاني ١/ ٢٢٩، والحماسة البصرية ٢/ ٨٥، واللسان (حجب). وورد البيت في ديوان مجنون ليلى ص٧٥. قال صاحب اللسان: حاجب الشمس: ناحيةٌ منها.

(٢) النكت والعيون ٦/ ٢٨٢.

(٣) في (د) و (ز) و(ي): لهما.

(٤) النكت والعيون ٦/ ٢٨٢، وزاد المسير ٩/ ١٣٩.

(٥) في تفسيره ٢٤/ ٤٣٧، قال: وبناؤه إياها تصييره إياها للأرض سقفاً.

(٦) ينظر ما سلف ٦/ ٢٦، وما سيأتي ص٣٢٠ من هذا الجزء.

قوله تعالى: ﴿وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦﴾

أي: وطَحْوِها. وقيل: ومَن طحاها؛ على ما ذكرناه آنفاً. أي: بَسَطَها؛ كذا قال عامَّةُ المفسِّرين، مثل دحاها. قال الحسن ومجاهد وغيرهما: طحاها ودحاها واحدٌ[1]، أي: بَسَطَها من كل جانب. والطَّحْو: البَسْطُ؛ طَحَا يطحُو طحْواً، وطَحَى يَطحَى طَحْياً. وطَحَيْتُ: اضطجعتُ؛ عن أبي عمرو[2].

وعن ابن عباس: طحاها: قَسَمها[3]. وقيل: خَلَقها؛ قال الشاعر:

وما تَدْرِي جذيمة مَن طَحَاها ... ولا مَنْ ساكِنُ العَرْشِ الرَّفيعِ[4]

الماوَرْديُّ[5]: ويحتمل أنه ما خرج منها من نباتٍ وعيونٍ وكنوز؛ لأنه حياةٌ لِمَا خُلِق عليها.

ويقال في بعض أيمان العرب: لا، والقمرِ الطَّاحِي، أي: المُشرِف المُشْرِق المرتفع[6]. قال أبو عمرو: طحا الرجل: إذا ذهب في الأرض. يقال: ما أدري أين طَحَا! ويقال: طحا به قلبُه: إذا ذهب به في كلِّ شيء؛ قال علقمة:

طَحَا بكَ قَلْبٌ في الحِسَانِ طَروبُ ... بُعَيْدَ الشَّبابِ عَصْرَ حانَ مَشيبُ[7]

قوله تعالى: ﴿وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧﴾

قيل: المعنى: وتَسْوِيَتِها. «فما»: بمعنى المصدر. وقيل: المعنى: ومَن سَوَّاها، وهو اللهُ عزَّ وجلَّ.

---

(١) أخرجه عن مجاهد الطبري ٢٤/ ٤٣٩ بنحوه.

(٢) ذكره عنه الجوهري في الصحاح (طحا).

(٣) أخرجه الطبري ٢٤/ ٤٤٠ .

(٤) النكت والعيون ٦/ ٢٨٣ .

(٥) في النكت والعيون ٦/ ٢٨٣ .

(٦) تهذيب اللغة ٥/ ١٨٤ .

(٧) ديوان علقمة الفحل ص٣٣ ، والصحاح (طحا) والكلام منه. قال الأعلم شارح الديوان: قوله: طحا بك قلب، أي: اتَّسع بك في حب الحِسان، وذَهب بك كلَّ مذهب.

وفي النفس قولان: أحدهما آدمُ. الثاني: كلُّ نفسٍ منفوسة. وسوَّى: بمعنى هيَّأ. وقال مجاهد: سوَّاها: سَوَّى خَلْقَها وعَدَّل[1].

وهذه الأسماءُ كلُّها مجرورةٌ على القَسَم؛ أقسمَ جلَّ ثناؤه بخَلْقِه لمَا فيه من عجائب الصَّنْعةِ الدالَّةِ عليه.

قوله تعالى: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٨﴾

قوله تعالى: ﴿فَأَلْهَمَهَا﴾ أي: عَرَّفها؛ كذا رَوَى ابنُ أبي نَجِيح عن مجاهد[2]. أي: عرَّفها طريقَ الفجورِ والتقوى؛ وقاله ابن عباس[3]. وعن مجاهدٍ أيضاً: عَرَّفها الطاعةَ والمعصية.

وعن محمد بن كعب قال: إذا أراد الله عزَّ وجلَّ بعَبْدِهِ خيراً، أَلْهمَه الخيرَ فَعَمِل به، وإذا أراد به السوءَ، أَلْهمَه الشرَّ فعمِل به.

وقال الفرَّاء[4]: «فألهمها»، قال: عَرَّفها طريقَ الخيرِ وطريقَ الشرِّ، كما قال: ﴿وَهَدَيْنَهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠].

وروى الضحَّاكُ عن ابن عباس قال: أَلْهَمَ المؤمنَ المتَّقيَ تقواه، وألْهَمَ الفاجرَ فُجورَه[5].

وعن سعيد عن قتادة قال: بَيَّن لها فُجورَها وتقواها[6]. والمعنى متقارب.

ورُوِي عن أبي هريرةَ قال: قرأ رسولُ الله ﷺ: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ فقال:

---

(١) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٢٨٣.

(٢) أخرجه الطبري ٢٤/ ٤٤١.

(٣) تفسير الطبري ٢٤/ ٤٤٠-٤٤١، والوسيط ٤/ ٤٩٥، وتفسير البغوي ٤/ ٤٩٢ ولفظه: علَّمها الطاعة والمعصية، وفي رواية: بيَّن لها طريق الخير والشر. وفي رواية: عرَّفها ما تأتي وما تتقي.

(٤) في معاني القرآن ٣/ ٢٦٦.

(٥) ذكره الرازي ٣١/ ١٩٣ دون نسبة.

(٦) أخرجه الطبري ٢٤/ ٤٤١.

«اللهمَّ آتِ نفسي تَقْواها، وزكِّها أنت خيرُ مَن زكَّاها، أنت وَليُّها ومَولاها»[١].

ورواه جُوَيبر عن الضحاك عن ابن عباس: أنَّ النبيَّ ﷺ كان إذا قرأ هذه الآيةَ: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ رفع صوته بها، وقال: «اللهمَّ آتِ نفسي تقواها، أنت وليُّها ومولاها، وأنت خيرُ مَن زَكَّاها»[٢].

وفي «صحيح» مسلم عن أبي الأسود الدِّيْليِّ[٣] قال: قال لي عِمران بنُ حصين: أرأيتَ ما يعملُ الناسُ اليومَ، ويَكْدَحون فيه، أشيءٌ قُضِي عليهم ومَضَى عليهم من قَدَرِ ما سَبَق، أو فيما يُسْتَقْبَلون به ممَّا أتاهم به نبيُّهم، وثبَتَتِ الحُجَّةُ عليهم؟ فقلت: بل شيءٌ قُضِي عليهم، ومَضى عليهم. قال: فقال: أفَلا يكونُ ظُلماً؟ قال: ففزِعْتُ من ذلك فَزَعاً شديداً، وقلت: كلُّ شيءٍ خَلْقُ الله ومِلْكُ يَدِه، فلا يُسألُ عمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسألون. فقال لي: يرحمُكَ الله! إنِّي لم أُرِدْ بما سألتُك إلَّا لأَحْزِرَ عقلكَ، إنَّ رجلين من مُزَينة أتَيَا رسول الله ﷺ فقالا: يا رسولَ الله، أرأيتَ ما يعملُ الناسُ اليومَ ويَكْدَحون فيه، أشيءٌ قُضِيَ عليهم ومضى فيهم مِن قَدرٍ قد سَبَق، أو فيما يُستقبَلون به ممّا أتاهم به نبيُّهم، وثبَتَتِ الحجةُ عليهم؟ فقال: «لا، بل شيءٌ قُضِي عليهم ومَضَى فيهم، وتصديقُ ذلك في كتاب الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾»[٤]. والفجورُ والتقوى: مصدران في موضعِ المفعولِ به.

قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾

قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ هذا جوابُ القَسَم، بمعنى: لقد أفْلَح. قال

---

(١) أخرجه القضاعي في مسند الشهاب (١٤٨١)، وابن أبي حاتم، كما في تفسير ابن كثير عند هذه الآية، وفي إسناده يعقوب بن حميد المدني وهو ضعيف، وعبد الله بن عبد الله الأموي وهو مجهول.

(٢) النكت والعيون ٦/ ٢٨٤، وأخرجه ابن أبي حاتم، كما في تفسير ابن كثير عند هذه الآية. قال ابن كثير: وجويبر هذا هو ابن سعيد متروك الحديث، والضحاك لم يلقَ ابن عباس. اهـ. وأخرجه الطبراني في الكبير (١١١٩١) بإسناد آخر عن ابن عباس به، وفيه ابن لهيعة وهو سيءُ الحفظ.

(٣) في (م): الدؤلي. قال الحافظ في التقريب: الدِّيْلي بكسر المهملة وسكون التحتانية، ويقال: الدُّؤَلي بالضم بعدها همزة مفتوحة، واسمه ظالم بن عمرو بن سفيان.

(٤) صحيح مسلم (٢٦٥٠)، وهو عند أحمد (١٩٩٣٦).

الزجَّاج: اللامُ حُذِفَتْ لأنَّ الكلام طال، فصار طولُه عِوضاً منها(١).

وقيل: الجوابُ محذوفٌ، أي: والشمسِ وكذا وكذا لَتُبْعثُنَّ.

الزمخشريُّ: تقديرُه: لَيُدَمْدِمنَّ الله عليهم، أي: على أهلِ مكة، لتكذيبهم رسولَ الله ﷺ، كما دَمْدَم على ثمود؛ لأنهم كذَّبوا صالحاً. وأمَّا «قد أفلح من زكَّاها» فكلامٌ تابعٌ لقوله(٢): «فألهَمَها فجورَها وتقواها»، على سبيل الاستِطْرادِ، وليس من جواب القَسَمِ في شيء.

وقيل: هو على التقديم والتأخير بغيرِ حذفٍ، والمعنى: قد أَفْلَحَ مَن زَكَّاها، وقد خاب مَن دَسَّاها، والشمسِ وضحاها.

﴿أَفْلَحَ﴾ فاز ﴿مَن زَكَّىٰهَا﴾ أي: مَن زكَّى اللهُ نفسَه بالطاعة ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ أي: خَسِرتْ نفسٌ دَمَّها الله عزَّ وجلَّ بالمعصية. وقال ابن عباس: خابت نفسٌ أضَلَّها الله وأغْواها(٣).

وقيل: أفلحَ مَن زكَّى نفسَه بطاعة الله وصالحِ الأعمال، وخاب مَن دسَّ نفسَه في المعاصي؛ قاله قتادةُ وغيره(٤).

وأصلُ الزكاة: النموُّ والزيادةُ، ومنه: زكا الزرع: إذا كَثُر رَيْعُه، ومنه تزكيةُ القاضي للشاهد؛ لأنه يرفعُه بالتعديل وذِكْرِ الجميل. وقد تقدَّم هذا المعنى في أوّل سورةِ البقرة مستوفًى(٥).

فمصْطَنِعُ المعروفِ والمبادِرُ إلى أعمال البِرِّ، شَهَر نفسَه ورفعَها. وكانت أجوادُ

---

(١) زاد المسير ٩/ ١٤١ ، ولم نقف على هذا الكلام في معاني القرآن للزجاج، وذكره ابن الأنباري في إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٩٧٨ دون نسبة، ثم قال: والاختيار عندنا أن يكون جواب القسم محذوفاً لبيان معناه، يراد به: والشمس وضحاها لقد سعد أهل الطاعة وشقي أهل المعصية، فدل على المحذوف: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا . وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾.

(٢) قبلها في (م): لأوله، والمثبت والنسخ الخطية، والكشاف ٤/ ٢٥٩ .

(٣) الوسيط ٤/ ٤٩٧ ، وأخرجه الطبري ٢٤/ ٤٤٥ بلفظ: قد خاب مَن دسَّ الله نَفْسَه فأضلَّه.

(٤) أخرجه عن قتادة بنحوه عبد الرزاق ٢/ ٣٧٦ ، والطبري ٢٤/ ٤٤٤ و٤٤٦ .

(٥) ٢/ ٢٣ .

العربِ تنزلُ الرُّبا وارتفاعَ الأرضِ؛ لِيَشْتَهِر مكانُها للمُعْتَفِين(١)، وتُوقِدُ النارَ في الليل للطَّارِقين. وكانت اللئامُ تنزلُ الأَوْلاجَ والأطرافَ والأَهْضامَ(٢)، ليَخْفَى مكانُها عن الطَّالِبين. فأولئك عَلَّوْا أنفسَهم وزَكَّوْها، وهؤلاء أَخْفَوْا أنفسَهم ودَسّوها. وكذا الفاجِرُ أبداً خَفِيُّ المكان، زَمِرُ المروءةِ(٣)، غامِضُ الشَّخصِ، ناكِسُ الرأسِ بركوبِ المعاصي.

وقيل: دسَّاها: أغواها؛ قال:

وأنتَ الذي دَسَّيْتَ عَمْراً فأصبحَتْ حلائلُهُ منه أرامِلَ ضُيَّعا(٤)

قال أهلُ اللغة: والأصل: دسَّسَهَا، من التدسيس، وهو إخفاءُ الشيءِ في الشيء، فأُبدلتْ سِينُه ياءً، كما يقال: قَصَّيْتُ أظفاري؛ وأصلهُ: قَصَّصْتُ أظفاري. ومثلُه قولهم في تَقَضَّضَ: تَقَضَّى(٥). وقال ابن الأعرابيُّ: «وقدْ خَابَ من دَسَّاها» أي: دسَّ نفسَه في جملةِ الصالحين وليس منهم(٦).

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَآ ﴿١١﴾ إِذِ انۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَآ﴾ أي: بِطُغْيانها، وهو خروجُها عن الحدِّ في

---

(١) المعتفي: الضيف، وكل طالب فضل أو رزق. القاموس (عفو).

(٢) الأولاج: جمع وَلَجة: كهف تستتر فيه المارة من مطر وغيره، ومَعْطِفُ الوادي. والأهضام: جمع هَضْم، وهو المطمئن من الأرض، وبطن الوادي. القاموس (ولج) و(هضم).

(٣) أي: قليل المروءة. القاموس (زمر).

(٤) جمهرة اللغة ٣/ ٢٤٢، وتهذيب اللغة ١٣/ ٤١، والنكت والعيون ٦/ ٢٨٤، واللسان (دسا)، ووقع في التهذيب واللسان: نساؤهم منهم، بدل: حلائله منه. وفي النكت: حلائلهم فيهم. قال صاحب اللسان: عمرو قبيلة. وقال ابن دريد عن البيت: زعم أبو حاتم أنه مصنوع.

(٥) بنحوه في معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٦٧، وللزجاج ٥/ ٣٣٢-٣٣٣، وتفسير الغريب لابن قتيبة ص٥٣٠ وتهذيب اللغة ١٢/ ٢٨١ و١٣/ ٤١، والصحاح (دسا).

(٦) تهذيب اللغة ١٢/ ٢٨١.

العصيان؛ قاله مجاهدٌ وقتادةُ وغيرُهما.

وعن ابن عباس «بِطَغْواها» أي: بعذابها الذي وُعِدَتْ به. قال: وكان اسم العذابِ الذي جاءها: الطَّغْوى؛ لأنه طَغَى عليهم.

وقال محمد بن كعب: «بِطغواها» بأَجْمَعِها[١].

وقيل: هو مصدرٌ، وخرج على هذا المخرج لأنَّه أَشْكَلُ برؤوسِ الآي[٢].

وقيل: الأصلُ: بطَغْياها، إلَّا أنَّ «فَعْلَى» إذا كانت من ذوات الياءِ أُبدِلَتْ في الاسم واواً، لِيُفصَل بينَ الاسمِ والوصف[٣].

وقراءةُ العامَّة بفتح الطَّاء. وقرأ الحسن والجَحْدري وحماد بنُ سلمة بضم الطاء، على أنَّه مصدر كالرُّجْعَى والحُسْنى وشِبْهِهما في المصادر[٤]. وقيل: هما لغتان.

﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ﴾ أي: نهض. ﴿أَشۡقَىٰهَا﴾ لعَقْرِ الناقة. واسمُه: قُدَار بنُ سالِف، وقد مضى في «الأعراف»[٥] بيانُ هذا. وهل كان واحداً أو جماعةً. وفي البخاريِّ عن عبد الله بن زَمَعةَ أنَّه سمع النبيَّ ﷺ يخطُب، وذَكَر الناقةَ والذي عَقَرها، فقال رسول الله ﷺ: «﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا﴾ انبعث لها رجلٌ عزيزٌ عارِمٌ، منيعٌ في رَهْطِه مثلُ أبي زَمَعةَ» وذَكَر الحديث. خرَّجه مسلم أيضاً[٦].

وروى الضحَّاك عن عليٍّ: أنَّ النبيَّ ﷺ قال له: «أتَدْري مَن أَشْقَى الأوَّلِينَ» قلتُ: الله ورسولُه أَعْلَم. قال: «عاقرُ الناقةِ». قال: «أتَدْري مَن أَشْقَى الآخِرين» قلتُ: الله

---

(١) أخرج هذه الأخبار الطبري ٢٤/٤٤٧-٤٤٨.

(٢) بنحوه في معاني القرآن للفراء ٣/٢٦٧، وتفسير الطبري ٢٤/٤٤٨، وقال الفراء: ألا ترى أنه قال: ﴿وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ [يونس: ١٠] ومعناه: آخر دعائهم.

(٣) يعني: أنهم يقرُّون ياء فَعْلَى بالفتح صفةً نحو: امرأة خَزْيَا وصَدْيا، ويقلبونها في الاسم نحو: تقوى. ينظر معاني القرآن للزجاج ٥/٣٣٣، والكشاف ٤/٢٥٩، والدر المصون ١١/٢٣.

(٤) المحتسب ٢/٣٦٣، والكشاف ٤/٢٥٩، وذكرها أيضاً ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٧٤.

(٥) ٩/٢٧٠-٢٧١.

(٦) صحيح البخاري (٤٩٤٢)، وصحيح مسلم (٢٨٥٥) وهو عند أحمد (١٦٢٢٢)، وسلف ٩/٢٧٠.

ورسولُه أعلم. قال: «قاتِلُكَ»[١].

﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ يعني صالحاً ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ﴾ «ناقةَ» منصوبٌ على التحذير؛ كقولك: الأسدَ الأسدَ، والصبيَّ الصبيَّ، والحِذارَ الحِذارَ. أي: احذَروا ناقةَ الله، أي: عَقْرَها. وقيل: ذَرُوا ناقةَ الله، كما قال: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٧٣]. ﴿وَسُقْيَٰهَا﴾ أي: ذَرُوها وشِرْبَها. وقد مضى في سورة الشعراء[٢] بيانُه والحمد للهِ. وأيضاً في سورة «اقتربت الساعة»[٣]. فإنَّهم لمَّا اقترحوا الناقةَ، وأخرجها لهم من الصخرة، جعل لهم شِرْبَ يومٍ من بئرهم، ولها شِرب يوم مكانَ ذلك، فشقَّ ذلك عليهم. ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ أي: كذَّبوا صالحاً عليه السلامُ في قوله لهم: إنَّكم تُعَذَّبونَ إنْ عَقَرْتُموها. ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ أي: عَقَرَها الأشقى، وأُضيفَ إلى الكلِّ لأنهم رَضُوا بفعله. وقال قتادة: ذُكِرَ لنا أنه لم يعقرها حتى تابَعَه[٤] صغيرُهم وكبيرهم، وذَكَرُهم وأُنثاهم[٥].

وقال الفرَّاء[٦]: عَقَرَها اثنان، والعربُ تقولُ: هذان أفضلُ الناسِ، وهذان خيرُ الناسِ، وهذه المرأةُ أشقَى القومِ، فلهذا لم يَقُلْ: أشْقَياها.

قوله تعالى: ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ﴾ أي: أَهْلَكَهُم وأطْبقَ عليهم العذاب بذنبهم الذي هو الكفرُ والتكذيبُ والعَقْر. وروى الضحاكُ عن ابن عباس قال: «دَمْدم

---

(١) أخرجه أحمد في فضائل الصحابة (٩٥٣)، وروي بإسناد آخر عن علي ﷺ بنحوه عند عبد بن حميد في المنتخب (٩٢)، وأبي يعلى (٥٦٩)، والطبراني في الكبير (١٧٣). وله شاهد من حديث صهيب ﷺ عند أبي يعلى (٤٨٥)، والطبراني في الكبير (٧٣١١). وآخر من حديث جابر بن سمرة ﷺ عند الطبراني في الكبير (٢٠٣٧)، والخطيب في تاريخ بغداد ١/ ١٣٥ . وثالث من حديث عمار ﷺ عند أحمد (١٨٣٢١). وينظر مجمع الزوائد ٩/ ١٣٦-١٣٧ .

(٢) عند تفسير الآية (١٥٤) منها.

(٣) عند تفسير الآيتان (٢٧) و(٢٨) منها.

(٤) في (د): بايعه.

(٥) أخرجه الطبري ٢٤/ ٤٥٠ .

(٦) في معاني القرآن ٣/ ٢٦٨ .

عليهم»قال: دَمَّر عَلَيْهم ربُّهم بذنبهم[١]، أي: بجُرْمهم. وقال الفرَّاء[٢]: «دَمْدم» أي: أَرْجَفَ.

وحقيقةُ الدَّمْدمةِ: تَضْعيفُ العذابِ وترديدُه. ويقال: دَمَمْتُ[٣] على الشيء، أي: أطْبقْت عليه، ودَمَم[٤] عليه القبرَ: أطْبقَه. وناقةٌ مدمومةٌ: أُلْبِسَها الشَّحمُ. فإذا كرَّرْتَ الإطباقَ قلتَ: دَمْدَمْتُ.

والدمدمةُ: إهلاكٌ باستئصالٍ؛ قاله المؤرِّج[٥]. وفي «الصِّحاح»: ودَمْدَمْتُ الشيءَ: إذا أَلْزقته بالأرضِ وطَحْطَحْته. ودَمْدَمَ الله عليهم، أي: أَهْلَكَهم[٦].

القُشَيرِيُّ: وقيل: دَمْدَمتُ على الميِّتِ الترابَ، أي: سَوَّيْتُ عليه. فقولُه: «فدَمْدَمَ عليهم» أي: أهْلَكهم، فجعلهم تحتَ التراب، «فَسَوَّاها» أي: سَوَّى عليهم الأرضَ. وعلى الأولِ: «فسوَّاها»، أي: فسوَّى الدَّمدمةَ والإهلاكَ عليهم. وذلك أنَّ الصيحةَ أهلكتهم، فأتتْ على صغيرهم وكبيرهم.

وقال ابن الأنباريِّ: دَمْدَمَ، أي: غَضِبَ. والدمدمةُ: الكلامُ الذي يزعجُ الرجلَ[٧]. وقال بعض اللغويين: الدمدمةُ: الإدامةُ؛ تقول العربُ: ناقةٌ مُدْمَومَةٌ[٨]، أي: سمينة.

وقيل: «فسوَّاها» أي: فسوَّى الأمَّةَ في إنزال العذاب بهم، صغيرهم وكبيرهم، وَضِيعهم وشَريفهم، ذَكَرهم وأُنْثاهم.

---

(١) ذكره البغوي ٤/ ٤٩٤ عن عطاء ومقاتل.

(٢) في معاني القرآن ٣/ ٢٦٩ .

(٣) في (د) و(ظ): دمدمت، والمثبت من كتاب الغريبين للهروي (دمم)، والكلام منه.

(٤) في (د) و(ظ): ودمدم، والمثبت من الغريبين.

(٥) الوسيط ٤/ ٥٠٠ ، وزاد المسير ٩/ ١٤٣ .

(٦) الصحاح (دمدم).

(٧) تهذيب اللغة ١٤/ ٨١ .

(٨) في (د) و(م): مدمدمة.

وقرأ ابن الزُّبير: «فَدهْدَم»[١]، وهما لغتان، كما يقال: امتُقِع لونُه وانْتُقِع.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ۝﴾

أي: فعل الله ذلك بهم غيرَ خائفٍ أنْ تَلْحَقه تَبِعةُ الدَّمدمةِ من أحَدٍ؛ قاله ابنُ عباسٍ والحسن وقتادة ومجاهد[٢]. والهاءُ في «عُقْباها» تَرْجعُ إلى الفعلة، كقوله: «مَن اغْتَسلَ يومَ الجمعة فبها ونعمتْ»[٣] أي: بالفِعْلةِ والخَصْلَة.

وقال السدِّيُّ والضحَّاك والكلبيُّ: ترجع إلى العاقِر، أي: لم يَخَفِ الذي عَقَرها عُقبَى ما صَنَع[٤]. وقاله ابن عباس أيضاً. وفي الكلام تقديمٌ وتأخيرٌ، مجازهُ: إذِ انبعث أشقاها ولا يخاف عُقباها[٥].

وقيل: لا يخافُ رسول اللهِ صالحٌ عاقبةَ إهلاكِ قومِه، ولا يخشى ضرراً يعودُ عليه من عذابهم؛ لأنه قد أنذرهم، ونجَّاه الله تعالى حين أهْلَكهم[٦].

وقرأ نافعٌ وابنُ عامر: «فلا» بالفاء[٧]، وهو الأجودُ؛ لأنَّه يرجع إلى المعنى الأولِ، أي: فلا يخاف الله عاقبةَ إهلاكهم. الباقون بالواو، وهي أشبهُ بالمعنى الثاني، أي: ولا يخافُ الكافر عاقبةَ ما صنع. ورَوَى ابنُ وَهْبٍ وابنُ القاسم عن مالكٍ قالا: أخرج إلينا مالكٌ مصحفاً لجدِّه، وزعم أنه كتبه في أيامِ عُثمانَ بنِ عفان حين

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٤٨٩ .

(٢) تفسير الطبري ٢٤/ ٤٥١-٤٥٢ .

(٣) أخرجه أبو داود (٣٥٤)، والترمذي (٤٩٧)، والنسائي في المجتبى ٣/ ٩٤ من حديث سمرة بن جندب بلفظ: «مَن توضأ يوم الجمعة فبها ونعمت، ومَن اغتسل فالغسل أفضل» وقد سلف بهذا اللفظ عند تفسير الآية (٨) من سورة الجمعة في المسألة العاشرة.

(٤) تفسير الطبري ٢٤/ ٤٥٢-٤٥٣ عن الضحاك والسدي.

(٥) يعني: وهو لا يخاف عقباها. معاني القرآن للزجاج ٥/ ٣٣٣ .

(٦) النكت والعيون ٦/ ٢٨٥ .

(٧) السبعة ص٦٨٩ ، والتيسير ص٢٢٣ .

كتب المصاحف، وفيه: «ولا يخاف» بالواو[١]. وكذا هي في مصاحفِ أهلِ مكةَ والعراقيين بالواو، واختاره أبو عُبيد وأبو حاتم، اتّباعاً لمصحفهم.

سورة «والليل»

مَكِّيَّةٌ، وقيل: مَدَنيَّةٌ. وهي إحدى وعشرون آيةً بإجماعٍ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ① وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ② وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ③ إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ④﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾ أي: يُغَطّي. ولم يَذْكُر مفعولاً للعِلْم به. فقيل: يَغْشَى النهارَ. وقيل: الأرضَ. وقيل: الخلائقَ. وقيل: يغشى كلَّ شيءٍ بظُلْمتِه. وروى سعيد عن قتادة قال: أولُ ما خَلَقَ الله النورَ والظُّلْمةَ، ثم مَيَّز بينهما، فجعل الظُّلْمةَ ليلاً أسودَ مُظْلِماً، والنورَ نهاراً مضيئاً مبصراً.

﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ أي: انكشفَ ووَضحَ وظَهرَ، وبان بضوئه عن ظلمةِ الليل.

﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ﴾ قال الحسن: معناه: والذي خَلَقَ الذَّكرَ والأنثى[٢]، فيكون قد أَقْسَم بنَفْسِه عزَّ وجلَّ.

وقيل: معناه: وخَلْقِ الذَّكَرَ والأنثى، فـ«ما» مَصْدَريةٌ على ما تقدَّم[٣]. وأهلُ مكةَ يقولون للرَّعْد: سُبحان ما سَبَّحَتَ له[٤]! فـ«ما» على هذا بمعنى «مَن»، وهو قولُ أبي

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٩٢٩ .

(٢) أخرجه الطبري ٢٤/ ٤٥٨ ، والكلام من النكت والعيون ٦/ ٢٨٦ .

(٣) ينظر ما سلف من هذا الجزء ص٢٩١ و٣١٠ .

(٤) أخرجه الطبري ٢٤/ ٤٥٨ عن أبي عمرو ضمن خبر الحسن السالف.

عبيدة[١] وغيرِه. وقد تقدَّم.

وقيل: المعنى: وما خَلَق مِن الذَّكَر والأنثى، فتكون «مِن» مضمرةً، ويكونُ القَسَمُ منه بأهلِ طاعتِه من أنبيائه وأوليائه، ويكونُ قَسَمُه بهم تَكْرِمةً لهم وتشريفاً[٢].

وقال أبو عبيدة[٣]: «وما خَلَق» أي: ومَن خَلَق. وكذلك قولُه: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا﴾ [الشمس: ٥]، ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٧]، «ما» في هذه المواضع بمعنى مَنْ.

ورُوِي عن ابن مسعودٍ أنَّه كان يقرأ: «والنهارِ إذا تجلَّى. والذَّكَرِ والأُنثى»، ويُسْقِطُ: «وما خَلَقَ». وفي «صحيح» مسلمٍ عن علقمةَ قال: قَدِمْنا الشامَ، فأتانا أبو الدرداءِ، فقال: فيكم أحدٌ يقرأ على قراءةِ عبدِ الله؟ فقلتُ: نعم، أنا. قال: فكيف سمعتَ عبدَ الله يقرأُ هذه الآية: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾؟ قال: سمعتُه يقرأ: «والليلِ إذا يَغْشَى. والذَّكَرِ والأنثى» قال: وأنا والله هكذا سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقرؤها، ولكنْ هؤلاءِ يريدون أنْ أقرأ: «وما خَلَق»، فلا أُتابِعُهم[٤].

قال أبو بكر الأنباريُّ: وحدَّثنا محمد بن يحيى المروزيُّ، قال: حدَّثنا محمد، قال: حدَّثنا أبو أحمد الزبيريُّ، قال: حدَّثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن عبد الرحمن بن يزيد، عن عبد الله قال: أَقْرأني رسولُ الله ﷺ: «إنِّي أنا الرَّازِقُ ذو القوَّةِ المتِين»[٥].

قال أبو بكر: كلٌّ من هذين الحديثين مردودٌ بخلافِ الإجماعِ له، وأنَّ حمزةَ وعاصماً يَرْوِيان عن عبد الله بن مسعود ما عليه جماعةُ المسلمين، والبناءُ على سَنَدَيْن يوافقان الإجماعَ أَوْلَى من الأخذِ بواحدٍ يُخالِفُه الإجماعُ والأمَّةُ، وما يُبَنى على روايةِ

(١) في مجاز القرآن ٢/ ٣٠١، وسيأتي.

(٢) النكت والعيون ٦/ ٢٨٦-٢٨٧.

(٣) في مجاز القرآن ٢/ ٣٠٠-٣٠١.

(٤) صحيح مسلم (٨٢٤)، وهو عند أحمد (٢٧٥٥٤)، والبخاري (٤٩٤٣).

(٥) أخرجه أحمد (٣٧٤١)، وأبو داود (٣٩٩٣)، والترمذي (٢٩٤٠) وقال: حسن صحيح.

واحدٍ إذا حاذاه روايةُ جماعةٍ تُخالفُه، أُخِذَ بروايةِ الجماعةِ وأُبْطِلَ نَقْلُ الواحد؛ لِمَا يجوزُ عليه من النسيان والإغفال.

ولو صحَّ الحديثُ عن أبي الدرداء وكان إسنادهُ مقبولاً معروفاً، ثم كان أبو بكر وعمرُ وعثمانُ وعليٌّ وسائرُ الصحابةِ ﷺ يخالفونه، لكان الحُكْمُ العملَ بما رَوَتْه الجماعةُ، ورَفْضَ ما يَحْكِيه الواحدُ المنفرِدُ، الذي يُسْرِعُ إليه من النسيان ما لا يُسْرِعُ إلى الجماعة وجميعِ أهلِ المِلَّة.

وفي المراد بالذَّكَر والأُنثى قولان:

أحدهما: آدمُ وحوَّاء؛ قاله ابنُ عباس والحسنُ والكلبيّ[1].

الثاني: يعني جميعَ الذُّكورِ والإناثِ من بني آدمَ والبهائمِ؛ لأنَّ الله تعالى خَلَق جميعَهم من ذكرٍ وأنثى من نوعهم.

وقيل: كلُّ ذَكَرٍ وأنثى من الآدميين دون البهائم؛ لاختصاصهم بولايةِ اللهِ وطاعتِه[2].

﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ هذا جوابُ القَسَم. والمعنى: إنَّ عملكم لمختلِفٌ. وقال عكرمةُ وسائرُ المفسِّرين: السَّعْيُ: العمل[3]، فَسَاعٍ في فَكاكِ نفسِه، وساعٍ في عَطَبها، يدلُّ عليه قولُه عليه الصلاة والسلام: «الناسُ غادِيان: فبائعٌ نفسَه فمعْتِقُها، أو مُوْبِقُها»[4].

وشتَّى: واحدُه شَتيت، مثل: مريض ومَرْضَى، وإنَّما قيل للمختلِفِ: شتَّى، لتَباعُدِ ما بينَ بعضِه وبعضِه. أي: إنَّ عملكم لمتباعِدٌ بعضُه من بعض؛ لأنَّ بعضَه

---

(١) الوسيط ٤/ ٥٠١، وتفسير البغوي ٤/ ٤٩٤ عن مقاتل والكلبي. والنكت والعيون ٦/ ٢٨٧ عن ابن عيسى.

(٢) النكت والعيون ٦/ ٢٨٧.

(٣) أخرجه عن عكرمة ابن أبي حاتم، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٥٨.

(٤) قطعة من حديث أخرجه أحمد (٢٢٩٠٢)، ومسلم (٢٢٣) عن أبي مالك الأشعري ﷺ ولفظه: «كلُّ الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها».

ضلالةٌ وبعضه هدى[١]. أي: فمنكم مؤمنٌ وبَرٌّ، وكافرٌ وفاجِر[٢]، ومطيعٌ وعاصٍ.

وقيل: «الشتَّى»، أي: لمختلفُ الجزاءِ، فمِنكم مُثَابٌ بالجنة، و[منكم] معاقَبٌ بالنار.

وقيل: أي: لمختلفُ الأخلاقِ؛ فمنكم راحِمٌ وقاسٍ، وحليمٌ وطائشٌ، وجوادٌ وبخيلٌ، وشبه ذلك.

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠﴾

فيه أربعُ مسائلَ:

الأولى: قولُه تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ﴾ قال ابن مسعود: يعني أبا بكر ﷺ[٣]؛ وقاله عامَّةُ المفسِّرين. فرُوِي عن عامر بن عبد الله بن الزبير قال: كان أبو بكر يُعتقُ على الإسلام عجائزَ ونساءً، قال: فقال له أبوه أبو قحافةَ: أي بُنيّ! لو أنَّك أعْتَقتَ رجالاً جُلْداً يمنعونك ويقومون معك؟ فقال: يا أبتِ، إنَّما أُريدُ ما يُريد[٤].

وعن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ﴾ أي: بَذَلَ ﴿وَاتَّقَىٰ﴾ أي: محارِمَ اللهِ التي نَهى عنها. ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ أي: بالخَلَفِ من الله تعالى على عطائه ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾[٥].

---

(١) تفسير الرازي ٣١/١٩٩.

(٢) في النكت والعيون ٦/٢٨٧ (والكلام وما سيأتي بين حاصرتين منه): فمنكم مؤمنٌ وكافر وبرٌّ وفاجر.

(٣) أخرجه الواحدي في أسباب النزول ص٤٨٦، وعزاه السيوطي في الدر المنثور ٦/٣٥٨ لابن أبي حاتم وأبي الشيخ وابن عساكر.

(٤) في (د): تريد. وأخرجه الطبري ٢٤/٤٦٦، والواحدي في أسباب النزول ص٤٨٧، ووقع عند الطبري: إنما أريد، أظنه قال: ما عند الله. وفي أسباب النزول إنما أريد ما أريد. وأخرجه ابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٢٦٢) عن عبد الله بن الزبير ﷺ، وفيه: ...لو أعتقتَ مَن يمنع ظهرك، فقال: مَنْعَ ظهري أريد.

(٥) أخرجه بنحوه الطبري ٢٤/٤٦١-٤٦٢.

وفي «صحيح» مسلمٍ عن أبي هريرةَ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما مِن يومٍ يُصْبِحُ العبادُ فيه إلَّا وَمَلكانِ ينزلان، فيقولُ أحدُهما: اللهمَّ أعْطِ مُنْفِقاً خَلَفاً، ويقول الآخَرُ: اللهمَّ أعْطِ ممسكاً تَلَفاً»(١).

ورُوي من حديث أبي الدرداء: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «ما مِن يومٍ غَرَبَتْ شمسُه إلَّا بُعِثَ بجنَبَتَيها(٢) ملكان يناديان يَسْمَعُهما خَلْقُ اللهِ كلُّهم إلَّا الثَّقَلين: اللهم أعْطِ مُنْفقاً خَلَفاً، وأعْطِ ممسِكاً تلفاً» وأنزل الله تعالى في ذلك في القرآن: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ﴾ الآيات(٣).

وقال أهلُ التفسير: «فأمَّا مَن أعْطَى» المُعْسِرِين. وقال قتادة: أعْطَى حقَّ اللهِ تعالى الذي عليه(٤). وقال الحسن: أعْطَى الصِّدْقَ من قَلْبِه.

﴿وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي: بلا إلهَ إلَّا اللهُ؛ قاله الضحَّاكُ والسُّلَميُّ وابنُ عباس أيضاً. وقال مجاهد: بالجنة، دليلُه قولُه تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ الآية [يونس:٢٦]. وقال قتادةُ: بموعودِ اللهِ الذي وَعَدَه أنْ يُثيبه(٥). زيد بن أسلم: بالصلاة والزكاة والصوم(٦). الحسن: بالخَلَف من عطائه(٧)؛ وهو اختيارُ الطبريِّ(٨). وتقدَّم عن ابن عباس، وكلُّه متقارِبُ المعنى؛ إذ كلُّه يرجعُ إلى الثواب الذي هو الجنة.

الثانية: قوله تعالى: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾ أي: نُرشِدُه لأسبابِ الخيرِ والصَّلاح،

---

(١) صحيح مسلم (١٠١٠)، وهو عند أحمد (٨٠٥٤)، والبخاري (١٤٤٢)، وسلف ١/ ٣٨٠.

(٢) في (م): بجنبتها.

(٣) أخرجه الطبري ٢٤/ ٤٦٥، وهو عند أحمد (٢١٧٢١) دون قوله: وأنزل الله...

(٤) أخرجه الطبري ٢٤/ ٤٦١.

(٥) أخرج هذه الأقوال الطبري ٢٤/ ٤٦٣-٤٦٤.

(٦) النكت والعيون ٦/ ٢٨٨.

(٧) النكت والعيون ٦/ ٢٨٨، وأخرجه الطبري ٢٤/ ٤٦١-٤٦٣ عن ابن عباس وعكرمة ومجاهد.

(٨) في التفسير ٢٤/ ٤٦٥.

حتى يَسْهُلَ عليه فِعْلُها. وقال زيد بن أسلم: «لليسرى»: للجنة[١]. وفي الصحيحين والترمذيِّ عن عليٍّ ﷺ قال: كنَّا في جنازةٍ في البقِيع، فأتَى النبيُّ ﷺ، فجلس وجَلَسْنا معه، ومعه عودٌ يَنْكُتُ به في الأرض، فرفَع رأسَه إلى السماء فقال: «ما مِن نَفْسٍ مَنْفوسةٍ إلَّا [قد] كُتِب مَدْخَلُها» فقال القومُ: يا رسولَ الله، أفَلَا نَتَّكِلُ على كتابنا؟ فَمَن كان مِن أهل السعادةِ فإنه يعملُ للسعادة، ومَن كان مِن أهلِ الشقاءِ فإنَّه يعملُ للشقاء. قال: «بل اعْمَلوا فكلٌّ مُيسَّر؛ أمَّا مَن كان مِن أهلِ السعادةِ فإنَّه يُيَسَّرُ لعملِ السعادةِ، وأمَّا مَن كان مِن أهلِ الشقاءِ فإنَّه ييسَّر لعملِ الشَّقاءِ ـ ثم قرأ ـ ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ . وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ . فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾» لفظُ الترمذيِّ. وقال فيه: حديثٌ حسنٌ صحيح[٢].

وسأل غلامان شابَّان رسولَ الله ﷺ فقالا: العملُ فيما جَفَّتْ به الأقلامُ وجَرَتْ به المقاديرُ، أم في شيءٍ يُسْتَأْنَفُ؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «بل فيما جفَّتْ به الأقلامُ، وجَرَتْ به المقادير» قالا: ففيمَ العمل؟ قال: «اعمَلوا، فكلٌّ ميسَّرٌ لعَمَله[٣] الذي خُلِقَ له» قالا: فالآنَ نَجِدُّ ونَعْمَلُ[٤].

الثالثة: قولُه تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ﴾ أي: ضَنَّ بما عنده، فلم يبذُلْ خيراً. وقد تقدَّم بيانُه وثمرتُه في الدنيا في سورة آل عمران[٥]. وفي الآخرة مَآلُه النارُ، كما في هذه الآية. روى الضحَّاكُ عن ابن عباس: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ قال: سوف أحُولُ بينه وبينَ الإيمانِ بالله وبرسوله. وعنه عن ابن عباس قال: نزلت في أميةَ بنِ خلف[٦].

(١) النكت والعيون ٦/ ٢٨٨ ، وأخرجه ابن أبي حاتم، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٥٨ .

(٢) سنن الترمذي (٣٣٤٤)، وما سلف بين حاصرتين منه. وهو في صحيح البخاري (١٣٦٢) وصحيح مسلم (٢٦٤٧)، وأخرجه أحمد (١٠٦٧).

(٣) في (م): لعمل، وفي (ظ): للعمل.

(٤) أخرجه الطبري ٢٤/ ٤٧٣ .

(٥) ٥/ ٤٣٨ .

(٦) لم نقف عليه عن ابن عباس وذكر ابن الجوزي ٩/ ١٥٠ عن ابن مسعود ﷺ أنه قال: يعني بذلك أمية وأبيًّا ابني خلف.

وروى عكرمةُ عن ابن عباس: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ﴾ يقول: بَخِل بمالِه، واستغنى عن ربِّه ﴿وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي: بالخَلَف[١].

وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد: «وكذب بالحسنى» قال: بالجنة[٢]. وبإسنادٍ آخرَ عنه قال: «بالحسنى»، أي: بلا إله إلا الله. ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ﴾ أي: نسهِّلُ طريقَه ﴿لِلْعُسْرَىٰ﴾ أي: للشَّر. وعن ابن مسعود: للنار. وقيل: أي: فسنعسِّرُ عليه أسبابَ الخيرِ والصلاحِ حتى يصعب عليه فِعْلُها[٣]. وقد تقدَّم أنَّ الملك ينادي صباحاً ومساءً: «اللهمَّ أعْطِ منفقاً خَلَفاً، وأعْطِ ممسِكاً تلفاً». رواه أبو الدَّرداء.

مسألة: قال العلماء: ثَبَتَ بهذه الآيةِ وبقوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٣]، وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ [البقرة: ٢٧٤] إلى غير ذلك من الآيات، أنَّ الجودَ من مكارِمِ الأخلاقِ، والبخلَ من أرْذَلها. وليس الجوادُ الذي يعطي في غيرِ موضعِ العطاء، ولا البخيلُ الذي يَمنعُ في موضع المنع، لكن الجواد الذي يعطي في موضعِ العطاء، والبخيل الذي يمنعُ في موضع العطاء، فكلُّ مَن استفاد بما يعطي أجراً وحَمْداً فهو الجوادُ. وكلُّ مَن استحقَّ بالمنع ذمًّا أو عقاباً فهو البخيل. ومَن لم يَسْتفِدْ بالعطاء أجراً ولا حَمْداً، وإنَّما استوجب به ذمًّا فليس بجواد، وإنَّما هو مُسْرِفٌ مذمومٌ، وهو من المبذِّرين الذين جعلهم الله إخوانَ الشياطين، وأوْجَبَ الحَجْرَ عليهم. ومَن لم يستوجبْ بالمنع عقاباً ولا ذمّاً، واستوجب به حَمْداً، فهو مِن أهلِ الرشدِ، الذين يستحقُّون القيامَ على أموالِ غيرِهم، بحُسْنِ تَدْبيرِهم وسَدَادِ رأيهم[٤].

---

(١) أخرجه الطبري ٢٤/٤٦٧-٤٦٨.

(٢) أخرجه الطبري ٢٤/٤٦٨-٤٦٩.

(٣) ذكر هذه الأقوال الماوردي في النكت والعيون ٦/٢٨٨، وقول ابن مسعود ﷺ أخرجه ابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن عساكر، كما في الدر المنثور ٦/٣٥٨.

(٤) المنهاج في شعب الإيمان للحليمي ٣/٤٠٤.

الرابعة: قال الفرَّاء: يقول القائل: كيف قال: «فسنيسِّره للعُسْرَى»؟ وهل في العُسْرى تيسيرٌ؟ فيقالُ في الجواب: هذا في إجازته بمنزلةِ قولِه عزَّ وجلَّ: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١] والبِشارةُ في الأصل على المُفرِحِ والسارّ، فإذا جُمع في كلامين هذا خيرٌ وهذا شرٌّ، جاءت البشارةُ فيهما، وكذلك التيسيرُ في الأصل على المفرح، فإذا جُمع في كلامين هذا خيرٌ وهذا شرٌّ، جاء[1] التيسيرُ فيهما جميعاً. قال الفرَّاء: وقولُه تعالى: «فسنيسِّره»: سَنُهيِّئُه. والعربُ تقول: قد يَسَّرَتِ الغنم: إذا وَلَدتْ أو تهيَّأتْ للولادة؛ قال:

هما سيِّدانا يزعمان وإنَّما يَسُودانِنا أنْ يَسَّرتْ غَنماهما[2]

قوله تعالى: ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ۝١١ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ۝١٢ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ۝١٣﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾ أي: مات. يقال: رَدِيَ الرجلُ يَرْدَى رَدًى: إذا هلك. قال:

صَرَفْتُ الهوى عنهنَّ من خشيةِ الرَّدى[3]

وقال أبو صالح وزيد بن أسلم: «إذا تردَّى» أي: سَقَطَ في جهنم[4]؛ ومنه المتردِّية[5]. ويقال: رَدَى في البئر وتردَّى: إذا سقط في بئر، أو تهوَّر من جبل. يقال:

---

(١) في معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٧١: جاز.

(٢) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٧١، والبيت لأبي أسيدة الدُّبَيْري، كما في تهذيب الألفاظ لابن السكيت ١/ ١٣٥، واللسان (يسر).

(٣) وعجزه: ولست بمَقْليِّ الخلالِ ولا قالِ، والبيت لامرئ القيس، وهو في ديوانه ص٣٥. قال الشارح: الخلال: المصادقة، والمعنى: صرفت الهوى عنهن لا لأنني قليتهن ولا لأنهن قَلَيْنني، ولكن خشية الافتضاح والعار.

(٤) النكت والعيون ٦/ ٢٨٩، وأخرجه عن أبي صالح الطبري ٢٤/ ٤٧٤.

(٥) هي التي تطيح في بئر فتموت. تاج العروس (ردى).

ما أدري أين رَدَى؟ أي: أين ذهب[١].

و«ما»: يحتملُ أن تكون جَحْداً، أي: ولا يغني عنه مالُه شيئاً. ويَحتمِلُ أن تكون استفهاماً معناه التوبيخ، أي: أيُّ شيءٍ يغني عنه إذ هلك ووقع في جهنم!

﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾ أي: إنَّ علينا أن نُبَيِّن طريق الهُدَى من طريق الضلالة. فالهدى: بمعنى بيانِ الأحكام؛ قاله الزجاج[٢]. أي: على الله البيانُ، بيانُ حلالِه وحرامه، وطاعتِه ومعصيته. وقاله قتادة[٣].

وقال الفرَّاء[٤]: مَن سلك الهُدى فعَلَى الله سبيلُه؛ لقوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ [النحل:٩] يقولُ: مَن أراد الله فهو على السبيل القاصِد.

وقيل: معناه إنَّ علينا لَلهُدى والإضلالَ، فتَرَكَ الإضلالَ، كقوله: ﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ﴾ [آل عمران:٢٦] وبيده كلُّ شيءٍ. وكما قال: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ [النحل:٨١] وهي تقي البردَ؛ عن الفرَّاء أيضاً[٥].

وقيل: أي: إنَّ علينا ثوابَ هُدَاه الذي هديناه.

﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْءَاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ﴾ «لَلآخِرَةَ»: الجنة. «والأولى»: الدنيا. وكذا روى عطاءٌ عن ابن عباس، أي: الدنيا والآخرةُ لله تعالى.

وروى أبو صالح عن ابن عباس قال: ثواب الدنيا والآخرة، وهو كقوله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [النساء:١٣٤] فَمن طلبهما من غير مالِكِهما فقد أخطأ الطَّريق.

---

(١) الصحاح (ردى).

(٢) في معاني القرآن ٥/ ٣٣٦ دون قوله: فالهدى بمعنى بيان الأحكام.

(٣) أخرجه الطبري ٢٤/ ٤٧٥.

(٤) في معاني القرآن ٣/ ٢٧١.

(٥) المصدر السابق.

قوله تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ﴾ أي: حذَّرْتكُم وخوَّفتكُم ﴿نَارًا تَلَظَّىٰ﴾ أي: تَلَهَّبُ وتتوقَّد. وأصلُه: تتلظَّى؛ وهي قراءةُ عُبيد بنِ عُمير، ويحيى بنِ يعمر، وطلحةَ بنِ مصرف(١).

﴿لَا يَصْلَاهَا﴾ أي: لا يَجِدُ صَلاَها، وهو حرُّها ﴿إِلَّا الْأَشْقَى﴾ أي: الشَّقيُّ ﴿الَّذِي كَذَّبَ﴾ نبيَّ اللهِ محمداً ﷺ ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ أي: أعْرضَ عن الإيمان.

وروى مكحولٌ عن أبي هريرة قال: كلٌّ يدخُلُ الجنةَ إلَّا مَن أباها. قالوا: يا أبا هريرةَ، ومَن يأبى أن يدخلَ الجنة؟! قال: الذي كَذَّب وتَوَلَّى(٢).

وقال مالك: صلَّى بنا عمر بن عبد العزيز المغربَ، فقرأ: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ فلما بلغ ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ﴾ وقع عليه البكاءُ، فلم يَقْدِر(٣) يتعدَّاها من البكاء، فتركها وقرأ سورةً أخرى.

وقال الفرَّاء(٤): «إلَّا الأشقى»: إلَّا مَن كان شقيًّا في عِلْم اللهِ جلَّ ثناؤه.

وروى الضَّحاكُ عن ابن عباس قال: «لا يَصْلاها إلَّا الأشقَى» أميةُ بنُ خلف ونظراؤه الذين كذَّبوا محمداً ﷺ(٥). وقال قتادةُ: كذَّب بكتاب الله، وتولَّى عن طاعة الله(٦).

وقال الفرَّاء(٧): لم يكن كذَّب بردٍّ ظاهِرٍ، ولكنَّه قصَّر عمَّا أُمِر به من الطاعة،

---

(١) القراءات الشاذة ص١٧٤ .

(٢) أخرجه الطبري ٢٤/٤٧٧ .

(٣) قوله: يقدر، ليس في (ظ).

(٤) في معاني القرآن ٣/ ٢٧٢ .

(٥) ذكره الرازي ٣١/٢٠٣ .

(٦) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٢٩٠ .

(٧) في معاني القرآن ٣/ ٢٧٢ ، وذكره عنه أيضاً الطبري ٢٤/٤٧٧ .

فجُعِل تكذيباً، كما تقول: لقِي فلانٌ العدوَّ فكذَّب: إذا نَكَلَ ورجع عن اتِّباعه[١]. قال: وسمعتُ أبا ثروان[٢] يقول: إنَّ بني نُمَيْر ليس لِجدِّهم[٣] مكذوبةٌ. يقول: إذا لَقُوا صَدَقوا القتالَ، ولم يرجعوا. وكذلك قوله جلَّ ثناؤه: ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ [الواقعة: ٢] يقول: هي حقٌّ.

وسمعتُ سلم بن الحسن يقول: سمعتُ أبا إسحاقَ الزجَّاج يقول: هذه الآيةُ التي مِن أجْلِها قال أهلُ الإرْجاءِ بالإرجاء، فزَعَموا أنه لا يدخلُ النارَ إلَّا كافرٌ؛ لقوله جلَّ ثناؤه: ﴿لَا يَصْلَاهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ وليس الأمرُ كما ظنُّوا، هذه نارٌ موصوفةٌ بعينها، لا يَصْلَى هذه النارَ إلَّا الذي كذَّب وتولَّى. ولأهلِ النارِ مَنازِلُ؛ فمنها أنَّ المنافقين في الدَّرْكِ الأسفلِ من النار، واللهُ سبحانه كلُّ ما وَعَدَ عليه بجنسٍ من العذاب فجائزٌ[٤] أن يعذِّب به. وقال جلَّ ثناؤه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨] فلو كان كلُّ مَن لم يُشْرِكْ لم يعذَّب، لم يكن في قوله: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ فائدةٌ، وكان «يغفرُ ما دون ذلك» كلاماً لا معنى له[٥].

الزَّمَخْشريُّ[٦]: الآيةُ واردةٌ في الموازنة بين حالتي عظيمٍ من المشركين وعظيمٍ من المؤمنين، فأُريدَ أن يبالَغَ في صفتيهما المتناقِضَتين، فقيل: الأشقى، وجُعل

(١) قوله عن اتباعه، ليس في معاني القرآن للفراء وتفسير الطبري.

(٢) العُكْلي، وكان أعرابياً بدوياً فصيحاً، وله من الكتب: كتاب خلق الفرس، وكتاب معاني الشعر. معجم الأدباء ٧/ ١٤٨ .

(٣) اختلفت هذه الكلمة في المصادر، فوقع في بعضها: لجدهم، بالجيم كما هنا، وفي بعضها لحدهم بالحاء ينظر تهذيب اللغة ١٠/ ١٦٧ ، والصحاح وأساس البلاغة واللسان (كذب).

(٤) في (ظ): فجدير.

(٥) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٣٣٦ ، وسقط منه قوله: كلاماً لا معنى له. ولم نقف على القائل: سمعت سلم بن الحسن.

(٦) في الكشاف ٤/ ٢٦٢ .

مختصًا بالصَّلْي، كأنَّ النار لم تُخلَق إلّا له. وقيل: الأتقى، وجُعل مختصًا بالجنة، كأنَّ الجنةَ لم تُخْلَق إلّا له. وقيل: هما أبو جهلٍ أو أميةُ بن خلف، وأبو بكر ﷺ.

قوله تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ۝١٧ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ۝١٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا﴾ أي: يكون بعيداً منها. ﴿ٱلْأَتْقَى﴾ أي: التَّقيُّ الخائف. قال ابن عباس: هو أبو بكر ﷺ[(١)]، يزحْزَحُ عن دخولِ النار. ثم وصفَ الأتقى فقال: ﴿ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ﴾ أي: يطلبُ أن يكون عند الله زاكياً، ولا يطلبُ بذلك رياءً ولا سمعةً، بل يتصدَّقُ به مُبتغياً به وجهَ الله تعالى.

وقال بعضُ أهلِ المعاني: أراد بقوله: «الأتقى» و«الأشقى»، أي: التقيُّ والشقيُّ، كقول طَرَفة:

تمنَّى رجالٌ أن أموتَ وإن أمُتْ فتلك سبيلٌ لَسْتُ فيها بأوْحَدِ[(٢)]

أي: واحد ووحيد، وتوضع «أفْعَل» موضعَ فعيلٍ، نحو قولهم: الله أكبر، بمعنى: كبير، ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧] بمعنى: هين.

قوله تعالى: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ۝١٩ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٢٠ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ۝٢١﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ﴾ أي: ليس يتصدَّقُ ليُجازيَ على نعمةٍ، وإنَّما يبتغي وجهَ ربِّه الأعلى، أي: المُتعالي ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ أي: بالجزاء. فروى عطاءٌ والضحاكُ عن ابن عباس قال: عَذَّب المشركون بلالاً، وبلالٌ يقول:

---

(١) أخرجه ابن مردويه، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٦٠. قال ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/١٤٩٢ : لم يختلف أهل التأويل أن المراد بالأتقى إلى آخر السورة أبو بكر الصديق ﷺ، ثم هي تتناول كلَّ من دخل في هذه الصفات.

(٢) مجاز القرآن ٢/ ٣٠١، وتفسير الطبري ٢٤/ ٤٧٨، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٩٢، والبيت ليس في ديوان طرفة. ونسبه الأخفش في الاختيارين ص١٦١ لمالك بن القَيْن. وسلف ١٦/ ٤١٨. وهو في ديوان عبيد ابن الأبرص ص٦٨ برواية: تمنى مُرَيْءُ القيس موتي وإن أمت...

أحدٌ أحد؛ فمرَّ به النبيُّ ﷺ فقال: «أحدٌ ـ يعني الله تعالى ـ يُنجيك» ثم قال لأبي بكر: «يا أبا بكر إنَّ بلالاً يعذَّبُ في الله» فعرَفَ أبو بكر الذي يريدُ رسولُ الله ﷺ، فانصرف إلى منزله، فأخذ رطلاً من ذهب ومضى به إلى أميةَ بنِ خلف، فقال له: أتبيعُني بلالاً؟ قال: نعم، فاشتراه فأعتقه. فقال المشركون: ما أعتقه أبو بكر إلَّا لِيَدٍ كانت له عنده، فنزلت: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ﴾ أي: عند أبي بكر ﴿مِن نِّعْمَةٍ﴾ أي: من يدٍ ومِنَّة ﴿تُجْزَىٰٓ﴾ بل ابْتَغَى بما فَعَل وجْهَ ربِّه الأعلَى[1].

وقيل: اشترى أبو بكر من أمية وأبيّ بنِ خلف بلالاً ببردةٍ وعَشْرِ أَوَاقٍ، فأعتقه لله، فنزلت: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾[2].

وقال سعيد بن المسيب: بلغني أنَّ أمية بن خلف قال لأبي بكر حين قال له أبو بكر: أتبيعُنِيه؟ فقال: نعم، أبيعُه بنِسطاس، وكان نِسْطاس عبداً لأبي بكر، صاحبَ عشرةِ آلافِ دينار، وغلمان وجَوَارٍ ومَواشٍ، وكان مشركاً، فحمَله أبو بكر على الإسلام، على أن يكون له مالُه، فأبى، فباعه أبو بكر به. فقال المشركون: ما فَعل أبو بكر ببلالٍ هذا إلَّا ليدٍ كانت لبلالٍ عنده، فنزلت: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ﴾[3].

﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ﴾ أي: لكن ابتغاءَ، فهو استثناءٌ منقطِعٌ؛ فلذلك نُصبت. كقولك: ما في الدار أحدٌ إلَّا حماراً. ويجوزُ الرفع. وقرأ يحيى بن وثاب: «إلا ابتغاءُ وجهِ ربِّه» بالرفع[4]، على لغةِ مَن يقول: يجوزُ الرفعُ في المستثنى. وأنشد في اللغتين قول بشر ابنِ أبي خازم:

---

(١) أسباب النزول للواحدي ص٤٨٨ .

(٢) أخرجه الواحدي في أسباب النزول ص٤٨٦ عن ابن مسعود ﷺ، وزاد في آخره: سَعْيَ أبي بكر وأمية ابن خلف. وعزاه السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٣٥٨ لابن أبي حاتم وأبي الشيخ وابن عساكر.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٤٩٧ .

(٤) القراءات الشاذة ص١٧٤ ، والكشاف ٤/ ٢٦٢ والكلام منه.

أضحتْ خَلاءً قِفاراً لا أنيسَ بها إلَّا الجآذرَ والظلمانَ تختلفُ[(١)]

وقول القائل:

وبلدةٍ ليس بها أنيسُ إلَّا اليعافيرُ وإلَّا العيسُ[(٢)]

وفي التنزيل: ﴿مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ [النساء:٦٦] وقد تقدَّم.

﴿وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ أي: مَرْضاته وما يقرِّب منه. و«الأعلى» من نَعْتِ الربِّ الذي استَحَقَّ صفاتِ العُلُو.

ويجوزُ أن يكون «ابتغاءَ وجهِ ربِّه» مفعولاً له على المعنى؛ لأنَّ معنى الكلام: لا يؤتي مالَه إلَّا ابتغاءَ وجهِ ربِّه، لا لمكافأةِ نِعَمِه[(٣)].

﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ أي: سوف يُعْطيهِ في الجنة ما يَرْضى؛ وذلك أنَّه يعطيه أضعافَ ما أنفق. وروى أبو حَيّان التيميُّ عن أبيه عن عليٍّ ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «رَحِم الله أبا بكر! زوَّجني ابنتَه، وحملني إلى دار الهجرة، وأعتق بلالاً من ماله»[(٤)].

ولمَّا اشتراه أبو بكر قال له بلال: هل اشتريتَني لعَمَلك أو لعملِ الله؟ قال: بل لعملِ الله. قال: فذَرْني وعَمَلَ اللهِ، فأعتقه[(٥)].

---

(١) ديوان بشر ص١٥٨، والكشاف ٤/ ٢٦٢، ووقع في الديوان: الجوازئ، بدل: الجآذر، والجآذر جمع جُؤذُر ـ وتفتح الذال ـ وهو ولد البقر الوحشي. والجوازئ: الوحش. والظلمان جمع ظليم، وهو الذكر من النَّعام. القاموس (جذر) و(جزأ) و(ظلم).

(٢) البيت لِجِرَان العَوْدِ النُّميري، وهو في ديوانه ص٩٧، والكتاب ٢/ ٣٢٢، والكشاف ٤/ ٢٦٢، وسلف ٦/٧.

(٣) الكشاف ٤/ ٢٦٢.

(٤) قطعة من حديث أخرجه الترمذي (٣٧١٤)، والعقيلي في الضعفاء ٤/ ٢١٠، وابن عدي ٦/ ٢٤٣٧، وابن الجوزي في العلل المتناهية (٤١٠) من طريق المختار بن نافع عن أبي حيان التيمي به. قال الترمذي: حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، والمختار بن نافع شيخ بصري كثير الغرائب. وقال ابن الجوزي: هذا الحديث يعرف بمختار، قال البخاري: هو منكر الحديث. وقال ابن حبان: كان يأتي بالمناكير عن المشاهير حتى يسبق إلى القلب أنه كان المتعمد لذلك.

(٥) أخرجه البخاري (٣٧٥٥) بلفظ: إن كنتَ إنما اشتريتني لنفسك فأمسكني، وإن كنت إنما اشتريتني لله فدعني وعَمَلَ الله. وذكر الحافظ في الفتح ٧/ ٩٩ أن قوله ذلك لأبي بكر كان في خلافة أبي بكر، =

وكان عمر بن الخطاب ﷺ يقول: أبو بكرٍ سيدُنا وأعْتقَ سيدّنا. يعني بلالاً ﷺ[(١)].

وقال عطاء ـ وروي عن ابن عباس ـ: إنَّ السورة نزلت في أبي الدَّحْداح، في النخلة التي اشتراها بحائطٍ له، فيما ذَكَر الثعلبيُّ عن عطاء ـ وقال القشيريُّ عن ابن عباس: بأربعين نخلةً، ولم يسمِّ الرجل[(٢)] ـ قال عطاء: كان لرجلٍ من الأنصار نخلةٌ يسقطُ مِن بَلَحِها في دارِ جارٍ له، فيتناولُهُ صبيانُه، فشكا ذلك إلى النبيِّ ﷺ، فقال النبيُّ ﷺ: «تبيعُها بنخلةٍ في الجنة؟» فأبَى، فخرج فلَقِيه أبو الدَّحداحِ فقال: هل لك أن تَبيعَنِيْها بـ«حُسْنَى» ـ حائطٍ له ـ فقال: هي لك. فأتى أبو الدَّحداحِ إلى النبيِّ ﷺ وقال يا رسول الله، اشْتَرِها منِّي بنخلةٍ في الجنة. قال: «نعم، والذي نفسي بيده» فقال: هي لك يا رسول الله. فدعا النبيُّ ﷺ جارَ الأنصاريِّ، فقال: «خُذْها» فنزلت: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾ إلى آخِرِ السورة في بستان أبي الدَّحْداحِ وصاحبِ النخلة. ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ﴾ يعني أبا الدَّحداح ﴿وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ أي: بالثواب ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ﴾ يعني: الجنة. ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ﴾ يعني الأنصاريَّ ﴿وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ أي: بالثواب ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ﴾ يعني: جهنم ﴿وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾ أي: مات. إلى قوله: ﴿لَا يَصۡلَىٰهَآ إِلَّا ٱلۡأَشۡقَى﴾ يعني: بذلك الخَزْرجيَّ؛ وكان منافقاً، فمات على نفاقه. ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلۡأَتۡقَى﴾ يعني: أبا الدحداح ﴿ٱلَّذِي يُؤۡتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ﴾ في ثمنِ تلك النخلةِ ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ﴾ يكافئُه عليها، يعني أبا الدَّحداح. ﴿وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ﴾ إذا أدْخَلَه الله الجنة[(٣)].

والأكثرُ أنَّ السورةَ نزلتْ في أبي بكرٍ ﷺ. ورُوي ذلك عن ابنِ مسعودٍ وابنِ عباسٍ وعبدِ الله بنِ الزبير وغيرِهم[(٤)]. وقد ذَكَرْنا خبراً آخرَ لأبي الدَّحْداحِ في سورة البقرة، عند قوله: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا﴾ [الآية:٢٤٥] والله تعالى أعلم.

= بدليل الرواية الأخرى: قال بلال لأبي بكر حين توفي رسول الله ﷺ، أخرجها ابن سعد ٣/ ٢٣٨ .

(١) أخرجه البخاري (٣٧٥٤).

(٢) أخرجه عن ابن عباس مطولاً الواحدي في الوسيط ٤/ ٥٠٢ ، وابن أبي حاتم، كما ذكر ابن كثير عند تفسير هذه الآية، والسيوطي في الدر المنثور ٦/ ٣٥٧ وضعفه، وقال ابن كثير: وهو حديث غريب جداً.

(٣) ذكره البغوي ٤/ ٤٩٥ إلى قوله: ﴿وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾.

(٤) أخرجه عن عبد الله بن الزبير ﷺ الطبري ٢٤/ ٤٧٩ ، وسلف قول ابن عباس وابن مسعود ﷺ.

سورة «الضُّحَى»

مكيةٌ باتِّفاق، وهي إحدى عَشْرَةَ آيةً

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ قد تقدَّم القولُ في «الضحى»[1]، والمرادُ به النهارُ؛ لقوله: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ فقابلَه بالليل، وفي سورة الأعراف: ﴿أَفَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا بَيَٰتٗا وَهُمۡ نَآئِمُونَ . أَوَ أَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا ضُحٗى وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ﴾ [الآيتان: ٩٧-٩٨] أي: نهاراً.

وقال قتادةُ ومقاتلٌ وجعفرُ الصادقُ: أقْسَم بالضُّحى الذي كلَّم الله فيه موسى، وبليلة المِعراج.

وقيل: هي الساعةُ التي خرَّ فيها السَّحَرةُ سجَّداً، بيانُه قولُه تعالى: ﴿وَأَن يُحۡشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحٗى﴾ [طه: ٥٩].

وقال أهلُ المعاني فيه وفي أمثاله[2]: فيه إضمارٌ، مَجازُه: وربِّ الضُّحى.

و«سَجَا» معناه: سَكَن؛ قاله قتادةُ ومجاهدٌ وابنُ زيدٍ وعكرمةُ[3]. يقال: ليلةٌ ساجيةٌ، أي: ساكنةٌ. ويقال للعَيْنِ إذا سَكَن طَرْفُها: ساجية. يقال: سجا الليلُ[4] يَسْجو سَجْواً: إذا سَكَن. والبحرُ إذا سجا: سَكَن؛ قال الأعشى:

---

(١) عند تفسير الآية (٥٩) من سورة طه، والآية الأولى من سورة الشمس.

(٢) في النسخ الخطية: إقباله، والمثبت من (م) واللباب ٢٠/ ٣٨٠ .

(٣) تفسير الطبري ٢٤/ ٤٨٣ ، وتفسير الرازي ٣١/ ٢٠٨ .

(٤) في (ظ) و(ي): الشيء.

فما ذَنْبُنا أن جاش بحرُ ابنِ عمّكم ... وبحرُكَ ساجٍ ما يواري الدَّعَامِصا[١]

وقال الراجز:

يا حَبَّذَا القَمْراءُ والليلُ السَّاجْ ... وطُرُقٌ مِثلُ مُلَاءِ النَّسَّاجْ[٢]

وقال جرير:

ولقد رمينَكَ يومَ رُحْنَ بأعينٍ ... ينظُرنَ من خَلَلِ السُّتورِ سَوَاجي[٣]

وقال الضحَّاك: «سجا»: غطَّى كلَّ شيء[٤]. قال الأصمعيُّ: سَجْوُ الليل: تَغْطِيتُه النهارَ، مثلما يُسَجَّى الرجلُ بالثوب[٥].

وقال الحسن: غَشِيَ بظلامه. وقاله ابن عباس. وعنه: إذا ذهب. وعنه أيضاً: إذا أظْلَمَ. وقال سعيد بن جبير: أَقْبَلَ. ورُوي عن قتادةَ أيضاً. ورَوَى ابن أبي نجيحٍ عن مجاهد: «سجا»: استوى[٦].

والقولُ الأوّل أَشْهرُ في اللغة: «سجا»: سَكَن، أي: سَكَن الناسُ فيه. كما يقال: نهارٌ صائمٌ، وليلٌ قائمٌ. وقيل: سكونُه: استقرارُ ظَلامِه واستواؤُه.

ويقال: «والضحى. والليل إذا سَجَا»: يعني عبادَه الذين يعبدونه في وقت الضحى، وعبادَه الذين يعبدونه بالليل إذا أظْلَمَ.

---

(١) ديوان الأعشى ص٢٠١، وتفسير الطبري ٢٤/ ٤٨٣، والصحاح (سجا). ووقع في الديوان: أتوعدني أن جاش بحر...، والدعامص: جمع دُعْموص: دودة سوداء تكون في الغدران إذا قل ماؤها. معجم متن اللغة (دعمص).

(٢) العين ٦/ ١٦١، ومجاز القرآن ٢/ ٣٠٢، والكامل للمبرد ١/ ٣٧١، وتفسير الطبري ٢٤/ ٤٨٤، ومعاني القرآن للزجاج ٥/ ٣٣٩، وتهذيب اللغة ١١/ ١٤٠، وأساس البلاغة (سجو).

(٣) ديوان جرير ١/ ١٣٧. قال الشارح: خلل الستور: الفُرَجُ التي بينها. السواجي: الفواتر، وواحدها: ساجية. وفي العين ٦/ ١٦١: عين ساجية، أي: فاترة النظر، يعتري الحسن في النساء.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٤٩٨.

(٥) تهذيب اللغة ١١/ ١٤١.

(٦) تنظر هذه الأقوال في تفسير الطبري ٢٤/ ٤٨٢، والنكت والعيون ٦/ ٢٩١، وتفسير الرازي ٣١/ ٢٠٨.

ويقال: «الضحى»: يعني نور الجنةِ إذا تنوَّر. «والليل إذا سجا»: يعني ظُلمة الليلِ إذا أظْلَم.

ويقال: «والضحى»: يعني النور الذي في قلوب العارِفين كهيئة النهار. «والليلِ إذا سجا»: يعني السواد الذي في قلوب الكافرين كهيئة الليل؛ فأَقْسَمَ الله عزَّ وجلَّ بهذه الأشياء.

﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾: هذا جوابُ القسم. وكان جبريلُ عليه السلام أبطأ على النبيِّ ﷺ، فقال المشركون: قَلَاه الله وودَّعه، فنزلت الآية. وقال ابن جريج: احْتَبَس عنه الوحيُ اثني عَشَرَ يوماً. وقال ابن عباس: خمسةَ عَشَرَ يوماً. وقيل: خمسةً وعشرين يوماً. وقال مقاتل: أربعين يوماً[1]. فقال المشركون: إنَّ محمداً ودَّعه ربُّه وقَلاه، ولو كان أمرُه من الله لتابَعَ عليه، كما كان يفعل بمَن كان قَبْلَه من الأنبياء.

وفي البخاريِّ عن جُنْدُب بن سفيان قال: اشْتَكَى رسولُ اللهِ ﷺ، فلَمْ يَقُمْ ليلتين أو ثلاثاً، فجاءتِ امرأةٌ فقالت: يا محمدُ، إنِّي لأرجو أنْ يكونَ شيطانُك قد تَرَكَك، لمْ أرَه قَرِبَك منذ ليلتين أو ثلاثٍ، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَالضُّحَىٰ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾[2].

وفي الترمذيِّ عن جُنْدُب البَجَليِّ قال: كنتُ مع النبيِّ ﷺ في غارٍ فدَمِيتْ إصبعُه، فقال النبيُّ ﷺ: «هَلْ أنْتِ إلاَّ إصْبَعٌ دَمِيتِ، وفي سَبيلِ الله مَا لَقِيتِ»! قال: وأبطأ عليه جبريلُ فقال المشركون: قد وُدِّعَ محمدٌ، فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا

---

(١) ذكر هذه الأقوال البغوي ٤/ ٤٩٨ ، والرازي ٣١/ ٢١١ ، وسلفت عند تفسير الآية (٦٤) من سورة مريم.

(٢) صحيح البخاري (٤٩٥٠)، وهو عند أحمد (١٨٨٠١)، ومسلم (١٧٩٧): (١١٥). وجندب بن سفيان هو جندب بن عبد الله بن سفيان البَجَلي، ومَن قال: ابن سفيان، نسَبه إلى جدِّه، سكن الكوفة، ثم البصرة، قَدِمها مع مصعب بن الزبير، وروى عنه أهل المصرين. الإصابة ٢/ ١٠٤ .

﴿قَلَىٰ﴾. هذا حديثٌ حسنٌ صحيح[1]. لم يذكر الترمذيُّ: «فلم يَقُم ليلتين أو ثلاثاً»، أسْقَطه الترمذيُّ، وذكره البخاريُّ، وهو أصحُّ ما قيل في ذلك. والله أعلم.

وقد ذكره الثعلبيُّ أيضاً عن جندب بن سفيان البَجَليِّ، قال: رُميَ النبيُّ ﷺ في إصبعه بحجرٍ، فدَمِيَتْ، فقال: «هل أنتِ إلاَّ إصْبَعٌ دَمِيْتِ، وفي سبيل اللهِ ما لَقِيْتِ» فمكث ليلتين أو ثلاثاً لا يقومُ الليل. فقالت له أمُّ جميلٍ امرأةُ أبي لهبٍ: ما أرى شيطانَك إلا قد تَرَكك، لم أرَه قَرِبَكَ منذ ليلتين أو ثلاثٍ، فنزلت «والضُّحى».

وروى عن أبي عمران الجَوْنيِّ قال: أبطأ جبريلُ على النبيِّ ﷺ حتى شَقَّ عليه، فجاءَه وهو واضعٌ جبهتَه على الكعبة يدعو، فنَكَتَ بين كَتِفيه، وأنزل عليه: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾.

وقالت خولةُ ـ وكانت تخدُم النبيَّ ﷺ ـ: إنَّ جَرْواً دخل البيتَ، فدخل تحت السَّريرِ، فمات، فمكَثَ نبيُّ الله ﷺ أياماً لا ينزل عليه الوحيُ. فقال: «يا خولةُ، ما حَدَث في بيتي؟ جبريلُ لا يأتيني»! قالت خولة: فقلتُ: لو هيّأتُ البيتَ وكنستُه، فأهْوَيْتُ بالمِكْنسةِ تحت السريرِ، فإذا جَرْوٌ ميتٌ، فأخذتُه فألقيتُه خلفَ الجدارِ، فجاء نبيُّ الله تَرْعدُ لحياه ـ وكان إذا نزل عليه الوحيُ استقبلته الرِّعدةُ ـ فقال: «يا خولةُ دثِّريني» فأنزل الله هذه السورة[2].

---

(١) سنن الترمذي (٣٣٤٥)، وأخرجه مسلم مقطَّعاً (١٧٩٦): (١١٣) و(١٧٩٧): (١١٤). وأخرجه دون قوله: وأبطأ عليه جبريل...، أحمد (١٨٧٩٧)، والبخاري (٢٨٠٢)، ومسلم (١٧٩٧): (١١٢)، وفيه: دَميتْ إصبع رسول الله ﷺ في بعض المشاهد فقال: «هل أنت...». قال القاضي عياض: قد يراد بالغار الجيش والجمع، لا واحد الغيران التي هي الكهوف، فيوافق قوله: في بعض المشاهد. إكمال المعلم ٦/ ١٧٠ .

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير ٢٤/ (٦٣٦)، والواحدي في أسباب النزول ص٤٩٠ وعنه نقل المصنف. قال الحافظ في الفتح ٨/ ٧١٠ : وجدت في الطبراني بإسناد فيه مَن لا يعرف أن سبب نزولها وجود جرو كلب تحت سريره لم يشعر به النبي ﷺ، وقصة إبطاء جبريل بسبب كون الكلب تحت سريره مشهورة، لكن كونها سبب نزول هذه الآية غريب، بل شاذ مردود بما في الصحيح. اهـ. وقصة إبطاء جبريل بسبب كون الكلب تحت سرير النبي ﷺ أخرجها أحمد (٢٥١٠٠)، ومسلم (٢١٠٤) من حديث عائشة رضي الله عنها. وأخرجها البخاري (٥٩٦٠) مختصرة من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

ولمَّا نزل جبريل، سأله النبيُّ ﷺ عن التأخُّر فقال: «أمَا عَلِمْتَ أنَّا لا ندخلُ بيتاً فيه كلبٌ ولا صُورة»[١].

وقيل: لـمَّا سألته اليهودُ عن الروح وذي القرنين وأصحابِ الكهفِ قال: «سأُخبِرُكم غداً» ولم يقل: إنْ شاء الله. فاحتَبَس عنه الوحي، إلى أن نزل جبريل عليه بقوله: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الكهف: ٢٣] فأخبره بما سُئل عنه. وفي هذه القصة نزلت: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾[٢].

وقيل: إنَّ المسلمين قالوا: يا رسول الله، مالَكَ لا ينزلُ عليك الوحي؟ فقال: «وكيف ينزلُ عليَّ وأنتم لا تُنقُّونَ رَوَاجِبَكم ـ وفي روايةٍ بَراجِمَكم ـ ولا تَقصُّون أظفارَكم، ولا تأخذون من شَوارِبِكم». فنزل جبريلُ بهذه السورة، فقال النبيُّ ﷺ: «ما جِئْتَ حتى اشْتَقْتُ إليك» فقال جبريلُ: «وأنا كنتُ أشدَّ إليك شوقاً، ولكنِّي عبدٌ مأمور» ثم أنزل عليه: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ [مريم: ٦٤][٣].

«ودَّعك» بالتشديد قراءةُ العامة، من التوديع، وذلك كتوديع المُفارِق. وروي عن ابن عباسٍ وابن الزبير أنهما قرأاه: «وَدَعك» بالتخفيف[٤]، ومعناه: تَركَك. قال:

وثـم وَدَعْـنا آلَ عَـمْـرو وعـامـرٍ فَرائسَ أطرافِ المثقَّفةِ السُّمْرِ[٥]

واستعمالُه قليل. يقال: هو يَدَعُ كذا، أي: يتركُه. قال المبرِّد محمد بنُ يزيد: لا يكادون يقولون: وَدَعَ، ولا وَذَرَ؛ لضَعْفِ الواوِ إذا قدِّمَتْ، واستَغْنَوا عنها بتَرَكَ[٦].

---

(١) قطعة من حديث عائشة وابن عمر ـ ﷺ ـ وقد سلف تخريجهما في التعليق السابق.

(٢) ذكره بنحوه الواحدي في الوسيط ٤/ ٥٠٨، والبغوي ٤/ ٤٩٧-٤٩٨، وينظر ما سلف عند تفسير الآية (٦٤) من سورة مريم.

(٣) أخرجه أحمد (٢١٨١) إلى قوله: «شواربكم» من حديث ابن عباس ﷺ، وإسناده ضعيف. وسلف باقي الخبر بنحوه عن مجاهد ١٣/ ٤٨١. قال الجوهري في الصحاح (رجب): الراجبة في الإصبع واحدة الرواجب، وهي مفاصل الأصابع اللاتي تلي الأنامل، ثم البراجم، ثم الأشاجع اللاتي يلين الكف.

(٤) القراءات الشاذة ص١٧٥، والمحتسب ٢/ ٣٦٤.

(٥) الكشاف ٤/ ٢٦٣، وذكره الحافظ في الفتح برواية: ونحن ودعنا...

(٦) سلف نحوه عن سيبويه ٨/ ٥٠٣.

قوله تعالى: ﴿وَمَا قَلَىٰ﴾ أي: ما أبْغضَكَ ربُّك منذ أحبَّك. وترك الكاف لأنه رأسُ آية. والقِلَى: البغضُ، فإنْ فتَحْتَ القافَ مَدَدْتَ؛ تقول: قَلاَه يَقْلِيه قِلًى وقَلاَءً. كما تقول: قَرَيْتُ الضعيفَ أَقْرِيه قِرًى وقَرَاءً. ويَقْلاَه لغةُ طيِّئ؛ وأنشد ثعلب:

أيامَ أمِّ الغَمْرِ لا نَقْلاها[1]

أي: لا نُبغضُها. ونَقْلَى، أي: نُبغض، وقال:

أسِيئي بنا أو أحْسِني لا ملومةٌ لدينا ولا مَقْلِيَّةٌ إنْ تَقَلَّتِ[2]

وقال امرؤ القيس:

ولستُ بمَقْليِّ الخِلالِ ولا قالِ[3]

وتأويلُ الآية: ما ودَّعك ربُّك وما قَلاك، فترك الكاف لأنَّه رأسُ آية، كما قال عزَّ وجلّ: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥] أي: والذَّاكِرَاتِ اللهَ.

قوله تعالى: ﴿وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥﴾

روى سَلمةُ عن ابن إسحاق قال: ﴿وَلَلآخِرة خير لكَ مِنَ الأولى﴾ أي: ما عندي في مَرْجِعِكَ إليَّ يا محمدُ، خيرٌ لك مما عَجَّلْتُ لك من الكرامةِ في الدنيا[4]. وقال ابن عباس: أُرِيَ النبيُّ ﷺ ما يَفْتَحُ الله على أمَّته بَعْدَه، فسُرَّ بذلك، فنزل جبريلُ بقوله: ﴿وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ . وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾[5]. قال ابن إسحاق:

---

(١) الصحاح (قلا)، ووقع في النسخ: يا رب، بدل: أيام، والمثبت من الصحاح، واللسان (قلا)، وفيه بعده: ولو تشاء قَبَّلتْ عيناها.

(٢) سلف ١٠/ ٢٣٦.

(٣) وصدره: صرفتُ الهوى عنهنَّ من خشية الردى، والبيت في ديوان امرئ القيس ص٣٥، وسلف ص٣٢٧ من هذا الجزء.

(٤) سيرة ابن هشام ١/ ٢٤١.

(٥) أخرجه الطبري ٢٤/ ٤٨٨.

الفَلْجُ[١] في الدنيا، والثوابُ في الآخرة. وقيل: الحوضُ والشفاعةُ.

وعن ابن عباس: ألفُ قَصْرٍ من لؤلؤٍ أبيضَ ترابُه المِسْكُ[٢]. رَفَعه الأوزاعيُّ، قال: حدَّثني إسماعيلُ بنُ عبيدِ الله، عن علي بن عبد الله بن عباس، عن أبيه قال: أُرِيَ النبيُّ ﷺ ما هو مفتوحٌ على أمَّتِه، فسُرَّ بذلك، فأنزل الله عزَّ وجلّ: «والضحى ـ إلى قوله تعالى ـ ولَسَوفَ يُعطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى»، فأعطاه الله جلَّ ثناؤه ألفَ قصرٍ في الجنة، ترابُها المِسْكُ، في كلِّ قصرٍ ما ينبغي له من الأزواج والخدم[٣].

وعنه قال: رِضا محمدٍ ألَّا يدخلَ أحدٌ من أهلِ بيتِهِ النارَ. وقاله السُّدِّي[٤].

وقيل: هي الشفاعةُ في جميع المؤمنين. وعن عليٍّ ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «يشفِّعُني الله في أُمَّتي، حتى يقولَ الله سبحانه لي: أرَضيتَ يا محمد؟ فأقول: يا ربِّ رضيتُ»[٥].

وفي «صحيح» مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص: أنَّ النبيَّ ﷺ تلا قولَ الله تعالى في إبراهيم: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم:٣٦] وقولَ عيسى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ [المائدة:١١٨]، فرفع يديه وقال: «اللهمَّ أمَّتي أمَّتي» وبكى. فقال الله تعالى لجبريل: «اذهبْ إلى محمدٍ ـ وربُّك أعْلَم ـ فسَلْه ما يُبْكيكَ» فأتَى جبريلُ النبيَّ ﷺ، فسأله فأخبره. فقال الله تعالى لجبريل: «اذهبْ إلى

---

(١) في (د) و(ي): الفلح، وفي (ظ): الفتح، والمثبت من (م) وسيرة ابن هشام ١/ ٢٤١ . والفَلْجُ ـ بالجيم ـ بوزن الفَلْس: الظَّفَر والفوز. والفَلَح ـ بالحاء ـ محركةً: الفوز والنجاة. القاموس (فلج) و(فلح).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة ١٣/ ١٠٤ ، والطبري ٤/ ٤٨٨ .

(٣) أخرجه الطبري ٢٤/ ٤٨٨ ، والطبراني في الكبير (١٠٦٥٠)، والحاكم ٢/ ٥٥٦ ، والواحدي في أسباب النزول ص٤٩٠ . قال ابن كثير عن تفسير هذه الآية: وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس، ومثل هذا لا يقال إلا عن توقيف.

(٤) أخرجه الطبري ٢٤/ ٤٨٨ من طريق السدي عن ابن عباس رضي الله عنهما. وأخرجه البيهقي في الشعب (١٤٤٥) من طريق سعيد بن جبير عنه بلفظ: رضاه أن يدخل أمته كلهم الجنة.

(٥) أخرجه البزار في المسند (٦٣٨)، وأبو نعيم في الحلية ٣/ ١٧٩ ، وعزاه السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٣٦١ لابن المنذر وابن مردويه.

محمدٍ، فقُل له: إنَّ الله يقولُ لك: إنَّا سنُرْضِيْكَ في أمَّتك ولا نَسُوءُك»(١).

وقال عليٌّ ﷺ(٢) لأهل العراق: إنَّكم تقولون: إنَّ أَرْجَى آيةٍ في كتاب الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ﴾ [الزمر:٥٣] قالوا: إنَّا نقولُ ذلك. قال: ولكنَّا أهلَ البيت نقولُ: إنَّ أرْجَى آيةٍ في كتاب الله قولُه تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾.

وفي الحديث: لمَّا نزلت هذه الآيةُ قال النبيُّ ﷺ: «إذاً واللهِ لا أرضَى وواحدٌ من أمتي في النار»(٣).

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦﴾

عدَّد سبحانه مِنَنَه على نبيِّه محمدٍ ﷺ فقال: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا﴾ لا أبَ لك، قد مات أبوك، ﴿فَـَٔاوَىٰ﴾ أي: جعل لك مأوًى تأوي إليه عند عمِّك أبي طالب، فكَفِلَك. وقيل لجعفر بن محمد الصَّادقِ: لمَ أُوتِمَ النبيُّ ﷺ من أبويه؟ فقال: لئلا يكون لمخلوقٍ عليه حقٌّ(٤).

وعن مجاهد: هو مِن قول العرب: درَّةٌ يتيمة؛ إذا لم يكن لها مِثْل(٥). فَمَجازُ الآيةِ: أَلَم يجدك واحداً في شَرَفكَ لا نظيرَ لك، فآواك الله بأصحابٍ يحفظونك ويَحُوطونك.

قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧﴾

أي: غافلاً عمَّا يرادُ بك من أمرِ النبوَّة، فهداك، أي: أَرْشَدَك. والضلالُ هنا

---

(١) صحيح مسلم (٢٠٢)، وسلف ٨/ ٣٠٦.

(٢) كذا في النسخ، والصواب أنه أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين، كما في الحلية ٣/ ١٧٩، والوسيط ٤/ ٥١٠، وتفسير البغوي ٤/ ٤٩٨، والدر المنثور ٦/ ٣٦١ عن ابن المنذر وابن مردويه.

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٤٩٤، وتفسير الرازي ٣١/ ٢١٣.

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ٤٩٤.

(٥) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٢٩٣ دون نسبة.

بمعنى الغَفْلةِ، كقوله جلَّ ثناؤه: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢] أي: لا يَغْفَلُ. وقال في حقِّ نبيِّه: ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [يوسف: ٣].

وقال قوم: «ضالًّا»: لم تكنْ تدري القرآنَ والشرائعَ، فهداك الله إلى القرآن، وشرائعِ الإسلام؛ عن الضَّحَّاك وشهر بنِ حوشب وغيرِهما. وهو معنى قولِه تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ [الشورى: ٥٢][(١)]، على ما بيَّنا في سورة الشورى.

وقال قوم: «ووجدك ضالًّا» أي: في قومٍ ضُلَّالٍ، فهداهم الله بك. هذا قولُ الكلبيّ والفرَّاء[(٢)]. وعن السُّدِّيِّ نحوُه، أي: ووجد قومك في ضلالٍ، فهداك إلى إرشادهم. وقيل: «ووجدك ضالًّا» عن الهجرة، فهداك إليها[(٣)].

وقيل: «ضالًّا» أي: ناسياً شأنَ الاستثناءِ حين سُئلْتَ عن أصحاب الكهفِ وذي القرنين والروح، فأذْكَرَكَ، كما قال تعالى: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا﴾ [البقرة: ٢٨٢].

وقيل: ووجَدَكَ طالباً للقِبْلةِ فهداك إليها، بيانُه: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ الآية [البقرة: ١٤٤]. ويكون الضَّلالُ بمعنى الطَّلبِ؛ لأنَّ الضَّالَّ طالبٌ.

وقيل: ووجدك متحيِّراً عن بيانِ ما نزل عليك، فهداك إليه، ويكونُ الضلالُ بمعنى التحيُّرِ؛ لأنَّ الضالَّ مُتحيِّرٌ.

وقيل: ووجدك ضائعاً في قومك، فهداك إليه، ويكون الضلالُ بمعنى الضَّيَاعِ.

وقيل: ووجدك مُحِبّاً للهداية، فهداك إليها، ويكون الضلالُ بمعنى المحبة، ومنه قولُه تعالى: ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾ [يوسف: ٩٥] أي: في مَحبَّتِك[(٤)]. قال الشاعر:

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٣٣٩-٣٤٠ دون نسبة، وذكره بنحوه البغوي ٤/ ٤٩٩، والرازي ٣١/ ٢١٦-٢١٧ عن ابن عباس والحسن والضحاك وشهر بن حوشب وابن كيسان.

(٢) بنحوه في معاني القرآن ٣/ ٢٧٤.

(٣) النكت والعيون ٦/ ٢٩٤.

(٤) ذكر هذه الأقوال الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٢٩٤.

هذا الضَّلالُ أشابَ منّي المَفْرِقا ... والعارِضَيْنِ ولم أكُنْ مُتحقِّقا
عَجباً لعَزَّةَ في اختيار قطيعتي ... بعد الضلالِ فحَبْلُها قد أخلقا[(١)]

وقيل: «ضالًّا» في شِعابِ مكةَ، فهداك: ردَّك[(٢)] إلى جدِّك عبدِ المطَّلب؛ قال ابن عباس: ضلَّ النبيُّ ﷺ وهو صغيرٌ في شعابِ مكةَ، فرآه أبو جهل مُنْصَرِفاً عن أغنامه، فردَّه إلى جدِّه عبدِ المطلب[(٣)]. فمنَّ الله عليه بذلك، حين ردَّه إلى جدِّه على يدي عدوِّه.

وقال سعيد بن جبير: خرج النبيُّ ﷺ مع عمِّه أبي طالب في سفر، فأخذ إبليسُ بزمامِ الناقةِ في ليلةٍ ظَلماءَ، فعَدَلَ بها عن الطريق، فجاء جبريلُ عليه السلام فنَفَخَ إبليسَ نفخةً وقع منها إلى أرض الهند، وردَّه إلى القافلة؛ فمنَّ الله عليه بذلك[(٤)].

وقال كعب: إنَّ حَليمةَ لمَّا قَضَتْ حقَّ الرضاعِ، جاءت برسول الله ﷺ لتردَّه على عبد المطلب، فسَمِعَتْ عند بابِ مكةَ: هنيئاً لكِ يا بَطْحاءَ مكةَ، اليومَ يُردُّ إليك النورُ والدِّينُ والبهاءُ والجمال. قالت: فوضعتُه لأصلِح ثيابي، فسمعتُ هدَّةً شديدةً، فالتفتُّ فلمْ أرَه، فقلت: مَعْشَرَ الناسِ، أين الصبيُّ؟ فقالوا: لمْ نَرَ شيئاً، فصِحْتُ: وا محمداه! فإذا شيخٌ فانٍ يتوكَّأُ على عصاه، فقال: اذهبي إلى الصنم الأعظم، فإنْ شاء أنْ يردَّه عليك فَعَلَ. ثم طاف الشيخ بالصنم، وقبَّل رأسَه وقال: يا رب، لم تَزَلْ منَّتُكَ على قريش، وهذه السعدِيةُ تزعم أنَّ ابنها قد ضلَّ، فرُدَّه إن شئت. فانْكَبَّ هُبَلُ على وجهه، وتَساقَطَتِ الأصنام، وقالت: إليكَ عنَّا أيها الشيخ، فهلاكُنا على يَدَيْ محمدٍ. فألقى الشيخ عصاه، وارْتَعَدَ وقال: إنَّ لابنِكِ ربًّا لا يضيعُه، فاطلُبيه على مَهَل.

---

(١) النكت والعيون ٦/ ٢٩٤ .

(٢) في (م): وردك.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٤٩٩ .

(٤) ذكره البغوي ٤/ ٤٩٩ وابن الجوزي ٩/ ١٥٩ عن سعيد بن المسيب، وفيهما: أرض الحبشة، بدل: أرض الهند.

فانحشرت قريش إلى عبد المطلب، وطلبوه في جميع مكة، فلم يَجدِوه. فطاف عبد المطلب بالكعبة سبعاً، وتَضَرَّع إلى الله أن يردَّه، وقال:

يا ربِّ رُدَّ ولدي محمدا ارْدُدْه ربِّي واتَّخِذْ عندي يدا
يا ربِّ إنْ محمدٌ لم يُوجَدا فشَمْلُ قومي كلِّهم تبدَّدا

فسمعوا منادياً ينادي من السماء: معاشِرَ الناس لا تَضِجُّوا، فإنَّ لمحمدٍ ربًّا لا يخذلُه ولا يضيعُه، وإنَّ محمداً بوادي تِهامةَ، عند شجرة السَّمُر. فسار عبد المطلب هو وورقة بنُ نوفل، فإذا النبيُّ ﷺ قائمٌ تحت شجرةٍ يلعبُ بالأغصان وبالورق[(١)].

وقيل: «ووجدك ضالًّا» ليلةَ المِعراج، حين انصرف عنك جبريلُ وأنت لا تعرفُ الطريقَ، فهداك إلى ساقِ العرش.

وقال أبو بكر الورَّاقُ وغيرُه: «ووجدك ضالًّا»: تحبُّ أبا طالبٍ، فهداك إلى محبَّة ربِّك.

وقال بسام بن عبد الله: «ووجدك ضالًّا» نَفْسَك[(٢)] لا تدري من أنت، فعرَّفك بنفسِك وحالك.

وقال الجنيد: ووجدك متحيِّراً في بيان الكتاب، فعلَّمك البيانَ، بيانُه: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ الآية [النحل: ٤٤]. ﴿لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُواْ فِيهِۙ﴾ [النحل: ٦٤].

وقال بعض المتكلِّمين: إذا وَجَدتِ العربُ شجرةً منفردةً في فلاةٍ من الأرض، لا شجرَ معها، سمَّوْها ضالَّة، فيهتدَى بها إلى الطريق، فقال الله تعالى لنبيِّه ﷺ: «ووجدك ضالًّا» أي: لا أحدَ على دينك، وأنت وحيدٌ ليس معك أحدٌ، فَهدَيتُ بك الخَلْقَ إليّ[(٣)].

---

(١) أخرجه مطولاً ابن عساكر في تاريخه ٣/ ٤٧٤-٤٧٨ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) في النسخ عدا (ظ): بنفسك، والمثبت من (ظ) وتفسير البغوي ٤/ ٤٩٩.

(٣) تفسير الرازي ٣١/ ٢١٧، قال الرازي: ونظيره قوله عليه السلام: «الحكمة ضالَّة المؤمن».

قلت: هذه الأقوالُ كلُّها حِسانٌ، ثم منها ما هو معنويٌّ، ومنها ما هو حِسِّيٌّ. والقولُ الأخيرُ أعْجبُ إليَّ؛ لأنه يجمع الأقوالَ المعنوية.

وقال قومٌ: إنَّه كان على جملةِ ما كان القوم عليه، لا يُظهِرُ لهم خلافاً في ظاهر الحال، فأمَّا الشِّركُ فلا يُظَنُّ به، بل كان على مراسم القوم في الظَّاهِر أربعين سنة.

وقال الكلبيُّ والسدِّيُّ: هذا على ظاهره، أي: وجدك كافراً والقومُ كفَّارٌ فهداك[1]. وقد مضى هذا القولُ والردُّ عليه في سورة الشورى[2].

وقيل: وجدك مغموراً بأهل الشِّرْكِ، فميَّزك عنهم؛ يقال: ضلَّ الماء في اللبن[3]، ومنه: ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [السجدة: ١٠] أي: لَحِقْنا بالتراب عند الدَّفن، حتى كأنَّا لا نَتميَّز من جملته.

وفي قراءة الحسن: «ووجدك ضالٌّ فهُديَ» أي: وجدك الضالُّ فاهتَدَى بك[4]، وهذه قراءةٌ على التفسير.

وقيل: «ووجدك ضالًّا» لا يهتدي إليك قومُك، ولا يعرفون قَدْرَك؛ فهدَى المسلمين إليك، حتى آمنوا بك.

قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨﴾

أي: فقيراً لا مالَ لك. ﴿فَأَغْنَىٰ﴾ أي: فأغناك بخديجةَ رضي الله عنها؛ يقال: عالَ الرجلُ يَعِيلُ عَيْلَةً: إذا افْتقَر؛ قال أُحَيحةُ بن الجُلاح:

فما يَدْري الفقيرُ متى غِنَاهُ ... وما يَدري الغنيُّ متى يَعِيلُ[5]

أي: يفتقر.

---

(١) ذكره عنهما الرازي ٣١/ ٢١٧.

(٢) عند تفسير الآية (٥٢) منها.

(٣) تفسير الرازي ٣١/ ٢١٧.

(٤) النكت والعيون ٦/ ٢٩٤.

(٥) ديوان أحيحة بن الجلاح ص٧٤، وسلف ٦/ ٣٩.

وقال مقاتل: فرضَّاك بما أعطاك من الرزق[١]. وقال الكلبيُّ: قنَّعك بالرزق.

وقال ابن عطاء: وجدك فقيرَ النَّفْسِ، فأغنَى قلبك.

وقال الأخفش[٢]: وجدك ذا عيالٍ، دليلُه: «فأغنى»، ومنه قولُ جرير:

اللهُ أنزلَ في الكتاب فريضةً ... لابنِ السبيلِ وللفقير العائِلِ[٣]

وقيل: وجدك فقيراً من الحُجَج والبراهين، فأغناك بها[٤].

وقيل: أغناك بما فتح لك من الفتوح، وأفاءه عليك من أموال الكفار. القشيريُّ: وفي هذا نَظَرٌ؛ لأنَّ السورة مكيةٌ، وإنَّما فُرِضَ الجهاد بالمدينة[٥].

وقراءةُ العامَّةِ: «عائلاً». وقرأ ابن السَّمَيْفَع: «عَيِّلا» بالتشديد[٦]، مثل: طيِّب وهيِّن.

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١﴾

فيه أربعُ مسائلَ:

الأولى: قولُه تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ أي: لا تَسَلَّطْ[٧] عليه بالظُّلم، ادفع إليه حقَّه، واذكُرْ يُتْمكَ؛ قاله الأخفش. وقيل: هما لغتان بمعنى[٨]. وعن مجاهد «فلا

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٤٩٤، وتفسير البغوي ٤/ ٤٩٩.

(٢) قوله في النكت والعيون ٦/ ٢٩٤.

(٣) ديوان جرير ٢/ ٧٣٧ برواية: والله أنزل.

(٤) النكت والعيون ٦/ ٢٩٤.

(٥) وذكر الرازي ٣١/ ٢١٩ أن هذا وإن كان حصل بعد نزول هذه السورة، لكن لما كان معلوم الوقوع كان كالواقع.

(٦) القراءات الشاذة ص١٧٥.

(٧) في (ظ): تشط.

(٨) كذا وقعت هذه العبارة في هذا الموضع، وحقُّها أن تكون قبل ما سيأتي من قوله: والعرب تعاقب بين القاف والكاف، وبعد ذكر قراءة «تكهر» بالكاف، وفي الصحاح (كهر): قال الكسائي: كَهَره وقَهَره بمعنى.

تَقْهَر»: فلا تَحْتَقِرْ[١].

وقرأ النَخَعيُّ والأشهب العُقَيليُّ: «تَكْهَرْ» بالكاف، وكذلك هو في مصحفِ ابنِ مسعود[٢]. فعلى هذا يَحتمِلُ أن يكون نَهْياً عن قَهْرِه بظُلِمْه وأَخْذِ مالِه. وخصَّ اليتيم لأنَّه لا ناصرَ له غيرُ الله تعالى، فغلَّظ في أمره بتغليظ العقوبةِ على ظالِمه.

والعربُ تُعاقِبُ بينَ الكافِ والقاف؛ النحَّاس: وهذا غلطٌ، إنَّما يقال: كَهَره: إذا اشتدَّ عليه وغَلَّظ.

وفي «صحيح» مسلم من حديث معاويةَ بنِ الحكم السُّلَميِّ، حين تكلَّم في الصلاة بردِّ السلام، قال: فبأبي هو وأمِّي! ما رأيتُ معلِّماً قبله ولا بعده أحسنَ تعليماً منه ـ يعني رسولَ الله ﷺ ـ فوالله ما كَهَرَني، ولا ضربني، ولا شتمني... الحديث[٣]. وقيل: القَهْر: الغَلَبةُ. والكَهْر: الزَّجْر.

الثانية: ودلَّتِ الآيةُ على اللُّطْفِ باليتيم، وبِرِّه والإحسانِ إليه؛ حتى قال قتادة: كن لليتيم كالأبِ الرَّحيم. ورِوِي عن أبي هريرةَ أنَّ رجلاً شَكَا إلى النبيِّ ﷺ قسوةَ قَلْبِه؛ فقال: «إنْ أردتَ أنْ يَلينَ، فامْسَحْ رأسَ اليتيم، وأَطْعِمِ المسكين»[٤].

وفي الصحيح عن أبي هريرةَ: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «أنا وكافلُ اليتيمِ له أو لغيره كهاتين» وأشار بالسبَّابة والوسطى[٥].

ومن حديثِ ابنِ عمر أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إنَّ اليتيم إذا بكى اهتزَّ لبكائه عرشُ الرحمن، فيقولُ الله تعالى لملائكته: يا ملائكتي، مَن ذا الذي أبْكَى هذا اليتيمَ الذي غَيَّبْتُ أباه في التراب. فتقول الملائكةُ: ربَّنا أنت أَعْلَمُ، فيقولُ الله تعالى لملائكته:

---

(١) أخرجه الطبري ٢٤/ ٤٩٠.

(٢) القراءات الشاذة ص١٧٥، ومعاني القرآن للفراء ٣/ ٢٧٤، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٩٥.

(٣) صحيح مسلم (٥٣٧) مطولاً، وهو عند أحمد (٢٣٧٦٢).

(٤) أخرجه أحمد (٧٥٧٦)، وإسناده ضعيف لجهالة الراوي عن أبي هريرة ﷺ.

(٥) صحيح مسلم (٢٩٨٣)، وهو عند أحمد (٨٨٨١)، وسلف ٢/ ٢٣٠.

يا ملائكتي، اشْهَدوا أنَّ مَن أسْكَتَه وأرضاه أنْ أُرْضِيَه يومَ القيامة»(١). فكان ابن عمر إذا رأى يتيماً مسح برأسه، وأعطاه شيئاً.

وعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن ضمَّ يتيماً فكان في نفقته، وكفاه مؤونَتَه، كان له حجاباً من النار يومَ القيامة، ومَن مسح برأسِ يتيمٍ كان له بكلِّ شعرةٍ حسنةٌ»(٢).

وقال أكثم بنُ صَيفيّ: الأذلَّاء أربعةٌ: النمَّام، والكذَّاب، والمَدْيونُ، واليتيم.

الثالثة: قولُه تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ أي: لا تَزْجُره. فهو نهيٌ عن إغلاظِ القول. ولكنْ رُدَّه ببَذْلٍ يَسيرٍ، أو ردٍّ جميل، واذكُر فَقْرَك؛ قاله قتادةُ وغيره(٣). وروي عن أبي هريرةَ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «لا يمنعنَّ أحدُكم السائلَ، وأنْ يعطِيَه إذا سأل ولو رأى في يده قُلْبينِ من ذهب»(٤).

وقال إبراهيم بن أدهم: نِعْمَ القومُ السُّؤَّالُ؛ يحملون زادَنا إلى الآخرة.

وقال إبراهيم النَّخَعيُّ: السائلُ بريدُ الآخرةِ، يَجيءُ إلى باب أحدِكم فيقول: هل تبعثون إلى أهليكم بشيء.

وروي أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «رُدُّوا السائلَ ببَذْلٍ يسير، أو ردٍّ جميل، فإنَّه يأتيكم مَن ليس من الإنس ولا من الجنِّ، ينظرُ كيف صنيعُكم فيما خوَّلكم الله»(٥).

---

(١) أخرجه ابن عدي ٢/ ٧٢١، وأبو نعيم في تاريخ أصبهان ٢/ ٢٩٩ من طريق سعيد بن المسيب عن عمر ﷺ، وهو عند ابن عدي مختصر. وفي إسناده الحسن بن أبي جعفر الجُفْري وهو ضعيف الحديث، كما ذكر الحافظ في التقريب. وسعيد بن المسيب لم يسمع من عمر. ينظر المراسيل لابن أبي حاتم ص٦٤.

(٢) أخرجه ابن عدي ٣/ ١٠٩٧، وفي إسناده سليمان بن عمرو أبو داود النخعي، قال عنه البخاري: متروك، وقال يحيى: معروف بوضع الحديث، وقال أحمد: كان يضع الحديث. الميزان ٢/ ٢١٦.

(٣) أخرجه عن قتادة ابن المنذر وابن أبي حاتم، كما الدر المنثور ٦/ ٣٦٢ بلفظ: ردّ السائل برحمة ولين.

(٤) أخرجه البزار (٩٥٢ ـ كشف)، وابن عدي ٢/ ٧٣٣. قال البزار: لا نعلمه مرفوعاً إلا من هذا الوجه. اهـ. وفي إسناده الحسن بن علي الهاشمي، ضعفه أحمد والنسائي وأبو حاتم والدارقطني، وقال البخاري: منكر الحديث. الميزان ١/ ٥٠٥. والقُلب: سوار المرأة. القاموس (قلب).

(٥) سلف ٤/ ٣٢٨، وذكرنا ثمة قول ابن الجوزي: هذا حديث لا أصل له.

وقيل: المرادُ بالسائل هنا: الذي يَسألُ عن الدِّين، أي: فلا تَنْهره بالغِلْظةِ والجَفْوة، وأجِبْه برفقٍ ولين؛ قاله سفيان(١). قال ابن العربيّ(٢): وأمَّا السائلُ عن الدِّين فجوابُه فَرْضٌ على العالِم على الكفاية، كإعطاءِ سائلِ البِرِّ سواء. وقد كان أبو الدَّرْداءِ ينظرُ إلى أصحاب الحديث، ويبسطُ رداءه لهم، ويقول: مرحباً بأحبَّةِ رسولِ الله ﷺ(٣).

وفي حديثِ أبي هارون العَبْديِّ، عن أبي سعيدٍ الخُدريِّ، قال: كنَّا إذا أتينا أبا سعيد يقول: مَرْحَبًا بوصيةِ رسولِ الله ﷺ، إنَّ رسول الله ﷺ قال: «إنَّ الناس لكم تَبَعٌ، وإنَّ رجالاً يأتونكم من أقطارِ الأرضِ يتفقَّهون، فإذا أتَوْكم فاستوصُوا بهم خيراً»(٤). وفي روايةٍ: «يأتيكم رجالٌ مِن قِبَلِ المَشْرِقِ...» فذكره(٥).

و«اليتيم» و«السائل» منصوبان بالفعل الذي بعده، وحقُّ المنصوبِ أن يكون بعد الفاءِ، والتقدير: مهما يكن من شيءٍ فلا تَقْهرِ اليتيم، ولا تنهر السائل(٦).

وروي أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «سألتُ ربِّي مسألةً ودِدْتُ أنِّي لم أسألها، قلتُ: يا ربِّ، اتَّخذتَ إبراهيمَ خليلاً، وكلَّمْتَ موسى تكليماً، وسخَّرتَ مع داود الجبالَ يسبِّحْنَ، وأعطيتَ فلاناً كذا، فقال عزَّ وجلَّ: ألَمْ أجِدْكَ يتيماً فآويتُك؟ ألم أجِدْكَ ضالًّا فهديتُك؟ ألم أَجِدْكَ عائلاً فأغنيتُك؟ ألم أَشْرَحْ لك صدركَ؟ ألم أُوتِكَ ما لم أُوْتِ أحداً قبلك: خواتيمَ سورةِ البقرة، ألم أتَّخذك خليلاً كما اتَّخذتُ إبراهيمَ

(١) أخرجه ابن أبي حاتم، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٦٢ .

(٢) في أحكام القرآن ٤/ ١٩٣٥ .

(٣) ذكره ابن بشكوال في الصلة ص٤١٢ .

(٤) أخرجه الترمذي (٢٦٥٠)، وأبو هارون العبدي اسمه عمارة بن جُوَين، قال عنه الحافظ في التقريب: متروك، ومنهم مَن كذَّبه.

(٥) سنن الترمذي (٢٦٥١)، وهو أيضاً من طريق أبي هارون العبدي عن أبي سعيد الخدري ﷺ.

(٦) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٨٢٤ .

خليلاً؟ قلتُ: بلى يا رب»[١].

الرابعة: قولُه تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ أي: انشُرْ ما أنْعمَ الله عليك بالشكر والثناء. والتحدُّثُ بنِعَم الله والاعترافُ بها شكرٌ. وروى ابنُ أبي نجِيح عن مجاهد: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾ قال: بالقرآن. وعنه قال: بالنبوَّة[٢]، أي: بلِّغ ما أُرْسِلْتَ به. والخطابُ للنبيِّ ﷺ، والحُكْمُ عامٌّ له ولغيره.

وعن الحسن بن عليٍّ رضي الله عنهما قال: إذا أَصَبْتَ خيراً، أو عملتَ خيراً، فحدِّثْ به الثِّقةَ من إخوانك[٣].

وعن عمرو بن ميمون قال: إذا لقي الرجل من إخوانه مَن يثِقُ به، يقول له: رَزَقَ الله من الصلاة البارحةَ كذا وكذا[٤].

وكان أبو فراسٍ عبدُ الله بنُ غالب[٥] إذا أصبح يقول: لقد رزقني الله البارحةَ كذا، قرأتُ كذا، وصلَّيتُ كذا، وذكرتُ الله كذا، وفعلتُ كذا. فيقال له: يا أبا فِراس، إنَّ مثلك لا يقولُ هذا! قال: يقول الله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾، وتقولون أنتم: لا تحدِّثْ بنعمة الله[٦]! ونحوه عن أيوبَ السختِيانيِّ وأبي رجاءٍ العُطارِديِّ ﷺ[٧].

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١٢٢٨٩)، والحاكم ٢/ ٥٢٦ ، والواحدي في أسباب النزول ص٤٩١-٤٩٢ ، وفي الوسيط ٤/ ٥١١-٥١٢ ، والبغوي ٤/ ٤٩٩ . وليس فيه عندهم: ألم أوتك... كما اتخذت إبراهيم خليلاً.

(٢) أخرج الأول عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٦٢ . وأخرج الثاني الطبري ٢٤/ ٤٩٠-٤٩١ .

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٦٢ . وذكره الرازي ٣١/ ٢٢١ ثم قال: إلا أن هذا إنما يحسن إذا لم يتضمن رياء، وظن أن غيره يقتدي به.

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة ١٣/ ٤٢٥ ، والحاكم ٢/ ٥٢٧ .

(٥) الحُدَّاني البصري العابد، توفي سنة (٨٣ هـ). تهذيب التهذيب ٢/ ٤٠١ .

(٦) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٢/ ٢٥٧ .

(٧) ذكره عنهما ابن العربي في أحكام القرآن ٤/ ١٩٣٦ .

وقال بكر بن عبد الله المُزَنيُّ: قال النبيُّ ﷺ: «مَن أُعطِيَ خيراً فلم يُرَ عليه، سمِّي بغيضَ الله، مُعادياً لنِعَم الله»[(١)].

وروى الشعبيُّ عن النعمان بن بشير قال: قال النبيُّ ﷺ: «مَن لم يَشْكُرِ القليلَ لم يَشْكُرِ الكثير، ومَن لم يشكر الناسَ لم يشكرِ الله، والتحدُّثُ بالنِّعمِ شكرٌ، وتَرْكُه كفرٌ، والجماعةُ رحمةٌ، والفُرْقةُ عذابٌ»[(٢)].

وروى النسائيُّ عن مالك بن نَضْلةَ الجُشَميِّ قال: كنتُ عند رسولِ الله ﷺ جالساً، فرآني رَثَّ الثيابِ فقال: «أَلَكَ مالٌ؟» قلتُ: نعم يا رسول الله، مِن كلِّ المال. قال: «إذا آتاك الله مالاً فلْيُرَ أثرُهُ عليك»[(٣)].

وروى أبو سعيد الخدريُّ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إنَّ الله جميلٌ يحبُّ الجمالَ، ويحبُّ أن يرى أثَر نعمته على عبده»[(٤)].

فصل: يكبِّر القارئُ في روايةِ البزِّيِّ عن ابن كثير، وقد رواه مجاهدٌ عن ابن عباس، عن أبيّ بن كعب، عن النبيِّ ﷺ: إذا بلغ آخِرَ «والضُّحى» كبَّر بين كلِّ سورةٍ تكبيرةً، إلى أن يختم القرآن. ولا يَصِلُ آخِرَ السورةِ بتكبيرةٍ، بل يفصلُ بينهما بسكتة[(٥)]. وكأنَّ المعنى في ذلك أنَّ الوحي تأخَّر عن النبيِّ ﷺ أياماً، فقال ناسٌ من

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في العيال (٣٦٤).

(٢) أخرجه عبد الله بن أحمد في زوائد المسند (١٨٤٤٩). وإسناده ضعيف كما ذكر السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٣٦٢ . وقوله: «من لم يشكر الناس لم يشكر الله» له شاهد من حديث أبي هريرة ﷺ عند أحمد (٧٥٠٤)، وأبو داود (٤٨١١)، والترمذي (١٩٥٤) وقال: حسن صحيح.

(٣) سنن النسائي (المجتبى) ٨/ ١٨٠-١٨١ .

(٤) أخرجه أبو يعلى (١٠٥٥)، وفي إسناده عطية العوفي وهو ضعيف. ويشهد لجزئه الأول حديث ابن مسعود ﷺ عند أحمد (٣٧٨٩)، ومسلم (٩١). ويشهد لجزئه الثاني حديث عبد الله بن عمرو عند الترمذي (٢٨١٩). قال الترمذي. حديث حسن.

(٥) وهذه رواية النقاش، عن أبي ربيعة، عن البزي، كما ذكر أبو عمرو الداني في التيسير ص٢٢٦ ، إلا أنه ذكر أن الأحاديث الواردة عن المكيين دالةٌ على أنه يَصِلُ التكبير بآخر السورة؛ قال: لأن فيها: «مع»، وهي تدل على الصحبة والاجتماع.

المشركين: قد ودَّعه صاحبُه وقَلاه، فنزلت هذه السورةُ، فقال: «الله أكبر»(١).

قال مجاهد: قرأتُ على ابنِ عباس، فأمرني به، وأخبرني به عن أبيٍّ، عن النبيِّ ﷺ.

ولا يكبِّر في قراءةِ الباقين؛ لأنَّها ذرِيعةٌ إلى الزيادة في القرآن.

قلت: القرآنُ ثبتَ نقلاً متواتراً، سورُه وآياتُه وحروفُه؛ لا زيادةَ فيه ولا نقصان؛ فالتكبيرُ على هذا ليس بقرآن. فإذا كان بسم الله الرحمن الرحيم المكتوبُ في المصحف بخطِّ المصحفِ ليس بقرآنٍ، فكيف بالتكبير الذي هو ليس بمكتوب. أمَا إنه ثبتَ سنَّةً بنقلِ الآحاد، فاستحبَّه ابنُ كثير، لا أنَّه أوْجَبه فخطَّأ مَن تَرَكه.

ذكر الحاكم أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحافظُ في كتاب «المستدرك» له على البخاريِّ ومسلم: حدَّثنا أبو يحيى محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن يزيد المقرئُ الإمامُ بمكة في المسجد الحرام، قال: حدَّثنا أبو عبد الله محمد بن علي بن زيد الصائغُ، قال: حدَّثنا أحمد بن محمد بن القاسم بن أبي بزةَ: سمعتُ عكرمةَ بنَ سليمان يقول: قرأتُ على إسماعيل بن عبد الله بن قسطنطين، فلمَّا بلغتُ «والضحى» قال لي: كبِّر عند خاتمةِ كلِّ سورة حتى تختم، فإنِّي قرأتُ على عبد الله بن كثير فلمَّا بلغتُ «والضحى» قال: كبِّر حتى تختم. وأخبره عبد الله بن كثير أنه قرأ على مجاهد [فأمره بذلك]، وأخبره مجاهدٌ أنَّ ابن عباس أمَره بذلك، وأخبره ابن عباس أنَّ أُبيَّ ابنَ كعب أمره بذلك، وأخبره أُبيّ بن كعب أنَّ رسول الله ﷺ أمره بذلك. هذا حديثٌ صحيحٌ ولم يخرِّجاه(٢).

---

(١) بنحوه في الوسيط ٤/ ٥١٤، وتفسير البغوي ٤/ ٥٠١.

(٢) المستدرك ٣/ ٣٠٤، وما سلف بين حاصرتين منه. وقد تعقبه الذهبي بقوله: البزي قد تُكُلِّم فيه. وأخرجه أيضاً الفاكهي في أخبار مكة (١٧٤٤)، والداني في التيسير ص٢٢٧، وينظر جامع البيان للداني ٢/ ٥٠١-٥٠٥. وذكره ابن كثير في بداية تفسير سورة الضحى وقال: فهذه سنَّةٌ تفرد بها أبو الحسن أحمد بن محمد بن عبد الله البزي من ولد القاسم بن أبي بزَّة، وكان إماماً في القراءات، فأما في الحديث فقد ضعفه أبو حاتم الرازي، وقال: لا أحدث عنه، وكذلك أبو جعفر العقيلي قال: هو منكر الحديث. لكن حكى الشيخ شهاب الدين أبو شامة في شرح الشاطبية عن الشافعي أنه سمع رجلاً يكبر هذا التكبير في الصلاة فقال: أحسنت وأصبت السنة، وهذا يقتضي صحة هذا الحديث.

سورة «ألم نشرح»

مكيةٌ في قول الجميع. وهي ثماني آيات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾﴾

شَرْحُ الصَّدْرِ: فَتْحُه، أي: أَلَمْ نَفْتَحْ صدرَكَ للإسلام. وروى أبو صالحٍ عن ابن عباس قال: أَلَمْ نُلَيِّن لك قلبكَ. وروى الضَّحاكُ عن ابن عباس قال: قالوا: يا رسولَ الله، أيَنْشَرِحُ الصَّدْرُ؟ قال: «نعم، ويَنْفَسِحُ». قالوا: يا رسولَ الله، وهل لذلك علامةٌ؟ قال: «نَعَم، التَّجافي عن دارِ الغرورِ، والإنابةُ إلى دارِ الخلود، والاعتدادُ للموتِ قَبْلَ نزولِ الموت»[١]. وقد مضى هذا المعنى في «الزمر» عند قوله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الآية: ٢٢].

وروي عن الحسن قال: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ قال: مُلِئَ حكماً وعِلماً[٢].

وفي الصحيح عن أنس بن مالك، عن مالك بن صعصعة ـ رجلٍ من قومه ـ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «فبينما أنا عند البيتِ بينَ النائمِ واليقظان إذ سمعتُ قائلاً يقول: أحدٌ [بين] الثلاثةِ، فأُتِيْتُ بطَسْتٍ من ذهبٍ، فيها ماءُ زمزمَ، فشُرِحَ صدري إلى كذا وكذا» قال قتادة: قلت: ما يعني؟ قال: إلى أسفلِ بطني، قال: «فاستُخْرِجَ قلبي، فغُسِلَ قلبي بماءِ زمزمَ، ثم أُعيدَ مكانَه، ثم حُشِيَ إيماناً وحِكْمةً». وفي الحديث قِصة [طويلة][٣].

---

(١) الوسيط ٤/ ٥١٥.

(٢) النكت والعيون ٦/ ٢٩٦، وأخرجه عبد بن حميد وابن المنذر، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٦٣.

(٣) صحيح مسلم (١٦٤)، وسنن الترمذي (٣٣٤٦)، واللفظ له، وما بين حاصرتين منه، وأخرجه بنحوه أحمد (١٧٨٣٣) و(١٧٨٣٥)، والبخاري (٣٢٠٧) و(٣٨٨٧). وهو من طريق قتادة عن أنس به.

وروي عن النبيِّ ﷺ قال: «جاءني مَلَكان في صورةِ طائرٍ، معهما ماءٌ وثلجٌ، فشَرَحَ أحدُهما صدري، وفَتَحَ الآخَرُ بمنقاره فيه فغَسَلَه»[1].

وفي حديثٍ آخر قال: «جاءني مَلَكٌ فشَقَّ عن قلبي، فاستخرج منه عذرة[2]، وقال: قَلبُكَ وَكيعٌ، وعيناك بصيرتان، وأُذناك سميعتان، أنت محمدٌ رسولُ الله، لسانُكَ صادِقٌ، ونَفْسُكَ مُطْمَئنَّةٌ، وخُلقُكَ قُثَم، وأنت قيِّم»[3]. قال أهلُ اللغةِ: قولُه: «وكيع» أي: يَحفَظُ ما يُوْضَعُ فيه. يقال: سِقاءٌ وكيع، أي: قويٌّ يحفظُ ما يوضَعُ فيه. واستَوْكَعتْ مَعدتُه، أي: قويت. وقولُه: «قُثَم» أي: جامع. يقال: رجلٌ قَثوم للخير، أي: جامعٌ له.

ومعنى «أَلَم نَشْرَحْ»: قد شَرَحْنا، الدليلُ على ذلك قولُه في النَّسق عليه: «ووَضَعْنا عنكَ وِزْرَكَ»، فهذا عطفٌ على التأويل، لا على التنزيل؛ لأنَّه لو كان على التنزيل لقال: ونَضَعْ عنكَ وِزْرَكَ. فدلَّ هذا على أنَّ معنى «ألم نشرح»: قد شَرَحنا. و«لم» جَحْدٌ، وفي الاستفهام طَرَفٌ من الجحد، وإذا وقع جَحْدٌ، رجع إلى التحقيق، كقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾ [التين:٨] ومعناه: اللهُ أَحْكَمُ الحاكِمين، وكذا ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر:٣٦]. ومثلُه قولُ جرير يَمْدَحُ عبد الملك بن مروان:

أَلَسْتُمْ خيرَ مَن ركبَ المطايا وأنْدَى العالَمين بطونَ راحِ[4]

المعنى: أنتم كذا.

---

(١) هو في السير والمغازي لابن إسحاق ص٥١ من رواية يونس بن بكير، عن أبي سنان الشيباني، عن حبيب بن أبي ثابت، عن يحيى بن جعدة قال: قال رسول الله ﷺ:...، وذكره، وهو حديث مرسل.

(٢) في (د) و(ي): غدرة، ولم نقف على هذا اللفظ عند غير القرطبي، وجاء في خبر آخر: فأخرج شيئاً كهيئة العلقة، ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٣٦٣.

(٣) أخرجه الدارمي (٥٣) عن عبد الرحمن بن غنم قال: نزل جبريل على رسول الله ﷺ فشق بطنه، ثم قال جبريل: قلب وكيع...، وذكره.

(٤) ديوان جرير ١/ ٨٩، وسلف ٤/ ٣١٢.

قوله تعالى: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾، أي: حَطَطْنا عنكَ ذَنْبك. وقرأ أنس: «وحَلَلْنا»، «وحَطَطْنا»[١]. وقرأ ابن مسعود: «وحَلَلْنا عنكَ وِقْرَك»[٢].

وهذه الآيةُ مثلُ قوله تعالى: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢]. قيل: الجميعُ كان قَبْلَ النبوَّة. والوِزْرُ: الذَّنْبُ، أي: وَضَعْنا عنكَ ما كنتَ فيه من أمر الجاهلية؛ لأنَّه كان ﷺ في كثيرٍ من مذاهب قومه، وإنْ لم يكن عبَدَ صنماً ولا وَثناً. قال قتادة والحسن والضحاك: كانت للنبيِّ ﷺ ذنوبٌ أثْقلَتْه، فغَفَرها الله له[٣].

﴿ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾ أي: أثقلَه حتى سُمِعَ نقيضُه، أي: صوتُه. وأهلُ اللغةِ يقولون: أنْقضَ الحِملُ ظَهْرَ الناقةِ: إذا سَمِعْتَ له صريراً من شدَّة الحمل. وكذلك: سمعتُ نقيضَ الرَّحْلِ، أي: صَريرَه. قال جميل[٤]:

وحتى تَداعَتْ بالنَّقيضِ حِبالُه وهَمَّتْ بَواني زَوْرِه أنْ تَحَطَّما

«بَواني زَوْرِه»: أي: أُصولُ صَدْرِه. فالوِزْرُ: الحملُ الثقيل.

قال المحاسِبيُّ: يعني ثِقَلَ الوِزْرِ لو لم يَعْفُ الله عنه، «الذي أنْقَضَ ظهرَكَ» أي: أثْقَلَه وأوْهَنه. قال: وإنَّما وُصِفَتْ ذنوبُ الأنبياءِ بهذا الثِّقلِ ـ مع كونها مغفورةً ـ لشدَّةِ اهتمامِهم بها، ونَدَمِهم منها، وتحسُّرِهم عليها.

وقال السُّدِّي: «ووَضَعْنا عنكَ وِزْرَكَ»، أي: وحَطَطْنا عنك ثِقْلَكَ[٥]. وهي في

---

(١) القراءات الشاذة ص١٧٥، والمحتسب ٢/ ٣٦٧.

(٢) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٧٥، والنكت والعيون ٦/ ٢٩٧، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٩٧.

(٣) أخرجه عن قتادة عبد الرزاق ٢/ ٣٨٠، والطبري ٢٤/ ٤٩٣.

(٤) كذا في النسخ، والصواب أنه لحميد بن ثور، وهو في ديوانه ص١٩، ومنتهى الطلب من أشعار العرب ٧/ ٣٦٤.

(٥) النكت والعيون ٦/ ٢٩٧.

قراءةِ عبدِ الله بن مسعود: «وحَطَطْنا عنكَ وِقْرَك». أي[١]: حَطَطْنا عنك ثقلَ آثامِ الجاهلية.

قال الحسين بن الفضل: يعني الخطأ والسَّهْوَ. وقيل: ذنوبَ أمَّتِك، أضافَها إليه لاشتغالِ قلبِه بها. وقال عبد العزيز بن يحيى وأبو عبيدةَ: خفَّفْنا عنكَ أعباءَ النبوَّةِ والقيام بها، حتى لا تَثْقُلَ عليك[٢].

وقيل: كان في الابتداء يَثْقلُ عليه الوحيُ، حتى كاد يرمي نفسَه من شاهقِ الجبل، إلى أن جاءه جبريلُ وأراه نَفْسَه، وأُزيلَ عنه ما كان يخاف من تغيُّرِ العقل.

وقيل: عصمناك عن احتمالِ الوِزر، وحَفِظْناكَ قبلَ النبوَّةِ في الأربعين من الأدناس؛ حتى نزل عليك الوحيُ وأنت مُطَهَّرٌ من الأدناس[٣].

قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾﴾

قال مجاهد: يعني بالتأذين. وفيه يقول حسان بن ثابت:

أغَرُّ عليه للنبوَّةِ خاتَمٌ ... من الله مشهودٌ يَلوحُ ويُشْهَدُ
وضَمَّ الإلهُ اسمَ النبيِّ إلى اسْمِه ... إذا قال في الخمس المؤذِّنُ أشْهدُ[٤]

ورَوَى الضحاكُ عن ابن عباس قال: يقولُ له: لا ذُكِرتُ إلَّا ذُكِرتَ معي في الأذان والإقامةِ والتشهُّدِ، ويومَ الجمعةِ على المنابر، ويومَ الفِطْرِ، ويومَ الأضحى، وأيامَ التَّشْريق، ويومَ عَرَفةَ، وعند الجِمارِ، وعلى الصفا والمروةِ، وفي خطبة النكاح، وفي مشارقِ الأرض ومَغارِبِها. ولو أنَّ رجلاً عَبَدَ الله جلَّ ثناؤه، وصدَّق

---

(١) قبلها في (ظ) و(م): وقيل. وتنظر قراءة ابن مسعود في القراءات الشاذة ص١٧٥، ومعاني القرآن للفراء ٣/ ٢٧٥. وذكرها ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٤٩٧ عن أبيٍّ ﷺ.

(٢) ذكر هذه الأقوال البغوي ٤/ ٥٠٢.

(٣) النكت والعيون ٦/ ٢٩٧.

(٤) ديوان حسان ص١٣٤.

بالجنةِ والنارِ وكلِّ شيء، ولم يَشْهَدْ أنَّ محمداً رسولُ الله، لم يَنْتَفِع بشيءٍ وكان كافراً"[١].

وقيل: أي: أَعْلَيْنا ذِكْرَكَ، فذَكَرْناكَ في الكتب المنزلةِ على الأنبياء قَبْلَكَ، وأمَرناهم بالبشارة بك، ولا دِينَ إلَّا ودِينُك يَظْهَرُ عليه.

وقيل: رفعنا ذكرك عند الملائكةِ في السماء، وفي الأرض عند المؤمنين، ونرفعُ في الآخرةِ ذِكْرَكَ بما نُعْطيكَ من المقام المحمود، وكَرائمِ الدرجات.

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾

أي: إنَّ مع الضِّيْقَةِ والشدَّةِ يُسْراً، أي: سعةً وغِنًى. ثم كَرَّر فقال: ﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ فقال قومٌ: هذا التكريرُ تأكيدٌ للكلام، كما يقال: ارْمِ ارْمِ، اعْجَلْ اعْجَلْ؛ قال الله تعالى: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ . ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [التكاثر: ٣-٤]. ونظيرُه في تكرارِ الجوابِ: بلَى بلَى، لا لا. وذلك للإطناب والمبالغة؛ قاله الفرّاء. ومنه قولُ الشاعر:

هَممتُ بنفسِيَ بعضَ الهموم ... فأَوْلَى لنفسيَ أَوْلَى لها[٢]

وقال قومٌ: إنَّ من عادةِ العربِ إذا ذَكَروا اسماً معرَّفا ثم كرَّروه، فهو هو. وإذا نكَّروه ثم كَرَّروه فهو غيرُه. وهما اثنان؛ ليكونَ أقوى للأمل، وأَبْعثَ على الصَّبر؛ قاله ثعلب[٣].

وقال ابن عباس: يقولُ الله تعالى خلقتُ عُسراً واحداً، وخلقتُ يُسْرَيْنِ، ولن يَغْلِبَ عُسْرٌ يُسْرَين[٤].

---

(١) الوسيط ٤/ ٥١٦ من طريق عطاء عن ابن عباس.

(٢) البيت للخنساء، وهو في ديوانها ص١٢١، والنكت والعيون ٦/ ٢٩٨، والكلام منه، ورواية الديوان: هممت بنفسي كلَّ الهموم...

(٣) بنحوه في النكت والعيون ٦/ ٢٩٨، والوسيط ٤/ ٥١٨.

(٤) أخرجه الفراء في معاني القرآن ٣/ ٢٧٥ مختصراً بلفظ: لا يغلبُ يُسْرَيْن عسرٌ واحد.

وجاء في الحديث عن النبيِّ ﷺ في هذه السورة أنه قال: «لن يَغْلِبَ عُسْرٌ يُسْرَيْنِ»(١).

وقال ابن مسعود: والذي نفسي بيده، لو كان العُسْرُ في جُحْرٍ، لطلبه اليُسْرُ حتى يدخلَ عليه؛ ولن يغلبَ عُسْرٌ يُسْرَيْن(٢).

وكتب أبو عبيدةَ بنُ الجرَّاح إلى عمر بن الخطاب يذكُر له جموعاً من الروم، وما يتخوَّفُ منهم؛ فكتب إليه عمرُ رضي الله عنهما: أمَّا بعدُ، فإنه مهما ينزلُ بعبدٍ مؤمنٍ من مَنزلِ شِدَّةٍ، يجعلُ الله بعده فرجاً، وإنه لن يغلبَ عسرٌ يسرين، وإنَّ الله تعالى يقولُ في كتابه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢](٣).

وقال قومٌ منهم الجُرْجانيُّ: هذا قولٌ مدخولٌ؛ لأنَّه يجبُ على هذا التدريجِ إذا قال الرجل: إنَّ مع الفارسِ سيفاً، إنَّ مع الفارس سيفاً، أن يكون الفارسُ واحداً والسيفُ اثنان. والصحيحُ أن يقال: إنَّ الله بعث نبيَّه محمداً ﷺ مُقِلًّا مُخِفًّا، فعيَّره المشركون بفَقْرِه، حتى قالوا: نجمع لك مالاً، فاغتمَّ وظنَّ أنهم كذَّبوه لفقره؛ فعزَّاه الله، وعدَّدَ نِعمَه عليه، ووَعَدَه الغنَى بقوله: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا﴾ أي: لا يَحْزُنْكَ ما عيَّروك به من الفقر؛ فإنَّ مع ذلك العُسْرِ يسراً عاجلاً، أي: في الدنيا. فأنْجزَ له ما وَعَدَه؛ فلم يَمُتْ حتى فَتَح عليه الحجازَ واليمن، ووسَّع ذاتَ يَدِه، حتى كان يعطي الرجلَ المئتين من الإبل، ويَهَبُ الهباتِ السَّنِيَّةَ، ويُعِدُّ لأهله قوتَ سنةٍ. فهذا الفضلُ

---

(١) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٣٨٠، والطبري ٢٤/ ٤٩٥-٤٩٦ عن الحسن عن النبي ﷺ مرسلاً. وأخرجه الطبري ٢٤/ ٤٩٦ عن قتادة عن النبي ﷺ مرسلاً أيضاً. وقال الحافظ في تخريج أحاديث الكشاف ص١٨٦: وله طريق أخرى أخرجها ابن مردويه من رواية عطية عن جابر موصولاً، وإسناده ضعيف، وفي الباب عن عمر ﷺ ذكره مالك في الموطأ عن زيد بن أسلم عن أبيه عمر ﷺ... وهذا أصح طرقه. اهـ. وسيأتي خبر عمر ﷺ لاحقاً.

(٢) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٣٨٠-٣٨١، والطبري ٢٤/ ٤٩٦.

(٣) الموطأ ٢/ ٤٤٦.

كلُّه في أمر الدنيا، وإنْ كان خاصًّا بالنبيِّ ﷺ، فقد يدخلُ فيه بعضُ أمَّتِه إن شاء الله تعالى. ثم ابتدأ فضلاً آخَرَ من الآخرة، وفيه تأسِيةٌ وتَعْزِيةٌ له ﷺ، فقال مبتدئاً: ﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ فهو شيءٌ آخَرُ. والدليلُ على ابتدائه، تَعرِّيهِ من فاءٍ أو واوٍ وغيرهما من حروفِ النَّسقِ التي تدلُّ على العطف. فهذا وعدٌ عامٌّ لجميع المؤمنين، لا يخرجُ أحدٌ منه، أي: إنَّ مع العُسْرِ في الدنيا للمؤمنين يُسْراً في الآخرة لا مَحالةَ. وربَّما اجتمع يُسْرُ الدنيا ويُسْرُ الآخرة. والذي في الخبر: «لن يَغْلِبَ عُسْرٌ يُسْرَيْنِ» يعني العسر الواحد لن يغلبهما، وإنَّما يغلبُ أحدَهما إنْ غلبَ، وهو يُسْرُ الدنيا، فأمَّا يُسْرُ الآخرةِ فكائنٌ لا مَحالةَ، ولن يَغْلِبَه شيء[1].

ويقال: «إنَّ مع العسر» وهو إخراجُ أهلِ مكةَ النبيَّ ﷺ من مكةَ، «يسراً» وهو دخولُه يومَ فَتْحِ مكةَ مع عشرةِ آلاف رجلٍ، مع عِزٍّ وشَرَف.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ۝٨﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قولُه تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ﴾ قال ابن عباس وقتادةُ: فإذا فَرَغْتَ من صلاتك ﴿فَٱنصَبْ﴾ أي: بالِغْ في الدعاء وسَلْه حاجتك[2].

وقال ابن مسعود: إذا فَرغْتَ من الفرائض فانصَبْ في قيام الليل[3].

وقال الكلبيُّ: إذا فَرغْتَ من تبليغ الرسالةِ «فانصَبْ» أي: استَغْفِرْ لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات[4].

وقال الحسن وقتادةُ أيضاً: إذا فَرغْتَ من جهادِ عدوِّكَ، فانْصَبْ لعبادةِ ربِّك[5].

---

(١) ذكره الواحدي في الوسيط ٤/ ٥١٩، والبغوي ٤/ ٥٠٣ بنحوه عن كتاب النظم للجرجاني.

(٢) أخرج قولهما الطبري ٢٤/ ٤٩٧-٤٩٨. وأخرجه عن قتادة عبد الرزاق ٢/ ٣٨١.

(٣) النكت والعيون ٦/ ٢٩٨، وأخرجه ابن المنذر وابن أبي حاتم، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٦٥.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٥٠٣.

(٥) النكت والعيون ٦/ ٢٩٩، وأخرجه بنحوه الطبري ٢٤/ ٤٩٨ عن الحسن وابن زيد. قال ابن عطية في =

وعن مجاهد: «فإذا فَرغْتَ» من دنياك، «فانْصَبْ» في صلاتك[١]. ونحوه عن الجنيد[٢]؛ قال الجنيد: إذا فَرغْتَ من أمرِ الخَلْقِ، فاجتَهِدْ في عبادة الحقِّ.

قال ابن العربيّ[٣]: ومن المُبتدعةِ مَن قرأ هذه الآيةَ: «فانْصِبْ» بكَسْرِ الصَّاد والهمز من أوَّله[٤]، وقالوا: معناه: انْصِبِ الإمامَ الذي تستخلفُه. وهذا باطلٌ في القراءة، باطلٌ في المعنى؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ لم يَسْتَخْلِفْ أحداً. وقرأها بعضُ الجُهَّالِ: «فانْصَبَّ» بتشديدِ الباءِ، معناه: إذا فَرغْتَ من الجهاد، فجِدَّ في الرجوع إلى بلدك. وهذا باطلٌ أيضاً قراءةً؛ لمخالفةِ الإجماعِ، لكنَّ معناه صحيحٌ؛ لقوله ﷺ: «السَّفَرُ قطعةٌ من العذاب، يَمنعُ أحدَكم نومَه وطعامَه وشرابَه، فإذا قضَى أحدُكم نَهْمَتَه، فَلْيُعجِّلِ الرُّجوعَ إلى أهْلِه»[٥]. وأشدُّ الناسِ عذاباً وأسوأهم مَباءً ومآباً، مَن أخذَ معنًى صحيحاً، فركَّب عليه مِن قِبَل نَفْسِه قراءةً أو حديثاً، فيكون كاذباً على الله، كاذباً على رسوله، ومَن أَظْلَمُ ممَّن افترى على الله كذباً.

قال المَهْدَوِيُّ: ورُوِي عن أبي جعفر المنصور أنه قرأ: «ألم نشرحَ لك صدرك» بفتحِ الحاء[٦]، وهو بعيدٌ، وقد يؤوَّلُ على تقدير النونِ الخفيفة، ثم أُبْدِلَتْ النونُ ألفاً في الوَقْفِ، ثم حُمِلَ الوصلُ على الوقف، ثم حذفَ الألف، وأنشد عليه:

اضْربَ عنكَ الهمومَ طارِقَها ضَرْبَكَ بالسَّوط قَوْنَسَ الفَرسِ[٧]

= المحرر الوجيز ٥/ ٢٩٧ : ويعترض هذا التأويل بأن الجهاد فرض في المدينة.

(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد (١١٤٦)، والطبري ٢٤/ ٤٩٩ .

(٢) في (م): الحسن.

(٣) في أحكام القرآن ٤/ ١٩٣٧-١٩٣٨ .

(٤) يعني همزة الوصل، والقراءة ذكرها أيضاً ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٤٩٨ ، والزمخشري في الكشاف ٤/ ٢٦٧ ، وأبو حيان في البحر ٨/ ٤٨٩ .

(٥) أخرجه أحمد (٧٢٢٥)، والبخاري (١٨٠٤)، ومسلم (١٩٢٧) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٦) ذكرها ابن جني في المحتسب ٢/ ٣٦٦ .

(٧) النوادر في اللغة ص١٣ ، والمحتسب ٢/ ٣٦٦ ، وأساس البلاغة (قنس). قال ابن جني: ويقال: إنه مصنوع. اهـ. وقونس الفرس: ما بين الأذنين. أساس البلاغة (قنس).

أراد: اضرِبَنْ. ورُوي عن أبي السَّمَّالِ: «فإذا فَرِغتَ» بكَسْرِ الراء[١]، وهي لغةٌ فيه. وقرئ: «فرغِّب»[٢] أي: فرغِّب الناسَ إلى ما عنده.

الثانية: قال ابن العربيّ[٣]: روي عن شُريح أنه مرَّ بقومٍ يلعبون يومَ عِيدٍ، فقال: ما بهذا أُمِر الفارغُ[٤]. وفيه نَظَرٌ، فإن الحَبَش كانوا يلعبون بالدَّرَقِ والحِرَابِ في المسجد يومَ العيد، والنبيُّ ﷺ ينظُرُ. ودخل أبو بكر في بيتِ رسولِ الله ﷺ على عائشةَ رضي الله عنها وعندها جاريتان من جواري الأنصارِ تغنِّيانِ، فقال أبو بكر: أبمزمورِ الشيطانِ في بيتِ رسولِ الله ﷺ؟ فقال: «دَعْهُما يا أبا بكر، فإنه يومُ عيدٍ»[٥]. وليس يلزمُ الدُّؤوبُ على العمل، بل هو مكروهٌ للخَلْق.

---

(١) القراءات الشاذة ص١٧٥ .

(٢) يعني: «وإلى ربك فرغِّب»، وهي في القراءات الشاذة ص١٧٥ .

(٣) في أحكام القرآن ٤/ ١٩٣٨ .

(٤) أخرجه عبد الله بن أحمد في زوائده على الزهد لأحمد ص٢٦٢ ، وبنحوه أخرجه الفراء في معاني القرآن ٣/ ٢٧٦ ، وهناد في الزهد (٦٧٧)، وأبو نعيم في الحلية ٤/ ١٣٤ . ووقع في (م) ومطبوع أحكام القرآن: الشارع، بدل: الفارغ، والمثبت من النسخ الخطية ومصادر التخريج.

(٥) أخرجه مع قصة لعب الحبشة بالدرق أحمد (٢٤٥٤١)، والبخاري (٩٤٩) و(٩٥٠)، ومسلم (٨٩٢) من حديث عائشة رضي الله عنها.

تفسير سورة «والتين»

مكيةٌ في قولِ الأَكْثَرِ. وقال ابن عباسٍ وقتادةُ: هي مدنية[١]. وهي ثماني آيات.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١﴾

فيه ثلاثُ مسائلَ:

الأولى: قولُه تعالى: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ﴾ قال ابنُ عباس والحسنُ ومجاهدٌ وعكرمةُ وإبراهيمُ النخعيُّ وعطاء بنُ أبي رباح وجابر بنُ زيد ومقاتلٌ والكلبيُّ: هو تينكُم الذي تأكلون، وزيتونُكم الذي تعصرون منه الزيت[٢]؛ قال الله تعالى: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٠].

وقال أبو ذرٍّ: أُهْدِيَ للنبيِّ ﷺ سَلُّ تِين؛ فقال: «كُلُوا» وأَكَلَ منه. ثم قال: «لو قلتُ: إنَّ فاكهةً نزلت من الجنة، لقلتُ هذه؛ لأنَّ فاكهةَ الجنةِ بلا عَجَمٍ، فكُلوها فإنَّها تقطعُ البواسِيرَ، وتنفعُ من النِّقْرِس»[٣].

وعن معاذ: أنه استاك بقضيبِ زيتونٍ، وقال: سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول: «نِعْمَ السِّواكُ الزيتونُ، من الشجرة المباركة، يُطيِّبُ الفم، ويذهبُ بالحَفَر، وهي سِواكي وسِواكُ الأنبياءِ مِن قَبْلي»[٤].

---

(١) ذكر قولهما الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٣٠٠ .

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٥٠٤ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٩٩ ، وأخرجه الطبري ٢٤/ ٥٠١-٥٠٣ عن الحسن وعكرمة ومجاهد وإبراهيم والكلبي. وأخرجه عن ابن عباس الحاكم ٢/ ٥٢٨ .

(٣) الوسيط ٤/ ٥٢٣ ، والفردوس بمأثور الخطاب (٤٧١٦)، والكشاف ٤/ ٢٦٨ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٩٩ . وأخرجه أبو نعيم في الطب والثعلبي، كما ذكر الحافظ في تخريج أحاديث الكشاف ص١٨٦ ، وقال: وفي إسناده مَن لا يعرف.

(٤) أخرجه الطبراني في مسند الشاميين (٤٦)، وذكره الزمخشري في الكشاف ٤/ ٢٦٨ . قال الحافظ في تخريج أحاديث الكشاف ص١٨٦ : إسناده واه. والحَفَر: صفرة تعلو الأسنان. القاموس (حفر).

وروي عن ابن عباس أيضاً: التينُ: مسجِدُ نوحٍ عليه السلامُ الذي بُنيَ على الجوديِّ، والزيتونُ: مسجدُ بيتِ المَقْدِس[١].

وقال الضحاك: التينُ: المسجدُ الحرام، والزيتونُ: المسجدُ الأقصى.

ابن زيد: التين: مسجدُ دمشقَ، والزيتون: مسجدُ بيتِ المَقْدِس. قتادةُ: التين: الجبلُ الذي عليه دمشق، والزيتونُ: الجبلُ الذي عليه بيتُ المقدس[٢].

وقال محمد بن كعب: التينُ: مسجدُ أصحابِ الكَهْفِ، والزيتونُ: مسجدُ إيلياءَ[٣].

وقال كعبُ الأحبارِ وقتادةُ أيضاً وعكرمةُ وابنُ زيد: التينُ: دمشق، والزيتونُ: بيتُ المقدس[٤]. وهذا اختيارُ الطَّبريِّ[٥].

وقال الفرَّاء: سمعتُ رجلًا من أهلِ الشام يقول: التينُ: جبال ما بين حُلْوانَ إلى هَمَذان، والزيتونُ: جبالُ الشامِ[٦].

وقيل: هما جبلان بالشام، يقال لهما: طورُ زَيْتَا وطورُ تِينا بالسريانية، سمِّيا بذلك لأنهما يُنْبِتانِهما[٧]. وكذا رَوَى أبو مَكينٍ عن عكرمة، قال: التينُ والزيتونُ: جبلان بالشام[٨]. وقال زهير[٩]:

(١) أخرجه الطبري ٢٤/ ٥٠٤ .

(٢) أخرج القولين الطبري ٢٤/ ٥٠٣ ، وقول قتادة أخرجه أيضاً عبد الرزاق ٢/ ٣٨٢ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٥/ ٢٥٤ ، والنكت والعيون ٦/ ٣٠١ ، وتفسير البغوي ٤/ ٥٠٤ . وإيلياء هي بيت المقدس.

(٤) النكت والعيون ٦/ ٣٠٠ عن كعب وابن زيد.

(٥) كذا ذكر المصنف، والذي قاله الطبري في تفسيره ٢٤/ ٥٠٤ : والصواب من القول عندنا قولُ مَن قال: التين هو التين الذي يؤكل، والزيتون هو الزيتون الذي يعصر منه الزيت.

(٦) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٧٦ ، وفيه: سمعت رجلاً من أهل الشام وكان صاحب تفسير يقول...

(٧) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص ٥٣٢ . وطور زيتا: بيت المقدس، وطور تينا: دمشق. ينظر الدر المنثور ٦/ ٣٦٦ .

(٨) الوسيط ٤/ ٥٢٣ ، وأخرجه الطبري ٢٤/ ٥٠٤ دون قوله: بالشام. وأبو مكين هو نوح بن ربيعة الأنصاري مولاهم، البصري. من رجال التهذيب.

(٩) كذا في النسخ، والصواب أنه للنابغة، على ما يأتي.

أَتَــيْــنَ الــتِّــيــنَ عَــن عُــرُضٍ[١]

وهذا اسمُ موضعٍ. ويجوزُ أن يكون ذلك على حذفِ مضافٍ، أي: ومَنابِتِ التِّينِ والزيتون. ولكنْ لا دليلَ على ذلك من ظاهرِ التنزيل، ولا مِن قولِ مَن لا يَجوزُ خلافُه؛ قاله النَّحّاس[٢].

الثانية: أصحُّ هذه الأقوالِ الأوّلُ؛ لأنَّه الحقيقةُ، ولا يُعدلُ عن الحقيقة إلى المَجازِ إلَّا بدليلٍ. وإنَّما أَقْسَمَ الله بالتين؛ لأنه كان سِترَ آدمَ في الجنة؛ لقوله تعالى: ﴿يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٢] وكان ورقَ التِّين[٣].

وقيل: أَقْسَمَ به ليبينَ وَجْهَ المِنَّةِ العُظْمَى فيه؛ فإنَّه جميلُ المنظر، طيِّبُ المَخْبَرِ، نَشِرُ الرائحة، سهلُ الجَنْيِ، على قَدْرِ المضغة، وقد أَحْسَنَ القائل فيه:

انظُرْ إلى التِّين في الغصون ضُحًى ... ممزَّقَ الجِلدِ مائلَ العُنُقِ
كأنَّه ربُّ نِعمةٍ سُلِبتْ ... فعاد بعدَ الجديدِ في الخَلَقِ
أصغرُ ما في النهودِ أكبرُه ... لكنْ يُنَادَى عليه في الطُّرقِ[٤]

وقال آخَرُ:

التينُ يَعْدِلُ عندي كلَّ فاكهةٍ ... إذا انْثَنَى مائلاً في غُصْنِه الزَّاهي
مُخمَّشُ الوجهِ قد سالتْ حلاوتُه ... كأنَّه راكعٌ مِن خشيةِ اللهِ

وأَقسَمَ بالزيتون لأنه مثَّل به إبراهيم في قوله تعالى: ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ﴾ [النور: ٣٥] وهو أكثرُ أُدمِ أهلِ الشامِ والمغرب؛ يَصْطَبِغون به[٥]، ويستعملونه

---

(١) ديوان النابغة ص ١٠٢، وتمامه:

صُهْبَ الظِّلالِ أَتَيْنَ التِّين عن عُرُضٍ ... يُزجينَ غيماً قليلاً ماؤه شَبِما

يصف سحائب لا ماء فيها. والتين المذكور في هذا البيت هو جبل بنجد لبني أسد، أو جبل في دار غطفان. ينظر معجم ما استعجم ١/ ٣٣١، ومعجم البلدان ٢/ ٦٩، واللسان (تين).

(٢) وقاله أيضاً الطبري ٢٤/ ٥٠٤.

(٣) ذكره الرازي ٣٢/ ٩.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٩٣٩.

(٥) أي: يأتدمون به. القاموس (صبغ).

في طبيخهم، ويَسْتَصْبِحون به، ويُداوَى به أدواءُ الجوفِ والقُروح والجراحات، وفيه منافعُ كثيرةٌ. وقال عليه الصلاة والسلام: «كُلوا الزيتَ وادَّهِنوا به؛ فإنَّه من شجرةٍ مبارَكةٍ». وقد مضى في سورة «المؤمنون» القولُ فيه[1].

الثالثة: قال ابن العربيّ[2]: ولامتنان الباريء سبحانه، وتعظيم المِنَّةِ في التين، وأنَّه مُقْتاتٌ مدَّخَر، قلنا بوجوبِ الزكاةِ فيه. وإنَّما فرَّ كثيرٌ من العلماء من التصريح بوجوب الزكاةِ فيه، تَقيَّةَ جَوْرِ الولاةِ؛ فإنهم يتحاملون في الأموال الزكاتية، فيأخذونها مَغْرَماً، حَسْبَ ما أنذر به الصادقُ ﷺ. فكره العلماءُ أن يجعلوا لهم سبيلاً إلى مالٍ آخَرَ[3] يتشطَّطون فيه، ولكنْ ينبغي للمرء أن يخرج عن نِعمةِ ربِّه، بأداءِ حقِّه. وقد قال الشافعيُّ لهذه العِلَّةِ وغيرِها: لا زكاةَ في الزيتون. والصحيحُ وجوبُ الزكاةِ فيهما.

قوله تعالى: ﴿وَطُورِ سِينِينَ ۝٢﴾

روى ابن أبي نَجيحٍ عن مجاهدٍ: «وطور» قال: جبل. «سِينِين» قال: مبارك، بالسريانية[4]. وعن عكرمةَ عن ابن عباس قال: «طور» جبلٌ، و«سينين» حَسَن[5]. وقال قتادةُ: «سينين» هو المبارَكُ الحَسَن[6].

وعن عكرمةَ قال: الجبل الذي نادى الله جلَّ ثناؤه منه موسى عليه السلام[7].

وقال مقاتلٌ والكلبيُّ: «سِينِين»: كلُّ جبلٍ فيه شجرٌ مثمِرٌ، فهو سِنين وسِيناء،

(١) ١٥/ ٣٣ . وقوله: مثل به إبراهيم، هو على قول مَن قال: إن الشجرة المباركة هي إبراهيم عليه السلام، سماه الله مباركاً لأن أكثر الأنبياء كانوا من صلبه.
(٢) في أحكام القرآن ٤/ ١٩٣٩ .
(٣) في النسخ الخطية: أحد، والمثبت من (م) وأحكام القرآن.
(٤) أخرجه الطبري ٢٤/ ٥٠٧ دون قوله: بالسريانية، وكذلك هو في تفسير مجاهد ٢/ ٧٦٩ .
(٥) أخرجه الطبري ٢٤/ ٥٠٦ عن عكرمة. وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: سينين هو الحسن بلغة الحبشة. الدر المنثور ٦/ ٣٦٦ .
(٦) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٣٨٢، والطبري ٢٤/ ٥٠٧ بلفظ: جبل بالشام مبارك حسن.
(٧) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٣٠١ عن كعب الأحبار. وقال ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٤٩٩ : لم يُختَلَف أنه جبل بالشام كلم الله عليه موسى، ومنه نودي.

بلُغةِ النَّبط(١).

وعن عمرو بن ميمون قال: صلَّيتُ مع عمر بنِ الخطاب العشاءَ بمكةَ، فقرأ: «والتين والزيتون وطورِ سَيناء. وهذا البلدِ الأمين» قال: وهكذا هي في قراءةِ عبد الله، ورفع صوته تعظيماً للبيت. وقرأ في الركعة الثانية: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ﴾ و﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾ جَمَعَ بينهما. ذكره ابنُ الأنباريّ(٢). النَّحَّاس: وفي قراءة عبد الله: «سِيناء» بكسر السين، وفي حديثِ عمرو بن ميمون عن عُمر بفتح السين.

وقال الأخفش: «طُور» جبل. و«سِينِينَ» شجرٌ، واحدتُه: سِينينة(٣).

وقال أبو عليٍّ: «سِينين» فِعليل، فكُرِّرت اللَّامُ التي هي نونٌ فيه، كما كُرِّرتْ في زِحْلِيل: للمكان الزَّلِق، وكِرْدِيدَة: للقطعةِ من التمر، وخِنذيذ: للطويل. ولم يَنْصَرِف «سينين» كما لم ينصرفْ سِيناء؛ لأنه جُعِل اسماً لبقعةٍ أو أرضٍ، ولو جُعِل اسماً للمكان أو للمنزل أو اسمَ مذكَّرٍ لانْصَرفَ؛ لأنَّك سمَّيْتَ مذكَّراً بمذكَّرٍ(٤).

وإنَّما أقْسَم بهذا الجبلِ لأنه بالشام والأرضِ المقدَّسة، وقد بارك الله فيهما، كما قال: ﴿إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ [الإسراء: ١].

قوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ③﴾

يعني مكةَ. سمَّاه أميناً لأنه آمِنٌ، كما قال: ﴿أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا﴾ [العنكبوت: ٦٧] فالأمين: بمعنى الآمِن؛ قاله الفرَّاءُ وغيرُه، قال الشاعر:

أَلَمْ تَعلَمي يا أَسْمُ ويْحَكِ أَنَّني حَلَفْتُ يَميناً لا أَخُون أَمِيني(٥)

---

(١) الوسيط ٤/ ٥٢٣، وزاد المسير ٩/ ١٧٠ عن مقاتل.

(٢) في كتاب المصاحف، وأخرجه أيضاً عبد بن حميد. الدر المنثور ٦/ ٣٦٦. وقراءة: «سيناء» عن عمر وابن مسعود رضي الله عنهما في القراءات الشاذة ص ١٧٦.

(٣) ذكره عن الأخفش البكري في معجم ما استعجم ٣/ ٨٩٨، وابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٤٩٩، وهو في معاني القرآن للأخفش ٢/ ٧٤٠ مختصراً بلفظ: «وطور سينين» واحدها السِّينينة.

(٤) بنحوه في مشكل إعراب القرآن ٢/ ٤٩٨ – ٤٩٩.

(٥) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٧٦، وذكره أيضاً ابن الأنباري في الأضداد ص٣٤، والطبري ٢٤/ ٥٠٨، والجوهري في الصحاح (أمن).

يعني: آمِني. وبهذا احتجَّ مَن قال: إنه أراد بالتِّين دمشقَ، وبالزيتونِ بيتَ المقدِسِ. فأقسمَ الله بجبلِ دِمَشْقَ؛ لأنه مأوى عيسى عليه السلام، وبجبلِ بيتِ المقدسِ؛ لأنه مُقَامُ الأنبياءِ عليهم السلامُ، وبمكةَ لأنها أَثَرُ إبراهيمَ ودارُ محمدٍ صلى الله عليهما وسلم[١].

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ هذا جوابُ القسمِ. وأراد بالإنسان: الكافر؛ قيل: هو الوليد بنُ المُغيرة[٢]. وقيل: كَلَدة بنُ أسيد[٣]. فعلى هذا نزلتْ في مُنْكري البعث. وقيل: المرادُ بالإنسان آدمُ وذرِّيتُه.

﴿فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ وهو اعتدالُه واستواءُ شبابِه؛ كذا قال عامَّةُ المفسِّرين، وهو أحسنُ ما يكون؛ لأنه خَلَق كلَّ شيء مُنْكَبًّا على وجهه، وخَلَقه هو مستويًا، وله لسانٌ ذَلِق، ويدٌ وأصابعُ يقبضُ بها.

وقال أبو بكر بن طاهر: مزيَّناً بالعقل، مؤدِّياً للأمر، مَهْديًّا بالتمييز، مديدَ القامةِ؛ يتناولُ مأكولَه بيده.

ابن العربيّ[٤]: ليس للهِ تعالى خَلْقٌ أحسنُ من الإنسان؛ فإنَّ الله خَلَقه حيًّا عالِماً، قادراً مريداً متكلِّماً، سميعاً بصيراً، مدبِّراً حكيماً. وهذه صفاتُ الربِّ سبحانه، وعنها عبَّر بعضُ العلماء، ووقع البيانُ بقوله: «إنَّ الله خَلَق آدمَ على

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٩٣٩ - ١٩٤٠ . وقال الرازي ٣٢/ ٩ : فيكون المراد من القسم في الحقيقة تعظيم الأنبياء وإعلاء درجاتهم.

(٢) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٩/ ١٧١ عن عطاء.

(٣) النكت والعيون ٦/ ٣٠٢ ، وزاد المسير ٩/ ١٧١ عن ابن عباس.

(٤) في أحكام القرآن ٤/ ١٩٤٠ .

صُورته»[١] يعني على صفاته التي قدَّمْنا ذِكْرَها. وفي روايةٍ: «على صورةِ الرحمن»[٢]، ومِن أين يكون للرحمن صورةٌ متشَخِّصةٌ؟ فلَمْ يَبْقَ إلَّا أن تكون معانيَ. وقد أخبرَنا المباركُ بنُ عبد الجبار الأزْديُّ قال: أخبرنا القاضي أبو القاسم عليّ بنُ أبي عليٍّ القاضي المحسّن عن أبيه قال: كان عيسى بنُ موسى الهاشميُّ يحبُّ زوجته حبًّا شديداً، فقال لها يوماً: أنت طالقٌ ثلاثاً إنْ لم تكوني أحسنَ من القمر، فنهضتْ واحْتَجبتْ عنه، وقالت: طلَّقتني! وبات بليلةٍ عظيمة، فلمَّا أصبح غدا إلى دار المنصور، فأخبره الخبرَ، وأظهر للمنصور جزعاً عظيماً، فاستَحْضَر الفقهاءَ واستَفْتاهم. فقال جميعُ مَن حضر: قد طلقتْ، إلَّا رجلاً واحداً من أصحاب أبي حنيفة، فإنَّه كان ساكتاً، فقال له المنصور: مالَكَ لا تتكلَّم؟ فقال له الرجل: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ وَطُورِ سِينِينَ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ يا أمير المؤمنين، فالإنسانُ أَحْسنُ الأشياءِ، ولا شيءَ أحسنُ منه. فقال المنصورُ لعيسى بنِ موسى: الأمرُ كما قال الرجلُ، فأَقْبِلْ على زوجتك. وأرسل أبو جعفر المنصور إلى زوجته: أن أطيعي زوجَكِ ولا تَعْصِيْه، فما طلَّقك[٣].

فهذا يَدلُّكَ على أنَّ الإنسان أَحْسنُ خَلْقِ اللهِ باطنًا وظاهراً، جمالَ هيئةٍ، وبديعَ تركيبٍ: الرأسُ بما فيه، والصدرُ بما جَمَعَه، والبطنُ بما حَوَاه، والفَرْجُ وما طَوَاه،

---

(١) قطعة من حديث أخرجه أحمد (٨١٧١)، والبخاري (٦٢٢٧)، ومسلم (٢٨٤١) عن أبي هريرة ﷺ، وسلف ٦/ ٤٩٢ - ٤٩٣ .

(٢) أخرجه بهذا اللفظ الحارث (٨٧٢ - بغية الباحث)، وعبد الله بن أحمد في السنة (٣١٣)، وابن أبي عاصم في السنة (٥١٧)، وابن خزيمة في التوحيد ص ٣٨ ، والطبراني في الكبير (١٣٥٨٠) من طريق الأعمش، عن حبيب بن أبي ثابت، عن عطاء بن أبي رباح، عن ابن عمر، عن النبي ﷺ. وقد أعله ابن خزيمة بأن الثوري خالف الأعمش في إسناده، فأرسل ولم يقل: عن ابن عمر، وأعله أيضاً بتدليس الأعمش وقد عنعن، وكذلك حبيب بن أبي ثابت وقد عنعن. ولكن الذهبي في الميزان ٢/ ٤٢٠ نقل عن إسحاق بن راهويه وأحمد بن حنبل تصحيحهما لهذا الحديث. وينظر الفتح ٥/ ١٨٣ .

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٩٤٠ ، وهو في كتاب الفرج بعد الشدة ٤/ ٣٧٧ للقاضي أبي علي المحسّن بن علي التنوخي البصري الأديب، المتوفى سنة (٣٨٤هـ). السير ١٦/ ٥٢٤ .

واليدان وما بَطَشتاه، والرِّجلان وما احْتَمَلَتاه. ولذلك قالت الفلاسفةُ: إنَّه العالَمُ الأصغَرُ؛ إذ كلُّ ما في المخلوقات جُمِعَ فيه[١].

الثانية: قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ أي: إلى أَرْذَلِ العمرِ، وهو الهَرَمُ بعد الشباب، والضَّعفُ بعد القوّة، حتى يصير كالصبيِّ في الحال الأوّل؛ قاله الضَّحاك والكلبيُّ وغيرُهما[٢].

وروى ابنُ أبي نَجيح عن مجاهد: «ثم رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سافِلِينَ» إلى النار، يعني الكافرَ. وقاله أبو العالية[٣].

وقيل: لمَّا وَصَفَه الله بتلك الصفاتِ الجليلةِ التي رُكِّب الإنسانُ عليها، طغى وعلا، حتى قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات:٢٤] وحين عَلم الله هذا مِن عَبْدِه، وقضاؤه صادرٌ[٤] من عنده، رَدَّه أَسْفَلَ سافِلين، بأنْ جَعَله مملوءًا قَذَرًا، مشحونًا نجاسةً، وأخرجها على ظاهره إخراجاً مُنْكراً، على وجه الاختيارِ تارةً، وعلى وجه الغَلَبةِ أخرى، حتى إذا شاهد ذلك من أمره، رَجَع إلى قَدْره[٥]. وقرأ عبد الله: «أسفلَ السَّافِلينَ»[٦].

وقال: «أسفلَ سافِلِين» على الجمع؛ لأنَّ الإنسان في معنى جمعٍ، ولو قال: أسفلَ سافلٍ جاز؛ لأنَّ لفظَ الإنسانِ واحدٌ. وتقول: هذا أفضلُ قائمٍ. ولا تقولُ: أفضلُ قائِمين؛ لأنَّك تُضمِرُ لواحدٍ، فإنْ كان الواحدُ غيرَ مُضْمَرٍ له، رجع اسمُه بالتوحيد والجمع، كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٩٤١ .

(٢) ذكره عنهما الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٣٠٢ ، وأخرجه الطبري ٢٤/ ٥١٣ - ٥١٤ عن ابن عباس وعكرمة وإبراهيم وقتادة.

(٣) النكت والعيون ٦/ ٣٠٢ ، وأخرجه عن مجاهد الطبري ٢٤/ ٥١٥ .

(٤) في (د) و(ي): صار.

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٩٤١ .

(٦) المحرر الوجيز ٥/ ٥٠٠ ، وتفسير البغوي ٤/ ٥٠٤ ، والكشاف ٤/ ٢٦٩ .

ٱلْمُنْتَقِمُونَ﴾ [الزمر: ٣٣] وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ [الشورى: ٤٨].

وقد قيل: إنَّ معنى «رَدَدْنَاه أَسْفَلَ سافلينَ»، أي: رددْناه إلى الضلال، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ [العصر: ٢].

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: إلَّا هؤلاء، فلا يُردُّون إلى الهرم[١]. والاستثناءُ على قولِ مَن قال: «أسفلَ سافلينَ»: النار، متَّصِلٌ. ومَن قال: إنه الهَرَم، فهو مُنْقَطِعٌ[٢].

قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦﴾

قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فإنَّه تكتبُ لهم حسناتُهم، وتُمْحَى عنهم سيئاتُهم، قاله ابن عباس. قال: وهم الذين أدْرَكهم الكِبَر، لا يؤاخَذون بما عملوه في كِبرهم[٣].

وروى الضحاك عنه قال: إذا كان العبدُ في شبابه كثيرَ الصلاةِ كثيرَ الصيام والصَّدقةِ، ثم ضَعُف عمَّا كان يعمل في شبابه، أَجْرَى الله عزَّ وجلَّ له ما كان يعمل في شبابه[٤].

وفي الحديث: قال النبيُّ ﷺ: «إذا سافَرَ العبدُ أو مَرِض كتبَ اللهُ له مثلَ ما كان يَعمَلُ مُقِيماً صحيحاً»[٥].

---

(١) في (م): إلى ذلك. بدل قوله: إلى الهرم، والمثبت من النسخ الخطية، وهو الأنسب بسياق الكلام بعده. وقد وقع هذا الكلام في النسخ الخطية متأخراً عن موضعه هنا، وينظر التعليق التالي.

(٢) من قوله: وقال أسفل سافلين على الجمع... إلى هذا الموضع، وقع في النسخ الخطية بعد قوله الآتي: ويكتب له ذلك. قبل تفسير قوله: ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾.

(٣) أخرجه الطبري ٢٤/٥١٨، وفي آخره زيادة: وهم هرمَى لا يعقلون.

(٤) أخرجه بنحوه الطبري ٢٤/٥١٨ من طريق عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٥) أخرجه أحمد (١٩٦٧٩)، والبخاري (٢٩٩٦) من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ.

وقيل: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فإنه لا يَخْرَفُ ولا يَهْرَمُ، ولا يذهبُ عقلُ مَن كان عالِماً عاملاً به. وعن عاصمٍ الأحولِ عن عكرمةَ قال: مَن قرأ القرآنَ لم يُرَدَّ إلى أَرْذلِ العمر[1].

ورُوي عن ابن عمر عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «طُوبَى لِمَن طال عمرُه وحَسُنَ عملُه»[2].

ورُوي: إنَّ العبدَ المؤمنَ إذا ماتَ أَمَرَ الله مَلَكَيْهِ أنْ يتعبَّدا على قبره إلى يوم القيامة، ويكتب له ذلك[3].

قوله تعالى: ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ قال الضحاك: أجرٌ بغيرِ عملٍ[4]. وقيل: غيرُ مقطوعٍ.

قوله تعالى: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ۝٧﴾

قيل: الخطابُ للكافر؛ توبيخاً وإلزاماً للحجَّة. أي: إذا عَرَفْتَ أيها الإنسانُ أنَّ الله خَلَقَك في أحسنِ تقويم، وأنه يردُّكَ إلى أرذلِ العمر، وينقلُك من حالٍ إلى حال، فما يحملُكَ على أنْ تُكَذِّب بالبعثِ والجزاء وقد أخبرك محمدٌ ﷺ به؟

وقيل: الخطابُ للنبيِّ ﷺ، أي: اسْتَيْقِنْ مع ما جاءك من الله عزَّ وجلَّ أنَّه أحكم الحاكمين. رُوِي معناه عن قتادة[5].

وقال قتادةُ أيضاً والفرَّاء: المعنى: فَمَن يكذِّبُك أيُّها الرسولُ بعد هذا البيانِ

---

(١) أخرجه الطبري ٢٤/ ٥١٧ .

(٢) تفسير أبي الليث ٣/ ٤٩٢ . وأخرجه بنحوه أحمد (١٧٦٨٠) من حديث عبد الله بن بُسر ﷺ، و(٢٠٤١٥) من حديث أبي بكر ﷺ، وسلف ٥/ ٩٧ و٢٦٤ .

(٣) ذكره بنحوه مطولاً أبو الليث ٣/ ٤٩٢ .

(٤) النكت والعيون ٦/ ٣٠٣ ، وتفسير البغوي ٤/ ٥٠٥ .

(٥) أخرجه الطبري ٢٤/ ٥٢٤ .

«بالدِّين» واختاره الطبريُّ(١). كأنه قال: فَمَن يَقْدِرُ على ذلك، أي: على تكذيبك بالثواب والعقاب، بعدما ظَهَر من قدرتنا على خَلْقِ الإنسان والدِّين والجزاء. قال الشاعر:

دِنَّا تميماً كما كانتْ أوائلُنا دانَتْ أوائلَهمْ في سالِفِ الزَّمنِ(٢)

قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝٨﴾

أي: أَتْقَن الحاكِمينَ صُنْعاً في كلِّ ما خَلَق. وقيل: «بأحكم الحاكمين» قضاءً بالحقِّ، وعَدْلاً بينَ الخَلْقِ. وفيه تقريرٌ(٣) لمن اعْتَرَفَ من الكفار بصانعٍ قديم. وألفُ الاستفهامِ إذا دخلتْ على النَّفْي وفي الكلام معنى التوقيفِ صار إيجاباً، كما قال:

أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَن رَكِبَ المَطايا(٤)

وقيل: «فما يُكَذِّبُك بعدُ بِالدِّينِ. أليسَ اللهُ بِأَحْكَمِ الحاكِمِين»: منسوخةٌ بآيةِ السَّيف(٥). وقيل: هي ثابتةٌ؛ لأنَّه لا تَنافيَ بينهما.

وكان ابنُ عباس وعلي بنُ أبي طالب رضي الله عنهما إذا قرأا «أليس الله بأحكم الحاكمين» قالا: بلى، وأنا على ذلك من الشَّاهِدِين. فيُختارُ ذلك(٦)، والله أعلم.

ورواه الترمذيُّ عن أبي هريرةَ قال: مَن قرأ سورةَ ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ﴾ فقرأ: ﴿أَلَيْسَ

---

(١) في تفسيره ٢٤/ ٥٢٤، وقول الفراء بنحوه في معاني القرآن ٣/ ٢٧٧.

(٢) البيت للطرماح، وهو في ديوانه ص ١٧٢، والنكت والعيون ٦/ ٣٠٣. ورواية الديوان: في سالف الأبد.

(٣) في النسخ عدا (ظ): تقدير، والمثبت من (ظ)، والنكت والعيون ٦/ ٣٠٣، والكلام منه.

(٤) وعجزه: وأندى العالمين بطون راح. والبيت لجرير، وهو في ديوانه ١/ ٨٩، وسلف ٤/ ٣١٢، وعند تفسير قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾.

(٥) زاد المسير ٩/ ١٧٤.

(٦) في (ظ): فنختار ذلك. والكلام من النكت والعيون ٦/ ٣٠٣ دون ذكر ابن عباس، وقد أخرجه بنحوه عن ابن عباس عبد الرزاق ٢/ ٣٨٣، والطبري ٢٤/ ٥٢٦.

﴿ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ فليقُلْ: بلى، وأنا على ذلك من الشَّاهِدِين[١]. والله أعلم.

سورة «العَلَق»

وهي مكِّيةٌ بإجماعٍ، وهي أوّلُ ما نزل من القرآن، في قول أبي موسى وعائشةَ رضي الله عنهما[٢]. وهي تسعَ عَشْرةَ آيةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ①﴾

هذه السورةُ أوّلُ ما نزل من القرآن في قولِ مُعْظَمِ المفسِّرين. نزل بها جبريلُ على النبيِّ ﷺ وهو قائمٌ على حِراءٍ، فعلَّمه خمسَ آياتٍ من هذه السورة.

وقيل: إنَّ أول ما نزل «يا أيُّها المُدَّثِّر»؛ قاله جابر بنُ عبد الله، وقد تقدَّم[٣].

وقيل: فاتحةُ الكتابِ أوّلُ ما نزل؛ قاله أبو مَيْسَرةَ الهَمْدانيّ[٤].

وقال عليّ بنُ أبي طالب ﷺ: أوّلُ ما نزل من القرآن ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١][٥].

والصحيحُ الأوّل؛ قالت عائشة: أوّلُ ما بُدِئ به رسولُ الله ﷺ الرؤيا الصادقةُ،

---

(١) سنن الترمذي (٣٣٤٧)، وأخرجه أيضاً أحمد (٧٣٩١)، وأبو داود (٨٨٧) وهو من طريق إسماعيل بن أمية، عن أعرابيٍّ، عن أبي هريرة به. قال الترمذي: هذا حديث إنما يروى بهذا الإسناد عن هذا الأعرابي عن أبي هريرة، ولا يسمَّى.

وذكر ابن أبي حاتم في العلل ٢/ ٩٠ عن أبي زرعة قوله: الصحيح إسماعيل بن أمية عن عبد الرحمن بن القاسم عن أبي هريرة موقوفاً.

(٢) سيأتي قولهما قريباً.

(٣) في بداية تفسير سورة المدثر ٢١/ ٣٥٥.

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ٥٠١ وأحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٩٤٢، وأبو ميسرة هو عمرو بن شرحبيل.

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٩٤٢.

فجاءه المَلَكُ فقال: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ﴾. خرَّجه البخاريّ[١].

وفي الصحيحين عنها قالت: أوّلُ ما بُدِئَ به رسولُ اللهِ ﷺ من الوَحْي الرؤيا الصادقةُ في النوم، فكان لا يَرَى رؤيا إلّا جاءت مِثلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، ثم حُبِّب إليه الخَلاءُ، فكان يخلو بغارِ حراءٍ، يتحنَّثُ فيه اللَّياليَ ذواتِ العددِ [قبلَ أنْ يَرْجع إلى أهلِه]، ويَتزوَّدُ لذلك، ثم يرجعُ إلى خديجةَ فيتزوَّدُ لمثلها؛ حتى فَجِئه الحقُّ وهو في غارِ حِراءٍ، فجاءه الملك فقال: «اقرأ»، فقال: «ما أنا بقارئٍ» قال: «فأَخذني فغطَّني حتى بلغ مني الجَهْدُ، ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلتُ: ما أنا بقارئٍ. فأَخَذني فغطَّني الثانيةَ حتى بَلَغَ منِّي الجَهْدُ، ثم أَرْسَلَنِي فقال: اقرأ. فقلت: ما أنا بقارئ. فأَخَذَني فغطَّني الثالثةَ حتى بلغ منِّي الجَهْدُ، ثم أرسلني فقال: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾» الحديثَ بكماله[٢].

وقال أبو رجاء العُطارِديُّ: وكان أبو موسى الأشعريُّ يطوفُ علينا في هذا المسجد ـ مسجدِ الْبَصْرةِ ـ فيُقعِدُنا حِلَقاً فيقرِئُنا القرآن، فكأنِّي أنظرُ إليه بين ثوبين له أبيضين، وعنه أخذتُ هذه السورةَ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾. وكانت أوّلَ سورةٍ أنزلها الله على محمدٍ ﷺ[٣].

وروتْ عائشةُ رضي الله عنها أنها أوّلُ سورةٍ أُنزلت على رسول الله ﷺ، ثم بعدها «ن والقلم»، ثم بعدها «يا أيها المدثر»، ثم بعدها «والضحى». ذَكَره الماوَرْدِيّ[٤].

---

(١) برقم (٤٩٥٥).

(٢) صحيح البخاري (٤٩٥٣)، وصحيح مسلم (١٦١)، وما سلف بين حاصرتين منهما، وهو عند أحمد (٢٥٩٥٩).

(٣) أخرجه ابن الضريس في فضائل القرآن (٢٤)، والطبري ٢٤/ ٥٣١ ، وأبو نعيم في الحلية ١/ ٢٥٦ .

(٤) في النكت والعيون ٦/ ٣٠٤ ، وأخرجه ابن الأنباري في المصاحف، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٦٨ .

وعن الزُّهريِّ: أولُ ما نزل سورةُ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ إلى قوله: ﴿مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ فحزن رسول الله ﷺ، وجعل يعلو شواهِقَ الجبالِ، فأتاه جبريلُ فقال: إنَّك نبيُّ الله، فرجع إلى خديجةَ وقال: «دَثِّروني وصُبُّوا عليَّ ماءً بارِدًا»، فنزل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾(١).

ومعنى «اقرأ باسمِ ربِّك» أي: اقرأ ما أُنزل إليك من القرآن مُفْتتِحاً باسمِ ربِّك، وهو أنْ تذكر التَّسمية في ابتداءِ كلِّ سورةٍ. فمحلُّ الباءِ من «باسم ربِّك» النصبُ على الحال. وقيل: الباءُ بمعنى على، أي: اقرأ على اسمِ ربِّك. يقال: فَعَلَ كذا باسم الله، وعلى اسم الله. وعلى هذا فالمقروءُ محذوفٌ، أي: اقرأ القرآن، وافْتَتِحْه باسْمِ الله.

وقال قومٌ: اسم ربِّك هو القرآنُ، فهو يقول: «اقرأ باسم ربك»، أي: اسمَ ربِّك، والباءُ زائدةٌ، كقوله تعالى ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ﴾ [المؤمنون: ٢٠]، وكما قال:

سُودُ المَحاجِرِ لا يَقْرَأْنَ بالسُّوَرِ(٢)

أراد: لا يقرأنَ السُّوَرَ.

وقيل: معنى «اقرأ باسم ربِّك»، أي: اذْكُر اسمَه. أَمَره أن يبتدئ القراءةَ باسم الله(٣).

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢﴾

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ يعني ابنَ آدَمَ ﴿مِنْ عَلَقٍ﴾ أي: من دمٍ؛ جمع عَلَقة، والعلقةُ: الدَّمُ الجامدُ، وإذا جرى فهو المسفوح. وقال: «مِنْ عَلَق» فذَكَره بلَفْظِ الجَمْعِ؛ لأنه أراد بالإنسان الجمعَ، وكلُّهم خُلِقوا من عَلَق بعد النطفة. والعَلَقَةُ: قطعةٌ من دمٍ رَطْبٍ، سمِّيتْ بذلك لأنها تَعْلَقُ لرطوبتها بما تَمُرُّ عليه، فإذا جَفَّتْ لم تكن

---

(١) الكشاف ٤/ ١٨٠، وأخرجه بنحوه عبد الرزاق ٢/ ٣٢٧، والبخاري في آخر الحديث (٦٩٨٢)، والطبري ٢٣/ ٤٠٣، وينظر فتح الباري ١٢/ ٣٥٩.

(٢) وصدره: هن الحرائر لا ربّاتُ أَخْمِرةٍ، والبيت للراعي النميري، وهو في ديوانه ص ١٢٢، وسلف ١/ ١٠٧.

(٣) والباء على هذا القول زائدة أيضاً، كما ذكر الواحدي في الوسيط ٤/ ٥٢٨، والبغوي ٤/ ٥٠٧.

عَلَقةً؛ وقال الشاعر:

تركناه يَخِرُّ على يديه يمجُّ عليهما عَلَق الوَتِينِ[(١)]

وخَصَّ الإنسانَ بالذِّكْرِ تشريفاً له. وقيل: أراد أن يبيِّن قَدْرَ نعمتِه عليه، بأنْ خَلقَه مِن عَلَقةٍ مَهينةٍ، حتى صار بشراً سَوِيًّا، وعاقلاً مميِّزاً.

قوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣﴾

قوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ﴾ تأكيدٌ، وتمَّ الكلام، ثم استأنفَ فقال: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ﴾ أي: الكريم. وقال الكلبيُّ: يعني الحليم عن جَهْلِ العباد، فلم يُعَجِّل بعقوبتهم[(٢)]. والأوّلُ أَشْبَهُ بالمعنى؛ لأنه لمَّا ذَكَر ما تقدَّم من نِعَمِه، دلَّ بها على كَرَمه.

وقيل: «اقرأ وربُّك» أي: اقرأ يا محمدُ وربُّك يُعِينُك ويُفْهِمُك، وإنْ كنتَ غيرَ القارئ. و«الأكرمُ» بمعنى: المتجاوِزُ عن جَهْلِ العباد.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤﴾

فيه ثلاثُ مسائلَ:

الأولى: قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾ يعني الخطَّ والكتابة، أي: علَّم الإنسانَ الخطَّ بالقلم. ورَوى سعيدٌ عن قتادةَ قال: القلمُ نعمةٌ من الله تعالى عظيمةٌ، لولا ذلك لم يَقُمْ دينٌ، ولم يَصْلُحْ عيشٌ[(٣)]. فدلَّ على كمالِ كرمِه سبحانه، بأنه عَلَّم عبادَه ما لم يَعْلَموا، ونَقَلَهم من ظُلْمةِ الجَهْلِ إلى نور العلم، ونَبَّه على فَضْلِ عِلْمِ الكتابة، لِمَا فيه من المنافع العظيمة التي لا يحيطُ بها إلَّا هو. وما دُوِّنت العلوم، ولا قُيِّدت الحِكَم، ولا ضُبطتْ أخبارُ الأوَّلين ومقالاتُهم، ولا كُتُبُ اللّهِ المُنْزَلةُ، إلا بالكتابة، ولولا هي ما استقامتْ أمورُ الدِّينِ والدنيا. وسُمِّي قلماً لأنَّه يُقْلَم، أي: يُقْطَع، ومنه تقليمُ الظفرِ. وقال بعضُ الشعراءِ المحدثين يصفُ القلم:

---

(١) النكت والعيون ٦/ ٣٠٥.

(٢) الوسيط ٤/ ٥٢٨، وتفسير البغوي ٤/ ٥٠٧.

(٣) أخرجه الطبري ٢٤/ ٥٢٧، وعزاه السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٣١٩ لعبد بن حميد وابن أبي حاتم.

فكأنه والحِبْرُ يَخْضِبُ رأسَهُ شيخٌ لوَصْلِ خَرِيدةٍ[١] يَتَصَنَّعُ
لِمَ لا[٢] ألاحظُه بعينِ جَلالةٍ وبه إلى الله الصَّحائفُ تُرفعُ

وعن عبد الله بن عمرو[٣] قال: يا رسولَ الله، أأكتبُ ما أسمعُ منك من الحديث؟ قال: «نعم فاكتبْ، فإنَّ الله عَلَّم بالقلم»[٤].

وروى مجاهدٌ عن ابن عمر قال: خَلَقَ الله عزَّ وجلَّ أربعةَ أشياءَ بيده، ثم قال لسائر الحيوان: كن، فكان. القلمَ، والعَرْشَ، وجنةَ عَدْنٍ، وآدمَ عليه السلام[٥].

وفيمَن علَّمه بالقلم ثلاثةُ أقاويلَ:

أحدها: أنَّه آدمُ عليه السلام؛ لأنه أوّلُ مَن كَتَب؛ قاله كعبُ الأحْبار.

الثاني: إدريسُ، وهو أولُ مَن كتب؛ قاله الضحاك.

الثالث: أنه أَدْخَل كلَّ مَن كتب بالقلم؛ لأنه ما عَلِم إلَّا بتعليم الله سبحانه، وجمع بذلك [بينَ] نعمتِه عليه في خَلْقه، وبينَ نعمته عليه في تعليمه؛ استكمالاً للنعمة عليه[٦].

الثانية: صحَّ عن النبيِّ ﷺ من حديث أبي هُريرة، قال: لمَّا خَلَق الله الخَلْقَ كَتب في كتابه ـ فهو عنده فوق العرش ـ: «إنَّ رحمتي تَغْلِبُ غَضَبي»[٧].

---

(١) هي البكر لم تُمسَسْ. القاموس (خرد).

(٢) في النسخ: ألا، بدل: لم لا، والمثبت من زهر الآداب للقيرواني ١/ ٥١٨، وقد ذكر البيتين ضمن قصيدة في وصف المحبرة والقلم، ولم ينسبها.

(٣) في النسخ: عمر، والمثبت هو الصواب.

(٤) أخرجه بهذا اللفظ القزويني في أخبار قزوين ٢/ ٣٧، وأخرجه أحمد (٦٩٣٠) بلفظ: ... أكتب ما أسمع منك؟ قال: «نعم»، قلت: في الرضا والسخط؟ قال: «نعم، فإنه لا ينبغي لي أن أقول في ذلك إلا حقًّا».

(٥) أخرجه اللالكائي في شرح أصول الاعتقاد (٧٢٩) و(٧٣٠). وذكره الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٣٠٥، وفيهما: لسائر الخلق، بدل: لسائر الحيوان.

(٦) النكت والعيون ٦/ ٣٠٥، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٧) أخرجه أحمد (٨٩٥٨)، والبخاري (٣١٩٤)، ومسلم (٢٥٧١).

وثبت عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «أوّلُ ما خَلَقَ الله: القلمُ، فقال له: اكتُبْ، فكَتب ما يكون إلى يوم القيامة، فهو عنده في الذِّكر فوقَ عَرْشِه»[١].

وفي الصحيح من حديث ابن مسعود: [أنه][٢] سمع رسول الله ﷺ يقول: «إذا مرَّ بالنطفة ثنتان وأربعون ليلةً، بعث الله إليها مَلَكاً فصوَّرها، وخَلَق سَمْعَها وبَصَرَها، وجِلْدَها ولحمها وعَظْمَها، ثم يقول: يا ربّ، أذَكَرٌ أم أنثى؟ فيقضي ربُّك ما شاء ويكتب المَلَك، ثم يقول: يا ربّ أَجَلُه، فيقول ربُّك ما شاء ويكتب الملك، ثم يقول: يا رب رزقُه، فيقضي ربُّك ما شاء، ويكتبُ المَلك، ثم يخرج الملكُ بالصحيفة في يده، فلا يَزيدُ على ما أُمِرَ ولا يَنْقُصُ» وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ كِرَامًا كَٰتِبِينَ﴾ [الانفطار: ١٠-١١].

قال علماؤنا: فالأقلامُ في الأصل ثلاثةٌ:

القلمُ الأوّل: الذي خَلقَه الله بيده، وأَمَره أن يكتب.

والقلم الثاني: أقلامُ الملائكةِ، جعلها الله بأيديهم يكتبون بها المقاديرَ والكوائن والأعمال.

والقلم الثالث: أقلامُ الناسِ، جَعَلها الله بأيديهم، يكتبون بها كلامهم، ويَصِلُون بها [إلى] مآرِبهم[٣]. وفي الكتابة فضائلُ جَمَّةٌ. والكتابةُ من جملةِ البيان، والبيانُ مما اختُصَّ به الآدميُّ.

الثالثة: قال علماؤنا: كانت العربُ أقلَّ الخَلْقِ معرفةً بالكتابة، وأقلُّ العربِ

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٩٤٤، وهذه قطعة من حديث عبادة بن الصامت ﷺ، أخرجه أحمد (٢٢٧٠٥) وأبو داود (٤٧٠٠)، والترمذي (٣٣١٩) دون قوله: فهو عنده في الذكر فوق عرشه. قال الترمذي: حديث حسن غريب.

(٢) ما بين حاصرتين زيادة يقتضيها السياق، والحديث عن حذيفة بن أسيد الغفاري، وليس عن ابن مسعود كما ذكر المصنف. وهو في صحيح مسلم (٢٦٤٥)، ومسند أحمد (١٦١٤٢)، وسلف ١٤/ ٣١٤.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٩٤٤، وما بين حاصرتين منه.

معرفةً به المصطفى ﷺ؛ صُرِف عن عِلْمِه، ليكون ذلك أَثْبَتَ لمعجزته، وأقوى في حجته[١]، وقد مضى هذا مبيَّناً في سورة العنكبوت[٢].

وروى حَمَّاد بنُ سَلَمة عن الزبير بن عبد السلام، عن أيوب بن عبد الله الفِهْرِيِّ، عن عبد الله بن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تُسْكِنوا نساءَكم الغُرَفَ، ولا تعلِّموهنَّ الكتابةَ»[٣]. قال علماؤنا: وإنَّما حذَّرهم النبيُّ ﷺ ذلك؛ لأنَّ في إسكانهنَّ الغُرَفَ تطلُّعاً إلى الرجال، وليس في ذلك تحصينٌ لهنَّ ولا تستُّرٌ. وذلك أنهنَّ لا يَملِكْنَ أنفسهنَّ حتى يُشْرِفْنَ على الرجال، فتَحْدُث الفتنةُ والبلاء، فحذَّرهم أن يجعلوا لهنَّ غُرَفاً ذريعةً إلى الفتنة[٤]. وهو كما قال رسول الله ﷺ: «ليس للنساءِ خيرٌ لهنَّ مِن ألَّا يراهنَّ الرجالُ، ولا يَرَيْنَ الرجالَ»[٥]. وذلك أنَّها خُلِقَتْ من الرجل، فهمَّتها[٦] في الرجل، والرجلُ خُلِقتْ فيه الشهوةُ، وجُعِلَتْ سَكَناً له، فغيرُ مأمونٍ كلٌّ واحدٍ منهما في صاحبه.

وكذلك تعليمُ الكتابةِ ربَّما كانتْ سبباً للفتنة، وذلك إذا عُلِّمَتِ الكتابةَ كتَبتْ إلى مَن تَهوَى. والكتابةُ عينٌ من العيون، بها يُبْصِرُ الشاهِدُ الغائبَ، والخطُّ هو آثارُ يده،

---

(١) المصدر السابق.

(٢) عند تفسير الآية (٤٨) منها.

(٣) أخرجه ابن الجوزي في الموضوعات ٢/ ١٧٣ - ١٧٤ من حديث ابن عباس وعائشة، وذكره عن ابن مسعود الحكيم الترمذي في نوادر الأصول ص ٢٧٠ - ٢٧١، والكلام منه، وقد سلف الحديث ٥/ ٤٤، وينظر الكلام عليه ثمة.

(٤) العبارة في نوادر الأصول ص ٢٧١ (والكلام منه): فحذرهم من أن يجعلوا لها ذريعة إلى الفتنة.

(٥) أخرجه البزار (٥٢٦)، وأبو نعيم في الحلية ٢/ ٤١ من حديث علي ﷺ، وفيه أن فاطمة رضي الله عنها هي التي قالت هذا القول، فذكر علي ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «إنما فاطمة بضعة مني». وفي إسناده علي بن زيد، وهو ضعيف كما ذكر الحافظ في مختصر زوائد البزار ١/ ٥٦٧. وأخرجه أبو نعيم في الحلية ٢/ ٤٠ من حديث أنس ﷺ. وفي مسألة نظر المرأة إلى الرجل الأجنبي خلاف بين العلماء، وينظر في ذلك ما ذكره الحافظ في الفتح ٩/ ٣٣٦.

(٦) في (د) و(م): فنهمتها، وفي (ظ): فتهمتها، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في نوادر الأصول.

وفي ذلك تعبيرٌ عن الضمير بما لا يَنْطِق[١] به اللسان، فهو أَبْلغُ من اللسان. فأحبَّ رسولُ الله ﷺ أن يَقْطَعَ[٢] عنهنَّ أسبابَ الفتنة؛ تحصيناً لهنَّ، وطهارةً لقلوبهنّ.

قوله تعالى: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾

قيل: «الإنسان» هنا آدمُ عليه السلامُ؛ علَّمه أسماءَ كلِّ شيءٍ، حَسْبَ ما جاء به القرآنُ في قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١]. فلم يَبْقَ شيءٌ إلَّا وعلَّم سبحانه آدمَ اسمَه بكلِّ لغةٍ، وذَكَره آدمُ للملائكة كما عُلِّمه. وبذلك ظَهَر فضلُه، وتبيَّن قَدْرُه، وثَبَتَتْ نبوَّتُه، وقامت حجةُ اللهِ على الملائكة وحجتُه[٣]، وامتثلتِ الملائكةُ الأمرَ لِمَا رأتْ من شَرَفِ الحال، ورأتْ من جلالِ القدرةِ، وسمعتْ من عظيم الأمر. ثم توارثَتْ ذلك ذرِّيتُه خَلَفاً بعدَ سَلَفٍ، وتَناقلوه قوماً عن قوم. وقد مضى هذا في سورة البقرة مستوفًى[٤]، والحمد لله.

وقيل: «الإنسانُ» هنا: الرسولُ محمدٌ ﷺ، دليلُه قولُه تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ [النساء: ١١٣]. وعلى هذا فالمرادُ بـ «علَّمك» المستقبلُ؛ فإنَّ هذا من أوائل ما نزل. وقيل: هو عامٌّ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ [النحل: ٧٨].

قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾

قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ﴾ إلى آخر السورة. قيل: إنَّه نزل في أبي جَهْلٍ. وقيل: نزلت السورةُ كلُّها في أبي جهل؛ نَهَى النبيَّ ﷺ عن الصلاة، فأمر الله نبيَّه ﷺ أنْ يُصلِّيَ في المسجد ويقرأ باسم الربِّ، وعلى هذا فليست السورةُ من أوائل ما نزل.

(١) في (م): ينطلق، والمثبت من النسخ الخطية ونوادر الأصول.

(٢) في النسخ: ينقطع، والمثبت من نوادر الأصول.

(٣) قوله: وحجته، ليس في (د) و(ي).

(٤) ١/ ٤٢٠.

ويجوزُ أن يكون خمسُ آياتٍ من أوَّلها أوّلَ ما نزلت، ثم نزلت البقيةُ في شأن أبي جهل، وأُمر النبيُّ ﷺ بضمِّ ذلك إلى أوَّل السورة؛ لأنَّ تأليفَ السُّوَرِ جرى بأمرٍ من الله. أَلَا ترى أنَّ قولَه تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ [البقرة: ٢٨١] آخِرُ ما نَزل، ثم هو مضمومٌ إلى ما نزل قَبْلَه بزمانٍ طويل[١].

و«كَلَّا» بمعنى حَقًّا؛ إذ ليس قبله شيءٌ. والإنسانُ هنا: أبو جهل. والطغيانُ: مجاوزةُ الحدِّ في العصيان.

﴿أَن رَّءَاهُ﴾ أي: لأنْ رأى نفسَه استَغْنَى، أي: صار ذا مالٍ وثروةٍ. وقال ابن عباس في روايةِ أبي صالحٍ عنه، قال: لمَّا نزلتْ هذه الآيةُ وسمع بها المشركون، أتاه أبو جهلٍ فقال: يا محمدُ، تزعمُ أنه مَن استغنى طغَى! فاجْعَلْ لنا جبالَ مكَّةَ ذهباً، لعلَّنا نأخذُ منها فنَطْغى، فندع دينَنا ونتَّبع دينك. قال: فأتاه جبريلُ عليه السلامُ فقال: يا محمدُ خيِّرهم في ذلك، فإنْ شاؤوا فعلْنا بهم ما أرادوه، فإنْ لم يُسْلموا فَعَلْنا بهم كما فَعَلْنا بأصحابِ المائدة. فعلم رسولُ الله ﷺ أنَّ القوم يَقْبَلون[٢] ذلك، فكفَّ عنهم إبقاءً عليهم[٣].

وقيل: «أَنْ رَآه اسْتَغْنَى» بالعشيرة والأنصار والأعوان. وحذف اللام من قوله: «أن رآه»، كما يقال: إنكم لَتَطْغَون أن رأيتُم غِناكم[٤]. وقال الفرَّاء: لم يقل: رأى نفسَه، كما قيل: قَتَل نفسَه؛ لأنَّ رأى من الأفعال التي تريد اسماً وخبراً، نحو الظنِّ والحِسبان، فلا يُقْتَصَر فيه على مفعولٍ واحد. والعربُ تطرحُ النفسَ من هذا الجنس تقول: رأيتُني وحَسِبتُني، ومتى تَرَاكَ خارجاً، ومتى تظنُّكَ خارجاً[٥].

---

(١) تفسير الرازي ٣٢/ ١٨.
(٢) في (م): لا يقبلون.
(٣) ذكره بنحوه الزمخشري في الكشاف ٤/ ٢٧١، وقال الحافظ في تخريج أحاديث الكشاف ص ١٨٦: لم أجده.
(٤) تفسير الرازي ٣٢/ ١٩ عن الأخفش.
(٥) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٧٨، وتفسير الرازي ٣٢/ ١٩.

وقرأ مجاهدٌ وحميد، وقنبل عن ابن كثير: «أن رَأَهُ اسْتَغنَى» بقَصْر الهمزة[١]. الباقون: «رآه» بمدِّها، وهو الاختيارُ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ۝٨﴾

أي: مَرْجِعَ مَن هذا وَصْفُه، فيجازيه. والرُّجْعَى والمَرْجِعُ والرُّجوع مصادِرٌ؛ يقال: رجع إليه رجوعاً ومَرْجِعاً، ورُجْعَى على وزن فُعلى.

قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠﴾

قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ﴾ وهو أبو جهل ﴿عَبْدًا﴾ وهو محمدٌ ﷺ. فإنَّ أبا جهل قال: إنْ رأيتُ محمداً يصلِّي لأطأنَّ على عنقه؛ قاله أبو هُريرةَ. فأنزل الله هذه الآياتِ تعجُّباً منه[٢].

وقيل: في الكلام حذفٌ، والمعنى: أَمِنَ هذا الناهي عن الصلاةِ مِن العقوبة.

قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ۝١١ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ۝١٢﴾

أي: أرأيتَ يا أبا جهلٍ إنْ كان محمدٌ على هذه الصِّفة، أليس ناهِيْهِ عن التقوى والصلاةِ هالكاً؟!

قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١٣ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ۝١٤﴾

يعني أبا جهلٍ كذَّب بكتاب الله عزَّ وجلَّ، وأَعْرَضَ عن الإيمان. وقال الفرَّاء: المعنى: «أرأيتَ الذي ينهى عبدًا إذا صلَّى» وهو على الهدى، آمرٌ[٣] بالتقوى، والناهي مكذِّبٌ مُتولٍّ عن الذِّكر، أي: فما أَعْجبَ هذا! ثم يقول: وَيْلَه! أَلَمْ يعلم أبو جهلٍ بأنَّ الله يرى[٤]، أي: يراه ويعلمُ فِعْلَه، فهو تقريرٌ وتوبيخٌ.

---

(١) السبعة ص ٦٩٢، والتيسير ص ٢٢٤ عن قنبل.

(٢) أخرجه مطولاً أحمد (٨٨٣١)، ومسلم (٢٧٩٧).

(٣) في (م): وآمر، وفي (ظ): أو آمر.

(٤) الوسيط ٤/ ٥٢٩، وتفسير البغوي ٤/ ٥٠٨، والكلام بنحوه في معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٧٨ - ٢٧٩.

وقيل: كلُّ واحدٍ من «أرأيت» بَدَلٌ من الأوّل، و«أَلَمْ يعلم بأنَّ الله يَرَى» الخبرُ.

قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ﴾ أي: أبو جهلٍ عن أذاكَ يا محمدُ ﴿لَنَسْفَعًا﴾ أي: لنأخُذَنْ ﴿بِالنَّاصِيَةِ﴾ فلَنُذِلَّنه. وقيل: لنأخذنَّ بناصيته يومَ القيامة، وتُطْوَى مع قدميه، ويطرحُ في النار، كما قال تعالى: ﴿فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ﴾ [الرحمن: ٤١]. فالآيةُ ـ وإن كانت في أبي جهلٍ ـ فهي عِظةٌ للناس، وتهديدٌ لمن يمتنعُ أو يمنعُ غيرَه عن الطاعة. وأهلُ اللغة يقولون: سَفَعْتُ بالشيء: إذا قبضت عليه وجَذَبته جذباً شديداً، ويقال: سَفَع بناصية فرسِه؛ قال:

قَومٌ إذا كَثُر الصياحُ رأيتَهمْ مِن بينِ مُلْجِمِ مُهْرِهِ أو سافِعِ(١)

وقيل: هو مأخوذٌ من سَفَعَتْه النارُ والشمسُ: إذا غيَّرت وجهَه إلى حالِ تَسْويدٍ، كما قال:

أثافيَّ سُفعاً في مُعَرَّسِ مِرْجَلٍ ونُؤْي كجِذْمِ الحوضِ أَثْلَمَ خاشِعِ(٢)

---

(١) نسبه ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/٥٠٣ لعمرو بن معد يكرب، وهو دون نسبة في سيرة ابن هشام ١/٣١١، وتهذيب اللغة ٢/١٠٨، والصحاح (سفع)، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١/٢٩، وأساس البلاغة (سفع).

(٢) البيت لزهير بن أبي سلمى، وهو في شرح المعلقات للنحاس ١/١٠١، وللتبريزي ص ١٢٨، برواية: ونؤياً كجذم الحوض لم يتثلم، ورواية الديوان ص ٧: ونؤيًا كحوض الجُدِّ لم يتثلم. قال النحاس: الأثافي: الحجارة التي تجعل عليها القدر، الواحدة: أُثْفيَّة. والسُّفْع السود. والمعرَّس هنا: الموضع الذي يكون فيه المِرْجل، وكل موضع يقام فيه يقال له: معرَّس. والمرجل: كل قِدْرٍ يطبخ فيها. والنؤي: حاجز يجعل حول الخباء يمنع من السيل. وقال شارح الديوان: جذم الحوض: حرفه وأصله. لم يتثلم: يعني النؤي، قد ذهب أعلاه ولم يتثلم ما بقي منه. ونصب أثافيّ بما قبله، وهو قوله: فلأْياً عرفت الدار بعد توهُّم، أراد: بعد تَوهمي أثافيَّ سُفْعاً. وعجز البيت الذي عند المصنف جاء في قصيدة للنابغة في ديوانه ص ٧٩ برواية:

رمادٌ ككحل العينِ لأياً أبينُه ونؤيٌ كجذم الحوض أثلمُ خاشعُ

والخاشع: اللاصق بالأرض.

والناصية: شعرُ مقدَّمِ الرأس. وقد يعبَّر بها عن جملةِ الإنسان، كما يقال: هذه ناصيةٌ مبارَكةٌ؛ إشارةً إلى جميع الإنسان[١]. وخصَّ الناصيةَ بالذِّكرِ على عادة العربِ فيمَن أرادوا إذلالَه وإهانتَه أخذوا بناصيته.

وقال المبرِّد: السَّفْع: الجذبُ بشدَّةٍ؛ أي: لَنَجُرَّنَّ بناصيته إلى النار.

وقيل: السَّفْعُ: الضَّرْبُ، أي: لنلطُمَنَّ وجهَه. وكلُّه متقارِبُ المعنى. أي: يُجمَعُ عليه الضربُ عند الأَخْذِ، ثم يجرُّ إلى جهنم.

ثم قال على البدَلِ: ﴿نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ أي: ناصية أبي جهلٍ كاذبة في قولها، خاطئة في فِعْلِها. والخاطئُ معاقَبٌ مأخوذٌ. والمخطئُ غيرُ مأخوذٍ.

ووصفُ الناصيةِ بالكاذبةِ الخاطئة، كوَصْفِ الوجوهِ بالنَّظَرِ في قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٣]. وقيل: أي: صاحبُها كاذبٌ خاطِئٌ، كما يقال: نهارُه صائمٌ، وليلُه قائم، أي: هو صائمٌ في نهاره، قائمٌ في ليله[٢].

قوله تعالى: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ﴾ أي: أهلَ مجلسِه وعشيرته، فليَسْتَنْصِرْ بهم. ﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ أي: الملائكةَ الغِلاظَ الشِّدادَ؛ عن ابن عباس وغيره[٣]. واحدُهم زِبْنِيٌّ؛ قاله الكسائيُّ[٤]. وقال الأخفش[٥]: زابِنٌ. أبو عبيدةَ: زِبْنِيَةٌ[٦]. وقيل: زَبانيّ. وقيل: هو اسمٌ للجمع، كالأبابيل والعباديد[٧].

---

(١) النكت والعيون ٦/ ٣٠٨ .

(٢) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٣٤٥ .

(٣) ذكره الزجاج ٥/ ٣٤٦ دون نسبة، وابن الجوزي ٩/ ١٧٩ عن عطاء.

(٤) ذكره عنه الفراء في معاني القرآن ٣/ ٢٨٠ .

(٥) في معاني القرآن ٢/ ٧٤١ .

(٦) مجاز القرآن ٢/ ٣٠٤ .

(٧) معاني القرآن للأخفش ٢/ ٧٤١ .

وقال قتادةُ: هم الشُّرَطُ في كلام العرب[١]. وهو مأخوذٌ من الزَّبْن وهو الدَّفعُ، ومنه المُزابنةُ في البيع[٢].

وقيل: إنَّما سُمُّوا الزبانيةَ لأنَّهم يعملون بأرْجُلِهم، كما يعملون بأيديهم؛ حكاه أبو الليث السَّمَرْقنديُّ رحمه الله، قال: ورُوِي في الخبر أنَّ النبيَّ ﷺ لمَّا قرأ هذه السورةَ، وبلغ إلى قوله تعالى: ﴿لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾ قال أبو جهل: أنا أدعو قومي حتى يمنعوا عنِّي ربَّك. فقال الله تعالى: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾. فلمَّا سمع ذِكْرَ الزبانيةِ رجع فزِعاً، فقيل له: خَشِيتَ منه؟! قال: لا، ولكنْ رأيتُ عنده فارساً فهدَّدني بالزَّبانية، فما أدري ما الزبانيةُ؟ ومالَ إليَّ الفارس، فخشِيتُ منه أن يأكلني[٣].

وفي الأخبار أنَّ الزبانيةَ رؤوسُهم في السماء وأرجلُهم في الأرض[٤]، فهم يدفعون الكفارَ في جهنم.

وقيل: إنَّهم أعظمُ الملائكةِ خَلْقًا، وأشدُّهم بطشاً. والعربُ تُطْلِق هذا الاسمَ على مَن اشتدَّ بطشُه، قال الشاعر:

مَطاعيمُ في القُصْوَى مَطاعينُ في الوَغَى ... زَبانيةٌ غُلْبٌ عِظامٌ حلُومُها[٥]

وعن عكرمةَ عن ابن عباس: «سَنَدْعِ الزَّبانِية» قال: قال أبو جهل: لئن رأيتُ محمداً يصلِّي لأطأنَّ على عنقه. فقال النبيُّ ﷺ: «لو فعل لأَخَذَتْه الملائكةُ عِياناً». قال

---

(١) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٣٨٤ .

(٢) المزابنة: بيع الرُّطَب على رؤوس النخل بالتمر كيلاً، وكذلك كل ثمر بيع على شجرة بثمر كيلاً، ونهي عنها لما يقع فيها من الغبن والجهالة، ولأن البَيِّعَيْن إذا وقفا فيه على الغبن أراد المغبون أن يفسخ البيع، وأراد الغابن أن يمضيه، فتزابنا فتدافعا واختصما. ينظر اللسان (زبن).

(٣) تفسير أبي الليث ٣/ ٤٩٥ .

(٤) أخرجه الطبري ٢٤/ ٥٤٠ عن عبد الله بن أبي الهذيل قوله.

(٥) النكت والعيون ٦/ ٣٠٨ - ٣٠٩ ، والبيت لابن الزِّبَعْرى، كما في سيرة ابن هشام ١/ ٣١٢ ، وفيه المَقْرَى، بدل: القصوى. الغُلب: جمع أغلب، وهو الغليظ الرقبة، وهم يَصِفون السادة بغلظ الرقبة وطولها. اللسان (غلب).

أبو عيسى: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ غريبٌ(١).

ورَوى عِكرمةُ عن ابن عباس قال: مرَّ أبو جهل بالنبيِّ ﷺ وهو يصلِّي عند المَقام، فقال: أَلَمْ أَنْهكَ عن هذا يا محمد! فأَغْلَظَ له رسولُ الله ﷺ، فقال أبو جهل: بأيِّ شيءٍ تهدِّدني يا محمد! والله إنِّي لأكثرُ أهلِ الوادي هذا ناديًا، فأنزل الله عز وجل: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ . سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾. قال ابن عباس: والله لو دعا نادِيَه لأَخَذَتْه زبانيةُ العذابِ من ساعته. أخرجه الترمذيُّ بمعناه، وقال: حسنٌ غريبٌ صحيحٌ(٢).

والنادي في كلام العرب: المجلسُ الذي ينتدي فيه القوم، أي: يجتمعون، والمرادُ: أهلُ النادي، كما قال جرير:

لهم مَجلِسٌ صُهْبُ السِّبالِ أَذِلَّةٌ(٣)

وقال زهير:

وفيهمْ مَقاماتٌ حِسانٌ وُجُوههم(٤)

وقال آخر:

واسْتَبَّ بعدَك يا كُلَيبُ المجلِسُ(٥)

وقد ناديتُ الرجلَ أُنادِيه: إذا جالسته؛ قال زهير:

---

(١) سنن الترمذي (٣٣٤٨)، وهو عند أحمد (٢٢٢٥)، والبخاري (٤٩٥٨).

(٢) سنن الترمذي (٣٣٤٩)، وأخرجه أيضاً أحمد (٢٣٢١)، والنسائي في الكبرى (١١٦٢٠)، والطبري ٥٣٧/٢٤ .

(٣) وعجزه: سواسيةٌ أحرارُها وعبيدها، والبيت لذي الرمة في ديوانه ١٢٣٥/٢ ، وليس لجرير كما ذكر المصنف نقلاً عن الكشاف ٢٧٢/٤ ، على أن الزمخشري ذكره في أساس البلاغة (جلس) ونسبه لذي الرمة. قال شارح الديوان: قوله: صهب السبال، أي: هم عجم، ليسوا بعرب، ولا يقال: سواسية، إلا في الهجاء. أما في الخير فيقال: سواء. اهـ. والسبال جمع سَبَلة، وهي ما على الشارب من الشعر، أو ما على الذقن إلى طرف اللحية. والصَّهَب: حمرة أو شقرة في الشعر، والأعداء صُهْب السبال وإن لم يكونوا كذلك. القاموس (صهب) و(سبل).

(٤) ديوان زهير ص ١١٣ ، والكشاف ٢٧٢/٤ ، وعجزه: وأندية ينتابها القول والفعل. وسلف ٣٧٤/٢ .

(٥) وصدره: نُبِّئْتُ أن النار بعدك أُوْقِدَتْ، والبيت للمهلهل بن ربيعة، وسلف ٢٣٩/١ .

وجارُ البيتِ والرجلُ المنادي ... أمامَ الحيِّ عَقْدُهما سَواءُ[١]

قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب ﴿١٩﴾﴾

﴿كَلَّا﴾ أي: ليس الأمر على ما يظنُّه أبو جهل .﴿لَا تُطِعْهُ﴾ أي: فيما دعاك إليه مِن تَرْكِ الصلاة. ﴿وَاسْجُدْ﴾ أي: صلِّ لِله ﴿وَاقْتَرِب﴾ أي: تقرَّبْ إلى الله جلَّ ثناؤه بالطاعة والعبادة. وقيل: المعنى: إذا سجدتَ فاقتربْ من الله بالدعاء؛ روى عطاءٌ عن أبي هريرةَ قال: قال رسول الله ﷺ: «أقربُ ما يكونُ العبد من ربِّه، وأحبُّه إليه، ما كانت جَبْهَتُه في الأرض ساجداً لله»[٢].

قال علماؤنا: وإنما ذلك لأنَّها نهايةُ العبوديةِ والذِّلَّة، ولله غايةُ العِزَّة، وله العزةُ التي لا مِقْدارَ لها، فكلَّما بَعُدْتَ من صِفَتِه، قربتَ مِن جنَّته، ودَنَوْت من جِوَاره في دارِه[٣]. وفي الحديث الصحيح: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «أمَّا الركوعُ فعظِّموا فيه الربَّ. وأمَّا السجودُ فاجتهِدوا في الدعاء، فإنه قَمِنٌ أن يُستجابَ لكُم»[٤]. ولقد أَحْسَنَ مَن قال:

وإذا تذلَّلتِ الرقابُ تواضُعًا ... منَّا إليك فعِزُّها في ذلِّها[٥]

وقال زيد بن أسلم: اسجُدْ أنت يا محمدُ مصلِّياً، واقترِبْ أنت يا أبا جهلٍ من النار[٦].

قوله تعالى: ﴿وَاسْجُدْ﴾ هذا السجودُ يحتملُ أن يكون بمعنى السجودِ في الصلاة، ويحتملُ أن يكون سجودَ التلاوةِ في هذه السورة. قال ابن العربيّ: والظاهِرُ أنه سجودُ

---

(١) ديوان زهير ص ٨٠ .

(٢) أخرجه الحاكم ٢/ ٦٩٠ ، وذكره المزي في تهذيب الكمال ٧/ ٣٧٣ ، وفي إسناده حميد بن أبي سويد المكي، قال عنه الحافظ في التقريب: مجهول. اهـ. واللفظ الصحيح عند مسلم (٤٨٢) وهو: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فأكثروا الدعاء» وقد سلف ١٢/ ٢٦٣ .

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٩٤٨ .

(٤) أخرجه أحمد (١٩٠٠)، ومسلم (٤٧٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وسلف ١/ ٢٦٥ .

(٥) البيت لأبي إسحاق الصابي، وسلف ١١/ ١٢٩ .

(٦) النكت والعيون ٦/ ٣٠٩ .

الصلاةِ؛ لقوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ . عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾ إلى قوله: ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾، لولا ما ثبت في الصَّحيح من روايةِ مسلمٍ وغيره من الأئمة عن أبي هريرة أنه قال: سجدتُ مع رسولِ الله ﷺ في ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾، وفي ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ سجدتين. فكان هذا نصًّا على أنَّ المراد سجودُ التلاوة[1].

وقد رَوى ابنُ وهبٍ، عن حماد بن زيد، عن عاصم بن بَهْدلة، عن زِرّ بن حُبَيش، عن عليّ بن أبي طالب ﷺ، قال: عزائمُ السجودِ أربع: «ألم» و«حم. تنزيل من الرحمن الرحيم» و«النجم» و«اقرأ باسم ربك»[2]. وقال ابن العربيّ[3]: وهذا إنْ صحَّ يلزمُ عليه السجودُ الثاني من سورة الحج وإنْ كان مقترناً بالركوع؛ لأنه يكون معناه: اركعوا في موضع الركوع، واسجدوا في موضع السجود. وقد قال ابن نافع ومطَرِّفٌ: وكان مالكٌ يسجدُ في خاصةِ نَفْسِه بخاتمةِ هذه السورة من «اقرأ باسم ربِّك» وابنُ وهبٍ يراها من العزائم.

قلت: وقد روينا من حديث مالك بن أنس، عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن، عن نافع، عن ابن عمر قال: لمَّا أنزل الله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ قال رسول الله ﷺ لمُعاذ: «اكتُبْها يا معاذ» فأخذ معاذٌ اللوحَ والقلم والنونَ ـ وهي الدواةُ ـ فكتبها معاذ، فلمَّا بلغ ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب۩﴾ سجد اللوحُ، وسجد القلم، وسجدت النون، وهم يقولون: اللهمَّ ارْفَعْ به ذِكراً، اللهمَّ احْطُطْ به وِزراً، اللهم اغفِرْ به ذنباً. قال معاذ: سجدتُ، وأخبرتُ رسولَ الله ﷺ فسجد[4].

خُتمت السورةُ، والحمد لله على ما فَتَحَ ومَنَحَ وأَعْطَى. وله الحمدُ والمِنَّة.

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٩٤٨، والحديث في صحيح مسلم (٥٧٨).

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٩٤٨، وأخرجه الحاكم ٢/ ٥٢٩ من طريق سفيان عن عاصم به. وأخرجه الطبراني في الأوسط (٧٥٨٤) بإسناد آخر عن علي ﷺ.

(٣) في أحكام القرآن ٤/ ١٩٤٨.

(٤) ذكره الحافظ في لسان الميزان ١/ ١٠٠، وفي إسناده إبراهيم بن محمد الآمدي الخواص، قال عنه ابن طاهر: أحاديثه موضوعة. وينظر الميزان ١/ ٦٢.

سورة «القَدْر»

وهي مَدَنيةٌ في قولِ أكثرِ المفسِّرين؛ ذكره الثعلبيُّ. وحكى الماوَرْدِيُّ عكسَه[1].

قلت: وهي مدنيةٌ في قول الضحَّاك، وأحدِ قولي ابنِ عباس[2]. وذكر الواقِدِيُّ أنها أوّلُ سورةٍ نزلت بالمدينة[3]. وهي خمسُ آيات.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾ يعني القرآنَ وإنْ لم يَجْرِ له ذِكرٌ في هذه السورة؛ لأنَّ المعنى معلوم، والقرآنُ كلُّه كالسورة الواحدة. وقد قال: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ [البقرة:١٨٥]. وقال: ﴿حمٓ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ [الدخان:١-٣]، يريد: في[4] ليلة القَدْرِ. وقال الشعبيُّ: المعنى: إنَّا ابتدأنا إنزالَه في ليلة القدر[5].

وقيل: بل نزل به جبريلُ عليه السلام جملةً واحدةً في ليلة القَدْرِ من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا، إلى بيتِ العزة، وأملاه جبريلُ على السَّفَرة، ثم كان جبريل يُنزلُه على النبيِّ ﷺ نُجوماً نجوماً. وكان بين أوَّله وآخِره ثلاثٌ وعشرون سنةً؛ قاله ابن عباس، وقد تقدَّم في سورة البقرة[6].

---

(١) النكت والعيون ٦/ ٣١١ ، وحكى قول الثعلبي ابن الجوزي في زاد المسير ٩/ ١٨١ .

(٢) ذكره عن ابن عباس ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٥٠٤ ، وعن الضحاك الماوردي ٦/ ٣١١ .

(٣) النكت والعيون ٦/ ٣١١ .

(٤) قوله: في، ليس في (ظ).

(٥) الكشاف ٤/ ٢٧٣ ، وأخرجه بنحوه الطبري ٢٤/ ٥٤٣ .

(٦) ينظر ٣/ ١٦٠ - ١٦١ ، وكذلك ١/ ٩٨ ، وتفسير الطبري ٢٤/ ٥٤٢ .

وحكى الماوَرْدِيُّ(١) عن ابن عباس قال: نزل القرآن في شهر رمضانَ، وفي ليلة القدر، في ليلةٍ مباركةٍ، جملةً واحدةً من عند الله، من اللوح المحفوظ إلى السَّفَرة الكرامِ الكاتبين في السماء الدنيا، فنجَّمته السفرةُ الكرامُ الكاتبون على جبريل عشرين سنةً، ونجَّمه جبريل على النبيِّ ﷺ عشرين سنة. قال ابن العَرَبيِّ(٢): وهذا باطلٌ؛ ليس بين جبريلَ وبين الله واسطةٌ، ولا بين جبريلَ ومحمدٍ عليهما السلام واسطةٌ.

قوله تعالى: ﴿فِي لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ قال مجاهد: في ليلة الحُكْمِ. ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ﴾ قال: ليلة الحكم(٣). والمعنى: ليلة التقدير، سمِّيتْ بذلك لأنَّ الله تعالى يقدِّر فيها ما يشاء من أمره، إلى مِثْلِها من السنة القابِلَةِ؛ من أمر الموتِ والأَجَلِ والرِّزقِ وغيره. ويُسْلِمُه إلى مدبِّرات الأمور، وهم أربعةٌ من الملائكة: إسرافيلُ، وميكائيلُ، وعزرائيلُ، وجبريلُ، عليهم السلام(٤).

وعن ابن عباس قال: يُكْتَب من أمِّ الكتاب ما يكونُ في السنةِ من رزقٍ ومطرٍ وحياةٍ وموت، حتى الحاجُّ(٥). قال عكرمةُ: يُكتبُ حاجُّ بيتِ الله تعالى في ليلة القَدْرِ بأسمائهم وأسماءِ آبائهم، ما يُغادَر منهم أحدٌ، ولا يُزادُ فيهم(٦). وقاله سعيد بن جبير(٧). وقد مضى في أوّل سورة الدخان هذا المعنى(٨).

---

(١) في النكت والعيون ٦/ ٣١٢.

(٢) في أحكام القرآن ٤/ ١٩٥٠.

(٣) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٣٨٦، وابن أبي شيبة ٢/ ٥١٥، والطبري ٢٤/ ٥٤٤.

(٤) تفسير أبي الليث ٣/ ٤٦٩، ويشير إلى خبر عبد الرحمن بن سابط الذي سلف عند تفسير الآية (٥) من سورة السجدة، والآية (٥) من سورة النازعات.

(٥) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٢٥، وعزاه لمحمد بن نصر وابن المنذر وابن أبي حاتم، وسلف ١٩/ ١٠٢.

(٦) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٢٥، وعزاه لابن أبي شيبة ومحمد بن نصر وابن المنذر.

(٧) أخرجه الطبري ٢٤/ ٥٤٤.

(٨) ١٩/ ١٠٢.

وعن ابن عباس أيضاً: أنَّ الله تعالى يقضي الأقضيةَ في ليلةِ نصف شعبان، ويُسْلمُها إلى أربابها في ليلة القَدْرِ[١].

وقيل: إنَّما سمِّيت بذلك لِعظَمِها وقَدْرِها وشَرَفها؛ من قولهم: لفلانٍ قَدْرٌ، أي: شرفٌ ومنزلة. قاله الزُّهرِيُّ وغيرُه[٢].

وقيل: سُمِّيتْ بذلك لأنَّ للطاعات فيها قَدْراً عظيماً، وثواباً جزيلاً.

وقال أبو بكر الورَّاق: سمِّيت بذلك لأنَّ مَن لم يكن له قَدْرٌ ولا خطرٌ يصير في هذه الليلة ذا قَدْرٍ إذا أحياها[٣].

وقيل: سمِّيتْ بذلك لأنه أنزل فيها كتاباً ذا قدرٍ، على رسولٍ ذي قَدْرٍ، على أمةٍ ذاتِ قَدْرٍ.

وقيل: لأنه ينزلُ فيها ملائكةٌ ذوو قَدْرٍ وخَطَر.

وقيل: لأنَّ الله تعالى ينزلُ فيها الخيرَ والبركةَ والمغفرة.

وقال سهل: سمِّيتْ بذلك لأنَّ الله تعالى قدَّر فيها الرحمةَ على المؤمنين.

وقال الخليل: لأنَّ الأرضَ تَضيقُ فيها بالملائكة، كقوله تعالى: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ﴾ [الطلاق:٧] أي: ضُيِّق[٤].

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣﴾

قال الفرَّاء[٥]: كلُّ ما في القرآن من قوله تعالى: «وما أَدْرَاكَ» فقد أدراه، وما كان من قوله: «وما يُدْرِيك» فلم يُدْرِه. وقاله سفيان، وقد تقدَّم[٦].

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ١٤٩ .

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٥٠٥ ، وزاد المسير ٩/ ١٨٢ عن الزهري، والنكت والعيون ٦/ ٣١٢ عن ابن عيسى.

(٣) ذكره بنحوه ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٥٠٥ ، وابن الجوزي في زاد المسير ٩/ ١٨٢ .

(٤) زاد المسير ٩/ ١٨٢ .

(٥) في معاني القرآن ٣/ ٢٨٠ .

(٦) عند تفسير الآية (٣) من سورة الحاقة، والآية (٣) من سورة الطارق.

﴿لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ﴾ بيّنَ[١] فَضْلَها وعِظَمَها. وفضيلةُ[٢] الزمانِ إنَّما تكونُ بكَثْرةِ ما يقع فيه من الفضائل. وفي تلك الليلةِ يُقْسَمُ الخيرُ الكثيرُ الذي لا يوجدُ مثلُه في ألفِ شهرٍ. والله أعلم.

وقال كثيرٌ من المفسِّرين: أي: العملُ فيها خيرٌ من العمل في ألفِ شهرٍ ليس فيها ليلةُ القدرِ، وقال أبو العالية: ليلةُ القَدْرِ خيرٌ من ألفِ شهرٍ لا تكونُ فيه ليلةُ القَدْرِ[٣].

وقيل: عنَى بألفِ شهرٍ جميعَ الدهر؛ لأنَّ العرب تذكُر الأَلْفَ في غاية الأشياء، كما قال تعالى: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمۡ لَوۡ يُعَمَّرُ أَلۡفَ سَنَةٖ﴾ [البقرة:٩٦] يعني جميعَ الدهر.

وقيل: إنَّ العابد كان فيما مضى لا يسمَّى عابداً حتى يعبدَ الله ألفَ شهرٍ؛ ثلاثاً وثمانين سنةً وأربعةَ أشهرٍ، فجعل الله تعالى لأمةِ محمدٍ ﷺ عبادةَ ليلةٍ خيراً من ألفِ شهرٍ كانوا يعبدونها.

وقال أبو بكر الورَّاق: كان مُلْكُ سليمان خمسَ مئةِ شهرٍ، وملكُ ذي القرنين خمسَ مئة شهرٍ، فصار مُلْكُهما ألفَ شهرٍ، فجعل الله تعالى العملَ في هذه الليلةِ لمَن أدركها خيراً من مُلْكِهما[٤].

وقال ابن مسعود: إنَّ النبيَّ ﷺ ذَكَر رجلاً من بني إسرائيلَ لَبِسَ السلاح في سبيل الله ألفَ شهر، فعَجِبَ المسلمون من ذلك، فنزلت: «إِنَّا أَنزَلۡنَاهُ» الآية، «خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ»، التي لبِس فيها الرجلُ سلاحَه في سبيل الله. ونحوه عن ابن عباس[٥].

وهب بن منبه: إنَّ ذلك الرجلَ كان مسلماً، وإنَّ أمَّه جعلته نَذْراً لله، وكان من قريةِ قومٍ يعبدون الأصنامَ، وكان يسكنُ قريباً منها، فجعل يغزوهم وحدَه، ويقتلُ

---

(١) في (ظ): من.

(٢) في (ظ): وكثرة.

(٣) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٣٨٦، والطبري ٢٤/ ٥٤٦ عن قتادة واختاره، ولم نقف عليه عن أبي العالية.

(٤) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٣١٣ دون نسبة.

(٥) الوسيط ٤/ ٥٣٧، وتفسير البغوي ٤/ ٥١٢، وزاد المسير ٩/ ١٩١ عن ابن عباس رضي الله عنهما، وأخرجه البيهقي ٤/ ٣٠٦ من طريق مجاهد عن النبي ﷺ مرسلاً، ولم نقف عليه عن ابن مسعود ﷺ.

ويَسْبي ويجاهد، وكان لا يلقاهم إلّا بِلَحْيَيْ بعيرٍ، وكان إذا قاتلهم وقاتلوه وعطِش، انفجر له من اللَّحيين ماءٌ عَذْبٌ، فيشربُ منه، وكان قد أُعطِي قوّةً في البطش، لا يُوجِعُه حديدٌ ولا غيره، وكان اسمُه شَمْسُون.

وقال كعبُ الأحبارِ: كان رجلاً ملِكاً في بني إسرائيل، ففعل خَصْلةً واحدةً، فأوحَى الله إلى نَبيِّ زمانهم: قل لفلانٍ يتمنَّى. فقال: يا رب، أتمنَّى أن أُجاهد بمالي وولدي ونَفْسي، فرزَقه الله ألفَ ولدٍ، فكان يُجهِّز الولد بماله في عسكرٍ ويُخْرِجُه مجاهداً في سبيل الله، فيقومُ شهراً ويُقتلُ ذلك الولد، ثم يجهِّزُ آخَرَ بماله في عسكر، فكان كلُّ ولدٍ يقتل في الشهر، والملِكُ مع ذلك قائمُ الليلِ، صائمُ النهار، فقُتِل الألْفُ وَلدٍ في ألفِ شهر، ثم تقدَّم فقاتل فقُتِل. فقال الناس: لا أحدَ يدركُ منزلةَ هذا الملك، فأنزل الله تعالى: ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ من شهور ذلك الملك، في القيام والصيام والجهاد بالمال والنفسِ والأولاد في سبيل الله.

وقال علي بن عروة[(١)]: ذكر النبيُّ ﷺ أربعةً من بني إسرائيلَ، فقال: «عَبَدوا الله ثمانينَ سنة، لم يَعْصُوه طرفةَ عينٍ»؛ فذَكَر أيوبَ، وزكريّا، وحِزقيل بن العجوز، ويُوشَع بن نون، فعَجِبَ أصحابُ النبيِّ ﷺ من ذلك. فأتاه جبريل فقال: يا محمدُ، عَجِبَتْ أمّتك من عبادةِ هؤلاء النَّفَرِ ثمانين سنةً لم يعصوا الله طرفةَ عين، فقد أنزل الله عليك خيرًا من ذلك، ثم قرأ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾. فسُرَّ بذلك رسولُ الله ﷺ.

وقال مالكٌ في «الموطّأ» من رواية ابن القاسم وغيره: سمعتُ مَن أثقُ به يقول: إنَّ رسول الله ﷺ أُرِي أعمارَ الأُمم قبلَه، فكأنه تقاصَرَ أعمارَ أمّتِه ألَّا يبلغوا من العمل مثلَ ما بلغ غيرُهم في طول العمر، فأعطاه الله تعالى ليلةَ القدرِ، وجعلها خيراً من ألفِ شهرٍ[(٢)].

---

(١) في النسخ: وقال علي وعروة، والمثبت من تفسير ابن كثير عند هذه الآية، والدر المنثور ٦/ ٣٧١، وقد عزاه ابن كثير والسيوطي لابن أبي حاتم، وهو من طريق مسلمة بن علي عن علي بن عروة، وهما متروكان، كما ذكر الحافظ في التقريب.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٩٥٠، والخبر في الموطأ ١/ ٣٢١. قال ابن عبد البر في التمهيد =

وفي الترمذيِّ عن الحسن بن عليٍّ رضي الله عنهما: أنَّ رسول الله ﷺ أُرِي بني أميةَ على منبره، فساءه ذلك، فنزلت: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾ يعني نهراً في الجنة. ونزلت ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ . وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ . لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ﴾ يملكُها بعدك بنو أمية. قال القاسم بن الفضل الحُدَّانيُّ: فعدَدْناها، فإذا هي ألفُ شهرٍ، لا تزيدُ يوماً، ولا تنقُص يوماً. قال: حديثٌ غريب[1].

قوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمۡرٖ ۝٤﴾

قوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أي: تهبطُ من كلِّ سماءٍ، ومن سِدْرةِ المنتهى، ومسكنُ جبريلَ على وسطها. فينزلون إلى الأرض ويؤمِّنون على دعاء الناس، إلى وقت طلوعِ الفجر، فذلك قولُه تعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾.

﴿وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِم﴾ أي: جبريلُ عليه السلام. وحكى القُشَيريُّ: أنَّ الرُّوح صِنفٌ من الملائكة، جُعِلوا حفظَةً على سائرهم، وأنَّ الملائكة لا يرونهم، كما لا نرى نحن الملائكة.

وقال مقاتل: هم أشرفُ الملائكةِ وأقربُهم من الله تعالى.

وقيل: إنَّهم جندٌ من جند الله عزَّ وجلَّ من غيرِ الملائكة. رواه مجاهدٌ عن ابن عباس مرفوعًا؛ ذكره الماوَرْدِيُّ[2].

وحكى القشيريُّ: قيل: هم صِنفٌ من خَلْقِ الله يأكلون الطعام، ولهم أيْدٍ وأرجلٌ؛ وليسوا ملائكةً.

وقيل: «الرُّوح»: خَلْقٌ عظيمٌ يقومُ صفًّا، والملائكةُ كلُّهم صفًّا.

= ٣٧٣/٢٤: لا أعلم هذا الحديث يروى مسنداً من وجه من الوجوه، ولا أعرفه في غير الموطأ مرسلاً ولا مسنداً، وهذا أحد الأحاديث التي انفرد بها مالك.

(١) سنن الترمذي (٣٣٥٠) والقاسم بن الفضل هو أحد رجال الإسناد. قال ابن كثير عند تفسير هذه الآية: هذا الحديث منكر جدًّا.

(٢) في النكت والعيون ٣١٣/٦، وقد سلف عند تفسير الآية (٣٨) من سورة عم.

وقيل: «الرُّوح»: الرحمةُ ينزل بها جبريلُ عليه السلام مع الملائكة في هذه الليلة على أهلها، دليله: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾ [النحل: ٢] أي: بالرحمة(١).

﴿فِيهَا﴾ أي: في ليلةِ القدر. ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِم﴾ أي: بأمره. ﴿مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾: أي: بكلِّ أمرٍ قدَّره الله وقضاه في تلك السنة إلى قابلٍ؛ قاله ابن عباس(٢)؛ كقوله تعالى: ﴿يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ١١] أي: بأمرِ الله.

وقراءةُ العامَّة: «تَنَزَّلُ» بفتح التاء، إلَّا أنَّ البزِّيَّ شدَّد التاء(٣). وقرأ طلحةُ بن مُصرِّف وابن السَّميفَع بضمِّ التاءِ على الفعل المجهول(٤).

وقرأ عليٌّ وابنُ عباس وعِكرمةُ والكلبيُّ: «مِن كلِّ امْرِئٍ»(٥). وروي عن ابن عباس أنَّ معناه: من كلِّ مَلَكٍ(٦). وتأوَّلها الكلبيُّ على أنَّ جبريل ينزلُ فيها مع الملائكة، فيسلِّمون على كلِّ امرئٍ مسلمٍ، فـ «مِن» بمعنى على(٧). وعن أنس قال: قال النبيُّ ﷺ: «إذا كان ليلة القَدْرِ نزلَ جبريلُ في كَبْكبةٍ من الملائكة، يُصَلُّون ويسلِّمون على كلِّ عبدٍ قائمٍ أو قاعدٍ يذكُر الله تعالى»(٨).

قوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ۝٥﴾

قيل: إنَّ تمامَ الكلامِ: «مِنْ كُلِّ أَمْرٍ»، ثم قال: «سلام»؛ رُوِي ذلك عن نافعٍ

(١) النكت والعيون ٦/ ٣١٤.

(٢) ذكره ابن الجوزي ٩/ ١٩٣ عن المفسرين.

(٣) أي: في حال الوصل. التيسير ص ٨٣.

(٤) لم نقف عليها عند غير المصنف.

(٥) القراءات الشاذة ص ١٧٦ عن ابن عباس، والمحتسب ٢/ ٣٦٨ عن ابن عباس وعكرمة والكلبي.

(٦) المحرر الوجيز ٥/ ٥٠٦.

(٧) النكت والعيون ٦/ ٣١٤، وزاد المسير ٩/ ١٩٣، قال ابن الجوزي: هي كقوله تعالى: ﴿وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟﴾ [الأنبياء: ٧٧].

(٨) أخرجه مطولاً البيهقي في الشعب (٣٧١٧). وفي إسناده أصرم بن حوشب، قال عنه يحيى: كذاب خبيث، وقال البخاري ومسلم والنسائي: متروك. وقال الدارقطني: منكر الحديث. العيزان ١/ ٢٧٢.

وغيره، أي: ليلةُ القدرِ سلامةٌ وخيرٌ كلُّها لا شرَّ فيها، «حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ» أي: إلى طلوع الفجر. قال الضحاك: لا يقدِّرُ الله في تلك الليلةِ إلَّا السلامةَ، وفي سائرِ الليالي يقضي بالبلايا والسلامة[1].

وقيل: أي: هي سلامٌ، أي: ذاتُ سلامةٍ من أنْ يؤثِّر فيها شيطانٌ في مؤمنٍ ومؤمنةٍ. وكذا قال مجاهد: هي ليلةٌ سالمةٌ، لا يستطيعُ الشيطانُ أن يعمل فيها سوءاً ولا أذًى[2]. وروي مرفوعًا[3].

وقال الشعبيُّ: هو تسليمُ الملائكةِ على أهلِ المساجد، من حينِ تغيبُ الشمسُ إلى أنْ يطلعَ الفجر، يمرُّون على كلِّ مؤمنٍ، ويقولون: السلامُ عليك أيُّها المؤمن[4].

وقيل: يعني سلامَ الملائكةِ بعضِهم على بعضٍ فيها.

وقال قتادةُ: «سَلَامٌ هي» خيرٌ هي، «حتى مَطْلَعِ الفجرِ» أي: إلى مطلع الفجر[5].

وقرأ الكسائيُّ وابنُ مُحَيصِنٍ: «مَطلِعِ» بكسرِ اللَّامِ، الباقونَ بالفتح[6]. والفتحُ والكسرُ لغتان في المصدر. والفتحُ الأصلُ في فَعَلَ يَفْعُلُ، نحو المَقْتَل والمَخْرَج. والكسرُ على أنه ممَّا شذَّ عن قياسه، نحو المَشْرِق والمَغْرِب والمَنْبِت والمَسْكِن والمَنْسِك والمَحْشِر والمَسْقِط والمَجْزِر. حكي في ذلك كلِّه الفتحُ والكسر، على أنْ يُراد به المصدرُ لا الاسم.

وهنا ثلاثُ مسائلَ:

الأولى: في تعيينِ ليلة القدر، وقد اختلف العلماءُ في ذلك. والذي عليه المُعْظَمُ أنَّها ليلةُ سبعٍ وعشرين؛ لحديثِ زِرّ بنِ حُبَيْش قال: قلتُ لأبيّ بنِ كعب: إنَّ أخاك

---

(١) ذكره البغوي ٤/ ٥١٢ دون قوله: وفي سائر الليالي...

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٥١٢ . وأخرجه سعيد بن منصور، كما ذكر ابن كثير عند تفسير هذه الآية.

(٣) سيأتي ص٤٠٣ من هذا الجزء.

(٤) أخرجه بنحوه سعيد بن منصور، كما ذكر ابن كثير عند تفسير هذه الآية.

(٥) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٣٨٦ ، والطبري ٤/ ٥٤٨ - ٥٤٩ .

(٦) السبعة ص ٦٩٣ ، والتيسير ص ٢٢٤ عن الكسائي.

عبدَ الله بنَ مسعودٍ يقول: مَن يَقُمِ الحَوْلَ يُصِبْ ليلةَ القدر. فقال: يَغفِرُ الله لأبي عبدِ الرحمن! لقد عَلِم أنها في العَشْرِ الأواخِرِ من رمضان، وأنَّها ليلةُ سبعٍ وعشرين، ولكنَّه أراد ألَّا يَتَّكِلَ الناس، ثم حلف لا يستثني: أنَّها ليلةُ سبعٍ وعشرين. قال: قلت: بأيِّ شيءٍ تقولُ ذلك يا أبا المنذر؟ قال: بالآية التي أَخْبرَنا بها رسولُ الله ﷺ - أو بالعلامة - أنَّ الشمسَ تَطْلُعُ يومئذٍ لا شُعاعَ لها. قال الترمذيُّ: حديثٌ حسنٌ صحيح. وخرَّجه مسلم[(١)].

وقيل: هي في شهرِ رمضانَ دونَ سائرِ العام؛ قاله أبو هريرةَ وغيرُه[(٢)].

وقيل: هي في ليالي السنةِ كلِّها. فَمَن علَّق طلاقَ امرأتِه أو عِتْقَ عبدِه بليلةِ القدرِ، لم يقع العِتقُ والطلاقُ إلَّا بعد مُضِيِّ سنةٍ من يوم حَلَف[(٣)]؛ لأنه لا يجوزُ إيقاعُ الطلاقِ بالشكِّ، ولم يَثْبتِ اختصاصُها بوقتٍ؛ فلا ينبغي وقوعُ الطلاقِ إلَّا بمضيِّ حَوْلٍ[(٤)]، وكذلك العِتقُ وما كان مِثلَه من يمينٍ أو غيره. وقال ابن مسعود: مَن يَقُمِ الحولَ يُصِبْها، فبلغ ذلك ابنَ عمر، فقال: يرحمُ الله أبا عبدِ الرحمن! أمَا إنَّه عَلِم أنها في العشر الأواخِرِ من شهر رمضان، ولكنَّه أراد ألَّا يتَّكِلَ الناس[(٥)]. وإلى هذا القولِ ذهب أبو حنيفةَ: أنَّها في جميع السنة[(٦)]. وقيل عنه: أنها رُفِعَتْ - يعني ليلةَ القدر - وأنها إنَّما كانت مرةً واحدة. والصحيحُ أنَّها باقيةٌ[(٧)].

---

(١) برقم (٧٦٢)، ص ٨٢٨، وهو عند الترمذي (٣٣٥١)، وأخرجه أحمد (٢١١٩٣).

(٢) أخرجه عن أبي هريرة عبد الرزاق في المصنف (٧٧٠٧)، وأخرجه (٧٧٠٨) عن ابن عباس، وذكره ابن عبد البر في التمهيد ٢/ ٢٠٨ عن ابن عمر وأبي ذر وأبي هريرة وابن عباس.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٥١٠ .

(٤) أحكام القرآن للكيا الطبري ٣/ ٤٣١ .

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٥١٠، ومجمع البيان ٣٠/ ١٩٣، وقد سلف قريباً قول ابن مسعود في حديث أُبيٍّ أيضاً.

(٦) ذكره الجوزجاني عن أبي حنيفة وأبي يوسف ومحمد، كما في التمهيد ٢/ ٢٠٨ .

(٧) وذكر القول عن أبي حنيفة ابن عطية في المحرر ٥/ ٥٠٥ وقال: هذا قول مردود، وإنما رفع تعيينها.

ورُوي عن ابن مسعود أيضاً: أنَّها إذا كانت في يومٍ من هذه السنة، كانت في العام المقبلِ في يومٍ آخَر.

والجمهورُ على أنَّها في كلِّ عامٍ من رمضانَ، ثم قيل: إنها الليلةُ الأولى من الشهر؛ قاله أبو رَزِين العُقَيلي[1]. وقال الحسن وابنُ إسحاقَ وعبد الله بن الزُّبير: هي ليلةُ سبعَ عَشْرَة من رمضان، وهي الليلةُ التي كانت صبيحتَها وقعةُ بدْر. كأنهم نزعوا بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِۗ﴾ [الأنفال: ٤١]، وكان ذلك ليلةَ سَبْعَ عَشْرةَ[2]، وقيل: هي ليلةُ التاسعِ عَشَر[3].

والصحيحُ المشهورُ: أنها في العَشْرِ الأواخِر من رمضان، وهو قولُ مالكٍ والشافعيِّ والأوزاعيِّ وأبي ثور وأحمدَ[4]. ثم قال قومٌ: هي ليلةُ الحادي والعشرين. ومال إليه الشافعيُّ ﷺ، لحديثِ الماءِ والطينِ؛ رواه أبو سعيد الخُدْرِيُّ، خرَّجه مالك وغيرُه[5].

وقيل: ليلة الثالثِ والعشرين؛ لِمَا رواه ابنُ عمر: أنَّ رجلاً قال: يا رسولَ الله، إنِّي رأيتُ ليلةَ القدرِ في سابعةٍ تبقى. فقال النبيُّ ﷺ: «أرى رؤياكم قد تَواطَأَتْ على

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٥١٠، والمحرر الوجيز ٥/ ٥٠٥.

(٢) سيرة ابن هشام ١/ ٢٤٠، وتفسير البغوي ٤/ ٥١٠، والمحرر الوجيز ٥/ ٥٠٥، وأحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٩٥٣. وذكره ابن عبد البر في التمهيد ٢/ ٢٠٦ عن ابن مسعود ﷺ.

(٣) أخرجه عبد الرزاق (٧٦٩٦) عن علي ﷺ، أنه كان يتحرى ليلة القدر ليلة تسع عشرة، وإحدى وعشرين، وثلاث وعشرين.

(٤) ذكر قولهم ابن عبد البر في الاستذكار ١٠/ ٣٣٨، والقاضي عياض في إكمال المعلم ٤/ ١٤٣، وأبو العباس في المفهم ٣/ ٢٥١: أنها في العشر الأواخر، وأنها متنقلة فيه. قال أبو العباس: وبهذا يجتمع شتات الأحاديث الواردة في تعيينها.

(٥) موطأ مالك ١/ ٣١٩، وهو عند أحمد (١١٠٣٤)، والبخاري (٢٠٢٧)، ومسلم (١١٦٧)، وفيه: «... وقد رأيت هذه الليلة ثم أُنسيتُها، وقد رأيتني أسجد من صبحها في ماء وطين، فالتمسوها في العشر الأواخر، والتمسوها في كلِّ وتر» قال أبو سعيد: فأمطرت السماء تلك الليلة، وكان المسجد على عريش، فوكف المسجد. قال أبو سعيد: فأبصرت عيناي رسول الله ﷺ انصرف وعلى جبهته وأنفه أثر الماء والطين، من صبح ليلة إحدى وعشرين.

ثلاثٍ وعشرين، فَمَن أراد أن يقوم من الشهر شيئاً فليَقُمْ ليلةَ ثلاثٍ وعشرين». قال معمر: فكان أيوبُ يغتسلُ ليلةَ ثلاثٍ وعشرين ويَمَسُّ طِيْباً[١]. وفي «صحيح» مسلمٍ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «إنِّي رأيتُ أنِّي أسجدُ في صبيحتها في ماءٍ وطين». قال عبد الله بن أنيس: فرأيتُه في صبيحةِ ليلةِ ثلاثٍ وعشرين [سجد] في الماء والطين، كما أخبر رسولُ الله ﷺ[٢].

وقيل: ليلة خمسٍ وعشرين؛ لحديثِ أبي سعيد الخدريِّ: أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «التمِسوها في العشر الأواخِر في تاسعةٍ تَبْقَى، في سابعةٍ تبقى، في خامسةٍ تبقى». رواه مسلم[٣]، قال مالك: يريدُ بالتاسعة ليلةَ إحدى وعشرين، والسابعةِ ليلةَ ثلاثٍ وعشرين، والخامسةِ ليلةَ خمسٍ وعشرين[٤].

وقيل: ليلة سبعٍ وعشرين. وقد مضى دليلُه، وهو قولُ عليٍّ ﷺ وعائشةَ ومعاويةَ وأبيّ بنِ كعب[٥]. ورَوَى ابنُ عمر أنَّ رسول الله ﷺ قال: «مَن كان متحرِّياً ليلةَ القدرِ، فلْيَتَحرَّها ليلةَ سبعٍ وعشرين»[٦].

---

(١) ذكره بهذا اللفظ الطبرسي في مجمع البيان ٣٠/١٩٣ - ١٩٤، ومختصراً ابن الجوزي في زاد المسير ٩/١٨٥، وأخرجه بنحوه عبد الرزاق (٧٦٨٨).

(٢) بنحوه في صحيح مسلم (١١٦٨)، ونقله المصنف عن ابن العربي في أحكام القرآن ٤/١٩٥٤، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٣) كذا نقل المصنف عن ابن العربي في أحكام القرآن ٤/١٩٥٤، وهذا اللفظ الذي ذكره هو من حديث ابن عباس رضي الله عنهما عند أحمد (٢٠٥٢)، والبخاري (٢٠٢٢). وحديث أبي سعيد عند مسلم (١١٦٧): (٢١٧)، وفيه: «التمسوها في العشر الأواخر من رمضان، التمسوها في التاسعة والسابعة والخامسة».

(٤) المدونة ١/٢٣٩.

(٥) قول أبيّ ﷺ سلف، وذكره البغوي ٤/٥١١، وابن الجوزي ٩/١٨٧ عن علي وعائشة رضي الله عنهما، وأخرج أبو داود (١٣٨٦) من حديث معاوية ﷺ مرفوعاً: «ليلة القدر ليلة سبع وعشرين».

(٦) أخرجه أحمد (٤٨٠٨).

وقال أبيّ بنُ كعب: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «ليلةُ القدرِ ليلةُ سبعٍ وعشرين»[١].

وقال أبو بكر الورَّاق: إنَّ الله تعالى قَسَم لياليَ هذا الشهرِ ـ شهرِ رمضانَ ـ على كلماتِ هذه السورة، فلمَّا بلغ السابعةَ والعشرين أشار إليها فقال: هي. وأيضاً فإنَّ ليلةَ القدرِ كُرِّر ذِكْرُها ثلاثَ مرَّاتٍ، وهي تسعةُ أحرفٍ، فتجيءُ سبعاً وعشرين[٢].

وقيل: هي ليلةُ تسعٍ وعشرين؛ لمَا رُوِي أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «ليلةُ القدرِ التاسعةُ والعشرون، أو السابعةُ والعشرون، وإنَّ الملائكةَ في تلك الليلةِ بعدد الحصى»[٣].

وقد قيل: إنَّها في الأشفاع؛ قال الحسن: ارتقبتُ الشمسَ ليلةَ أربعٍ وعشرين عشرين سنةً، فرأيتُها تطلعُ بيضاءَ لا شعاعَ لها[٤]. يعني من كثرةِ الأنوارِ في تلك الليلة.

وقيل: إنها مستورةٌ في جميع السنة؛ ليجتهد المرءُ في إحياءِ جميعِ الليالي.

وقيل: أخفاها في جميعِ شهرِ رمضان؛ ليجتهدوا في العمل والعبادةِ لياليَ شهرِ رمضانَ؛ طمعاً في إدراكها، كما أَخفَى الصلاةَ الوسطى في الصلوات، واسمَه الأعظمَ في أسمائه الحُسْنى، وساعةَ الإجابةِ في ساعات الجمعةِ وساعاتِ الليل، وغضبَه في المعاصي، ورضاه في الطاعات، وقيامَ الساعةِ في الأوقات، والعبدَ الصالحَ بين العباد؛ رحمةً منه وحكمة.

الثانية: في علاماتها: منها أنَّ الشمس تطلعُ صبيحةَ يومها[٥] بيضاءَ لا شعاعَ لها.

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ الطحاوي في شرح معاني الآثار ٣/ ٩٢ . وجاء في بعض رواياته عند أحمد (٢١١٩٠): ... هي الليلة التي أخبرنا بها رسول الله ﷺ، ليلة سبع وعشرين...، وعند مسلم (٧٦٢): ... هي الليلة التي أمرنا بها رسول الله ﷺ بقيامها، هي ليلة صبيحة سبع وعشرين...

(٢) زاد المسير ٩/ ١٨٨ .

(٣) أخرجه أحمد (١٠٧٣٤). وقال ابن كثير عند تفسير هذه الآية: إسناده لا بأس به.

(٤) أخرجه عبد الرزاق (٧٦٩٨).

(٥) في (م): أن تطلع الشمس في صبيحتها.

وقال الحسن قال النبيُّ ﷺ في ليلة القدر: «إنَّ من أَمَاراتها: أنَّها ليلةٌ سَمْحَةٌ بَلْجَة، لا حارَّةٌ ولا باردةٌ، تطلع الشمسُ صبيحتَها ليس لها شعاعٌ»[١]. وقال عبيد بن عمير: كنتُ ليلةَ السابعِ والعشرين في البحر، فأخذتُ من مائه، فوجدتُه عذباً سَلِساً[٢].

الثالثة: في فضائلها. وحَسْبُك بقوله تعالى: ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾. وقوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا﴾. وفي الصحيحين: «مَنْ قام ليلةَ القَدْرِ إيماناً واحتساباً غُفر له ما تَقَدَّم من ذَنْبه» رواه أبو هريرة[٣].

وقال ابن عباس: قال النبيُّ ﷺ: «إذا كان ليلةُ القدْرِ، تَنَزَّلُ الملائكةُ الَّذِينَ هم سُكَّانُ سِدْرة المُنْتَهى، منهم جبريلُ، ومعهم أَلْوِيةٌ يُنْصَبُ منها لواءٌ على قبري، ولواءٌ على بيتِ المقدِسِ، ولواءٌ على المسجدِ الحرام، ولواءٌ على طُور سَيْناء، ولا تَدَعُ فيها مؤمناً ولا مؤمنةً إلَّا تُسَلِّم عليه، إلَّا مُدْمِنَ الخمرِ، وآكِلَ الخِنزيرِ، والمتَضَمِّخ بالزعفران»[٤].

وفي الحديث: «إنَّ الشيطانَ لا يخرجُ في هذه الليلة حتَّى يُضيءَ فَجْرُها، ولا يستطيعُ أن يصيب فيها أحداً بخَبْلٍ ولا شيءٍ من الفساد، ولا ينفذُ فيها سحرُ ساحرٍ»[٥].

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٥١١، وأخرجه بنحوه ابن أبي شيبة ٣/ ٧٧، وأخرج نحوه أحمد (٢٢٧٦٥) من حديث عبادة بن الصامت ﷺ. وابن خزيمة (٢١٩٠) من حديث جابر ﷺ.

(٢) أخرجه أحمد في العلل ومعرفة الرجال (٢٧٧٧) عن عبدة بن أبي لبابة. وأخرجه البيهقي في الشعب (٣٦٩١) عن أيوب بن خالد. وأخرجه ابن عبد البر في التمهيد ٢١/ ٢١٥ - ٢١٦ عن زهرة بن معبد. ولم نقف عليه عن عبيد بن عمير.

(٣) صحيح البخاري (١٩٠١)، وصحيح مسلم (٧٦٠)، وهو عند أحمد (٨٥٧٦).

(٤) لم نقف عليه.

(٥) قوله: «إن الشيطان لا يخرج في هذه الليلة حتى يضيء فجرها» قطعة من حديث أخرجه ابن خزيمة (٢١٩٠)، وابن حبان (٣٦٨٨) عن جابر ﷺ.

وقال الشعبيُّ: وليلُها كيَوْمِها، ويومُها كَلَيْلِها[1].

وقال الفرَّاءُ: لا يقدِّر اللهُ في ليلة القَدْرِ إلَّا السعادةَ والنِّعم، ويقدِّر في غيرها البلايا والنِّقَم، وقد تقدَّم عن الضحَّاك[2]. ومثلُه لا يقال من جهة الرأي، فهو مرفوعٌ. والله أعلم.

وقال سعيد بن المسيب في «الموطأ»[3]: [مَنْ شهِد العشاءَ من ليلةِ القدْرِ، فقد أَخَذَ بحظِّه منها]، ومثلُه لا يُدْرَكُ بالرأي.

وقد رَوَى عُبَد الله بن عامر بن ربيعة: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «مَن صلَّى صلاةَ المغربِ والعشاءِ الآخرةِ من ليلةِ القدرِ في جماعةٍ فقد أَخَذَ بحظِّه من ليلةِ القَدْر» ذكره الثعلبيُّ في تفسيره[4].

وقال عائشةُ رضي الله عنها: قلتُ: يا رسولَ الله إنْ وافقتُ ليلةَ القَدرِ فما أقولُ؟ قال: «قُولي: اللهمَّ إنَّك عَفُوٌّ تُحِبُّ العفوَ فاعْفُ عنِّي»[5].

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة ٢/ ٥١٥.

(٢) ص٣٩٧ من هذا الجزء، ولم نقف على قول الفراء في معاني القرآن له.

(٣) ١/ ٣٢١ وما سيأتي بين حاصرتين منه.

(٤) أخرجه البيهقي في الشعب (٣٧٠٧) من حديث أنس ﷺ، وأخرجه ابن أبي شيبة ٢/ ٥١٥ عن سعيد بن المسيب قوله.

(٥) أخرجه أحمد (٢٥٣٨٤)، والترمذي (٣٥١٣) وقال: حسن صحيح.

تفسير سورة «لم يكن»

وهي مكِّيةٌ في قولِ يحيى بنِ سلام. ومدنيةٌ في قول ابنِ عباس والجمهور[1]. وهي تسعُ آيات.

وقد جاء في فَضْلِها حديثٌ لا يصحُّ، رويناه عن محمد بن عبد الله الحضرميّ قال: قال لي أبو عبد الرحمن بن نُمَير: اذهبْ إلى الهيثم[2] الخشَّاب فاكتُبْ عنه فإنه قد كَتَب، فذهبت إليه، فقال: حدَّثنا مالك بن أنس، عن يحيى بن سعيد، عن سعيد ابن المسيِّب، عن أبي الدرداء، قال: قال رسول الله ﷺ: «لو يعلمُ الناسُ ما في [لَمْ يَكُنِ] الذين كفروا مِن أهل الكِتابِ، لعطَّلوا الأهلَ والمالَ، فتعلَّموها» فقال رجلٌ من خزاعةَ: وما فيها من الأجر يا رسولَ الله؟ قال: «لا يقرؤها منافقٌ أبداً، ولا عبدٌ في قلبه شكٌّ في الله. والله إنَّ الملائكةَ المقرَّبين يقرؤونها مُنذُ خَلَق الله السمواتِ والأرضَ وما يَفْتُرُون من قراءتها. وما مِن عبدٍ يقرؤها إلَّا بعث الله إليه ملائكةً يحفظونه في دينه ودنياه، ويَدْعون له بالمغفرة والرحمة». قال الحَضْرميُّ: فجئتُ إلى أبي عبدِ الرحمن بن نُمير، فألقيتُ هذا الحديثَ عليه، فقال: هذا قد كفانا مؤونَتَه، فلا تَعُدْ إليه[3].

قال ابن العربيّ[4]: روى إسحاقُ بنُ بشرٍ الكاهليُّ عن مالك بن أنس، عن يحيى ابن سعيد، عن ابن المسيِّب، عن أبي الدرداء، عن النبيّ ﷺ: «لو يَعْلَمُ الناسُ ما في

(١) النكت والعيون ٦/ ٣١٥ ، وأخرجه عن ابن عباس ابن مردويه كما في الدر المنثور ٦/ ٣٧٧ .

(٢) في النسخ: أبي الهيثم، والمثبت من المحدث الفاصل ص ٣١٥ ، والكلام وما سيأتي بين حاصرتين منه.

(٣) يعني أن رواية مثل هذا الحديث تبين حال راويه؛ لأنه حديث باطل لا أصل له. قاله الخطيب، كما ذكر الحافظ في اللسان ٦/ ٢٠٦ في ترجمة الهيثم بن خالد الكوفي الخشاب.

(٤) في أحكام القرآن ٤/ ١٩٥٧ ، وما سيأتي بين حاصرتين منه.

[لم يكن] الذين كفروا، لعطَّلوا الأهلَ والمالَ ولتعلَّموها»[١]. حديثٌ باطلٌ، وإنَّما الحديثُ الصحيحُ ما روي عن أنس: أنَّ النبيَّ ﷺ قال لأبيّ بنِ كعب: «إنَّ الله أمرني أنْ أقرأ عليك: «لم يكن الذين كفروا» قال: وسمَّاني لك!؟ قال: «نعم»، فبَكَى.

قلت: خرَّجه البخاريُّ ومسلم[٢]. وفيه من الفقهِ قراءةُ العالِم على المتعلِّم. قال بعضُهم: إنَّما قرأ النبيُّ ﷺ على أُبيٍّ، ليعلِّم الناسَ التواضُعَ؛ لئلَّا يأنَفَ أحدٌ من التعلُّم والقراءةِ على مَن دونَه في المنزلة.

وقيل: لأن أُبيًّا كان أسرعَ أخذًا لألفاظِ رسولِ اللهِ ﷺ، فأراد بقراءته عليه أن يأخذه ألفاظَه ويقرأ كما سمع منه، ويعلِّم غيرَه. وفيه فضيلةٌ عظيمةٌ لأبيٍّ؛ إذ أَمَر اللهُ رسولَه أن يقرأ عليه.

قال أبو بكر الأنباريُّ: وحدَّثنا أحمد بنُ الهيثم بن خالد، قال: حدَّثنا علي بن الجعد، قال: حدَّثنا عكرمةُ، عن عاصم، عن زِرّ بن حُبيش قال: في قراءةِ أبيّ بن كعب: ابنُ آدمَ لو أُعطِيَ واديًا من مال لالتمسَ ثانيًا، ولو أُعطي واديَيْنِ من مالٍ لالتمسَ ثالثًا، ولا يملأُ جوفَ ابنِ آدمَ إلَّا الترابُ، ويتوبُ الله على مَن تاب[٣]. قال عكرمةُ: قرأ عليَّ عاصم: «لم يَكُنْ» ثلاثين آيةً، هذا فيها. قال أبو بكر: هذا باطلٌ عند أهلِ العلم؛ لأنَّ قراءَتَي ابنِ كثيرٍ وأبي عمرو متَّصِلَتان بأبيّ بن كعب، لا يُقْرأ فيهما هذا المذكورُ في «لم يكن» ممَّا هو معروفٌ في حديثِ رسولِ الله ﷺ، على أنَّه من كلامِ الرسولِ عليه الصلاة والسلام، لا يَحْكيه عن ربِّ العالمين في القرآن. وما رواه اثنان معهما الإجماعُ أَثْبتُ ممَّا يَحْكيه واحدٌ مخالِفاً[٤] مذهبَ الجماعةِ.

---

(١) أخرجه بهذا الإسناد الواحدي في الوسيط ٤/ ٥٣٨، وسقط قوله: عن أبي الدرداء، من مطبوع أحكام القرآن.

(٢) صحيح البخاري (٣٨٠٩)، وصحيح مسلم (٧٩٩)، وهو عند أحمد (١٢٣٢٠)، وسلف ١٧/ ١٦٢.

(٣) أخرجه بنحوه أحمد (١٢٢٠٢)، والترمذي (٣٧٩٣) من طريق شعبة، عن عاصم، عن زر، عن أبي بن كعب ﷺ. وينظر ما سيأتي ص٤٥٠ من هذا الجزء.

(٤) في (د) و(م): مخالف.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝١ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝٢ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ۝٣﴾

قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ كذا قراءةُ العامَّة، وخَطُّ المصحف. وقرأ ابن مسعود: «لم يَكُنِ المشركون وأهلُ الكتابِ مُنْفَكِّين»[١] وهذه قراءةٌ على التفسير؛ قال ابن العربيّ[٢]: وهي جائزةٌ في مَعْرِض البيان، لا في مَعْرِض التلاوة، فقد قرأ النبيُّ ﷺ في روايةِ الصحيح: «فَطَلِّقُوهنَّ لقُبُل عِدَّتهنَّ»[٣] وهو تفسيرٌ؛ فإنَّ التلاوةَ هو ما كان في خطِّ المصحف.

قوله تعالى: ﴿مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ يعني اليهودَ والنصارى. ﴿وَٱلْمُشْرِكِينَ﴾ في موضعِ جرٍّ عطفاً على «أهل الكتاب». قال ابن عباس: «أهلُ الكتابِ»: اليهودُ الذين كانوا بيثرِبَ، وهم قُرَيظَةُ والنَّضِيرُ وبنو قَيْنُقاع. والمشركون: الذين كانوا بمكةَ وحَوْلَها، والمدينةِ والذين حولَها، وهم مشركو قريش. ﴿مُنفَكِّينَ﴾ أي: مُنْتَهين عن كفرهم، زائلين[٤] عنه ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ﴾ أي: أتتهم ﴿ٱلْبَيِّنَةُ﴾ أي: محمدٌ ﷺ.

وقيل: الانتهاءُ: بلوغُ الغاية، أي: لم يكونوا لِيَبلُغوا نهايةَ أعمارِهم فيموتوا، حتى تأتيهم البينةُ. فالانفكاكُ على هذا بمعنى الانتهاء.

وقيل: «مُنفكِّين»: زائلين، أي: لم تكن مدتُهم لتزولَ حتى يأتيهم رسولٌ.

---

(١) القراءات الشاذة ص١٧٦ .

(٢) في أحكام القرآن ٤/١٩٥٧ ، وما قبله منه.

(٣) صحيح مسلم (١٤٧١): (١٤) من حديث ابن عمر رضي الله عنه، وفيه: «... فطلقوهن في قبل عدَّتهن». وينظر ما سلف ٢١/٣٣ عند تفسير الآية الأولى من سورة الطلاق.

(٤) في (م): مائلين.

والعربُ تقول: ما انفكَكْتُ أفعلُ كذا، أي: ما زِلْتُ. وما انفكَّ فلان قائماً: أي: ما زال قائماً.

وأصلُ الفَكِّ: الفتحُ؛ ومنه: فكُّ الكتاب(١)، وفَكُّ الخَلخال، وفك السالم. قال طَرَفة:

فآلَيْتُ لا يَنفَكُّ كَشْحي بطانةً لِعَضْبٍ رقيقِ الشَّفْرَتَيْنِ مُهَنَّدِ(٢)

وقال ذو الرُّمة:

حَرَاجِيجُ ما تَنفكُّ إلَّا مُناخةً على الخَسْفِ أَوْ نَرْمي بها بلداً قَفْرا(٣)

يريد: ما تنفكُّ مُناخةً، فزاد «إلَّا»(٤).

وقيل: «منفكِّين»: بارِحين، أي: لم يكونوا ليبرحوا ويُفارِقوا الدنيا، حتى تأتيهم البينة.

وقال ابن كيسان: أي: لم يكن أهلُ الكتابِ تارِكينَ صفةَ محمدٍ ﷺ في كتابهم، حتى بُعِث، فلمَّا بُعث حَسَدوه وجَحَدوه، وهو كقوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ﴾ [البقرة:٨٩]. ولهذا قال: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ الآية. وعلى هذا فقولُه: «والمُشْرِكينَ»، أي: ما كانوا يسيئون القولَ في محمدٍ ﷺ حتى بُعِث؛ فإنَّهم كانوا يُسمُّونه الأمين، حتى أتتهم البينةُ على لسانه وبُعث إليهم، فحينئذٍ عادَوْه.

---

(١) وهو إزالةُ ختمه وفتحُه. تفسير الرازي ٣٢/٤١ .

(٢) ديوان طرفة ص ٣٧ . قوله: آليت، أي: حلفت. لا ينفك: لا يزال. والكشح: الجنب، والمعنى: لا يزال جنبي لاصقاً بالسيف. والعَضْب: السيف القاطع، وشفرتاه: حدَّاه. ومهند: منسوب إلى الهند. شرح المعلقات للنحاس ١/٨٩ ، وللتبريزي ص ١١٦ .

(٣) ديوان ذي الرمة ٣/١٤١٩ . قال أبو نصر الباهلي شارح الديوان: حراجيج: ضُمْرٌ (يعني النوق). ما تنفك: ما تزال. والخسف: الجوع، وهو أن تبيت على غير علف.

(٤) ضرائر الشعر لابن عصفور ص ٧٥ - ٧٦ ، وهي في قول بعض النحويين ليست زائدة، فقدَّر في «تنفك» التمام، ونصب مناخة على الحال، والمعنى: ما تنفصل عن جهد ومشقة إلا في حال إناختها على الخسف، ورَمْي البلد القفر بها، أي: تنتقل من شدة إلى شدة. أمالي ابن الشجري ٢/٣٧٣ ، وينظر معاني القرآن للفراء ٣/٢٨١ .

وقال بعض اللُّغويين: «مُنْفَكِّينَ»: هالكين، من قولهم: انفكَّ صَلَا المرأةِ[١] عند الولادة، وهو أن ينفصل فلا يلتئم فتهلك. المعنى: لم يكونوا معذَّبين ولا هالكين، إلَّا بعد قيامِ الحجةِ عليهم بإرسال الرسل وإنزال الكتب.

وقال قومٌ في «المشركين»: إنَّهم من أهل الكتاب؛ فمِن اليهود من قال: عزيرٌ ابنُ الله. ومن النصارى مَن قال: عيسى هو الله. ومنهم مَن قال: هو ابنه. ومنهم مَن قال: ثالثُ ثلاثةٍ.

وقيل: أهلُ الكتابِ كانوا مؤمنين، ثم كفروا بعد أنبيائهم. والمشركون وُلِدوا على الفِطرة، فكفروا حين بلغوا. فلهذا قال: «والمُشْرِكينَ».

وقيل: المشركون وصفُ أهلِ الكتابِ أيضاً؛ لأنَّهم لم ينتفعوا بكتابهم، وتركوا التوحيد. فالنصارى مُثَلِّثةٌ، وعامَّةُ اليهودِ مُشَبِّهةٌ، والكلُّ شِركٌ. وهو كقولك: جاءني العقلاءُ والظُّرفَاء، وأنتَ تريد أقوامًا بأعيانهم[٢]، تَصِفُهم بالأمرين. فالمعنى: مِن أهلِ الكتابِ المشركين.

وقيل: إنَّ الكفر هنا هو الكفرُ بالنبيِّ ﷺ، أي: لم يكن الذين كفروا بمحمدٍ من اليهود والنصارى، الذين هم أهلُ الكتاب، ولم يكن المشركون الذين هم عَبَدَةُ الأوثان من العرب وغيرهم ـ وهم الذين ليس لهم كتاب ـ مُنْفَكِّين؛ قال القشيريُّ: وفيه بعدٌ؛ لأنَّ الظاهر من قوله: «حتى تأتيهم البينةُ. رسولٌ مِن اللهِ» أنَّ هذا الرسول هو محمدٌ ﷺ. فيبعُدُ أن يُقال: لم يكن الذين كفروا بمحمدٍ ﷺ منفكِّين حتى يأتيهم محمد، إلَّا أنْ يقال: أراد: لم يكن الذين كفروا الآنَ بمحمدٍ؛ وقد[٣] كانوا من قبلُ

(١) كذا نقل المصنف عن البغوي ٤/ ٥١٣، ومثله في البحر ٨/ ٤٩٨. وذكر أبو عبيد في الغريب المصنف ١/ ٦٨ عن الأصمعي: انهكَّ صلا المرأة انهكاكاً، ومثله في تهذيب اللغة ٥/ ٣٤١، ومجمل اللغة ٣/ ٨٩١، والصحاح (هكك)، واللسان (هكك). والصلا: وسط الظهر، أو ما انحدر من الوَرِكين. القاموس (صلو).

(٢) في النسخ الخطية: بعينهم.

(٣) في (م): وإن.

مُعَظِّمين له، بمنتهين عن هذا الكفر، إلى أن يبعث الله محمداً إليهم، ويبيِّن لهم الآيات، فحينئذٍ يؤمنُ قوم.

وقرأ الأعمشُ وإبراهيم: «والمشركُونَ» رفعاً، عطفاً على «الذين»[١]. والقراءةُ الأولى أَبْيَنُ؛ لأنَّ الرفع يصير فيه الصِّنفان كأنهم من غير أهل الكتاب.

وفي حرفِ أبيٍّ: «فما كان الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركون منفكِّين»[٢].

وفي مصحفِ ابنِ مسعود: «لم يكنِ المشركون وأهلُ الكتابِ منفكِّين». وقد تقدَّم[٣].

﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ قيل: حتى أتتهم. والبيِّنَةُ: محمدٌ ﷺ. ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: بَعيثٌ من الله جلَّ ثناؤه. قال الزَّجَّاج[٤]: «رسولٌ» رفع على البدل من «البينة». وقال الفرَّاء: أي: هي رسولٌ من الله، أو: هو رسولٌ من الله؛ لأنَّ البينة قد تذكَّر فيقال: بيِّنتي فلان. وفي حرفِ أُبيٍّ وابن مسعود: «رَسُولًا» بالنصب على القطع[٥].

﴿يَتْلُوا۟﴾ أي: يقرأ. يقال: تلا يتلو تلاوةً. ﴿صُحُفًا﴾ جمع صحيفة، وهي ظرفُ المكتوب. ﴿مُّطَهَّرَةً﴾ قال ابن عباس: من الزُّور والشكِّ والنفاق والضَّلالة. وقال قتادة: من الباطل. وقيل: من الكذب والشُّبُهات والكفر، والمعنى واحد. أي: يقرأ ما تتضمَّنُ الصحفُ من المكتوب، ويدلُّ عليه أنه كان يتلو عن ظَهْرِ قلبِه لا عن كتاب؛ لأنه كان أمِّيًّا لا يكتبُ ولا يقرأ.

و«مُطَهَّرَةً»: مِن نَعْتِ الصُّحف، وهو كقوله تعالى: ﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ﴾ [عبس: ١٣]، فالمطهرةُ نعتٌ للصُّحفِ في الظاهر، وهي نعتٌ لِمَا في الصُّحف من القرآن.

---

(١) ذكرها أبو حيان في البحر ٨/ ٤٩٨ دون نسبة.

(٢) ذكرها الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٣١٦ بلفظ: «ما كان الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين».

(٣) في بداية تفسير هذه الآية.

(٤) في معاني القرآن ٥/ ٣٤٩ .

(٥) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٨٢ ، والقراءات الشاذة ص ١٧٦ ، والكشاف ٤/ ٢٧٤ .

وقيل: «مطهرة» أي: ينبغي ألَّا يَمَسَّها إلَّا المطهَّرون، كما قال في سورة الواقعة حَسْبَ ما تقدَّم بيانُه[١].

وقيل: الصُّحف المطهَّرة: هي التي عند الله في أمِّ الكتاب، الذي منه نُسِخ ما أنزل على الأنبياء من الكتب، كما قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ [البروج: ٢١-٢٢]. قال الحسن: يعني الصُّحفَ[٢] المطهَّرةَ في السماء.

﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ أي: مستقيمةٌ مستويةٌ مُحْكَمةٌ، من قول العرب: قام يقوم: إذا استوى وصح.

وقال بعضُ أهلِ العلم: الصحفُ هي الكتب، فكيف قال: في صحفٍ فيها كُتب؟

فالجواب: أنَّ الكتب هنا بمعنى الأحكام؛ قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ﴾ [المجادلة: ٢١] بمعنى: حَكَم. وقال ﷺ: «والله لأقضِينَّ بينكما بكتابِ الله» ثم قضى بالرَّجم[٣]، وليس ذِكْرُ الرَّجْمِ مسطوراً في الكتاب، فالمعنى: لأقضينَّ بينكما بحُكْمِ الله تعالى، وقال الشاعر:

ومـالَ[٤] الـولاءُ بـالـبـلاءِ فـمـلـتُـمُ ... ومـا ذاكَ قـال الـلـهُ إذ هـو يَـكْـتُـبُ[٥]

وقيل: الكتبُ القيِّمة: هي القرآن، فجعله كتباً لأنه يشتملُ على أنواعٍ من البيان.

---

(١) عند تفسير الآية (٧٩) منها.

(٢) في (ز) و(ظ): بالصحف، وفي (د): في الصحف، والمثبت من (م)، وهو الموافق لما في المحرر الوجيز ٥/ ٥٠٧.

(٣) أخرجه مطولاً أحمد (١٧٠٣٨)، والبخاري (٢٦٩٥، ٢٦٩٦)، ومسلم (١٦٩٧، ١٦٩٨) من حديث أبي هريرة وزيد بن خالد الجهني، وسلف ٦/ ١٤٥ و٧/ ٢٥١. والكلام بنحوه في تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ص ٩٤، وغريب الحديث له ١/ ٧٠.

(٤) في النسخ: وما، والمثبت من المصادر على ما يأتي.

(٥) تأويل مختلف الحديث ص ٩٤ لابن قتيبة، وغريب الحديث له ١/ ٧٠، ونسبه ابن قتيبة للنابغة الجعدي، وهو في ديوانه ص ١٠ برواية:

ومـال الـولاء بـالـبـلاء فـمـلـتـم ... عـلـيـنـا وكـان الـحـقُّ أن تـتـقـربـوا

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ أي: من اليهود والنصارى. خصَّ أهلَ الكتابِ بالتفريق دون غيرهم، وإن كانوا مجموعين مع الكافرين؛ لأنَّهم مظنونٌ بهم عِلْمٌ، فإذا تفرَّقوا كان غيرهم ممَّن لا كتابَ له أَدْخَلُ في هذا الوصف.

﴿إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ أي: أتتهم البيِّنةُ الواضحة. والمعنيُّ به محمدٌ ﷺ، أي: بالقرآن[1] موافقاً لمَا في أيديهم من الكتاب بنَعْتِه وصِفَتِه. وذلك أنهم كانوا مجتمعين على نبوَّته، فلمَّا بُعِث جحدوا نبوَّته وتفرَّقوا، فمنهم مَن كفر بغياً وحسداً، ومنهم مَن آمَن، كقوله تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ١٤].

وقيل: «البينة»: البيانُ الذي في كتبهم أنه نبيٌّ مرسَلٌ. قال العلماء: مِن أوَّل السورة إلى قوله «قَيِّمَةٌ»: حكمها فيمَن آمَن مِن أهل الكتاب والمشركين. وقوله: «وما تفرق»: حُكْمُه فيمَن لم يؤمن من أهل الكتاب بعد قيامِ الحجج.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ۝﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قولُه تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا﴾ أي: وما أُمِر هؤلاء الكفارُ في التوراة والإنجيل ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ﴾ أي: ليوحِّدوه. واللامُ في «لِيعبدوا» بمعنى «أنْ»، كقوله: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ [النساء: ٢٦] أي: أنْ يبيِّن، و﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ﴾ [الصف: ٨]، و﴿وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٧١]. وفي حرفِ عبدِ الله: «وما أُمِروا إلَّا أنْ يَعبدوا اللهَ»[2].

---

(١) في (م): القرآن.

(٢) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٨٢ .

﴿مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي: العبادةَ، ومنه قولُه تعالى: ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ [الزمر: ١١]. وفي هذا دليلٌ على وجُوب النيةِ في العبادات؛ فإنَّ الإخلاص مِن عَمَلِ القلب، وهو أن[١] يرادَ به وجهُ الله تعالى لا غيره.

الثانية: قولُه تعالى: ﴿حُنَفَآءَ﴾: أي: مائلين عن الأديان كلِّها إلى دين الإسلام، وكان ابن عباس يقول: «حنفاء»: على دين إبراهيمَ عليه السلام[٢]. وقيل: الحَنِيف: مَن اخْتَتَن وحج؛ قاله سعيد بن جبير[٣]. قال أهلُ اللغةِ: وأصلُه أنه تَحَنَّفَ إلى الإسلام، أي: مالَ إليه.

الثالثة: قولُه تعالى: ﴿وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: بحدودها في أوقاتها ﴿وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي: يُعطوها عند مَحِلِّها ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ أي: ذلك الدينُ الذي أُمِروا به دِينُ القَيِّمة، أي: الدينُ المستقيم. وقال الزجَّاج[٤]: أي: ذلك دِينُ المِلَّةِ المستقيمة، و«القيِّمة» نعتٌ لموصوفٍ محذوف. أو يقال: دِينُ الأمةِ القَيِّمة بالحق، أي: القائمةِ بالحقّ.

وفي حرف عبد الله: «وذلك الدِّينُ القَيِّمة»[٥]. قال الخليل: «القَيِّمة» جمعُ القَيِّم، والقيم والقائم واحد[٦].

وقال الفرَّاء: أضاف الدِّين إلى القيمة وهو نعتُه؛ لاختلاف اللَّفْظَين. وعنه أيضاً:

---

(١) في (م): وهو الذي، والمثبت من النسخ الخطية، والكلام بنحوه في أحكام القرآن للكيا الطبري ٣/ ٤٣١.

(٢) ذكره الرازي ٣٢/ ٤٦ عن مجاهد.

(٣) النكت والعيون ٦/ ٣١٧، والمحرر الوجيز ٥/ ٥٠٨.

(٤) في معاني القرآن ٥/ ٣٥٠.

(٥) في النسخ: القيم، والمثبت من معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٨٢، وإعراب القرآن للنحاس ٥/ ٢٧٣، والكشاف ٤/ ٢٧٥، والمحرر الوجيز ٥/ ٥٠٨، والبحر ٨/ ٤٩٩، قال أبو حيان: فالهاء على هذه القراءة للمبالغة، أو أنث على أن عنَى بالدين الملة، كقوله: ما هذه الصوت، يريد: ما هذه الصيحة.

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٥١٤.

هو من بابِ إضافةِ الشيءِ إلى نفسه، ودخلت الهاءُ للمدح والمبالغة[(١)]. وقيل: الهاءُ راجعةٌ إلى الملَّة أو الشريعة.

وقال محمد بن الأشعث الطَّالقانيُّ[(٢)]: «القَيِّمة» هاهنا: الكتبُ التي جرى ذِكْرها، والدِّينُ مضافٌ إليها.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٧﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ﴾ «المشركين»: معطوفٌ على «الَّذين»، أو يكونُ مجروراً معطوفاً على «أهل». ﴿فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ قرأ نافع وابن ذكوان بالهمز على الأصل في الموضعين[(٣)]، من قولهم: بَرَأ الله الخَلْقَ، وهو البارئُ الخالق، وقال: ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ [الحديد: ٢٢].

الباقون بغير همزٍ، وشدّ الياءِ عِوضاً منه. قال الفرَّاء[(٤)]: إنْ أُخذت البَرِيَّة من البَرَى، وهو التراب، فأصلُه غيرُ الهمز؛ تقول منه: بَرَاه اللهُ يبرُوه بَرْوًا، أي: خَلَقه.

قال القُشَيْرِيُّ: ومَن قال البَرِية من البَرَى، وهو التراب، قال: لا تدخلُ الملائكة تحت هذه اللفظة. وقيل: البَرِيَّةِ: مِن بَرَيْت القلَم، أي: قدَّرته، فتدخل فيه الملائكة. ولكنَّه قولٌ ضعيف؛ لأنَّه يجب منه تخطئةُ مَن هَمَز.

وقولُه: «شرُّ البَرِيَّة» أي: شرُّ الخليقة؛ فقيل: يحتملُ أن يكون على التعميم. وقال

---

(١) ينظر معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٨٢، وتفسير البغوي ٤/ ٥١٤، وتفسير الرازي ٣٢/ ٤٧.

(٢) قوله في المحرر الوجيز ٥/ ٥٠٨.

(٣) السبعة ص ٦٩٣، والتيسير ص ٢٢٤.

(٤) في معاني القرآن ٣/ ٢٨٢، ونقله المصنف عنه بواسطة الجوهري في الصحاح (برا).

قومٌ: أي: هم شرُّ البريةِ الذين كانوا في عصر النبيّ ﷺ، كما قال تعالى: ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة:٤٧] أي: على عالَمِي زمانِكم. ولا يبعدُ أن يكون في كفار الأمم قبلَ هذا مَن هو شرٌّ منهم، مثل فرعون وعاقرِ ناقةِ صالح. وكذا «خَيْرُ البَرِيَّة»: إمَّا على التعميم، أو خير بَرِيةِ عصرِهم.

وقد استدلَّ بقراءة الهمز مَن فضَّل بني آدمَ على الملائكة، وقد مضى في سورة البقرة القولُ فيه[١]. وقال أبو هريرةَ ﷺ: المؤمنُ أكرمُ على اللهِ عزَّ وجلَّ من بعض الملائكة الذين عنده[٢].

قوله تعالى: ﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿جَزَآؤُهُمْ﴾ أي: ثوابُهم ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي: خالِقهم ومالِكِهم ﴿جَنَّٰتُ﴾ أي: بساتين ﴿عَدْنٍ﴾ أي: إقامة. والمفسِّرون يقولون: «جَناتُ عَدْنٍ» بُطْنانُ الجَنَّةِ، أي: وَسَطُها؛ تقول: عَدَن بالمكان يَعْدِن عُدُوناً: أقام. ومَعْدِنُ الشيء: مَرْكزُه ومُسْتَقَرُّه. قال الأعشى:

وإنْ يُسْتَضافوا إلى حُكْمِه ... يُضافوا إلى راجِحٍ قد عَدَنْ[٣]

﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ لا يَظْعَنون ولا يموتون. ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ أي: رضِيَ أعمالَهم؛ كذا قال ابن عباس[٤]. ﴿وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ أي: رَضُوا هم بثوابِ الله عزَّ وجلَّ. ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الجنة ﴿لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ﴾ أي: خاف ربَّه، فتناهَى عن المعاصي.

---

(١) ١/ ٤٣٠.

(٢) أخرجه موقوفاً البيهقي في الشعب (١٥٢)، وأخرجه ابن ماجه (٣٩٤٧)، وابن حبان في المجروحين ٣/ ٩٩ من حديث أبي هريرة ﷺ مرفوعاً، والموقوف والمرفوع في إسناديهما يزيد بن سنان أبو المهزِّم، قال عنه الحافظ في التقريب: متروك.

(٣) ديوان الأعشى ص ٦٩ برواية: يضافوا إلى هادنٍ قد رَزَنْ، وهو في اللسان (وزن) برواية: عادلٍ قد وَزَنْ.

(٤) ذكره الرازي ٣٢/ ٥٦ دون نسبة.

سورة «الزَّلْزَلَة»

مدنيةٌ في قول ابنِ عباسٍ وقتادة[(١)]. ومكّيةٌ في قول ابنِ مسعودٍ وعطاءٍ وجابر[(٢)]. وهي تسعُ آياتٍ.

قال العلماء: وهذه السورةُ فَضْلُها كثير[(٣)]، وتحتوي على عظيم. رَوَى الترمذيُّ عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: مَن قرأ ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾ عُدِلَتْ له بنصفِ القرآن. ومَن قرأ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ عُدِلَتْ له بربعِ القرآن، ومَن قرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ عُدِلَتْ له بثُلُثِ القُرْآن». قال: حديثٌ غريبٌ، وفي الباب عن ابن عباس[(٤)].

ورُوِي عن عليٍّ ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن قرأ ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾ أربعَ مرَّاتٍ، كان كَمَن قرأ القرآنَ كلَّه»[(٥)].

وروى عبد الله بن عمرو بن العاص قال: لمَّا نزلت ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾ بكى أبو بكر، [فقال له رسول الله ﷺ: «ما يبكيك يا أبا بكر؟» قال: أبكتني هذه السورة] فقال النبيُّ ﷺ: «لولا أنَّكم تُخطِئُون وتُذْنِبون ويغفِرُ اللهُ لكم، لَخَلَق أمةً يُخطئون ويُذْنبون فيغفرُ لهم، إنَّه هو الغفورُ الرَّحيم»[(٦)].

---

(١) أخرجه عنهما ابن مردويه، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٧٩ ، وقول ابن عباس أخرجه البيهقي في دلائل النبوة ٧/ ١٤٤ ، وذكره النحاس في الناسخ والمنسوخ ٣/ ١٥٣ .

(٢) زاد المسير ٩/ ٢٠١ .

(٣) في (ظ): كبير.

(٤) سنن الترمذي (٢٨٩٣)، وحديث أنس في إسناده الحسن بن سَلم، وهو مجهول كما ذكر الحافظ في التقريب. وحديث ابن عباس أخرجه الترمذي أيضاً (٢٨٩٤) وقال: حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث يمان بن المغيرة. اهـ. ويمان بن المغيرة ضعيف، كما ذكر الحافظ في التقريب.

(٥) أخرجه الثعلبي، كما ذكر الحافظ في تخريج أحاديث الكشاف ص ١٨٧ ، قال الحافظ: لكنه من رواية أبي القاسم الطائي، وهو ساقط. اهـ. وله شاهد من حديث أنس ﷺ عند أحمد (١٢٤٨٨)، وفي إسناده سلمة بن وردان، وهو ضعيف كما ذكر الحافظ في التقريب.

(٦) أخرجه الطبري ٢٤/ ٥٦٨ ، والطبراني (٨٧ – قطعة من الجزء ١٣)، والواحدي في أسباب النزول =

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١﴾

أي: حرِّكَتْ من أصْلِها. كذا رَوى عِكْرمةُ عن ابن عباس[١]، وكان يقول: في النفخة الأولى يزلزلُها ـ وقاله مجاهدٌ ـ كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ﴾ [النازعات:٦] ثم تُزَلْزَلُ ثانيةً فتُخرِجُ مَوْتاها، وهي الأثقال[٢]. وذُكِر المصدرُ للتأكيد، ثم أضيف إلى الأرض، كقولك: لأُعطينَّك عَطِيَّتك، أي: عَطيَّتي لك. وحَسُنَ ذلك لموافقة رؤوس الآيِ بعدها.

وقراءةُ العامَّةِ بكسر الزاي من الزلزال، وقرأ الجحدريُّ وعيسى بنُ عمر بفَتْحِها[٣]، وهو مصدرٌ أيضاً، كالوَسواس والقَلقال والجَرْجار. وقيل: الكسرُ المصدرُ، والفتحُ الاسم[٤].

قوله تعالى: ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢﴾

قال أبو عبيدة والأخفش: إذا كان الميت في بطن الأرض، فهو ثِقلٌ لها. وإذا كان فوقها، فهو ثِقلٌ عليها[٥]. وقال ابن عباس ومجاهد: «أثقالها»: موتاها[٦]،

= ص٤٩٦، وما سلف بين حاصرتين من هذه المصادر. وأخرج مسلم (٢٧٤٨) وأحمد (٢٣٥١٥) من حديث أبي أيوب ﷺ: «لولا أنكم تذنبون، لخلق الله قوماً يذنبون، فيغفرُ لهم».

(١) أخرجه عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه، كما في الدر المنثور ٣٨٠/٦.

(٢) تفسير الرازي ٥٨/٣٢ عن مجاهد.

(٣) القراءات الشاذة ص ١٧٧.

(٤) قاله الفراء في معاني القرآن ٢٨٣/٣.

(٥) تفسير الرازي ٥٨/٣٢، وقول أبي عبيدة في مجاز القرآن ٣٠٦/٢.

(٦) أخرج قولهما الطبري ٥٥٩/٢٤.

تُخرجُهم في النفخة الثانية، ومنه قيل للجن والإنس: الثَّقَلان. وقالت الخنساء:

أَبَعْدَ ابنِ عمرٍو مِن آلِ الشَّرِيـ ـدِ حَلَّتْ به الأرضُ أثقالَها[1]

تقول: لمَّا دُفن عمرو صار حِليةً لأهل القبور من شرفه وسُؤْدُدِه. وذَكَر بعضُ أهلِ العلمِ قال: كانت العربُ تقول إذا كان الرجلُ سفَّاكاً للدماء: كان ثِقلاً على ظهر الأرض، فلمَّا مات حَطَّتِ الأرض عن ظهرها ثِقْلَها.

وقيل: «أَثْقَالَها»: كنوزَها، ومنه الحديثُ: «تَقيءُ الأرضُ أفلاذَ كَبِدِها أمثالَ الأُسْطُوانِ من الذَّهب والفضة...»[2].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَا لَهَا ۝٣﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْإِنسَـٰنُ﴾ أي: ابنُ آدم الكافر. فروى الضحاك عن ابن عباس قال: هو الأسود بنُ عبد الأسد. وقيل: أراد كلَّ إنسانٍ يشاهدُ ذلك عند قيامِ الساعةِ في النفخة الأولى؛ مِن مؤمن وكافر. وهذا قولُ مَن جَعَلَها في الدنيا من أشراط الساعة؛ لأنَّهم لا يعلمون جميعاً [أنها] مِن أشراط الساعةِ في ابتداءِ أمرِها، حتى يتحقَّقوا عُمومَها؛ فلذلك سأل بعضُهم بعضاً عنها. وعلى قولِ مَن قال: إنَّ المراد بالإنسان الكفارُ خاصةً، جعلها زلزلةَ القيامة؛ لأنَّ المؤمن معترفٌ بها، فهو لا يَسأل عنها، والكافر جاحدٌ لها، فلذلك يَسأل عنها[3].

ومعنى ﴿مَا لَهَا﴾ أي: مالَها زُلْزِلتْ. وقيل: مالها أَخْرَجَتْ أثقالها، وهي كلمةُ تعجُّبٍ[4]، أي: لأيِّ شيءٍ زُلزلت. ويجوزُ أن يُحييَ الله الموتى بعد وقوعِ النفخةِ

---

(١) ديوان الخنساء ص ١٢٠ والكامل للمبرد ٣/ ١٤١٥ ، والبيت من قصيدة ترثي بها أخاها معاوية بن عمرو، وقيل: ترثي بها صخراً. قال المبرد: حلَّت من الحَلْي، تقول: زينت به الأرض الموتى.

(٢) قطعة من حديث أخرجه مسلم (١٠١٣) عن أبي هريرة ﷺ. والأُسْطُوان بضم الهمزة والطاء: جمع أسطوانة، وهي السارية والعمود، وشبهه بالأسطوان لِعظمه وكثرته. شرح صحيح مسلم للنووي ٧/ ٩٨ .

(٣) النكت والعيون ٦/ ٣١٩ ، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٤) في (د) و(م): تعجيب.

الأولى، ثم تتحرَّكُ الأرض فتُخرج المَوْتَى وقد رأوا الزلزلةَ وانشقاقَ الأرضِ عن الموتى أحياء، فيقولون من الهول: مالَهَا؟!

قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَـٰلَهُمْ ۝٦﴾

قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ «يومئذٍ» منصوبٌ بقوله «إذا زلزلت». وقيل: بقوله: «تُحدِّثُ أَخْبارها»، أي: تُخبر الأرضُ بما عُمِل عليها من خيرٍ أو شرٍّ يومئذٍ. ثم قيل: هو من قول الله تعالى. وقيل: مِن قول الإنسان، أي: يقولُ الإنسان: مالَها تحدِّث أخبارها، متعجّبًا.

وفي الترمذيِّ عن أبي هريرة قال: قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ قال: «أتدرُون ما أخبارُها ـ قالوا: اللهُ ورسولُه أَعْلَم، قال: فإنَّ أخبارها أنْ تشهدَ على كلِّ عبدٍ أو أَمَةٍ بما عَمِل على ظهرها، تقول: عَمِل يومَ كذا، كذا وكذا. قال: فَهَذِه أخْبارُها». قال: هذا حديثٌ حسنٌ صحيح غريب[(١)].

قال الماوَرْديُّ[(٢)]: قولُه: «يومَئذٍ تُحَدِّث أخبارَها»: فيه ثلاثةُ أقاويل:

أحدها: «تُحَدِّثُ أخبارَها» بأعمالِ العبادِ على ظهرها؛ قاله أبو هريرةَ، ورواه مرفوعاً[(٣)]. وهو قولُ مَن زعم أنها زَلْزلةُ القيامة.

الثاني: تُحَدِّث أخبارَها بما أَخْرَجتْ من أثقالها؛ قاله يحيى بنُ سلام. وهو قولُ مَن زَعم أنَّها زَلزلةُ أشراطِ الساعة[(٤)].

---

(١) سنن الترمذي (٣٣٥٣)، وقوله: غريب، ليس في (م) ومطبوع سنن الترمذي، والمثبت من النسخ الخطية وتحفة الأشراف ٩/ ٥٠١، وتحفة الأحوذي ٩/ ٢٨٦. وأخرجه أيضاً أحمد (٨٨٦٧)، وسلف ص١٨٢-١٨٣ من هذا الجزء.

(٢) في النكت والعيون ٦/ ٣١٩.

(٣) سلف قريباً.

(٤) سقط هذا القول من مطبوع النكت والعيون.

قلت: وفي هذا المعنى حديثٌ رواه ابن مسعودٍ عن رسول الله ﷺ: أنه قال: «إذا كان أَجَلُ العبدِ بأرضٍ، أَوْثَبَتْه الحاجة إليها، حتى إذا بلغ أَقْصَى أثرِه قَبَضَه الله، فتقولُ الأرض يومَ القيامة: رَبِّ هذا ما استَوْدَعْتَني». أخرجه ابن ماجه في سُنَنه. وقد تقدَّم[١].

الثالث: أنَّها تُحَدِّثُ بقيام الساعةِ إذا قال الإنسان: مالَها؟ قاله ابن مسعود[٢]. فتخبرُ أنَّ أمر الدنيا قد انقضى، وأمر الآخرةِ قد أتَى. فيكونُ ذلك منها جواباً لهم عند سؤالهم، ووعيدًا للكافر، وإنذارًا للمؤمن.

وفي حديثها بأخبارها ثلاثةُ أقاويلَ:

أحدها: أنَّ الله تعالى يَقْلِبها حيواناً ناطقًا؛ فتتكلَّمُ بذلك.

الثاني: أنَّ الله تعالى يُحْدِث فيها الكلام.

الثالث: أنه يكون منها بيانٌ يقومُ مقامَ الكلام[٣].

قال الطبريُّ[٤]: تُبين أخبارها بالرجَّةِ والزلزلةِ وإخراجِ الموتى. ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ أي: إنَّها تحدِّث أخبارَها بوحيِ اللهِ «لها»، أي: إليها. والعربُ تضعُ لامَ الصِّفةِ موضعَ «إلى»؛ قال العجَّاج يَصِفُ الأرض:

أَوْحَى لها القَرَارَ فاستَقرَّتِ ... وشَدَّها بالرَّاسياتِ الثُّبَّتِ[٥]

وهذا قول أبي عبيدة: «أَوْحَى لها» أي: إليها[٦].

---

(١) عند تفسير الآية (٣٤) من سورة لقمان، وهو في سنن ابن ماجه (٤٢٦٣).

(٢) أخرجه الطبري ٢٤/٥٥٨ عن سعيد قال: زُلزلت الأرض على عهد عبد الله، فقال لها: مالَكِ؟ أمَا إنها لو تكلَّمت قامت الساعة. قال الطبري ص ٥٦٠: وتحديثُها أخبارَها على القول الذي ذكرناه عن عبد الله ابن مسعود، أن تتكلَّم فتقول: إن الله أمرني بهذا، وأوحَى إليَّ به، وأذن لي فيه.

(٣) النكت والعيون ٦/٣٢٠.

(٤) في التفسير ٢٤/٥٦٠.

(٥) ديوان العجاج ص ٢٦١، وسلف ٥/١٣٠.

(٦) زاد المسير ٩/٢٠٤، وتفسير الرازي ٣٢/٦٠، وبنحوه في مجاز القرآن ٢/٣٠٦.

وقيل: «أوْحَى لها»، أي: أَمَرَها؛ قاله مجاهد[١]. وقال السدّيُّ: «أَوْحَى لها»، أي: قال لها[٢]. وقيل: سخَّرها.

وقيل: المعنى: يومَ تكونُ الزلزلةُ، وإخراجُ الأرضِ أثقالَها، تحدِّثُ الأرضُ أخبارَها؛ ما كان عليها من الطاعات والمعاصي، وما عُمِلَ على ظهرِها من خيرٍ وشرٍّ. ورُوي ذلك عن الثوريِّ وغيرِه[٣].

﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا﴾ أي: فِرقًا؛ جمع شَتٍّ. قيل: عن موقف الحساب؛ فريقٌ يأخذ جهةَ اليمين إلى الجنة، وفريقٌ آخرُ يأخذ جهةَ الشمالِ إلى النار، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ [الروم: ١٤] ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ [الروم: ٤٣]. وقيل: يرجعون عن الحساب بعد فَراغِهم من الحساب. ﴿أَشْتَاتًا﴾ يعني فِرقًا فِرقًا. ﴿لِّيُرَوْا أَعْمَٰلَهُمْ﴾ يعني ثوابَ أعمالِهم. وهذا كما رُوي عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «ما مِن أحدٍ يومَ القيامةِ إلَّا وَيَلُومُ نفسَه، فإنْ كان مُحسِناً يقولُ: لم لا ازدَدْتُ إحساناً؟ وإن كان غيرَ ذلك يقولُ: لم لا نَزَعْتُ عن المعاصي؟» وهذا عند مُعاينةِ الثوابِ والعقاب[٤].

وكان ابن عباس يقول: «أشْتاتًا» متفرِّقين على قَدْرِ أعمالِهم؛ أهلُ الإيمانِ على حِدَة، وأهلُ كلِّ دينٍ على حِدَة[٥].

وقيل: هذا الصُّدور، إنَّما هو عند النشور؛ يَصْدُرون أشتاتاً من القبور، فيُصار بهم إلى موقف الحساب، ليُروا أعمالَهم في كتبهم، أو لِيُروا جزاءَ أعمالِهم؛ فكأنهم وَرَدوا القبورَ فدُفِنوا فيها، ثم صَدَروا عنها. والوارد: الجائي. والصادر: المُنْصَرِف.

(١) أخرجه الطبري ٢٤/ ٥٦٠ - ٥٦١ .

(٢) النكت والعيون ٦/ ٣٢٠ .

(٣) تفسير الطبري ٢٤/ ٥٦١ .

(٤) تفسير أبي الليث ٣/ ٥٠٠ - ٥٠١ .

(٥) بنحوه في الوسيط ٤/ ٥٤٢ .

«أشتاتا» أي: يُبعثون من أقطار الأرض.

وعلى القول الأول[١] فيه تقديمٌ وتأخير؛ مَجازُه: تحدِّث أخبارها، بأنَّ ربَّك أوْحَى لها، ليُرَوْا أعمالَهم. واعتَرض قولُه: «يَوْمَئِذٍ يَصْدُر الناسُ أَشْتَاتًا» متفرِّقين عن موقف الحساب[٢].

وقراءة العامة: «لِيُرَوا» بضمِّ الياءِ، أي: لِيُريهم اللهُ أعمالَهم. وقرأ الحسن والزهريُّ وقتادةُ والأعرجُ ونصر بنُ عاصم وطلحةُ بفَتْحِها، ورُوي ذلك عن النبيِّ ﷺ[٣].

قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾

فيه ثلاثُ مسائلَ:

الأولى: قولُه تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾ كان ابن عباس يقول: مَن يعمَلْ مِن الكفار مثقالَ ذرَّةٍ خيراً يَرَهُ في الدنيا، ولا يُثابُ عليه في الآخرة، ومَن يعمل مثقالَ ذرَّةٍ من شرٍّ عُوقب عليه في الآخرة مع عقابِ الشرك، ومَن يعمل مثقالَ ذرَّةٍ من شرٍّ من المؤمنين يَرَهُ في الدنيا، ولا يعاقَب عليه في الآخرة إذا مات، ويُتجاوَزُ عنه، وإن عمل مثقالَ ذرَّةٍ من خيرٍ يُقْبلْ منه، ويضاعفْ له في الآخرة[٤]. وفي بعض الحديث: الذرَّةُ لا زِنةَ لها[٥].

وهذا مَثَلٌ ضَرَبه الله تعالى: أنَّه لا يُغْفِلُ مِن عملِ ابنِ آدمَ صغيرةً ولا كبيرة. وهو مِثْلُ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: ٤٠]. وقد تقدَّم الكلامُ هناك في

---

(١) يعني القول بأن ﴿يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا﴾ معناه: عن موقف الحساب.

(٢) بنحوه في معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٨٣ - ٢٨٤، وزاد المسير ٩/ ٢٠٤.

(٣) القراءات الشاذة ص ١٧٧، والمحرر الوجيز ٥/ ٥١١.

(٤) ذكره بنحوه ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٥١١، والرازي ٣٢/ ٦١.

(٥) سلف ٦/ ٣٢١ عن يزيد بن هارون قوله.

الذرّ، وأنَّه لا وزنَ له[١].

وذَكَر بعضُ أهلِ اللغةِ أنَّ الذرَّ: أن يضرب الرجل بيده على الأرض، فما عَلِق بها من التراب فهو الذَّرُّ. وكذا قال ابن عباس: إذا وضعتَ يدك على الأرض ورَفَعْتَها، فكلُّ واحدٍ ممَّا لزق به من التراب ذَرَّة[٢].

وقال محمد بن كعب القُرَظِيُّ: فَمَن يَعْمَلْ مثقالَ ذرةٍ من خيرٍ من كافر، يرى ثوابه في الدنيا في نفسه وماله وأهله وولده، حتى يخرج من الدنيا وليس له عند الله خيرٌ. ومَن يعمل مثقالَ ذرّةٍ من شرٍّ من مُؤمنٍ، يرى عُقوبتَه في الدنيا في نفسه وماله وولده وأهله، حتى يخرج من الدنيا وليس له عند الله شرٌّ[٣]. دليلُه ما رواه العلماءُ الأثباتُ من حديثِ أنس: أنَّ هذه الآية نزلت على النبيِّ ﷺ وأبو بكر يأكل، فأمسك وقال: يا رسول الله، وإنا لنُرَى ما عَمِلْنا من خيرٍ وشرٍّ[٤]؟ قال: «أرأيتَ ما تَكره[٥]، فهو مثاقيلُ ذرِّ الشرِّ، ويُدَّخَر لكم مثاقيلُ ذَرِّ الخير حتى تُعْطَوْه يومَ القِيامة». قال أبو إدريس: إنَّ مِصْداقَه من[٦] كتاب الله: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ [الشورى: ٣٠][٧].

وقال مقاتل: نزلت في رجلين، وذلك أنَّه لمَّا نزل ﴿وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ [الإنسان: ٨] كان أحدُهم يأتيه السائل، فيَسْتَقِلُّ أن يعطِيه التمرةَ والكِسْرةَ والجوزة. وكان الآخَر يتهاوَنُ بالذَّنْبِ اليسير، كالكَذْبة والغِيبة والنظرة، ويقول: إنَّما أَوْعَدَ الله النارَ على الكبائر، فنزلت ترغِّبهم في القليل من الخير أن يُعْطُوه؛ فإنَّه يوشِكُ أن

---

(١) ٦/ ٣٢١.

(٢) تفسير الرازي ٣٢/ ٦١، وأخرجه هناد في الزهد (١٩٣).

(٣) أخرجه الطبري ٢٤/ ٥٦٤.

(٤) في (ظ): أو شر.

(٥) في (م): ما رأيت مما تكره.

(٦) في (م): في.

(٧) أخرجه الطبري ٢٤/ ٥٦٤ - ٥٦٦، والكلام من أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٩٥٩.

يكثر، وتحذِّرُهم اليسيرَ من الذنب، فإنَّه يوشِكُ أن يكثر؛ وقاله سعيد بن جبير. والإثمُ الصغير في عين صاحبه يومَ القيامة أعظمُ من الجبال، وجميعُ محَاسِنِه أقلُّ في عينه من كلِّ شيء[(١)].

الثانية: قراءةُ العامَّةِ: «يَرَه» بفتح الياء فيهما. وقرأ الجَحْدريُّ والسُّلَميُّ وعيسى بنُ عمر وأبان عن عاصم: «يُرَهْ» بضمِّ الياء[(٢)]، أي: يُريه اللهُ إياه. والأُولى الاختيارُ؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾ الآية [آل عمران: ٣٠]. وسكَّن الهاءَ في قوله: «يَرَه» في الموضعين هشام[(٣)]. وكذلك رواه الكسائيُّ عن أبي بكر[(٤)] وأبي حَيْوة والمغيرة. واختلس يعقوبُ والزهريُّ والحجدرِيُّ وشيبة[(٥)]. وأَشْبَعَ الباقون.

وقيل: «يَرَه»، أي: يرى جزاءَه؛ لأنَّ ما عَمِلَه قد مضى وعُدِمَ فلا يُرَى. وأنشدوا:

إنَّ مَن يَعْتدي ويَكْسِبُ إثْماً … وَزْنَ مِثْقالِ ذَرَّةٍ سَيَرَاهُ
ويُجَازَى بفعله الشرَّ شرًّا … وبفِعْلِ الجميل أيضاً جزاه
هكذا قولُه تَبارَكَ رَبِّي … في إذا زُلزلتْ وجَلَّ ثَنَاهُ

الثالثة: قال ابن مسعود: هذه أحكمُ آيةٍ في القرآن[(٦)]، وصَدَق. وقد اتَّفق العلماءُ على عموم هذه الآيةِ، القائلون بالعموم ومَن لم يقل به. وروي [عن][(٧)] كعبِ الأحبارِ أنه قال: لقد أنزل الله على محمدٍ آيتين أحْصَتا ما في التوراة والإنجيل والزَّبور

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٥١٦، دون قوله: وقاله سعيد بن جبير. وأخرجه عن سعيد بن جبير ابن أبي حاتم، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٨١.

(٢) القراءات الشاذة ص ١٧٧، والمحرر الوجيز ٥/ ٥١٢. وذكرها ابن مجاهد في السبعة ص ٦٩٤ عن أبان عن عاصم، والمشهور عن عاصم بفتح الياء.

(٣) السبعة ص ٦٩٤، والتيسير ص ٢٢٤.

(٤) ذكرها عن الكسائي عن أبي بكر ابن مجاهد في السبعة ص ٦٩٤، والمشهور عنهما: «يرهُ» بإشباع الضم.

(٥) النشر ١/ ٣١١ عن يعقوب.

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٥١٦، وأخرجه مطولاً عبد الرزاق ٢/ ٣٨٨ - ٣٨٩.

(٧) زيادة يقتضيها السياق.

والصُّحُف: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾[1].

قال الشيخ أبو مَدْين في قوله تعالى: «فمن يعمل مِثقالَ ذرةٍ خيرًا يره» قال: في الحالِ قبلَ المآل[2].

وكان النبيُّ ﷺ يسمِّي هذه الآيةَ: الآية الجامعة الفاذَّة، كما في الصَّحيح لمَّا سُئل عن الحُمُر وسكَتَ عن البغال، والجوابُ فيهما واحدٌ؛ لأنَّ البغل والحمارَ لا كَرَّ فيهما ولا فَرَّ، فلمَّا ذَكَر النبيُّ ﷺ ما في الخيل من الأجر الدَّائم، والثوابِ المستمرِّ، سأل السائلُ عن الحُمُر؛ لأنَّهم لم يكن عندهم يومئذٍ بَغْلٌ، ولا دَخَل الحجازَ منها إلَّا بغلةُ النبيِّ ﷺ «الدُّلْدُل»، التي أهداها له المقوقِس، فأفتاه في الحَمِير بعمومِ الآية، وأنَّ في الحمار مثاقيلَ ذرٍّ كثيرةً؛ قاله ابنُ العربيِّ[3].

وفي «الموطأ»: أنَّ مِسْكيناً استَطْعَم عائشةَ أمَّ المؤمنين وبين يديها عِنَب، فقالت لإنسان: خُذْ حبةً فأَعْطِه إياها. فجعل ينظرُ إليها ويَعْجَبُ، فقالت: أَتَعْجَبُ! كم ترى في هذه الحَبةِ من مثقال ذرّة[4].

ورُوي عن سعد بن أبي وَقَّاص: أنَّه تَصَدَّق بتمرتين، فقبض السائلُ يدَه، فقال للسائل: ويَقْبلُ الله منَّا مثاقيلَ الذرّ، وفي التمرتين مثاقيلُ ذرٍّ كثيرة[5].

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٦/ ٣ ، والكلام من أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٩٥٩ - ١٩٦٠ .

(٢) من قوله: قال الشيخ أبو مدين، إلى هذا الموضع من (م) وليس في النسخ الخطية. وأبو مدين لعله شعيب بن حسين الأندلسي الزاهد، شيخ أهل المغرب، توفي في نحو سنة (٥٩٠هـ). وهناك شيخ آخر يكنى أبا مدين، وهو شعيب بن يحيى بن أحمد القيرواني ثم الإسكندراني التاجر، توفي سنة (٦٤٥هـ). السير ٢١/ ٢١٩ و٢٣/ ٢٦٨ .

(٣) في أحكام القرآن ٤/ ١٩٦٠ ، والحديث الذي ذكره أخرجه أحمد (٧٥٦٣)، والبخاري (٢٣٧١) ومسلم (٩٨٧) عن أبي هريرة ﷺ، وسلفت قطعة منه ٥/ ٥٢ .

(٤) الموطأ ٢/ ٩٩٧ وفيه: قال مالك: بلغني أن مسكيناً استطعم عائشة...، وقد أخرجه بنحوه متصلاً أبو عبيد في الأموال (٩١١).

(٥) أخرجه بنحوه أبو عبيد في الأموال (٩١٠)، وذكره ابن عبد البر في الاستذكار ٢٧/ ٤٠٨ .

وروى المُطَّلبُ بن حَنْطَب: أنَّ أعرابيّاً سمع النبيَّ ﷺ يَقرؤُها، فقال: يا رسولَ الله، أمِثْقالُ ذرّةٍ! قال: «نعم» فقال الأعرابيُّ: واسَوْأتاه! مِراراً، ثم قام وهو يقولُها، فقال النبيُّ ﷺ: «لقد دَخَلَ قلبَ الأعرابيِّ الإيمانُ»[(١)].

وقال الحسن: قَدِم صعصعةُ عمُّ الفَرَزْدقِ على النبيِّ ﷺ، فلمَّا سمع ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ الآيات، قال: لا أُبالي ألَّا أسمعَ من القرآن غيرَها، حَسْبي، فقد انتهت الموعظة[(٢)]؛ ذكره الثعلبيُّ. ولَفْظُ الماورديّ[(٣)]: ورُوي أنَّ صعصعةَ بنَ ناجية جدَّ الفرزدقِ أتى النبيَّ ﷺ يستقرئُه، فقرأ عليه هذه الآيةَ، فقال صعصعةُ: حسبي حسبي؛ إن عَمِلتُ مِثقالَ ذَرَّةٍ [خيراً رأيتُه، وإن عملتُ مثقال ذرةٍ] شرًّا رأيتُه.

ورَوَى مَعمر عن زيد بن أسلم: أنَّ رجلاً جاء إلى النبيِّ ﷺ فقال: عَلِّمني ممَّا علَّمك الله. فدَفَعه إلى رجلٍ يعلِّمه، فعلَّمه: «إذا زُلزلت ـ حتى إذا بلغ ـ فَمَن يَعْمَلْ مِثقالَ ذرةٍ خَيراً يَرَه. ومَن يعمل مِثقالَ ذرةٍ شرًّا يَرَه» قال: حسبي. فأُخبر النبيُّ ﷺ فقال: «دَعُوهُ فإنَّه قد فَقُه»[(٤)].

ويُحكى أنَّ أعرابيًّا أخَّر «خَيْرًا يَرَهُ» فقيل: قدَّمْتَ وأخَّرْتَ. فقال:

خذا بطنَ هَرْشَى أو قَفاها فإنهُ ... كِلا جانبيْ هَرْشَى لهنَّ طريقُ[(٥)]

---

(١) أخرجه سعيد بن منصور، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٨١.

(٢) أخرجه أحمد (٢٠٥٩٣)، والنسائي في الكبرى (١١٦٣٠)، وابن الأثير في أسد الغابة ٣/ ٢١-٢٢. وقد أخرجه الطبراني في الكبير (٧٤١١)، والحاكم ٣/ ٦١٣، والمزي في ترجمة صعصعة بن معاوية من تهذيب الكمال ١٣/ ١٧٣ - ١٧٤، ووقع عندهم: عن الحسن عن صعصعة بن معاوية عم الأحنف ابن قيس، وهو ما صوَّبه ابن الأثير والمزي والحافظ في الإصابة ٥/ ١٤١ - ١٤٢، وذكروا أنه ليس للفرزدق عم اسمه صعصعة، لكن جده اسمه صعصعة بن ناجية، وذكروا له صحبة. وينظر حاشية الحديث في مسند أحمد.

(٣) في النكت والعيون ٦/ ٣٢١ - ٣٢٢، وما سيأتي بين حاصرتين منه.

(٤) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٣٨٨، وابن بشكوال في غوامض الأسماء المبهمة ١/ ٤٧٢.

(٥) القراءات الشاذة ص ١٧٧، والكشاف ٤/ ٢٧٦، والكلام منه. والخبر أخرجه مطولاً صاحب الأغاني ١٢/ ٢٦١، والبيت لعقيل بن عُلَّفة من شعراء الدولة الأموية، كما في الأغاني، وطبقات فحول =

سورة «والعادِيات»

وهي مكِّيةٌ في قول ابنِ مسعودٍ وجابر والحسن وعكرمةَ وعطاء. ومدنِيةٌ في قول ابن عباس وأنس بن مالك وقتادة(١). وهي إحدى عَشْرة آيةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ۝١ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ۝٢﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا﴾ أي: الأفراس تَعْدو. كذا قال عامَّةُ المفسِّرين وأهل اللغة، أي: تعدو في سبيل الله فَتَضْبَحُ. قال قتادة: تَضْبَحُ إذا عَدَتْ، أي: تُحمحِم(٢). وقال الفرَّاء: الضَّبْح: صوتُ أنفاسِ الخيلِ إذا عَدَوْن(٣). ابن عباس: ليس شيءٌ من الدوابِّ يضْبَحُ غير الفرسِ والكلبِ والثعلب(٤). وقيل: كانت تُكْعَمُ(٥) لئلَّا تَصْهَلَ، فيعلم العدوُّ بهم؛ فكانت تتنفَّس في هذه الحال بقوّة.

قال ابن العربيّ: أَقسم الله بمحمدٍ ﷺ فقال: ﴿يسٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ﴾، وأَقسم بحياته فقال: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر: ٧٢]، وأَقسم بخيله وصهيلها وغُبارِها، وقَدْحِ حوافرِها النارَ من الحجر، فقال: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا﴾ الآياتِ الخمس(٦). وقال أهلُ اللغةِ:

= الشعراء ٢/ ٧١٤، ومعجم البلدان ٥/ ٣٩٧ - ٣٩٨. قال ياقوت: هرشى: ثنية في طريق مكة قريبة من الجحفة. يُرى منها البحر، ولها طريقان فكل مَن سلك واحداً منهما أفضى به إلى موضع واحد.

(١) النكت والعيون ٦/ ٣٢٣، وزاد المسير ٩/ ٢٠٦، وذكر ابن الجوزي مقاتلاً بدل أنس بن مالك.

(٢) أخرجه بنحوه عبد الرزاق ٢/ ٣٩٠، والطبري ٢٤/ ٥٧١.

(٣) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٨٤، وتهذيب اللغة ٤/ ٢١٩.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٥١٧، وأخرجه عبد الرزاق ٢/ ٣٩٠، والطبري ٢٤/ ٥٧٢ دون قوله: والثعلب.

(٥) كَعَم البعيرَ: شدَّ فاه، وما يكعَم به: كِعَامٌ. القاموس (كعم).

(٦) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٩٦١.

وَطَعْنَةٍ ذاتِ رَشاشٍ واهِيَةْ طَعَنْتُها عندَ صُدُورِ العَادِيَةْ[(١)]

يعني الخيل. وقال آخر:

والعادياتُ أَسَابِيُّ الدِّماءِ بها كأنَّ أعناقَها أنصابُ تَرْجِيبِ[(٢)]

يعني الخيل. وقال عنترة:

والخيلُ تَعْلَمُ حين تَضْـ ـبَحُ في حِياضِ الموتِ ضَبْحَا[(٣)]

وقال آخر:

لَسْتُ بالتُّبَّعِ اليمانيِّ إنْ لَمْ تَضْبَحِ الخيلُ في سَوادِ العراقِ[(٤)]

وقال أهلُ اللغة: وأصلُ الضَّبْحِ والضُّبَاح للثعالب، فاستُعيرَ للخيل. وهو من قول العرب: ضَبَحَتْه النار: إذا غيَّرتْ لونَه ولم تُبالِغْ فيه، وقال الشاعر:

فَلَمَّا أَنْ تَلَهْوَجْنا شِواءً به اللَّهَبانُ مَقهورًا ضَبِيحا[(٥)]

وانضبح لونُه: إذا تغيَّر إلى السواد قليلاً؛ وقال:

عُلِّقْتُها قَبلَ انْضِباحِ لَوْني[(٦)]

---

(١) البيت لناجية بن جندب الأسلمي ﷺ، كما في سيرة ابن هشام ٣١١/٢، والخزانة ٢٠٦/٦. قوله: ذات رشاش، الرشاش: ما ترشَّش من الدم والدمع. الصحاح (رشش).

(٢) البيت لسلامة بن جندل، وهو في ديوانه ص ٩٨، والمعاني الكبير لابن قتيبة ٦٧/١. قال ابن قتيبة: الأسابي: طرائق الدم، واحدها: إسباءة. أنصاب ترجيب: جمع نصب، وهو الذي ينصب لذبح رجب؛ شبَّه أعناقها ـ لمّا عليها من الدم ـ بالحجارة التي كانوا يذبحون عليها.

(٣) الصحاح (ضبح)، واللسان (ضبح).

(٤) لم نقف عليه.

(٥) البيت لمضَرِّس الأسدي، كما في اللسان (ضبح)، ودون نسبة في تهذيب اللغة ٣٩٥/٥، والصحاح (ضبح)، وأساس البلاغة (قهر)، واللسان (قهر). قال صاحب اللسان: المُلَهْوَج من الشواء: الذي لم يتم نضجه. واللَّهَبان اتِّقادُ النار واشتعالُها. وقهر اللحم: إذا أخذتْه النار وسال ماؤه.

(٦) وبعده: وجُبْتُ لمَّاعاً بعيدَ البَوْنِ، وهو في إصلاح المنطق ص ٢٧٤، وتهذيب اللغة ٢١٨/٤، والصحاح (ضبح) والكلام منه. قال السيرافي في شرح أبيات إصلاح المنطق ص ٤٣٣: عُلِّق فلانٌ امرأة: إذا أحبها. وجُبْتُ: قطعتُ وخرقت. واللمَّاع: المكان الذي يلمع فيه السراب، وإنما يريد القَفْرَ من الأرض. والبَوْن: المسافة البعيدة.

وإنَّما تَضْبَحُ هذه الحيواناتُ إذا تغيَّرتْ حالُها من فَزَعٍ أو تعبٍ أو طمع. ونصب «ضَبْحاً» على المصدر، أي: والعاديات تضبحُ ضَبْحًا[١]. والضَّبْحُ أيضاً: الرَّماد[٢]. وقال البَصْرِيون: «ضَبْحًا» نصب على الحال[٣]. وقيل: مصدرٌ في موضع الحال.

قال أبو عبيدة[٤]: ضَبَحَتِ الخيلُ ضَبْحًا مثل ضَبَعَتْ، وهو السير. وقال أبو عبيدة: الضَّبْحُ والضَّبْعُ: بمعنى العَدْوِ والسَّيْر[٥]. وكذا قال المبرِّد: الضَّبْحُ مدُّ أضباعِها[٦] في السَّيْر.

ورُوي أنَّ رسول الله ﷺ بعث سَرِيَّةً إلى أناسٍ من بني كِنانَة، فأبطأ عليه خبرُها، وكان استَعْمَل عليهم المنذرَ بنَ عمرو الأنصاريَّ، وكان أحدَ النقباءِ، فقال المنافقون: إنَّهم قُتلوا، فنزلت هذه السورةُ إخباراً للنبيِّ ﷺ بسلامتها، وبشارةً له بإغارتها على القوم الذين بعث إليهم[٧].

وممَّن قال: إنَّ المراد بالعاديات الخيلُ، ابنُ عباس وأنسٌ والحسنُ ومجاهد[٨]. والمراد: الخيلُ التي يغزو عليها المؤمنون. وفي الخبر: «مَن لم يَعْرِفْ حُرْمَةَ فرسٍ

(١) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٣٥٣.

(٢) الصحاح (ضبح)، وقيده صاحب القاموس (ضبح): الضِّبح بالكسر.

(٣) والتقدير: والعاديات ضابحة. تفسير الرازي ٣٢/ ٦٤.

(٤) في مجاز القرآن ٢/ ٣٠٧، ونقله المصنف عنه بواسطة الجوهري في الصحاح (ضبح)، ووقع في النسخ الخطية: أبو عبيد.

(٥) وعلى هذا القول تكون «ضبحاً» مصدراً مؤكَّداً لاسم الفاعل «العاديات»؛ لأن الضبح نوع من السير والعَدْو، فهو منصوب باسم الفاعل. البحر ٨/ ٥٠٣، والدر المصون ١١/ ٨١.

(٦) وهي أعضادها. الصحاح (ضبع).

(٧) تفسير أبي الليث ٣/ ٥٠٢، وأسباب النزول للواحدي ص ٤٩٨، وزاد المسير ٩/ ٢٠٧ عن مقاتل. وأخرج نحوه البزار (٢٢٩١ ـ كشف) عن ابن عباس رضي الله عنهما. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ١٤٢: فيه حفص بن جميع، وهو ضعيف. وقال ابن كثير عند تفسير هذه السورة: وقد روى أبو بكر البزار هاهنا حديثاً غريباً جدًّا...، وذكره.

(٨) تفسير الطبري ٢٤/ ٥٧٠ - ٥٧٢، والنكت والعيون ٦/ ٣٢٣، وتفسير البغوي ٤/ ٥١٧.

الغازي، ففيه شُعبةٌ من النفاق»[(١)].

وقول ثان: أنَّها الإبل؛ قال أبو صالح[(٢)]: نازعتُ فيها عكرمةَ فقال عكرمةُ: قال ابن عباس: هي الخيل. وقلتُ: قال عليٌّ: هي الإبل في الحج، ومولاي أَعْلَمُ من مولاك[(٣)].

وقال الشعبيُّ: تَمارى عليٌّ وابن عباس في العاديات، فقال عليٌّ: هي الإبِلُ تعدو في الحج. وقال ابن عباس: هي الخيل، أَلَا تَراه يقول: ﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا﴾، فهل تثيرُ إلَّا بحوافرها! وهل تَضْبَحُ الإبل! فقال عليٌّ: ليس كما قلت، لقد رأيتُنا يومَ بدرٍ وما معنا إلَّا فرسٌ أبلقُ للمقداد، وفرسٌ لمَرْثَد بن أبي مَرْثَد[(٤)]. ثم قال له عليٌّ: أَتُفْتِي الناسَ بما لا تعلم! والله إن كانت لَأَوَّلَ غزوةٍ في الإسلام، وما معنا إلَّا فرسان: فرسٌ للمقداد، وفرسٌ للزُّبير، فكيف تكون العادياتِ ضبحًا! إنَّما العادياتُ الإبِلُ من عَرَفَةَ إلى المزدَلِفَةِ، ومن المزدلِفةِ إلى منى[(٥)]، قال ابن عباس: فرجعتُ إلى قولِ عليٍّ[(٦)]. وبه قال ابن مسعود وعبيد بن عمير ومحمد بن كعب والسُّدِّي[(٧)]. ومنه قولُ صفِيةَ بنتِ عبد المطلب:

---

(١) لم نقف عليه.

(٢) أبو صالح هو مولى أم هانئ، ووقع في النسخ بدلاً منه: مسلم، وهو خطأ.

(٣) ذكره أبو الليث ٣/ ٥٠٢ ، وأخرجه عبد الرزاق ٢/ ٣٩٠ - ٣٩١ ، وعبد بن حميد، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٨٣ .

(٤) أخرجه بنحوه عبد بن حميد، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٨٣ - ٣٨٤ ، وما سيأتي بعده ورد في رواية أخرى من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس، على ما يأتي.

(٥) في النسخ: إلى عرفة، والمثبت من المصادر ـ على ما يأتي ـ وهو الصواب.

(٦) أخرجه الطبري ٢٤/ ٥٧٣ - ٥٧٤ ، والحاكم ٢/ ١٠٥ ، وابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير عند هذه الآية، وعزاه السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٣٨٣ لابن الأنباري في المصاحف، وابن مردويه.

(٧) أخرجه الطبري ٢٤/ ٥٧٣ - ٥٧٤ عن ابن مسعود وعبيد بن عمير، وأخرجه عن محمد بن كعب عبد بن حميد، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٨٤ .

فلا والعادياتِ غداةَ جَمْعٍ بأيديها إذا سَطَع الغُبارُ[١]

يعني الإبل. وسمِّيت العادياتُ لاشتقاقها من العَدْوِ، وهو تباعُدُ الأرجلِ في سرعة المشي[٢]. وقال آخر:

رأى صاحبي في العادياتِ نَجيبةً وأمثالَها في الواضعاتِ القوامِسِ[٣]

ومَن قال: هي الإبلُ، فقولُه: «ضَبْحاً» بمعنى ضَبْعاً، فالحاءُ عنده مُبْدَلةٌ من العين؛ لأنه يقال: ضَبَعتِ الإبلُ، وهو أن تَمُدَّ أعناقها في السير. وقال المبرِّد: الضَّبْعُ مدُّ أضباعها في السير. والضَّبْحُ أكثرُ ما يُستَعمَلُ في الخيل. والضَّبْعُ في الإبل. وقد تُبْدَلُ الحاءُ من العين.

أبو صالح: الضَّبْحُ من الخيل: الحمحمةُ، ومن الإبلِ: التنفُّس[٤].

وقال عطاء: ليس شيءٌ من الدوابِّ يَضْبَحُ إلَّا الفرسُ والثعلبُ والكلب[٥]. ورُوي عن ابن عباس[٦]. وقد تقدَّم عن أهل اللغةِ أنَّ العرب تقول: ضَبَح الثعلب، وضَبَح في غير ذلك أيضًا؛ قال تَوْبة:

ولو أنَّ ليلَى الأخيليةَ سَلَّمَتْ عَلَيَّ ودوني تُرْبةٌ[٧] وصفائحُ
لَسَلَّمْتُ تسليمَ البشاشةِ أو زَقَا إليها صَدًى من جانب القبرِ ضابحُ[٨]

---

(١) النكت والعيون ٦/ ٣٢٣، وقال الزركشي في البرهان ٣/ ٣١٢: أنشده الغزنوي في العامريات لصفية رضي الله عنها.

(٢) النكت والعيون ٦/ ٣٢٤.

(٣) الصحاح (عدا)، واللسان (عدا) و(وضع) وفيه: إبل عادية: ترعى الخُلَّة ولا ترعى الحمضَ. وناقة واضع وواضعة، ونوق واضعات: ترعى الحمض حول الماء. والخلة: ما حلا من المرعى، والحمض منه: ما كانت فيه ملوحة.

(٤) أخرجه الطبري ٢٤/ ٥٧٥ من طريق أبي علي عن صالح ﷺ.

(٥) أخرجه الطبري ٢٤/ ٥٧١، وليس فيه: والثعلب.

(٦) سلف ص٤٢٦ من هذا الجزء.

(٧) في (ظ): جندل، وهي رواية في البيت.

(٨) ديوان توبة ٤٧ - ٤٨، والشعر والشعراء ١/ ٤٤٦، والأضداد لابن الأنباري ص ٣٢٥، وأمالي =

زَقا الصَّدى يزقو زُقَاءً، أي: صاح. وكلُّ زاقٍ صائحٌ. والزَّقْيةُ: الصَّيحة[١].

﴿فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا﴾ قال عكرمةُ وعطاءٌ والضحَّاك: هي الخيلُ حين تُورِي النارَ بحوافرها[٢]، وهي سَنابِكُها. ورُوي عن ابن عباس[٣].

وعنه أيضاً: أوْرَتْ بحوافرها غُبارًا. وهذا يخالفُ سائرَ ما رُوي عنه في قَدْحِ النار، وإنَّما هذا في الإبل. ورَوى ابنُ أبي نَجيحٍ عن مجاهد: «والعادياتِ ضَبْحًا. فالمُورِياتِ قَدْحًا» قال: قال ابن عباس: هو في القتال، وهو في الحج[٤].

ابن مسعود: هي الإبلُ تطأ الحصى، فتخرج منها النار[٥].

وأصلُ القَدْحِ الاستخراج، ومنه قَدَحْتُ العينَ: إذا أخرجت منها الماءَ الفاسد. واقْتَدَحْتُ الزَّنْدَ. واقْتَدَحْتُ المرقَ: غَرَفْته. ورَكيٌّ قَدُوح: تُغْتَرَفُ باليد. والقَديح: ما يبقَى في أسفل القِدْرِ، فيُغْرَفُ بجهدٍ. والمِقْدَحةُ: ما تُقْدَحُ به النار. والقَدَّاحةُ والقَدَّاح: الحجرُ الذي يُورِي النار[٦]. يقال: وَرَى الزَّنْدُ ـ بالفتح ـ يَري وَرْياً: إذا خَرَجَتْ نارُه. وفيه لغةٌ أخرى: وَرِيَ الزَّندُ ـ بالكسر ـ يَرِي فيهما[٧]. وقد مضى هذا في سورة الواقعة[٨]. و«قَدْحًا» انتَصَب بما انتَصَب به «ضَبْحًا».

= القالي ١/ ٨٧ ، والأغاني ١١/ ٢٤٤ ، والحيوان ٢/ ٢٩٩ ، وزهر الآداب ٢/ ٩٣٥ ، والحماسة البصرية ٢/ ١٠٨ ، ومنتهى الطلب ١/ ٢٣٠ ، ووقع في جميع هذه المصادر: صائح، بدل: ضابح.

(١) الصحاح (زقا).

(٢) أخرج قولهم الطبري ٢٤/ ٥٧٥ - ٥٧٦ .

(٣) ذكره الواحدي في الوسيط ٤/ ٥٤٤ ، وهو قطعة من حديث أخرجه البزار (٢٢٩١ - كشف) وقد سلف الكلام عليه قريباً.

(٤) كذا في النسخ، والذي أخرجه عبد بن حميد ـ كما في الدر المنثور ٦/ ٣٨٤ عن مجاهد قال: قال ابن عباس: في القتال، وقال ابن مسعود: في الحج، وكذا أخرجه الطبري ٢٤/ ٥٧٠ و٥٧٤ مقطعاً من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد به.

(٥) أخرجه الطبري ٢٤/ ٥٧٨ .

(٦) الصحاح (قدح).

(٧) الصحاح (ورى).

(٨) عند تفسير الآية (٧١) منها.

وقيل: هذه الآياتُ في الخيلِ؛ ولكنَّ إيراءَها: أنْ تُهيجَ الحرب بين أصحابها وبين عدوِّهم. ومنه يقال للحرب إذا التحمت: حَمِيَ الوَطِيسُ. ومنه قولُه تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَوۡقَدُواْ نَارٗا لِّلۡحَرۡبِ أَطۡفَأَهَا ٱللَّهُۚ﴾ [المائدة: ٦٤][١]. وروي معناه عن ابن عباس أيضًا، وقاله قتادة[٢].

وعن ابن عباس أيضًا: أنَّ المراد بالمُوريات قَدْحًا: مَكْرُ الرجال في الحرب؛ وقاله مجاهدٌ وزيد بنُ أسلم. والعربُ تقول إذا أراد الرجل أن يمكُر بصاحبه: واللهِ لَأَمْكُرنَّ بك، ثم لَأُوْرِيَنَّ لك[٣].

وعن ابن عباس أيضًا: هم الذين يغزُون، فيُوْرون نيرانَهم بالليل لحاجتهم وطعامهم[٤].

وعنه أيضاً: أنَّها نيرانُ المجاهدين إذا كَثُرتْ نارُها إرهاباً[٥]. وكلُّ مَن قَرُبَ من العدوِّ يُوقدُ نيراناً كثيرةً ليظنَّهم العدوُّ كثيراً. فهذا إقسامٌ بذلك. قال محمد بن كعب: هي النارُ تجمع.

وقيل: هي أفكارُ الرجالِ تُورِي نارَ المكرِ والخديعة[٦].

وقال عكرمة: هي أَلْسنةُ الرجالِ تُوْرِي النارَ مِن عظيمِ ما تتكلَّم به ويَظْهرُ بها من الحُجج وإقامةِ الدلائل، وإيضاحِ الحقِّ وإبطالِ الباطل[٧].

---

(١) تفسير الرازي ٣٢/ ٦٥.

(٢) أخرجه عن قتادة الطبري ٢٤/ ٥٧٦.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٥١٧ عن مجاهد وزيد بن أسلم، وأخرجه عن مجاهد الفريابي، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٨٤، ووقع فيهما: لأقدحنَّ لك ثم لأورينَّ لك. وقول ابن عباس أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٣٩٠ بلفظ: ﴿فَٱلۡمُورِيَٰتِ قَدۡحٗا﴾ قال: هو مكر الرجل.

(٤) أخرجه بنحوه الطبري ٢٤/ ٥٧٦ - ٥٧٧.

(٥) النكت والعيون ٦/ ٣٢٤.

(٦) تفسير الرازي ٣٢/ ٦٥.

(٧) ذكره بنحوه الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٣٢٤، وأخرجه مختصراً الطبري ٢٤/ ٥٧٧.

وروى ابن جُريج عن بعضهم قال: فالمُنْجِحاتِ أَمْراً وعملاً، كنجاحِ الزَّنْدِ إذا أُوْرِي.

قلت: هذه الأقوالُ مَجازٌ، ومنه قولهم: فلانٌ يُورِي زِنادَ[١] الضلالة. والأوّل الحقيقةُ، وأنَّ الخيل من شِدَّة عَدْوِها تَقْدَحُ النارَ بحوافرها. قال مقاتل: العربُ تسمِّي تلك النارَ نارَ أبي حُباحِب، وكان أبو حُباحِب شيخاً من مُضَر في الجاهلية، من أَبْخلِ الناس، وكان لا يُوقدُ ناراً لخبزٍ ولا غيره حتى تنام العيون، فيوقِدُ نُوَيْرةً تَقِدُ مرةً وتَخمدُ أخرى، فإن استيقظ لها أحدٌ أطفأها، كراهيةَ أن ينتفع بها أحد. فشبَّهت العربُ هذه النارَ بنارِه؛ لأنَّه لا يُنتفع بها[٢]. وكذلك إذا وقع السيفُ على البيضة فاقْتَدَحَتْ نارًا، فكذلك يسمُّونها، قال النابغة:

ولا عيبَ فيهم غيرَ أنَّ سُيوفَهم ... بهنَّ فلولٌ مِن قِراع الكتائبِ
تَقُدُّ السَّلُوقيَّ المضاعَفَ نَسْجُه ... وتُوقِدُ بالصُّفَّاحِ نارَ الحُباحِبِ[٣]

قوله تعالى: ﴿فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ۝٣﴾

الخيلُ تُغِير على العدوّ عند الصُّبح؛ عن ابن عباس وأكثرِ المفسِّرين[٤]. وكانوا إذا أرادوا الغارةَ سَرَوْا ليلاً، ويأتون العدوَّ صبحاً؛ لأنَّ ذلك وقتُ غَفْلةِ الناس. ومنه قولُه تعالى: ﴿فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ [الصافات: ١٧٧]. وقيل: لِعزِّهم أغاروا نهارًا، و«صُبْحًا» على هذا، أي: علانيةً؛ تشبيهاً بظهور الصبح.

وقال ابن مسعود وعليٌّ رضي الله عنهما: هي الإبلُ تدفع بركبانها يومَ النَّحْرِ من

(١) في (ظ): نار.

(٢) تفسير أبي الليث ٣/ ٥٠٣، وتفسير الرازي ٣٢/ ٦٥، وذكر الفراء في معاني القرآن ٣/ ٢٨٤ نحوه عن الكلبي.

(٣) ديوان النابغة ص ١١، وسلف البيت الأول ١٠/ ٣٠٤، والثاني ١١/ ٢١٨.

(٤) تفسير الطبري ٢٤/ ٥٧٨ - ٥٧٩، وتفسير البغوي ٤/ ٥١٧.

جَمْعٍ إلى منًى[(١)]، والسُّنةُ ألَّا تدفعَ حتى تصبح. وقاله القُرَظِيُّ[(٢)]. والإغارةُ: سرعةُ السيرِ، ومنه قولُهم: أشرِقْ ثَبِير، كيما نُغِير[(٣)].

قوله تعالى: ﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ۝٤﴾

أي: غبارًا، يعني الخيلَ تثيرُ الغبارَ بشدَّةِ العَدْوِ في المكان الذي أغارت به. قال عبد الله بن رواحة:

عَدِمْتُ بُنَيَّتي إنْ لم تَرَوْها ... تُثِيرُ النَّقْعَ من كَنَفَيْ كَداءِ[(٤)]

والكنايةُ في «به» ترجع إلى المكان أو إلى الموضع الذي تقع فيه الإغارة. وإذا عُلِم المعنى جاز أن يُكْنَى عمَّا لم يَجْرِ له ذِكْرٌ بالتصريح، كما قال: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾ [ص: ٣٢].

وقيل: «فأثرن به»، أي: بالعَدْو «نَقْعًا». وقد تقدَّم ذِكْرُ العَدْو.

وقيل: النقع: ما بين مزدلِفةَ إلى مِنًى؛ قاله محمد بن كعب القُرَظِيّ. وقيل: إنَّه طريق الوادي، ولعله يرجع إلى الغبار المثارِ من هذا الموضع[(٥)].

وفي الصحاح[(٦)]: النَّقْع: الغبار، والجمع: نِقَاع والنَّقْعُ: مَحْبِسُ الماء، وكذلك ما اجتمع في البئر منه. وفي الحديث: أنه نَهى أن يُمنع نقعُ البئر[(٧)]. والنقعُ: الأرضُ

(١) في النسخ: من منى إلى جمع، والمثبت من المصادر ـ على ما يأتي ـ وهو الصواب.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٥١٧ عن محمد بن كعب، وتفسير الطبري ٢٤/ ٥٧٩ - ٥٨٠ عن ابن مسعود، وينظر ما سلف عن علي ﷺ ص٤٢٩ من هذا الجزء.

(٣) تفسير الرازي ٣٢/ ٦٥ ، وسلف ٣/ ٣٥١ .

(٤) النكت والعيون ٦/ ٣٢٥ ، ولم نقف عليه عن عبد الله بن رواحة، ونسب لحسان كما في ديوانه ص٦٠ ، وسيرة ابن هشام ٢/ ٤٢٢ ، ومنتهى الطلب ٦/ ٢٧٠ ، والخزانة ٩/ ٢٣١ برواية:

عَدِمْنا خيلنا إن لم تروها ... تثير النقع موعدُها كداءُ

قال البغدادي: كَداء: الثنية التي في أصلها مقبرة مكة، ومنها دخل الزبير يومئذ (يعني يوم الفتح).

(٥) النكت والعيون ٦/ ٣٢٥ .

(٦) مادة: (نقع).

(٧) أخرجه أحمد (٢٥٠٨٧)، وابن ماجه (٢٤٧٩) من حديث عائشة رضي الله عنها.

الحُرَّةُ الطِّينِ يَستنقعُ فيها الماءُ، والجمع: نِقاعٌ وأَنْقُعٌ، مثل: بحر وبِحار وأبْحُر.

قلت: وقد يكونُ النقعُ رفعَ الصوت، ومنه حديثُ عمرَ حين قيل له: إنَّ النساء قد اجتمعن يبكين على خالد بن الوليد، فقال: وما على نساء بني المغِيرة أن يَسْفِكْنَ من دموعهنَّ وهنَّ جلوسٌ على أبي سليمان، ما لَمْ يكن نَقْعٌ ولا لَقْلَقَة[1]. قال أبو عبيد[2]: يعني بالنقع رَفْعَ الصوت، على هذا رأيتُ قولَ الأكثرين من أهل العلم، ومنه قولُ لبيد:

فمتى ينقَعْ صُراخٌ صادِقٌ يُحْلِبوها ذاتَ جَرْسٍ وزَجَلْ[3]

ويُروى: يَحْلِبوها أيضاً. يقول: متى سمعوا صراخاً[4] أَحْلَبوا الحرب، أي: جمعوا لها. وقولُه: يَنْقَع صُراخ: يعني رفعَ الصوت.

وقال الكسائيُّ: قولُه: نَقْعٌ ولا لقلقةٌ، النَّقْعُ: صنعةُ الطعام، يعني في المَأْتم. يقال منه: نقعْتُ أَنقَع نَقْعاً. قال أبو عبيد[5]: ذهب بالنقع إلى النَّقيعة، وإنَّما النقيعةُ عند غيره من العلماء: صنعةُ الطعام عند القدوم من سفر، لا في المأتم.

وقال بعضُهم: يريد عمر بالنقع: وَضْعَ الترابِ على الرأس. يذهبُ إلى أنَّ النقع هو الغبار. ولا أَحْسَبُ عمر ذهب إلى هذا، ولا خافه منهنَّ، وكيف يبلغ خوفُه ذا وهو يكره لهنَّ القيام، فقال: يَسْفِكْنَ من دموعهنَّ وهُنَّ جلوسٌ. قال بعضهم: النقع: شقُّ الجيوب، وهو الذي لا أدري ما هو من الحديث[6] ولا أعرفُه، وليس النقعُ عندي في

---

(١) علقه البخاري بنحوه قبل الحديث (١٩٢١)، ووصله عبد الرزاق (٦٦٨٥)، وأبو عبيد في غريب الحديث ٣/ ٢٧٣.

(٢) في غريب الحديث ٣/ ٢٧٥.

(٣) ديوان لبيد ص ١٩١، وغريب الحديث ٣/ ٢٧٥. ورواية الديوان: يُحلبوه، قال شارحه: أي: يمدُّوه ويُعينوه بحلائب الخيل. والجرس: الصوت. والزجل كذلك، إلا أنَّ فيه تطريباً. أراد: كتيبة ذات جرس وزجل. والمعنى: أنهم إذا ارتفع صوت الصريخ هبوا للنجدة بكتيبة هذا حالها.

(٤) في غريب الحديث: صارخاً.

(٥) في غريب الحديث ٣/ ٢٧٤، وما قبله منه.

(٦) قوله: من الحديث، ليس في غريب الحديث.

هذا الحديث إلَّا الصوتُ الشديد، وأمَّا اللقلقةُ: فشِدَّةُ الصوت، ولم أسمع فيه اختلافًا.

وقرأ أبو حَيْوة: «فَأَثَّرْنَ» بالتشديد[١]، أي: أَرَتْ آثارَ ذلك. ومَن خفَّف فهو مِن أثار: إذا حرَّك، ومنه: ﴿وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ﴾ [الروم: ٩].

قوله تعالى: ﴿فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ۝٥﴾

«جَمْعًا» مفعولٌ بـ «وَسَطْن»، أي: فوسَطْنَ بركبانهن العدوَّ، أي: الجمع الذي أغاروا عليهم. وقال ابن مسعود: «فَوَسَطْن بِهِ جمعاً» يعني مُزْدلِفة[٢]. وسمِّيت جمعاً لاجتماع الناس بها. ويقال: وسَطْتُ القومَ أَسِطُهم وَسْطًا وسِطَةً، أي: صِرتُ وَسْطَهم.

وقرأ عليٌّ ﷺ: «فَوَسَّطْن» بالتشديد[٣]، وهي قراءةُ قتادةَ وابنِ سيرين[٤] وأبي رجاء؛ لغتان بمعنى، يقال: وسطْتُ القومَ ـ بالتشديد والتخفيف ـ وتَوَسَّطْتُهُمْ، بمعنًى واحد[٥]. وقيل: معنى التشديد: جَعْلُها الجمعَ قسمين. والتخفيف: صِرْنَ في وسيط الجمع[٦]، وهما يرجعان إلى معنى[٧].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦﴾

هذا جوابُ القسم، أي: طُبع الإنسان على كُفْران النعمة. قال ابن عباس: «لَكَنُودٌ»: لكفورٌ جَحُودٌ لنعم الله. وكذلك قال الحسن، وقال: يذكُر المصائبَ وينسى

---

(١) القراءات الشاذة ص ١٧٨، والمحتسب ٢/ ٣٧٠، قال ابن جني: هذا كقولك: أَرَيْنَ وأَبْدَيْن.

(٢) أخرجه الطبري ٢٤/ ٥٨٤.

(٣) القراءات الشاذة ص ١٧٨، والمحتسب ٢/ ٣٧٠.

(٤) في (م): وابن مسعود.

(٥) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٨٥، وتفسير الطبري ٢٤/ ٥٨٢.

(٦) المحتسب ٢/ ٣٧٠.

(٧) بعدها في (م): الجمع.

النعم[١]. أخَذَه الشاعر فنَظَمه:

يـا أيُّـهـا الـظـالـمُ فـي فِـعْـلِـهِ   والـظُّـلْـمُ مـردودٌ عـلـى مَـن ظَـلَـمْ
إلـى مـتـى أنْـتَ وحَـتَّـى مـتـى   تشكو المُصيباتِ وتنسى النعم![٢]

وروى أبو أُمامة الباهِليُّ قال: قال رسول الله ﷺ: «الكَنُود هو الذي يأكلُ وحدَه، ويَمنعُ رِفْدَه، ويضربُ عَبْدَه»[٣]. وروى ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «ألَا أُنبِّئُكم بشرارِكُمْ؟» قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «مَن نَزَل وحدَه، ومَنَع رِفْدَه، وجَلَدَ عبدَه»[٤]. خرَّجهما الترمذيُّ الحكيم في «نوادر الأصول»[٥].

وقد روي عن ابن عباس أيضاً أنه قال: الكَنودُ بلسانِ كِنْدَة وحضرموت: العاصي، وبلسان ربيعةَ ومُضَرَ: الكفور. وبلسان كِنانَة: البخيلُ السَّيِّءُ المَلَكة. وقاله مقاتل[٦]. وقال الشاعر:

كَـنـودٌ لِـنَـعـمـاء الـرجـالِ ومَـنْ يـكـن   كَـنـودًا لـنـعـمـاء الـرجـال يُـبَـعَّـدِ[٧]

أي: كفور. ثم قيل: هو الذي يكفُر اليسيرَ، ولا يشكر الكثير. وقيل: الجاحدُ

(١) أخرج قول ابن عباس والحسن الطبري ٢٤/ ٥٨٤ - ٥٨٥ .

(٢) سلف البيتان ١٧/ ٣٩٩ .

(٣) أخرجه الطبري ٢٤/ ٥٨٦ ، وابن حبان في المجروحين ١/ ٢١٢ ، والطبراني في الكبير (٧٩٥٨)، وابن أبي حاتم، كما في تفسير ابن كثير عند هذه الآية. وفي إسناده جعفر بن الزبير، وهو متروك كما ذكر ابن كثير. وأخرجه الطبراني (٧٧٧٨) بإسناد آخر عن أبي أمامة ﷺ. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ١٤٢ : رواه الطبراني بإسنادين، في أحدهما جعفر بن الزبير وهو ضعيف، وفي الآخر مَن لم أعرفه. وأخرجه البخاري في الأدب المفرد (١٦٠)، والطبري ٢٤/ ٥٨٧ عن أبي أمامة ﷺ موقوفاً.

(٤) قطعة من حديث طويل أخرجه عبد الله بن أحمد في زوائده على الزهد للإمام أحمد ص٣٥٩ .

(٥) ص ٢٦٧ ، وليس في مطبوعه ذكر إسناديهما، وخبر أبي أمامة فيه موقوف مختصر.

(٦) النكت والعيون ٦/ ٣٢٥ عن الكلبي، وتفسير أبي الليث ٣/ ٥٠٣ عن مقاتل.

(٧) ذكره أبو حيان في البحر ٨/ ٥٠٣ ، والسمين في الدر المصون ١١/ ٨٩ ، والألوسي في روح المعاني ٣٠/ ٢١٨ .

للحق. وقيل: إنَّما سمِّيتْ كِنْدَةُ كِندَة؛ لأنَّها جحدتْ أباها. وقال إبراهيم بن هَرْمَةَ الشاعر:

دعِ البخلاءَ إنْ شَمخُوا وصَدُّوا ... وذِكْرى بُخْلِ غانيةٍ كَنودِ[(١)]

وقيل: الكَنود: مِن كَنَدَ إذا قَطَع، كأنَّه يقطَعُ ما ينبغي أنْ يُواصِلَه من الشكر. ويقال: كَنَد الحبلَ: إذا قطعه؛ قال الأعشى:

أميطي تُميطي بصُلْبِ الفؤادِ ... وَصُولِ حِبالٍ وكَنَّادِها[(٢)]

فهذا يدلُّ على القطع. ويقال: كَنَدَ يكْنِدُ كُنودًا، أي: كَفَر النعمةَ وجَحدَها، فهو كَنود. وامرأة كَنودٌ أيضاً، وكُنُدٌ مِثله[(٣)]. قال الأعشى:

أحْدِثْ لها تُحْدِثْ لوَصْلِكَ إنَّها ... كُنُدٌ لوصلِ الزائرِ المعتادِ[(٤)]

أي: كَفورٌ للمواصلة. وقال ابن عباس: الإنسانُ هنا الكافر، يقول: إنه لكفور[(٥)]. ومنه: الأرضُ الكنودُ التي لا تُنبِتُ شيئًا. وقال الضحاك: نزلت في الوليد بن المغيرة[(٦)].

قال المبرِّد: الكنود: المانعُ لمَا عليه. وأنشد لكثير:

---

(١) لم نقف عليه في ديوان إبراهيم بن هرمة، والكلام من النكت والعيون ٦/ ٣٢٥، ووقع في مطبوعه: إبراهيم بن زهير، بدل: إبراهيم بن هرمة.

(٢) ديوان الأعشى ص ١١٩، والصحاح (كند)، واللسان (ميط). ورواية الديوان واللسان: فميطي تميطي...، قال صاحب اللسان: ماط عني مَيْطاً ومَيَطاناً وأماط: تنحَّى وبَعُد وذهب. اهـ. وجاء في شرح البيت في الديوان: يذكر الأعشى صاحبته فيقول: لتذهب حيث تريد، فإنه لصلب الفؤاد، إنْ وَصَل حبل الود فهو خليق أن يقطعه.

(٣) الصحاح (كند).

(٤) ديوان الأعشى ص ١٧٩. قال الشارح: تجدَّد لها وصلاً، فتجدد في وصلك قطيعة.

(٥) سلف في بداية تفسير هذه الآية.

(٦) النكت والعيون ٦/ ٣٢٦.

أَحْدِثْ لها تُحْدِثْ لوَصْلِكَ إنها كُنُدٌ لِوَصلِ الزائرِ المعتادِ[(١)]

وقال أبو بكر الواسطيُّ: الكنود: الذي ينفق نِعَم الله في معاصي الله.

وقال أبو بكر الورَّاق: الكنودُ: الذي يرى النعمةَ من نفسه وأعوانه.

وقال الترمذي: الذي يرى النعمةَ ولا يرى المنعِم.

وقال ذو النون المصريُّ: الهَلوعُ والكَنود: هو الذي إذا مسَّه الشرُّ جَزوعٌ، وإذا مسَّه الخيرُ مَنوعٌ.

وقيل: هو الحقودُ الحسود. وقيل: هو الجَهولُ لقَدْرِه. وفي الحكمة: مَن جهل قَدْرَه هتك[(٢)] سِتره.

قلت: هذه الأقوالُ كلُّها تَرجِعُ إلى معنى الكُفْرانِ والجحود. وقد فسَّر النبيُّ ﷺ معنى الكَنودِ بخصالٍ مذمومةٍ، وأحوالٍ غيرِ محمودةٍ[(٣)]، فإنْ صحَّ فهو أعلى ما يقال، ولا يبقى لأحدٍ معه مَقال.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧﴾

أي: وإنَّ الله عزَّ وجلَّ ثناؤه على ذلك من ابن آدمَ لَشَهيد. كذا روى منصورٌ عن مجاهد، وهو قولُ ابنِ عباس[(٤)].

وقال الحسن وقتادةُ ومحمد بن كعب: «وإنَّه»، أي: وإنَّ الإنسان لشاهدٌ على نفسه بما يصنع. ورُوي عن مجاهد أيضًا[(٥)].

---

(١) ليس في ديوان كثير، وقد سلف عن الأعشى.

(٢) في (ظ): كشف.

(٣) سلف ص٤٣٧ من هذا الجزء.

(٤) ذكره عن ابن عباس الواحدي في الوسيط ٤/ ٥٤٥ ، وأخرجه عن مجاهد ابن أبي حاتم، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٨٥ ، وأخرجه الطبري ٢٤/ ٥٨٧ - ٥٨٨ عن قتادة وسفيان.

(٥) أخرجه عن محمد بن كعب ابن أبي حاتم، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٨٥ ، وذكره عن الحسن ومجاهد ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٥١٥ .

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي: الإنسانَ من غيرِ خلافٍ. ﴿لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ﴾ أي: المال، ومنه قولُه تعالى: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾ [البقرة: ١٨٠]. وقال عدِيّ:

ماذا تُرَجّي النفوسُ من طلب الـ ... ـخَيْرِ وحُبُّ الحياةِ كارِبُها[١]

﴿لَشَدِيدٌ﴾ أي: لَقَويٌّ في حبِّه للمال. ويقال: «الشدِيد»: لبخيل. ويقال للبخيل: شديدٌ ومتشدِّد؛ قال طَرَفة:

أرَى الموتَ يَعْتامُ الكِرامَ ويَصْطَفي ... عَقِيلَةَ مالِ الفاحِشِ المُتَشَدِّدِ[٢]

يقال: اعْتَامَه واعْتَمَاه، أي: اختاره. والفاحِشُ: البخيل أيضًا. ومنه قولُه تعالى: ﴿وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ [البقرة: ٢٦٨] أي: البخل.

قال ابن زيد: سمَّى الله المالَ خيرًا، وعسى أن يكون شرًّا وحراماً، ولكنَّ الناس يَعُدُّونه خيراً، فسمَّاه الله خيراً لذلك. وسمَّى الجهادَ سُوءاً، قال: ﴿فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾ [آل عمران: ١٧٤] على ما يسمِّيه الناس[٣].

قال الفرَّاء: نَظْمُ الآيةِ أن يقال: وإنَّه لَشديدُ الحبِّ للخير[٤]؛ فلمَّا تقدَّم الحبُّ قال: شديد، وحذف مِن آخِرِه ذكر الحبِّ؛ لأنَّه قد جرى ذِكْرُه، ولرؤوس الآي، كقوله تعالى: ﴿فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ [إبراهيم: ١٨] والعُصُوف للريح لا للأيام، فلمَّا جرى ذِكْرُ الريح قبل اليوم، طرح من آخِرِه ذِكْر الريح، كأنه قال: في يومٍ عاصِفِ الريح[٥].

---

(١) الأغاني ٢/١٤٧.

(٢) ديوان طرفة ص ٣٤. قال النحاس في شرح المعلقات ١/٨٣: يصطفي: يأخذ صفوته وهو خيرته. وعقيلة المال: أكرمه وأنفسه عند أهله.

(٣) أخرجه الطبري ٢٤/٥٨٩.

(٤) العبارة في معاني القرآن للفراء ٣/٢٨٥: وإنه للخير لشديد الحب.

(٥) معاني القرآن للفراء ٣/٢٨٥ - ٢٨٦.

قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ۝٩ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ۝١٠ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ۝١١﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ﴾ أي: ابنُ آدمَ ﴿إِذَا بُعْثِرَ﴾ أي: أُثير وقُلِب وبُحِث، فأُخرج ما فيها. قال أبو عبيدة: بَعْثَرْتُ المتاع: جعلت أسفلَهُ أعلاه[١]. وعن محمد بن كعب قال: ذلك حين يُبْعَثون[٢]. الفرَّاء: سمعتُ بعضَ أعرابِ بني أسد يقرأ: «بُحْثِر» بالحاء مكانَ العين[٣]، وحكاه الماورديُّ عن ابن مسعود[٤]، وهما بمعنى.

﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾ أي: مُيِّز ما فيها من خيرٍ وشر؛ كذا قال المفسِّرون. وقال ابن عباس: أُبرِز[٥].

وقرأ عبيد بن عمير وسعيد بن جُبير ويحيى بن يعمُر ونصر بن عاصم: «وحَصَل» بفتح الحاء وتخفيفِ الصاد وفتحِها[٦]، أي: ظهر.

﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ أي: عالمٌ لا يَخْفَى عليه منهم خافيةٌ. وهو عالمٌ بهم في ذلك اليوم وفي غيره، ولكن المعنى: أنه يجازيهم في ذلك اليوم.

وقوله: «إذا بُعثِر»، العاملُ في «إذا»: «بُعْثِر»، ولا يعملُ فيه «يَعْلَمُ»؛ إذ لا يرادُ به العِلْمُ من الإنسان ذلك الوقت، إنَّما يراد في الدنيا. ولا يعمل فيه «خَبِيرٌ»؛ لأنَّ ما بعد «إنَّ» لا يعملُ فيما قبلها. والعاملُ في «يَوْمَئِذٍ»: «خَبِيرٌ»، وإنْ فَصَلَتِ اللَّامُ بينهما؛ لأنَّ موضع اللام الابتداء. وإنَّما دخلت في الخبر لدخول «إنَّ» على المبتدأ[٧]. ويُروى أنَّ

(١) بنحوه في مجاز القرآن ٢/ ٢٨٨، وقال أبو عبيدة أيضاً ٢/ ٣٠٨: «بعثر ما في القبور»: أُثير فأخرج.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٨٥.

(٣) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٨٦، وقال الفراء: وهما لغتان: بحثر وبعثر.

(٤) النكت والعيون ٦/ ٣٢٦.

(٥) أخرجه الطبري ٢٤/ ٥٩٠.

(٦) القراءات الشاذة ص ١٧٨ عن يحيى.

(٧) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٨٣٦ - ٨٣٧.

الحجَّاجَ قرأ هذه السورة على المنبر يحضُّهم على الغزو، فجرى على لسانه: «أَنَّ ربَّهم» بفتح الألف، ثم استدركها فقال: «خَبير» بغيرِ لامٍ[١]. ولولا اللامُ لكانت مفتوحة، لوقوع العلم عليها. وقرأ أبو السَّمَّال: «أَنَّ رَبَّهمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ خَبِيرٌ»[٢]. والله سبحانه وتعالى أعلم.

تفسير سورة «القارعة»

وهي مكيةٌ بإجماع[٣]. وهي عَشْرُ آياتٍ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣﴾

قوله تعالى: ﴿ٱلْقَارِعَةُ . مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ أي: القيامةُ والساعة، كذا قال عامَّةُ المفسِّرين. وذلك أنَّها تقرعُ الخلائقَ بأهوالها وأفزاعها. وأهلُ اللغةِ يقولون: تقولُ العرب: قَرَعَتْهُمُ القارِعةُ، وفَقَرَتْهُمُ الفاقِرة: إذا وقع بهم أمرٌ فظيع. قال ابن أحمر:

وقارعةٍ مِن الأيام لولا ... سبيلُهُمُ لزاحَتْ عنك حِينا[٤]

وقال آخر:

متى تَقْرَعْ بمَرْوتِكُم نَسُؤْكُمْ ... ولم تُوقَدْ لَنا في القِدْرِ نارُ[٥]

وقال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ﴾ [الرعد: ٣١] وهي الشديدةُ من شدائد الدَّهر.

---

(١) ذكره بنحوه ابن قتيبة في عيون الأخبار ٢/ ١٦٠ .

(٢) الكشاف ٤/ ٢٧٩ .

(٣) زاد المسير ٩/ ٢١٣ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٥١٨ .

(٤) اللسان (عزز)، ووقع في (ظ): لراحت.

(٥) النكت والعيون ٦/ ٣٢٧ .

قوله تعالى: ﴿مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ استفهامٌ، أي: أيُّ شيء هي القارعة؟ وكذا ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ كلمةُ استفهامٍ على جهةِ التعظيمِ والتفخيم لشأنها، كما قال: ﴿ٱلْحَآقَّةُ مَا ٱلْحَآقَّةُ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ على ما تقدَّم.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾﴾

«يوم» منصوبٌ على الظَّرف، تقديرُه: تكونُ القارعةُ يومَ يكونُ الناسُ كالفراش المبثوث. قال قتادة: الفراشُ: الطيرُ الذي يتساقطُ في النار والسِّراج[1]. الواحدةُ فراشة، وقاله أبو عبيدة[2]. وقال الفرَّاء[3]: إنه الهَمَجُ الطائرُ من بَعوضٍ وغيرِه، ومنه الجراد. ويقال: هو أطيشُ من فراشة؛ قال:

طُوَيِّشٌ مِن نَفَرٍ أطْياشِ أَطْيشُ من طائرةِ الفَراشِ[4]

وقال آخر:

وقد كانَ أقوامٌ رَدَدْتُ قُلُوبَهُمْ عليهم وكانوا كالفَراشِ من الجَهْلِ[5]

وفي «صحيح» مسلم عن جابر[6]، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَثَلي ومثَلُكُمْ كَمثَل رجلٍ أَوْقَدَ ناراً، فجعل الجنادِبُ والفَراشُ يَقَعْن فيها، وهو يذُبُّهنَّ عنها، وأنا آخِذٌ بِحُجَزِكُمْ عن النار، وأنتم تَفَلَّتون مِن يَدي». وفي الباب عن أبي هريرة[7].

والمبثوثُ: المتفرِّقُ. وقال في موضعٍ آخَرَ: ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ [القمر:٧]. فأوَّلُ

---

(١) أخرجه بنحوه الطبري ٢٤/ ٥٩٣ .

(٢) في مجاز القرآن ٢/ ٣٠٩ ، وفيه: طير لا بعوض ولا ذباب، هو الفراش.

(٣) في معاني القرآن ٣/ ٢٨٦ ، ونقله المصنف عنه بواسطة الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٣٢٨ .

(٤) ذكره ابن عادل في اللباب ٢٠/ ٤٧١ .

(٥) البيت للفرزدق، وهو في النقائض ١/ ١٣٠ ، ومنتهى الطلب ٥/ ٣١١ برواية:

وحولكَ أقوامٌ رددتُ قلوبَهم عليهم فكانوا كالفراش من الجهل

(٦) برقم (٢٢٨٥)، وسلف ١٧/ ٦١ .

(٧) أخرجه أحمد (٧٣٢١) و(٨١١٧)، والبخاري (٦٤٨٣)، ومسلم (٢٢٨٤)، وسلف ١٧/ ٦١ .

حالِهم كالفَراش لا وجهَ له، يَتحيَّر في كلِّ وجهٍ، ثم يكونون كالجراد؛ لأنَّ لها وجهاً تقصِدُه.

والمبثوث: المتفرِّقُ المنتشِر، وإنَّما ذكَّر على اللَّفظ، كقوله تعالى: ﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ [القمر: ٢٠] ولو قال: المبثوثةِ [فهو][1] كقوله تعالى: ﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٧].

وقال ابن عباس والفرَّاء: «كالفراشِ المبثوثِ»: كغَوغاء الجراد، يركبُ بعضُها بعضاً. كذلك الناسُ يجولُ بعضُهم في بعضٍ إذا بُعثوا[2].

قوله تعالى: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ ۝٥﴾

أي: الصوف الذي يُنْفشُ باليد، أي: تَصيرُ هباءً وتزول، كما قال جلَّ ثناؤه في موضعٍ آخَرَ: ﴿هَبَاءً مُّنبَثًّا﴾ [الواقعة: ٦]. وأهلُ اللغة يقولون: العِهنُ: الصوفُ المصبوغ. وقد مضى في سورة «سَأَلَ سائلٌ»[3].

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ۝٦ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ۝٨ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌ ۝١١﴾

قد تقدَّم القولُ في المِيزان في «الأعراف والكهف والأنبياء»[4]. وأنَّ له كِفَّةً ولساناً توزنُ فيه الصُّحفُ المكتوبُ فيها الحسناتُ والسَّيئات[5]. ثم قيل: إنه ميزانٌ واحدٌ بيد جبريل يَزِنُ أعمالَ بني آدم، فعبَّر عنه بلفظِ الجمع. وقيل: موازين،

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٨٦، وسلف عنه قريباً بنحوه، ولم نقف عليه عن ابن عباس.

(٣) عند تفسير الآية (٨) منها.

(٤) ينظر ٩/ ١٥٦، و١٣/ ٣٩٣، و١٤/ ٢١٢.

(٥) قال ابن حزم في الفصل في الملل والأهواء والنحل ٥/ ٦٥: وأمور الآخرة لا تعلم إلا بما جاء في القرآن، أو بما جاء عن رسول الله ﷺ، ولم يأت عنه عليه الصلاة والسلام شيء يصح في صفة الميزان.

كما قال:

فــلِــكــلِّ حــادِثــةٍ لَــهَــا مِــيــزانُ

وقد ذكرناه فيما تقدَّم[١]. وذكرناه أيضًا في كتاب «التذكِرة»[٢].

وقيل: إنَّ الموازين: الحُجَجُ والدلائل؛ قاله عبد العزيز بن يحيى، واستشهد بقول الشاعر:

قَـد كُـنـتُ قـبـلَ لـقـائـكـم ذا مِـرَّةٍ عِـنـدي لـكُـلِّ مـخـاصِـمٍ مِـيـزانُـهُ[٣]

ومعنى «عِيشةٍ راضِيةٍ»، أي: عيشٍ مَرْضيٍّ، يرضاه صاحبُه.

وقيل: «عيشةٍ راضِيةٍ» أي: فاعلة للرضا، وهو اللِّينُ والانقيادُ لأهلها. فالفعلُ للعيشة لأنها أعطت الرضا مِن نفسِها، وهو اللِّينُ والانقياد. فالعيشةُ كلمةٌ تجمع النِّعَم التي في الجنة، فهي فاعلةٌ للرضا، كالفُرُش المرفوعة، وارتفاعُها مقدارُ مئةِ عام، فإذا دنا منها وليُّ اللهِ اتَّضَعتْ حتى يستويَ عليها، ثم ترتفعُ كهيئتها، ومثل الشجرة فروعها، كذلك أيضاً من الارتفاع، فإذا اشتهى وليُّ اللهِ ثمرتَها تَدلَّتْ إليه، حتى يتناولها وليُّ الله قاعداً وقائماً، وذلك قولُه تعالى: ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ [الحاقة:٢٣]. وحيثما مشى أو تَنقَّل من مكانٍ إلى مكان، جرى معه نهرٌ حيث شاء، عُلُوًّا وسُفْلًا، وذلك قولُه تعالى: ﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ [الإنسان:٦]. فيُروَى في الخبر: أنه يشير بقضيبه فيجري من غير أخدودٍ حيث شاء من قصوره وفي مجالسه[٤]. وهذه[٥] الأشياءُ كلُّها عيشةٌ قد أَعْطَتِ الرِّضا من نفسها، فهي فاعلةٌ للرضا، وهي انذلَّتْ وانقادَتْ بذْلاً وسماحة.

---

(١) ١٤/ ٢١١ ، وصدره: ملك تقوم الحادثات لعدله.

(٢) ص ٣٢٠ .

(٣) سلف ١٢/ ١٩١ ، والكلام من النكت والعيون ٦/ ٣١٨ - ٣١٩ .

(٤) ذكره الحكيم الترمذي في نوادر الأصول ص ٣٣٩ .

(٥) في (م): فهذه.

ومعنى ﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ﴾ يعني جَهَنَّم. وسمَّاها أُمًّا، لأنَّه يأوي إليها كما يأوي إلى أمِّه؛ قاله ابن زيد[١]. ومنه قولُ أميةَ بنِ أبي الصَّلْت:

فالأرضُ مَعْقِلُنا وكانتْ أُمَّنا فيها مَقابرُنا وفيها نُولَدُ[٢]

وسمِّيتِ النارُ هاوية، لأنه يهوِي فيها مع بُعْدِ قَعْرِها. ويُروَى أنَّ الهاوية اسمُ البابِ الأسفلِ من النار.

وقال قتادة: معنى «فأمُّه هاوِية»: فمصيرُه إلى النار[٣]. عكرمةُ: لأنه يهوي فيها على أمِّ رأسه[٤]. الأخفش: «أمُّه»: مستَقَرُّه، والمعنى متقارِبٌ. وقال الشاعر:

يا عمرو لو نالَتْكَ أرماحُنا كنتَ كَمَن تهوي به الهاوِيَهْ[٥]

والهاوية: المَهْواة. وتقول: هَوَتْ أمُّه، فهي هاوية، أي: ثاكِلَة، قال كعب بن سعد الغَنَوِيُّ:

هَوَتْ أُمُّه ما يبعثُ الصبحُ غاديا وماذا يؤدِّي الليلُ حين يَؤُوبُ[٦]

والمهوى والمَهْوَاة: ما بين الجبلين، ونحو ذلك. وتهاوَى القومُ في المَهْواة: إذا سقط بعضُهم في إثر بعض[٧].

---

(١) النكت والعيون ٦/ ٣٢٩، وأخرجه بنحوه الطبري ٢٤/ ٥٩٦.

(٢) ديوان أمية ص ٥٢، والكلام من النكت والعيون ٦/ ٣٢٩.

(٣) أخرجه بنحوه الطبري ٢٤/ ٥٩٥.

(٤) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٣٢٩. وأخرجه ابن أبي حاتم، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٨٥.

(٥) البيت لعمرو بن مِلْقَط شاعر جاهلي، كما في النوادر في اللغة لأبي زيد الأنصاري ص ٦٢، والخزانة ٩/ ٢١، وبلا نسبة في الصحاح (هوى). ووقع في النوادر والخزانة: يا أوس لو نالتك... وأوس هو ابن حارثة بن لأم الطائي، كما ذكر البغدادي.

(٦) الأصمعيات ص ٩٥، وأمالي القالي ٢/ ١٥٠، والصحاح (هوى)، والكلام منه، وجمهرة الأمثال ٢/ ٣٥٤، ومجمع الأمثال ٢/ ٣٩٠، والخزانة ١٠/ ٤٣٥. والبيت من قصيدة في رثاء أبي المغوار الغنوي، وقوله: ما يبعث الصبح...، يريد أن هذين الوقتين يجددان ذكره ويثيران الحزن عليه؛ لأن الصباح وقت الغارة، والليل وقت طروق الضيفان. سمط اللآلي ٢/ ٧٧٣.

(٧) الصحاح (هوى).

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ﴾ الأصلُ: «ما هي»، فدخلت الهاءُ للسَّكْت. وقرأ حمزةُ والكسائيُّ ويعقوبُ وابن مُحيصن: «ما هيَ» بغير هاءٍ في الوصل، ووقفوا بها[١]. وقد مضى في سورة الحاقَّةِ بيانُه[٢].

﴿نَارٌ حَامِيَةُۢ﴾ أي: شديدةُ الحرارة. وفي «صحيح» مسلم عن أبي هريرة: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «نارُكم هذه التي يُوقِدُ ابنُ آدمَ جزءٌ من سبعين جزءًا من حرِّ جهنَّم» قالوا: والله إنْ كانت لكافيةً يا رسول الله! قال: «فإنَّها فُضِّلَتْ عليها بتسعةٍ وستِّين جزءًا، كلُّها مثلُ حرِّها»[٣].

وروي عن أبي بكرٍ ﷺ أنه قال: إنَّما ثَقُلَ ميزانُ مَن ثَقُلَ ميزانُه، لأنَّه وُضع فيه الحقُّ، وحُقَّ لميزانٍ يكونُ فيه الحقُّ أن يكون ثقيلاً. وإنَّما خفَّ ميزانُ مَن خفَّ ميزانُه، لأنَّه وُضع فيه الباطلُ، وحُقَّ لميزانٍ يكون فيه الباطلُ أن يكون خفيفاً.[٤]

وفي الخبر عن أبي هريرة، عن النبيِّ ﷺ: «أنَّ الموتى يَسألون الرجلَ يأتيهم عن رجلٍ مات قَبْلَه، فيقول: ذلك مات قبلي، أمَا مرَّ بكم؟ فيقولون: لا والله، إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون! ذُهِب به إلى أمِّه الهاوية، فبِئْسَتِ الأمُّ، وبئستِ المُرَبِّيةُ». وقد ذكرناه بكماله في كتاب «التذكرة»[٥]، والحمد لله.

---

(١) التيسير ص ٢٢٥ ، والنشر ٢/ ١٤٢ عن حمزة ويعقوب، والمشهور عن الكسائي إثبات الهاء في الحالين.

(٢) عند تفسير الآية (١٩) منها.

(٣) صحيح مسلم (٢٨٤٣)، وهو عند أحمد (٨١٢٦)، والبخاري (٣٢٦٥)، وسلف عند تفسير الآية (٧٣) من سورة الواقعة.

(٤) قطعة من وصية أبي بكر لعمر رضي الله عنهما، والخبر أخرجه بنحوه مطولاً ابن المبارك في الزهد (٩١٤)، وهناد في الزهد (٤٩٦)، وابن أبي شيبة ١٣/ ٢٥٩ - ٢٦٠ .

(٥) ص٥٥ ، وأخرجه الثعلبي كما ذكر المصنف ثمة. وفي الباب عن أبي أيوب ﷺ عند ابن المبارك في الزهد (٤٤٣).

تفسير سورة «التكاثر»

وهي مكيةٌ في قولِ جميعِ المفسِّرين[(١)]، ورَوَى البخارِيُّ أنَّها مدنية[(٢)]. وهي ثماني آيات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢﴾

فيه خمسُ مسائلَ:

الأولى: قولُه تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ «ألهاكم»: شَغَلَكم؛ قال:

فَألْهَيْتُها عن ذي تَمائم مُغْيِلِ[(٣)]

أي: شَغَلكم المباهاةُ بكثرة المالِ والعددِ عن طاعة الله، حتى مِتُّم ودُفنتُم في المقابر. وقيل: «أَلْهاكُمْ»: أنساكم، «التكاثُرُ» أي: من الأموال والأولاد؛ قاله ابن عباس والحسن[(٤)].

وقال قتادة: أي: التفاخرُ بالقبائل والعشائر. وقال الضحاك: أي: ألهاكم التشاغلُ بالمعاش والتجارة[(٥)].

---

(١) الوسيط ٤/٥٤٨، والمحرر الوجيز ٥/٥١٨، والكشاف ٤/٢٨٠، وتفسير البغوي ٤/٥٢٠، وتفسير الرازي ٣٢/ ٧٥.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٩٦٢، ويشير ابن العربي إلى حديث أنس ﷺ عن النبي ﷺ: «لو أن لابن آدم وادياً من ذهب...» فذكر أنس عن أبيٍّ قال: كنا نرى هذا من القرآن حتى نزلت ألهاكم التكاثر. صحيح البخاري (٦٤٣٩) و(٦٤٤٠)، وسيأتي قريباً.

(٣) وصدره: فمثلك حبلى قد طرقت ومرضعاً، والبيت لامرئ القيس، وهو في ديوانه ص ١٢، وسلف عند تفسير الآية (٨٤) من سورة صَ، و ص٢٠٢ من هذا الجزء.

(٤) النكت والعيون ٦/ ٣٣٠ عن الحسن، وأخرجه عن ابن عباس ابن المنذر، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٨٧.

(٥) ذكر القولين الماوردي ٦/ ٣٣٠، وقول قتادة أخرجه بنحوه عبد الرزاق ٢/ ٣٩٣، والطبري ٢٤/ ٥٩٨.

يقال: لَهِيتُ عن كذا ـ بالكسر ـ أَلْهَى لُهِيًّا ولِهْيَانًا: إذا سَلَوْت عنه، وتركت ذِكْرَه، وأَضْربت عنه. وأَلْهاه: أي شَغَله. ولهَّاه به تلهيةً، أي: عَلَّله[١]. والتكاثر: المُكاثَرة. قال مقاتل وقتادةُ وغيرهما: نزلت في اليهود حين قالوا: نحن أكثرُ من بني فلان، وبنو فلانٍ أكثرُ من بني فلان، ألهاهم ذلك حتى ماتوا ضُلَّالا[٢].

وقال ابن زيد: نزلت في فخذٍ من الأنصار.

وقال ابن عباس ومقاتلٌ والكلبيُّ: نزلت في حَيَّيْن من قريش: بني عبد مَناف، وبني سَهْم، تعادُّوا وتَكاثَروا بالسادة والأشراف في الإسلام، فقال كلُّ حيٍّ منهم: نحن أكثرُ سيداً، وأَعزُّ عزيزاً، وأَعْظَمُ نَفَراً، وأكثرُ عائذًا، فَكَثَرَ بنو عبد منافٍ سهماً. ثم تكاثروا بالأموات، فَكَثَرَتْهُمْ سَهْم، فنزلت ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾[٣] بأحيائكم، فلم ترضَوا ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ مفتخِرينَ بالأموات.

وروى سعيد عن قتادة قال: كانوا يقولون: نحن أكثرُ من بني فلان، ونحن أعدُّ من بني فلان، وهم كلَّ يومٍ[٤] يتساقطون إلى آخرهم، واللهِ ما زالوا كذلك حتى صاروا من أهل القبور كُلُّهم.

وعن عمرو بن دينار: حلف أنَّ هذه السورةَ نزلت في التجار. وعن شيبان عن قتادةَ قال: نزلتْ في أهل الكتاب.

قلت: الآيةُ تَعُمُّ جميعَ ما ذُكر وغيره. وفي «صحيح» مسلم عن مُطَرِّف عن أبيه قال: أتيتُ النبيَّ ﷺ وهو يقرأ ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ قال: «يقولُ ابنُ آدمَ: مالي مالي!

---

(١) الصحاح (لها).

(٢) أسباب النزول للواحدي ص ٤٩٩، وتفسير البغوي ٤/ ٥٢٠ عن قتادة.

(٣) أسباب النزول للواحدي ص ٤٩٩، وتفسير البغوي ٤/ ٥٢٠ عن مقاتل والكلبي. وذكره الماوردي ٦/ ٣٣١ عن الكلبي وقتادة.

(٤) في النسخ الخطية: قوم، والمثبت من (م)، وهو الموافق لما في كتاب الورع لأحمد ص ١٨٩، وتفسير الطبري ٢٤/ ٥٩٨.

وهل لكَ يا ابنَ آدمَ مِن مالكَ إلَّا ما أكلتَ فأفنيتَ، أو لَبِسْتَ فأبْلَيْتَ، أو تَصدَّقْتَ فأمْضَيْتَ»[١]، «وما سوى ذلك فذاهبٌ وتارِكُه للناس»[٢].

وروى البخاريُّ عن ابن شهاب: أخبرني أنس بنُ مالك أنَّ رسول الله ﷺ قال: «لو أنَّ لابنِ آدمَ وادياً من ذهب، أحبَّ أن يكون له واديان، ولن يَمْلأَ فاه إلَّا الترابُ، ويتوبُ اللهُ على مَن تابَ»[٣]. قال ثابت عن أنس عن أبيٍّ: كنَّا نرى هذا من القرآن، حتى نزلت ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾[٤]. قال ابن العربيّ: وهذا نصٌّ صحيحٌ مَليحٌ، غاب من أهل التفسير فجهِلوا وجَهَّلوا، والحمدُ لله على المعرفة[٥].

وقال ابن عباس: قرأ النبيُّ ﷺ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ قال: «تكاثُرُ الأموالِ: جَمْعُها من غير حقِّها، ومَنْعُها من حقِّها، وشدُّها في الأوعية»[٦].

الثانية: قولُه تعالى: ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ أي: حتى أتاكم الموتُ فصِرْتُم في المقابر زُوَّاراً، ترجعون منها كرجوع الزائرِ إلى منزله من جنةٍ أو نار. يقال لمن مات: قد زار قبرَه.

وقيل: أي: ألهاكم التكاثرُ حتى عَدَدتُم الأموات، على ما تقدَّم.

وقيل: هذا وعيدٌ، أي: اشتغلتُم بمفاخرة الدنيا، حتى تزوروا القبور، فتَرَوْا ما

---

(١) صحيح مسلم (٢٩٥٨)، وهو عند أحمد (١٦٣٠٦). قوله: فأمضيت، أي: أنفذت فيه عطاءك، ولم تتوقف فيه. النهاية (مضا). ووقع في (ظ): فأبقيت، بدل: فأمضيت، وهي رواية في الحديث. ينظر الورع لأحمد ص ١٨٨ ، والدر المنثور ٦/ ٣٨٦ - ٣٨٧ .

(٢) قوله: وما سوى ذلك...، ورد في آخِر حديث أبي هريرة عند مسلم (٢٩٥٩)، وأوله نحوُ حديث مطرف عن أبيه.

(٣) صحيح البخاري (٦٤٣٩)، وهو عند أحمد (١٢٧١٧)، ومسلم (١٠٤٨).

(٤) صحيح البخاري (٦٤٤٠).

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٩٦٢ ، وإنما عقب ابن العربي بهذا الكلام على الحديث للرد على المفسرين الذين قالوا إن هذه السورة مكية، وينظر ما سلف في بداية تفسير هذه السورة.

(٦) لم نقف عليه.

ينزل بكم من عذاب الله عزَّ وجلّ.

الثالثة: قولُه تعالى: ﴿ٱلۡمَقَابِرَ﴾ جمع مَقْبَرة ومَقْبُرة، بفتْحِ الباءِ وضمِّها. والقبور: جمع القبر[١]؛ قال:

أَرَى أَهْلَ القُصُورِ إذا أُمِيتُوا ... بَنَوْا فوق المقابرِ بالصُّخورِ
أَبَوْا إلَّا مُباهاةً وفَخْرًا ... على الفقراءِ حتّى في القُبورِ[٢]

وقد جاء في الشعر: المَقْبَر؛ قال:

لكلِّ أناسٍ مَقْبَرٌ بِفِنائهِم ... فَهُمْ يَنقُصُونَ والقُبورُ تَزِيدُ[٣]

وهو المَقْبُريُّ والمقْبَريُّ: لأبي سعيد المقبريّ؛ وكان يسكنُ المقابر[٤]. وقَبَرْتُ المَيتَ أَقْبِرهُ وأقبُرُه[٥] قَبْرًا، أي: دفنته. وأَقْبَرتُه، أي: أمرتُ بأن يُقْبَر. وقد مضى في سورة «عَبَس» القولُ فيه[٦]. والحمد لله.

الرابعة: لم يأتِ في التنزيل ذِكْرُ المقابرِ إلَّا في هذه السورة. وزيارتُها مِن أعظمِ الدواءِ للقلب القاسي؛ لأنَّها تذكِّر الموتَ والآخرة. وذلك يَحمل على قِصَر الأمل، والزهدِ في الدنيا، وتَرْكِ الرغبة فيها. قال النبيُّ ﷺ: «كنتُ نهيتُكم عن زيارة القبور، فزوروا القبورَ، فإنَّها تزهِّد في الدنيا، وتذكِّر الآخرة» رواه ابن مسعود، أخرجه ابن ماجه[٧]. وفي «صحيح» مسلم من حديث أبي هريرة: «فإنَّها تذكِّر الموتَ»[٨].

---

(١) الصحاح (قبر).

(٢) البيتان ليحى بن الحكم البكري الجياني، كما في نفح الطيب ٢/ ٢٥٦ .

(٣) البيت لعبد الله بن ثعلبة الحنفي، كما في الصحاح (قبر) ـ والكلام منه ـ وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٢/ ٨٩١ .

(٤) واسمه كيسان، وهو مولى أم شريك، ذكره ابن سعد في الطبقة الأولى من أهل المدينة؛ وقال: توفي في خلافة الوليد بن عبد الملك. التهذيب ٣/ ٤٧٨ .

(٥) وبابه ضرب ونصر. مختار الصحاح (قبر)، والكلام من الصحاح (قبر).

(٦) ص٨٠-٨١ من هذا الجزء.

(٧) في سننه (١٥٧١)، وأخرجه بنحوه أحمد (٤٣١٩).

(٨) صحيح مسلم (٩٧٦)، وهو عند أحمد (٩٦٨٨).

وفي الترمذيِّ عن بُرَيْدة: «فإنَّها تذكِّر الآخرة». قال: هذا حديثٌ حسنٌ صحيح[(١)]. وفيه عن أبي هريرة: أنَّ رسول الله ﷺ لعن زوَّاراتِ القبور. قال: وفي الباب عن ابن عباسٍ وحسان بنِ ثابت. قال أبو عيسى: وهذا حديثٌ حسنٌ صحيح. وقد رأى بعضُ أهلِ العلم أنَّ هذا كان قبل أن يرخِّص النبيُّ ﷺ في زيارة القبور، فلمَّا رَخَّص دخل في رخصته الرجالُ والنساء. وقال بعضهم: إنَّما كره زيارةَ القبورِ للنساء لقلةِ صَبْرِهنَّ، وكَثْرةِ جَزَعِهِنّ[(٢)].

قلت: زيارةُ القبورِ للرجال متَّفقٌ عليه عند العلماء، مختلفٌ فيه للنساء. أمَّا الشَّوَابُّ فحرامٌ عليهنَّ الخروج، وأمَّا القواعدُ فمباحٌ لهنَّ ذلك. وجائزٌ لجميعهنَّ ذلك إذا انفَرَدْنَ بالخروج عن الرجال، ولا يُختلف في هذا إن شاء الله. وعلى هذا المعنى يكون قولُه: «زوروا القبورَ» عامًّا. وأمَّا مَوْضعٌ أو وقتٌ يُخْشَى فيه الفتنةُ من اجتماع الرجالِ والنساء، فلا يَحِلُّ ولا يجوز. فبينما الرجل يخرجُ ليعتبر، فيقع بصره على امرأةٍ فيفتتن، وبالعكس، فيرجع كلُّ واحدٍ من الرجال والنساء مأزوراً غيرَ مأجورٍ. والله أعلم.

الخامسة: قال العلماء: ينبغي لمن أراد علاجَ قلبِه وانقيادَه بسلاسل القهر إلى طاعة ربِّه، أن يُكْثِرَ مِن ذِكْرِ هاذِمِ[(٣)] اللذَّات، ومفرِّقِ الجماعات، ومُوتمِ البنينَ والبنات، ويواظبَ على مشاهدةِ المحتَضَرِين، وزيارةِ قبورِ أمواتِ المسلمين. فهذه ثلاثةُ أمورٍ ينبغي لمن قسا قلبُه، ولزمه ذَنْبُه، أن يستعين بها على دواءِ دائه، ويستصرخَ بها على فتن الشيطانِ وأعوانه[(٤)]، فإن انتفع بالإكثار من ذكر الموت، وانْجَلَتْ به قساوةُ قلبِه، فذاك، وإنْ عَظُمَ عليه رانُ القلبِ، واستحكمتْ فيه دواعي الذنب؛ فإنَّ

---

(١) سنن الترمذي (١٠٥٤)، وأخرجه بنحوه أحمد (٢٢٩٥٨)، ومسلم (٩٧٧).

(٢) سنن الترمذي (١٠٥٦)، والحديث عند أحمد (٨٤٤٩).

(٣) في (د) و(ظ): هادم. قال المناوي في فيض القدير ٢/ ٨٦: هاذم بالذال المعجمة: قاطع، وبالمهملة: مزيل.

(٤) في (ظ): وإغوانه.

مشاهدة المحتَضَرين، وزيارةَ قبورِ أمواتِ المسلمين، تَبلُغ في دفع ذلك ما لا يبلغه الأول؛ لأنَّ ذِكْر الموت إخبارٌ للقلب بما إليه المصير، وقائمٌ له مقامَ التخويفِ والتحذير. وفي مشاهدةِ مَن احتُضِر، وزيارةِ قبرِ مَن مات مِن المسلمين مُعايَنَةٌ ومشاهَدةٌ؛ فلذلك كان أبلغَ من الأوّل؛ قال ﷺ: «ليس الخبرُ كالمُعايَنَةِ». رواه ابن عباس(١). فأمَّا الاعتبارُ بحالِ المحتَضَرين فغيرُ مُمْكِنٍ في كلِّ الأوقات، وقد لا يتَّفقُ لمن أراد علاجَ قلبه في ساعة من الساعات. وأمَّا زيارةُ القبورِ فوجودُها أسرعُ، والانتفاعُ بها أَلْيَقُ وأَجْدَر. فينبغي لمن عزم على الزيارة أن يتأدَّب بآدابها، ويُحضِرَ قلبَه في إتيانها، ولا يكون حظُّه منها التَّطْوافَ على الأجداث فقط؛ فإنَّ هذه حالةٌ تشاركُه فيها بهيمةٌ، ونعوذ بالله من ذلك. بل يقصدُ بزيارته وجهَ اللهِ تعالى، وإصلاحَ فسادِ قلبِه، أو نَفْعَ الميتِ بما يتلو عنده من القرآن والدعاء، ويتجنَّب المشيَ على المقابر والجلوسَ عليها، ويُسلِّم إذا دخل المقابر، وإذا وصل إلى قبر ميتِه الذي يعرفه سلَّم عليه أيضًا، وأتاه مِن تِلْقاءِ وَجْهِه؛ لأنَّه في زيارته كمخاطبته حيًّا، ولو خاطبه حيًّا لكان الأدبُ استقبالَه بوجهه، فكذلك هاهنا. ثم يعتبر بمَن صار تحت التراب، وانقطع عن الأهل والأحباب، بعد أن قاد الجيوشَ والعساكر، ونافَسَ الأصحابَ والعشائر، وجَمَعَ الأموالَ والذخائر؛ فجاءه الموتُ في وقتٍ لم يَحْتَسِبْه، وهولٍ لم يَرتَقِبْه. فليتأمَّل الزائرُ حالَ مَن مضى من إخوانه، ودَرَج من أقرانه الذين بلَغوا الآمال، وجَمَعوا الأموال، كيف انقطعت آمالُهم، ولم تُغْنِ عنهم أموالُهم، ومحا الترابُ محاسنَ وجوهِهم، وافترقَتْ في القبور أجزاؤُهم، وتَرَمَّلَ مِن بَعْدِهم نساؤُهم، وشَمِلَ ذلُّ اليُتْم أولادَهم، واقتَسم غيرُهم طريفَهم وتِلادهم(٢). وليتذكَّر تردُّدَهم في المآرب، وحرصَهم على نَيْلِ المطالب، وانْخِداعَهم لمواتاةِ الأسباب، وركونَهم إلى الصِّحة

---

(١) أخرجه أحمد (١٨٤٢) و(٢٤٤٧)، وسلف ٤/ ٣٠٩.

(٢) في (ي): طريقهم وتلادهم، وفي (د): طريقهم وبلادهم. والطريف: هو الحديث من المال، وهو خلاف التالد والتليد، ويقولون: ما له طريف ولا تليد، فالطريف ما استحدَثْتَ من المال، والتليد ما ورثته من الآباء. تاج العروس (طرف).

والشباب. ولْيَعْلَم أنَّ ميله إلى اللهو واللعب كميلهم، وغَفْلَتَه عمَّا بين يديه من الموت الفظيع، والهلاكِ السريع، كغَفْلَتِهم، وأنه لا بدَّ صائرٌ إلى مصيرهم، ولْيُحضِر بقلبه ذِكْرَ مَن كان متردِّداً في أغراضه، وكيف تهدَّمت رجلاه. وكان يتلذَّذُ بالنظر إلى ما خُوِّلَه، وقد سالت عيناه. ويصولُ ببلاغة نُطْقِه، وقد أَكَلَ الدودُ لسانَه. ويضحكُ لمواتاةِ دَهْره، وقد أبْلَى الترابُ أسنانَه. ولْيتحقَّقْ أنَّ حالَه كحاله، ومآلَه كمآلِه. وعند هذا التذكُّرِ والاعتبارِ تزولُ عنه جميعُ الأغيارِ الدنيوية، ويُقْبِلُ على الأعمال الأخروية، فيزهدُ في دنياه، ويُقبل على طاعةِ مولاه، ويَلينُ قلبُه، وتَخْشَعُ جوارِحُه.

قوله تعالى: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿كَلَّا﴾ قال الفرَّاء: أي: ليس الأمرُ على ما أنتم عليه من التفاخُرِ والتكاثُر[١]، والتمامُ على هذا.

﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أي: سوف تعلمون عاقبةَ هذا. ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ وعِيدٌ بعدَ وعيد؛ قاله مجاهد[٢]. ويحتملُ أن يكون تكرارُه على وجه التأكيد والتغليظ؛ وهو قولُ الفرَّاء[٣].

وقال ابن عباس: «كلَّا سوف تعلمون» ما ينزلُ بكم من العذاب في القبر، «ثم كلَّا سوف تعلمون» في الآخرة إذا حلَّ بكم العذاب[٤]. فالأوّل في القبر، والثاني في الآخرة؛ فالتكرارُ للحالتين.

وقيل: «كلَّا سوف تعلمون» عند المعاينة، أنَّ ما دعوتُكم إليه حقٌّ. «ثم كلا سوف تعلمون»: عند البعث، أنَّ ما وعدتُكم به صدق[٥].

---

(١) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٨٧ دون قوله: من التفاخر...

(٢) الوسيط ٤/ ٥٤٩، وتفسير البغوي ٤/ ٥٢٠ عن الحسن ومقاتل.

(٣) في معاني القرآن ٣/ ٢٨٧.

(٤) ذكره المصنف في كتاب التذكرة له ص ١٣٣، وذكره ابن عطية في المحرر الوجيز بنحوه ٥/ ٥١٩ عن علي ﷺ.

(٥) النكت والعيون ٦/ ٣٣١.

وروى زِرّ بنُ حُبَيْشٍ عن عليٍّ ﷺ، قال: كنَّا نَشُكُّ في عذاب القبر، حتى نزلت هذه السورة[١]. فأشار إلى أنَّ قوله: «كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ» يعني في القبور.

وقيل: «كلَّا سوف تعلمون»: إذا نزل بكم الموت، وجاءتكم رُسُلٌ لِتَنْزِع أرواحكم ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾: إذا دخلتُم قبورَكم، وجاءكم مُنْكَر ونَكِير، وحاط بكم هولُ السؤال، وانقطع منكم الجواب.

قلت: فتضمَّنت السورةُ القولَ في عذاب القبر. وقد ذَكَرنا في كتاب «التذكرة» أنَّ الإيمانَ به واجبٌ، والتصديقَ به لازمٌ، حَسْبَما أخبرَ به الصادق، وأنَّ الله تعالى يُحيي العبدَ المكلَّفَ في قبره بردِّ الحياة إليه، ويجعلُ له من العقل في مثل الوصف الذي عاش عليه؛ ليَعْقِلَ ما يُسألُ عنه، وما يجيبُ به، ويفهمَ ما أتاه من ربِّه، وما أُعدَّ له في قبره من كرامةٍ وهوانٍ. وهذا هو مذهبُ أهلِ السُّنةِ، والذي عليه الجماعةُ من أهل الملَّة. وقد ذكرناه هناك مستوفًى[٢]، والحمد لله.

وقيل: «كَلَّا سوف تعلمون» عند النشورِ أنَّكم مبعوثون، «ثم كلا سوف تعلمون» في القيامة أنَّكم معذَّبون[٣]. وعلى هذا تضمَّنتْ أحوالَ القيامةِ من بعثٍ وحَشْرٍ، وسؤالٍ وعَرْضٍ، إلى غير ذلك من أهوالها وأفزاعها، حَسْبَ ما ذكرناه في «كتاب التذكرة بأحوال الموتى وأمورِ الآخرة».

وقال الضحَّاك: «كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُون» يعني الكفار، «ثم كَلَّا سوف يعلمون» قال: المؤمنون. وكذلك كان يقرؤها؛ الأولى بالتاء والثانية بالياء[٤].

قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥﴾

قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ﴾ أعاد «كَلَّا» وهو زجرٌ وتنبيه؛ لأنه عَقَّب

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٣٥٥)، والطبري ٢٤/ ٦٠٠ . قال الترمذي: هذا حديث غريب.

(٢) التذكرة ص ١٢٤ وما بعدها.

(٣) النكت والعيون ٦/ ٣٣١ .

(٤) في (ظ): الأولى بالياء والثانية بالتاء، والمثبت من باقي النسخ وتفسير البغوي ٤/ ٥٢٠ ، والكلام منه، وأخرجه الطبري ٢٤/ ٦٠١ دون قوله: الأولى بالتاء...

كلٌّ واحدٍ بشيء آخر، كأنه قال: لا تفعلوا فإنَّكم تندمون، لا تفعلوا فإنَّكم تستوجبون العقاب. وإضافةُ العلمِ إلى اليقين كقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ [الواقعة: ٩٥].

وقيل: اليقينُ هاهنا: الموت؛ قاله قتادة[١]. وعنه أيضاً: البعث[٢]؛ لأنه إذا جاء زال الشكُّ، أي: لو تعلمون عِلْمَ البعث. وجوابُ «لو» محذوفٌ، أي: لو تعلمون اليومَ من البعث ما تعلمونه إذا جاءتكم نفخةُ الصور، وانشقَّت اللُّحودُ عن جُثَثكم، كيف يكون حَشْركم؟ لشغلَكُم ذلك عن التكاثر بالدنيا.

وقيل: «كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلمَ اليَقِينِ» أي: لو قد تطايرتِ الصحف، فشقيٌّ وسعيدٌ.

وقيل: إنَّ «كَلَّا» في هذه المواضع الثلاثة بمعنى «أَلَا»؛ قاله أبو حاتم[٣]. وقال الفرَّاء: هي بمعنى «حَقًّا»[٤]. وقد تقدَّم الكلامُ فيها مستوفًى[٥].

قوله تعالى: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧﴾

قوله تعالى: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ﴾ هذا وعيدٌ آخَرُ. وهو على إضمارِ القسم، أي: لترونَّ الجحيم في الآخرة. والخطابُ للكفار الذين وَجَبَتْ لهم النار. وقيل: هو عامٌّ، كما قال: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١]، فهي للكفار دارٌ، وللمؤمنين ممَرٌّ. وفي الصحيح: «فيمرُّ أوَّلُهم كالبرق، ثم كالريح، ثم كالطير...» الحديث. وقد مضى في سورة مريم[٦].

---

(١) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٣٩٣ .

(٢) أخرجه الطبري ٢٤/ ٦٠٢ .

(٣) في النسخ: قاله ابن أبي حاتم، والمثبت من النكت والعيون ٦/ ٣٣١ ، والكلام منه. وكذا ذكره السيوطي في الإتقان ١/ ٥٣٨ عن أبي حاتم وقال: قال أبو حيان: لم يسبقه إلى ذلك أحد، وتابعه جماعة منهم الزجاج.

(٤) النكت والعيون ٦/ ٣٣١ .

(٥) ١٣/ ٥١٠ .

(٦) ١٣/ ٤٩٤ ، وهو في صحيح البخاري (٧٤٣٩)، وصحيح مسلم (١٨٣)، وأخرجه أحمد (١١١٢٧)، وهو من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

وقرأ الكسائيُّ وابنُ عامر: «لَتُرونَّ» بضمِّ التاء[١]، من أَرَيْتُه الشيءَ، أي: تُحشرون إليها فترونها. وعلى فتح التاء هي قراءةُ الجماعة، أي: لتَرُونَّ الجحيم بأبصاركم على البعد. ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾ أي: مشاهدةً. وقيل: هو إخبارٌ عن دوام مُقامِهم في النار، أي: هي رؤيةٌ دائمةٌ متَّصلةٌ. والخطابُ على هذا للكفار.

وقيل: معنى «لو تَعْلَمُونَ عِلمَ اليقينِ» أي: لو تعلمون اليومَ في الدنيا عِلْمَ اليقين فيما أمامكم ممَّا وصفتُ، «لَتَرَوُنَّ الجحِيمَ» بعيون قلوبكم؛ فإنَّ عِلْمَ اليقينِ يُريكَ الجحيم بعينِ فؤادك، وهو أنْ تَتَصَوَّر لك تاراتُ[٢] القيامةِ، وقَطْعُ مسافاتها، «ثم لَترونها عينَ اليقينِ» أي: عند المعاينةِ بعينِ الرأس، فتراها يقيناً لا تغيبُ عن عينك، «ثم لَتُسْأَلُنَّ يَومَئِذٍ عن النَّعيم»: في موقف السؤال والعرض.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ روى مسلم في صحيحه[٣] عن أبي هريرة، قال: خرج رسولُ الله ﷺ ذاتَ يومٍ أو ليلةٍ، فإذا هو بأبي بكر وعمر، فقال: «ما أَخرجَكما من بُيوتِكما هذه الساعَة؟» قالا: الجوعُ يا رسولَ الله. قال: «وأنا، والذي نفسي بيده لَأَخرجَني الذي أَخْرجَكما، قُوموا» فقاموا[٤] معه، فأتى رجلاً من الأنصار، فإذا هو ليس في بيته، فلمَّا رأته المرأة قالت: مَرْحَبًا وأهلاً. فقال لها رسولُ الله ﷺ: «أين فلان؟» قالت: [ذهب] يَسْتعذِبُ لنا من الماء. إذ جاء الأنصاريُّ، فنظر إلى رسول الله ﷺ وصاحِبيهِ، ثم قال: الحمدُ لله! ما أحدٌ اليومَ أكرمَ أضيافاً منِّي. قال: فانْطَلَقَ، فجاءهم بِعِذْقٍ فيه بُسْرٌ وتمرٌ ورُطَبٌ، فقال: كُلوا من هذه. وأخذ المُديةَ، فقال له رسول الله ﷺ: «إياكَ والحَلُوبَ» فذبح لهم، فأكلوا من

---

(١) السبعة ص ٦٩٥، والتيسير ص ٢٢٥.

(٢) في (ظ): أمارات.

(٣) برقم (٢٠٣٨)، وما سيأتي بين حاصرتين منه.

(٤) في (د) و(م) و(ي): قوما نقاما، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في صحيح مسلم.

الشَّاة ومن ذلك العِذق، وشربوا، فلمَّا أنْ شَبِعوا وَرَوُوا، قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر: «والذي نفسي بيده لَتُسْأَلُنَّ عن نعيم هذا اليومِ يومَ القيامة[١]، أَخرَجكم من بُيوتكم الجوعُ، ثم لم تَرْجِعوا حتَّى أصابكم هذا النعيم». خرَّجه الترمذيُّ وقال: «هذا والذي نفسي بيده من النعيم الذي تُسألون عنه يومَ القيامة: ظِلٌّ باردٌ، ورُطَبٌ طَيِّبٌ، وماءٌ بارد» وكَنى الرجلَ الذي من الأنصار، فقال: أبو الهيثم بنُ التَّيِّهان. وذكر قصَّته[٢].

قلت: اسمُ هذا الرجلِ الأنصاريِّ مالك بنُ التَّيِّهان[٣]، ويُكْنَى أبا الهيثم. وفي هذه القصةِ يقول عبد الله بن رواحة يمدحُ بها أبا الهيثم بن التَّيِّهان[٤]:

فلم أرَ كالإسلامِ عِزًّا لأمَّةٍ ... ولا مِثلَ أضيافِ الإراشيِّ مَعْشَرَا
نبيٌّ وصِدِّيقٌ وفاروق أمَّةٍ ... وخيرُ بَني حوَّاءَ فرعاً وعُنْصُرا
فوافَوْا لِميقاتٍ وقَدْرِ قَضيةٍ[٥] ... وكان قضاءُ اللهِ قَدراً مُقَدَّرَا
إلى رجلٍ نَجْدٍ يُباري بِجودِهِ ... شُموسَ الضُّحَى جوداً ومجداً ومَفْخَرا
وفارِسِ خلقِ اللهِ في كلِّ غارةٍ ... إذا لبِس القومُ الحديدَ المُسَمَّرَا
فَفَدَّى وحَيَّا ثم أدْنَى قِراهُمُ ... فلم يَقْرِهِمْ إلَّا سَميناً مُتَمَّرا[٦]

وقد ذكر أبو نُعيمِ الحافظُ، عن أبي عَسِيبٍ مولى رسولِ الله ﷺ، قال: خرج علينا رسولُ الله ﷺ ليلاً، فدعاني فخرجتُ إليه، ثم مرَّ بأبي بكر فدعاه فخرج إليه، ثم مرَّ

(١) في صحيح مسلم: لتسألن عن هذا النعيم يوم القيامة.

(٢) سنن الترمذي (٢٣٦٩). قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب.

(٣) بفتح المثناة الفوقانية مع كسر الياء، آخى النبي ﷺ بينه وبين عثمان بن مظعون، وشهد المشاهد كلها. الإصابة ١٢/ ٨٣ .

(٤) ذكر هذا الشعر ابن عبد البر في التمهيد ٢٤/ ٣٤١ ، والاستذكار٢٦/ ٣٢٧ .

(٥) في التمهيد والاستذكار: فوافق للميقات قدر قضية.

(٦) التتمير: تقطيع اللحم صغاراً، ووقع في التمهيد والاستذكار: معمرا.

بعمرَ فدعاه فخرج إليه، فانطلق حتى دخل حائطاً لبعض الأنصار، فقال لصاحب الحائط: «أَطْعِمْنا بُسْراً»، فجاء بعِذْقٍ فوضعه فأكلوا، ثم دعا بماءٍ فشرب، فقال: «لَتُسْأَلُنّ عن هذا يومَ القيامة» قال: وأخذ عمرُ العِذْق، فضرب به الأرضَ حتى تناثر البسرُ نحوَ وجهِ رسولِ الله ﷺ، [ثم] قال: يا رسولَ الله، إنَّا لمسؤولون عن هذا يومَ القيامة؟ قال: «نعم، إلَّا مِن ثلاثٍ: كِسْرةٍ يَسُدُّ بها جَوْعَته، أو ثوبٍ يسترُ به عَوْرَته، أو جُحْرٍ يأوي فيه من الحرِّ والقُرّ»[1].

واختلف أهلُ التأويلِ في النعيم المسؤولِ عنه على عَشَرَةِ أقوالٍ:

أحدها: الأمنُ والصِّحةُ؛ قاله ابن مسعود. الثاني: الصحةُ والفراغ؛ قاله سعيد بن جبير[2]. وفي البخاريِّ عنه عليه الصلاة والسلام: «نعمتان مغبونٌ فيهما كثيرٌ من الناس: الصحةُ والفراغ»[3].

الثالث: الإدراكُ بحواسِّ السمع والبصر؛ قاله ابن عباس؛ وفي التنزيل: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦][4]. وفي الصحيح عن أبي هريرة وعن أبي سعيد قالا: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بالعبد يومَ القيامة، فيقول [الله] له: أَلَمْ أَجْعَلْ لك سَمْعاً وبصراً، ومالاً وولداً...»، الحديثَ. خرَّجه الترمذيُّ وقال فيه: حديثٌ حسنٌ صحيح[5].

الرابع: مَلاذُّ المأكولِ والمشروب؛ قاله جابر بن عبد الله الأنصاريّ[6]. وحديثُ

---

(١) الحلية ٢/ ٢٧ - ٢٨، وما سلف بين حاصرتين منه، وأخرجه أيضاً أحمد (٢٠٧٦٨)، والطبري ٢٤/ ٦٠٧، وابن عدي ٢/ ٨٤٧.

(٢) ذكر القولين الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٣٣٢، وقول ابن مسعود أخرجه الطبري ٢٤/ ٦٠٣.

(٣) صحيح البخاري (٦٤١٢)، وهو عند أحمد (٢٣٤٠)، وهو من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) النكت والعيون ٦/ ٣٣٢، وأخرجه بنحوه الطبري ٢٤/ ٦٠٤.

(٥) سنن الترمذي (٢٤٢٨)، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٦) النكت والعيون ٦/ ٣٣٢، وروي بمعناه حديث مرفوع عن جابر ﷺ، أخرجه أحمد (١٤٦٣٧)، والنسائي في المجتبى ٦/ ٢٤٦، والطبري ٢٤/ ٦٠٥.

أبي هريرةَ يدلُّ عليه.

الخامس: أنه الغداءُ والعشاءُ؛ قاله الحسن[١].

السادس: قولُ محكولٍ الشاميّ: أنَّه شِبَعُ البطون، وباردُ الشراب، وظلالُ المساكنِ، واعتدالُ الخُلُقِ، ولذَّةُ النوم. ورواه زيد بن أسلم عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «﴿لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾: يعني: عن شبع البطون...». فذكره. ذكره الماورديُّ[٢]، وقال: وهذا السؤالُ يعمُّ الكافرَ والمؤمنَ، إلَّا أنَّ سؤالَ المؤمنِ تبشيرٌ بأنْ يجمع له بين نعيمِ الدنيا ونعيمِ الآخرة. وسؤال الكافرِ تقريعٌ أنْ قابلَ نعيمَ الدنيا بالكفر والمعصية.

وقال قومٌ: هذا السؤالُ عن كلِّ نعمةٍ، إنَّما يكون في حقِّ الكفار، فقد رُوي أنَّ أبا بكرٍ لمَّا نزلت هذه الآيةُ قال: يا رسول الله، أرأيتَ أُكْلةً أكَلْتُها معك في بيت أبي الهيثم بنِ التَّيِّهان، من خبزِ شعيرٍ ولحمٍ، وبُسرٍ قد ذَنَّب، وماءٍ عَذْبٍ، أتخافُ علينا أن يكون هذا من النعيم الذي نُسأل عنه؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «ذلك للكُفار» ثم قرأ: ﴿وهل يُجازَى إلا الكفور﴾ [سبأ:١٧][٣]. ذكره القشيريُّ أبو نصر. وقال الحسن: لا يُسأل عن النعيم إلَّا أهلُ النار[٤]. قال القشيريُّ: والجمعُ بين الأخبار: أنَّ الكلَّ يُسْأَلون، ولكن سؤال الكافر توبيخ؛ لأنَّه قد ترك الشكر. وسؤال المؤمنِ سؤالُ تَشْريفٍ؛ لأنه شَكَر. وهذا النعيمُ في كلِّ نعمةٍ.

---

(١) النكت والعيون ٦/ ٣٣٢ .

(٢) في النكت والعيون ٦/ ٣٣٢ ، وأخرجه ابن أبي حاتم وابن مردويه، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٨٧ ، وذكره ابن كثير عند تفسير هذه الآية، ووقع فيه: عن ابن زيد بن أسلم عن أبيه.

(٣) تفسير أبي الليث ٣/ ٥٠٧ ، وتفسير الرازي ٣٢/ ٨٠ - ٨١ ، وهو من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس. وأخرجه بنحوه الطبراني في الكبير (١٠٤٩٦) من طريق الكلبي عن الشعبي عن الحارث عن ابن مسعود ﷺ. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٣١٩ : وفيه الكلبي وهو كذاب. قوله: قد ذَنَّب، المذنِّب من البسر: الذي بدا فيه الإرطاب من قِبَل ذنبه. النهاية (ذنب).

(٤) الوسيط ٤/ ٥٤٩ .

قلت: هذا القولُ حسنٌ؛ لأنَّ اللفظ يَعُمّ. وقد ذكر الفِرْيابيُّ قال: حدَّثنا ورقاءُ، عن ابن أبي نَجيح، عن مجاهد، في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ قال: كلُّ شيءٍ من لذَّة الدنيا[١]. وروى أبو الأحوص، عن عبد الله، عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «إنَّ الله تعالى لَيُعَدِّدُ نِعمَه على العبد يومَ القيامة، حتى يَعُدَّ عليه: سألتني فلانة أن أزوِّجَكَها ـ فيُسمِّيها باسمها ـ فزوَّجْتُكَها»[٢].

وفي الترمذيِّ عن أبي هريرةَ قال: لمَّا نزلت هذه الآيةُ: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ قال الناس: يا رسولَ الله، عن أيِّ النعيم نُسْأَل؟ فإنَّما هما الأسودان، والعدوُّ حاضرٌ، وسيوفُنا على عواتقنا. قال: «إنَّ ذلك سيكون»[٣].

وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ أوّلَ ما يُسألُ عنه يومَ القيامةِ ـ يعني العبدَ ـ أنْ يقال له: أَلَمْ نُصِحَّ لك جسمَكَ، ونرويكَ من الماء البارد» قال: حديثٌ غريب[٤].

وروي من حديثِ ابنِ عمر قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إذا كان يومُ القيامةِ دعا الله بعبدٍ من عباده، فيوقفُه بين يديه، فيسألُه عن جاهه كما يسألُه عن ماله»[٥]. والجاهُ من نعيم الدنيا لا محالةَ.

وقال مالك رحمه الله: إنَّه صحةُ البدنِ، وطِيْبُ النفس[٦]. وهو القولُ السابع.

---

(١) الورع لأحمد ص١٨٧ ، والتمهيد ٢٤/ ٣٤٣ وعنه نقل المصنف.

(٢) أخرجه ابن فضيل الضبي في كتاب الدعاء (١٤١)، وله شاهد من حديث عبد الله بن سلام ﷺ أخرجه البيهقي موقوفاً ومرفوعاً في الشعب (٤٦١٠) و(٤٦١١).

(٣) سنن الترمذي (٣٣٥٧). وأخرجه أحمد (١٤٠٥)، والترمذي (٣٣٥٦) من حديث الزبير ﷺ، وقال الترمذي عن حديث الزبير: حديث حسن. وأخرجه أحمد (٢٣٦٤٠) من حديث محمود بن لبيد ﷺ.

(٤) سنن الترمذي (٣٣٥٨).

(٥) أخرجه ابن حبان في المجروحين ٣/ ١٣٧ ، والطبراني في الصغير (١٨)، وابن عدي في الكامل ٧/ ٢٦٢٨ ، وابن الجوزي في العلل المتناهية (١٥٣٤). قال ابن حبان: هذا الحديث لا أصل له من كلام النبي ﷺ.

(٦) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٩٦٣ .

وقيل: النومُ مع الأمنِ والعافية.

وقال سفيان بنُ عيينة: إنَّ ما سَدَّ الجوعَ وسَتَر العورةَ من خَشِنِ الطعامِ واللباسِ، لا يُسألُ عنه المرءُ يومَ القيامة، وإنَّما يُسألُ عن النَّعيم، قال: والدليلُ عليه: أنَّ الله تعالى أسْكَنَ آدمَ الجنةَ، فقال له: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ . وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾ [طه:١١٨-١١٩][١]. فكانت هذه الأشياءُ الأربعةُ ـ ما يَسدُّ به الجوعَ، وما يَدفعُ به العطشَ، وما يَستَكِنُّ فيه من الحرِّ، وما يَسْتُر به عَورتَه ـ لآدمَ عليه السلامُ بالإطلاق[٢]، لا حسابَ عليه فيها؛ لأنَّه لا بدَّ له منها.

قلت: ونحوُ هذا ذكره القشيريُّ أبو نصر، قال: إنَّ ممَّا لا يُسألُ عنه العبدُ: لباساً يُواري سوأتَه، وطعاماً يُقيمُ صُلْبَه، ومكاناً يُكِنُّه من الحرِّ والبرد.

قلت: وهذا منتزعٌ من قوله عليه الصلاة والسلام: «ليس لابنِ آدمَ حَقٌّ في سِوى هذه الخصالِ: بيتٍ يسكنُه، وثوبٍ يُواري عورتَه، وجِلْفِ الخبزِ والمَاء» خرَّجه الترمذيُّ[٣]. وقال النضر بن شُميل: جِلْفُ الخبز: ليس معه إدام.

وقال محمد بن كعب: النعيم: هو ما أنعم الله علينا بمحمدٍ ﷺ. وفي التنزيل: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران:١٦٤][٤].

وقال الحسن أيضاً والمفضَّل[٥]: هو تخفيفُ الشرائع، وتيسيرُ القرآن، قال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج:٧٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا

---

(١) التمهيد ٢٤/ ٣٤٠.

(٢) في (د): لازم عليه بالإطلاق، بدل: لآدم عليه السلام بالإطلاق.

(٣) في سننه (٢٣٤١) من حديث عثمان بن عفان ﷺ، وهو حديث لا يصح كما سلف الكلام ٥/ ٥٧.

(٤) النكت والعيون ٦/ ٣٣٢، وتفسير البغوي ٤/ ٥٢٢.

(٥) في (ظ): والفضل، وليست في (ز)، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في النكت والعيون ٦/ ٣٣٢، والكلام منه، وذكره البغوي ٤/ ٥٢٢، والرازي ٣٢/ ٨٢، وفيهما: وقال الحسين بن الفضل، وينظر ما سيأتي ص٥٢١ من هذا الجزء.

ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧].

قلت: وكلُّ هذه نِعمٌ، فيُسأل العبدُ عنها: هل شَكَرَ ذلك أم كَفَر. والأقوالُ المتقدِّمةُ أَظْهَر. والله أعلم.

تفسير سورة «والعصر»

وهي مكيةٌ، وقال قتادةُ: مدنية. وروي عن ابن عباس[1]. وهي ثلاث آيات.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ①﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قولُه تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ﴾ أي: الدهر؛ قاله ابنُ عباس وغيرُه[2]. فالعصرُ مِثلُ الدهر، ومنه قولُ الشاعر:

سَبيلُ الهَوَى وَعْرٌ وبحرُ الهَوَى غَمْرُ ... ويَوْمُ الهَوَى شَهْرٌ وشَهْرُ الهَوى دَهْرُ[3]

أي: عصر.

أقسم الله به عزَّ وجلَّ؛ لِمَا فيه من التنبيه بتصرُّفِ الأحوال وتبدُّلها، وما فيها من الدلالةِ على الصانع.

وقيل: العصر[4]: الليل والنهار. قال حُميد بن ثور:

ولَنْ يَلْبَثَ العَصْرانِ يَومٌ ولَيلةٌ ... إذا طَلَبا أنْ يُدرِكا ما تَيَمَّما[5]

---

(١) ذكر قولهما الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٣٣٣.

(٢) تفسير الطبري ٢٤/ ٦١٢، والنكت والعيون ٦/ ٣٣٣.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٩٦٧.

(٤) في الصحاح (عصر) والكلام منه: العصران.

(٥) ديوان حميد بن ثور ص٨، وإصلاح المنطق ص ٤٣٧، والصحاح (عصر). قوله: يومٌ وليلةٌ، هو =

والعصران أيضاً: الغَدَاةُ والعَشيُّ؛ قال:

وأمْطُلُه العَصْرين حتى يَمَلَّني ... ويَرْضَى بِنِصْفِ الدَّينِ والأنْفُ راغِمُ[(١)]

يقول: إذا جاءني أولَ النهار وَعَدْتُه آخِرَه.

وقيل: إنه العشيُّ، وهو ما بين زوالِ الشمسِ وغروبِها؛ قاله الحسن وقتادةُ، ومنه قولُ الشاعر:

تَرَوَّحْ بنا يا عمرو قد قَصُرَ العَصْرُ ... وفي الرَّوْحةِ الأُولَى الغنيمةُ والأجْرُ[(٢)]

وعن قتادة أيضاً: هو آخرُ ساعةٍ من ساعات النهار[(٣)].

وقيل: هو قَسَمٌ بصلاةِ العصر، وهي الوسطى؛ لأنَّها أفضلُ الصلوات؛ قاله مقاتل[(٤)]. يقال: أُذِّن للعصر، أي: لصلاة العصر. وصُلِّيت العصر، أي: صلاةُ العصر. وفي الخبر الصحيح: «الصلاةُ الوسْطَى: صلاةُ العصر». وقد مضى في سورة البقرة بيانُه[(٥)].

وقيل: هو قسمٌ بعصر النبيِّ ﷺ، لفَضْلِه بتجديد النبوَّةِ فيه[(٦)]. وقيل: معناه: وربِّ العصر.

= بدل من العصرين، يقول: إذا طلبا شيئاً بَلَغاه وأدركاه، لا يفوتهما شيءٌ. وتيمما: قصدا، جعل الهلاك الذي يقع فيهما كأنه من فِعْلهما، وبقَصْدهما يقع. شرح أبيات إصلاح المنطق للسيرافي ص ٥٩٤ .

(١) إصلاح المنطق ص ٤٣٧ ، والأضداد لابن الأنباري ص ٢٠٢ ، والصحاح (عصر) والكلام منه، وهو في ديوان عبيد بن الأبرص ص ١٢٧ برواية: ويرضى ببعض الدَّين في غير نائلِ. قال السيرافي في شرح أبيات إصلاح المنطق ص ٥٩٥ : يقول: أمْطُل غريمي؛ إذا جاءني في أول النهار وعدته آخر النهار، وإذا جاءني في آخر النهار وعدته في أول اليوم الذي يأتي بعده.

(٢) النكت والعيون ٦/ ٣٣٣ ، والكلام منه، واللسان (عصر)، وصدره في تهذيب اللغة ٢/ ١٤ ، ووقع في (د) و(ز) و(ي): يروح بنا عمرو وقد...، وهو موافق لرواية البيت في العين ١/ ٢٩٣ .

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٥٢٢ ، وأخرجه عبد الرزاق ٢/ ٣٩٤ بلفظ: ساعة من ساعات النهار.

(٤) النكت والعيون ٦/ ٣٣٣ ، والوسيط ٤/ ٥٥١ ، وتفسير البغوي ٤/ ٥٢٢ - ٥٢٣ .

(٥) ٤/ ١٧٧ ، وهو في سنن الترمذي (١٨١) من حديث ابن مسعود ﷺ، و(١٨٢) من حديث سمرة بن جندب ﷺ.

(٦) النكت والعيون ٦/ ٣٣٣ .

الثانية: قال مالك: مَن حلَف ألَّا يكلِّم رجلاً عَصْراً لم يكلِّمه سنةً. قال ابن العربيِّ[(١)]: إنَّما حمل مالكٌ يمينَ الحالِفِ ألَّا يكلِّمَ امرَأً عَصْراً على السنة؛ لأنَّه أكثرُ ما قيل فيه، وذلك على أصله في تغليظ المعنى في الأيمان. وقال الشافعيُّ: يَبَرُّ بساعةٍ، إلَّا أن تكون له نيةٌ، وبه أقول، إلَّا أن يكون الحالفُ عربيّاً، فيقال له: ما أَرَدْتَ؟ فإذا فسَّره بما يحتملُه قُبِل منه، وإن كان الأقل[(٢)]، ويجيءُ على مذهب مالكٍ أن يُحملَ على ما يفسِّر. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢﴾

هذا جوابُ القسم. والمرادُ به الكافر؛ قاله ابن عباسٍ في روايةِ أبي صالح[(٣)]. وروى الضحاك عنه قال: يريدُ جماعةً من المشركين: الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، والأسود بن عبد المطلب بن أسد بن عبد العُزَّى، والأسود بن عبد يغوث[(٤)].

وقيل: يعني بالإنسان جِنْسَ الناس[(٥)].

﴿لَفِى خُسْرٍ﴾: لفي غَبْن. وقال الأخفش: هَلَكَةٍ. الفرَّاء[(٦)]: عقوبة، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾ [الطلاق: ٩]. ابن زيد: لفي شرٍّ[(٧)]. وقيل: لفي نَقْصٍ. والمعنى متقارب.

وروي عن سلام: «والعَصِر» بكَسْرِ الصَّاد[(٨)]. وقرأ الأعرجُ وطلحةُ وعيسى الثَّقَفيُّ: «خُسُرٍ» بضم السين. ورَوى ذلك هارون عن أبي بكر عن عاصم[(٩)]. والوجهُ

(١) في أحكام القرآن ٤/ ١٩٦٧.
(٢) في النسخ: إلا أن يكون الأقل، والمثبت من أحكام القرآن.
(٣) ذكره البغوي ٤/ ٥٢٣ دون نسبة.
(٤) ذكره الرازي ٣٢/ ٨٦.
(٥) قال الزجاج في معاني القرآن ٥/ ٣٥٩: هو كقولهم: كثر الدرهم في أيدي الناس، تريد: الدراهم.
(٦) في معاني القرآن ٣/ ٢٨٩.
(٧) النكت والعيون ٦/ ٣٣٤ عن زيد بن أسلم.
(٨) القراءات الشاذة ص ١٧٩.
(٩) المصدر السابق.

فيهما الإتْباع. ويقال: خُسْر وخُسُر، مثل عُسْرٍ وعُسُر[١].

وكان عليٌّ يقرؤها: «والعَصْرِ ونَوائبِ الدَّهْر، إنَّ الإنسان لفي خُسْر. وإنَّه فيه إلى آخِرِ الدهر»[٢].

وقال إبراهيم: إنَّ الإنسان إذا عُمِّرَ في الدنيا وهَرِم، لفي نَقْصٍ وضَعْفٍ وتراجُعٍ، إلَّا المؤمنين، فإنَّهم تُكتبُ لهم أجورُهم التي كانوا يعملونها في حال شبابهم، نظيرُه قولُه تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ [التين: ٤-٥]. قال: وقراءتُنا: «والعَصْرِ إنَّ الإنسانَ لفي خُسْرٍ، وإنَّه في آخِرِ الدَّهر»[٣]. والصحيحُ ما عليه الأمةُ والمصاحفُ. وقد مضى الردُّ في مقدِّمة الكتابِ على مَن خَالفَ مصحفَ عثمان، وأنَّ هذا ليس بقرآنٍ يُتلى؛ فتأمَّلْه هناك[٤].

قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾

قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ استثناءٌ من الإنسان؛ إذ هو بمعنى الناسِ على الصحيح. قوله تعالى: ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: أدَّوا الفرائضَ المفترَضَة عليهم، وهم أصحابُ رسولِ اللهِ ﷺ.

قال أبيّ بنُ كعب: قرأتُ على رسول الله ﷺ ﴿وَٱلْعَصْرِ﴾ ثم قلتُ: ما تفسيرُها يا نبيَّ الله؟ قال: «﴿وَٱلْعَصْرِ﴾ قَسَمٌ من الله، أقْسَمَ ربُّكم بآخِرِ النهار ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى

---

(١) نقل الجوهري في الصحاح (عصر) عن عيسى بن عمر قال: كل اسم على ثلاثة أحرف، أوله مضموم وأوسطه ساكن، فمِن العرب مَن يثقِّله، ومنهم مَن يخفِّفه. وقال السمين في الدر المصون ٢/ ٢٨٥: اختلف النحاة؛ هل الضم أصل والسكون تخفيف، أو الأصل السكون والضم للإتباع؟ والأول أظهر لأنه المفهوم في كلامهم.

(٢) أخرجه الطبري ٢٤/ ٦١٣.

(٣) أخرجه عبد بن حميد بلفظ: «والعصر إن الإنسان لفي خسر وإنه لفيه إلى آخر الدهر». الدر المنثور ٦/ ٣٩٢.

(٤) ١/ ١٢٦.

خُسۡرٍ﴾ أبو جهل ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أبو بكر ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ عمر ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ﴾ عثمان ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ عليّ» رضي الله عنهم أجمعين[1]. وهكذا خَطبَ ابن عباس على المنبر موقوفاً عليه.

ومعنى ﴿وَتَوَاصَوۡاْ﴾ أي: تَحابُّوا؛ أوصى بعضُهم بعضاً، وحثَّ بعضُهم بعضًا. ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ أي: بالتوحيد؛ كذا روى الضحَّاك عن ابن عباس. وقال قتادة: «بِالحقِّ» أي: بالقرآن. وقال السدِّيُّ: الحقُّ هنا هو اللهُ عزَّ وجلَّ. ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ على طاعة الله عزَّ وجلَّ، والصبرِ عن معاصيه[2]. وقد تقدَّم[3]. والله أعلم.

تفسير سورة «الهمزة»

مكيةٌ بإجماعٍ، وهي تسعُ آيات

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿وَيۡلٞ لِّكُلِّ هُمَزَةٖ لُّمَزَةٍ ۝١﴾

قد تقدَّم القولُ في الويل في غير موضع، ومعناه: الخِزيُ والعذابُ والهَلَكة. وقيل: وادٍ في جهنم.

﴿لِّكُلِّ هُمَزَةٖ لُّمَزَةٍ﴾ قال ابن عباس: هم المشَّاؤون بالنميمة، المفرِّقون[4] بين الأحبَّة، الباغون للبُرَآء العيبَ[5]، فعَلَى هذا هما بمعنى. وقال النبيُّ ﷺ: «شِرارُ عبادِ

---

(١) الوسيط ٤/ ٥٥١.

(٢) ذكر هذه الأقوال الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٣٣٤.

(٣) ص٣٠٦ من هذا الجزء.

(٤) في (د) و(م): المفسدون.

(٥) أخرجه وكيع في الزهد (٤٤٧)، وهناد في الزهد (١٢١٤)، والطبري ٢٤/ ٢١٧. ووقع عند وكيع وهناد: العنت، بدل العيب.

اللهِ تعالى المَشَّاؤون بالنميمة، المُفْسِدون بين الأحبَّةِ، الباغون للبُرآء العيبَ»[١].

وعن ابن عباس أنَّ الهُمَزَة: القَتَّات، واللُّمزة: العيَّاب[٢].

وقال أبو العالية والحسنُ ومجاهدٌ وعطاء بن أبي رَباح: الهمزةُ: الذي يغتابُ ويَطْعنُ في وجه الرجل، واللمزة: الذي يغتابُه مِن خَلْفِه إذا غاب[٣]، ومنه قولُ حسان:

هَمَزْتُكَ فاخْتَضَعْتَ بذُلِّ نفسٍ ... بقافيةٍ تَأَجَّجُ كالشُّوَاظِ[٤]

واختار هذا القولَ النحّاس[٥]؛ قال: ومنه قولُه تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَٰتِ﴾ [التوبة: ٥٨].

وقال مُقاتل ضدَّ هذا الكلام: أنَّ الهُمَزَةَ: الذي يَغتابُ بالغَيْبة[٦]، واللُّمَزة: الذي يغتاب في الوجه[٧].

وقال قتادة ومجاهد: الهُمزَة: الطَّعَّان في الناس، واللُّمَزة: الطَّعَّان في أنسابهم[٨].

وقال ابن زيد: الهامِزُ: الذي يهمز الناسَ بيده ويضربُهم، واللُّمَزَة: الذي يَلْمِزهم

(١) أخرجه أحمد (٢٧٥٩٩)، والبخاري في الأدب المفرد (٣٢٣) من حديث أسماء بنت يزيد رضي الله عنها. وفيهما: العنت، بدل: العيب.

(٢) النكت والعيون ٦/ ٣٣٥، وزاد المسير ٩/ ٢٢٧، وفيهما: المغتاب، بدل: القتات. والقتات: النمام. القاموس (قتت).

(٣) ينظر قولهم في تفسير الطبري ٢٤/ ٦١٧ - ٦١٨، والنكت والعيون ٦/ ٣٣٥، والمحرر الوجيز ٥/ ٥٢١، وزاد المسير ٩/ ٢٢٧.

(٤) سيرة ابن هشام ١/ ٣٥٧، والنكت والعيون ٦/ ٣٣٦. قوله: بقافية، القافية: وراء العنق. القاموس (قفا).

(٥) ينظر إعراب القرآن له ٥/ ٢٨٧.

(٦) في (ظ): في الغيبة.

(٧) بنحوه في المحرر الوجيز ٥/ ٥٢١، وتفسير البغوي ٤/ ٥٢٣، وزاد المسير ٩/ ٢٢٨.

(٨) زاد المسير ٩/ ٢٢٨ عن مجاهد.

بلسانه ويَعيبُهم[١].

وقال سفيان الثوريُّ: يَهْمزُ بلسانه، ويَلمِزُ بعينيه[٢].

وقال ابن كيسان: الهُمَزَةُ: الذي يؤذي جُلَساءَه بسوءِ اللَّفْظِ، واللُّمَزَةُ: الذي يكسرُ عينَه على جليسه، ويُشير بعينِه ورأسِه وبحاجبيه[٣]. وقال مرةً: هما سواء، وهو القَتَّات الطَّعَّان للمرء إذا غاب. وقال زياد الأعجم:

تُدْلي بِوُدِّي إذا لاقيتَني كَذِبًا ... وإنْ أُغَيَّبْ فأنتَ الهامزُ اللُّمَزَهْ[٤]

وقال آخر:

إذا لَقِيتُكَ عن شَحْطٍ تُكاشِرُني ... وإن تَغَيَّبتُ كنتَ الهامِزَ اللُّمَزَهْ[٥]

الشَّحْطُ: البعد. والهُمَزَةُ: اسمٌ وضع للمبالغة في هذا المعنى؛ كما يقال: سُخَرَةٌ وضُحَكَة: للذي يَسخَر ويَضْحك بالناس.

وقرأ أبو جعفر محمد بن عليّ والأعرجُ: «هُمْزَةٍ لُمْزَةٍ» بسكون الميم فيهما[٦]، فإنْ صح ذلك عنهما، فهي في معنى المفعول، وهو الذي يتعرَّضُ للناس حتى يَهْمزوه ويضحكوا منه، ويَحمِلُهم على الاغتياب.

وقرأ عبد الله بن مسعودٍ وأبو وائلٍ والنَّخَعيُّ والأعمش: «ويْلٌ لِلْهُمَزَةِ اللُّمَزَةِ»[٧].

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٥/ ٢٨٧، وتفسير البغوي ٤/ ٥٢٣، وأخرجه الطبري ٢٤/ ٦١٩.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٥٢٣، وزاد المسير ٩/ ٢٢٨.

(٣) ذكره بنحوه البغوي ٤/ ٥٢٣، وقال الرازي ٣٢/ ٩٢: اعلم أن جميع هذه الوجوه متقاربة راجعة إلى أصل واحد، وهو الطعن وإظهار العيب.

(٤) مجاز القرآن ٢/ ٣١١، وتفسير الطبري ٢٤/ ٦١٦، والنكت والعيون ٦/ ٣٣٥.

(٥) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٣٦١، وجمهرة اللغة ٣/ ١٨، وأساس البلاغة (لمز)، واللسان (همز)، وعزاه ابن دريد لزياد الأعجم أيضاً. ووقع في معاني القرآن: كره، بدل: شحط. قوله: تكاشرني، كاشره: إذا ضحك في وجهه وباسطه. اللسان (كشر).

(٦) ذكرها الزمخشري في الكشاف ٤/ ٢٨٣، والرازي ٣٢/ ٩١ دون نسبة.

(٧) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٨٩، والقراءات الشاذة ص ١٧٩، والمحرر الوجيز ٥/ ٥٢١. ووقع في القراءات الشاذة: ويل للهمزة واللمزة. وفي المحرر: ويل الهمزة اللمزة.

وأصلُ الهمزِ: الكَسْرُ، والعَضُّ على الشيء بعنفٍ، ومنه هَمْزُ الحرف. ويقال: هَمزْتُ رأسَه. وهمزتُ الجوزَ بكفِّي: كَسَرته. وقيل لأعرابيٍّ: أتهمِزون الفأرةَ؟ فقال: إنَّما تَهمِزُها الهِرَّةُ. الذي في «الصحاح»: وقيل لأعرابي: أتهمِزُ الفأرة؟ فقال: السِّنَّوْرُ يهمزُها[١]. والأوّلُ قاله الثعلبيُّ. وهو يدلُّ على أنَّ الهِرَّ يسمَّى الهُمَزة. قال العجّاج:

ومَنْ هَمَزْنا رأسَهُ تَهَشَّما[٢]

وقيل: أصلُ الهَمْزِ واللَّمْزِ: الدفعُ والضربُ؛ لَمَزَهُ يَلْمِزه[٣] لَمْزًا: إذا ضَرَبه ودَفَعه. وكذلك هَمَزَهُ، أي: دَفَعه وضَرَبَه، قال الراجز:

ومَن هَمَزْنَا عِزَّهُ تَبَرْكَعا ... على اسْتِه زَوْبَعَةً أو زَوْبَعا[٤]

البركعة: القيامُ على أربع. وبَرْكَعهُ فتبركع، أي: صَرَعَه فوقع على اسْتِه؛ قاله في «الصحاح»[٥].

والآيةُ نزلت في الأخنس بنِ شريق، فيما رَوَى الضحاك عن ابن عباس[٦]. وكان يَلْمِزُ الناسَ ويَعيبهم مُقْبِلين ومُدْبِرين.

---

(١) الصحاح (همز).

(٢) نسب للعجاج في العين ١/ ٨٩، وفيه: تلعلعا، بدل: تهشما، والتلعلع: التكسر. وتهذيب اللغة ١/ ١٦٢، وفيه: تخرَّعا، ومعناها: زال عن موضعه. وهو برواية المصنف في الصحاح (همز)، وتهذيب اللغة ٦/ ١٦٥ دون نسبة، وذُكر بهذه الرواية في ملحقات ديوان رؤبة ص١٨٤.

(٣) وبابه: ضرب ونصر، مختار الصحاح (لمز)، والكلام من الصحاح (لمز).

(٤) الصحاح (همز)، والكلام منه، والرجز لرؤبة، وهو في ديوانه ص ٦٣، ومجالس ثعلب ص٦٤، وأمالي القالي ١/ ١٠٥، والاشتقاق لابن دريد ص ٣١٢ واللسان (بركع)، ووقع في بعض المصادر: روبعة أو روبعا، وهو الصواب فيما نقل صاحب اللسان (بركع) عن ابن بري، قال: وكذلك هو في شعر رؤبة، وفسِّر بأنه القصير الحقير، وقيل: الضعيف، وقيل: القصير المرقوب، وقيل: الناقص الخَلْق. اهـ. ورواية الديوان:

ومن همزنا رأسه تلعلعا ... ومن أبحنا عزَّه تبركعا

على استه روبعة أو روبعا

(٥) مادة (بركع).

(٦) ذكره ابن الجوزي ٩/ ٢٢٦ من طريق أبي صالح عن ابن عباس. وذكره البغوي ٤/ ٥٢٣ عن الكلبي.

وقال ابن جُرَيج: في الوليد بن المغيرة، وكان يغتابُ النبيَّ ﷺ من ورائه، ويَقْدحُ فيه في وجهه[١].

وقيل: نزلت في أُبَيِّ بنِ خَلَف[٢]. وقيل: في جميل بن عامر الثقفيّ[٣].

وقيل: إنَّها مُرْسَلةٌ على العموم من غيرِ تخصيص؛ وهو قولُ الأكثرين؛ قال مجاهد: ليست بخاصَّةٍ لأحد، بل لكلِّ مَن كانت هذه صفتُه[٤]. وقال الفرَّاء[٥]: يجوزُ أن يُذْكَر الشيءُ العامُّ ويقصَد به الخاصُّ قَصْدَ الواحدِ، إذا قال: لا أزورُك أبداً، فتقول: مَن لم يَزُرْني فلستُ بزائرِه، يعني ذلك القائل.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝٢﴾

أي: أعَدَّه ـ زَعَم ـ لنوائب الدهر؛ مثل كَرَّم وأكْرَم. وقيل: أحصى عدَدَه؛ قاله السُّديّ. وقال الضحاك: أي: أعدَّ ماله لمن يرثُه من أولاده. وقيل: أي: فاخَر بعددِه وكَثْرتِه[٦]. والمقصودُ الذمُّ على إمساك المالِ عن سبيل الطاعة، كما قال: ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ [ن: ١٢]، وقال: ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ﴾ [المعارج: ١٨].

وقراءةُ الجماعة: «جَمَع» مخفَّف الميم. وشدَّدها ابنُ عامر وحمزةُ والكسائيُّ على التكثير[٧]. واختاره أبو عُبيد؛ لقوله: «وعَدَّدَه».

وقرأ الحسن ونصر بن عاصم وأبو العالية: «جَمَع» مخفَّفًا، «وعَدَدَه» مخفَّفًا

---

(١) الوسيط ٤/ ٥٥٢، وتفسير البغوي ٤/ ٥٢٤ عن مقاتل، وذكره عن ابن جريج الماوردي ٦/ ٣٣٦ دون قوله: وكان يغتاب النبي...

(٢) النكت والعيون ٦/ ٣٣٦.

(٣) تفسير الطبري ٢٤/ ٦١٩، والنكت والعيون ٦/ ٣٣٦، وفيهما: الجمحي، بدل: الثقفي.

(٤) تفسير الطبري ٢٤/ ٦٢٠.

(٥) في معاني القرآن ٣/ ٢٨٩.

(٦) ذكر هذه الأقوال الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٣٣٦.

(٧) السبعة ص٦٩٧، والتيسير ص٢٢٥.

أيضًا[١]، فأظْهَروا التضعيفَ؛ لأنَّ أصله: عَدَّه، وهو بعيد؛ لأنَّه وقع في المصحف بدالين. وقد جاء مثلُه في الشعر؛ لمَّا أَبْرَزوا التضعيفَ خفَّفوه، قال:

مَهْلاً أُمامةُ قد جَرَّبْتِ من خُلُقي أنِّي أَجُودُ لِأقْوامٍ وإنْ ضَنِنُوا[٢]

أراد: ضَنُّوا وبَخِلوا، فأظْهَر التضعيف؛ لكنَّ الشعرَ موضعُ ضرورةٍ. قال المَهْدَوِيُّ: مَن خفَّف «وعدَّده» فهو معطوفٌ على المال، أي: وجَمَع عَدَدَه، فلا يكونُ فعلاً على إظهار التضعيف؛ لأنَّ ذلك لا يُستعمل إلَّا في الشعر.

قوله تعالى: ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝٣ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ۝٤ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ۝٧﴾

قوله تعالى: ﴿يَحْسَبُ﴾ أي: يظنُّ ﴿أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ﴾ أي: يبقيه حيًّا لا يموت؛ قاله السُّدِّيُّ. وقال عكرمة: أي: يزيدُ في عمره[٣]. وقيل: أحياه فيما مضى. وهو ماضٍ بمعنى المستقبل؛ يقال: هَلَكَ واللهِ فلانٌ ودَخَل النار، أي: يدخل.

﴿كَلَّا﴾ ردٌّ لِمَا تَوهَّمه الكافر، أي: لا يَخْلُد ولا يَبقَى له مال. وقد مضى القولُ في «كَلّا» مستوفى[٤]. وقال عمر بن عبد الله مولى غُفْرة: إذا سمعتَ الله عزَّ وجلَّ يقول: «كَلَّا» فإنَّه يقولُ: كذبت[٥].

﴿لَيُنۢبَذَنَّ﴾ أي: ليُطْرَحَنَّ ولَيُلْقَينَّ. وقرأ الحسن ومحمد بن كعب ونصر بن عاصم

---

(١) القراءات الشاذة ص ١٧٩ عن الحسن. قال الطبري ٢٤/ ٦٢١ : المعنى: جمع مالاً، وجمع عشيرته وعَدَدَه، وهذه قراءة لا أستجيز القراءة بها.

(٢) البيت لقعنب بن أم صاحب، كما في الكتاب ٣/ ٥٣٥ ، والخصائص ١/ ١٦٠ ، والحماسة البصرية ٢/ ٧٦ ، ومختارات ابن الشجري ١/ ٧ ، وبلا نسبة في المقتضب ١/ ٢٥٣ . ونسبه ثعلب إلى طيسلة الفزاري كما ذكر البصري. وروايته في هذه المصادر: مهلاً أعاذل قد جربت...

(٣) القولين في النكت والعيون ٦/ ٣٣٦ .

(٤) ١٣/ ٥١٠ .

(٥) ذكره السمعاني في التفسير ٦/ ٤٧ . وعمر بن عبد الله هو أبو حفص المدنيُّ، توفي سنة (١٤٥هـ). التهذيب ٣/ ٢٣٨ .

ومجاهد وحُميد وابن محيصن: «لَيُنْبَذانِّ» بالتثنية، أي: هو وماله[١].

وعن الحسن أيضًا: «لَيُنْبَذَنَّهُ»[٢] على معنى: لَيُنْبَذَنَّ ماله. وعنه أيضاً بالنون: «لَنَنْبِذَنَّه»[٣] على إخبارِ اللهِ تعالى عن نفسه، أنه[٤] يَنْبِذُ صاحبَ المال. وعنه أيضاً: «لَيُنْبَذُنَّ» بضمِّ الذَّال[٥]، على أنَّ المراد الهُمَزةُ واللُّمزةُ والمالُ وجامِعُه.

﴿فِي ٱلْحُطَمَةِ﴾ وهي نارُ الله؛ سُمِّيت بذلك لأنَّها تَكْسِرُ كلَّ ما يُلْقى فيها وتَحْطِمُه وتَهْشِمُه؛ قال الراجز:

إنَّا حَطَمْنا بالقَضيبِ مُصْعَبا   يَومَ كَسَرْنا أَنفَه لِيغضَبا[٦]

وهي الطَّبقةُ السادسةُ من طبقات جهنم. حكاه الماوَرْديُّ عن الكلبيِّ[٧]. وحَكى القشيريُّ عنه: «الحُطَمة»: الدَّرَكةُ الثانيةُ من دَرَكِ النار.

وقال الضحاك: هي الدركُ الرابع. ابن زيد: اسمٌ من أسماء جهنم[٨].

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ﴾ على التعظيم لشأنها، والتفخيمِ لأَمْرِها. ثم فسَّرها ما هي، فقال: ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ﴾ أي: التي أوقد عليها ألف عامٍ، وألف عامٍ، وألف عامٍ، فهي غيرُ خامدةٍ، أعدَّها الله للعصاة.

﴿ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ﴾ قال محمد بن كعب: تأكلُ النارُ جميعَ ما في أجسادهم،

---

(١) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٩٠، وتفسير الطبري ٢٤/ ٦٢٤ عن الحسن.

(٢) القراءات الشاذة ص ١٧٩، والكشاف ٤/ ٢٨٤.

(٣) ذكرها الألوسي في روح المعاني ٣٠/ ٢٣١ عن أبي عمرو.

(٤) في (د) و(م): وأنه.

(٥) المحرر الوجيز ٥/ ٥٢٢، والكشاف ٤/ ٢٨٤.

(٦) النكت والعيون ٦/ ٣٣٧، والبيت لصخير بن أبي الجهم، كما في المنمق لابن حبيب ص ٣٦٦، وتاريخ ابن عساكر ٢٤/ ٥، وفيهما: نحن خطمنا...، ومصعب هو ابن عبد الرحمن بن عوف، كما ذكر ابن حبيب. ومعنى خطمه: ضرب أنفه. القاموس (خطم).

(٧) النكت والعيون ٦/ ٣٣٧.

(٨) المصدر السابق.

حتى إذا بلغت إلى الفؤاد خُلِقوا خَلْقاً جديدًا، فرجعت تأكُلهم[١]. وكذا رَوى خالد بنُ أبي عمران عن النبيِّ ﷺ: «أنَّ النارَ تأكلُ أهلَها، حتى إذا اطَّلعتْ على أفئدتهم انتهتْ، ثم إذا صَدَروا تعود، فذلك قولُه تعالى: ﴿نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ﴾»[٢].

وخصَّ الأفئدةَ لأنَّ الألم إذا صار إلى الفؤاد مات صاحبُه. أي: إنَّه في حالِ مَن يموتُ وهم لا يموتون، كما قال الله تعالى: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [طه: ٧٤] فهم إذًا أحياءٌ في معنى الأموات.

وقيل: معنى «تَطَّلِعُ على الأفئِدةِ»، أي: تعلمُ مقدارَ ما يَسْتَحِقُّه كلُّ واحدٍ منهم من العذاب، وذلك بما استَبْقاه الله تعالى من الأمارة الدالَّةِ عليه؛ يقال: اطَّلعَ فلان على كذا: أي: عَلِمَه، وقد قال الله تعالى: ﴿تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [المعارج: ١٧]، وقال تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان: ١٢]، فوَصَفَها بهذا، فلا يَبْعُد أن تُوصَفَ بالعلم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾﴾

أي: مُطْبَقة؛ قاله الحسن والضحَّاك[٣]. وقد تقدَّم في سورة البَلَد القولُ فيه[٤].

وقيل: مُغْلَقة؛ بلُغةِ قريش، يقولون: آصَدْتُ الباب: إذا أغلقته؛ قاله مجاهد. ومنه قولُ عُبيد الله بنِ قيس الرقيَّات:

إنَّ في القصرِ لو دخلنا غزالاً ... مُصْفَقًا مُوصَدًا عليهِ الحِجابُ[٥]

﴿فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾ الفاءُ بمعنى الباء، أي: موصدة بعمدٍ ممدَّدة؛ قاله ابن مسعود؛ وهي في قراءته: «بِعَمَدٍ مُمَدَّدةٍ»[٦].

---

(١) أخرجه عبد بن حميد وابن أبي حاتم، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٩٣.

(٢) النكت والعيون ٦/ ٣٣٧، وأخرجه ابن المبارك في الزهد (٣٠٦ ـ زوائد نعيم).

(٣) النكت والعيون ٦/ ٣٣٧، وأخرج قولهما الطبري ٢٤/ ٦٢٣، وأخرجه عن ابن عباس أيضاً.

(٤) ص٣٠٧ من هذا الجزء.

(٥) ديوان عبيد الله بن قيس ص ٨٤، والنكت والعيون ٦/ ٣٣٧، والكلام منه.

(٦) تفسير الطبري ٢٤/ ٦٢٤، وهي في القراءات الشاذة ص ١٧٩ عن الأعمش.

وفي حديث أبي هريرة عن النبيِّ ﷺ: «ثم إنَّ الله يَبْعَثُ إليهم ملائكةً بأطباقٍ من نار، ومساميرَ من نارٍ، وعَمَدٍ من نار، فتُطْبِقُ عليهم بتلك الأطباق، وتَشُدُّ عليهم بتلك المسامير، وتمدُّ بتلك العَمَد، فلا يَبْقَى فيها خَلَلٌ يدخل فيه رَوْحٌ، ولا يخرج منه غمٌّ، وينساهم الرحمن على عرشه، ويتشاغلُ أهلُ الجنةِ بنعيمهم، ولا يستغيثون بعدها أبداً، وينقطعُ الكلام، فيكونُ كلامُهم زَفِيرًا وشهيقًا، فذلك قولُه تعالى: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾»(١).

وقال قتادةُ: عَمَد يعذَّبون بها. واختاره الطبريُّ(٢).

وقال ابن عباس: إنَّ العَمَد الممدَّدة أغلالٌ في أعناقهم. وقيل: قيودٌ في أرْجُلِهم؛ قاله أبو صالح(٣).

وقال القشيريُّ: والمُعْظَمُ على أنَّ العَمَد أوتادُ الأطباقِ التي تُطْبَقُ على أهل النار، وتُشَدُّ تلك الأطباقُ بالأوتاد حتى يرجع عليهم غمُّها وحرُّها، فلا يدخلُ عليهم رَوْحٌ.

وقيل: أبوابُ النارِ مُطْبقةٌ عليهم وهم في عَمَد، أي: في سلاسلَ وأغلالٍ مُطَوَّلةٍ، وهي أَحْكَمُ وأَرْسَخُ من القصيرة.

وقيل: هم في عمدٍ ممدَّدة، أي: في عذابها وآلامها يُضْربون بها.

وقيل: المعنى: في دهرٍ ممدود، أي: لا انقطاعَ له.

وقرأ حمزةُ والكسائيُّ وأبو بكر عن عاصم: «في عُمُدٍ» بضم العين والميم(٤)، جمع عمود. وكذلك «عَمَد» أيضاً. قال الفرَّاء(٥): والعَمَد والعُمُد: جمعان صحيحان

---

(١) قطعة من خبر طويل ذكره الحكيم الترمذي في نوادر الأصول ص ١٣٩.

(٢) في تفسيره ٢٤/ ٦٢٦، وأخرجه عن قتادة عبد الرزاق ٢/ ٣٩٥، والطبري ٢٤/ ٦٢٥ - ٦٢٦.

(٣) القولين في النكت والعيون ٦/ ٣٣٧.

(٤) السبعة ص٦٩٧، والتيسير ص ٢٢٥.

(٥) في معاني القرآن ٣/ ٢٩١.

لعمود، مثل: أدِيم وأَدَم وأُدُم، وأَفِيق وأَفَق وأُفُق.

أبو عُبيدة: «عمد» جمعُ عِماد، مثل إهاب[(١)]. واختار أبو عُبيد «عَمَد» بفتحتين. وكذلك أبو حاتم؛ اعتباراً بقوله تعالى: ﴿رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ﴾ [الرعد: ٢] وأجمعوا على فَتْحِها.

قال الجوهريُّ[(٢)]: العمود: عمودُ البيت، وجمع القلة: أعْمِدة، وجمع الكثرة عُمُد، وعَمَد، وقرئ بهما قولُه تعالى: «في عَمَدٍ مُمَدَّدةٍ».

وقال أبو عبيدةَ: العمودُ كلُّ مستطيلٍ من خشبٍ أو حديد، وهو أصلٌ للبناء مثل العِماد[(٣)]. عَمَدْتُ الشيءَ فانْعَمَد، أي: أَقَمْتَه بِعِمادٍ يعتمِدُ عليه. وأَعْمَدْتُه: جعلت تحته عَمَدًا[(٤)]. والله أعلم.

---

(١) يعني أن «عَمَد» و«عُمُد» كلاهما جمع عماد. مجاز القرآن ٢/ ٣١١ ، والوسيط ٤/ ٥٥٣ ، وتفسير البغوي ٤/ ٥٢٤ .

(٢) في الصحاح (عمد).

(٣) ذكره الرازي ٣٢/ ٩٥ دون نسبة.

(٤) الصحاح (عمد).

تفسير سورة «الفيل»

وهي مكية بإجماع(١). وهي خمس آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ①﴾

فيه خمس مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أي: أَلَم تخبَرْ. وقيل: أَلَم تَعْلَم. وقال ابن عباس: أَلَمْ تسمع؟ واللفظُ استفهامٌ، والمعنى تقرير. والخطابُ للنبيِّ ﷺ ولكنَّه عامٌّ، أي: ألم تَرَوْا ما فعلتُ بأصْحَابِ الفيل، أي: قد رأيتُم ذلك، وعرفتُم موضعَ مِنَّتي عليكم، فما لكم لا تؤمنون؟

و﴿كَيْفَ﴾ في موضع نصب بـ «فَعَلَ رَبُّك» لا بـ «ألم تر» [لأن] «كيف» من معنى الاستفهام(٢).

الثانية: قوله تعالى: ﴿بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ الفيلُ معروفٌ، والجمعُ أفيالٌ وفُيول، وفِيَلَة. قال ابن السكيت: ولا تَقُلْ أَفْيِلة. وصاحبُه فيَّال. قال سيبويه: يجوزُ أن يكون أصلُ فِيل فُعْلاً، فكُسِر من أَجْلِ الياء، كما قالوا: أبيضُ وبيضٌ. وقال الأخفش: هذا لا يكونُ في الواحد، إنَّما يكون في الجمع. ورجلٌ فِيلُ الرأي، أي: ضعيف الرأي، والجمعُ أفيال. ورجلٌ فالٌ، أي: ضعيفُ الرأي، مخطئُ الفِراسةِ. وقد فال الرأيُ يَفِيلُ فُيولة، وفَيَّل رأيَه تفييلاً، أي: ضعَّفه، فهو فَيِّل الرأي(٣).

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٥٢٣، وزاد المسير ٩/ ٢٣١.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٣٦٣، وما سلف بين حاصرتين منه، وفيه: لأن كيف من حروف الاستفهام. وقال مكي في مشكل إعراب القرآن ٢/ ٨٤٤: ولا يعمل فيه «تر» لأن فيه معنى الاستفهام، ولا يعمل فيه ما قبله.

(٣) الصحاح (فيل)، وقول ابن السكيت في إصلاح المنطق ص ١٩١، وقول سيبويه في الكتاب ٣/ ٥٩٢.

الثالثة: في قصة أصحابِ الفيل، وذلك أنَّ أبرهةَ بنى القُلَّيْسَ بصنعاء، وهي كنيسةٌ لم يُر مِثلُها في زمانها بشيءٍ من الأرض، وكان نصرانيًا، ثم كتب إلى النجاشيِّ: إنِّي قد بَنَيْتُ لك أيها الملكُ كنيسةً لم يُبْنَ[١] مثلُها لملِك كان قبلك، ولستُ بمنتهٍ حتى أصرِف إليها حجَّ العربِ.

فلمَّا تحدَّثت العربُ بكتابِ أبرهةَ ذلك إلى النجاشيِّ، غضب رجلٌ من النَّسَأة[٢]، فخرج حتى أتى الكنيسةَ، فقعد فيها ـ أي: أحْدَثَ ـ ثم خرج فلَحِقَ بأرضه، فأُخْبِر بذلك أبرهةُ، فقال: مَن صنع هذا؟ فقيل: صَنَعه رجلٌ من أهلِ هذا البيت الذي تحجُّ إليه العرب بمكة، لمَّا سمِع قولكَ: أصْرِفُ إليها حجَّ العرب، غضب، فجاء فقعد فيها، أي: أنها ليست لذلك بأهل. فغضب عند ذلك أبرهةُ، وحلف ليَسِيرَنَّ إلى البيت حتى يهدِمه، وبعث رجلاً كان عنده إلى بني كِنانةَ يدعوهم إلى حجِّ تلك الكنيسة، فقتَلَتْ بنو كنانةَ ذلك الرجلَ، فزاد أبرهةَ ذلك غضباً وحَنَقًا.

ثم أمر الحبشةَ فتهيَّأتْ وتجهَّزتْ، ثم سار وخرج معه بالفيل. وسمعتْ بذلك العرب، فأعْظَموه وفَظِعوا به، ورأوْا جهادَه حقًّا عليهم حين سمعوا أنه يريد هَدْمَ الكعبةِ بيتِ الله الحرام. فخرج إليه رجلٌ من أشرافِ أهلِ اليمنِ وملوكِهم يقال له: ذو نَفْر، فدعا قومه ومَن أجابه مِن سائر العرب إلى حربِ أبرهةَ وجهادِه عن بيت الله الحرام، وما يريد مِن هَدْمِه وإخرابه، فأجابه مَن أجابه إلى ذلك، ثم عَرَضَ له فقاتَلَه، فهُزِم ذو نَفْرٍ وأصحابُه، وأُخِذ له ذو نفرٍ فأُتي به أسيراً، فلمَّا أراد قَتْلَه قال له ذو نَفْر: أيها الملك لا تقتُلْني، فإنَّه عسى أن يكون بقائي معك خيراً لك من قتلي. فتركه من القتل، وحَبَسه عنده في وَثاق، وكان أبرهةُ رجلاً حليماً.

ثم مضى أبرهةُ على وجهه ذلك يريد ما خرج له، حتى إذا كان بأرضِ خَثْعَمَ

---

(١) في (ظ): لم ير.

(٢) بعدها في سيرة ابن هشام ١/ ٤٣: أحد بني فقيم بن عدي بن عامر...، والنسأة: الذين كانوا ينسؤون الشهور على العرب في الجاهلية.

عَرَضَ له نُفَيل بن حبيب الخَثْعَمِيُّ في قبيلَتيْ خثعم: شَهرانَ وناهِسٍ، ومَن تَبِعه من قبائل العرب، فقاتَلَه فهزمه أبرهةُ، وأُخِذ له نُفيل أسيراً، فأُتي به، فلمَّا همَّ بقتله قال له نُفَيل: أيها الملك لا تقتلني، فإنِّي دليلُك بأرض العرب، وهاتان يداي لك على قبيلتي خثعم ـ شهران وناهِس ـ بالسمع والطاعة. فخلَّى سبيلَه. وخرج به معه يدلُّه. حتى إذا مر بالطائف خرج إليه مسعود بن مُعَتِّب في رجالٍ من ثَقيف، فقالوا له: أيها الملك، إنَّما نحن عبيدُك، سامعون لك مُطيعون، ليس عندنا لك خلافٌ، وليس بيتُنا هذا البيتَ الذي تريد ـ يعنون اللَّاتَ ـ إنَّما تريدُ البيتَ الذي بمكة، ونحن نبعثُ معك مَن يَدُلُّك عليه. فتجاوَزَ عنهم، وبعثوا معه أبا رِغال، حتى أنزله المغمَّس[١] فلمَّا أنزله به مات أبو رِغال هناك، فَرَجَمت قبرَه العرب، فهو القبرُ الذي يرجمُ الناسُ بالمغمَّس، وفيه يقول الشاعر:

وأرجُمُ قبرَه في كلِّ عامٍ ... كَرجْمِ الناسِ قبرَ أبي رِغال[٢]

فلمَّا نزل أبرهةُ بالمغمَّس، بعث رجلاً من الحبشة يقال له الأسود بن مقصود على خيل له، حتى انتهى إلى مكةَ، فساق إليه أموالَ أهلِ تهامةَ من قريش وغيرِهم، وأصاب فيها مئتي بعيرٍ لعبد المطَّلب بن هاشم، وهو يومئذٍ كبيرُ قريشٍ وسيدُها، فهمَّتْ قريشٌ وكنانةُ وهُذَيْلٌ ومَن كان بذلك الحرم بقتاله، ثم عرفوا أنهم لا طاقةَ لهم به، فتركوا ذلك.

وبعث أبرهةُ حُناطةَ الحِميريَّ إلى مكة، وقال له: سَلْ عن سيد هذا البلد وشريفِهم، ثم قل له: إنَّ الملك يقول: إنِّي لَمْ آتِ لحربكم، إنَّما جئتُ لهدم هذا البيت، فإنْ لم تَعرضوا لي بحربٍ، فلا حاجةَ لي بدمائكم. فإنْ هو لم يُرِدْ حربي فأْتني به. فلمَّا دخل حُناطةُ مكة، سأل عن سيد قريش وشريفها، فقيل له: عبدُ المطلب

---

(١) بتشديد الميم وفتحها، وقيل: بكسرها، موقع قرب مكة في طريق الطائف. ينظر معجم البلدان ٥/ ١٦١ ، والروض الأنف ١/ ٦٨ .

(٢) البيت لمسكين الدارمي، كما في الحيوان ٦/ ١٥٧ ، وثمار القلوب لأبي منصور الثعالبي ص١٣٦ .

ابنُ هاشم، فجاءه فقال له ما أمره به أبرهة، فقال له عبد المطلب: والله ما نريدُ حربَه، وما لنا بذلك منه طاقة[١]، هذا بيتُ الله الحرامُ، وبيتُ خليله إبراهيمَ عليه السلام ـ أو كما قال ـ فإنْ يمنعْه منه فهو حَرمُه وبيتُه، وإن يُخلّ[٢] بينه وبينه، فوالله ما عندنا دفعٌ عنه. فقال له حُناطة: فانطلِقْ إليه؛ فإنَّه قد أمرني أنْ آتيَه بك، فانطلق معه عبد المطلب ومعه بعضُ بنيه، حتى أتى العسكر، فسأل عن ذي نَفْر ـ وكان صديقاً له ـ حتى دخل عليه وهو في مَحْبِسه، فقال له: يا ذا نفْر، هل عندك من غَناءٍ فيما نزل بنا؟ فقال له ذو نفْر: وما غَنَاءُ رجلٍ أسيرٍ بيدي ملكٍ، ينتظر أن يقتله غُدُوًّا وعَشِيًّا! ما عندي غَناءٌ في شيءٍ ممَّا نزل بك، إلَّا أنَّ أُنيساً سائسَ الفيلِ صديقٌ لي، فسأرسلُ إليه وأُوصِيه بك، وأُعْظِمُ عليه حقَّكَ، وأسألُه أن يستأذن لك على الملك، فتكلِّمه بما بدا لك، ويشفع لك عنده بخيرٍ إنْ قَدَر على ذلك. فقال: حَسْبي. فبعث ذو نفْر إلى أُنَيس فقال له: إنَّ عبد المطلب سيدُ قريش، وصاحبُ عَيْن[٣] مكةَ، يطعمُ الناسَ بالسهل، والوحوشَ في رؤوس الجبال، وقد أصاب له الملك مئتي بعير، فاسْتَأْذِنْ له عليه، وانْفَعْه عنده بما استطعت. فقال: أَفْعَلُ. فكلَّم أُنيسٌ أبرهةَ، فقال له: أيها الملك، هذا سيدُ قريشٍ ببابك، يستأذن عليك، وهو صاحبُ عَيْن مكة، يطعم الناس بالسهل، والوحوش في رؤوس الجبال؛ فأْذَنْ له عليك، فليكلِّمْك[٤] في حاجته. قال: فأَذِن له أبرهة.

وكان عبد المطَّلب أوسمَ الناس وأعظمَهم وأجملَهم، فلمَّا رآه أبرهةُ أَجَلَّه وأَعْظَمَه عن أن يُجلسه تحته، فنزل أبرهةُ عن سريره فجلس على بساطه وأجلسه معه عليه إلى جَنْبه، ثم قال لترجمانه: قل له: حاجتك[٥]؟ فقال له ذلك التُّرجُمان، فقال:

---

(١) في تفسير الطبري ٢٤/ ٦٣٨ : وما لنا بذلك من طاقة.

(٢) في (ظ): وإن لم يحل.

(٣) في تفسير الطبري: عير، في الموضعين.

(٤) في (د): يكلمك، وفي (م) والسيرة: فيكلمك، والمثبت من باقي النسخ وتفسير الطبري.

(٥) في (د) وتفسير الطبري: ما حاجتك. والمثبت من باقي النسخ والسيرة.

حاجتي أن يردَّ عليَّ الملك مئتي بعيرٍ أصابها لي. فلمَّا قال له ذلك، قال أبرهة لتَرْجُمانه: قل له: لقد كنتَ أعجبتني حين رأيتُك، ثم قد زهِدْتُ فيك حين كلَّمتني، أتكلِّمني في مئتي بعيرٍ أَصَبْتُها لك، وتتركُ بيتاً هو دينُك ودينُ آبائك، قد جئتُ لهدمه، لا تكلِّمُني فيه؟! فقال له عبد المطلب: إنِّي أنا ربُّ الإبل، وإنَّ للبيت ربًّا سيمنعُه. قال: ما كان لِيمتنعَ منِّي! قال: أنت وذاك. فردَّ عليه إبلَه.

وانصرف عبد المطلب إلى قريش، فأخبرهم الخبر، وأمرهم بالخروج من مكة والتحرُّزِ في شَعَف الجبال والشِّعاب؛ تخوُّفاً عليهم مَعَرَّةَ الجيش[١]. ثم قام عبد المطلب فأخذ بحلْقةِ بابِ الكعبة، وقام معه نَفَرٌ من قريش يدعون الله ويستنصرونه على أبرهةَ وجندِه، فقال عبد المطلب وهو آخذٌ بحلقةِ بابِ الكعبة:

لاهُمَّ إنَّ العَبْدَ يَمْـ ... ـنعُ رَحْلَه فامنعْ حِلالَكْ

لا يَغْلِبَنَّ صَليبُهُمْ ... ومِحالُهُمْ عَدْوًا مِحالَكْ

إنْ كنتَ تارِكَهم وبلْـ ... ـدتَنا[٢] فأمرٌ ما بدا لكْ[٣]

يقول: أي شيء ما بدا لك لم تكن تفعلُه بنا[٤]. والحِلال: جمع حِلّ[٥]. والمِحال: القوَّة. وقيل: إنَّ عبد المطلب لمَّا أخذ بحلقةِ بابِ الكعبةِ قال:

---

(١) أي: شدته. وقوله: وشعف الجبال، أي: رؤوسها، والشعاب: المواضع الخفية بين الجبال. الإملاء المختصر ١/ ٨٨ .

(٢) في النسخ عدا (د): إن يدخلوا البلد الحرام، والمثبت من (د). وجاء في سيرة ابن هشام: إن كنت تاركهم وقبلتنا. وفي السير والمغازي لابن إسحاق ص ٦٢ :

إن يدخلوا البلد الحرام ... غداً فأمر ما بدا لك

(٣) قال ابن هشام: هذا ما صح له منها. ووقع في (د) زيادة: جروا جميع جيوشهم والفيل كي يسبوا عيالك قصدوا حماك بكيدهم عدواً وما رقبوا جلالك. وهذه الزيادة ذكرها ابن الجوزي ٩/ ٢٣٤ باختلاف يسير.

(٤) السير والمغازي ص ٦٢ ، ودلائل النبوة للبيهقي ١/ ١١٩ .

(٥) وذكر أبو ذر الخشني في الإملاء المختصر ١/ ٨٨ أن الحِلال ـ بكسر الحاء ـ جمع حِلَّة، وهي جماعة البيوت. وقال السهيلي في الروض الأنف ١/ ٧٠ : الحلال في هذا البيت: القوم الحلولُ في المكان، والحلال أيضاً: متاع البيت، وجائز أن يستعيره ههنا.

يـا رَبِّ لا أرجُـو لَـهـمْ سِـواكـا يـا ربِّ فـامـنـعْ مـنـهـمُ حِـمـاكـا
إنَّ عـدوَّ الـبـيـتِ مَـن عـاداكـا إنَّـهـمُ لـن يَـقْـهَـروا قُـوَاكـا[١]

وقال عكرمةُ بن عامر بنِ هاشم بنِ عبد مناف بن عبد الدار بن قصي:

لاهُـمَّ أخْـزِ الأسـودَ بـن مـقـصـود الآخِـذَ الـهَـجْـمَـةَ فـيـهـا الـتَّـقْـلِـيـدْ
بـيـن حـراءٍ وثَـبـيـرٍ فـالـبِـيـدْ يـحـبـسـهـا وهـي أولاتُ الـتَّـطْـريـدْ
فـضَـمَّـهـا إلـى طَـمـاطِـمٍ سُـودْ قَـدْ أجْـمَـعُـوا ألَّا يـكـون مَـعْـبُـودْ
ويـهـدموا الـبـيـتَ الـحـرامَ الـمَـعـمُـودْ والـمـرْوَتَـيـنِ والْـمَـشَـاعـرَ الـسُّـودْ
أَخْـفِـرْه يـا ربِّ وأنـت مـحـمـودْ[٢]

قال ابن إسحاق: ثم أرسل عبد المطلب حَلْقةَ بابِ الكعبة، ثم انطلق هو ومَن معه من قريش إلى شَعَف الجبال، فتحرَّزوا فيها ينتظرون ما أبرهةُ فاعلٌ بمكةَ إذا دخلها. فلمَّا أصبح أبرهةُ تهيَّأ لدخول مكةَ، وهيَّأ فيلَه، وعبَّأ جيشه، وكان اسم الفيل محموداً، وأبرهةُ مُجْمِعٌ لهدم البيت، ثم الانصرافِ إلى اليمن. فلمَّا وجَّهوا الفيلَ إلى مكة، أقبل نُفَيْل بن حبيب، حتى قام إلى جَنْبِ الفيل، ثم أخذ بأُذنه فقال له: ابْرُكْ محمودُ، وارجع راشداً من حيث جئتَ، فإنَّك في بلد الله الحرام. ثم أرسل أُذُنَه، فبرك الفيل[٣]. وخرج نُفيل بن حبيب يشتدُّ، حتى أَصْعدَ في الجبل. وضربوا الفيلَ

(١) السير والمغازي لابن إسحاق ص ٦٤، وتفسير الطبري ٢٤/ ٦٤١، والبيت الأخير فيه برواية: امنعهم أن يخربوا قراكا.

(٢) النكت والعيون ٦/ ٣٣٩، وهي في سيرة ابن هشام ١/ ٥١ دون قوله: قد أجمعوا... السود.
الهجمة: القطعة من الإبل، قيل: ما بين الخمسين إلى الستين. وقوله: فيها التقليد، أي: في أعناقها قلائد. وحراء وثبير جبلان بمكة. والبيد جمع بيداء، وهي القفر. والطماطم: الأعاجم، واحدهم: طِمْطِمان. وقوله: أخفره، أي: انقض عهده، فلا تؤمِّنه. ينظر الروض الأنف ١/ ٧١، والإملاء المختصر ١/ ٨٩.

(٣) قال السهيلي في الروض الأنف ١/ ٧١: قوله: فبرك الفيل، فيه نظر؛ لأن الفيل لا يبرك، فيحتمل أن يكون بروكه: سقوطه إلى الأرض لمَا جاءه من أمر الله سبحانه، ويحتمل أن يكون فَعَلَ فِعْلَ البارك الذي يلزم موضعه ولا يبرح، فعبَّر بالبروك عن ذلك.

ليقومَ فأبى، فضربوا في رأسه بالطَّبرزِين[١] ليقوم فأبى؛ فأدخلوا محاجِنَ[٢] لهم في مَرَاقِّه فبَزَغوه بها[٣] ليقوم، فأبى، فوجَّهوه راجعاً إلى اليمن، فقام يُهَروِلُ، ووجَّهوه إلى الشام ففَعَلَ مثل ذلك، ووجَّهوه إلى المَشْرِق ففعل مثل ذلك، ووجَّهوه إلى مكة فبرك. وأرسل الله عليهم طيراً من البحر، أمثالَ الخطاطيفِ والبَلَسان[٤]، مع كلِّ طائرٍ منها ثلاثةُ أحجارٍ يحملها: حجرٌ في مِنقاره، وحجران في رجليه، أمثال الحِمَّصِ والعَدَس، لا تصيبُ منهم أحداً إلَّا هلك، وليس كلَّهم أصابتْ. وخرجوا هاربين يبتدرون الطريقَ التي جاؤوا منها، ويسألون عن نُفيل بن حبيب ليدلَّهم على الطريق إلى اليمن، فقال نفيل بنُ حبيب حين رأى ما أنزل الله بهم من نِقْمَتِه:

أيـن الـمَـفَـرُّ والإلـهُ الـطَّـالـبُ ... والأَشْـرَمُ المغلوبُ ليس الغالبُ

وقال أيضاً:

حَـمِـدْتُ الـلـه إذ أَبْـصَـرْتُ طَـيْـراً ... وخِـفْـتُ حِـجـارَةً تُـلْـقَـى عـلـيـنـا
فـكـلُّ الـقـومِ يـسـألُ عـن نُـفَـيـلٍ ... كَـأَنَّ عَـلَـيَّ لِـلْـحُـبْـشـان دَيْـنـا

فخرجوا يتساقطون بكلِّ طريق، ويهلِكون على كلِّ سَهْل[٥]، وأُصيب أَبرهةُ في جسده، وخرجوا به معهم يسقطُ أنملةً أنملةً، كلَّما سقطت منه أنملةٌ أَتْبَعتْها منه مِدَّةٌ تمثُّ قيحاً ودمًا[٦]؛ حتى قدموا به صنعاءَ وهو مثلُ فرخ الطائر، فما مات حتى انْصَدَع

---

(١) آلةٌ مُعَقَّفةٌ من حديد. الإملاء المختصر ١/ ٨٩.
(٢) جمع مِحْجَن، وهي عصاً معوجَّةٌ، وقد يجعل في طرفها حديد. الإملاء المختصر ١/ ٨٩.
(٣) أي: شرطوه بالحديد الذي في تلك المحاجن. وقوله: في مراقِّه، يعني في أسفل بطنه. الإملاء المختصر ١/ ٨٩.
(٤) ضَرْبان من الطير. الإملاء المختصر ١/ ٨٩ - ٩٠.
(٥) في سيرة ابن هشام وتفسير الطبري: منهل، ووقع في السيرة: ويهلكون بكل مهلك على كل منهل. قال أبو ذر الخشني في الإملاء المختصر ص ٩٠: المنهل موضع ورود الماء، وجمعه مناهل.
(٦) قوله: تمث، أي: تسيل، وقيل: ترشح. الإملاء المختصر ١/ ٩٠. وقال السهيلي في الروض الأنف ١/ ٧٣: تمُث وتمِث بالضم والكسر، فعلى رواية الضم يكون الفعل متعدياً، ونصب قيحاً على المفعول. وعلى رواية الكسر يكون غير متعدٍّ، ونصب قيحاً على التميز في قول أكثرهم.

صدرُه عن قلبه، فيما يزعمون.

وقال الكلبيُّ ومقاتل بنُ سليمان ـ يزيدُ أحدُهما وينقص ـ: سببُ الفيلِ ما رُوي أنَّ فِتْيةً من قريش خرجوا تجاراً إلى أرض النجاشيّ، فنزلوا على ساحل البحر إلى بِيعةٍ للنصارى، تسمِّيها النصارى الهَيْكل، فأوْقَدوا ناراً لطعامهم وتركوها وارْتَحلوا، فهبَّتْ ريحٌ عاصفٌ على النار فأضرمت[1] البِيعةَ ناراً فاحْتَرقتْ، فأتى الصَّرِيخُ إلى النجاشيِّ فأخبره، فاستشاط غضباً. فأتاه أبرهةُ بنُ الصَّبَّاح وحُجْر بن شراحيل[2] وأبو يَكْسوم الكِنْديون؛ وضَمِنوا له إحراقَ الكعبةِ وسَبْيَ مكة. وكان النجاشيُّ هو الملك، وأبرهةُ صاحبُ الجيش، وأبو يكسوم نديمُ الملك، وقيل: وزيره[3]، وحُجْر بن شراحيل من قوَّاده. وقال مجاهد: أبو يكسوم هو أبرهةُ بن الصباح. فساروا ومعهم الفيل. قال الأكثرون: هو فيلٌ واحد. وقال الضحاك: هي ثمانيةُ فِيَلَة. ونزلوا بذي المَجاز[4]، واستاقوا سَرْحَ مكةَ، وفيها إبلُ عبدِ المطلب. وأتى الراعي نذيراً، فصعد الصفا وصاح: واصباحاه! ثم أخبر الناس بمجيء الجيشِ والفيل. فخرج عبد المطلب، وتوجَّه إلى أبرهة، وسأله في إبله.

واختُلِف في النجاشيّ، هل كان معهم؟ فقال قوم: كان معهم. وقال الأكثرون: لم يكن معهم.

وبصُر[5] أهلُ مكةَ بالطير قد أقبلت من ناحية البحر، فقال عبد المطلب: إنَّ هذه الطيرَ غريبةٌ بأرضنا، وما هي بنَجْديةٍ ولا تِهاميةٍ ولا حجازية، وإنَّها أشباهُ

---

(١) في (ظ): فاضطرمت.

(٢) في (م): شرحبيل، وفي (د): سرجيل، في الموضعين.

(٣) في النسخ: وزير، والمثبت من النكت والعيون ٦/ ٣٤٠، والكلام منه.

(٤) موضع سوق على ناحية كبكب، على فرسخ من عرفة، كانت تقوم في الجاهلية ثمانية أيام. معجم البلدان ٥/ ٥٥.

(٥) في (د) و(م): ونظر.

اليَعاسيب[1]. وكان في مناقيرها وأرجلها حجارةٌ، فلمَّا أطلَّت[2] على القوم ألقتها عليهم، حتى هلكوا. قال عطاء بن أبي رباح: جاءت الطير عشيةً، فباتت، ثم صبَّحَتْهم بالغَداةِ فرمَتْهم[3].

وقال الكلبيُّ: في مناقيرها حصًى كحصى الخَذْفِ، أمامَ كلِّ فرقةٍ طائرٌ يقودُها، أحمرُ المِنقار، أسودُ الرأس، طويلُ العنق. فلمَّا جاءت عَسْكَرَ القومِ وتَوافَتْ، أهالَتْ ما في مناقيرها على مَن تحتَها، مكتوبٌ على كلِّ حجرٍ اسمُ صاحبِه المقتولِ به. وقيل: كان على كلِّ حجر مكتوبٌ: مَن أطاع الله نجا، ومَن عصاه غَوَى. ثم انصاعت راجعةً من حيث جاءت.

وقال العَوفيُّ: سألتُ عنها أبا سعيد الخُدْرِيَّ، فقال: حمامُ مكةَ منها[4].

وقيل: كان يقع الحجرُ على بيضة أحدِهم فيخرقها ويقع في دِماغه، ويخرقُ الفيلَ والدابَّة. ويغيب الحجر في الأرض من شدَّة وَقْعِه.

وكان أصحابُ الفيل ستِّين ألفاً، لم يرجع منهم أحدٌ إلَّا أميرُهم، رجع ومعه شِرذمةٌ لطيفة. فلمَّا أَخبَروا بما رَأَوْا هَلَكوا.

وقال الواقديُّ: أبرهةُ جدُّ النجاشيِّ الذي كان في زمان رسولِ الله ﷺ[5].

وأبرهةُ هو الأشرمُ، سمِّي بذلك لأنَّه تَفاتَنَ مع أرياط، حتى تَزاحَفا، ثم اتَّفقا على أن يلتقيا بشَخْصَيْهما، فَمَن غَلَب فله الأمرُ. فتبارزا، وكان أَرْياطُ جسيماً عظيماً، في يده حربةٌ، وأبرهةُ قصيراً حادِراً[6]، حليماً ذا دينٍ في النصرانية، ومع أبرهةَ وزيرٌ

---

(١) اليعسوب: أمير النحل. القاموس (عسب).

(٢) في (د): أقبلت.

(٣) النكت والعيون ٦/ ٣٤٠ - ٣٤١.

(٤) النكت والعيون ٦/ ٣٤١، والكشاف ٤/ ٢٨٦.

(٥) النكت والعيون ٦/ ٣٤١، وذكره الثعلبي في عرائس المجالس ص ٤٤٩ وزاد: وآمن به.

(٦) الحادر: السمين. اللسان (حدر).

له يقال له: عتودة، فلمَّا دَنَوْا ضرب أرياط بحربته رأسَ أبرهة، فوقعت على جبينه، فشَرَمَتْ عينَه وأنفه وجبينه وشفته؛ فلذلك سُمِّي الأشرم. وحمل عتودةُ على أرياط فقتله. فاجتمعت الحبشةُ لأبرهة، فغضب النجاشيُّ، وحلف لَيَجُزَّنَّ ناصيةَ أبرهة، ويَطَأنَّ بلادَه. فجزَّ أبرهةُ ناصيته، وملأ مِزودًا من تراب أرضه، وبعث بهما إلى النجاشيِّ، وقال: إنَّما كان عبدَك، وأنا عبدُك، وأنا أَقْوَمُ بأمر الحبشة، وقد جززتُ ناصيتي، وبعثتُ إليك بترابِ أرضي لتطأه وتبرَّ في يمينك، فرضي عنه النجاشيّ[(١)]. ثم بنى أبرهةُ كنيسةً بصنعاء ليَصْرِفَ إليها حجَّ العرب؛ على ما تقدَّم.

الرابعة: قال مقاتل: كان عامُ الفيلِ قبلَ مولدِ النبيِّ ﷺ بأربعين سنةً. وقال الكلبيُّ وعُبيد بن عمير: كان قبل مولدِ النبيِّ ﷺ بثلاثٍ وعشرين سنة[(٢)]. والصحيحُ ما روي عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «وُلدتُ عامَ الفِيلِ». وروي عنه أنه قال: «يومَ الفِيل». حكاه الماوَرْدِيُّ في التفسير له[(٣)]. وقال في كتاب «أعلام النبوّة[(٤)]»: ولِد رسولُ الله ﷺ يومَ الاثنين الثاني عَشَر من ربيع الأوّل، وكان بعد الفيلِ بخمسين يومًا. ووافق من شهورِ الروم العشرين من أشباط[(٥)]، في السنة الثانية عَشْرَة من ملكِ هُرْمُز بن أنوشروان. قال: وحكى أبو جعفر الطبريُّ[(٦)] أنَّ مولد النبيِّ ﷺ كان لاثنتين وأربعين

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٤١ - ٤٢، وعرائس المجالس ص ٤٤٣ - ٤٤٤.

(٢) عرائس المجالس ص ٤٤٩، والنكت والعيون ٦/ ٣٣٨.

(٣) النكت والعيون ٦/ ٣٣٨، وأخرج الرواية الأولى البيهقي في دلائل النبوة ١/ ٧٥ عن ابن عباس رضي الله عنهما بلفظ: ولد النبي ﷺ عام الفيل. وكذا أخرجه ابن سعد في الطبقات ١/ ١٠١ إلا أن فيه: يوم الفيل، وهي الرواية الثانية، وزاد ابن سعد: يعني عام الفيل. وقد ثبتت ولادة النبي ﷺ في عام الفيل عن غير واحد من الصحابة وغيرهم، ينظر طبقات ابن سعد ١/ ١٠٠ - ١٠١، ودلائل النبوة للبيهقي ١/ ٧٥ - ٧٩. وقال ابن عبد البر في الاستذكار ٢٦/ ٢٢٥: لا خلاف بين العلماء بالسير والآثار أن رسول الله ﷺ ولد عام الفيل.

(٤) ص ٢٧٠ - ٢٧١.

(٥) في أعلام النبوة: شباط، وكلاهما صواب، وكذلك سُباط بالسين. ينظر التاج (سبط)، وصبح الأعشى ٣٩٢/٢.

(٦) في تاريخه ٢/ ١٥٤.

سنةً من ملك أنوشروان.

وقد قيل: إنَّه عليه الصلاة والسلام حملتْ به أمُّه آمنةُ في يوم عاشوراءَ من المحرَّم، وولد يومَ الاثنين لاثنتي عَشْرةَ ليلةً خَلَتْ من شهر رمضان[١]، فكانت مدَّةُ حملِه ثمانيةَ أشهرٍ كَمَلاً ويومين من التاسع.

وقيل: إنَّه ولد يومَ عاشوراءَ من شهر المحرم؛ حكاه ابن شاهين أبو حفص[٢]، في «فضائلِ يومِ عاشوراءَ» له.

ابن العربيّ[٣]: قال ابن وهب عن مالك: وُلد رسولُ الله ﷺ عامَ الفيل، وقال قيس بن مَخْرَمَةَ: ولدتُ أنا ورسولُ الله ﷺ عامَ الفيل[٤]. وقد روى الناس عن مالك أنه قال: من مروءة الرجل ألَّا يُخْبِر بسنِّه؛ لأنَّه إنْ كان صغيرًا استَحْقَروه وإنْ كان كبيراً استَهْرَموه. وهذا قولٌ ضعيف؛ لأنَّ مالكاً لا يُخبِرُ بسنِّ رسولِ الله ﷺ ويكتم سِنَّه، وهو من أعظم العلماءِ قدوةً به. فلا بأسَ بأن يخبر الرجلُ بسنِّه كان كبيراً أو صغيراً.

وقال عبد الملك بن مروان لقَبَاث بنِ أَشْيَم[٥]: أنت أكبرُ أم النبيُّ ﷺ؟ فقال: النبيُّ ﷺ أكبرُ منِّي، وأنا أسنُّ منه؛ وُلد النبيُّ ﷺ عامَ الفيل، وأنا أدركتُ سائسَه وقائدَه أَعْمَيَيْن مُقْعَدين يستطعمان الناس[٦].

وقيل لبعض القضاة: كم سنُّك؟ قال: سنُّ عَتَّاب بنِ أَسيد حين ولَّاه النبيُّ ﷺ

(١) أخرجه ابن عساكر في تاريخه ٣/ ٦٦ عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٢) هو عمر بن أحمد بن عثمان البغدادي الواعظ، صاحب التفسير الكبير، توفي سنة (٣٨٥هـ). السير ١٦/ ٤٣١.

(٣) في أحكام القرآن ٤/ ١٩٦٨.

(٤) أخرجه أحمد (١٧٨٩١)، والترمذي (٣٦١٩) وقال: حديث حسن غريب، لا نعرفه إلا من حديث محمد بن إسحاق.

(٥) في النسخ: لعتاب بن أسيد، والمثبت من المصادر - على ما يأتي - وهو الصواب.

(٦) أخرجه ابن أبي عاصم في الآحاد والثاني (٩٢٧)، والطبراني في الكبير ١٩/ (٧٥)، وأبو نعيم في دلائل النبوة (٨٤)، والبيهقي في الدلائل ١/ ٧٨ ، ووقع في هذه المصادر: وتنبأ على رأس أربعين من الفيل، بدل قوله: وأنا أدركت سائسه...، وقد روي هذا عن عائشة رضي الله عنها كما سيرد.

مكةَ. وكان سنُّه يومئذٍ دون العشرين[١].

الخامسة: قال علماؤنا: كانت قصةُ الفيلِ فيما بعدُ من معجزات النبيِّ ﷺ، وإن كانت قبلَه وقبلَ التحدِّي؛ لأنَّها كانت توكيداً لأمره، وتمهيداً لشأنه. ولمَّا تلا عليهم رسول الله ﷺ هذه السورة، كان بمكةَ عددٌ كثيرٌ ممن شهد تلك الوَقْعةَ؛ ولهذا قال: «ألم تر»، ولم يكن بمكةَ أحدٌ إلَّا وقد رأى قائدَ الفيلِ وسائقَه أعميين يتكفَّفان الناس. وقالت عائشةُ رضي الله عنها مع حَداثةِ سنِّها: لقد رأيتُ قائدَ الفيلِ وسائقَه أعمييْن يستطعمان الناس[٢].

وقال أبو صالح: رأيتُ في بيتِ أمِّ هانئ بنتِ أبي طالب نحوًا من قفيزين من تلك الحجارة، سوداً مخططةً بحُمْرةٍ[٣].

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝٢﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾ أي: في إبطالٍ وتضييعٍ؛ لأنَّهم أرادوا أن يكيدوا قُريشاً بالقتل والسبي، والبيتَ بالتخريبِ والهَدْمِ. فحُكي عن عبد المطلب أنَّه بعث ابنَه عبدَ الله على فرسٍ له، ينظر ما لَقُوا من تلك الطير، فإذا القومُ مُشَدَّخون[٤] جميعاً، فرجع يركضُ فرسه، كاشفاً عن فخذه، فلمَّا رأى ذلك أبوه قال: إنَّ ابني هذا أفرسُ العرب، وما كَشَفَ عن فخذه إلَّا بشيراً أو نذيراً. فلمَّا دنا من ناديهم بحيث يُسْمِعُهم الصوتَ، قالوا: ما وراءك؟ قال: هَلَكوا جميعاً. فخرج عبد المطلب وأصحابُه، فأخذوا أموالَهم. وكانت أموالُ بني عبدِ المطَّلبِ منها، وبها تَكامَلَتْ رياسةُ عبدِ المطَّلب؛ لأنَّه احْتَمَل ما شاء من صفراءَ وبيضاء، ثم خرج أهلُ

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٩٦٨.

(٢) أخرجه ابن إسحاق في السير والمغازي ص ٦٥، والبزار (١١٧٦ ـ كشف). وهو في سيرة ابن هشام ١/ ٥٧. ووقع في هذه المصادر: وسائسه، بدل: وسائقه.

(٣) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٣٤٣، وعزاه السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٣٩٦ لابن مردويه وأبي نعيم.

(٤) في النسخ: مشدخين، والمثبت من المصادر، على ما يأتي.

مكة بعده ونهبوا[١].

وقيل: إنَّ عبد المطلب حَفَر حفرتين فملأهما من الذهب والجوهر، ثم قال لأبي مسعودٍ الثقفيّ ـ وكان خليلاً لعبد المطلب ـ: اخترْ أيَّهما شئت. ثم أصاب الناسُ من أموالهم حتى ضاقوا ذرعاً[٢]، فقال عبد المطلب عند ذلك:

أنتَ مَنَعْتَ الحُبْشَ والأفْيالا وقد رَعَوا بمكةَ الأجْبالا

وقد خَشِينا منهمُ القتالا وكلَّ أمرٍ لهمُ مِعضَالَا

شُكْرًا وحَمْدًا لك ذا الجلالا[٣]

قال ابن إسحاق: ولمَّا ردَّ الله الحَبَشةَ عن مكةَ عَظَّمت العرب قريشاً، وقالوا: [هم] أهلُ الله، قاتَلَ عنهم، وكفاهم مؤونةَ عدوِّهم[٤]. وقال عبد الله بن عمرو بن مخزوم في قصة أصحاب الفيل:

أنت الجليلُ ربَّنا لم تُدْنِسِ أنت حَبَسْتَ الفيلَ بالمُغَمَّسِ

من بعد ما هَمَّ بشرٌّ مُبْلِس حَبَسْتَه في هيئة المُكَرْكَسِ

وما لهم من فَرَجٍ ومنفسِ[٥]

والمكَرْكَس: المنكوس المطروح.

قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣﴾

قال سعيد بن جبير: كانت طيراً من السماء لم يُرَ قبلها ولا بعدها مثلُها[٦].

---

(١) النكت والعيون ٦/ ٣٤١ ، وهو قطعة من خبر طويل في قصة الفيل أخرجه أبو نعيم في دلائل النبوة (٨٦) عن عثمان بن المغيرة.

(٢) ذكره الثعلبي في عرائس المجالس ص ٤٤٨ ، والبغوي ٤/ ٥٢٨ عن مقاتل مطولاً.

(٣) دلائل النبوة لأبي نعيم (٨٦)، والنكت والعيون ٦/ ٣٤٢ . ووقع في (د) و(ز) و(ظ) والدلائل: الجيش، بدل: الحبش.

(٤) سيرة ابن هشام ١/ ٧٥ ، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٥) النكت والعيون ٦/ ٣٤٠ .

(٦) النكت والعيون ٦/ ٣٤٢ .

وروى جويبر عن الضحاك عن ابن عباس، قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إنَّها طيرٌ بين السماءِ والأرضِ تُعَشِّشُ وتُفَرِّخ»[١].

وعن ابن عباس: كان لها خراطيمُ كخراطيم الطير، وأكُفٌّ كأكُفّ الكلاب[٢].

وقال عِكرمةُ: كانت طيراً خُضْرًا، خرجت من البحر، لها رؤوسٌ كرؤوسِ السِّباع، ولم تُرَ قبلَ ذلك ولا بعده[٣]. وقالت عائشةُ رضي الله عنها: هي أَشْبهُ شيءٍ بالخطاطيف[٤]. وقيل: بل كانت أشباهَ الوطاويط، حمراءَ وسوداء[٥].

وعن سعيد بن جبير أيضًا: هي طيرٌ خُضْرٌ لها مَناقيرُ صُفْرٌ[٦]. وقيل: كانت بِيضًا.

وقال محمد بن كعب: هي طيرٌ سودٌ بَحْرِيَّةٌ، في مناقيرها وأظفارِها الحجارة[٧]. وقيل: إنَّها العنقاءُ المُغْرِبُ التي تُضْرَبُ بها الأمثالُ؛ قاله عِكرمة[٨].

«أبابِيل» أي: مجتمعة. وقيل: مُتتابعة، بعضُها في إثْرِ بعضٍ؛ قاله ابن عباس ومجاهد. وقيل: مختلفة متفرِّقة، تَجيءُ من كلِّ ناحيةٍ، من هاهنا وهاهنا؛ قاله ابن مسعود وابن زيد والأخفش[٩].

قال النحاس: وهذه الأقوالُ مُتَّفِقةٌ، وحقيقةُ المعنى: أنَّها جماعاتٌ عِظامٌ؛

---

(١) المصدر السابق، وجويبر ضعيف جدًّا، كما ذكر الحافظ في التقريب.

(٢) أخرجه ابن إسحاق في السير والمغازي ص ٦٥ ، والطبري ٢٤/ ٦٣٠ و٦٣١ .

(٣) أخرجه البيهقي في الدلائل ١/ ١٢٣ ، وعزاه السيوطي في الدر المنثور لسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن أبي حاتم، وأخرجه الطبري ٢٤/ ٦٣١ دون قوله: لم تر قبل ذلك ولا بعده.

(٤) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٣٤٢ .

(٥) قطعة من خبر طويل في قصة الفيل أخرجه أبو نعيم في دلائل النبوة (٨٦).

(٦) أخرجه الطبري ٢٤/ ٦٣٢ .

(٧) أخرجه الطبري ٢٤/ ٦٣١ عن عبيد بن عمير.

(٨) النكت والعيون ٦/ ٣٤٢ ، وهو بنحوه عن عكرمة في تفسير مجاهد ٢/ ٧٨٤ . والعنقاء المُغرب: طائر عظيم معروفُ الاسم مجهول الجسم لم يره أحد. النهاية (عنق).

(٩) ذكر هذه الأقوال الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٣٤٢ ، وأخرجها عدا قول الأخفش الطبري ٢٤/ ٦٢٨ - ٦٣٠ .

يقال: فلانٌ يؤبِّلُ على فلان، أي: يعظُمُ عليه ويُكْثِر، وهو مشتقٌّ من الإبل.

واختلف في واحدِ «أبابيل»؛ فقال الجوهريُّ: قال الأخفش: يقال: جاءت إبِلُكَ أبابيل، أي: فِرقًا، وطيرٌ أبابيل. قال: وهذا يجيءُ في معنى التكثير، وهو من الجمع الذي لا واحدَ له. وقال بعضُهم: واحدُه إبَّوْل، مثل: عِجَّوْل. وقال بعضهم(١): إبِّيل مثل سِكِّين. قال: ولم أَجِدِ العربَ تعرِفُ له واحدًا.

في غير «الصحاح»: وقيل في واحدِه: إبَّال. وقال رؤبةُ بن العجَّاج في الجمع:

ولعبتْ طيرٌ بِهِمْ أبابيلْ فصُيِّروا مِثْلَ كَعَصْفٍ مَأْكُولْ(٢)

وقال الأعشى:

طَرِيقٌ وجَبَّارٌ رِواءٌ أُصولُهُ عليه أبابيلٌ مِن الطَّيْرِ تَنْعَبُ(٣)

وقال آخر:

كادت تُهَدُّ من الأصواتِ راحلتي إذ سالتِ الأرضُ بالجُرْدِ الأبابيلِ(٤)

وقال آخر:

تَراهُمْ إلى الدَّاعي سِرَاعًا كأنَّهُمْ أبابيلُ طَيرٍ تَحْتَ دَجْنٍ مُسَجَّنِ(٥)

قال الفرَّاء: لا واحدَ له مِن لَفْظِه، وزعم الرُّؤاسيُّ [لي](٦) - وكان ثقةً - أنه سمع

---

(١) بعدها في (م): وهو المبرد، والمثبت من النسخ الخطية، وهو الموافق لما في الصحاح (أبل)، وذكره عن المبرد النحاس في إعراب القرآن ٥/ ٢٩٢.

(٢) سيأتي قريباً.

(٣) ديوان الأعشى ص ٢٥١. قوله: وجبار، الجبار هو النخلة الطويلة الفتية، وتضم. القاموس (جبر). وقال شارح الديوان: ونخلك الطويل المرتفع الضخمُ الجذوعِ، تحط عليه من الطيور أسراب، تتجاوب أصواتها بالتنعاب.

(٤) سلف ٥/ ٤٢٠.

(٥) في (د) و(ي) و(م): مسخن، والمثبت من (د) و(ظ) وفتح القدير ٥/ ٤٩٦. وهو في مجمع البيان ٣٠/ ٢٣٨ برواية: تحت داجن مدَجَّن، ونسبه الطبرسي لامرئ القيس، ولم نقف عليه في ديوانه. قوله: دجن، الدَّجْن هو إلباس الغيم السماء، والمطرُ الكثير. الصحاح (دجن).

(٦) ما بين حاصرتين زيادة في معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٩٢، والرؤاسي هو أبو جعفر الكوفي النحوي أستاذ الكسائي. إنباه الرواة ٤/ ٩٩.

في واحدها «إبَّالة» مشدَّدة. وحكى الفرَّاء: «إبَالة» مخفَّفًا. قال: وسمعتُ بعضَ العرب يقول: ضِغْثٌ علَى إبَّالة. يريد: خِصْباً على خِصْبٍ[١]. قال: ولو قال قائل: إيبالة، كان صواباً، مثل: دينار ودنانير.

وقال إسحاق بن عبد الله بن الحارث بن نوفل: الأبابيل: مأخوذٌ من الإبل المؤبَّلة، وهي الأقاطيع[٢].

قوله تعالى: ﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤﴾

في «الصحاح»: «حجارة من سِجِّيل» قالوا: حجارة من طين، طُبِخَتْ بنارِ جهنَّمَ، مكتوب فيها أسماءُ القوم؛ لقوله تعالى: ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾ [الذاريات: ٣٣][٣].

وقال عبد الرحمن ابن أَبْزَى: «مِن سِجِّيل»: من السماء، وهي الحجارةُ التي نزلت على قومِ لوط[٤].

وقيل: من الجحيم، وهي «سِجِّين» ثم أُبْدِلت اللامُ نونًا، كما قالوا في أصَيْلان: أُصيلال. قال ابن مقبِل:

ضَرْباً تَواصَتْ به الأبطالُ سِجِّينَا[٥]

---

(١) كذا شرحه الفراء. وذكر أبو عبيد في الأمثال ص ٢٦٤ عن الأصمعي قال: الإبَالة: الحزمة من الحطب، والضغث: الجرزة التي فوقها، يقول: هي بلية على أخرى كانت قبلها. ومثله في مجمع الأمثال للميداني ١/ ٤١٩، وقال الميداني: وبعضهم يقول: إبَالة مخففاً. وفي جمهرة الأمثال ٢/ ٦، والمستقصى ٢/ ١٤٨: يضرب لمن حمَّلك مكروهاً، ثم زادك عليه.

(٢) النكت والعيون ٦/ ٣٤٣، وأخرجه بنحوه الطبري ٢٤/ ٦٢٩. والأقاطيع جمع على غير قياس للقطيع، وهو الطائفة من الغنم والنعم. القاموس (قطع).

(٣) الصحاح (سجل).

(٤) أخرجه الطبري ٢٤/ ٦٣٥ إلا أنه فيه عن عبد الرحمن بن زيد، وزاد فيه: والسماء الدنيا اسمها سجيل. قال الطبري: وهذا القول لا نعرف لصحته وجهاً في خبر ولا نقل ولا لغة.

(٥) وصدره: ورجلة يضربون البَيْضَ عن عُرُضٍ. وهو في ديوان ابن مقبل ص ٣٣٣، وسلف ١١/ ١٨٨.

وإنَّما هو: سِجِّيلاً. وقال الزجاج: «مِن سِجِّيل» أي: مما كُتب عليهم أن يُعَذَّبوا به، مشتقٌّ من السِّجِلّ[١]. وقد مضى القولُ في سِجِّيل في «هود» مستوفًى[٢].

قال عِكرمةُ: كانت ترميهم بحجارةٍ معها، فإذا أصاب أحدَهم حجرٌ منها خرج به الجُدَرِيُّ، لم يُر قبلَ ذلك اليوم[٣]. وكان الحجر كالحِمِّصة وفوق العدسة.

وقال ابن عباس: كان الحجر إذا وقع على أحدهم نَفِط جِلْدُه، فكان ذلك أوَّلَ الجُدرِيّ[٤].

وقراءةُ العامَّةِ: «تَرْمِيهِمْ» بالتاء؛ لتأنيثِ جماعةِ الطير. وقرأ الأعرج وطلحة: «يَرْمِيهم» بالياء[٥]، أي: يرميهم الله، دليلُه قولُه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال:١٧]. ويجوزُ أن يكون راجعًا إلى الطير؛ لخلوِّها من علامات التأنيث، ولأنَّ تأنيثَها غيرُ حقيقيٍّ.

قوله تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝٥﴾

أي: جعل الله أصحابَ الفيلِ كورقِ الزرعِ إذا أكَلَته الدوابُّ فرَمَتْ به من أسفل. شبَّه تَقَطُّعَ أوصالِهم بتَفرُّقِ أجزائه. رُوي معناه عن ابن زيد وغيرِه[٦]. وقد مضى القولُ في العَصْف في سورة الرحمن[٧]. وممَّا يدلُّ على أنَّه ورقُ الزَّرعِ قولُ علقمةَ:

تَسْقي مَذانِبَ قدْ مالتْ عَصِيفَتُها حُدورُها من أَتيِّ الماءِ مَطْمُومُ[٨]

---

(١) بنحوه في معاني القرآن للزجاج ٣/ ٧١ . وقال الزجاج ٥/ ٣٦٤ عند شرح هذه الآية: من سجيل، أي: من شديدِ عذابه، والعرب إذا وصفت المكروه بالسجيل كأنها تعني به الشدة.

(٢) ١١/ ١٨٦ - ١٨٧ .

(٣) أخرجه الطبري ٢٤/ ٦٣٣ ، وأبو نعيم في الحلية ٣/ ٣٣٣ ، والبيهقي في الدلائل ١/ ١٢٣ .

(٤) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٣٩٦ .

(٥) القراءات الشاذة ص ١٨٠ .

(٦) تفسير الطبري ٢٤/ ٦٤٤ - ٦٤٥ .

(٧) عند تفسير الآية (١٢) منها.

(٨) ديوان علقمة ص ٥٥ . وفيه: قد زالت عصيفتها...، قال الأعلم الشنتمري شارح الديوان: قوله: =

وقال رؤبة بن العجاج:

وَمَسَّهُمْ ما مَسَّ أَصْحابَ الفيلْ تَرْمِيهِمُ حِجارةٌ مِنْ سِجِّيلْ
ولَعِبَتْ طَيرٌ بهِمْ أَبابيلْ فَصُيِّروا مِثلَ كَعَصْفٍ مَأْكُولْ[(١)]

العَصْف: جمع، واحدتُه: عَصْفة وعُصافة وعَصِيفة. وأدخل الكافَ في «كَعَصْف» للتشبيه مع مثل، نحو قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١][(٢)].

ومعنى «مأكول»: مأكولٌ حَبُّه. كما يقال: فلان حسن، أي: حَسَنٌ وجهُه.

وقال ابن عباس: «فجعلهم كعَصْفٍ مأكول» إنَّ المراد به قشرُ البرِّ، يعني الغِلافَ الذي تكون فيه حبةُ القمح[(٣)]. ويُروى أن الحجر كان يقع على أحدهم فيُخرِجُ كلَّ ما في جوفه، فيبقى كقِشْرِ الحنطةِ إذا خرجت منه الحبة.

وقال ابن مسعود: لمَّا رمت الطيرُ بالحجارة، بعث الله ريحاً فضربت الحجارةَ فزادتها شدّة، فكانت لا تقع على أحدٍ إلَّا هلك، ولم يسلَم منهم إلَّا رجلٌ من كِندة، فقال:

فَإنَّكِ لَوْ رأيتِ ولم تَريهِ[(٤)] لدى[(٥)] جنبِ المُغَمّسِ ما لَقِينا
خَشِيتُ اللهَ إذْ قد بَثَّ طيراً وظِلَّ سحابةٍ مَرَّتْ علينا

= قد زالت عصيفتها، أي: تفرق ورقُها، وانفتحت وتباينت من الريِّ. والعصيفة: الورق. والمذانب: مسايل الماء. وحدورها: ما انحدر منها واطمأن. والأتيُّ: الجدول. والمطموم: المملوء بالماء.

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٥٥، والخزانة ١٠/ ١٨٩، والأبيات في ملحقات ديوان رؤبة ص ١٨١، والبيت الأخير نسبه سيبويه في الكتاب ١/ ٤٠٨ لحميد الأرقط، وهو بلا نسبة في المقتضب ٤/ ١٤١، وسر صناعة الإعراب ١/ ٢٩٦.

(٢) أي: أنه أكد الشَّبَه بزيادة الكاف، إلا أنه في الآية أدخل الحرف على الاسم، وفي البيت أدخل الاسم وهو «مثل» على الحرف وهو الكاف، والتقدير: فصُيِّروا مثلَ مثلِ عصفٍ مأكول. ينظر سر صناعة الإعراب ١/ ٢٩٦، وشرح شواهد الكتاب للشنتمري ص ٢٣٧.

(٣) أخرجه الطبري ٢٤/ ٦٤٥ بنحوه.

(٤) في النسخ: ولو ترانا، بدل: ولم تريه، والمثبت من النكت والعيون ٦/ ٣٤٣، والكلام منه.

(٥) في النسخ الخطية: لذي، والمثبت من (م)، وهو الموافق لما في النكت والعيون.

وباتتْ كلُّها تدعو بحَقٍّ كأنَّ لها على الحُبْشانِ دَيْنَا

ويُروى أنَّها لم تُصِبْهم كلَّهم، لكنَّها أصابت مَن شاء اللهُ منهم. وقد تقدَّم أنَّ أميرهم رجع وشِرْذمةً لطيفةً معه، فلمَّا أخبروا بما رَأَوْا هلكوا. فالله أعلم.

وقال ابن إسحاق[1]: لمَّا ردَّ الله الحبشةَ عن مكة، عَظَّمت العربُ قريشاً وقالوا: أَهلُ اللهِ، قاتَلَ عنهم، وكفاهم مؤونةَ عدوِّهم؛ فكان ذلك نعمةً من الله عليهم.

تفسير سورة «قريش»

مكيةٌ في قولِ الجمهور. ومدنيةٌ في قولِ الضحاكِ والكلبيّ[2]، وهي أربعُ آيات.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ①﴾

قيل: إنَّ هذه السورةَ متَّصلةٌ بالتي قبلها في المعنى؛ يقول: أهلكتُ أصحابَ الفيلِ لإيلاف قريش؛ أي: لتأتَلفَ قريش، أو لتتَّفقَ قريش، أو لكي تأمَن قريشٌ فتُؤْلِف[3] رحلتيها. وممن عدَّ السورتين واحدةً أبيّ بن كعب، ولا فَصْلَ بينهما في مُصْحَفِه[4]. وقال سفيان بن عيينة: كان لنا إمامٌ لا يَفْصِلُ بينهما، ويقرؤهما معا.

وقال عمرو بن ميمون الأَوْدِيُّ: صلَّينا المغربَ خَلْفَ عمرَ بنِ الخطاب ﷺ؛ فقرأ في الأولى: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ﴾ وفي الثانية: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ﴾ و﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾[5].

---

(١) سلف قوله ص٤٨٩ من هذا الجزء.

(٢) زاد المسير ٩/ ٢٣٨.

(٣) يعني تألَف؛ يقال: أَلِفَ يأْلَف، وآلَفَ يؤلِف، وسيأتي.

(٤) الكشاف ٤/ ٢٨٧، وتفسير البغوي ٤/ ٥٢٩.

(٥) سلف ص٣٦٧ من هذا الجزء. قال الرازي ٣٢/ ١٠٤: أما قراءة عمر فإنها لا تدل على أنهما سورة واحدة لأن الإمام قد يقرأ سورتين. وأما القول أن أبيًّا لم يفصل بينهما فهو معارَضٌ بإطباق الكل على الفصل بينهما.

وقال الفرَّاء: هذه السورةُ متّصلةٌ بالسورة الأولى؛ لأنه ذكَّر أهلَ مكةَ عظيمَ نعمتِه عليهم فيما فَعَلَ بالحبشة، ثم قال: «لإيلاف قُرِيش» أي: فعلنا ذلك بأصحاب الفيل نعمةً منَّا على قريش[١].

وذلك أنَّ قريشًا كانت تخرج في تجارتها، فلا يُغارُ عليها ولا تُقْرَبُ في الجاهلية. يقولون: هم أهلُ بيتِ اللهِ جلَّ وعزَّ، حتى جاء صاحبُ الفيلِ ليهدمَ الكعبة، ويأخذَ حجارتها فيبني بها بيتاً في اليمن يَحُجُّ الناس إليه، فأهلكهم الله عزَّ وجلَّ، فذكَّرهم نِعْمتَه، أي: فجعل الله ذلك لإيلاف قريش، أي: ليألَفوا الخروجَ ولا يُجْتَرأ عليهم، وهو معنى قولِ مجاهدٍ، وابنِ عباس في رواية سعيد بن جبير عنه؛ ذكره النحاس: حدَّثنا أحمد بن شُعيب، قال: أخبرني عمرو بن عليٍّ، قال: حدَّثني عامر بنُ إبراهيم - وكان ثقةً من خيار الناس - قال: حدَّثني خطاب بنُ جعفر بن أبي المغيرة، قال: حدَّثني أبي، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، في قوله تعالى: «لإيلافِ قريشٍ» قال: نعمتي على قريشٍ إيلافُهُمْ رحلةَ الشتاءِ والصيف. قال: كانوا يَشْتون بمكة، ويَصِيفون بالطائف[٢]. وعلى هذا القولِ يجوزُ الوقفُ على رؤوس الآي وإنْ لم يكن الكلام تامًّا، على ما نبيِّنه أثناء السورة.

وقيل: ليست بمتَّصلةٍ؛ لأنَّ بين السورتين: «بسم الله الرحمن الرحيم»، وذلك دليلٌ على انقضاء السورةِ وافتتاح الأخرى، وأنَّ اللامَ متعلِّقةٌ بقوله تعالى: «فلْيعبدوا»، أي: فليعبدوا هؤلاء ربَّ هذا البيت، لإيلافهم رحلةَ الشتاء والصيف للامتيار.[٣] وكذا قال الخليل: ليست متَّصلةً، كأنه قال: آلَف الله قريشًا إيلافًا فليعبدوا ربَّ هذا البيت[٤]. وعَمِل ما بعدَ الفاء فيما قَبْلَها لأنَّها زائدةٌ غيرُ عاطفةٍ،

---

(١) بنحوه في معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٩٢ .

(٢) السنن الكبرى للنسائي (١١٦٣٥)، وأخرجه الطبري ٢٤/ ٦٤٨ مختصراً عن عمرو بن علي به.

(٣) أي: لجلب الطعام. القاموس (مير). والكلام بنحوه في معاني القرآن للزجاج ٥/ ٣٦٥ .

(٤) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٨٤٥ ، وينظر الكتاب ٣/ ١٢٧ .

كقولك: زيداً فاضْرِبْ.

وقيل: اللامُ في قوله تعالى: «لإيلافِ قريش» لامُ التعجُّبِ، أي: اعْجَبوا لإيلافِ قريش [رحلةَ الشتاء والصيف، وتَرْكِهم عبادةَ ربِّ هذا البيت]؛ قاله الكسائيُّ والأخفش[١]. وقيل: بمعنى إلى[٢].

وقرأ ابن عامر: «لإلافِ قريشٍ» مهموزاً مختلَساً بلا ياء[٣]. وقرأ أبو جعفر والأعرج: «لِيْلَافِ»[٤] بلا همزٍ طَلَباً للخفَّة. الباقون: «لإيلاف» بالياء مهموزاً مُشْبَعاً، من آلَفْتُ أُولِفُ إيلافاً؛ قال الشاعر:

الـمُـنْـعِـمِـيـن إذا الـنـجـومُ تـغـيَّـرتْ ... والـظَّـاعـنـيـنَ لـرحـلـةِ الإيـلافِ[٥]

ويقال: أَلِفْتُه إلْفاً وإلَافاً. وقرأ أبو جعفر أيضاً: «لإِلْفِ قُرَيشٍ»[٦] وقد جمعهما مَن قال:

زَعَـمْـتُـمْ أنَّ إخـوتَـكُـمْ قُـرَيـشٌ ... لـهـم إلْـفٌ ولـيـس لـكـم إلافُ[٧]

قال الجوهريُّ[٨]: وفلانٌ قد أَلِفَ هذا الموضعَ ـ بالكسر ـ يَأْلَفُه إلْفًا، وآلَفَه إياه

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٥٢٩ ، وما بين حاصرتين منه، وذكر هذا القول ابن الجوزي في زاد المسير ٩/ ٢٣٩ عن الكسائي والأعمش، وهو دون نسبة في إعراب القرآن للنحاس ٥/ ٢٩٣ ، ومشكل إعراب القرآن ٢/ ٨٤٥ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٥٢٦ .

(٢) والمعنى: ففَعَلْنا بأصحاب الفيل هذا الفعلَ نعمةً منا على أهل هذا البيت، إلى نعمتنا عليهم في رحلة الشتاء والصيف. ينظر معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٩٣ ، وتفسير الطبري ٢٤/ ٦٤٧ .

(٣) السبعة ص ٦٩٨ ، والتيسير ص ٢٢٥ .

(٤) النشر ٢/ ٤٠٣ .

(٥) البيت لمطرود بن كعب الخزاعي، كما في سيرة ابن هشام ١/ ٥٦ و١٧٨ .

(٦) الكشاف ٤/ ٢٨٧ ، وتفسير الرازي ٣٢/ ١٠٥ .

(٧) البيت لمسَاوِر بن هند، كما في شرح ديوان الحماسة للتبريزي ٤/ ١٢ ، والخزانة ١١/ ٤١٩ ، ودون نسبة في دلائل الإعجاز للجرجاني ص ٢٣٦ ، وثمار القلوب للثعالبي ص ١١٧ ، والكشاف ٤/ ٢٨٧ ، والكلام منه. والشعر في هجاء بني أسد، قال التبريزي: يقول: زعمتم أنكم مثل قريش، وكيف تكونون مثلهم ولهم تجارة اليمن والشام وليس لكم ذلك.

(٨) في الصحاح (ألف).

غيرُه. ويقال أيضاً: آلَفتُ الموضعَ أُولِفه إيلافًا. وكذلك: آلَفْتُ الموضعَ أؤالفُه مُؤالفةً وإلافًا، فصار صورةُ أَفْعلَ وفاعَلَ في الماضي واحدةً.

وقرأ عِكرمةُ: «لَيَأْلَفْ» بفتح اللامِ على الأمر ـ وكذلك هو في مصحفِ ابن مسعود ـ وفتحُ لامِ الأمرِ لغةٌ حكاها ابنُ مجاهدٍ وغيره[1]. وكان عكرمةُ يَعيبُ على مَن يقرأ: «لإيلاف قريش»[2].

وقرأ بعضُ أهلِ مكة: «إلاف قريش» واسْتَشْهَد بقولِ أبي طالبٍ يوصي أخاه أبا لهبٍ برسول الله ﷺ:

فَلا تُتْرِكَنْه ما حَيِيْتَ لِمُعْظَمٍ ... وكُنْ رجلاً ذا نَجْدةٍ وعَفافِ
تَذودُ العِدا عن عُصْبةٍ هاشميةٍ ... إلَافُهم في الناس خيرُ إلَافِ[3]

وأمَّا قريشٌ فهم بنو النَّضْر بنِ كنانَة بنِ خزيمةَ بنِ مدرِكَة بن إلياسَ بنِ مُضَر. فكلُّ مَن كان مِن وَلدِ النضرِ فهو قرشيٌّ، دون بني كِنانَة ومَن فوقه. وربَّما قالوا: قُرَيْشِيّ، وهو القياسُ؛ قال الشاعر:

بكلِّ قُرَيْشِيٍّ عليه مَهابةٌ[4]

فإنْ أردتَ بقريشٍ الحيَّ صَرَفْتَه، وإنْ أردتَ به القبيلةَ لم تَصْرِفْه؛ قال الشاعر:

وكَفَى قُرَيشَ المُعْضِلاتِ وسادَها[5]

---

(١) القراءات الشاذة ص ١٨٠، دون قوله: وكذلك هو في مصحف ابن مسعود.

(٢) النكت والعيون ٦/ ٣٤٦.

(٣) النكت والعيون ٦/ ٣٤٦، وسلفت القراءة عن ابن عامر، والبيتان ذكرهما ابن إسحاق في السير والمغازي ص ٢٠٨، وفيه أن أبا طالب قالهما في مدح عتبة بن ربيعة حين رد على أبي جهل فقال: ما تنكِرُ أن يكون محمد نبيًّا.

(٤) وعجزه: سريع إلى داعي الندى والتكرُّم. وهو في الكتاب ٣/ ٣٣٧، والصحاح (قرش) والكلام منه، والحلل في شرح أبيات الجمل للبطليوسي ص ٣٣٨، والإنصاف لابن الأنباري ١/ ٣٥٠، وشرح المفصل ٦/ ١١. ووقع في الكتاب: بكل قريشي إذا ما لقيته...، وقال البطليوسي: لا أعلم قائله.

(٥) وصدره: غلب المسامحَ الوليدُ سماحة، كما في الصحاح (قرش)، والكلام منه، والبيت لعدي بن الرقاع، كما في الكامل للمبرد ٢/ ١٠٤٦، وشروح شواهد الكتاب للشنتمري ص ٤٦٠، والخزانة ١/ ٢٠٣، ودون نسبة في الكتاب ٣/ ٢٥٠. والبيت في: مدح الوليد بن عبد الملك كما ذكر الشنتمري وقال: والمساميح جمع سَمْح على غير قياس.

والتَّقْرِيش: الاكتساب، وتَقَرَّشوا، أي: تَجمَّعوا. وقد كانوا متفرِّقين في غير الحرم، فجمعهم قُصَيّ بنُ كلاب في الحرم، حتى اتَّخذوه مَسْكناً؛ قال الشاعر:

أبونا قُصَيٌّ كان يُدْعَى مَجَمِّعًا ... به جَمَعَ اللهُ القبائلَ من فِهرِ[(١)]

وقد قيل: إنَّ قريشاً بنو فِهْر بنِ مالك بن النَّضر. فكلُّ مَن لم يَلِدْه فِهْرٌ فليس بقرشيٍّ. والأوّلُ أصحُّ وأثْبتُ. وقد روي عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «إنَّا ولدُ النضرِ بنِ كنانَة لا نَقْفو أُمَّنا، ولا نَنْتفي من أبينا»[(٢)]. وقال واثلةُ بنُ الأسْقَعِ: قال النبيُّ ﷺ: «إنَّ اللهَ اصْطَفَى كِنَانةَ مِن وَلَدِ إسماعيلَ، واصْطَفَى من بني كنانةَ قريشاً، واصْطَفَى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم». صحيحٌ ثابتٌ، خرَّجه البخاريُّ ومسلمٌ وغيرُهما[(٣)].

واختُلِف في تَسْمِيتهم قريشاً على أقوال: أحدها: لتَجَمُّعِهم بعد التفرُّقِ، والتقرُّش: التجمُّع والالتئام. قال أبو جِلْدةَ اليَشْكُريُّ:

إخوةٌ قَرَّشُوا الذنوبَ علينا ... في حديثٍ مِن دَهْرِهمْ وقديمِ[(٤)]

الثاني: لأنَّهم كانوا تجاراً يأكلون من مكاسبهم. والتَّقَرُّش: التكسُّب[(٥)]. وقد قَرَشَ يَقْرِشُ قَرْشاً، إذا كسب وجمع. قال الفرَّاء: وبه سمِّيت قُرَيش[(٦)].

الثالث: لأنَّهم كانوا يفتِّشون الحاجَّ عن[(٧)] ذي الخَلَّةِ، فيسدُّون خَلَّته. والقَرْش: التفتيش. قال الشاعر:

---

(١) نسب لمطرود بن كعب الخزاعي، كما في زهر الآداب للقيرواني ١/ ٢٥٠ ، والأوائل للعسكري ١/ ١٣ . ونسبه محمد بن حبيب في المنمق ص ٨٤ لحذافة بن غانم. ونسبه صاحب الخزانة ١/ ٢٠٣ للفضل بن العباس بن عتبة بن أبي لهب. وهو دون نسبة في سيرة ابن هشام ١/ ١٢٦ ، والاشتقاق ص ١٥٥ ، ووقع في بعض المصادر: أبوكم قصي، وفي أخرى: قصي أبوكم، وفي السيرة: قصي لعمري.

(٢) أخرجه أحمد (٢١٨٣٩)، وابن ماجه (٢٦١٢) من حديث الأشعث بن قيس ﷺ، وسلف ١٣/ ٧٨ .

(٣) صحيح مسلم (٢٢٧٦)، وهو عند أحمد (١٦٩٨٦)، وليس في صحيح البخاري، وسلف ١٠/ ٤٤٠ .

(٤) سيرة ابن هشام ١/ ٩٤ ، والنكت والعيون ٦/ ٣٤٦ .

(٥) النكت والعيون ٦/ ٣٤٦ .

(٦) الصحاح (قرش).

(٧) في (م): من، والمثبت من النسخ الخطية، والنكت والعيون ٦/ ٣٤٦ ، والكلام منه.

أيُّها الشامتُ المقرِّشُ عنا عند عمرو فهلْ له إبقاءُ(١)

الرابع: ما روي: أنَّ معاوية سأل ابن عباس: لم سُمِّيتْ قريشٌ قريشاً؟ فقال: لدابَّةٍ في البحر من أقوى دوابِّه، يقال لها: القِرش، تأكل ولا تؤكل، وتعلو ولا تُعلَى. وأنشد قولَ تُبَّع:

وقريشٌ هي التي تسكنُ البحـ ـرَ بها سمِّيتْ قريشٌ قريشا
تأكلُ الغَثَّ(٢) والسمينَ ولا تتـ ـرك فيها لذي جناحين رِيشا
هكذا في البلاد حيُّ قُرَيشٍ يأكلون البلادَ أكلاً كميشا
ولهم آخرَ الزمانِ نبيٌّ يُكْثِرُ القتلَ فيهم والخُموشا(٣)

قوله تعالى: ﴿إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢﴾

قرأ مجاهدٌ وحميد: «إلْفِهم» ساكنةَ اللامِ بغيرِ ياءٍ. وروي نحوُه عن ابن كثير(٤). وكذلك روتْ أسماءُ أنَّها سمعتْ رسولَ الله ﷺ يقرأ: «إلفِهم»(٥). وروي عن ابن عباس وغيره.

---

(١) النكت والعيون ٦/ ٣٤٦ ، والبيت من معلقة الحارث بن حلِّزة اليشكري، وهو في المعاني الكبير لابن قتيبة ٢/ ٨٧٢ ، وتهذيب اللغة ٨/ ٣٢٢ ، وشرح المعلقات للنحاس ٢/ ٦٣ ، وللتبريزي ص ٢٩٩ ، وللزوزني ص ١٥٨ ، وروايته في هذه المصادر: أيها الناطق... وهل لذاك بقاء، ووقع في شروح المعلقات والمعاني الكبير: المرقِّش، والمقرِّش رواية أبي عمرو كما ذكر ابن قتيبة، وقال: هو المحرش. وقال التبريزي: المرقِّش: المزيِّن القولَ بالباطل، ويقال: إنه يخاطب بها عمرو بن كلثوم، ومعنى وهل لذاك بقاء: أن الباطل لا يبقى.

(٢) في النسخ: الرث، والمثبت من المصادر على ما يأتي.

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (١٠٥٨٩)، والواحدي في الوسيط ٤/ ٥٥٦ ، وذكره الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٣٠٠ - ٣٠١ ، ونسب المرزباني الشعر في معجم الشعراء ص ٤٣٦ للمُشَمْرج بن عمرو الحميري، قال: وقد روي لغيره. وذكر ياقوت في معجم البلدان ٤/ ٣٣٦ - ٣٣٧ هذا الخبر مختصراً وقال: وهذا الوجه عندي بارد، والشعر مصنوع جامد.

(٤) القراءات الشاذة ص ١٨٠ .

(٥) أخرجه حفص الدوري في قراءات النبي ﷺ (١٣٣)، والطبري ٢٤/ ٦٤٧ ، وذكره ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ١٨٠ ، وفي إسناده ليث بن أبي سليم وشهر بن حوشب وهما ضعيفان.

وقرأ أبو جعفر والوليد عن أهل الشام وأبو حيوَةَ: «إلَافِهم» مهموزًا مختلَساً بلا ياءٍ[1].

وقرأ أبو بكر عن عاصم: «إئْلافهم» بهمزتين، الأولى مكسورةٌ والثانيةُ ساكنة. والجمعُ بين الهمزتين في الكلمتين شاذٌّ[2].

الباقون: «إيلافهم» بالمدِّ والهمز، وهو الاختيارُ، وهو بدلٌ من الإيلاف الأوّلِ للبيان. وهو مصدرُ آلَفَ: إذا جَعَلْته يَألَفُ. وأَلِفَ هو إلْفًا؛ على ما تقدَّم ذِكْرُه من القراءة، أي: وما قد أَلِفوه من رحلةِ الشتاءِ والصيف.

روى ابن أبي نجيح عن مجاهد في قوله تعالى: «إيلافِهم رِحلةَ الشتاء والصيف» قال: لا يشُقُّ عليهم رحلةُ شتاءٍ ولا صيفٍ، منَّة منه على قريش[3].

وقال الهَرَوِيُّ وغيره: وكان أصحابُ الإيلافِ أربعةَ إخوةٍ: هاشمٌ، وعبدُ شمسٍ، والمطَّلبُ، ونوفلٌ، بنو عبد مناف. فأمَّا هاشمٌ فإنَّه كان يُؤلفُ مَلِك الشام[4]؛ أي: أخذ منه حبلاً وعهداً يأمنُ به في تجارته إلى الشام. وأخوه عبدُ شمسٍ كان يُؤلفُ إلى الحَبشة. والمطَّلبُ إلى اليمن. ونوفل إلى فارس. ومعنى يُؤلفُ: يُجير. فكان هؤلاء الإخوة يسمَّوْن المُجِيرين. فكان تجارُ قريش يختلفون إلى الأمصار بحَبْلِ هؤلاء الإخوة، فلا يُتَعَرَّضُ لهم[5].

قال الأزهريُّ: الإيلاف: شبهُ الإجازةِ بالخَفَارة[6]؛ يقال: آلَفَ يُؤْلِف وألَّف

---

(١) النشر ٢/ ٤٠٣.

(٢) قال ابن مجاهد في السبعة ص٦٩٨: قرأ عاصم في رواية أبي بكر: «لإئلاف قريش إئلافهم» بهمزتين الثانية ساكنة، ثم رجع عنه فقرأ مثل حمزة بهمزة واحدة. اهـ. وقراءة حمزة: «لإيلاف قريش إيلافهم». والقراءة بهمزتين ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ١٨٠.

(٣) ذكره البخاري معلقاً قبل الحديث (٤٩٦٤)، ووصله الطبري ٢٤/ ٦٤٨.

(٤) في تهذيب اللغة ١٥/ ٣٧٩ (والكلام فيه بنحوه): يؤلف إلى الشام.

(٥) بنحوه في تهذيب اللغة ١٥/ ٣٧٩.

(٦) لم نقف عليه في تهذيب اللغة، وقاله الصَّغاني في العباب (ألف)، ووقع في (ظ) و(م) و(ي): الإجارة، بدل: الإجازة، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في العباب والقاموس والتاج (ألف). والخَفَارة: الأمان. المعجم الوسيط (خفر).

يؤلِّف: إذا أجاز[١] الحمائل بالخَفارة. والحمائل: جمع حَمولة[٢]. قال[٣]: والتأويل: أنَّ قُريشاً كانوا سكَّان الحرم، ولم يكن لهم زَرْعٌ ولا ضَرْعٌ، وكانوا يَمِيرون في الشتاء والصيف آمنين، والناسُ يُتَخَطَّفون مِن حولهم، فكانوا إذا عَرَض لهم عارِضٌ قالوا: نحن أهلُ حَرَمِ الله، فلا يَتَعَرَّضُ الناسُ لهم.

وذكر أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا في تفسيره[٤]: حدَّثنا سعيد بن محمد، عن بكر بن سهل الدِّمياطيّ، بإسناده إلى ابن عباس، في قول الله عز وجل: «لإيلافِ قُرَيْش إلفِهم رحلةَ الشتاء والصيف»: وذلك أنَّ قريشاً كانوا إذا أصابت واحداً منهم مخمصةٌ، جرى هو وعيالُه إلى موضعٍ معروف، فضربوا على أنفسهم خِباءً فماتوا، حتى كان عمرو بنُ عبد منافٍ، وكان سيداً في زمانه، وله ابن يقال له: أسَد، وكان له تِرْبٌ من بني مخزوم يحبُّه ويلعبُ معه. فقال له: نحن غداً نَعْتَفِد[٥]. قال ابن فارس: هذه لفظةٌ في هذا الخبر لا أدري: بالدال هي أم بالراء، فإنْ كانت بالراء فلعلَّها من العَفَر، وهو التراب، وإن كانت بالدَّال، فما أدري معناها، وتأويلُه على ما أظنُّه: ذهابُهم إلى ذلك الخباءِ، وموتُهم واحداً بعد واحدٍ[٦].

قال: فدخل أسدٌ على أمِّه يبكي، وذكَر ما قاله تِرْبُه. قال: فأرسلتْ أمُّ أسدٍ إلى أولئك بشحمٍ ودقيق، فعاشوا به أياماً. ثم إنَّ تِرْبَه أتاه أيضاً فقال: نحن غداً نَعتفِد[٧]، فدخل أسدٌ على أبيه يبكي، وخبَّره خَبَرَ تِرْبِه، فاشتدَّ ذلك على عمرو بن عبد مناف،

---

(١) في النسخ عدا (د): أجار، والمثبت من (د).

(٢) وهي ما احتمل عليه القوم من بعير وحمار ونحوه، والأحمالُ بعينها. القاموس (حمل).

(٣) هو الصَّغاني في العباب (ألف).

(٤) واسمه: جامع التأويل في تفسير القرآن، كما في طبقات المفسرين للداودي ١/ ٦٠ .

(٥) في النسخ الخطية: نعتفر، والمثبت من (م)، وينظر تهذيب اللغة ٢/ ٢٢٥ ، وأساس البلاغة (عفد).

(٦) وذكر هذا المعنى ـ في نعتفد ـ الأزهري في تهذيب اللغة ٢/ ٢٢٥ ، والزمخشري في أساس البلاغة (عفد).

(٧) في النسخ الخطية (نعتفر).

فقام خطيباً في قريش، وكانوا يطيعون أمره، فقال: إنَّكم أَحْدَثْتُم حَدَثاً تَقِلُّون فيه وتكثُرُ العرب، وتَذِلُّون وتَعِزُّ العرب، وأنتم أهلُ حرمِ اللهِ جلَّ وعزَّ، وأشرفُ ولدِ آدَمَ، والناسُ لكم تَبَعٌ، ويكاد هذا الاعتفادُ يأتي عليكم. فقالوا: نحن لك تَبَعٌ. قال: ابتدئوا بهذا الرجل ـ يعني أبا تِرْبِ أسد ـ فأَغْنُوه عن الاعتفاد، ففعلوا. ثم إنَّه نحر البُدْنَ، وذبح الكِبَاشَ والمَعْزَ، ثم هَشَم الثَّرِيد، وأطعم الناس، فسمِّي هاشماً. وفيه قال الشاعر:

عمرو الذي هَشَم الثَّريدَ لقومه ورجالُ مكةَ مُسْنِتون عِجافُ[1]

ثم جمع كلَّ بني أبٍ على رحلتين: في الشتاء إلى اليمن، وفي الصيف إلى الشام للتجارات، فما ربح الغنيُّ قَسَمه بينه وبين الفقير، حتى صار فقيرُهم كغنيِّهم، فجاء الإسلامُ وهم على هذا، فلم يكن في العرب بنو أبٍ أكثرَ مالاً ولا أعزَّ من قريش، وهو قولُ شاعرِهم:

والخالطون فقيرَهم بغنيِّهم حتى يصيرَ فقيرُهم كالكافي[2]

فلم يزالوا كذلك حتى بعث الله رسولَه محمداً ﷺ، فقال: «فليعبدوا ربَّ هذا البيتِ الذي أطعمهم مِن جوعٍ[3] وآمنهم مِن خوفٍ» أنْ تكثُر العربُ ويَقِلُّوا.

قوله تعالى: ﴿رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ﴾ «رِحلَةَ» نصب بالمصدر، أي: ارتحالهم رِحلةَ، أو بوقوع «إيلافهم» عليه. أو على الظرف. ولو جعلتَها في محلِّ الرفع، على

(١) سلف ٩/ ٣٠٤ عن عبد الله بن الزبعرى، وهو في ملحقات ديوانه ص ٥٣ ، ونسب لمطرود بن كعب الخزاعي، كما في المنمق لابن حبيب ص ١٢ ، والاشتقاق ص ١٣ . وأسنتوا: أجدبوا. القاموس (سنت).

(٢) البيت لمطرود بن كعب الخزاعي، كما في سيرة هشام ١/ ١٧٨ ، وأمالي المرتضى ٢/ ٢٦٨ ، والحماسة البصرية ١/ ١٥٥ ، وقال البصري: ويروى لابن الزبعرى، والأول أكثر. وهو في ملحقات ديوان ابن الزبعرى ص ٥٤ . وقد ذكر هذا الخبر بنحوه عن ابن عباس الرازي ٣٢/ ١٠٧ ، وأخرجه الزبير بن بكار بنحوه أيضاً عن عمر بن عبد العزيز، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٩٧ .

(٣) بعدها في (م): بصنيع هاشم.

معنى: هما رِحلةُ الشتاءِ والصيف، لجاز. والأوّل أولى.

والرحلةُ: الارتحالُ، وكانت إحدى الرحلتين إلى اليمن في الشتاء، لأنَّها بلادٌ حاميةٌ، والرحلةُ الأخرى في الصيف إلى الشام، لأنَّها بلادٌ باردة[١].

وعن ابن عباس أيضاً قال: كانوا يَشْتون بمكةَ لدِفئها، ويَصِيفون بالطائف لهوائها[٢]. وهذه من أجلِّ النعم أن يكون للقوم ناحيةُ حرٍّ تدفعُ عنهم بردَ الشتاء، وناحيةُ بردٍ تدفع عنهم حرَّ الصيف، فذكَّرهم الله تعالى هذه النعمة. وقال الشاعر:

تَشْتي بمكةَ نَعْمَةً ... ومَصِيفُها بالطَّائِفِ[٣]

وهنا أربعُ مسائل:

الأولى: اختار القاضي أبو بكر بن العربيّ[٤] وغيرُه من العلماء أنَّ قولَه تعالى: «لإيلافِ» متعلِّقٌ بما قبله. ولا يجوزُ أن يكون متعلِّقاً بما بعده، وهو قولُه تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَـٰذَا ٱلْبَيْتِ﴾ قال: وإذا ثبت أنَّه متعلِّقٌ بالسورة الأخرى - وقد قُطع عنه بكلامٍ مبتدأ، واستئنافِ بيانٍ، وسطرِ «بسم الله الرحمن الرحيم» - فقد تبيَّن جوازُ الوقفِ في القراءة للقرَّاء قبل تمامِ الكلام، وليست المواقفُ التي ينزعُ[٥] بها القُرَّاء شرعاً عن النبيِّ ﷺ مرويًّا، وإنَّما أرادوا به تعليمَ الطلبةِ المعانيَ، فإذا عَلِموها وقفوا حيث شاؤوا. فأمَّا الوقفُ عند انقطاع النَّفَسِ فلا خلافَ فيه، ولا تُعِدْ ما قبلَه إذا

---

(١) أخرجه الطبري ٢٤/ ٦٥٢ عن الكلبي وابن زيد، وذكره ابن عطية بنحوه في المحرر الوجيز ٥/ ٥٢٥ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) سلف ص٤٩٦ من هذا الجزء.

(٣) النكت والعيون ٦/ ٣٤٨ ، والبيت لمحمد بن عبد الله النميري، كما في معجم الشعراء للمرزباني ص٣٤٢ ، وأخبار النساء لابن الجوزي ص ٢٤ ، ومعجم البلدان ٤/ ١٢ ، ووقع في هذه المصادر عدا النكت والعيون: تشتو بمكة...، قال السمين في عمدة الحفاظ ٢/ ١٣٠٤ : الظاهر أن لامه واو، فيقال: شتا يشتو، وقد ذكره الهروي في مادة (شتو)، وإن كان الراغب قد ذكره في مادة (شتي).

(٤) في أحكام القرآن ٤/ ١٩٦٩ .

(٥) في النسخ: ينتزع، والمثبت من أحكام القرآن.

اعتراك ذلك، ولكن ابدأ من حيث وقف بك[١] نَفَسُك. هذا رأيي فيه، ولا دليلَ على ما قالوه بحالٍ، ولكنِّي أعتمِدُ الوقفَ على التمام، كراهيةَ الخروجِ عنهم.

قلت: ومن الدليل على صحة هذا، قراءةُ النبيِّ ﷺ: «الحمد لِلهِ رب العَالَمِين» ثم يقف، «الرحْمَنِ الرَّحِيم» ثم يقف. وقد مضى في مُقَدِّمة الكتاب[٢].

وأجمع المسلمون أنَّ الوقف عند قوله: «كَعَصْفٍ مَأْكولٍ» ليس بقبيح. وكيف يقال إنَّه قبيحٌ وهذه السورةُ تُقْرأ في الركعة الأولى والتي بعدها في الركعة الثانية، فيتخلَّلُها مع قطعِ القراءةِ أركانٌ؟ وليس أحدٌ من العلماء يكره ذلك، وما كانت العلَّةُ فيه إلَّا أنَّ قوله تعالى: «فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مأكولٍ» انتهاءُ آية. فالقياسُ على ذلك: ألَّا يمتنعَ الوقفُ عند أعجازِ الآياتِ سواءٌ كان الكلامُ يتم، والغرضُ ينتهي، أولايتم، ولا ينتهي. وأيضًا فإنَّ الفواصل حِليةٌ وزِينةٌ للكلام المنظوم، ولولاها لم يَتَبَيَّن المنظومُ من المنثور. ولا خفاءَ أنَّ الكلام المنظومَ أحسن، فثبت بذلك أنَّ الفواصل من محاسن الكلام المنظومِ، فَمَن أَظْهَرَ فواصلَه[٣] بالوقوف عليها فقد أبدى محاسنَه، وتركُه[٤] الوقوفَ يُخفي تلك[٥] المحاسن، ويُشَبِّه المنظوم بالمنثور، وذلك إخلالٌ بحقِّ المقروء.

الثانية: قال مالك[٦]: الشتاءُ نصفُ السنة، والصيفُ نصفُها، ولم أَزَلْ أرى ربيعةَ ابنَ أبي عبد الرحمن ومَن معه لا يخلَعون عمائمهم حتى تطلع الثُّرَيَّا، وهو يومُ التاسع

(١) في النسخ الخطية: به، والمثبت من (م) وأحكام القرآن.
(٢) ١/ ١٩.
(٣) في (د) و(ز) و(ي): مواصلة.
(٤) في (م): وترك.
(٥) في (ز) و(ظ) و(ي): ذلك، وفي (د): على ذلك.
(٦) من هذا الموضع إلى آخر المسألة الرابعة نقله المصنف من أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٩٦٩ - ١٩٧٠.

عَشَرَ من بشنس[١]، وهو يومُ خمسةٍ وعشرين من عددِ الرومِ أو الفرس. وأراد[٢] بطلوع الثريا أن يخرج السُّعاة، ويسير الناس بمواشيهم إلى مياههم، وأنَّ طلوع الثريا أوّلُ الصيفِ ودُبُر الشتاء. وهذا ممَّا لا خلافَ فيه بين أصحابه عنه. وقال عنه أشهبُ وحده: إذا سقَطَتِ الهَقْعَة[٣] نقصَ الليل.

فلمَّا جُعل طلوعُ الثريا أوّلَ الصيف، وَجَبَ أن يكون له في مُطْلَقِ السنةِ[٤] ستةُ أشهرٍ، ثم يُستقبل الشتاءُ من بعد ذهاب الصيف ستةَ أشهر. وقد سئل محمد بن عبد الحكم عمَّن حلف ألَّا يكلِّم امْرَأً حتى يدخل الشتاء؟ فقال: لا يكلِّمه حتى يَمضيَ سبعةَ عَشَرَ من هتور[٥]. ولو قال: حتى يدخل الصيف، لم يكلِّمه حتى يمضي سبعةَ عَشَرَ من بشنس. قال القُرْطيُّ[٦]: أمَّا ذِكْرُ هذا عن محمد في بشنس[٧] فهو سهوٌ، إنَّما هو تسعة عشر من بشنس؛ لأنَّك إذا حسبتَ المنازل على ما هي عليه، من ثلاثَ عَشْرَةَ ليلةً كل منزلة، علمت أنَّ ما بين تسع عشرةَ من هتور[٨] لا تنقضي منازلُه إلَّا بدخول تسع عشرة من بشنس. والله أعلم.

الثالثة: قال قومٌ: الزمانُ أربعةُ أقسام: شتاءٌ، وربيعٌ، وصيفٌ، وخرِيف.

(١) في النسخ الخطية: بشانس، والمثبت من (م) وأحكام القرآن، وهو من شهور القبط، قال القلقشندي في صبح الأعشى ٢/ ٣٨٧ : ودخوله في الخامس والعشرين من نيسان من شهور السريان، وآخره التاسع والعشرون من أيار منها.

(٢) في النسخ: وأرى: وهو موافق لإحدى نسخ أحكام القرآن مذكورة في الحاشية، والمثبت من مطبوع أحكام القرآن.

(٣) منزل من منازل القمر، وهي رأس الجوزاء، وصورتها ثلاثة أنجم صغار مثفَّاة، وهي آخر أنواء الخريف. ينظر العمدة ٢/ ٢٥٦ ، والأزمنة والأمكنة ١/ ١٧٨ ، وينظر كذلك ما سلف ١٧/ ٤٤٦ .

(٤) في مطبوع أحكام القرآن: وجب أن يكون له شطر السنة.

(٥) في (م): هاتور، وهو من شهور القبط، ودخوله في السابع والعشرين من تشرين الأول، وآخره الخامس والعشرون من تشرين الثاني. صبح الأعشى ٢/ ٣٨٤ .

(٦) في (ظ) و(م): القرطي، وهو تصحيف. والقُرْطيُّ هو أبو إسحاق محمد بن القاسم بن شعبان الفقيه المالكي. ينظر الأنساب ١٠/ ١٠٠ ، والديباج المذهب ٢/ ١٩٤ .

(٧) من قوله: قال القرطي، إلى هذا الموضع ليس في مطبوع أحكام القرآن.

(٨) في (م): هاتور.

وقال قومٌ: هو شتاءٌ، وصيفٌ، وقَيظٌ، وخريف. والذي قاله مالكٌ أصح؛ لأنَّ قسمة اللهِ للزمان[١] قسمين ولم يجعل لهما ثالثًا.

الرابعة: لمَّا امتنَّ الله تعالى على قريش برحلتين، شتاءً وصيفاً، على ما تقدَّم، كان فيه دليلٌ على جوازِ تصرُّفِ الرجلِ في الزمانين بين محلَّين، يكون حالُهما في كلِّ زمانٍ أنعمَ من الآخر، كالجلوس في المجلس البَحْريِّ في الصيف، وفي القِبْليِّ في الشتاء، وفي اتِّخاذ البادَهنجات[٢] والخيشِ للتبريد، واللبدِ واليانوسةِ للدِّفْء.

قوله تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣﴾

أمرهم الله تعالى بعبادته وتوحيده لأَجْلِ إيلافِهم رحلتين. ودخلت الفاءُ لأَجْلِ ما في الكلام من معنى الشرط؛ لأنَّ المعنى: إمَّا لا فلْيعبدوه لإيلافهم، على معنى أنَّ نعم الله تعالى عليهم لا تُحْصَى، فإنْ لم يعبدوه لسائرِ نعمه، فليعبدوه لشأنِ هذه الواحدة، التي هي نعمةٌ ظاهرةٌ[٣].

والبيت: الكعبة. وفي تعريف نفسِه لهم بأنَّه ربُّ هذا البيتِ وجهان: أحدهما: لأنه كانت لهم أوثانٌ فميَّز نفسَه عنها. الثاني: لأنَّهم بالبيت شُرِّفوا على سائر العرب؛ فذَكَر لهم ذلك، تذكيراً لنعمته[٤].

وقيل: «فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هذا البيتِ» أي: ليألَفوا عبادةَ ربِّ الكعبة، كما كانوا يألَفون الرحلتين[٥]. قال عكرمة: كانت قريشٌ قد أَلِفوا رحلةً إلى بُصْرَى ورحلةً إلى اليمن، فقيل لهم: «فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هذا البيتِ» أي: يقيموا بمكة[٦]. رحلةُ الشتاءِ إلى

---

(١) في أحكام القرآن: لأجل قسمة الله الزمان. وفي اللباب ٥٠٩/٢٠ نقلاً عن القرطبي: لأن الله قسم الزمان.

(٢) البادهنج معرب بادخون أو باكير وهو نافذة تفتح في السقف لعبور الهواء، أو المنفذ الذي يجيء منه الريح، وسماه بعضهم: راووق النسيم. والراووق: المصفاة. ينظر شفاء الغليل للشهاب الخفاجي ص٧٠، والمعجم الذهبي ص٩١ و٩٢.

(٣) الكشاف ٢٨٧/٤.

(٤) في النكت والعيون ٣٤٨/٦ (والكلام منه): بنعمته.

(٥) النكت والعيون ٣٤٨/٦، وأخرجه الطبري ٦٥٣/٢٤ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٦) أخرجه الطبري ٦٥١/٢٤.

اليمن، والصيف إلى الشام.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ۝٤﴾

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ﴾ أي: بعدَ جوع ﴿وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾، قال ابن عباس: وذلك بدعوةِ إبراهيم عليه السلام حيث قال: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [البقرة:١٢٦][(١)].

وقال ابن زيد: كانت العرب يُغِيرُ بعضُها على بعضٍ، ويَسْبي بعضُها من بعضٍ، فأَمِنتْ قُرَيشٌ من ذلك لمكان الحرم، وقرأ: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [القصص:٥٧][(٢)].

وقيل: شقَّ عليهم السفر في الشتاء والصيف، فألقى الله في قلوب الحَبَشَةِ أن يحملوا إليهم طعاماً في السفن، فحملوه، فخافت قريشٌ منهم، وظنُّوا أنهم قَدِموا لحربهم، فخرجوا إليهم مُتَحَرِّزين، فإذا هم قد جَلَبوا إليهم الطعامَ، وأعانوهم[(٣)] بالأقوات[(٤)]. فكان أهلُ مكة يخرجون إلى جُدَّة بالإبل والحُمُر، فيشترون الطعام، على مسيرة ليلتين.

وقيل: هذا الإطعامُ هو أنَّهم لمَّا كذَّبوا النبيَّ ﷺ دعا عليهم، فقال: «اللهمَّ اجْعَلْها عليهم سِنِينَ كَسِنيِّ يُوسفَ»[(٥)] فاشتدَّ القَحْطُ، فقالوا: يا محمدُ، ادعُ الله لنا فإنَّا مؤمنون. فدعا فأَخصبَتْ تَبَالةُ وجُرَشُ من بلاد اليمن، فحملوا الطعامَ إلى مكة، وأَخْصَبَ أهلها.

---

(١) أخرجه الطبري ٢٤/ ٦٥٣ و٦٥٤.

(٢) أخرجه الطبري ٢٤/ ٦٥٥.

(٣) في (م): وأغاثوهم.

(٤) النكت والعيون ٦/ ٣٤٨، وأولُه: أن جوعاً أصابهم في الجاهلية فألقى الله في قلوب الحبشة...

(٥) أخرجه أحمد (٧٢٦٠)، والبخاري (٦٢٠٠)، ومسلم (٦٧٥) من حديث أبي هريرة ﷺ، وسلف ٤/ ٣٠٤.

وقال الضحَّاك والربيع وشَرِيكٌ وسفيان: «وآمنهم مِنْ خَوْفٍ» أي: من خوفِ الجُذام، لا يصيبُهم ببلدهم الجُذام[١].

وقال الأعمش: «وآمنهم مِنْ خَوْفٍ» أي: من خوفِ الحَبَشةِ مع الفيل[٢].

وقال عليٌّ ﷺ: وآمنهم مِن أن تكون الخلافةُ إلَّا فيهم[٣].

وقيل: أي: كفاهم أخذَ الإيلافِ من الملوك. فالله أعلم، واللفظُ يعم.

تفسير سورة «الماعون»

وهي مكيةٌ في قول عطاءٍ وجابرٍ وأحدِ قولي ابنِ عباس، ومدنيةٌ في قولٍ له آخرَ، وهو قولُ قتادةَ وغيرِه[٤]. وهي سبعُ آيات.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝٧﴾

فيه ستُّ مسائل:

الأولى: قولُه تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ﴾ أي: بالجزاء والحساب في الآخرة، وقد تقدَّم في «الفاتحة»[٥]. و«أرأيت» بثباتِ[٦] الهمزةِ الثانية؛ إذ لا يُقال في

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٥٣١، وأخرجه الطبري عن الضحاك وسفيان.

(٢) النكت والعيون ٦/ ٣٤٩. وأخرجه ابن أبي حاتم، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٩٨.

(٣) النكت والعيون ٦/ ٣٤٩. قال الألوسي في روح المعاني ٣٠/ ٢٤١: وهذا من البطلان بمكان لا يخفى.

(٤) النكت والعيون ٦/ ٣٥٠ دون ذكر قول ابن عباس الأول، وأخرج هذا القول عن ابن عباس ابن مردويه، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٩٩.

(٥) ١/ ٢٢١.

(٦) في (م): بإثبات.

رأيت: رَيْت، ولكنَّ ألفَ الاستفهامِ سهَّلَت إلقاء الهمزة[١]؛ ذكره الزجاج. وفي الكلام حذفٌ، والمعنى: أرأيتَ الذي يكذِّب بالدين: أَمُصيبٌ هو أم مُخْطِئ.

واختُلِف فيمَن نزل هذا فيه؛ فذكَر أبو صالح عن ابن عباس قال: نزلتْ في العاص بن وائل السَّهْمِيِّ؛ وقاله الكلبيُّ ومقاتل. وروى الضحاك عنه قال: نزلت في رجلٍ من المنافقين.

وقال السُّديُّ: نزلت في الوليد بن المغيرة. وقيل: في أبي جهل. الضحاك: في عمرو بن عائذ.

قال ابن جريج: نزلت في أبي سفيان، وكان ينحر في كلِّ أسبوعٍ جَزُوراً، فطلب منه يتيمٌ شيئاً، فقَرَعه بعصاه، فأنزل الله هذه السورة[٢].

و﴿يَدُعُّ﴾ أي: يدفع، كما قال: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ [الطور: ١٣] وقد تقدَّم. وقال الضحَّاك عن ابن عباس: ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾ أي: يدفعُه عن حقِّه[٣]. قتادة: يقهرُه ويظلمُه[٤]. والمعنى متقارِب. وقد تقدَّم في سورة النساء أنهم كانوا لا يُوَرِّثون النساءَ ولا الصغار، ويقولون: إنَّما يحوزُ المالَ مَن يَطْعنُ بالسِّنان، ويَضربُ بالحُسام[٥]. ورُوِي عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «مَن ضمَّ يتيماً من المسلمين حتى يَسْتَغْنِيَ، فقد وَجَبتْ له الجنة»[٦]. وقد مضى هذا المعنى في غير موضع[٧].

---

(١) تنظر هذه الأقوال في النكت والعيون ٦/ ٣٥٠، وأسباب النزول للواحدي ص٥٠٢، وتفسير البغوي ٤/ ٥٣١، وزاد المسير ٩/ ٣٤٣-٣٤٤.

(٢) تنظر هذه الأقوال في النكت والعيون ٦/ ٣٥٠، وأسباب النزول للواحدي ص٥٠٢، وتفسير البغوي ٤/ ٥٣١، وزاد المسير ٩/ ٣٤٣ - ٣٤٤.

(٣) النكت والعيون ٦/ ٣٥١ عن الضحاك، وأخرجه الطبري ٢٤/ ٦٥٨ بنحوه من طريق عطية العوفي عن ابن عباس.

(٤) أخرجه الطبري ٢٤/ ٦٥٨.

(٥) ينظر ما سلف ٦/ ٧٨.

(٦) أخرجه أحمد (١٩٠٢٥)، واختلف في اسم الصحابي راوي الحديث، والراجح أنه أُبيّ بن مالك، فيما ذكر الحافظ في الإصابة ٩/ ٦٠ في ترجمة مالك بن عمرو، وينظر التعليق على الحديث في حاشية المسند.

(٧) ينظر ٢/ ٢٣٢ و ص٣٤٩ من هذا الجزء.

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ أي: لا يأمرُ به، من أَجْلِ بخلِه وتكذيبِه بالجزاء. وهو مِثلُ قولِه تعالى في سورة الحاقة: ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ [الآية: ٣٤] وقد تقدَّم. وليس الذَّمُّ عامًّا حتى يتناولَ مَن تَرَكَه عجزاً، ولكنهم كانوا يَبْخَلُون ويعتذرون لأنفسهم، ويقولون: ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾ [يس: ٤٧]، فنزلت هذه الآيةُ فيهم، وتَوجَّه الذمُّ إليهم. فيكون معنى الكلام: لا يفعلونه إنْ قَدَرُوا، ولا يحثُّون عليه إنْ عسِروا.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ﴾ أي: عذابٌ لهم. وقد تقدَّم في غير مَوضع[(١)]. ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ فروى الضحَّاك عن ابن عباس قال: هو المصلِّي الذي إنْ صلَّى لم يَرْجُ لها ثواباً، وإنْ تَرَكَها لم يخشَ عليها عقابًا[(٢)]. وعنه أيضًا: الذين يؤخِّرونها عن أوقاتها[(٣)]. وكذا رَوى المغيرةُ عن إبراهيم، قال: ساهونَ بإضاعة الوقت. وعن أبي العالية: لا يصلُّونها لِمَواقيتِها، ولا يُتِمُّون ركوعَها ولا سجودَها.

قلت: ويدلُّ على هذا قولُه تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [مريم: ٥٩] حَسْبَ ما تقدَّم بيانُه في سورة مريم عليها السلام.

وروي عن إبراهيم أيضاً: أنه الذي إذا سجد قال[(٤)] برأسه هكذا ملتفتاً[(٥)].

وقال قطرب: هو ألَّا يقرأ ولا يَذْكرَ الله[(٦)]. وفي قراءةِ عبد الله: «الذين هم عن صلاتهم لاهُون»[(٧)].

---

(١) ينظر ٢/ ٢٢٠.

(٢) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٣٥١ عن الحسن.

(٣) أخرجه الطبري ٤/ ٦٦٠.

(٤) في (د) و(م): قام.

(٥) ذكره النحاس في إعراب القرآن ٥/ ٢٩٦ بنحوه عن أبي العالية.

(٦) النكت والعيون ٦/ ٣٥٢.

(٧) القراءات الشاذة ص ١٨١.

وقال سعد بن أبي وقَّاص: قال النبيُّ ﷺ: «فَوَيْل للمُصَلِّينَ الذين هم عن صلاتِهم ساهون» قال: «الذينَ يؤخِّرون الصلاة عن وقتها، تَهاوُناً بها»(١).

وعن ابن عباس أيضاً: هم المنافقون يتركون الصلاة سِرًّا، ويصلُّونها علانية(٢). ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ﴾ الآية [النساء: ١٤٢]. ويدلُّ على أنَّها في المنافقين قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ﴾، وقاله ابن وهب عن مالك(٣). قال ابن عباس: ولو قال: في صلاتهم ساهون، لكانت في المؤمنين(٤).

وقال عطاء: الحمدُ لله الذي قال: «عن صلاتهم» ولم يقل: في صلاتهم(٥). قال الزمَخْشَرِيُّ(٦): فإن قلتَ: أيُّ فرقٍ بين قوله: «عن صلاتهم»، وبين قولك: في صلاتهم؟ قلتُ: معنى «عن»: أنَّهم ساهون عنها سَهْوَ تَرْكٍ لها، وقلةِ الْتِفاتٍ إليها، وذلك فِعْلُ المنافقين، أو الفَسَقةِ الشُّطَّارِ(٧) من المسلمين. ومعنى «في» أنَّ السهو يعتريهم فيها، بوسوسةِ شيطانٍ، أو حديثِ نفسٍ، وذلك لا يكاد يخلو منه مسلم. وكان رسولُ الله ﷺ يقعُ له السَّهوُ في صلاته، فَضْلاً عن غيره، ومِن ثَمَّ أَثبت الفقهاءُ بابَ سجودِ السَّهوِ في كتبهم.

---

(١) أخرجه البزار (٣٩٢ ـ كشف)، وأبو يعلى (٨٢٢)، والعقيلي في الضعفاء ٣/ ٣٧٧، وابن المنذر في الأوسط ٢/ ٣٨٧. وأخرجه الطبري ٢٤/ ٦٦٠ عن سعد ﷺ موقوفاً. وليس في هذه المصادر قوله: تهاوناً بها. قال البزار: لا نعلم أحداً أسنده إلا عكرمة [بن إبراهيم] وهو لين الحديث، وقد رواه الثقات الحفاظ عن سعد موقوفاً. وقال العقيلي: والموقوف أولى.

(٢) أخرجه الطبري ٢٤/ ٦٦١ - ٦٦٢.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٩٧٢.

(٤) تفسير الرازي ٣٢/ ١١٤.

(٥) أخرجه الطبري ٢٤/ ٦٦٤، وذكره الزمخشري في الكشاف ٤/ ٢٨٩ عن أنس ﷺ.

(٦) في الكشاف ٤/ ٢٨٩.

(٧) في النسخ الخطية: الشياطين، والمثبت من (م) والكشاف. والشاطر: مَن أعيا أهلَه خبثاً. القاموس (شطر).

قال ابن العربيّ[(١)]: لأنَّ السلامة عن[(٢)] السَّهوِ مُحالٌ، وقد سها رسولُ الله ﷺ في صلاته والصحابةُ. وكلُّ مَن لا يسهو في صلاته، فذلك رجلٌ لا يتدبَّرُها، ولا يعقِلُ قراءتَها، وإنَّما همُّه في أعدادِها، وهذا رجلٌ يأكل القشور ويرمي اللُّبّ. وما كان النبيُّ ﷺ يسهو في صلاته إلَّا لفِكْرتِه في أعظم منها؛ اللهم إلَّا أنه قد يسهو في صلاته مَن يُقْبِلُ على وساوسِ الشيطانِ إذا قال له: اذكر كذا، اذكر كذا؛ لِمَا لم يكن يذكر، حتى يضِلَّ الرجل أنْ يدريَ كم صلَّى.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ﴾ أي: يُرِي الناسَ أنَّه يصلِّي طاعةً وهو يصلِّي تَقِيَّةً، كالفاسق، يُري أنه يصلِّي عبادةً، وهو يصلِّي ليقال: إنه يصلِّي. وحقيقةُ الرياءِ: طلبُ ما في الدنيا بالعبادة، وأصلُه: طلبُ المنزلةِ في قلوب الناس.

وأوَّلُها: تحسينُ السَّمْتِ[(٣)]، وهو من أجزاء النبوّة، ويريد بذلك الجاهَ والثناء.

وثانيها: الرياءُ بالثياب القِصَار والخَشِنة؛ ليأخذ بذلك هيئةَ الزُّهدِ في الدنيا.

وثالثها: الرياءُ بالقول، بإظهارِ التَّسخُّطِ على أهل الدنيا؛ وإظهارِ الوَعْظِ والتأسُّفِ على ما يفوتُ من الخير والطاعة.

ورابعها: الرياءُ بإظهار الصلاة والصدقة، أو بتحسين الصلاة لأَجْلِ رؤيةِ الناس. وذلك يطول، وهذا دليله؛ قاله ابن العربي[(٤)].

قلت: قد تقدَّم في سورةِ النساء وهود وآخر الكهف، القولُ في الرياء وأحكامِه وحقيقتِه بما فيه كفايةٌ[(٥)]. والحمد لله.

الخامسة: ولا يكونُ الرجلُ مُرائياً بإظهار العملِ الصالح إنْ كان فريضةً، فمِن

---

(١) في أحكام القرآن ٤/ ١٩٧١ .

(٢) في (م): من.

(٣) السمت: هيئة أهل الخير. القاموس (سمت).

(٤) في أحكام القرآن ٤/ ١٩٧٢ .

(٥) ينظر ٦/ ٢٩٩ و١١/ ٨٤ و١٣/ ٣٩٩ .

حقِّ الفرائضِ الإعلانُ بها وتشهيرُها؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: «ولا غُمَّةَ في فرائضِ الله»[١] لأنَّها أعلامُ الإسلام، وشعائر الدِّين، ولأنَّ تارِكَها يستحقُّ الذمَّ والمَقْتَ؛ فوجب إماطةُ التهمةِ بالإظهار، وإن كان تَطوُّعاً فحقُّه أن يُخْفَى؛ لأنَّه مما لا يُلامُ بتَرْكِه ولا تُهْمَةَ فيه، فإنْ أَظْهَرَه قاصداً للاقتداء به كان جميلاً. وإنَّما الرياء أنْ يقصد بالإظهار أن تراه الأعينُ، فتثني عليه بالصلاح. وعن بعضهم أنه رأى رجلاً في المسجد قد سجد سجدةَ الشكرِ فأطالها، فقال: ما أحسنَ هذا لو كان في بيتك. وإنَّما قال هذا لأنه توسَّم فيه الرياءَ والسُّمعة[٢]. وقد مضى هذا المعنى في سورة البقرة، عند قوله تعالى: ﴿إِن تُبۡدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ [الآية: ٢٧١]، وفي غيرِ موضعٍ. والحمد لله على ذلك.

السادسة: قوله تعالى: ﴿وَيَمۡنَعُونَ ٱلۡمَاعُونَ﴾ فيه اثنا عشر قولاً: الأول: أنه زكاة أموالِهم. كذا روى الضحَّاك عن ابن عباس. ورُوِي عن عليٍّ ﷺ مثلُ ذلك[٣]، وقال مالك: والمرادُ[٤] به المنافق يمنعُها. وقد رَوَى أبو بَكْر بن عبد العزيز عن مالك قال: بلغني أنَّ قولَ الله تعالى: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ . ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ . ٱلَّذِينَ هُمۡ يُرَآءُونَ . وَيَمۡنَعُونَ ٱلۡمَاعُونَ﴾ قال: إنَّ المنافق إذا صلَّى صلَّى رياءً، وإنْ فاتته لم يندَمْ عليها، «ويمنعون الماعون» الزكاةَ التي فَرَضَ الله عليهم. قال زيد بن أسلم: لو خَفِيتْ لهم الصلاةُ كما خَفِيتْ لهم الزكاةُ ما صلُّوا[٥].

---

(١) قطعة من حديث وائل بن حجر في كتاب النبي ﷺ إلى الأقيال، أخرجه الخطابي في غريب الحديث ١/ ٢٨١ ، وذكره القاضي عياض في الشفا ١/ ١٧٢ . والكلام من الكشاف ٤/ ٢٩٠ . قوله: ولا غمة، أي: لا تُستَر ولا تُخفى فرائضه، وإنما تُظهر وتُعلن ويُجهر بها. النهاية (غمم).

(٢) الكشاف ٤/ ٢٨٩ - ٢٩٠ .

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة ٣/ ٢٠٣ - ٢٠٤ ، والطبري ٢٤/ ٦٦٦ - ٦٧٠ عن علي والضحاك وابن عمر وغيرهم، وذكره عن ابن عباس النحاس في إعراب القرآن ٥/ ٢٩٧ .

(٤) في أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٩٧٢ (والكلام منه): وقال مالك هي الزكاة والمراد...

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٩٧٢ .

القول الثاني: أنَّ «الماعون»: المالُ بلسان قريش؛ قاله ابنُ شهابٍ وسعيد بنُ المسيِّب[١].

وقولٌ ثالثٌ: أنَّه اسمٌ جامعٌ لمنافع البيتِ كالفأس والقِدْرِ والنار وما أشبهَ ذلك؛ قاله ابن مسعود، وروي عن ابن عباس أيضاً[٢]. قال الأعشى:

بِـأَجْـودَ مـنـه بـمـاعـونِـهِ إذا مـا سـمـاؤُهُـمْ لَـمْ تَـغِـمْ[٣]

الرابع: ذكر الزجَّاج وأبو عُبيد والمبرِّد أنَّ الماعون في الجاهلية: كلُّ ما فيه منفعةٌ، حتى الفأسُ والقِدْرُ والدَّلْوُ والقدَّاحة، وكلُّ ما فيه منفعةٌ من قليلٍ وكثيرٍ، وأنشدوا بيتَ الأعشى. قالوا: والماعونُ في الإسلام: الطاعةُ والزكاة؛ وأنشدوا قولَ الراعي:

أَخَلِيفَةَ الرَّحْمنِ إنَّا مَعْشَرٌ حُنَفَاءُ نَسْجُدُ بُكْرَةً وأَصِيلَا
عَرَبٌ نَرَى لِلهِ من أموالنا حَقَّ الزكاةِ مُنَزَّلاً تَنْزِيلَا
قَومٌ على الإسلامِ لَمَّا يَمْنَعُوا ما عُونَهمْ ويُضَيِّعُوا التَّهليلا[٤]

يعني الزكاة.

الخامس: أنَّه العارِيَّة؛ روي عن ابن عباس أيضاً[٥].

السادس: أنه المعروفُ كلُّه الذي يتعاطاه الناسُ فيما بينهم؛ قاله محمد بن كعب والكلبيّ[٦].

---

(١) تفسير الطبري ٢٤/ ٦٧٨ ، والنكت والعيون ٦/ ٣٥٣ ، وأحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٩٧٢ .

(٢) مصنف ابن أبي شيبة ٣/ ٢٠٢ - ٢٠٣ ، وتفسير الطبري ٢٤/ ٦٧١ - ٦٧٧ . وتفسير البغوي ٤/ ٥٣٢ .

(٣) ديوان الأعشى ص ٨٩ .

(٤) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٣٦٨ ، وذكر القول أيضاً أبو عبيدة في مجاز القرآن ٢/ ٣١٣ ، وليس فيهما سوى البيت الثالث، والأبيات الثلاثة في ديوان الراعي ص ٢٢٩ - ٢٣٠ ، والنكت والعيون ٦/ ٣٥٣ ، ورواية الأول في الديوان: أَوَليَّ أمرِ الله إنا معشر...، والقصيدة في مدح عبد الملك بن مروان.

(٥) أخرجه الطبري ٢٤/ ٦٧٥ و٦٧٦ .

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٥٣٢ ، وأخرجه عن محمد بن كعب الطبري ٢٤/ ٦٧٨ .

السابع: أنه الماء والكَلأ[١].

الثامن: الماءُ وحدَه؛ قال الفرَّاء: سمِعتُ بعضَ العربِ يقول: الماعون: الماء، وأنشدني فيه:

يَمجُّ صَبِيرُه الماعونَ صَبًّا[٢]

الصَّبير: السحاب.

التاسع: أنَّه مَنْعُ الحقِّ؛ قاله عبد الله بن عمر[٣].

العاشر: أنه المستغَلُّ من منافعِ الأموال؛ مأخوذٌ من المَعْن وهو القليل؛ حكاه الطبريُّ وابن عيسى[٤]. قال قطرب: أصلُ الماعونِ من القلَّة. والمَعْنُ: الشيءُ القليل؛ تقول العرب: ماله سَعْنةٌ ولا معنةٌ، أي: شيء قليل. فسمَّى الله تعالى الزكاةَ والصدقةَ ونحوَهما من المعروف ماعوناً؛ لأنَّه قليلٌ من كثير.[٥]

ومِن الناس مَن قال: الماعون: أصلُه مَعُونة، والألفُ عوضٌ من الهاء؛ حكاه الجوهريّ[٦].

ابن العربيّ[٧]: الماعون: مفعولٌ مِن أعانَ يُعينُ، والعَوْن: هو الإمدادُ بالقوّة

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٩٧٣ .

(٢) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٦٥ ، وأحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٩٧٣ . قال الفراء: ولست أحفظ أوله. وقد ذكره صاحب اللسان مع بيت آخر صدراً لبيت عجزه: إذا نَسَمٌ من الهَيْف اعتراه.

(٣) أخرجه الطبري ٢٤/ ٦٦٨ .

(٤) في النسخ الخطية: وابن عباس، والمثبت موافق لما في النكت والعيون ٦/ ٣٥٣ ، والكلام منه، ولم نقف عليه في تفسير الطبري.

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٥٣٢ . والمثل ذكره الميداني في مجمع الأمثال ٢/ ٢٧١ ، والزمخشري في المستقصى ٢/ ٣٣١ . قال الميداني: قال ابن الأعرابي: السعنة: الكثرة من الطعام وغيره، والمعنة: القلة من الطعام وغيره، ومعنى المثل: ما لَه قليل ولا كثير.

(٦) في الصحاح (معن).

(٧) في أحكام القرآن ٤/ ١٩٧٢ .

والآلاتِ والأسبابِ الميسِّرةِ للأمر[١].

الحادي عشر: أنَّه الطاعةُ والانقيادُ؛ حكى الأخفشُ عن أعرابيٍّ فصيحٍ: لو قد نزلنا لصنعتُ بناقتكَ صنيعًا تعطيكَ الماعون، أي: تنقادُ لك وتُطيعُك[٢]. قال الراجز.

مَتَى تُصادِفْهُنَّ في الْبَرِينِ يَخْضَعْنَ أو يُعطِيْنَ بالماعونِ[٣]

وقيل: هو ما لا يَحِلُّ مَنْعُه، كالماء والملح والنار؛ لأنَّ عائشة رضوانُ الله عليها قالت: قلتُ: يا رسول الله، ما الشيءُ الذي لا يَحِلُّ مَنْعُه؟ قال: «الماءُ والنارُ والملحُ» قلت: يا رسول الله، هذا الماء، فما بالُ النارِ والملح؟ فقال: «يا عائشةُ مَن أَعْطَى ناراً فكأنَّما تصدَّق بجميعِ ما طُبِخَ بتلك النار، ومَن أَعْطَى مِلْحاً فكأنَّما تَصَدَّق بجميع ما طُيِّبَ به ذلك الملحُ، ومَن سَقَى شَربةً من الماء حيث يوجد الماء، فكأنَّما أَعْتَقَ ستين نسمةً. ومَن سَقَى شربةً من الماء حيث لا يوجد، فكأنَّما أحيا نَفْساً، ومَن أحياها فكأنَّما أحيا الناسَ جميعًا». ذكره الثعلبيُّ في «تفسيره»، وخرَّجه ابنُ ماجه في «سننه». وفي إسناده لِين[٤]؛ وهو القولُ الثاني عشر.

الماورديُّ[٥]: ويحتمِلُ: أنه المعونةُ بما خَفَّ فِعْلُه وقد ثَقَّله الله. والله أعلم.

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٩٧٢ . وذكر السمين في الدر المصون ١١/ ١٢٣ - ١٢٤ أن هذا الوجه فيه شذوذ من وجوه، منها: أن مفعول جاء من أفعل، وحقُّه أن يكون على مُفْعَل كمكرَم، فيقال: مُعان، وأما مفعول فاسم مفعولِ الثلاثي.

(٢) الصحاح (معن).

(٣) الرجز للحذلمي، كما في اللسان (أرن) برواية:

متى يُنازِعْهن في الأَرين يَذْرَعْنَ أو يعطين بالماعون

وذكره أيضاً صاحب اللسان (معن) برواية: يخضعن أو يعطين..، والأرين: النشاط. والبرين بضم الباء وفتحها جمع بُرَة، وهي الحلقة في أنف البعير. اللسان (أرن) و(برا).

(٤) بنحوه في سنن ابن ماجه (٢٤٧٤)، وتهذيب الكمال ٩/ ٤١٩ - ٤٢٠ ، وفي إسناده علي بن زيد بن جدعان وهو ضعيف. وفيه أيضاً زهير بن مرزوق، قال ابن معين: لا أعرفه، وقال البخاري: منكر الحديث مجهول. ينظر مصباح الزجاجة ٢/ ٥٥ ، وتهذيب الكمال ٩/ ٤١٩ .

(٥) في النكت والعيون ٦/ ٣٥٣ .

وقيل لِعكرمةَ مولى ابنِ عباس: مَن منع شيئاً من المتاع كان له الويل؟ فقال: لا، ولكن مَن جَمَع ثلاثتهن فله الويل، يعني: تَرْكَ الصلاةِ، والرياءَ، والبُخْلَ بالماعون[١].

قلت: كونُها في المنافقين أشبهُ، وبهم أَخْلقُ؛ لأنَّهم جمعوا الأوصافَ الثلاثة: تَرْكَ الصلاةِ، والرياءَ، والبخلَ بالمال؛ قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢]، وقال: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾ [التوبة: ٥٤] وهذه أحوالُهم، ويَبْعدُ أنْ توجدَ من مسلمٍ محقِّقٍ، وإن وُجد بعضُها فيلحقُه جزءٌ من التوبيخ، وذلك في مَنْع الماعون إذا تعيَّن، كالصلاةِ والزكاة[٢] إذا تَرَكَها، والله أعلم. إنَّما[٣] يكون مَنْعُها قبيحاً في المروءة في غيرِ حالِ الضرورة[٤]. والله أعلم.

---

(١) أخرجه بنحوه الواحدي في الوسيط ٤/ ٥٥٩.

(٢) قوله: والزكاة، ليس في (م).

(٣) في (ز) و(ي): بما.

(٤) المعنى في هذه الجملة الأخيرة يعود على الفأس والقدر والدلو وغيرها التي ذكرت في معنى الماعون، حيث قال الزمخشري في الكشاف ٤/ ٢٩٠: وقد يكون منع هذه الأشياء محظوراً في الشريعة إذا استعيرت عن اضطرار، وقبيحاً في المروءة في غير حال الضرورة.

تفسير سورة «الكوثر»

وهي مكيةٌ في قولِ ابن عباسٍ والكلبيِّ ومقاتلٍ[(١)]. ومدنيةٌ في قولِ الحسنِ وعكرمةَ ومجاهدٍ وقتادة[(٢)]. وهي ثلاثُ آيات.

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قولُه تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾ قراءةُ العامة: «إِنَّا أَعْطيناك» بالعين. وقرأ الحسن وطلحة بن مصرف: «أَنْطَيْنَاكَ» بالنون؛ ورَوَتْه أمُّ سلمة عن النبيِّ ﷺ[(٣)]؛ وهي لغةٌ في العطاء؛ أنطيتُه: أعطيته.

و«الكوثر»: فَوْعَل من الكثرة، مثل: النوفل من النفل، والجوهر من الجهر. والعربُ تسمِّي كلَّ شيءٍ كثيرٍ في العدد والقَدْرِ والخَطَرِ كوثراً[(٤)]. قال سفيان: قيل لعجوزٍ رجع ابنُها من السفر: بِمَ آبَ ابنُكِ؟ قالت: بكوثر، أي: بمالٍ كثير[(٥)]. والكوثرُ من الرجال: السيدُ الكثيرُ الخيرِ؛ قال الكُميت:

وأنتَ كثيرٌ يا ابنَ مَرْوانَ طَيِّبٌ وكان أبوك ابنُ العقائِلِ كَوْثرا[(٦)]

والكوثر: العددُ الكثيرُ من الأصحاب والأشياع. والكوثرُ من الغبار: الكثير، وقد تَكَوْثَر؛ قال الشاعر:

---

(١) أخرجه عن ابن عباس ابن مردويه، كما في الدر المنثور ٦/ ٤٠١.

(٢) زاد المسير ٩/ ٢٤٧ عن الحسن وعكرمة وقتادة.

(٣) القراءات الشاذة ص ١٨١ والكشاف ٤/ ٢٩٠، وحديث أم سلمة أخرجه الطبراني في الكبير ٢٣/ (٨٦٢). وفي إسناده عمرو بن عبيد، قال عنه الحافظ في تخريج أحاديث الكشاف ص ١٨٨: واهي الحديث.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٥٣٣.

(٥) الكشاف ٤/ ٢٩٠، وتفسير الرازي ٣٢/ ١٢٤.

(٦) ديوان الكميت ص ١٧٧، وتهذيب اللغة ١٠/ ١٧٨، والصحاح (كثر) والكلام منه.

وقد ثارَ نَقْعُ الموتِ حتى تَكَوْثَرا[(١)]

الثانية: واختلف أهلُ التأويل في الكوثر الذي أُعطِيَه النبيُّ ﷺ على ستةَ عَشَرَ قولاً:

الأوّل: أنَّه نهرٌ في الجنة؛ رواه البخاريُّ عن أنس والترمذيُّ أيضاً[(٢)]، وقد ذكرناه في كتاب «التذكرة»[(٣)].

وروى الترمذيُّ أيضاً عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «الكَوْثرُ نهرٌ في الجنة، حافَتَاه من ذهب، ومَجْراهُ على الدرّ والياقوت، تربتُه أطيبُ من المسك، وماؤه أَحْلَى من العسل وأبيضُ من الثلج». هذا حديثٌ حسنٌ صحيح[(٤)].

الثاني: أنَّه حوضُ النبيِّ ﷺ في الموقف؛ قاله عطاء[(٥)]. وفي «صحيح» مسلم[(٦)] عن أنس قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ إذ أَغْفَى[(٧)] إغفاءةً، ثم رفع رأسَه مُتَبَسِّماً، فقلنا: ما أَضْحَكَكَ يا رسولَ الله؟ قال: «نزلتْ عليَّ آنفاً سورةٌ» فقرأ: «بسم الله الرحمن الرحيم ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾» ثم قال: «أتدرون ما الكوثر؟» قلنا: اللهُ ورسولُه أعْلَمُ. قال: «فإنَّه نهرٌ وَعَدَنيهِ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ، عليه خَيرٌ كثيرٌ، هو حَوْضٌ تَرِدُ عليه أُمَّتي يومَ القيامةِ، آنيتُهُ عددُ النُّجُوم، فيُخْتَلَجُ العبدُ منهم، فأقولُ: إنَّه من أُمَّتي، فيقال: إنَّك لا تَدْري ما أَحْدَثَ بَعْدَكَ».

---

(١) الصحاح (كثر)، وصدر البيت: أبَوْا أن يبيحوا جارَهم لعدوهم، وقائله حسان بن نُشْبة التيمي، كما في شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٣/ ٣٣٨، وأساس البلاغة (كثر)، واللسان (كثر). وذكر التبريزي في شرح ديوان الحماسة ١/ ١٧٦ عن ابن الأعرابي أن الصواب في اسمه: جِسّاس مثل عِبّاس.

(٢) صحيح البخاري (٦٥٨١) و(٧٥١٧)، وسنن الترمذي (٣٣٥٩)، وهو عند أحمد (١٢٠٠٨) و(١٢٩٨٩).

(٣) ص ٤٤٦.

(٤) سنن الترمذي (٣٣٦١)، وهو عند أحمد (٥٣٥٥).

(٥) أخرجه عنه ابن أبي شيبة ١١/ ٥٠٨، والطبري ٢٤/ ٦٨٥.

(٦) برقم (٤٠٠)، وهو عند أحمد (١١٩٩٦).

(٧) في صحيح مسلم: بينما رسول الله ﷺ ذات يوم بين أظهُرِنا إذ أغفى...

والأخبارُ في حوضه في الموقف كثيرةٌ، ذكرناها في كتاب «التذكرة»[١]، وأنَّ على أركانه الأربعةِ خُلَفاءَه الأربعةَ رضوانُ الله عليهم، وأنَّ مَن أبْغَضَ واحدًا منهم لم يَسْقِه الآخَر[٢]؛ وذكرنا هُناكَ مَن يُطْرَد عنه[٣]. فَمَن أراد الوقوفَ على ذلك تأمَّلَه هناك.

ثم يجوزُ أن يسمَّى ذلك النهرُ أو الحوضُ كوثراً، لكثرة الواردةِ والشَّارِبةِ من أمّةِ محمدٍ عليه الصلاة والسلام هناك. ويسمَّى به لمَا فيه من الخيرِ الكثير والماء الكثير.

الثالث: أنَّ الكوثر النبوةُ والكتابُ؛ قاله عكرمة[٤].

الرابع: القرآن؛ قاله الحسن.

الخامس: الإسلام؛ حكاه المغيرة.

السادس: تيسيرُ القرآن وتخفيفُ الشرائع؛ قاله الحسين بن الفضل.

السابع: هو كثرةُ الأصحابِ والأمةِ والأشياعِ؛ قاله أبو بكر بن عياش ويمان بن رِئاب.

الثامن: أنه الإيثار؛ قاله ابن كَيْسان[٥].

التاسع: أنه رِفْعةُ الذِّكر. حكاه الماوَرْديّ[٦].

---

(١) ص٣٠٢ وما بعدها.

(٢) أخرجه أبو بكر الشافعي في الغيلانيات (٦٣)، وابن الجوزي في العلل (٤٠٨) وقال: هذا حديث لا يصح.

(٣) وردت في هذا أحاديث، منها ما سلف آنفاً من حديث أنس ﷺ عند مسلم، ومنها ما أخرجه البخاري (٦٥٩٣)، ومسلم (٢٢٩٣) من حديث أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها. ومنها حديث عبد الله بن مسعود ﷺ عند البخاري (٦٥٧٦)، ومسلم (٢٢٩٧). ومنها حديث سهل بن سعد عند البخاري (٦٥٨٣)، ومسلم (٢٢٩٠)، وحديث أبي سعيد الخدري عند البخاري (٦٥٨٤)، ومسلم (٢٢٩١). وجميعها بنحو ما ورد في حديث أنس السالف.

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة ١١/ ٥٠٨ ، والطبري ٢٤/ ٦٨٤ . ووقع عند ابن أبي شيبة: النبوة والإسلام.

(٥) تنظر هذه الأقوال في النكت والعيون ٦/ ٣٥٥ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٥٢٩ .

(٦) في النكت والعيون ٦/ ٣٥٥ .

العاشر: أنه نورٌ في قلبكَ دلَّك عَليَّ، وقَطَعَكَ عمَّا سوايَ [قاله جعفر الصادق] وعنه: هو الشفاعةُ(١)، وهو الحادي عشر.

وقيل: معجزاتُ الربِّ هُدِيَ بها أهلُ الإجابةِ لدعوتك؛ حكاه الثعلبيُّ، وهو الثاني عشر.

الثالث عشر: قال هلال بنُ يِسَاف: هو لا إله إلا اللهُ محمدٌ رسول الله(٢).

وقيل: الفقهُ في الدين. وقيل: الصلواتُ الخمس؛ وهما الرابعُ عَشَرَ والخامسُ عشر.

وقال ابن إسحاق: هو العظيم من الأمر، وذكر بيتَ لَبِيد:

وصاحبُ مَلْحوبٍ فُجِعْنا بفَقْدِهِ ... وعِندَ الرُّداعِ بيتُ آخرَ كَوْثرِ(٣)

أي: عظيم.

قلت: أصحُّ هذه الأقوالِ الأوّلُ والثاني؛ لأنَّه ثابتٌ عن النبيِّ ﷺ نصٌّ في الكوثر. وسمِعَ أنسٌ قوماً يتذاكرون الحوضَ فقال: ما كنتُ أرى أنْ أعيشَ حتى أرى أمثالكم يَتَمَارَوْن في الحوض، لقد تركتُ عجائزَ خَلْفي، ما تصلِّي امرأةٌ منهنَّ إلَّا سألتِ اللهَ أنْ يسقِيَهَا من حوضِ النبيِّ ﷺ. وفي حوضِه يقولُ الشاعر:

يا صاحبَ الحوضِ مَنْ يُدَانيكَا ... وأنتَ حَقًّا حبيبُ بارِيكَا(٤)

وجميع ما قيل بعد ذلك في تفسيره قد أُعْطِيَه رسولُ الله ﷺ زيادةً على حوضه،

(١) بنحوه في المحرر الوجيز ٥/ ٥٢٩، وما بين حاصرتين منه.

(٢) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٥٢٩ بلفظ: هو التوحيد.

(٣) سيرة ابن هشام ١/ ٣٩٤، وديوان لبيد ص ٥٢. وفيهما: فجعنا بيومه. وملحوب: اسم ماء لبني أسد ابن خزيمة. ورُداع بالضم ـ وقيل: بالكسر ـ ماء لبني الأعرج بن كعب. معجم البلدان ٥/ ١٩١ و٣/ ٣٩. قال ابن هشام: صاحب ملحوب عوف بن الأحوص بن جعفر بن كلاب؛ مات بملحوب. وقوله: وعند الرداع...، يعني شريح بن الأحوص بن جعفر بن كلاب، مات بالرداع.

(٤) لم نقف عليه.

صلى الله عليه وسلَّم تسليماً كثيراً.

قوله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢﴾

فيه خمسُ مسائلَ:

الأولى: قولُه تعالى: ﴿فَصَلِّ﴾ أي: أَقِمِ الصلاةَ المفروضةَ عليك؛ كذا روى الضحَّاك عن ابن عباس(١).

وقال قتادةُ وعطاءٌ وعِكرمةُ: «فصلِّ لِربِّك» صلاةَ العيدِ يومَ النحر، «وانْحَرْ» نُسُكَك(٢). وقال أنس: كان النبيُّ ﷺ ينحر ثم يصلّي، فأُمِر أنْ يُصَلّي ثم يَنْحر(٣).

وقال سعيد بن جبير أيضاً: صَلِّ لربك صلاة الصبح المفروضة بَجَمْعٍ، وانْحرِ البُدْنَ بمِنًى(٤). وقال سعيد بن جبير أيضاً: نزلت في الحُدَيْبِيَة حين حُصِر النبيُّ ﷺ عن البيت، فأمره الله تعالى أن يُصَلِّيَ ويَنْحرَ البُدْنَ وينصرف، ففعل ذلك(٥). قال ابن العربيّ(٦): أمَّا مَن قال: إنَّ المراد بقوله تعالى: «فَصَلِّ»: الصلواتُ الخمسُ؛ فلِأنَّها ركنُ العباداتِ، وقاعدةُ الإسلامِ، وأعظمُ دعائمِ الدِّين. وأمَّا مَن قال: إنَّها صلاةُ الصبحِ بالمزدَلِفة؛ فلأنَّها مقرونةٌ بالنَّحْر، وهو في ذلك اليوم، ولا صلاةَ فيه قبلَ النَّحرِ غيرها، فخصَّها بالذِّكر من جملة الصلوات لاقترانها بالنَّحْر.

قلت: وأمَّا مَن قال: إنَّها صلاةُ العيد، فذلك بغير مكة؛ إذ ليس بمكةَ صلاةُ عيدٍ بإجماعٍ، فيما حكاه أبو عمر(٧).

---

(١) أخرجه الطبري ٢٤/ ٦٩٣ من طريق عطية العوفي عن ابن عباس.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٥٣٤، وأخرج قولهم الطبري ٢٤/ ٦٩٣ - ٦٩٤.

(٣) أخرجه الطبري ٢٤/ ٦٩٣.

(٤) أخرجه الطبري ٢٤/ ٦٩٢، وجمع هي المزدلفة.

(٥) أخرجه الطبري ٢٤/ ٦٩٥ - ٦٩٦، وذكره ابن العربي في أحكام القرآن ٤/ ١٩٧٥.

(٦) في أحكام القرآن ٤/ ١٩٧٥.

(٧) في (د) و(م): ابن عمر.

قال ابن العربيّ[١]: فأمَّا مالكٌ فقال: ما سمعتُ فيه شيئًا، والذي يقع في نفسي أنَّ المراد بذلك صلاةُ يومِ النحرِ، والنحرُ بعدها.

وقال عليٌّ ﷺ ومحمد بن كعب: المعنى: ضَعِ اليُمْنَى على اليسرى حِذاءَ النَّحرِ في الصلاة. ورُوِي عن ابن عباس أيضاً[٢].

وروي عن عليٍّ أيضًا: أن يرفع يديه في التكبير إلى نَحْرِه[٣]. وكذا قال [أبو] جعفر بن عليٍّ: «فَصَلِّ لربِّكَ وانحر» قال: يرفع يديه أوّلَ ما يُكَبِّر للإحرام إلى النحر[٤]. وعن عليٍّ ﷺ قال: لمَّا نزلت: «فَصَلِّ لربِّك وانحر» قال النبيُّ ﷺ لجبريل: «ما هذه النَّحِيرةُ التي أمرني الله بها»؟ قال: «ليستْ بنحيرةٍ، ولكنَّه يأمرك إذا تحرَّمْتَ للصلاة، أنْ ترفع يديكَ إذا كَبَّرت، وإذا رفعتَ رأسك من الركوع، وإذا سجدتَ، فإنَّها صلاتُنا وصلاةُ الملائكةِ الذين هم في السماوات السبع، وإنَّ لكلِّ شيءٍ زينةً، وإنَّ زينةَ الصلاةِ رفعُ اليدين عند كلِّ تكبيرة»[٥].

وعن أبي صالح عن ابن عباس قال: استَقْبِلِ القبلةَ بنَحْرِكَ؛ وقاله الفرَّاء والكلبيُّ وأبو الأحوص، ومنه قول الشاعر:

أبا حَكَمٍ ما أنْتَ عَمُّ مُجالِدٍ   وسَيِّدُ أهلِ الأبطَحِ المُتَناحِرِ[٦]

(١) في أحكام القرآن ٤/ ١٩٧٥ .

(٢) النكت والعيون ٦/ ٣٥٥ عن علي وابن عباس، وأخرجه عن علي عبد الرزاق ٢/ ٤٠١ ، والطبري ٢٤/ ٦٩٠ - ٦٩١ ، والدارقطني (١٠٩٩). وعن ابن عباس أخرجه إبراهيم الحربي في غريب الحديث ٢/ ٤٤٣ ، والبيهقي ٢/ ٣١ .

(٣) النكت والعيون ٦/ ٣٥٥ .

(٤) أخرجه الطبري ٢٤/ ٦٩٢ ، وذكره ابن كثير عند تفسير هذه الآية، وما سلف بين حاصرتين منهما، وهو أبو جعفر الباقر محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب.

(٥) أخرجه ابن حبان في المجروحين ١/ ١٧٧ ، والحاكم ٢/ ٥٣٧ ، وابن أبي حاتم كما ذكر ابن كثير عند تفسير هذه الآية، وقال: حديث منكر جدًّا. اهـ. وقال ابن حبان: هذا متن باطل إلا ذكر رفع اليدين فيه. اهـ. وسيأتي الكلام في رفع اليدين في المسألة الخامسة.

(٦) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٩٦ ، والنكت والعيون ٦/ ٣٥٦ ، وأخرج القول عن أبي الأحوص ابن =

أي: المتقابل. قال الفرَّاء: سمعتُ بعضَ العربِ يقول: منازلنا تتناحر ـ أي: تتقابل ـ نحرُ[1] هذا بنحر هذا، أي: قُبالته. وقال ابن الأعرابيّ: هو انتصابُ الرجلِ في الصلاةِ بإزاءِ المِحراب؛ من قولهم: منازلُهم تتناحَر، أي: تتقابل[2].

ورُوي عن عطاء قال: أَمَره أن يستويَ بين السجدتين جالساً حتى يبدو نحره.

وقال سليمان التَّيميُّ: يعني: وارْفَعْ يدَكَ بالدعاء إلى نحرك.

وقيل: «فَصَلِّ» معناه: فاعبُدْ. وقال محمد بن كعب القُرَظيُّ: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ يقول: إنَّ ناساً يصلُّون لغير الله، وينحرون لغير الله، وقد أعطيناك الكوثر، فلا تكن صلاتُك ولا نَحْرُك إلَّا لِله[3].

قال ابن العربيّ[4]: والذي عندي أنه أراد: اعبُدْ ربَّك، وانْحَرْ له، فلا يكن عملك إلَّا لمَن خصَّك بالكوثر، وبالْحَرَى[5] أن يكون جميعُ العملِ يوازي هذه الخُصوصيةَ من الكوثر، وهو الخيرُ الكثير الذي أعطاكَه الله، أو النهرُ الذي طِينُه مسكٌ، وعددُ آنيتِه نجومُ السماء، أمَّا أنْ يوازِيَ هذا صلاةُ يومِ النَّحر، وذبحُ كبشٍ أو بقرةٍ أو بَدَنةٍ، فذلك يبعدُ في التقدير والتدبير، وموازنة الثوابِ للعبادة. والله أعلم.

الثانية: قد مضى القولُ في سورة الصَّافَّات في الأُضحِية وفَضْلِها ووقتِ ذَبْحِها[6]؛ فلا معنًى لإعادةِ ذلك. وذكرنا أيضاً في سورة الحج جملةً من أحكامها[7].

= أبي حاتم، كما في الدر المنثور ٦/ ٤٠٣ . ووقع عند الفراء: أبا حكم ها أنت...، وفي النكت والعيون: هل أنت.

(١) قوله: نحر، ليس في معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٩٦ .

(٢) بنحوه في تهذيب اللغة ٥/ ١١ .

(٣) أخرجه الطبري ٢٤/ ٦٩٥ ، وذكره ابن العربي في أحكام القرآن ٤/ ١٩٧٥ ، والبغوي ٤/ ٥٣٤ .

(٤) في أحكام القرآن ٤/ ١٩٧٦ .

(٥) الحَرَى: الخليق، كقولك: بالحَرَى أن يكون ذلك، وإنه لحَرًى بكذا وحَرٍ وحَرِيٌّ. اللسان (حري).

(٦) عند تفسير الآية (١٠٧)، في المسألة الثامنة وما بعد.

(٧) ينظر ١٤/ ٣٦٦ وما بعدها.

قال ابن العربيّ[(١)]: ومن عجيب الأمر أنَّ الشافعيَّ قال: إنَّ مَن ضحَّى قبل الصلاةِ أجزأه، والله تعالى يقول في كتابه: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾، فبدأ بالصلاة قبل النحر، وقد قال النبيُّ ﷺ ـ في البخاريّ وغيره[(٢)]، عن البراء بن عازب قال ـ: «أوّلُ ما نَبْدَأ به في يومنا هذا أن نُصَلِّيَ، ثم نَرْجِعَ فننحرَ، مَن فَعَلَ فقد أصاب نُسُكنا[(٣)]، ومَن ذَبَح قبلُ، فإنَّما هو لحمٌ قدَّمه لأهله، ليس من النُّسُك في شيءٍ». وأصحابُه ينكرونه، وحبَّذا الموافقة.

الثالثة: وأمَّا ما روي عن عليٍّ عليه السلام: «فصلِّ لِربك وانحر» قال: وضع اليمين على الشمال في الصلاة. خرَّجه الدارَقُطْنيّ[(٤)]، فقد اختلف علماؤنا في ذلك على ثلاثة أقوال:

الأوّل: لا توضع في فريضةٍ ولا نافلة؛ لأنَّ ذلك من باب الاعتماد، ولا يجوزُ في الفرض، ولا يستحبُّ في النفل.

الثاني: لا يفعلُها في الفريضة، ويفعلُها في النافلة استعانةً؛ لأنَّه موضعُ ترخُّصٍ.

الثالث: يفعلُها في الفريضة والنافلة. وهو الصحيحُ؛ لأنَّه ثبت أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ وضع يده اليمنى على اليسرى من حديث وائل بن حُجْرٍ وغيرِه[(٥)]. قال ابن المنذر: وبه قال مالك وأحمدُ وإسحاقُ، وحُكي ذلك عن الشافعيّ. واستَحَبَّ ذلك أصحابُ

---

(١) في أحكام القرآن ٤/١٩٧٨ .

(٢) صحيح البخاري (٩٦٥)، وهو عند أحمد (١٨٤٨١)، ومسلم (١٩٦١): (٧)، وسلف ١٤/٣٦٧ .

(٣) في مصادر التخريج: سنَّتنا، والمثبت من النسخ وأحكام القرآن.

(٤) في سننه (١٠٩٩)، وسلف في المسألة الأولى.

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٤/١٩٧٨ . وحديث وائل بن حجر أخرجه أحمد (١٨٨٦٦)، ومسلم (٤٠١). وأخرج أحمد (٢٢٨٤٩)، والبخاري (٧٤٠) من طريق أبي حازم عن سهل بن سعد قال: كان الناس يؤمرون أن يضع الرجل اليد اليمنى على ذراعه اليسرى في الصلاة. قال أبو حازم: لا أعلمه إلا يَنْمي ذلك إلى النبي ﷺ.

الرأي. ورأت جماعةٌ إرسالَ اليد. وممَّن روينا ذلك عنه ابن الزبير[١] والحسن البصريُّ وإبراهيم النخعِيّ[٢].

قلت: وهو مَرْوِيٌّ أيضاً عن مالك. قال ابن عبد البرّ[٣]: إرسالُ اليدين، ووضعُ اليمنى على الشمال، كلٌّ ذلك من سنَّة الصلاة.

الرابعة: واختلفوا في الموضع الذي توضعُ عليه اليد؛ فروِي عن عليّ بن أبي طالب: أنه وضعهما على صدره. وقال سعيد بن جُبير وأحمد بن حنبل: فوق السُّرَّة. وقال: لا بأسَ إن كانت تحت السرَّة. وقالت طائفةٌ: توضع تحت السرَّة. وروي ذلك عن عليٍّ وأبي هُريرةَ والنخعيّ[٤] وأبي مجلَز. وبه قال سفيان الثوريُّ وإسحاق[٥].

الخامسة: وأمَّا رفعُ اليدين في التكبير عند الافتتاحِ والركوعِ والرفعِ من الركوع والسجودِ، فاختُلف في ذلك؛ فروى الدَّارقطنيُّ من حديث حميد عن أنس قال: كان رسول الله ﷺ يرفعُ يديه إذا دخل في الصلاة، وإذا ركع، وإذا رفع رأسَه من الركوع، وإذا سجد. لم يروِه عن حميد مرفوعاً إلَّا عبدُ الوهاب الثقفيُّ. والصَّوابُ: مِن فِعْلِ أنس[٦].

وفي الصَّحيحين من حديثِ ابنِ عمر، قال: رأيتُ رسولَ اللهِ ﷺ إذا قام إلى

---

(١) في (د) و(م): ابن المنذر، وهو تصحيف. وقول ابن المنذر الذي قاله في كتاب الإقناع ١/ ٩٣ هو ما ذكره أولاً من وضع اليمنى على اليسرى. أما ابن الزبير رضي الله عنهما فقد قال ابن عبد البر في التمهيد ٢٠/ ٧٤: روي عن ابن الزبير أنه كان يرسل يديه إذا صلى، وقد روي عنه خلافه. اهـ. قلنا: أخرج أبو داود (٧٥٤) عن ابن الزبير قال: صفُّ القدمين ووضع اليد على اليد من السنة.

(٢) التمهيد ٢٠/ ٧٦: وفيه: روي عن الحسن وإبراهيم أنهما كانا يرسلان أيديهما في الصلاة. قال ابن عبد البر: وليس هذا بخلاف؛ لأن الخلاف كراهية ذلك، وقد يرسل العالِم يديه ليري الناس أن ليس ذلك بحتم واجب.

(٣) في الكافي ١/ ٢٠٦.

(٤) قال ابن عبد البر في التمهيد ٢٠/ ٧٥ (والكلام منه): ولا يثبت ذلك عنهم. اهـ. وقد أخرجه عن علي وأبي هريرة أبو داود (٧٥٦) و(٧٥٧).

(٥) التمهيد ٢٠/ ٧٥.

(٦) سنن الدارقطني (١١١٩).

الصلاة رفع يديه حتى تكونا حَذْوَ مَنْكِبيه، ثم يكبِّر، وكان يفعلُ ذلك حين يكَبِّر للركوع، ويفعلُ ذلك حين يرفعُ رأسَه من الركوع، ويقولُ: «سمِع الله لمن حَمِدَه» ولا يفعلُ ذلك حين يرفع رأسه من السجود[١].

قال ابن المنذر: وهذا قولُ الليثِ بنِ سعد، والشافعيِّ وأحمدَ وإسحاقَ وأبي ثور. وحكى ابن وهب عن مالك هذا القولَ. وبه أقولُ؛ لأنَّه الثابتُ عن رسولِ الله ﷺ. وقالت طائفة: يرفعُ المصلِّي يديه حين يفتتحُ الصلاةَ، ولا يرفعُ فيما سوى ذلك. هذا قولُ سفيان الثوريِّ وأصحابِ الرأي[٢].

قلت: وهو المشهورُ من مذهبِ مالكٍ؛ لحديثِ ابنِ مسعود؛ خرَّجه الدَّارقطنيُّ من حديث إسحاقَ بن أبي إسرائيل، قال: حدَّثنا محمد بن جابر، عن حماد، عن إبراهيم، عن علقمةَ، عن عبد الله قال: صلَّيتُ مع النبيِّ ﷺ ومع أبي بكرٍ وعمرَ رضي الله عنهما، فلم يرفعوا أيديَهم إلَّا أوَّلاً عند التكبيرةِ الأولى في افتتاح الصلاة. قال إسحاقُ: به نأخذُ في الصلاة كلِّها. قال الدَّارقطنيُّ: تفرَّد به محمد بن جابر ـ وكان ضعيفاً ـ عن حماد، عن إبراهيم. وغيرُ حمادٍ يروِيه عن إبراهيم مرسلاً عن عبد الله مِن فِعْله، غيرَ مرفوعٍ إلى النبيِّ ﷺ؛ وهو الصَّواب[٣].

وقد روى يزيد بنُ أبي زياد، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن البَرَاء: أنَّه رأى النبيَّ ﷺ حين افتتح الصلاةَ رَفَعَ يديه حتى يُحاذِيَ بهما أُذنيه، ثم لم يَعُدْ إلى شيءٍ من ذلك حتى فرغ من الصلاة[٤]. قال الدَّارقطنيُّ[٥]: [وإنَّما] لقِّن يزيد في آخر عمره: ثم لَم يَعُدْ بعدُ، فتَلَقَّنه وكان قد اخْتَلَط.

وفي «مختصر ما ليس في المختصر» عن مالك: لا يرفع اليدين في شيءٍ من

(١) صحيح البخاري (٧٣٦)، وصحيح مسلم (٣٩٠).
(٢) الأوسط لابن المنذر ٣/ ١٣٦ - ١٥١.
(٣) سنن الدارقطني (١١٣٣).
(٤) سنن الدراقطني (١١٢٩).
(٥) إثر الحديث (١١٣١)، وما سيأتي بين حاصرتين منه.

الصلاة[١]. قال ابن القاسم: ولم أرَ مالكاً يرفع يديه عند الإحرام. قال: وأَحبُّ إليَّ تَرْكُ رَفْعِ اليدين عند الإحرام.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾

أي: مبغِضك، وهو العاص بنُ وائل[٢]. وكانت العربُ تسمِّي مَن كان له بنونَ وبناتٌ، ثم مات البنونَ وبقي البناتُ: أبتر. فيقال: إنَّ العاص وقف مع النبيِّ ﷺ يكلِّمه، فقال له جمعٌ من صناديد قريش: مع مَن كنتَ واقفاً؟ فقال: مع ذلك الأبتر. وكان قد تُوُفِّي قبل ذلك عبدُ الله بنُ رسولِ الله ﷺ، وكان من خديجة؛ فأنزل الله جلَّ شأنُه: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾[٣]، أي: المقطوعُ ذِكْرُه من خير الدنيا والآخرة.

وذَكَر عكرمةُ عن ابن عباس قال: كان أهلُ الجاهليةِ إذا مات ابنُ الرجلِ قالوا: بُتِر فلان. فلمَّا مات إبراهيم ابنُ النبيِّ ﷺ خرج أبو جهل إلى أصحابه فقال: بُتِر محمد؛ فأنزل الله جلَّ ثناؤه: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾[٤] يعني بذلك أبا جهل.

وقال شمر بن عطية: هو عقبةُ بنُ أبي مُعَيط[٥].

وقيل: إنَّ قريشاً كانوا يقولون لمَن مات ذكورُ ولدِه: قد بُتِر فلان. فلمَّا مات لرسول الله ﷺ ابنُه القاسمُ بمكة، وإبراهيمُ بالمدينة، قالوا: بتِر محمد، فليس له مَن يقوم بأمره من بعده؛ فنزلت هذه الآية؛ قاله السدِّيُّ وابن زيد[٦].

---

(١) وهذا أضعف الأقوال وأشذُّها، كما ذكر أبو العباس في المفهم ٢/ ١٩ . وقال ابن المنذر في الأوسط ٣/ ١٣٧ : أجمع كل مَن نحفظ عنه من أهل العلم على أن النبي ﷺ كان يرفع يديه إذا افتتح الصلاة، وأن من السنة أن يرفع المرء يديه إذا افتتح الصلاة. اهـ . وكتاب مختصر ما ليس في المختصر لأبي إسحاق محمد بن القاسم بن شعبان، وكُتُبُ ابن شعبان فيها غرائب من قول مالك، وأقوال شاذة عن قوم لم يشتهروا بصحبته، ليست مما رواه ثقات أصحابه، واستقر من مذهبه. الديباج المذهب ٢/ ١٠٥ .

(٢) أخرجه الطبري ٢٤/ ٦٩٧ - ٦٩٩ عن ابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد وقتادة.

(٣) أسباب النزول للواحدي ص ٥٠٣ .

(٤) ذكره بنحوه ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٥٣٠ عن عكرمة.

(٥) أخرجه الطبري ٢٤/ ٦٩٩ .

(٦) النكت والعيون ٦/ ٣٥٦ .

وقيل: إنَّه جوابٌ لقريش حين قالوا لكعب بن الأشرف لمَّا قدم مكة: نحن أصحابُ السقايةِ والسَّدانةِ والحِجابةِ واللِّواء، وأنت سيدُ أهلِ المدينة، فنحن خيرٌ أم هذا الصُّنَيْبير المنبتر[١] من قومه؟ قال كعب: بل أنتم خيرٌ، فنزلت في كعب: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ الآية [النساء: ٥١]. ونزلت في قريشٍ: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾؛ قاله ابنُ عباسٍ أيضاً وعكرمة[٢].

وقيل: إنَّ الله عزَّ وجلَّ لمَّا أَوْحَى إلى رسوله، ودعا قريشاً إلى الإيمان، قالوا: انْبَتَر منَّا محمد، أي: خالَفَنا وانقطع عنَّا. فأخبر الله تعالى رسولَه ﷺ أنَّهم هم المبتورون؛ قاله أيضاً عِكرمةُ وشَهْر بن حَوْشَب[٣].

قال أهلُ اللغةِ: الأبترُ من الرجال: الذي لا وَلَدَ له، ومن الدوابِّ: الذي لا ذَنَبَ له. وكلُّ أمرٍ انقطعَ من الخير أثرُه، فهو أبتر. والبَتْر: القَطْعُ. بَتَرْتُ الشيءَ بَتْراً: قطعته قبل الإتمام. والانبتار: الانقطاع. والباتر: السيفُ القاطِع. والأَبْتَر: المقطوعُ الذَّنَب. تقول منه: بَتِر ـ بالكسر ـ يَبْتَرُ بَتَراً[٤]. وفي الحديث «ما هذه البُتَيراء»[٥].

وخطب زياد خُطبتَه البتراء؛ لأنَّه لم يحمد الله فيها، ولم يُصَلِّ على النبيِّ ﷺ. ابن السكيت[٦]: الأبتران: العَيْر والعَبْد؛ قال: سمِّيا أبترَيْنِ لقلَّةِ خيرِهما. وقد أبتره الله، أي: صيَّره أبترَ. ويقال: رجلٌ أُباتر ـ بضم الهمزة ـ: الذي يقطعُ رَحِمَه. قال الشاعر:

---

(١) في (م): الصنيبر الأبيتر.

(٢) أخرجه عن ابن عباس إبراهيم الحربي في غريب الحديث ٢/ ٤٣٥، والبزار (٢٢٩٣ ـ كشف)، والنسائي في الكبرى (١١٦٤٣)، والطبري ٧/ ١٤٢ و١٤٥ و٢٤/ ٧٠٠، وابن حبان (٦٥٧٢)، والطبراني في الكبير (١١٦٤٥). وأخرجه عن عكرمة سعيد بن منصور (٦٤٨ ـ تفسير)، والطبري ٧/ ١٤٣ و٢٤/ ٦٩٩ – ٧٠٠. ووقع في بعض المصادر: الصنبور، بدل: الصنيبر، وهو تصغير الصنبور، وسيأتي شرحه.

(٣) النكت والعيون ٦/ ٣٥٦، وأخرجه عن عكرمة الطبري ٢٤/ ٧٠٠.

(٤) بابه: طَرِب. مختار الصحاح (بتر)، والكلام من الصحاح (بتر).

(٥) ذكره ابن الأثير في النهاية (بتر): أن سعداً ﷺ أوتر بركعة، فأنكر عليه ابن مسعود ﷺ وقال: ما هذه البتيراء.

(٦) في إصلاح المنطق ص ٤٤٠، والكلام من الصحاح (بتر).

لَـئِـيـمٌ نَـزَتْ فـي أَنْـفِـهِ خُـنْـزُوانَـةٌ عـلـى قَطْعِ ذي القُرْبَى أَحَذُّ أُبـاتِـرُ[(١)]

والبُتْرِيَّة: فِرقةٌ من الزيدية؛ نُسِبوا إلى المغيرة بنِ سعد، ولقبُه الأبتر[(٢)].

وأمَّا الصُّنبورُ فلفظٌ مشترك. قيل: هو النخلةُ تبقى منفردةً، ويَدِقُّ أسفلُها ويتقشَّر؛ يقال: صَنْبَرَ أسفلُ النخلة. وقيل: هو الرجلُ الفَرْدُ الذي لا وَلَدَ له ولا أخ. وقيل: هو مَثْعَبُ[(٣)] الحوضِ خاصَّةً؛ حكاه أبو عبيد، وأنشد:

مـا بـيـن صُـنْـبـورٍ إلـى الإزاءِ[(٤)]

والصُّنبور: قَصَبةٌ تكون في الإداوة من حديدٍ أو رصاصٍ يُشرب منها. حكى جميعَه الجوهريُّ[(٥)] رحمه الله. والله سبحانه وتعالى أعلم.

---

(١) الصحاح (بتر)، وأساس البلاغة (خنز). الخنزوانة: الكبر، يقال: فيه خنزوانة، وفي أنفه خنزوانة. والأحَذُّ: السريع القطع. جمهرة الأمثال ٢/ ٩٩، وأساس البلاغة (حذذ) و(خنز).

(٢) كذا نقل المصنف عن الجوهري في الصحاح (بتر)، والصواب أن الأبتر هو لقب كثير النواء، وإليه ينسب البترية، وهي طائفة تزعم أن عليًّا أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ وأولاهم بالبيعة، وأن بيعة أبي بكر وعمر ليست بخطأ لأن عليًّا ترك ذلك لهما، ويقفون في عثمان ﷺ وأمره وحاله، ويسمُّون أيضاً الصالحية لأنهم ينسبون إلى الحسن بن صالح بن حيٍّ الفقيه.

أما المغيرة بن سعد ـ ويقال: ابن سعيد ـ فأتباعه يسمُّون المُغيرية، وذكر ابن الأثير في الكامل ٥/ ٢٠٧ في حوادث سنة ١١٩ أن المغيرة هذا كان ساحراً، وكان يقول: لو أردت أن أحيي عاداً وثمود وقروناً بين ذلك لفعلت، ولما بلغ خبره خالد بن عبد الله القسري أحرقه. ينظر مقالات الإسلاميين ١/ ٦٩ و١٤٤، والفرق بين الفرق ص٢٤، والملل والنحل ص١٦١ و١٧٦ والأنساب ٢/ ٧٤، ومنهاج السنة النبوية ٢/ ٥٠٣ و٣/ ١١.

(٣) في النسخ الخطية: مبعث، والمثبت من (م)، وهو الموافق لما في الصحاح (صبر) والكلام منه، والمثعب: مجرى الماء من الحوض وغيره. المعجم الوسيط (ثعب).

(٤) تهذيب اللغة ١٣/ ٢٨٣، والصحاح (صبر)، والكلام منه. ونقل الأزهري عن الأصمعي قال: الإزاء مصب الماء في الحوض.

(٥) في الصحاح (صبر). والإداوة: إناء صغير من جلد يتخذ للماء. اللسان (أدا).

سورة «الكافرون»

وهي مكيةٌ في قول ابنِ مسعود والحسن وعِكرمة. ومدنِيةٌ في أحدِ قولي ابنِ عباسٍ وقتادةَ والضحَّاك[1]. وهي ستُّ آياتٍ.

وفي الترمذيِّ من حديثِ أنسٍ: «أنَّها تَعْدِلُ ثلثَ القرآن»[2]. وفي كتاب «الرد» لأبي بكر الأنباريِّ: أخبرنا عبد الله بن ناجية، قال: حدَّثنا يوسف، قال: حدَّثنا القعنبيُّ وأبو نعيم، عن موسى بن وَرْدان، عن أنس، قال: قال رسول الله ﷺ: «﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ تَعدِلُ ربعَ القرآن»[3]. ورواه موقوفاً عن أنس.

وخرَّج الحافظ أبو محمد عبدُ الغنيِّ بنُ سعيد عن ابن عمر قال: صلَّى النبيُّ ﷺ بأصحابه صلاةَ الفجرِ في سفر، فقرأ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، ثم قال: «قرأتُ بكم ثلثَ القرآنِ ورُبعَه»[4].

وروى جُبير بن مُطعِم أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «أتحبُّ يا جبيرُ إذا خرجتَ سفرًا أن تكون من أَمْثَلِ أصحابِك هيئةً وأكثرِهم زاداً»؟ قلتُ: نعم. قال: «فاقرأ هذه السورَ الخمسَ؛ من أوّل «قل يا أيها الكافرون ـ إلى ـ قل أعوذُ بربِّ الناس»، وافتتِحْ قراءتَك ببسم الله الرحمن الرحيم». قال: فوالله لقد كنتُ غنيًّا[5] كثير المالِ، إذا سافرتُ أكونُ أَبَذَّهم هَيئةً، وأقلَّهم زاداً، فمذ قرأتهنَّ صرتُ مِن أحسنهم هيئةً، وأكثرِهم زاداً، حتى أرجعَ من سفري ذلك[6].

وقال فَرْوة بن نَوْفل الأشجعيّ: قال رجل للنبيّ ﷺ: أوصني. قال: «اقرأ عند

---

(١) النكت والعيون ٦/ ٣٥٧ .

(٢) لم نقف على هذا الحديث، والذي في سنن الترمذي: ربع القرآن، وينظر التعليق الذي بعده.

(٣) أخرجه الترمذي (٢٨٩٣) و(٢٨٩٥)، وسلف ص ١٤٦ من هذا الجزء.

(٤) أخرجه عبد بن حميد في المنتخب (٨٥٤)، وابن عبد البر في التمهيد ٧/ ٢٥٨ و٢٦٠ .

(٥) في النسخ: غير، والمثبت من المصادر.

(٦) أخرجه أبو يعلى (٧٤١٩). قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ١٣٤ : رواه أبو يعلى وفيه مَن لم أعرفهم. وذكره الحافظ في المطالب العالية ٣/ ٣٩٨ ، والسيوطي في الدر المنثور ٦/ ٤٠٦ ونسباه لأبي يعلى.

منامك ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ فإنها براءة من الشرك». خرّجه أبو بكر الأنباريّ وغيره[(١)].

وقال ابن عباس: ليس في القرآن أشدُّ غيظاً لإبليس منها؛ لأنها توحيد وبراءة من الشرك.

وقال الأصمعيّ: كان يقال لـ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ المقشقِشتان، أي: أنهما تُبرئان من النفاق. وقال أبو عبيدة: كما يُقَشْقِشُ الهِناء الجربَ فيبرئُهُ. وقال ابن السكيت: يقال لِلقَرح والجُدَريّ إذا يبس وتقرَّف، وللجَرَب في الإبل إذا قَفَل: قد تَوَسَّف جلدُه، وتقشّر جِلده، وتَقَشْقَش جِلدُه[(٢)].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥﴾

ذكر ابن إسحاقَ وغيره عن ابن عباس: أن سببَ نزولها أن الوليدَ بن المغيرة، والعاصَ بن وائل، والأسودَ بن المُطَّلب[(٣)]، وأُميةَ بن خَلَف؛ لَقُوا رسولَ الله ﷺ فقالوا: يا محمد، هَلُمَّ فلتعبدْ ما نعبد، ونَعْبد ما تَعْبد، ونشترك نحن وأنت في أمرنا كلِّه، فإن كان الذي جئتَ به خيراً مما بأيدينا، كنا قد شاركناك فيه، وأخذنا بحظِّنا منه. وإن كان الذي بأيدينا خيراً مما بيدك، كنتَ قد شَرِكتنا في أمرنا، وأخذتَ بحظِّك منه، فأنزل الله عز وجل ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

وقال أبو صالح عن ابن عباس: إنهم قالوا لرسول الله ﷺ: لو استَلَمْتَ بعضَ هذه الآلهة لَصدَّقناك، فنزل جبريلُ على النبيِّ ﷺ بهذه السورة، فيئسوا منه، وآذَوه، وآذَوا

---

(١) أخرجه أحمد (٢٣٨٠٧)، وأبو داود (٥٠٥٥)، والترمذي بعد الحديث (٣٤٠٣) بنحوه. والرجل الذي قال النبي ﷺ: أوصني، هو نوفل الأشجعي أبو فروة رضي الله عنهما.

(٢) الصحاح (قشش).

(٣) في النسخ والنكت والعيون ٦/ ٣٥٧ (والكلام منه دون ذكر ابن عباس رضي الله عنهما): الأسود بن عبد المطلب، والخبر في السيرة النبوية ١/ ٣٦٢ ، وأسباب النزول للواحدي ص ٥٠٥ ـ دون نسبة ـ وتفسير الطبري ٢٤/ ٧٠٣ ، وتاريخ الطبري ٢/ ٣٣٧ ونسبه لسعيد بن مينا. والمثبت من هذه المصادر.

أصحابَه[١]. والألفُ واللامُ ترجع إلى معنى المعهود وإن كانت للجنس من حيث إنها كانت صفةً لأيّ؛ لأنها مُخاطبة لمن سبق في علم الله تعالى أنه سيموت على كُفره، فهي من الخُصوص الذي جاء بلفظ العموم. ونحوه عن الماورديّ[٢]: نزلت جواباً، وعَنَى بالكافرينَ قوماً مُعَيَّنين، لا جميع الكافرين؛ لأن منهم من آمنَ فعبد الله، ومنهم من مات أو قُتِل على كُفره، وهم المُخاطبون بهذا القول، وهم المذكورون.

قال أبو بكر بن الأنباريّ: وقرأ مَن طعن في القرآن: «قُلْ لِلذين كَفَروا لا أعْبد ما تَعْبُدون» وزعَم أن ذلك هو الصواب، وذلك افتراءٌ على ربِّ العالمين، وتضعيفٌ لمعنى هذه السورة، وإبطالُ ما قصده الله من أن يُذِلَّ نبيُّه المشركين[٣] بخطابه إيَّاهم بهذا الخطاب الزرِيّ[٤]، وإلزامهم ما يأنَفُ منه كلُّ ذي لُبٍّ وحِجًا. وذلك أن الذي يدَّعيه من اللفظ الباطل، قراءتنا تشتمل عليه في المعنى، وتزيد تأويلاً ليس عندهم في باطلهم وتحريفِهم. فمعنى قراءتنا: قل للذين كفروا: يا أيها الكافرون، دليلُ صحة هذا: أن العربيّ إذا قال لمخاطبه: قل لزيد: أَقْبِلْ إلينا، فمعناه: قل لزيد: يا زيدُ، أَقْبِلْ إلينا. فقد وقعت قراءتُنا على كل ما عندهم، وسقط من باطلهم أحسنُ لفظٍ وأبلغُ معنى؛ إذ كان الرسول عليه الصلاة والسلام لا[٥] يعتمدهم في ناديهم، فيقول لهم: «يا أيها الكافرون» وهو يعلم أنهم يغضبون من أن يُنْسبوا إلى الكُفر، ويُدخَلوا في جُملة أهله إلَّا وهو محروسٌ ممنوع من أن تنبسط عليه منهم يَدٌ، أو تقع به من جهتهم أَذِية. فمن لم يقرأ «قُلْ يا أيُّها الكافرون» كما أنزلها الله، أسقط آيةً لرسول الله ﷺ. وسبيلُ أهل الإسلام ألا يُسارعوا إلى مِثْلها، ولا يعتمدوا نبيهم باختزال الفضائل عنه التي منحه الله إيَّاها، وشرَّفه بها.

وأما وجهُ التكرار فقد قيل: إنه للتأكيد في قَطْع أطماعهم؛ كما تقول: والله، لا

---

(١) أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر ـ كما في الدر المنثور ٦/ ٤٠٤ ـ وذكره البغوي في تفسيره ٤/ ٥٣٥ دون نسبة.

(٢) في النكت والعيون ٦/ ٣٥٧.

(٣) في (م): للمشركين، والمثبت من النسخ الخطية.

(٤) في (د): الرديء.

(٥) قوله: لا، ليس في (د) و(م).

أَفعلُ كذا، ثم والله لا أَفعلُه.

قال أكثرُ أهل المعاني: نزل القرآن بلسان العرب، ومن مذاهبهم التَّكرار إرادةَ التأكيد والإفهام، كما أن من مذاهبهم الاختصار إرادةَ التخفيف والإيجاز[(١)]؛ لأن خُروجَ الخطيب والمتكلِّم من شيء إلى شيء، أولى من اقتصاره في المقام على شيء واحد؛ قال الله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ١٣] ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ١٥] ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ . ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ [النبأ: ٤-٥] و﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥-٦]. كل هذا على التأكيد.

وقد يقول القائل: اِرْمِ اِرْمِ، اعجَلْ اعجَلْ؛ ومنه قوله عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح: «فلا آذنُ، ثم لا آذنُ، إنما فاطمةُ بَضْعةٌ مني» خرَّجه مسلم[(٢)].

وقال الشاعر:

هلا سألتَ جموعَ كِنْـ ـدَةَ يومَ ولَّوْا أَيْنَ أَيْنَا[(٣)]

وقال آخر:

يا لَبَكْرٍ أَنْشِروا لي كُلَيْباً يا لَبَكْرٍ أينَ أينَ الفِرارُ[(٤)]

وقال آخر:

يا علقمهْ يا علقمهْ يا علقمهْ خيرَ تميم كُلِّها وأَكْرَمَهْ[(٥)]

وقال آخر:

يا أَقرعُ بنَ حابسٍ يا أَقْرَعُ إنكَ إنْ يُصْرَع أَخوكَ تُصْرَعُ[(٦)]

وقال آخر:

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٥٣٥.

(٢) في صحيحه (٢٤٤٩) من حديث المسور بن مخرمة ﷺ، وهو في مسند أحمد (١٨٩٢٦).

(٣) البيت لعَبيد بن الأبرص، وهو في ديوانه ص ١٤٢.

(٤) البيت لمهلهل، وهو في الكتاب ٢/ ٢١٥، والخزانة ٢/ ١٦٢.

(٥) لم نقف على قائله، وذكره السمين الحلبي في الدر المصون ١١/ ١٣٣.

(٦) سلف ٥/ ٢٨٢.

أَلَا يا اسلَمِي ثم اسلَمِي ثُمَّتَ اسْلَمِي ثَلاثُ تَحِيَّاتٍ وإنْ لَمْ تَكَلَّمي[١]

ومثله كثير. وقيل: هذا على مطابقة قولهم: تَعبُد آلهَتنا ونعبدُ إلهَكَ، ثم تعبد آلهَتنا ونعبد إلهك، ثم تعبد آلهَتنا ونعبد إلهك، فنجري على هذا أبدًا سَنَةً وسنة. فأُجيبوا عن كل ما قالوه بضِدِّه؛ أي: إنَّ هذا لا يكون أبداً.

قال ابن عباس: قالت قريش للنبيِّ ﷺ: نحن نُعطيك من المال ما تكون به أغنَى رجلٍ بمكة، ونزوِّجك مَنْ شئت، ونطأ عَقِبَك ـ أي: نمشي خَلْفَك ـ وتَكُفُّ عن شَتْم آلهتنا، فإنْ لم تفعل فنحن نَعْرِض عليك خَصْلةً واحدة هي لنا ولك صلاح؛ تعبدُ آلهَتنا: اللاتَ والعُزّى سنةً، ونحن نعبدُ إلهكَ سنةً؛ فنزلت السورة[٢]. فكان التكرار في «لا أعبدُ ما تعبدون»؛ لأن القوم كرَّروا عليه مقالَهم مرةً بعد مرة. والله أعلم.

وقيل: إنما كرَّر بمعنى التغليظ. وقيل: أي: «لا أعبدُ» الساعةَ «ما تعبدون. ولا أنتم عابدون» الساعةَ «ما أَعبدُ». ثم قال: «ولا أنا عابِدٌ» في المستقبل «ما عبدتم. ولا أنتم» في المستقبل «عابِدون ما أَعبدُ». قاله الأخفش والمبرّد[٣].

وقيل: إنهم كانوا يعبدون الأوثان، فإذا ملُّوا وَثَنًا، وسَئِموا العبادةَ له رَفَضوه، ثم أخذوا وَثَناً غيرَه بشهوةِ نُفوسهم، فإذا مرُّوا بحجارة تُعجبهم أَلْقَوا هذه، ورفعوا تلك، فعظَّموها ونصبوها آلهةً يعبدونها، فأُمِر عليه الصلاة والسلام أن يقول لهم: «لا أَعبدُ ما تعبدون» اليومَ من هذه الآلهةِ التي بين أيديكم. ثم قال: «ولا أنتم عابدون ما أعبد» وانما تعبدون الوثن الذي اتخذتموه، وهو عندكم الآن «ولا أنا عابِدٌ ما عبدتم» أي: بالأمس من الآلهة التي رفضتموها، وأقبلتُم على هذه. «ولا أنتم عابدون ما أعبد» فإني أعبدُ إلهي.

وقيل: إنَّ قوله تعالى: «لا أَعبدُ ما تعبدون. ولا أنتم عابدون ما أعبدُ» في الاستقبال. وقوله: «ولا أنا عابِدٌ ما عبدتُم» على نَفْي العبادة منه لِمَا عَبَدوا في

---

(١) البيت لحُميد بن ثور الهلالي، وهو في يوانه ص ١٣٣ ، وفيه: بلى فاسلمي، بدل: ألا يا اسلمي.

(٢) أخرجه الطبري ٢٤/ ٧٠٣ .

(٣) قول الأخفش ذكره الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٣٥٨ ، وأبو حيان في البحر ٨/ ٥٢١ . وقول المبرد ذكره النحاس في إعراب القرآن ٥/ ٣٠١ .

الماضي. ثم قال: «ولا أنتم عابِدون ما أَعبد» على التكرير في اللفظ دون المعنى، من قِبل أن التقابل يُوجب أن يكون: ولا أنتم عابدون ما عَبدتُ، فعدلَ عن لفظ عَبدتُ إلى أَعبدُ، إشعاراً بأنَّ ما عبد في الماضي هو الذي يعبد في المستقبل، مع أن الماضي والمستقبل قد يقع أحدُهما موقعَ الآخر. وأكثرُ ما يأتي ذلك في أخبار الله عز وجل.

وقال: «ما أعبدُ»، ولم يقل: مَنْ أعبدُ؛ لِيقابل به «ولا أنا عابِدٌ ما عبدتم» وهي أصنامٌ وأوثان، ولا يصلحُ فيها إلا «ما» دون «مَنْ» فحُمل الأوّل على الثاني، لِيتقابل الكلام ولا يتنافى[1]. وقد جاءت «ما» لمن يعقل، ومنه قولهم: سبحان ما سخركنَّ لنا.

وقيل: إنَّ معنى الآيات وتقديرَها: قل: يا أيها الكافرون، لا أَعبدُ الأصنامَ التي تعبدُونها، ولا أنتم عابدون اللهَ عز وجل الذي أَعبدُه؛ لإشراكِكم به، واتّخاذكم الأصنام، فإنْ زعمتم أنكم تعبدونه، فأنتم كاذبون؛ لأنكم تعبدونه مشركين. فأنا لا أعبدُ ما عبدتُم، أي: مثلَ عبادتكم، فـ «ما» مصدرية. وكذلك «ولا أنتم عابِدون ما أعبد» مصدرية أيضاً؛ معناه: ولا أنتم عابدون مثلَ عبادتي التي هي توحيده سبحانه وتعالى، والله أعلم بالصواب.

قوله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾

فيه معنى التهديد؛ وهو كقوله تعالى: ﴿لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ﴾ [القصص:٥٥] أي: إنْ رَضِيتُم بدينكم، فقد رَضِينا بديننا. وكان هذا قبلَ الأمر بالقتال، فَنُسِخَ بآية السيف. وقيل: السورة كلُّها منسوخة. وقيل: ما نُسِخَ منها شيء لأنها خبر[2]. ومعنى «لكم دِينكم» أي: جزاءُ دينكم، ولي جزاءُ ديني. وسمّى دينَهم ديناً، لأنهم اعتقدوه وَتَوَلَّوه. وقيل: المعنى: لكم جزاؤكم ولي جزائي؛ لأن الدِّين الجزاء.

وفتح الياء من «ولِيَ دِينِ» نافع، والبزي عن ابن كثير باختلاف عنه، وهشام عن

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٣٥٨.

(٢) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٣/ ١٥٤ - ١٥٥، وزاد المسير ٩/ ٢٥٤.

ابن عامر، وحفص عن عاصم[١]. وأثبت الياء في «ديني» في الحالين نصر بن عاصم وسلام ويعقوب[٢]؛ قالوا: لأنها اسم مثل الكاف في دينكم، والتاء في قمت. الباقون بغير ياء، مثل قوله تعالى: ﴿فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ [الشعراء:٧٨]، ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [آل عمران:٥٠] ونحوه، اكتفاءً بالكسرة، واتباعاً لخطّ المصحف؛ فإنه وقع فيه بغير ياء.

تفسير سورة «النصر»

وهي مدنية بإجماع. وتُسمَّى سورة «التوديع»[٣]. وهي ثلاثُ آيات. وهي آخرُ سورة نزلت جميعاً؛ قاله ابن عباس في «صحيح» مسلم[٤].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ①﴾

النصر: العَوْن؛ مأخوذٌ من قولهم: قد نَصَرَ الغيثُ الأرضَ: إذا أعان على نَباتها، ومَنَعَ[٥] من قَحْطِها. قال الشاعر:

إذا انسلخ الشهرُ الحرامُ فودِّعي ... بلادَ تميمٍ وانْصُري أرضَ عامِرِ[٦]

ويُروى:

إذا دخلَ الشهرُ الحرامُ فجاوِزِي ... بلادَ تميم وانصُري أرضَ عامِرِ[٧]

يقال: نصره على عدوِّه ينصره نصراً، أي: أعانه. والاسم النُّصْرة. واستنصره على عدوِّه: أي: سأله أن ينصره عليه. وتناصروا: نصر بعضُهم بعضاً.

---

(١) السبعة ص ٦٩٩، والتيسير ص ٢٢٥.

(٢) قراءة يعقوب في النشر ٢/ ٤٠٤.

(٣) ذكره الرازي في تفسيره ٣٢/ ١٥٥.

(٤) الحديث (٣٠٢٤).

(٥) لفظ: ومنع، ليس في (م). والكلام من النكت والعيون ٥/ ٣٥٩.

(٦) قائله الراعي النميري، وهو في ديوانه ص ١٣٣، وسلف ٢/ ٨٠.

(٧) هذه رواية الجوهري في الصحاح (نصر) والكلام منه.

ثم قيل: المراد بهذا النصر نصرُ الرسول ﷺ على قريش؛ قاله[١] الطبريّ[٢]. وقيل: نَصْره على مَن قاتله من الكفار؛ فإنَّ عاقبةَ النصر كانت له. وأما الفتحُ فهو فتح مكة؛ عن الحسن ومجاهد وغيرهما. وقال ابن عباس وسعيد بن جُبير: هو فتحُ المدائن والقصور. وقيل: فتحُ سائر البلاد. وقيل: ما فتحه عليه من العلوم.

و«إذا» بمعنى قد، أي: قد جاء نصرُ الله؛ لأن نزولَها بعد الفتح. ويمكن أن يكون معناه: إذا يجيئك.

قوله تعالى: ﴿وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢﴾

قوله تعالى: ﴿وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ﴾ أي: العرب وغيرهم ﴿يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ أي: جماعاتٍ، فوجاً بعد فوج. وذلك لما فُتحت مكة قالت العرب: أما إذا ظَفِرَ محمد بأهل الحرم، وقد كان الله أجارهم من أصحاب الفيل، فليس لكم به يدان[٣]. فكانوا يُسْلِمون أفْواجاً؛ أمّةً أمّةً[٤]. قال الضحاك: والأُمّة: أربعون رجلاً[٥]. وقال عكرمة ومقاتل: أراد بالناس أهل اليمن. وذلك أنه ورد من اليمن سبع مئة إنسان مؤمنين طائعين[٦]. بعضهم يُؤَذِّنون، وبعضهم يقرؤون القرآن، وبعضهم يُهَلِّلون؛ فَسُرَّ النبيُّ ﷺ بذلك، وبكى عمر وعباس[٧].

وروى عكرمة عن ابن عباس أن النبيَّ ﷺ قرأ: «﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ وجاء أهلُ اليَمَنِ رَقيقةً أفْئِدَتُهُمْ، لَيِّنَةً طِباعهم، سَخِية قُلوبهم، عظيمةً خشيتُهم، فدخلوا في دين الله أفواجًا»[٨].

---

(١) لفظ: قاله، ليس في (م).

(٢) في تفسيره ٢٤/ ٧٠٥، ونقله المصنف عنه بواسطة الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٣٥٩ ـ ٣٦٠، وما بعده منه.

(٣) اليد: القوة والقدرة والسلطان. القاموس (يدي).

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٥٤١.

(٥) النكت والعيون ٦/ ٣٦٠.

(٦) المحرر الوجيز ٥/ ٥٣٢، وتفسير البغوي ٤/ ٥٤١.

(٧) في (د) و(م): وابن عباس. وسيأتي خبرهما في تفسير الآية التالية.

(٨) أخرجه الطبراني في الكبير (١١٩٠٣) بنحوه.

وفي «صحيح» مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «أتاكم أهلُ اليمن، هم أضعفُ قلوباً، وأرقُّ أفئدةً. الفِقهُ يَمَانٍ، والحِكْمة يَمَانِية»[١]. ورُوي أنه ﷺ قال: «إني لأجدُ نَفَس ربِّكم مِن قِبلِ اليَمَنْ»[٢] وفيه تأويلان: أحدهما: أنه الفَرَج؛ لِتتابع إسلامهم أفواجاً. والثاني: معناه: أن الله سبحانه وتعالى نَفَّس الكرب عن نبيِّه ﷺ بأهل اليمن، وهم الأنصار. وروى جابر بن عبد الله قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إنَّ الناسَ دخلوا في دين الله أفواجاً، وسيخرجون منه أفواجاً» ذكره الماورديّ[٣]، ولفظ الثعلبيّ: وقال أبو عمار: حدَّثني جارٌ لجابر، قال: سألني جابر عن حال الناس، فأخبرته عن حال اختلافهم وفُرْقتهم، فجعل يبكي ويقول: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إن الناسَ دخَلُوا في دين الله أفواجاً، وسَيَخْرُجُونَ من دينِ اللهِ أفْواجًا»[٤].

قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣﴾

قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُۚ﴾ أي: إذا صَليت فأكثر من ذلك. وقيل: معنى سَبِّح: صَلِّ؛ عن ابن عباس[٥]. «بِحَمْدِ ربك» أي: حامداً له على ما آتاك من الظَّفَر والفتح. «واسْتَغْفِرْهُ» أي: سَلِ اللهَ الغُفران. وقيل: «فسبِّح» المراد به: التنزيهُ؛ أي: نَزِّهه عما لا يجوز عليه مع شُكرك له. «واسْتَغْفِرْهُ» أي: سَلِ اللهَ الغُفْران مع مُداومةِ الذِّكر. والأوّل أظهر.

روى الأئمة ـ واللفظ للبخاريّ ـ عن عائشةَ رضي الله عنها قالت: ما صلَّى رسولُ الله ﷺ صلاةً بعد أن نزلت عليه سورةُ «إِذَا جاءَ نَصْرُ اللهِ والفَتْحُ» إلا يقول:

---

(١) صحيح مسلم (٥٢): (٨٤)، وأخرجه أحمد (٧٢٠٢)، والبخاري (٤٣٩٠).

(٢) أخرجه أحمد (١٠٩٧٨) من حديث أبي هريرة ﷺ ولفظه: «ألا إن الإيمان يمان، والحكمة يمانية، وأجِدُ نَفَسَ ربكم من قبل اليمن..».

(٣) في النكت والعيون ٥/ ٣٦٠، وتخريج حديث جابر ﷺ في التعليق التالي.

(٤) أخرجه أحمد (١٤٦٩٦)، وإسناده ضعيف لجهالة جار جابر ﷺ.

(٥) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٣٦١.

«سبحانَكَ رَبَّنا وَبِحَمْدِك، اللهمَّ اغفِرْ لي»(١).

وعنها قالت: كان رسولُ الله ﷺ يُكْثِرُ أن يقولَ في ركوعه وسجوده: «سُبحانكَ اللهمَّ رَبَّنا وَبِحَمْدِكَ، اللهمَّ اغفِرْ لِي»، يتأوّل القرآن(٢).

وفي غير الصحيح: وقالت أُمُّ سَلَمة: كان النبيّ ﷺ آخرَ أمرِه لا يقوم ولا يقعد، ولا يجيء ولا يذهب إلا قال: «سبحان اللهِ وبحمِدِه، أَسْتغفِرُ اللهَ وأَتُوبُ إليه، قال: «فإنّي أُمِرت بها»، ثم قرأ: «إذا جاءَ نصرُ اللهِ والفتحُ» إلى آخرها(٣).

وقال أبو هريرة: اجتهدَ النبيّ ﷺ بعد نزولها، حتى تَوَرَّمَت قدماه. ونَحَل جسمه، وقلَّ تَبَسُّمه، وكَثُرَ بكاؤه. وقال عِكرمة: لم يكن النبيّ ﷺ قَطُّ أشدَّ اجتهاداً في أمور الآخرة ما كان منه عند نزولها.

وقال مقاتل: لما نزلت قرأها النبيّ ﷺ على أصحابه، ومنهم أبو بكر وعمر وسعد ابن أبي وقاص، ففرِحوا واستبشروا، وبكى العباس، فقال له النبيّ ﷺ: «ما يُبْكِيكَ يا عَمّ؟» قال: نُعِيَتْ إليكَ نَفْسُك. قال: «إنه لكما تقول»؛ فعاش بعدها ستين يوماً، ما رُئِي فيها ضاحكاً مستبشراً(٤).

وقيل: نزلت في مِنًى بعد أيام التشريق، في حجَّة الوداع(٥)، فبكى عُمر والعباس، فقيل لهما: إنَّ هذا يومُ فرح، فقالا: بل فيه نَعْيُ النبيِّ ﷺ. فقال النبيّ ﷺ: «صَدَقتما، نُعِيت إليّ نفسي».

وفي البخاريّ وغيره عن ابن عباس قال: كان عمرُ بن الخطاب يَأْذَن لأهل بدر، ويأذن لي معهم. قال: فَوجَدَ بعضُهم من ذلك، فقالوا: يأذن لهذا الفتى معنا ومن أبنائنا من هو مِثْله! فقال لهم عمر: إنه مَنْ قد علمتم. قال: فأَذِنَ لهم ذاتَ يوم، وأَذِنَ

---

(١) صحيح البخاري (٤٩٦٧)، وأخرجه أحمد (٢٥٩٢٨).

(٢) أخرجه البخاري (٤٩٦٨)، ومسلم (٤٨٤).

(٣) أخرجه الطبري ٢٤/ ٧١١ بنحوه، وأورده ابن كثير في تفسيره عند هذه الآية، وقال: غريب.

(٤) الكشاف ٤/ ٢٩٥ ، والنكت والعيون ٥/ ٣٦١ - ٣٦٢ ، قال الحافظ ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص ١٨٩ : ذكره الثعلبي عن مقاتل، وسنده إليه دون الكتاب.

(٥) المحرر الوجيز ٥/ ٥٣٣ عن ابن عمر رضي الله عنهما.

لي معهم، فسألهم عن هذه السورة «إذا جاء نصرُ اللهِ والفتح» فقالوا: أمر الله جلّ وعزّ نبيَّه ﷺ إذا فُتِحَ عليه أن يستغفره، وأن يتوب إليه. فقال: ما تقول يا ابن عباس؟ قلت: ليس كذلك، ولكن أخبر اللهُ نبيَّه ﷺ حضورَ أجله، فقال: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ فذلك علامةُ موتك ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾. فقال عمر ﷺ: تلومونني عليه؟! وفي البخاريّ: فقال عمر: ما أعلمُ منها إلا ما تقول(١). ورواه الترمذيّ، قال: كان عمرُ يسألني مع أصحاب النبيّ ﷺ، فقال له عبد الرحمن ابن عوف: أتسألُه ولنا بنون مِثْلُه؟ فقال له عمر: إنه مِنْ حيثُ نعلم. فسأله عن هذه الآية: «إذا جاء نصر اللهِ والفتح». فقلت: إنما هو أجلُ رسولِ الله ﷺ، أَعْلَمَه إيَّاه، وقرأ السورةَ إلى آخرها. فقال له عمر: والله، ما أعلمُ منها إلا ما تعلم. قال: هذا حديثٌ حسنٌ صحيح(٢).

فإن قيل: فماذا يغفر للنبيّ ﷺ حتى يُؤمر بالاستغفار؟ قيل له: كان النبيّ ﷺ يقول في دعائه: «رَبِّ اغفِرْ لي خَطيئَتي وجَهْلِي، وإسْرافي في أَمْرِي كُلِّه، وما أنت أعلمُ به مني. اللهم اغفِرْ لي خَطَئي وعَمْدِي، وجَهْلِي وهَزْلي، وكل ذلك عندي. اللهم اغفر لي ما قدَّمتُ وما أخَّرتُ، وما أعلَنْت وما أسْرَرْت، أنت المُقدِّم وأنت المُؤخِّر، إنكَ على كلِّ شيءٍ قَدِير»(٣). فكان ﷺ يستقصر نَفْسَه لعظم ما أنعم الله به عليه، ويرى قُصوره عن القيام بحق ذلك ذُنوباً(٤).

ويَحتمِلُ أن يكون بمعنى: كُنْ مُتعلِّقًا به، سائلاً راغباً، متضرعاً على رؤية التقصير في أداء الحقوق؛ لئلا ينقطع إلى رؤية الأعمال. وقيل: الاستغفار تَعَبُّدٌ، يجب إتيانُه، لا للمغفرة، بل تعبداً. وقيل: ذلك تنبيهٌ لأمته، لكيلا يأمنوا ويتركوا

(١) صحيح البخاري (٤٩٧٠)، وأخرجه أحمد (٣١٢٨).

(٢) سنن الترمذي (٣٣٦٢)، وهو عند البخاري (٣٦٢٧).

(٣) أخرجه أحمد (١٩٤٨٩) و(١٩٧٣٨)، والبخاري (٦٣٩٨)، ومسلم (٢٧١٩) من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٩٨٠ .

الاستغفار. وقيل: «واستغفره» أي: استغْفِر لأُمتك.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾: أي: على المسبحين والمستغفرين، يتوبُ عليهم ويرحمهم، ويقبل توبتَهم. وإذا كان عليه الصلاة والسلام وهو معصومٌ يؤمر بالاستغفار، فما الظنُّ بغيره؟ روى مسلم عن عائشة قالت: كان رسولُ الله ﷺ يُكْثر من قول: «سبحان الله وَبِحَمْدِهِ، أَستغفِرُ اللهَ وأَتُوبُ إليهِ». قالت: فقلت: يا رسولَ الله، أراك تُكثِرُ من قول: «سبحان اللهِ وبِحَمْدِهِ، أَستغفر اللهَ وأتوبُ إليه؟» فقال: «خَبَّرني ربي أني سأرى علامةً في أمتي، فإذا رأيتها أكثرتُ من قول سُبْحان اللهِ وبِحَمْدِهِ، أستغفرُ اللهَ وأتوبُ إليه، فقد رأيتُها: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ فتح مكة ﴿وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾»[1].

وقال ابن عمر: نزلت هذه السورة بِمِنًى في حِجَّة الوَداع، ثم نزلت ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي﴾ [المائدة:٣] فعاش بعدهما النبي ﷺ ثمانين يوماً. ثم نزلت آية الكَلالة [النساء:١٧٦]، فعاش بعدها خمسين يوماً. ثم نزلت ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ﴾ [التوبة:١٢٨] فعاش بعدها خمسة وثلاثين يوماً. ثم نزلت ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ [البقرة:٢٨١] فعاش بعدها أحداً وعشرين يوماً[2]. وقال مقاتل: سبعة أيام. وقيل غير هذا مما تقدَّم في «البقرة» بيانُه[3]، والحمد لله.

---

(١) صحيح مسلم (٤٨٤)، وهو في مسند أحمد (٢٤٠٦٥).

(٢) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٣٦٢ دون ذكر آية الكلالة، ولم ينسبه وقول مقاتل الذي بعده منه.

(٣) ٤/ ٤٢١.

سورة «تبت»

وهي مكية بإجماع، وهي خمس آيات

قوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ①﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ﴾ في «الصحيحين» وغيرهما - واللفظ لمسلم - عن ابن عباس قال: لما نزلت ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]. ورَهْطَكَ مِنْهُمُ المُخلَصين[١]، خرج رسولُ الله ﷺ حتى صَعِد الصَّفَا، فهتَفَ: يا صَباحاه، فقالوا: من هذا الذي يهتف؟ قالوا: محمد. فاجتمعوا إليه، فقال: «يا بَني فُلان، يا بني فلان، يا بني فُلان، يا بني عبد مناف، يا بني عبد المطَّلِب» فاجتمعوا إليه، فقال: «أرَأَيْتَكُمْ لو أخبرتُكم أن خيلاً تخرج بسفح هذا الجبل، أكنتم مُصَدِّقيَّ؟» قالوا: ما جرَّبنا عليك كذباً. قال: «فإنّي نذيرٌ لكم بين يَدي عذاب شديد». فقال أبو لهب: تَبًّا لَكَ، أما جمعتنا إلّا لهذا، ثم قام، فنزلت هذه السورة «تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وقَدْ تب» كذا قرأ الأعمش إلى آخر السورة[٢].

زاد الحُميدي وغيره: فلما سمعت امرأتُه ما نزل في زوجها وفيها من القرآن، أَتَتْ رسولَ الله ﷺ وهو جالسٌ في المسجد عند الكعبة، ومعه أبو بكر ﷺ، وفي يدها فِهْر[٣] من حجارة، فلما وقفتْ عليه أخذ الله بصرَها عن رسول الله ﷺ، فلا ترى إلا أبا بكر. فقالت: يا أبا بكر، إنَّ صاحبك قد بلغني أنه يهجوني، والله لو وجدتُه لَضربتُ بهذا الفِهْر فاه، والله إني لشاعرة:

مُذَمَّماً عَصَيْنَا　　وأمرَهُ أَبَيْنَا　　وَدِينَه قَلَيْنا

---

(١) قال الإمام النووي في شرح مسلم ٣/ ٨٢ : ظاهر هذه العبارة أن قوله: ورَهْطك منهم المخلصين كان قرآناً أُنزل، ثم نُسخت تلاوته.

(٢) صحيح البخاري (٤٩٧١)، وصحيح مسلم (٢٠٨)، وهو في مسند أحمد (٢٥٤٤). وسلف ١٧/ ٣٣٠ .

(٣) الفِهْر: الحجر ملء الكف، وقيل: الحجر مطلقاً. النهاية (فهر).

ثم انصرفت. فقال أبو بكر: يا رسول الله، أما تراها رأتك؟ قال: «ما رأتني، لقد أخذ اللهُ بصرَها عني»[١]. وكانت قريش إنما تُسمّي رسولَ الله ﷺ مُذَمَّماً؛ يسبُّونه، وكان يقول: «ألا تعجبون لِما صرفَ الله عني من أذى قريش، يَسُبّون ويهجون مُذمَّماً وأنا محمد».

وقيل: إن سببَ نزولها ما حكاه عبد الرحمن بن زيد: أن أبا لهب أتى النبيَّ ﷺ فقال: ماذا أُعْطَى إن آمنتُ بك يا محمد؟ فقال: «كما يُعْطَى المسلمون» قال: ما لي عليهم فضل؟!. قال: «وأيُّ شيء تَبْغِي؟» قال: تبًّا لهذا من دين، أن أكون أنا وهؤلاء سواء! فأنزل الله تعالى فيه: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾[٢].

وقول ثالث حكاه عبد الرحمن بن كيسان قال: كان إذا وفد على النبيِّ ﷺ وفدٌ انطلق إليهم أبو لهب، فيسألونه عن رسول الله ﷺ ويقولون له: أنت أعلمُ به منا. فيقول لهم أبو لهب: إنه كَذَّاب ساحر. فيرجعون عنه ولا يَلْقَوْنه. فأتى وفد، فَفَعَل معهم مثل ذلك، فقالوا: لا ننصرف حتى نراه، ونسمعَ كلامه. فقال لهم أبو لهب: إنا لم نَزَلْ نُعالجه فتبًّا له وتَعْسًا. فأُخبِر بذلك رسول الله ﷺ، فاكتأب لذلك؛ فأنزل الله تعالى: «تَبَّتْ يَدا أَبِي لَهَبٍ» السورة[٣].

وقيل: إن أبا لهب أراد أن يرميَ النبي ﷺ بحجر، فمنعه الله من ذلك، وأنزل الله تعالى: «تبت يدا أبي لهب وتبَّ» للمنع الذي وقع به.

ومعنى: «تَبَّتْ»: خَسِرَتْ؛ قاله قتادة. وقيل: خابت؛ قاله ابن عباس. وقيل: ضلَّت؛ قاله عطاء. وقيل: هلكت؛ قاله ابن جُبير. وقال يمان بن رِئاب: صَفِرتْ من كل خير.

حكى الأصمعيّ عن أبي عمرو بن العلاء: أنه لما قُتل عثمان رحمه الله سمع

---

(١) مسند الحميدي (٣٢٣) بنحوه، ونقله المصنف عنه بواسطة ابن العربي في أحكام القرآن ٤/١٩٨١ وما بعده منه، وينظر السيرة النبوية ١/٣٥٦.

(٢) أخرجه الطبري ٢٤/٧١٤.

(٣) النكت والعيون ٥/٣٦٤.

الناسُ هاتفاً يقول:

لـقـد خـلَّـوْكَ وانْـصَـرَفُـوا ... فـمـا آبُـوا ولا رَجَـعُـوا

ولـم يُـوفُـوا بـنَـذْرِهِـمُ ... فـيـاتَـبًّـا لِـمَـا صَـنَـعُـوا[1]

وخصَّ اليدين بالتَّباب؛ لأن العمل أكثرُ ما يكون بهما، أي: خَسِرتا وخَسِرَ هو. وقيل: المراد باليدين نَفْسه. وقد يُعبَّر عن النَّفس باليد، كما قال الله تعالى: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ [الحج: ١٠] أي: نفسك[2]. وهذا مَهْيَع[3] كلامِ العرب؛ تُعبِّر ببعض الشيء عن كلِّه؛ تقول: أصابته يد الدهر، ويدُ الرزايا والمنايا، أي: أصابه كلُّ ذلك. قال الشاعر:

لَـمَّـا أَكَـبَّـتْ يَـدُ الـرَّزايـا ... عـلـيـهِ نـادَى ألا مُـجِـيـرُ[4]

﴿وَتَبَّ﴾ قال الفرّاء[5]: التبُّ الأول: دعاء، والثاني خبر؛ كما يقال: أهلكه اللهُ وقد هلك. وفي قراءة عبد الله وأبيّ: «وَقَدْ تَبَّ»[6].

وأبو لهب اسمه عبد العُزَّى، وهو ابن عبد المطلب، عمُّ النبيّ ﷺ. وامرأتُه العوراء أمُّ جميل، أخت أبي سفيان بن حرب[7]، وكلاهما كان شديدَ العداوة للنبيّ ﷺ.

قال طارق بن عبد الله المحاربيّ: إني بسوق ذي المَجاز، إذ أنا بإنسان يقول: «يا أيها الناس، قولوا: لا إلهَ إلّا اللهُ، تُفْلِحُوا»، وإذا رجلٌ خلفه يرميه، قد أدمى ساقيه وعُرقوبيه ويقول: يا أيها الناس، إنه كذابٌ، فلا تُصدقوه. فقلت: مَن هذا؟

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٣٦٤ .

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢٦٤ .

(٣) طريق مهيع: واضح واسع بيِّن. اللسان (هيع).

(٤) لم نهتد إلى قائله.

(٥) في معاني القرآن ٣/ ٢٩٨ .

(٦) سلفت في أول السورة من قراءة الأعمش.

(٧) التعريف والإعلام ص ١٨٨ .

فقالوا: محمد، زعم أنه نبيٌّ. وهذا عمُّه أبو لهب يزعُم أنه كذاب[١].

وروى عطاء عن ابن عباس قال: قال أبو لهب: سَحَرَكم محمد، إن أحدَنا ليأكل الجَذَعة، ويشرب العُسَّ من اللبن فلا يشبع، وإن محمداً قد أشبعكم من فَخِذ شاة، وأرواكم من عُسِّ لبن[٢].

الثانية: قوله تعالى: ﴿أَبِي لَهَبٍ﴾ قيل: سُمِّي باللَّهب لحسنه، وإشراق وجهه. وقد ظنَّ قوم أن في هذا دليلاً على تكنِية المشرك؛ وهو باطل، وإنما كَنَاه الله بأبي لهب - عند العلماء - لمعانٍ أربعة:

الأول: أنه كان اسمه عبدَ العُزَّى، والعُزَّى: صنم، ولم يُضف الله في كتابه العبودية إلى صنم.

الثاني: أنه كان بكنيته أشهرَ منه باسمه؛ فصرَّح بها.

الثالث: أن الاسم أشرفُ من الكنية، فحطَّه الله عز وجل عن الأشرف إلى الأنقص؛ إذا لم يكن بُدٌّ من الإخبار عنه، ولذلك دعا الله تعالى الأنبياء بأسمائهم، ولم يَكْنِ عن أحدٍ منهم. ويدلُّك على شرف الاسم على الكنية: أن الله تعالى يُسَمَّى ولَا يُكنى، وإن كان ذلك لظهوره وبيانه؛ واستحالة نسبة الكُنية إليه، لتقدُّسه عنها.

الرابع: أن الله تعالى أراد أن يُحقق نسبته، بأن يدخله النار، فيكون أباً لها؛ تحقيقاً للنسب، وإمضاء للفأل والطِّيَرة التي اختارها لنفسه. وقد قيل: اسمه كُنيته. فكان أهله يُسمُّونه أبا لهب، لِتلهُّب وجهه وحسنه؛ فصرفهم الله عن أن يقولوا: أبو النُّور، وأبو الضياء، الذي هو المشترك بين المحبوب والمكروه، وأجرى على ألسنتهم أن يُضيفوه إلى لَهَب الذي هو مخصوص بالمكروه المذموم، وهو النار، ثم حقَّق ذلك بأن يجعلها مَقَرَّه[٣].

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ٢/ ٦١٢، وله شاهد من حديث ربيعة بن عِبَاد الدِّيلي عند أحمد (١٦٠٢٣).

(٢) أخرج نحوه ابن سعد في طبقاته ١/ ١٨٧ من حديث علي ﷺ. والعُسُّ: القدح الكبير. القاموس (عسس).

(٣) الكلام من أول المسألة إلى هذا الموضع من أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٩٨٢ .

وقرأ مجاهد وحُميد وابن كثير وابن مُحَيْصِن: «أَبِي لَهْبٍ» بإسكان الهاء[(١)]. ولم يختلفوا في «ذَاتَ لَهَبٍ» أنه مفتوحة؛ لأنهم راعَوْا فيها رؤوس الآي.

الثالثة: قال ابن عباس: لمَّا خلق اللهُ عزَّ وجلَّ القلم قال له: اكتُبْ ما هو كائن، وكان فيما كتب ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ﴾[(٢)]. وقال منصور: سُئِلَ الحسنُ عن قوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ﴾ هل كان في أم الكتاب؟ وهل كان أبو لهب يستطيع ألَّا يصلَى النار؟ فقال: والله ما كان يستطيع ألَّا يصلاها، وإنها لفي كتاب الله من قبل أن يُخْلَق أبو لهب وأبواه.

ويُؤيِّده قولُ موسى لآدم: أنت الذي خلقَكَ اللهُ بيده، ونفخَ فيك من رُوحه، وأسكنك جَنَّته، وأسْجَدَ لك ملائكته، خَيَّبْتَ الناس، وأخرَجتهم من الجنة. قال آدم: وأنت موسى الذي اصطفاك بكلامه، وأعطاك التوراة، تَلُومني على أمر كتبه الله عليَّ قبل أن يخلقَ الله السماواتِ والأرضَ. قال النبيّ ﷺ: «فحجَّ آدمُ مُوسَى»، وقد تقدّم هذا[(٣)].

وفي حديث هَمَّام عن أبي هريرة أن آدم قال لموسى: «بِكَمْ وجدتَ اللهَ كَتَبَ التوراةَ قبلَ أنْ يَخْلُقَني»؟ قال: «بألفي عام» قال: فهل وجدتَ فيها: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ قال: «نعم» قال: «أَفتلومني على أمر كتب اللهُ عليَّ أن أفعله من قبل أن أُخلق بألفي عام». فحَجَّ آدمُ موسى[(٤)]. وفي حديث طاووس وابن هُرْمز والأعرج عن أبي هريرة: «بأربعين عاماً»[(٥)].

---

(١) قراءة ابن كثير في السبعة ص ٧٠٠ ، والتيسير ص ٢٢٥ ، وقراءة ابن محيصن في المحرر الوجيز ٥/ ٥٣٤ .

(٢) أخرجه الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ١٤/ ٢٠٥ .

(٣) أخرجه البخاري (٦٦١٤)، ومسلم (٢٦٥٢)، بنحوه، وسلف ١٤/ ١٥٣ ، وينظر ما بعده.

(٤) لم نقف على قوله: «بألفي عام» من حديث أبي هريرة ﷺ، وقد أخرجه ابن النجار في تاريخه - كما في الدر المنثور ١/ ٥٥ - من حديث ابن عمر رضي الله عنهما - والذي في صحيح مسلم (٢٦٥٢): «أربعين سنة» كما سيأتي بعده.

(٥) حديث طاووس عند أحمد (٧٣٨٧)، والبخاري (٦٦١٤)، ومسلم (٢٦٥٢): (١٣)، وحديث ابن هرمز والأعرج عند مسلم (٢٦٥٢): (١٥). وسلف ٥/ ٣٧٥ .

قوله تعالى: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢﴾

أي: ما دَفعَ عنه عذابَ الله ما جمع من المال، ولا ما كسب من جاه. وقال مجاهد: من الولد[(١)]؛ ووَلَد الرجل مِن كَسْبه. وقرأ الأعمش: «وَمَا اكْتَسَبَ» ورواه عن ابن مسعود[(٢)].

وقال أبو الطُّفَيل: جاء بنو أبي لهب يختصمون عند ابن عباس، فاقتتلوا، فقام لِيحْجُزَ بينهم، فدفعه بعضهم، فوقع على الفِراش، فغضب ابن عباس، وقال: أَخرجوا عني الكَسْبَ الخبيثَ[(٣)]؛ يعني ولدَه.

وعن عائشة رضي الله عنها أن رسولَ الله ﷺ قال: «إنَّ أطيبَ ما أكلَ الرجلُ مِن كَسْبه، وإنَّ ولدَه من كَسْبه». خرّجه أبو داود[(٤)].

وقال ابن عباس: لمَّا أنذر رسولُ الله ﷺ عشيرتَه بالنار، قال أبو لهب: إن كان ما يقول ابنُ أخي حقًّا فإني أفدي نفسي بمالي وولدي، فنزل: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ﴾[(٥)].

و«ما» في قوله: «مَا أَغْنَى»: يجوز أن تكون نفيًا، ويجوز أن تكون استفهامًا؛ أي: أيُّ شيء أغنى؟ و«ما» الثانية: يجوز أن تكون بمعنى الذي، ويجوز أن تكون مع الفعل مصدراً، أي: ما أغنى عنه مالُه وكَسْبه[(٦)].

قوله تعالى: ﴿سَيَصۡلَىٰ نَارٗا ذَاتَ لَهَبٖ ۝٣﴾

أي: ذات اشتعال وتلهُّب. وقد مضَى في سورة «المرسلات» القولُ فيه[(٧)].

---

(١) تفسير مجاهد ٢/ ٧٩٣.

(٢) القراءات الشاذة ص ١٨٧.

(٣) أخرجه الطبري ٢٤/ ٧١٧.

(٤) في سننه (٣٥٢٨)، وأخرجه أحمد (٢٤٠٣٢).

(٥) ذكره البغوي في تفسيره ٤/ ٥٤٣ عن ابن مسعود ﷺ.

(٦) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٨٥١.

(٧) ٢١/ ٥٠٨.

وقراءة العامة: «سَيَصْلَى» بفتح الياء. وقرأ أبو رجاء والأعمش: بضم الياء. ورواها محبوب عن إسماعيل عن ابن كثير، وحسين عن أبي بكر عن عاصم[١]، ورُويت عن الحسن. وقرأ أشهب العُقَيلي وأبو سَمَّال العَدَويّ ومحمد بن السَّمَيْفع: «سَيُصَلَّى» بضم الياء، وفتح الصاد، وتشديد اللام[٢]؛ ومعناها: سَيُصَلِّيه الله؛ من قوله: ﴿وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ [الواقعة: ٩٤]. والثانية من الإصلاء؛ أي: يُصليه الله؛ من قوله: ﴿فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا﴾ [النساء: ٣٠]. والأولَى هي الاختيار؛ لإجماع الناس عليها؛ وهي من قوله: ﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ١٦٣].

قوله تعالى: ﴿وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَامْرَأَتُهُ﴾ أم جميل. وقال ابن العربيّ[٣]: العوراء أم قبيح، وكانت عَوْراء. ﴿حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والسُّدّي: كانت تمشي بالنميمة بين الناس[٤]؛ تقول العرب: فلان يَحْطِب على فلان: إذا وَرَّشَ عليه[٥]. قال الشاعر:

إن بـنـي الأَدْرَمِ حَـمَّـالـو الـحَـطَـبْ هـم الـوُشاةُ في الرِّضَـا وفـي الـغَـضَـبْ
عَـلـيـهِـمُ الـلَّـعـنَـةُ تَـتْـرَى والـحَـرَبْ[٦]

وقال آخر:

مِنَ البِيض لم تُصْطَدْ على ظَهْرِ لَأْمةٍ ولم تَمْشِ بين الحيّ بالحَطَبِ الرَّطْبِ[٧]

---

(١) وهي غير المشهورة عن ابن كثير وعاصم.

(٢) القراءات الشاذة ص ١٨٧ .

(٣) في أحكام القرآن ٤/ ١٩٨٢ .

(٤) أخرجه الطبري ٢٤/ ٧٢٠ عن عكرمة ومجاهد وقتادة.

(٥) التوريش: التحريش، وهو الإغراء بين القوم. وتهييج بعضهم على بعض. ينظر اللسان (ورش) و(حرش).

(٦) النكت والعيون ٦/ ٣٦٧ .

(٧) النكت والعيون ٦/ ٣٦٧ ، والكشاف ٤/ ٢٩٧ .

يعني: لم تمشِ بالنمائم، وجعل الحطب رَطْباً لِيدلَّ على التدخين، الذي هو زيادة في الشرّ. وقال أكثم بن صَيْفِي لِبنيه: إيّاكُمْ والنَّميمةَ، فإنها نارٌ مُحْرِقَة، وإنّ النَّمَّام لَيَعْمل في ساعة ما لا يَعْمَلُ الساحر في شهر[١]. أخذه بعضُ الشعراء فقال:

إنَّ النميمةَ نارٌ وَيْك مُحْرِقَةٌ فَفِرَّ عنها وجانِبْ مَنْ تَعاطاها[٢]

ولذلك قيل: نارُ الحقد لا تخبو. وثَبَتَ عن النبيّ صَلَّى الله عليه وسلم: «لا يَدْخُلُ الجنةَ نَمَّام»[٣]. وقال: «ذُو الوَجْهَين لا يكون عند الله وجيهاً»[٤]. وقال عليه الصلاة والسلام: «مِنْ شَرِّ الناسِ ذُو الوَجْهَين: الذي يَأتِي هؤلاءِ بوَجْهٍ، وهؤلاءِ بوَجْهٍ»[٥].

وقال كعب الأحبار: أصاب بني إسرائيل قحطٌ، فخرج بهم موسى عليه السلام ثلاثَ مرات يَسْتَسْقُون فلم يُسْقَوا. فقال موسى: «إلهي عبادُكَ» فأوحى الله إليه: «إني لا أستجيب لك ولا لمن معك، لأن فيهم رجلاً نمّاماً، قد أَصَرَّ على النميمة». فقال موسى: «يا رَبِّ مَن هو حتى نُخرجه من بيننا»؟ فقال: «يا موسى، أَنهاكَ عن النميمةِ وأكون نمَّاماً» قال: فتابوا بأجمعهم، فَسُقوا[٦].

والنميمة من الكبائر، لا خلاف في ذلك؛ حتى قال الفُضَيل بن عِياض: ثلاثٌ تهدُّ العملَ الصالح، ويفطرن الصائم، وَيَنقُضْن الوضوء: الغِيبة، والنميمة، والكذب.

وقال عطاء بن السائب: ذكرت للشعبيّ قولَ النبيّ ﷺ: «لا يسكنُ مكةَ[٧] سافكُ دمٍ، ولا مشّاء بنميمة، ولا تاجرٌ يُرْبي» فقلت: يا أبا عمرو، قَرَن النمَّام بالقاتل وآكلِ

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٣/ ٧٠، والبيهقي في الشعب (١١١١٤) من قول يحيى بن أبي كثير بلفظ: يفسد النمام في ساعة ما لا يفسد الساحر في شهر.
(٢) لم نقف عليه.
(٣) أخرجه أحمد (٢٣٣٢٥)، ومسلم (١٠٥) من حديث حذيفة بن اليمان ﷺ، وسلف ١٨/ ٣٣٢.
(٤) لم نقف عليه بهذا اللفظ، وينظر الحديث التالي.
(٥) أخرجه أحمد (٩٩٩٧)، والبخاري (٧١٧٩)، ومسلم (٢٥٢٦) ص ٢٠١١ من حديث أبي هريرة ﷺ.
(٦) لم نقف عليه.
(٧) في (د) و(م): لا يدخل الجنة.

الربا؟ فقال: وهل تُسفك الدماء، وتُنتَهَبُ الأموال، وتهيج الأمور العِظام، إلا من أجل النميمة(١).

وقال قتادة وغيره: كانت تُعَيِّر رسولَ الله ﷺ بالفقر. ثم كانت مع كَثْرة مالها تحمل الحطب على ظهرها؛ لِشدَّة بُخلها، فُعيِّرَتْ بالبخل(٢). وقال ابن زيد والضحاك: كانت تحمل العِضاه والشوك، فتطرحه بالليل على طريق النبيِّ ﷺ وأصحابه؛ وقاله ابن عباس. قال الربيع: فكان النبيُّ ﷺ يَطَؤُه كما يطأُ الحرير.

وقال مُرَّة الهَمْدَانيّ: كانت أمُّ جميل تأتي كل يوم بإبالة من الحَسَك(٣)، فتطرحها على طريق المسلمين، فبينما هي حاملة ذاتَ يوم حُزْمةً أَعْيَتْ، فقعدت على حجر لِتستريح، فجذبها المَلَكَ من خلفها فأهلكها. وقال سعيد بن جُبير: حمالة الخطايا والذنوب، من قولهم: فلان يحتطب على ظهره؛ دليله قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾(٤).

وقيل: المعنى: حمالة الحطب في النار؛ وفيه بُعْد.

وقراءة العامة: «حَمَّالَةُ» بالرفع، على أن يكون خبراً «وامرأتُه» مبتدأ. ويكون «في جِيدِها حبلٌ من مَسَد» جملةً في موضع الحال من المضمر في «حَمالة». أو خبراً ثانياً. أو يكون «حمالة الحطب» نعتاً لامرأته. والخبر «في جيدِها حبْلٌ مِنْ مَسَد»، فيوقف على هذا على «ذات لهبٍ». ويجوز أن يكون «وامرأَتُهُ» معطوفة على المضمر في «سيصلى» فلا يُوقف على ذات لهب ويُوقف على «وامرأته» وتكون «حَمَّالة الحَطَبِ» خبر ابتداء محذوف(٥).

---

(١) أخرج المرفوع منه هناد في الزهد (١٢١٠) وعبد الرزاق في المصنف (٩٢٢٤) عن عبد الرحمن بن سابط مرسلاً، وأخرج قصة عطاء والشعبي هناد (١٢١١).

(٢) النكت والعيون ٦/ ٣٦٧ بنحوه.

(٣) الإبالة: الحزمة. اللسان (أبل)، والحسك: جمع حسكة، وهي شوكة صلبة. النهاية (حسك).

(٤) هذه الأقوال في تفسير البغوي ٤/ ٥٤٣ - ٥٤٤ بنحوها ما عدا قول الربيع، وقول مرة الهمداني نسبه للضحاك.

(٥) الكلام بنحوه في إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٩٩٠ ، وإعراب القرآن للنحاس ٥/ ٣٠٦ .

وقرأ عاصم: «حمالةَ الحَطَب» بالنصب على الذم[١]، كأنها اشتَهَرَتْ بذلك، فجاءت الصِّفة للذم لا للتخصيص، كقوله تعالى: ﴿مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟﴾. وقرأ أبو قِلابة: ﴿حامِلة الحَطَب﴾[٢].

قوله تعالى: ﴿فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ﴿٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فِى جِيدِهَا﴾ أي: عُنُقِها. وقال امرؤُ القيس:

وجِيدٍ كجيدِ الرِّيمِ ليس بفاحشٍ إذا هي نَصَّتهُ ولَا بِمُعَطَّلِ[٣]

﴿حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ﴾ أي: من لِيف؛ قال النابغة:

مُقْذُوفَةٍ بدَخِيس النَّحْض بازِلُها له صَرِيفٌ صَرِيفَ القَعْوِ بالمَسَدِ[٤]

وقال آخر:

يا مَسَدَ الخُوص تَعَوَّذْ مِنّي إنْ كُنْتُ لَدْناً لَيِّناً فإنّي

ما شِئْتَ مِنْ أَشْمَطَ مُقْسَئِنِّ[٥]

وقد يكون من جلود الإبل، أو من أوبارها؛ قال الشاعر:

ومَسَدٍ أُمِرَّ مِنْ أيانِقِ ليس بِأَنْيابٍ ولَا حَقائِقِ[٦]

---

(١) السبعة ص٧٠٠، والتيسير ص٢٢٥.

(٢) القراءات الشاذة ص ١٨٧.

(٣) ديوان امرئ القيس ص ١٦. وسلف صدره ٣/ ١٤، والبيت من معلقته المشهورة، وقال شارح الديوان: قوله: نصَّته: مدَّته وأبرزته. والمعطَّل: الذي لا حلي عليه.

(٤) ديوان النابغة ص ٣١، قال النحاس في شرح المعلقات ٢/ ١٦١: المقذوفة: المَرْمِيّة، يصف شدَّتها واكتنازها، أي: هي مرميَّة باللحم، والدخيس: الذي قد دخل بعضه في بعض من كثرته واكتنازه، والنحض: اللحم، والبازل: الكبير، والصريف: الصياح، والقَعْو: ما يَضُمُّ البكرة إذا كان خشباً.

(٥) الرجز في إصلاح النطق ص ٥٩، والصحاح (مسد). المقسئن: الكهل الشديد الذي لم تَنْقُص السِّنُّ منه شيئاً. شرح أبيات إصلاح المنطق للسيرافي ص١٥٥ و١٥٧.

(٦) الرجز في الصحاح (مسد)، واللسان (مسد). وفيه: ومسد فُتل من أيانق: جمع أَيْنُق، وأَيْنُق جمع ناقة، والأنياب، جمع ناب، وهي الهرمة، والحقائق جمع حُقَّة، وهي التي دخلت في السنة الرابعة. والرجز أنشده الأصمعي لعمارة بن طارق، وقال أبو عُبيد: هو لعقبة الهُجيمي، كما في اللسان.

وجمع الجيد أجياد، والمسد أمساد. أبو عُبيدة: هو حَبْل يكون من ضروب[١]. قال الحسن: هي حبال من شجر تَنبتُ باليمن تُسمَّى المَسَد، وكانت تُفْتل. قال الضحاك وغيره: هذا في الدنيا؛ فكانت تُعَيِّرُ النبيَّ ﷺ بالفقر وهي تحتطب في حبل تجعله في جيدها من ليف، فخنقها اللهُ جلّ وعزَّ به فأهلكها، وهو في الآخرة حَبْل من نار[٢].

وقال ابن عباس في رواية أبي صالح: «في جِيدِهَا حَبْلٌ مِن مَسَدٍ» قال: سِلسلة ذَرْعُها سبعون ذراعاً؛ وقاله مجاهد وعروة بن الزبير: تَدْخُل مِنْ فيها، وتَخْرُج من أسفلها، ويُلْوَى سائرُها على عُنقها. وقال قتادة: «حَبْلٌ مِن مَسَدٍ» قال: قِلادة من وَدَع[٣]. الوَدَع: خرز بيضٌ تخرج من البحر، تفاوت في الصِّغَرِ والكِبَر. قال الشاعر:

والحِلم حِلْمُ صَبِيٍّ يَمْرِث الوَدَعَةْ[٤]

والجمع: وَدَعات: الحسن: إنما كان خَرَزاً في عُنقها. سعيد بن المسيَّب: كانت لها قِلادة فاخرةٌ من جوهر، فقالت: واللّاتِ والعُزَّى لأُنفِقنَّها في عداوة محمد، ويكون ذلك عذاباً في جيدها يومَ القيامة. وقيل: إن ذلك إشارةٌ إلى الخِذْلان، يعني أنها مربوطةٌ عن الإيمان بما سبق لها من الشَّقاء، كالمربوط في جيده بحبل من مسد[٥].

والمَسْد: الفَتْل. يقال: مَسَد حَبْلَه يَمْسُده مَسْدًا، أي: أجاد فَتْلَه. قال:

يَمْسُد أعْلَى لحمِهِ ويأرِمُهْ

يقول: إن البقل يُقوِّي ظهرَ هذا الحمار ويشده[٦].

---

(١) في (م): صوف، والمثبت من النسخ الخطية، وهو الموافق لما في مجاز القرآن ٢/ ٣١٥.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٥٤٤ بنحوه، وقول الحسن نسبه لابن زيد.

(٣) هذه الأقوال في تفسير الطبري ٢٤/ ٧٢٣ - ٧٢٥، وتفسير البغوي ٤/ ٥٤٤.

(٤) الصحاح (ودع).

(٥) النكت والعيون ٦/ ٣٦٨، وتفسير البغوي ٤/ ٥٤٤.

(٦) الصحاح (مسد)، والرجز لرؤبة، وهو في ديوانه ص ١٨٦.

ودابة مَمْسودة الخَلْق: إذا كانت شديدةَ الأَسْر. قال الشاعر:

وَمَسَدٍ أُمِرَّ مِنْ أَيَانِقِ صُهْبٍ عِتَاقٍ ذاتِ مُخٍّ زاهِقِ
لَسْنَ بأنيابٍ ولَا حَقَائِقِ[(١)]

ويروى:

ولا ضِعافٍ مُخُّهُنَّ زاهِق[(٢)]

قال الفراء: هو مرفوع والشعر مُكْفأ[(٣)]. يقول: بل مُخُّهُنَّ مُكتنِز؛ رفعه على الابتداء. قال: ولا يجوز أن يريد: ولا ضعافٍ زاهقٍ مخهنّ. كما لا يجوز أن تقول: مررتُ برجل أبوه قائمٍ؛ بالخفض. وقال غيره: الزاهق هنا: بمعنى الذاهب؛ كأنه قال: ولا ضعافٍ مُخُّهُنَّ، ثم ردَّ الزاهق على الضِّعاف.

ورجل ممسود: أي: مجدول الخَلْق. وجارية حسنة المَسْد والعَصْبِ والجَدْلِ والأَرْم؛ وهي ممسودةٌ ومعصوبةٌ ومجدولة ومأرومة. والمِساد على فِعال: لغة في المِسَاب، وهي نِحْيُ السَّمن، وسِقاءُ العسل. قال جميعه الجوهريّ[(٤)].

وقد اعْتُرِض فقيل: إن كان ذلك حبلَها الذي تحتطب به، فكيفَ يبقى في النار؟ وأُجيب عنه بأن الله عزَّ وجلَّ قادرٌ على تجديده كلما احترق.

والحكم ببقاء أبي لهب وامرأته في النار مشروطٌ ببقائهما على الكفر إلى الموافاة، فلما ماتا على الكفر صدق الإخبارُ عنهما. ففيه معجزةٌ للنبي ﷺ. فامرأته خنقها الله بحبلها، وأبو لهب رماه الله بالعَدَسة[(٥)] بعد وقعة بدر بسبع ليال، بعد أن

---

(١) سلف الرجز قريباً.

(٢) ذكرها الجوهري في الصحاح (زهق)، وما بعده منه.

(٣) الإكفاء في الشعر: هو اختلاف حرف الرَّوي في قصيدة واحدة، وأكثر ما يقع ذلك في الحروف المتقاربة المخارج. الكافي في العروض والقوافي للتبريزي ص ١٦١ .

(٤) في الصحاح (مسد).

(٥) العدسة: هي بثرة تشبه العدسة، تخرج في مواضع من الجسد، من جنس الطاعون. النهاية (عدس).

شَجَّتْه أمُّ الفضل[١]. وذلك أنه لما قَدِمَ الحَيْسُمَانُ مكةَ يُخبر خبرَ بدر، قال له أبو لهب: أَخْبرني خبرَ الناس. قال: نعم، والله ما هو إلا أن لَقِينا القومَ، فمنحناهم أكتافَنا، يضعون السلاح منا حيث شاؤوا، ومع ذلك ما لَمَسْتُ الناس. لقِينا رجالاً بِيضًا على خيل بُلْق، لا والله ما تُبْقي منا؛ يقول: ما تُبْقي شيئاً. قال أبو رافع: وكنتُ غلاماً للعباس أنحِت الأقداح في صُفَّةِ زمزم، وعندي أمّ الفضل جالسة، وقد سرَّنا ما جاءنا من الخبر، فرفعتُ طُنُبَ الحُجرة، فقلت: تلك والله الملائكة. قال: فرفع أبو لهب يده، فضرب وجهي ضَرْبةً مُنْكرة، وثَاوَرْتُهُ، وكنت رجلاً ضعيفاً، فاحتملني، فضرب بي الأرض، وبَرَك على صدري يَضْربني. وتقدَّمت أمُّ الفضل إلى عمود من عُمُد الحُجْرة، فتأخذه وتقول: استضعفتَه أن غاب عنه سيده؟ وتضربه بالعمود على رأسه فتَفلِقُه شَجَّة مُنْكَرة. فقام يجرُّ رجليه ذليلاً، ورماه الله بالعَدَسة، فمات، وأقام ثلاثة أيام لم يُدفن حتى أنتن؛ ثم إن ولده غسَّلُوه بالماء، قَذْفاً من بعيد، مخافَة عَدْوَى العَدَسة. وكانت قريشٌ تَتَّقيها كما يُتَّقى الطاعون. ثم احتملوه إلى أعلى مكة. فأسندوه إلى جدار، ثم رضَموا عليه الحجارة[٢].

---

(١) هي امرأة العباس رضي الله عنهما، واسمها لبابة بنت الحارث الهلالية، وهي لبابة الكبرى. الإصابة ١٣/ ٢٦٥.

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٩١٢)، والحاكم في المستدرك ٣/ ٣٢١ - ٣٢٢، وعندهما أن الذي جاء بخبر المشركين أبو سفيان بن الحارث.

سورة الإخلاص

مكِّيَّةٌ في قول ابن مسعود والحسنِ وعطاءٍ وعكرمةَ وجابر. ومدنيةٌ في أحد قولي ابن عباس وقتادةَ والضَّحّاك والسُّدِّي(١). وهي أربعُ آيات.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ① اللَّهُ الصَّمَدُ ② لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ③ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ④﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ أي: الواحدُ الوِترُ، الذي لا شبيهَ له، ولا نظيرَ ولا صاحبة، ولا ولدَ ولا شريك. وأصل «أحَدٌ»: وَحَدٌ، قُلِبت الواو همزة. ومنه قولُ النابغة:

بِذي الجَليلِ عَلَى مُسْتَأْنِسٍ وَحَدِ(٢)

وقد تقدَّم في سورة البقرة الفرقُ بين واحِد وأَحَدٍ، وفي كتاب «الأَسْنَى في شرح أسماء الله الحسنى»(٣) أيضاً مُسْتَوفًى. والحمدُ لله.

و«أَحَدٌ» مرفوع، على معنى: هو أَحَدٌ. وقيل: المعنى: قل: الأمرُ والشأن اللهُ أَحَد. وقيل: «أَحَد» بدلٌ من قوله: «الله»(٤).

وقرأ جماعة: «أَحَدُ اللهُ» بلا تنوين(٥)، طلباً للخِفَّة، وفراراً من التقاء الساكنين،

---

(١) النكت والعيون ٦/٣٦٩، وزاد المسير ٩/٢٦٤.

(٢) ديوان النابغة الذبياني ص ٣١، وهذا عجز البيت، وصدره: كأن رحلي وقد زال النهار بنا. وذو الجَليل: واد قرب مكة. معجم البلدان ٢/١٥٨. والمستأنس هو الناظر بعينيه.

(٣) ص ١٦٤ و١٩٥ - ١٩٦.

(٤) ذكر هذا الوجه ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/٥٣٦.

(٥) ذكر ابن مجاهد في السبعة ص ٧٠١ أنها قراءة أبي عمرو في رواية هارون عنه، وهي غير المشهورة عنه.

ومنه قولُ الشاعر:

ولا ذاكِـرَ الـلَّـهَ إلَّا قَـلِـيـلا[١]

﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ أي: الذي يُصْمَد إليه في الحاجات. كذا رَوَى الضَّحاك عن ابن عباس، قال: الذي يُصْمَد إليه في الحاجات[٢]، كما قال عز وجل: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ [النحل:٥٣]. قال أهل اللغة: الصَّمد: السَّيد الذي يُصْمد إليه في النوازل والحوائج[٣]. قال:

أَلَا بَكَّـر الـنـاعِـي بِـخَـيـرِ بـنـي أَسَـدْ بعمرِو بن مَسْعُودٍ وبالسَّيِّدِ الصَّمَدْ[٤]

وقال قوم: الصَّمَدُ: الدائم الباقي، الذي لم يَزَل ولا يزال[٥].

وقيل: تفسيره ما بعده: «لَمْ يلِدْ ولم يُوْلَدْ». قال أُبَيُّ بنُ كَعْب: الصَّمَدُ: الذي لا يلِدُ ولا يُولَد؛ لأنه ليس شيء يولد[٦] إلا سيموت، وليس شيء يموت إلا يُورث[٧].

وقال عليٌّ وابنُ عباس أيضاً وأبو وائل شقِيقُ بنُ سَلَمةَ وسفيان: الصَّمَد: هو السَّيِّد الذي قد انتهى سُؤدَدُه في أنواع الشَّرف والسُّؤدَد[٨]، ومنه قول الشاعر:

---

(١) سلف ٣/ ١٥، وصدره: فألفيته غير مُسْتَعْتِب.

(٢) تفسير أبي الليث ٣/ ٥٢٥، والنكت والعيون ٦/ ٣٧١، وزاد المسير ٩/ ٢٦٧.

(٣) الصحاح (صمد).

(٤) أورده برواية المصنف أبو عبيدة في مجاز القرآن ٢/ ٣١٦ ونسبه للأسدي، وابن السكيت في إصلاح المنطق ص٥٨، وابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٥٣٦ ولم ينسباه. وذكره برواية: بخيري، بدل: بخير، الطبري ٢٤/ ٧٣٧، والزجاج في معاني القرآن ٥/ ٣٧٨، والماوردي في النكت والعيون ٦/ ٣٧١ ولم ينسبوه، والبغدادي في الخزانة ١١/ ٢٦٩ ونسبه لبنت معبد بن نضلة.

(٥) أورده الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٣٧١ ونسبه للحسن.

(٦) لفظة: يولد، ليست في (م).

(٧) سيأتي تخريجه قريباً عند ذكر المصنف له مطولاً.

(٨) أخرجه عن ابن عباس وأبي وائل الطبري ٢٤/ ٧٣٥، والبيهقي في الأسماء والصفات (٩٨) و(٩٩). وقول سفيان في النكت والعيون ٦/ ٣٧١.

عَلَوتُهُ بِحُسامٍ ثُمَّ قُلتُ لَهُ ... خُذْهَا حُذَيفَ فأنتَ السَّيِّدُ الصَّمَدُ[(١)]

وقال أبو هريرة: إنه المستغني عن كلِّ أحد[(٢)]، والمحتاجُ إليه كلُّ أحد.

وقال السدِّيُّ: إنه المقصودُ في الرغائب، والمستعانُ به في المصائب.

وقال الحسين بن الفضل: إنه الذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

وقال مقاتل: إنه الكاملُ الذي لا عيبَ فيه[(٣)]، ومنه قول الزِّبرِقان:

سِيروا جميعاً بِنِصفِ الليلِ واعتمِدُوا ... ولا رَهِينَةَ إلَّا سَيِّدٌ صَمَدُ[(٤)]

وقال الحسن وعكرمة والضحاك وابن جُبير: الصَّمَد: المُصْمَتُ الذي لا جَوْف له[(٥)]، قال الشاعر:

شِهابُ حُرُوبٍ لا تَزالُ جِيادُه ... عَوَابِسَ يَعْلُكْنَ الشَّكِيمَ المُصَمَّدا[(٦)]

قلت: قد أتينا على هذه الأقوال مُبيَّنةً في الصَّمَد، في كتاب «الأسنَى» وأنَّ الصحيح منها ما شهد له الاشتقاق، وهو القول الأوّل، ذكره الخَطَّابي.

وقد أسقط مِن هذه السورة مَن أبعده الله وأخزاه، وجَعَل النار مَقامه ومثواه، وقرأ: «اللهُ الواحدُ الصَّمَدُ» في الصلاة، والناس يستمعون، فأسْقَطَ: «قُلْ هو»، وزعم أنه ليس من القرآن. وغيَّر لفظَ «أَحَدٍ»، وادَّعى أنَّ هذا هو الصواب، والذي عليه

---

(١) أورده أبو علي القالي في أماليه ٢/ ٢٨٨ ، والجوهري في الصحاح (صمد)، وابن فارس في مجمل اللغة ٢/ ٥٤١ ، والماوردي في النكت والعيون ٦/ ٣٧١ ولم ينسبوه.

(٢) النكت والعيون ٦/ ٣٧٢ ، وتفسير الرازي ٣٢/ ١٨١ .

(٣) قول السُّدِّي والحسين بن الفضل ومقاتل في النكت والعيون ٦/ ٣٧٢ ، وتفسير الرازي ٣٢/ ١٨١ .

(٤) النكت والعيون ٦/ ٣٧١ وفيه: ساروا، بدل: سيروا. وألَّا، بدل: ولا. والسيد الصمد، بدل: سيد صمد. وأورد الشطر الثاني براوية المصنف أبو عبيدة في مجاز القرآن ٢/ ٣١٦ ، والطبري ٢٤/ ٧٣٧ .

(٥) أخرج قولهم الطبري ٢٤/ ٧٣٢ . قال ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٥٣٦ : وفي هذا التفسير نظر؛ لأن الجسم في غاية البعد عن صفات الله تعالى.

(٦) أورده الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٣٧١ ، والشَّكيم جمع شكيمة: وهو الحديدة المعترضة في فم الفرس. القاموس (شكم).

الناسُ هو الباطل والمحال، فأبطل معنى الآية؛ لأن أهلَ التفسير قالوا: نزلت الآية جواباً لأهل الشِّرك لمَّا قالوا لرسول الله ﷺ: صِفْ لَنَا رَبَّك، أمِن ذهب هو أم مِن نحاس أم مِن صُفْر؟ فقال الله عزَّ وجلَّ ردًّا عليهم: «قُل هُوَ اللهُ أَحَدٌ»[1]. ففي «هُوَ» دلالةٌ على موضع الردِّ، ومكانِ الجواب، فإذا سقط بَطَلَ معنى الآية، وصحَّ الافتراء على الله عزَّ وجلَّ، والتكذيبِ لرسوله ﷺ[2].

وروى الترمذيُّ عن أُبيِّ بن كعب أنَّ المشركين قالوا لرسول الله ﷺ: انْسُبْ لنا ربَّك، فأنزل الله عز وجل: «قل هُوَ الله أحد . الله الصمد». والصَّمَد: الذي لم يلد ولم يُولَد؛ لأنه ليس شيءٌ يُولَد إلَّا سيموت، وليس شيءٌ يموت إلا سيورَث، وإنَّ الله تعالى لا يموت ولا يورث. ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾[3] قال: لم يكن له شبيهٌ ولا عِدْل، وليس كمثله شيء[4].

ورُويَ عن أبي العالية أنَّ النبيَّ ﷺ ذكر آلهتهم فقالوا: انْسُب لنا رَبَّك. قال: فأتاه جبريل بهذه السورة «قُلْ هُوَ الله أحد»، فذكره نحوه، ولم يذكر فيه عن أُبيٍّ بن كعب، وهذا أصحُّ. قاله الترمذيّ[5].

قلت: ففي هذا الحديث إثباتُ لفظ «قل هو الله أحد» وتفسيرُ الصَّمَد، وقد تقدَّم. وعن عكرمةَ نحوه. وقال ابن عباس: «لَمْ يَلِدْ» كما وَلَدَتْ مَرْيَم، ولم يُولد كما وُلِدَ عيسى وعُزَيرٌ. وهو ردٌّ على النصارى، وعلى مَن قال: عُزَيرٌ ابن الله.

«ولم يكن له كفواً أحد» أي: لم يكن له مِثْلاً أحد. وفيه تقديمٌ وتأخير، تقديره: ولم يكن له كُفُواً أحد[6]، فقدَّم خبر كان على اسمها، لِينساقَ أواخرُ الآي على نظم واحد.

---

(١) سلف ١/ ١٣٣ .

(٢) ذكر المصنف هذا الكلام في سورة البقرة ١/ ١٢٨ و١٣٣ .

(٣) وقع في (ظ): كفؤاً، بالهمز. وسنذكر قريباً الأوجه فيها وصاحب كل وجه.

(٤) سنن الترمذي (٣٣٦٤)، وأخرجه أحمد أيضاً (٢١٢١٩) مختصراً، وفي إسنادهما أبو سعد محمد بن مُيَسَّر الصاغاني، وأبو جعفر الرازي وهو عيسى بن عبد الله بن ماهان، وهما ضعيفان. كما في التقريب.

(٥) أخرجه الترمذي (٣٣٦٥) وفيه أيضاً أبو جعفر الرازي وهو ضعيف كما بينا.

(٦) كذا في النسخ، والصواب أن يقول: تقديره: ولم يكن له أحدٌ كفواً. وينظر تفسير البغوي ٤/ ٥٤٥ .

وقُرِئَ: «كُفُواً» بضمِّ الفاء وسكونها(١). وقد تقدَّم في «البقرة»(٢) أنَّ كلَّ اسم على ثلاثة أحرف أوّله مضموم، فإنه يجوز في عينه الضمُّ والإسكان؛ إلَّا قولَه تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾ [الزخرف:١٥] لِعِلَّة تقدَّمت. وقرأ حفص: «كُفُواً» مضمومَ الفاء غيرَ مهموز. وكلُّها لغاتٌ فصيحة.

القولُ في الأحاديث الواردة في فضل هذه السورة، وفيه ثلاث مسائل:

الأولى: ثبت في «صحيح» البخاريِّ عن أبي سعيدٍ الخُدْريِّ ﷺ أن رجلاً سمع رجلاً يقرأ: «قُلْ هو الله أحد» يردِّدها، فلمَّا أصبح جاء إلى النبيِّ ﷺ، فذكر ذلك له، وكأن الرجل يَتَقالُّها، فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، إنَّها لتعدل ثُلُثَ القُرْآن»(٣).

وعنه قال: قال النبيُّ ﷺ لأصحابه: «أَيعجِز أحدُكم أن يقرأ ثُلُث القرآن في ليلة» فشَقَّ ذلك عليهم، وقالوا: أيُّنا يُطِيق ذلك يا رسول الله؟ فقال: «اللهُ الواحدُ الصَّمد ثُلُث القرآن»(٤). خرَّجه مسلم من حديث أبي الدرداء ﷺ بمعناه(٥).

وخرَّج عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «احْشِدوا، فإني سأقرأ عليكم ثلثَ القُرْآن». فحشدَ مَنْ حَشَد، ثم خرج نبيُّ الله ﷺ فقرأ: «قُلْ هُوَ الله أحد» ثم دخل، فقال بعضنا لبعض: إني أرى هذا خبراً جاءه من السماء، فذاك الذي أدخله. ثم خرج فقال: «إني قلت لكم: سأقرأ عليكم ثُلُث القرآن، أَلَا إنَّها تَعْدِل ثُلُثَ القرآن»(٦).

---

(١) قرأ حفص: «كُفُواً» بضم الفاء وفتح الواو من غير همز، وسيذكرها المصنف قريباً. وقرأ حمزة بإسكان الفاء مع الهمز في الوصل، فإذا وقف أبدل الهمزة واواً مفتوحة اتباعاً للخط. وقرأ الباقون بضم الفاء مع الهمزة. التيسير ص ٢٢٦ ، وينظر السبعة ص ٧٠١ - ٧٠٢ .

(٢) ٢/ ١٨٠ .

(٣) صحيح البخاري (٥٠١٣)، وهو عند أحمد (١١٣٠٦). وقوله: يتقالُّها: أصله يتقاللها، أي: يعتقد أنها قليلة، والمراد استقلال العمل لا التنقيص. فتح الباري ٩/ ٦٠ .

(٤) صحيح البخاري (٥٠١٥)، وهو عند أحمد (١١٠٥٣).

(٥) صحيح مسلم (٨١١): (٢٥٩)، وهو عند أحمد (٢١٧٠٥).

(٦) صحيح مسلم (٨١٢): (٢٦١)، وهو عند أحمد (٩٥٣٥).

قال بعض العلماء: إنها عَدَلَتْ ثُلُثَ القرآن لأجل هذا الاسم، الذي هو «الصَّمَد»، فإنه لا يوجد في غيرها من السُّور. وكذلك «أَحَدٌ».

وقيل: إنَّ القرآن أُنزِل أثلاثاً، ثُلُثاً منه أحكام، وثُلُثاً منه وعدٌ ووعيد، وثلثاً منه أسماءٌ وصفات، وقد جَمَعتْ «قُل هو الله أحد» الثُّلُثَ[1]، وهو الأسماء والصِّفات. ودلَّ على هذا التأويل ما في «صحيح» مسلم من حديث أبي الدَّرداء ﷺ، عن النبيِّ ﷺ قال: «إنَّ الله جلَّ وعزَّ جزَّأ القرآن ثلاثةَ أجزاء، فجعل ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ جزءاً من أجزاء القرآن»[2]. وهذا نَصٌّ، وبهذا المعنى سُمِّيت سورةَ الإخلاص، والله أعلم.

الثانية: روى مسلم عن عائشةَ رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ بعث رجلاً على سَرِية، وكان يقرأ لأصحابه في صلاتهم، فيختم بـ «قل هو الله أحد»، فلمَّا رجعوا، ذكروا ذلك للنبيِّ ﷺ فقال: «سَلُوهُ لأيِّ شيءٍ يصْنع ذلك؟» فسألوه، فقال: لأنها صفةُ الرَّحمن، فأنا أُحِبُّ أَنْ أقرأ بها. فقال رسول الله ﷺ: «أخبروه أنَّ اللهَ عَزَّ وجلَّ يُحِبُّه»[3].

وروى الترمذيُّ عن أنس بن مالك قال: كان رجل من الأنصار يؤمُّهم في مسجد قُباء، وكان كلَّما افتتح سورة يقرؤها لهم في الصلاة فقرأ بها[4]، افتتح بـ«قل هو الله أحد»، حتى يفرُغ منها، ثم قرأ سورة[5] أخرى معها، وكان يصنع ذلك في كلِّ ركعة؛ فكلَّمه أصحابه، فقالوا: إنَّك تقرأ بهذه السورة، ثم لا ترى أنها تُجزئُك حتى تقرأ بسُورة أخرى، فإمَّا أن تقرأ بها، وإمَّا أن تدعَها وتقرأ بسورة أخرى؟ قال: ما أنا بتاركها، إنْ أحببتم أن أؤُمَّكم بها فعلتُ، وإن كرهتم تركتكم، وكانوا يَرَوْنَه أفضلَهم،

(١) في النسخ عدا (ز): الأثلاث، والمثبت من (ز).
(٢) صحيح مسلم (٨١١): (٢٦٠)، وهو عند أحمد (٢٧٤٩٨).
(٣) صحيح (٨١٣)، وهو عند البخاري (٧٣٧٥).
(٤) قال المباركفوري في تحفة الأحوذي ٨/ ٢١٢ - ٢١٣: الظاهر أن في قوله: يقرأ بها (كذا وقعت عنده) تكراراً فتفكَّر.
(٥) في (م) وسنن الترمذي: ثم يقرأ بسورة.

وكرهوا أن يَؤُمَّهم غيره؛ فلمَّا أتاهم النبيُّ ﷺ أخبروه الخبر، فقال: «يا فلان ما يمنُعك ما يأمرك به[١] أصحابك؟ وما يحملُك أن تقرأ هذه السورة في كلِّ ركعة»؟ فقال: يا رسول الله، إنِّي أحبُّها، فقال رسول الله ﷺ: «إنَّ حُبَّها أدْخَلَكَ الجَنَّة». قال: حديث حسنٌ غريب صحيح[٢].

قال ابن العربيّ[٣]: فكان هذا دليلاً على أنه يجوز تَكرار سورة في كلِّ ركعة. وقد رأيتُ على باب الأسباط[٤] فيما يَقْرُب منه، إماماً ـ من جملة الثمانيةِ والعشرينَ إماماً ـ كان يصلِّي فيه التراويح في رمضان بالأتراك، فيقرأ في كلِّ ركعة «الحمد للَّه»، و«قل هو الله أحد» حتى يتمَّ التراويح، تخفيفاً عليه، ورغبةً في فضلها، وليس من السنة خَتْمُ القرآن في رمضان.

قلت: هذا نصُّ قولِ مالك، قال مالك: وليس خَتْمُ القرآن في المساجد بسنة[٥].

الثالثة: روى الترمذيُّ عن أنس بن مالك قال: أقبلتُ مع النبيِّ ﷺ فسمع رجلاً يقرأ: «قل هو الله أحد»، فقال رسول الله ﷺ: «وجبت». قلت: وما وجبت؟ قال: «الجنة». قال: هذا حديث حسن صحيح[٦].

قال الترمذيُّ: حدَّثنا محمد بنُ مرزوق البصريُّ، قال: حدَّثنا حاتم بنُ ميمون أبو سهلٍ، عن ثابتٍ البُنانيِّ، عن أنس بن مالك، عن النبيِّ ﷺ قال: «مَن قرأ كلَّ يوم مئتي مرَّةٍ: «قل هو الله أحد»، مُحيَ عنه ذنوبُ خمسينَ سنةً، إلَّا أن يكون عليه دَين».

---

(١) في (م) وسنن الترمذي: مما يأمر به.

(٢) سنن الترمذي (٢٩٠١)، وأورده البخاري تعليقاً قبل حديث (٧٧٥).

(٣) في أحكام القرآن ٤/ ١٩٨٣.

(٤) باب الأسباط أحد أبواب المسجد الأقصى. ينظر معجم البلدان ٥/ ١٧٠.

(٥) المدونة ١/ ٢٢٣.

(٦) سنن الترمذي (٢٨٩٧) من حديث أبي هريرة ﷺ لا من حديث أنس كما ذكر المصنف، وأخرجه من حديث أبي هريرة أيضاً أحمد (٨٠١١)، والنسائي ٢/ ١٧١. ووقع في سنن الترمذي وعارضة الأحوذي ١١/ ٢٥: حديث حسن غريب، بدل: حديث حسن صحيح. وفي تحفة الأحوذي ٨/ ٢٠٩، وتفسير ابن كثير ٨/ ٥٢٣ نقلاً عن الترمذي: حسن صحيح غريب.

وبهذا الإسناد عن النبيِّ ﷺ قال: «مَن أراد أن ينام على فراشه، فنام على يمينه، ثم قرأ: قُل هُوَ اللهُ أحد، مئةَ مرَّةٍ، فإذا كان يومُ القيامة يقول له الربُّ: يا عبدي، ادخلْ على يمينك الجنة». قال: هذا حديث غريبٌ من حديث ثابت عن أنس[١].

وفي مسند أبي محمدٍ الدارميِّ، عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن قرأ: «قل هو الله أحد» خمسين مرَّةً، غفرتُ له ذنوب خمسينَ سنة»[٢].

قال: وحدَّثنا عبد الله بن يزيد قال: حدَّثنا حَيْوة قال: أخبرني أبو عَقيل: أنه سمع سعيدَ بنَ المسيَّب يقول: إنَّ نبيَّ الله ﷺ قال: «مَن قرأ: «قل هو الله أحد» عَشْرَ مرَّاتٍ بنُي له قصرٌ في الجنة. ومَن قرأها عشرين مرَّةً، بُني له بها قصران في الجنة. ومَن قرأها ثلاثين مرَّةً، بُني له بها ثلاثةُ قصور في الجنة». فقال عمر بن الخطاب: واللهِ يا رسولَ الله إذًا لَنُكْثِرَنَّ قصورنا، فقال رسول الله ﷺ: «الله أوسع من ذلك». قال أبو محمد: أبو عقيل زُهْرة بن مَعْبَد، وزعموا أنه كان من الأبدال[٣].

وذكر أبو نُعيم الحافظ من حديث أبي العلاء يزيد بنِ عبد الله بنِ الشِّخِّير، عن أبيه، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ: «قل هو الله أحد» في مرضه الذي يموت فيه، لم يُفتَن في قَبره. وأَمِن من ضغطةِ القبر. وحملته الملائكة يومَ القيامة بأكُفِّها، حتى تُجيزَه من الصراط إلى الجنة». قال: هذا حديث غريب من حديث يزيد، تفرَّد به نصر بن حمادٍ البَجَليّ[٤].

---

(١) أخرج هذين الحديثين الترمذي (٢٨٩٨)، وهما ضعيفان لضعف حاتم بن ميمون، قال ابن حبان: لا يجوز الاحتجاج به، وقال ابن عدي: يروي عن ثابت ما لا يتابع عليه. ينظر ميزان الاعتدال ١/ ٤٢٨ - ٤٢٩ ، وتقريب التهذيب.

(٢) مسند الدارمي (٣٤٣٨)، قال ابن كثير في تفسيره ٨/ ٥٢٤ : إسناده ضعيف.

(٣) مسند الدارمي (٣٤٢٩) وهو مرسل.

(٤) حلية الأولياء ٢/ ٢١٣ دون قوله: هذا حديث غريب. . .، وأخرجه أيضاً الطبراني في الأوسط (٥٧٨١). قال الهيثمي في المجمع ٧/ ١٤٥ : رواه الطبراني في الأوسط، وقال: لا يروى عن النبي ﷺ إلا بهذا الإسناد، وفيه نصر بن حماد الورَّاق، وهو متروك. اهـ. ونصر بن حماد هذا قال عنه مسلم: ذاهب الحديث، وقال ابن معين: كذاب. ميزان الاعتدال ٤/ ٢٥٠ - ٢٥١ .

وذكر أبو بكر أحمدُ بن عليٍّ بن ثابتٍ الحافظُ، عن عيسى بنِ أبي فاطمةَ الرازي قال: سمعت مالك بن أنس يقول: إذا نُقِس بالناقوس اشتدَّ غضب الرحمن، فتنزلُ الملائكة، فيأخذون بأقطار الأرض، فلا يزالون يقرؤون: «قل هو الله أحد» حتى يسكُنَ غضبُه جلَّ وعزَّ(١).

وخَرَّج من حديث محمد خالدٍ الجَنَدِيِّ، عن مالك، عن نافع، عن ابن عمرَ، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن دخل يومَ الجمعة المسجد، فصلَّى أربع رَكَعات، يقرأ في كلِّ ركعة بفاتحة الكتاب و«قل هو الله أحد» خمسينَ مرَّةً، فذلك مئتا مرَّةٍ في أربع رَكَعات، لم يَمُتْ حتى يَرى منزله في الجنة أو يُرَى له»(٢).

وقال أبو عُمر مولى جرير بن عبد الله البَجَليِّ، عن جرير قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن قرأ: «قل هو الله أحد» حين يدخل منزله، نَفَت الفَقْر عن أهل ذلك المنزلِ وعن الجيران»(٣).

وعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن قرأ: «قل هو الله أحد» مرَّةً، بُورِك عليه، وَمن قرأها مرَّتين، بُورِك عليه وعلى أهله، ومَن قرأها ثلاثَ مرات، بُورِك عليه وعلى جميع جيرانه، ومَن قرأها اثنتي عَشْرة بنى الله له اثني عَشَرَ قصراً في الجنة، وتقول الحفظة: انطلقوا بنا ننظر إلى قصر أخينا، فإن قرأها مئة مرَّةٍ، كفَّر الله عنه ذنوب خمسينَ سنة، ما خلا الدِّماءَ والأموال، فإن قرأها أربعَ مئةِ مرَّةٍ، كفَّر الله عنه

---

(١) أورده السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٤١٣ وعزاه للطبراني من طريق أبي بكر البرذعي عن أبي زرعة وأبي حاتم عن عيسى بن أبي فاطمة، به. ولم نقف عليه عند الطبراني.

(٢) أخرجه الدارقطني في غرائب مالك من طريق عبد الله بن وصيف الجندي عن علي بن زياد اللخمي عن محمد بن خالد الجندي، به. وقال: لا يصح هذا، وعبد الله بن وصيف مجهول. وذكره الخطيب في الرواة عن مالك من غير هذا الوجه، وقال: غريب جداً، لا أعلم له وجهاً إلا هذا. لسان الميزان ٣/ ٣٧٤.

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٢٤١٩) من طريق أبي زرعة بن عمرو بن جرير، عن جرير مرفوعاً. قال ابن كثير عند تفسير هذه السورة: إسناده ضعيف. اهـ. ووقع في (ز) و(ظ) و(ي): أبو عمرو مولى جرير.

ذنوب مئة سنةٍ، فإن قرأها ألف مرَّةٍ، لم يمت حتى يَرَى مكانه في الجنة أو يُرى له»[١].

وعن سهل بن سعدٍ الساعديِّ قال: شكا رجل إلى رسول الله ﷺ الفَقْر وضيقَ المعيشة؛ فقال له رسول الله ﷺ: «إذا دخلتَ البيت، فسلِّمْ إن كان فيه أحد، وإن لم يكن به أحد فسلم عليَّ، واقرأ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ مرَّةً واحدة». ففعل الرجل، فأدرَّ الله عليه الرِّزق، حتى أفاض على جيرانه[٢].

وقال أنس: كنَّا مع رسول الله ﷺ بتَبُوكَ، فطلعتْ الشَّمس بيضاءَ لها شعاعٌ ونور، لم أرَها فيما مضى طلعتْ قطُّ كذلك، فأتى جبريلُ، فقال له رسول الله ﷺ: «يا جبريلُ، مالي أرى الشَّمس طلعتْ بيضاءَ بشعاع لم أرها طلعتْ كذلك فيما مضى قطُّ؟» فقال: «ذلك لأن معاويةَ بنَ معاويةَ اللَّيثي توفي بالمدينة اليوم، فبعث الله سبعين ألفَ مَلَكٍ يُصَلُّونَ عليه». قال: «ومِمَّ ذلك؟» قال: «كان يكثر قراءة: «قل هو الله أحد» آناء الليل وآناءَ النهار، وفي ممشاه وقيامِه وقعودِه، فهل لك يا رسول الله أن أقبض لك الأرض، فتصلِّي عليه؟». قال: «نعم». فصلَّى عليه، ثم رجع[٣]. ذكره الثعلبيُّ، والله أعلم.

---

(١) أخرجه ابن عساكر في تاريخه ١٥/ ١٩٠ بنحوه، وفيه أبان بن أبي عيَّاش، وهو متروك، كما قال ابن حجر في التقريب.

(٢) أورده الرازي في تفسيره ٣٢/ ١٧٤ وفيه: وإن لم يكن فيه أحد فسلم على نفسك، بدل... فسلم عليَّ. ولم نقف عليه في مصادر التخريج.

(٣) أخرجه أبو يعلى (٤٢٦٧)، والبيهقي في دلائل النبوة ٥/ ٢٤٥، وابن عبد البر في الاستيعاب بهامش الإصابة ١٠/ ١٥٣ - ١٥٤. وفيه العلاء بن زيد، وقيل: ابن زَيْدَل، قال ابن حجر في الإصابة ٩/ ٢٣٨ - ٢٣٩ بعد أن أورده من طريقه: والعلاء أبو محمد هو ابن زيد الثقفي واهٍ. وقال الذهبي في الميزان ٣/ ٩٩: تالف، قال ابن المديني: كان يضع الحديث، وقال ابن حبان: روى عن أنس نسخة موضوعة، منها: الصلاة بتبوك صلاة الغائب على معاوية بن معاوية الليثي. اهـ. ووقع في مسند أبي يعلى: فبعث الله ألف ملك، بدل: فبعث الله سبعين ألف ملك.

تفسير سورة «الفلق»

وهي مكية؛ في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر. ومدنية؛ في أحد قولي ابن عباس وقتادة. وهي خمس آيات.

وهذه السورة وسورة «الناس» و«الإخلاص» تعوَّذ بهنَّ رسول الله ﷺ حين سَحَرته اليهود؛ على ما يأتي. وقيل: إن المُعَوِّذتين كان يقال لهما: المُقشقِشتان، أي: تُبْرئان من النِّفاق. وقد تقدَّم[1]. وزعم ابن مسعود أنهما دعاءٌ تعوَّذ به، وليستا من القرآن؛ خالف به الإجماعَ من الصحابة وأهل البيت[2].

قال ابن قتيبة: لم يَكتب عبد الله بن مسعود في مصحفه المعوِّذتين؛ لأنه كان يسمع رسولَ الله ﷺ يُعوِّذ الحسن والحسين رضي الله عنهما بهما، فقدَّر أنهما بمنزلة: «أُعيذُكما بكلماتِ الله التامَّةِ، من كلِّ شيطانٍ وهامَّة، ومن كلِّ عين لامَّة»[3].

قال أبو بكر الأنباريّ: وهذا مردودٌ على ابن قتيبة؛ لأن المعوِّذتين من كلام رب العالمين المُعجز لجميع المخلوقين، و«أُعيذكما بكلماتِ الله التامَّة» من قول البشريين[4]. وكلامُ الخالق الذي هو آيةٌ لمحمد ﷺ خاتم النبيين، وحُجَّةٌ له باقية على جميع الكافرين، لا يلتبس بكلام الآدميين، على مثل عبد الله بن مسعود الفصيح اللسان، العالم باللغة، العارف بأجناسِ الكلام، وأفانين القول.

وقال بعض الناس: لم يكتب عبدُ الله المعوِّذتين لأنه أَمِنَ عليهما من النسيان،

---

(١) ص٥٣٣ من هذا الجزء.

(٢) النكت والعيون ٦/ ٣٧٣ . وقول ابن مسعود ﷺ أخرجه البزار في مسنده (١٥٨٦) ولفظه: كان عبد الله يحكُّ المعوذتين من المصحف، ويقول: إنما أمر النبي ﷺ أن يتعوَّذ بهما، وكان عبد الله لا يقرأ بهما. وأخرجه بمعناه أحمد (٢١١٨١) والبخاري (٤٩٧٧) وينظر ما ذكره الحافظ ابن حجر في فتح الباري ٨/ ٧٤١ - ٧٤٣ في هذه المسألة.

(٣) أخرجه أحمد (٢١١٢)، والبخاري (٣٣٧١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) في (م) البشر بيِّنٌ.

فأسقطهما وهو يحفظهما؛ كما أسقط فاتحةَ الكتاب من مصحفه، وما يُشَكُّ في حفظه وإتقانه لها. فردّ هذا القول على قائله، واحتجَّ عليه بأنه قد كتب: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾، و﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾، و﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ وهن يجرين مجرى المعوِّذتين في أنهن غير طوال، والحفظ إليهن أسرعُ، ونسيانُهن مأمون، وكلهنَّ يُخالف فاتحة الكتاب؛ إذ الصلاة لا تتم إلا بقراءتها. وسبيل كل ركعة أن تكون المقدَّمة فيها قبل ما يُقْرأ من بعدها، فإسقاط فاتحة الكتاب من المصحف، على معنى الثقة ببقاء حفظها، والأمن من نسيانها، صحيح، وليس من السور ما يجري في هذا المعنى مجراها، ولا يُسْلك به طريقها. وقد مضى هذا المعنى في سورة «الفاتحة»[١] والحمد لله.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلۡعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾

فيه تسعة مسائل:

الأولى: روى النسائيّ عن عقبة بن عامر، قال: أتيتُ النبيَّ ﷺ وهو راكب، فوضعتُ يدي على قدمه، فقلت: أَقرئني سورةَ يوسف. فقال لي: «ولَنْ تَقرأ شيئاً أبلغَ عند الله من ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ﴾»[٢]. وعنه قال: بينا أنا أَسير مع النبيّ ﷺ بين الجُحْفَة والأَبْواءِ، إذ غَشِيَتْنا ريح مُظلمة شديدة، فجعل رسول الله ﷺ يتعوَّذ بـ «أعوذ برب الفلق»، و«أعوذ برب الناس»، ويقول: «يا عقبة، تعوَّذ بهما، فما تعوّذ مُتعوِّذ

---

(١) ١/١٧٦ - ١٧٧.

(٢) سنن النسائي (المجتبى) ٨/ ٢٥٤، وأخرجه أحمد (١٧٣٤١).

بمثلهما». قال: وسمعتُه يقرأ بهما في الصلاة[١].

وروى النَّسائي عن عبد الله قال: أصابنا طَشٌّ وظُلْمة، فانتظرنا رسول الله ﷺ يخرج[٢]، ثم ذكر كلاماً معناه: فخرج رسولُ الله ﷺ [لِيصلِّي بنا]، فقال: «قُلْ». فقلت: ما أقول؟ قال: «قل هو الله أحد والمعوذتين، حين تمسي وحين تُصبح ثلاثاً، يكفِك كل شيء»[٣].

وعن عقبة بن عامر الجُهَني قال: قال لي رسول الله ﷺ: «قُلْ». قلت: ما أقول؟ قال: «قل: قل هو الله أحد. قل أعوذ برب الفلق. قل أعوذ برب الناس» فقرأهُنَّ رسولُ الله ﷺ، ثم قال: «لم يتعوَّذ الناسُ بمثلهنَّ» أو «لا يتعوَّذ الناس بمثلهنَّ»[٤].

وفي حديث ابن عابس[٥]: «قل أعوذ برب الفلق، وقل أعوذ برب الناس، هاتين السورتين». وفي «صحيح» البخاري ومسلم عن عائشة أن النبيّ ﷺ كان إذا اشتكى قرأ على نَفْسه بالمُعوِّذتَيْنِ ويَنْفِثُ، فلما اشتدَّ وجعه كنت أقرأ عليه، وأمسح عنه بيده، رجاءَ بركتها[٦]. النَّفْث: النفخ ليس معه ريق.

الثانية: ثبت في «الصحيحين»[٧] من حديث عائشة أن النبيّ ﷺ سَحَره يهوديٌّ من يهود بني زُرَيْق، يقال له لَبِيدُ بن الأعصم، حتى يخيلُ إليه أنه كان يفعل الشيء ولا

(١) أخرجه أبو داود (١٤٦٣).

(٢) لفظ: يخرج، من (د) و(م)، وفي سنن النسائي: ليصلِّي بنا.

(٣) سنن النسائي (المجتبى) ٨/ ٢٥٠ – وما بين حاصرتين منه – وأخرجه أحمد (٢٢٦٦٤)، وعبد الله: هو ابن خُبيب ﷺ، وقوله: طشّ، أي: مطر خفيف. قاله السندي كما في حاشية المسند.

(٤) أخرجه النسائي ٨/ ٢٥١ .

(٥) في النسخ: ابن عباس، وهو خطأ، والحديث أخرجه أحمد (١٧٢٩٧)، والنسائي ٨/ ٢٥١ – ٢٥٢ .

(٦) صحيح البخاري (٥٧٣٥)، وصحيح مسلم (٢١٩٢)، وأخرجه أحمد (٢٤٨٣١)، وسلف قسم منه ٢/ ٢٧٦ .

(٧) صحيح البخاري (٥٧٦٣)، وصحيح مسلم (٢١٨٩)، وهو في مسند أحمد (٢٤٣٠٠).

يفعله، فمكث كذلك ما شاء الله أن يمكث ـ في غير الصحيح: سنة[(١)] ـ ثم قال: «يا عائشة، أشعرتِ أن الله أفتاني فيما استفتيته فيه. أتاني ملكان، فجلس أحدُهما عند رأسي، والآخر عند رِجلي، فقال [أحدهما لصاحبه][(٢)]: ما شأن الرجل؟ قال: مطْبوب[(٣)]. قال: ومَنْ طَبَّهُ؟ قال: لَبيدُ بن الأعصم. قال: في ماذا؟ قال: في مُشْط ومُشاطة وجُفّ طلعةِ ذكر[(٤)]، تحت راعوفة في بئر ذي أَرْوَان». فجاء البئر واستخرجه. انتهى الصحيح.

وقال ابن عباس: «أما شَعَرْتِ يا عائشة أن الله تعالى أخبرني بدائي». ثم بعث عَلِيًّا والزبير وعمار بن ياسر، فنزحوا ماءَ تلك البئر كأنه نُقاعة الحِنَّاء، ثم رفعوا الصخرة وهي الراعوفة ـ صخرة تُترَكُ أسفلَ البئر يقوم عليها المائح[(٥)] ـ وأخرجوا الجُفَّ، فإذا مُشَاطة رأس إنسان، وأسنان من مُشْط، وإذا وتر معقودٌ فيه إحدى عشرةَ عقدةً مغرزةً بالإبر، فأنزل الله تعالى هاتين السورتين، وهما إحدى عشرة آية على عدد تلك العُقَد، وأُمر أن يَتَعَوَّذُ بهما؛ فجعل كلما قرأ آيةً انحلَّت عقدة، ووجد النبيُّ ﷺ خِفَّةً، حتى انحلَّت العقدةُ الأخيرة، فكأنما أُنْشِطَ من عِقال، وقال: ليس به بأس. وجعل جبريل يَرْقي رسول الله ﷺ فيقول: «بسم الله أَرْقِيك، من كل شيء يُؤذيك، من شرِّ حاسدٍ وعَيْن، والله يَشْفِيك». فقالوا: يا رسول الله، ألا نقتلُ الخبيثَ. فقال:

---

(١) قال الحافظ ابن حجر في الفتح ١٠/ ٢٢٦: قال السهيلي: لم أقف في شيء من الأحاديث المشهورة على قدر المدة التي مكث النبي ﷺ فيها في السحر حتى ظَفِرتُ به في جامع معمر عن الزهري أنه لبث ستة أشهر، كذا قال، وقد وجدناه موصولاً بإسناد الصحيح، فهو المعتمد. اهـ.

(٢) ما بين حاصرتين من صحيح البخاري.

(٣) أي: مسحور. فتح الباري ١٠/ ٢٢٦.

(٤) قال السندي كما في حاشية المسند: قوله: جُفّ طلعة ذكر: هو الغشاء الذي على طلع النخل، ويطلق النخل على الذكر والأنثى، ولذا قيَّده بالذكر.

(٥) المائح: الذي يكون في أسفل البئر يملأ الدلو. أما الماتح: فهو المستقي من البئر بالدلو من أعلى البئر. النهاية (منح).

«أمّا أنا فقد شفاني الله، وأكره أن أُثيرَ على الناس شرًّا»(١).

وذكر القشيري في «تفسيره» أنه ورد في الصِّحاح: أن غلاماً من اليهود كان يخدمُ النبيّ ﷺ، فدسَّتْ إليه اليهود، ولم يزالوا به حتى أخَذَ مُشاطة رأس النبيّ ﷺ. ـ والمُشاطة، بضم الميم: ما يسقُط من الشعر عند المَشْط(٢) ـ وأخذ عدّةً من أسنان مُشْطه، فأعطاها اليهود، فسحروه فيها، وكان الذي يتولى ذلك لَبيدُ بن الأعْصم اليهوديّ. وذكر نحو ما تقدّم عن ابن عباس.

الثالثة: تقدّم في البقرة القول في السحر وحقيقته، وما ينشأ عنه من الآلام والمفاسد، وحكم الساحر(٣)؛ فلا معنى لإعادته.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿ٱلْفَلَقِ﴾ اختُلف فيه؛ فقيل: سجن في جَهنم؛ قاله ابن عباس. وقال أُبَيُّ بن كعب: بيت في جهنم إذا فُتح صاح أهلُ النار من حره. وقال الحُبُليّ أبو عبد الرحمن: هو اسْمٌ من أسماء جهنم. وقال الكلبي: وادٍ في جهنم. وقال عبد الله بن عمر: شجرة في النار. سعيد بن جُبير: جُبٌّ في النار.

النحاس: يقال لما اطمأنَّ من الأرض: فَلَق؛ فعلى هذا يَصِحُّ هذا القول. وقال جابر بن عبد الله والحسن وسعيد بن جبير أيضاً ومجاهد وقتادة والقُرَظيّ وابن زيد: الفَلَق: الصُّبْح. وقاله ابن عباس(٤). تقول العرب: هو أبينُ من فَلَقِ الصُّبْح، وفَرَق

---

(١) ذكره الثعلبي في تفسيره عن ابن عباس وعائشة ﷺ، كما في تفسير ابن كثير ٨/ ٥٣٨ . قال الحافظ ابن كثير: هكذا أورده بلا إسناد، وفيه غرابة، وفي بعضه نكارة شديدة، ولبعضه شواهد مما تقدم.

وقوله منه: «بسم الله أرقيك، من كل شيء يؤذيك، من شر حاسد وعين اللهُ يشفيك» وأن جبريل رقى بهذه الكلمات النبي ﷺ أخرجه أحمد (١١٢٢٥) و(٢٥٢٧٢)، ومسلم (٢١٨٦) و(٢١٨٥) من حديث أبي سعيد الخدري وعائشة رضي الله عنهما.

(٢) المفهم ٥/ ٥٧٢ .

(٣) ٢/ ٢٧٢ وما بعدها.

(٤) أخرج هذه الأقوال الطبري ٢٤/ ٧٤١ - ٧٤٤ .

الصبح[١]. وقال الشاعر:

يـا لـيـلـةً لـم أنَـمْـهَـا بِـتُّ مُـرْتَـفِـقـاً أرْعَـى الـنـجـومَ إلـى أنْ نَـوَّرَ الـفـلَـقُ[٢]

وقيل: الفلق: الجبال والصخور تنفلق بالمياه، أي: تتشقق.

وقيل: هو التفليق بين الجبال والصخور؛ لأنها تتشقق من خوف الله عز وجل. قال زهير:

مـا زِلْـتُ أرْمُـقُـهُـمْ حـتـى إذا هَـبَـطَـتْ أيدِي الرِّكابِ بِهِمْ مِن راكِسٍ فَلَقَا[٣]

الراكس: بطن الوادي. وكذلك هو في قول النابغة:

أتـانـي ودُونـي راكِـسٌ فـالـضَّـواجِـعُ[٤]

والراكس أيضاً: الهادي، وهو الثور وسط البَيْدَر، تدور عليه الثّيران في الدِّياسة[٥].

وقيل: الرحم تنفلق بالحيوان. وقيل: إنه كلُّ ما انفلق عن جميع ما خَلَق من الحيوان والصبح والحَبّ والنَّوَى، وكل شيء من نبات وغيره؛ قاله الحسن وغيره. قال الضحاك: الفَلَقُ الخَلْق كُلُّه[٦]؛ قال:

وَسْـوَسَ يَـدْعُـو مُـخْـلِـصًـا رَبَّ الـفَـلَـقْ سِـرًّا وقـدْ أَوَّنَ تَـأْوِيـنَ الـعُـقُـقْ[٧]

قلت: هذا القول يشهد له الاشتقاق؛ فإن الفَلْق الشَّق، فَلَقْت الشيء فَلْقاً، أي:

(١) إعراب القرآن للنحاس ٥/ ٣١٣.

(٢) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٣٧٤. وما بعده منه.

(٣) ديوان زهير ص ٣٥.

(٤) ديوان النابغة ص ٧٩، وصدره: وعيدُ أبي قابوس في غير كنهه. والضواجع: منحنى الوادي. القاموس (ضجع)

(٥) الصحاح (ركس).

(٦) النكت والعيون ٦/ ٣٧٤.

(٧) الرجز لرؤبة، وهو في ديوانه ص ١٠٨. والتأوين: امتلاء البطن، والعُقُق: جمع عَقوق، وهي الحامل. والراجز يصف أُتُناً وردت الماء فشربت حتى امتلأت خواصرها. اللسان (أون).

شقفته. والتفليق مثله. يقال: فَلَقْته فانفلق وتَفَلَّق. فكل ما انفلق عن شيء من حيوان وصبح وحب ونَوًى وماء فهو فَلَق؛ قال الله تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾ [الأنعام:٩٦] قال: ﴿فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾ [الأنعام:٩٥]. وقال ذو الرُّمّة يصف الثورَ الوَحْشِيّ:

حَتَّى إذَا ما انجَلَى عن وجهِه فَلَقٌ   هادِيهِ في أُخْرَيَاتِ اللَّيلِ مُنْتَصِبُ[١]

يعني بالفلق هنا: الصبح بعينه. والفلق أيضاً: المطمئنُّ من الأرض بين الرَّبوتين، وجمعه: فُلْقان، مثل خَلَق وخُلْقان. وربما قالوا: كان ذلك بفالق كذا وكذا، يريدون المكانَ المنحدر بين الربوتين. والفَلَق أيضًا مِقطرة[٢] السَّجان. فأما الفِلْق ـ بالكسر ـ: فالداهية والأمر العجب؛ تقول منه: أفلق الرجلُ وافتلق. وشاعر مُفْلِق، وقد جاء بالفِلْق. والفِلْق أيضاً: القضيب يُشَقُّ باثنين، فيعمل منه قَوْسان؛ يقال لكل واحدة منهما: فِلْق. وقولهم: جاء بعُلَقَ فُلَقَ ـ وهي الداهية ـ لا تُجْرى[٣]. يقال منه: أعلقت وأفلقت، أي: جئت بعُلَق فُلَق. ومرَّ يفتلق في عَدْوِه، أي: يأتي بالعجب من شدَّتِه[٤].

وقوله تعالى: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ قيل: هو إبليس وذُرِّيته. وقيل: جهنم. وقيل: هو عامٌّ، أي: من شرِّ كلِّ ذي شرٍّ خلقَه الله عزَّ وجلَّ[٥].

الخامسة: قوله تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ اختُلف فيه؛ فقيل: هو الليل. والغَسَق: أولُ ظُلمةِ الليل؛ يقال منه: غَسَقَ الليلُ يَغْسِق، أي: أظلم[٦]. قال ابن قيس الرقيات:

إنَّ هذا الليلَ قد غَسَقا   واشْتَكَيْتُ الهَمَّ والأَرَقا[٧]

---

(١) ديوان ذي الرمة ١/ ٩٢ ، وفيه: حتى إذا ما جلا.. وهي الرواية الصحيحة فيما قاله ابن بري، كما في اللسان (فلق). وقوله: هاديه، أي: أوله. شرح الديوان لأبي نصر الباهلي.

(٢) المِقْطرة: خشبة فيها خروق تُدخَل فيها أرجل المحبوسين. الصحاح (قطر).

(٣) أي: لا تنصرف.

(٤) الصحاح (فلق).

(٥) النكت والعيون ٦/ ٣٧٤ .

(٦) الصحاح (غسق).

(٧) ديوان عبيد الله بن قيس الرقيَّات ص ١٨٧ .

وقال آخر:

يا طيفَ هندٍ لقد أبقَيت لي أرَقاً   إذْ جِئتَنا طارِقًا والليلُ قَدْ غَسَقَا[١]

هذا قول ابن عباس والضحاك وقتادة والسُّدّي وغيرِهم. و«وَقَبَ» على هذا التفسير: أظلم؛ قاله ابن عباس. والضحاك: دَخَلَ. قتادة: ذَهَبَ. يَمانُ بن رِئاب: سَكَن. وقيل: نزل؛ يقال: وَقَبَ العذابُ على الكافرين: نَزَلَ؛ قال الشاعر:

وَقَبَ العذابُ عليهِمُ فكَأنَّهُمْ   لَحِقَتْهُمُ نارُ السَّمُومِ فأُحْصِدُوا[٢]

وقال الزجاج[٣]: قيل: الليل غاسق لأنه أبردُ من النهار. والغاسق: البارد. والغَسَق: البرد؛ ولأن في الليل تخرج السِّباع من آجامها، والهوامُّ من أماكنها، وينبعث أهلُ الشرِّ على العيث والفساد. وقيل: الغاسق: الثُّريَّا؛ وذلك أنها إذا سقطت كثُرتِ الأسقامُ والطواعين، وإذا طلعت ارتفع ذلك؛ قاله عبد الرحمن بن زيد. وقيل: هو الشمس إذا غربت؛ قاله ابن شهاب.

وقيل: هو القمر[٤]. قال القُتَبِيّ[٥]: «إذا وقب» القمر: إذا دخل في ساهوره، وهو كالغلاف له، وذلك إذا خُسِفَ به. وكلُّ شيء أسودُ فهو غَسَق. وقال قتادة: «إذا وقَبَ»: إذا غابَ. وهو أصحُّ؛ لأن في الترمذيّ عن عائشة: أن النبيّ ﷺ نظر إلى القمر، فقال: «يا عائشة، استعيذي بالله من شرِّ هذا، فإن هذا هو الغاسقُ إذا وقَبَ». قال أبو عيسى: هذا حديثٌ حسنٌ صحيح[٦].

وقال أحمد بن يحيى ثعلب عن ابن الأعرابي في تأويل هذا الحديث: وذلك أن

---

(١) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٣٧٥، والأقوال التي بعده منه.

(٢) ذكره السمين في الدر المصون ١١/ ١٥٩.

(٣) في معاني القرآن ٥/ ٣٧٩.

(٤) النكت والعيون ٦/ ٣٧٥.

(٥) في تفسير غريب القرآن ص ٥٤٣، ونقله المصنف عنه بواسطة ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٥٣٨.

(٦) سنن الترمذي (٣٣٦٦)، وأخرجه أحمد (٢٥٨٠٢).

أهل الرِّيب يَتحيَّنون وَجبة القمر، وأنشد:

أراحني اللهُ مِن أشياءَ أكرهُها ... منها العجوزُ ومنها الكلبُ والقمرُ

هذا يبوحُ وهذا يُستضاءُ به ... وهذه ضِمْرِزٌ قَوَّامَةُ السَّحَرِ[1]

وقيل: الغاسق: الحية إذا لدغت. وكأن الغاسق نابُها؛ لأن السمَّ يغسق منه، أي: يَسيل. ووقب نابها: إذا دخل في اللَّدِيغ. وقيل: الغاسق: كل هاجم يضرّ، كائناً ما كان؛ من قولهم: غسقت القرحة: إذا جرى صديدُها.

السادسة: قوله تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ﴾ يعني الساحرات اللائي ينفُثْن في عُقَد الخيط حين يَرْقِينَ عليها، شبه النفخ كما يعمل مَن يرقي. قال الشاعر:

أعُوذُ بِربِّي مِنَ النَّافِثَا ... تِ في عِضَهِ العاضِهِ المُعْضِه[2]

وقال مُتَمِّم بن نُوَيْرة:

نَفَثت في الخيطِ شَبِيهَ الرُّقَى ... مِن خشية الجِنَّة والحاسِدِ[3]

وقال عنترة:

فإنْ يَبْرَأْ فَلَمْ أَنْفُث عَلَيهِ ... وإنْ يُفْقَدْ فَحُقَّ له الفُقُودُ[4]

السابعة: روى النَّسائي عن أبي هريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «من عَقَدَ عُقدة ثم نَفَثَ فيها، فقد سَحَر، ومَن سَحَرَ فقد أشْرَكَ، ومَنْ تَعَلَّق شيئاً وُكِل إليه»[5].

---

(١) ذكرهما الجاحظ في المحاسن والأضداد ص ١٧٢، وابن الجوزي في أخبار النساء ص ١٤٩، مع اختلاف في بعض الألفاظ.

(٢) ذكره الماوردي النكت والعيون ٦/ ٣٧٥، والعِضَه: السِّحر، والعاضه: الساحر. اللسان (عضه) والبيت فيه.

(٣) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٣٧٥.

(٤) ديوان عنترة ص ٤٢. وسلف ١٣/ ١٥٩.

(٥) سنن النسائي ٨/ ١١٢. وفي إسناده عبّاد بن ميسرة، ضعّفه أحمد ويحيى، قال الذهبي في الميزان ٢/ ٣٧٨: هذا الحديث لا يصح للين عبّاد وانقطاعه. اهـ. وقوله: «تعلَّق شيئاً» أي: من علَّق على نفسه شيئاً من التعاويذ والتمائم معتقداً أنها تجلب إليه نفعاً أو تدفع ضرًّا. النهاية (علق).

واختلِف في النفْث عند الرُّقى، فمنعه قوم، وأجازه آخرون. قال عكرمة: لا ينبغي للراقي أن ينفُث، ولا يمسح ولا يعقِد. قال إبراهيم: كانوا يكرهون النَّفث في الرُّقَى. وقال بعضهم: دخلت على الضحاك وهو وَجِعٌ، فقلت: ألا أُعَوِّذكَ يا أبا محمد؟ قال: بلى، ولكن لا تنفث؛ فعوَّذتُه بالمعوذتين. وقال ابنُ جريج: قلت لعطاء: القرآن يُنفَخ به أو يُنْفَثُ؟ قال: لا شيء من ذلك، ولكن تقرؤه هكذا. ثم قال بعد: انفُث إن شئت. وسُئل محمد بن سِيرين عن الرُّقية يُنْفث فيها، فقال: لا أعلم بها بأساً[١]. وإذا اختلفوا فالحاكم بينهم السُّنة؛ روت عائشة أن النبيّ ﷺ كان ينفث في الرُّقية؛ رواه الأئمة، وقد ذكرناه أوّل السورة وفي «سُبْحان»[٢].

وعن محمد بن حاطب أن يده احترقت فأتَتْ به أُمُّه النبيَّ ﷺ، فجعل ينفُث عليها ويتكلَّم بكلام؛ زعم أنه لم يحفظه[٣]. وقال محمد بن الأشعث: ذُهِب بي إلى عائشة رضي الله عنها وفي عيني سوء، فرقَتْني وَنَفَثَت[٤].

وأما ما رُوي عن عكرمة من قوله: لا ينبغي للراقي أن ينفُث؛ فكأنه ذهب فيه إلى أن الله تعالى جعل النفْث في العُقَد مما يُستعاذ به، فلا يكون بنفسه عُوذة. وليس هذا هكذا؛ لأن النفث في العُقَد إذا كان مذموماً لم يجب أن يكون النفث بلا عُقد مذموماً. ولأن النفث في العُقَد إنما أُريد به السحر المُضِرّ بالأرواح، وهذا النفث لاستصلاح الأبدان، فلا يُقاس ما ينفع بما يضر[٥]. وأما كراهةَ عكرمة المسحَ فخلاف السنة. قال علي ﷺ: اشتكيت، فدخل عليَّ النبيُّ ﷺ وأنا أقول: اللهمَّ إنْ كان أجلي قد حَضَر فأَرِحني، وإن كان متأخِّراً فاشفني وعافني، وإن كان بلاءً فصبِّرني. فقال النبيّ ﷺ:

---

(١) الاستذكار ٢٧/ ٣٠ – ٣١، ما عدا قول ابن جريج.

(٢) ١٣/ ١٥٨ – ١٥٩.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة ٧/ ٤٣.

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه ٧/ ٤٤ وفيه: قيس بن محمد بن الأشعث بدل: محمد بن الأشعث.

(٥) التمهيد ٨/ ١٣٣ بنحوه.

«كيف قلت»؟ فقلت له. فَمَسحني بيده، ثم قال: «اللهم اشْفِه» فما عاد ذلك الوجع بعد[(١)].

وقرأ عبد الله بن عمرو وعبد الرحمن بن سابط وعيسى بن عمر ورُويس عن يعقوب: «ومِن شرِّ النافثاتِ» في وزن فاعلات. ورُوِيت عن عبد الله بن القاسم مولى أبي بكر الصديق رضي الله عنهما[(٢)]. ورُوي أن نساءً سَحَرْنَ النبيَّ ﷺ في إحدى عشرة عقدةً؛ فأنزل الله المعوِّذتين إحدى عشرة آية. قال ابن زيد: كُنَّ من اليهود؛ يعني السواحر المذكورات. وقيل: هنّ بنات لَبِيد بن الأعصم[(٣)].

الثامنة: قوله تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ قد تقدم في سورة «النساء» معنى الحسد[(٤)]، وأنه تمنِّي زوالِ نعمة المحسود وإن لم يَصِرْ للحاسد مثلُها. والمنافسة هي تمني مثلَها وإن لم تزل. فالحسدُ شرٌّ مذموم. والمنافسة مباحةٌ، وهي الغِبطة. وقد روي أن النبيَّ ﷺ قال: «المؤمن يَغْبِطُ، والمنافق يَحْسُد»[(٥)]. وفي «الصحيحين»: «لا حَسَدَ إلا في اثنتين»[(٦)] يريد: لا غِبْطَةَ. وقد مضى في سورة «النساء»[(٧)] والحمد لله.

قلت: قال العلماء: الحاسد لا يضر إلا إذا ظهر حسدُه بفعل أو قول، وذلك بأن يحمله الحسدُ على إيقاع الشرِّ بالمحسود، فيَتْبع مساوئه ويطلب عَثَراته. قال ﷺ: «إذا

---

(١) أخرجه أحمد (١٠٥٧).

(٢) القراءات الشاذة ص ١٨٧، والمحرر الوجيز ٥/ ٥٣٩، وهي غير المشهورة عن رويس.

(٣) تفسير البغوي ٥/ ٥٤٧، وزاد المسير ٩/ ٢٧٥.

(٤) ٦/ ٤١٥ وما بعدها، وتقدم أيضاً في البقرة ٢/ ٣١٣ وما بعدها.

(٥) النكت والعيون ٦/ ٣٧٦ - ٣٧٧، والحديث ذكره ملا علي القاري في المصنوع (٢٦٨) من كلام الفضيل بن عياض.

(٦) صحيح البخاري (٧٣)، وصحيح مسلم (٨١٦)، وأخرجه أحمد (٣٦٥١)، وفي الباب عن عدد من الصحابة تنظر في مسند أحمد.

(٧) سلف في سورة النساء الكلام عن الحسد ـ كما ذكر المصنف قريباً ـ دون ذكر الحديث.

حَسَدت فلا تَبْغِ» الحديث. وقد تقدم[١]. والحسد أوّلُ ذنب عُصِي الله به في السماء، وأولُ ذنب عُصِي به في الأرض، فحسَدَ إبليس آدمَ، وحسد قابيلُ هابيلَ. والحاسدُ ممقوتٌ مَبْغوض مطرود ملعون. ولقد أحسن من قال:

قـل لـلـحـسـود إذا تَـنَـفَّـسَ طَـعْـنـةً يـا ظـالـمًـا وكـأنـهُ مَـظْـلُـومُ[٢]

التاسعة: هذه سورة دالَّةٌ على أن الله سبحانه خالقُ كلِّ شرٍّ، وأمر نبيَّه ﷺ أن يتعوَّذ من جميع الشرور. فقال: «مِنْ شرِّ ما خَلَقَ». وجعل خاتمة ذلك الحسد، تنبيهاً على عِظمه، وكثرة ضرره. والحاسد عدوُّ نعمة الله.

قال بعض الحكماء: بارزَ الحاسد ربه من خمسة أوجه: أحدها: أنه أبغض كل نعمة ظهرت على غيره. وثانيها: أنه ساخطٌ لِقسمة ربِّه، كأنه يقول: لِمَ قسمتَ هذه القسمة. وثالثها: أنه ضادَّ فعلَ الله، أي: إنَّ فضلَ الله يُؤتِيه من يشاء، وهو يبخل بفضل الله. ورابعها: أنه خذل أولياء الله، أو يريد خِذلانهم وزوال النعمة عنهم. وخامسها: أنه أعان عدوَّه إبليس.

وقيل: الحاسد لا ينال في المجالس إلا ندامةً، ولا ينال عند الملائكة إلا لَعنةً وبَغْضاء، ولا ينال في الخَلْوة إلا جَزَعاً وغمًّا، ولا ينال في الآخرة إلا حُزْناً واحتراقاً، ولا ينال من الله إلا بُعداً ومَقْتاً.

ورُوي أن النبيَّ ﷺ قال: «ثلاثةٌ لا يُستجاب دعاؤهم: آكلُ الحرام، ومُكثِرُ الغِيبة، ومن كان في قلبه غِلٌّ أو حَسَدٌ للمسلمين»[٣]. والله سبحانه وتعالى أعلم.

---

(١) ١٩/٣٩٨، والحديث ضعيف، وينظر تخريجه فيما سلف.

(٢) قائله ابن المعتز، وهو في ديوانه ص ٣٦٤، وفيه: صعدة، بدل: طعنة.

(٣) لم نقف عليه.

سورة «الناس»

مِثل «الفلق» لأنها إحدى المعوِّذتين. وروى الترمذيّ عن عقبة بن عامر الجُهنيّ عن النبيّ ﷺ قال: «لقد أنزل اللهُ عليَّ آياتٍ لم يُرَ مِثْلُهُنَّ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ إلى آخر السورة، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ إلى آخر السورة». قال: هذا حديثٌ حسن صحيح[1]. ورواه مسلم[2].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ أي: مالكهم ومُصْلِح أمورِهم. وإنما ذكر أنه ربُّ الناس، وإن كان ربّاً لجميع الخَلْق لأمرين:

أحدهما: لأن الناس مُعَظَّمون، فأَعْلَمَ بذكرهم أنه ربٌّ لهم وإن عُظِّموا.

الثاني: لأنه أمر بالاستعاذة من شرِّهم، فأعلم بذكرهم أنه هو الذي يُعيذ منهم. وإنما قال: ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ . إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ﴾ لأن في الناس ملوكاً فذكر أنه مَلِكُهُم، وفي الناس من يعبد غيرَه، فذكر أنه إلههم ومعبودُهم[3]، وأنه الذي يجب أن يُستعاذ به، ويُلْجأ إليه، دون الملوك والعظماء.

قوله تعالى: ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤﴾

يعني: مِن شرِّ الشيطان ـ والمعنى: من شرِّ ذي الوسواس؛ فحذف المضاف ـ قاله الفرّاء[4]. وهو بفتح الواو بمعنى الاسم، أي: المُوسوِس. وبكسر الواو

---

(١) سنن الترمذي (٢٩٠٢)، وهو في مسند أحمد (١٧٣٠٣).

(٢) في صحيحه (٨١٤).

(٣) النكت والعيون ٦/ ٣٧٨ .

(٤) في معاني القرآن ٣/ ٣٠٢ .

المصدر، يعني الوسوسة. وكذا الزَّلزال والزِّلزال. والوسوسة: حديث النَّفْس. يقال: وَسْوَسَتْ إليه نَفْسُه وَسْوَسةً ووِسْوَسَة، بكسر الواو. ويقال لهمس الصائد والكلاب وأصوات الحُليّ: وَسْواس[١]. قال ذو الرُّمة:

فباتَ يُشْئِزه ثَأْدٌ ويُسْهِرُهُ تَذَؤُّبُ الريحِ والوَسْواسُ والهِضَبُ[٢]

وقال الأعشى:

تسمع للحَلْي وَسْواساً إذا انصرفَتْ كما استعانَ بريحٍ عِشْرِقٌ زَجِلُ[٣]

وقيل: إن الوسواسَ الخنَّاس ابنٌ لإبليس، جاء به إلى حواء، ووضعه بين يديها وقال: اكْفُلِيه. فجاء آدم فقال: ما هذا؟ قالت: جاء عدوُّنا بهذا وقال لي: اكْفُليه. فقال: ألم أَقُلْ لكِ: لا تُطيعيه في شيء، هو الذي غرَّنا حتى وقعنا في المعصية؟ وعمد إلى الولد فقطعه أربعةَ أرباع، وعلَّق كلَّ ربع على شجرة، غيظاً له. فجاء إبليس فقال: يا حواء، أين ابني؟ فأخبرته بما صنع به آدم، فقال: يا خَنَّاس، فحيِيَ فأجابه. فجاء به إلى حواء وقال: اكفُليه؛ فجاء آدم فحرَّقه بالنار، وذَرَّ رمادَه في البحر. فجاء إبليس فقال: يا حوّاء، أين ابني؟ فأخبرته بفعل آدمَ إيَّاه، فذهب إلى البحر، فقال: يا خَنَّاس، فحيي فأجابه. فجاء به إلى حواء الثالثة، وقال: اكفُليه. فنظر إليه آدم، فذبحه وشواه، وأكلاه جميعاً. فجاء إبليس فسألها فأخبرَتْه. فقال: يا خَنَّاس، فحيي فأجابه من جوف آدم وحوّاء. فقال إبليس: هذا الذي أردتُ، وهذا مسكنُك في صدر ولد آدم. فهو مُلتقِمٌ قلبَ ابن آدم ما دام غافلاً يُوسوس، فإذا ذكرَ الله لفظ قلبه وانخنس. ذكر هذا الخبر الترمذيّ الحكيم في نوادر الأصول بإسناد عن وهب بن منبه[٤]. وما أظنه يصح، والله تعالى أعلم.

---

(١) الصحاح (وسوس).

(٢) ديوان ذي الرمة ١/ ٩٠، وفيه: تذاؤب، بدل: تذؤُّب. قال شارحه أبو نصر الباهلي: يريد: بات الثور. يُشئزه: يُقلقه. والثَّأد: الندى، تذاؤب الريح: هو أن تأتيه الريح من كل وجه. والهضب: المطر.

(٣) ديوان الأعشى ص ١٠٥، وسلف ٩/ ١٧٥ وينظر شرحه ثمة.

(٤) نوادر الأصول ص ٣٥٣ - ٣٥٤، ولا يخفى على القارئ بطلانه.

ووُصِف بالخناس لأنه كثيرُ الاختفاء؛ ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ﴾ [التكوير: ١٥] يعني النجوم، لاختفائها بعد ظهورها. وقيل: لأنه يَخْنِس إذا ذكر العبدُ اللهَ، أي: يتأخَّر[1]. وفي الخبر: إنَّ الشيطان جاثمٌ على قلب ابن آدم، فإذا غَفَل وَسْوس، وإذا ذكر اللهَ خَنَسَ[2]، أي: تأخَّر وأقصر.

وقال قتادة: «الخَنَّاس» الشيطان له خُرطوم كخرطوم الكلب في صدر الإنسان، فإذا غَفَل الإنسانُ وسوس له، وإذا ذكر العبدُ ربَّه خَنَس[3]. يقال: خَنَسْتُهُ فخَنَس، أي: أخَّرته فتأخر. وأَخنسته أيضاً. ومنه قول أبي العلاء الحَضْرميّ ـ أنشد رسول الله ﷺ ـ:

وإنْ دَحَسُوا بالشَّرّ فاعْفُ تَكرُّماً وإنْ خَنَسُوا عندَ الحديثِ فلا تَسَلْ[4]

الدَّحْس: الإفساد. وعن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «إن الشيطانَ واضعٌ خَطْمه على قلب ابن آدم، فإذا ذكر الله خَنَس، وإذا نسي اللهَ التقمَ قَلْبَه فوسوس»[5]. وقال ابن عباس: إذا ذكر اللهَ العبدُ خَنَس من قلبه فذهب، وإذا غَفَلَ التَقم قلبه فحدَّثه ومَنَّاه[6]. وقال إبراهيم التيمِيّ: أوّل ما يبدأ الوسواس من قِبل الوضوء[7]. وقيل: سُمِّي خَنَّاسًا لأنه يرجع إذا غَفَلَ العبدُ عن ذكر الله. والخنس: الرجوعُ، وقال الراجز:

وصاحبٍ يَمْتعِسُ امتِعاسا يزدادُ إن حَيَّيْتُه[8] خِناسا

---

(١) النكت والعيون ٦/ ٣٧٨ .

(٢) أخرجه الطبري ٢٤/ ٧٥٤ من قول ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه الطبري ٢٤/ ٧٥٤ - ٧٥٥ بنحوه، وينظر تفسير البغوي ٤/ ٥٤٨ .

(٤) تهذيب اللغة ٧/ ١٧٤ ، واللسان (دحس).

(٥) أخرجه أبو يعلى في مسنده (٤٣٠١)، والبيهقي في الشعب (٥٤٠)، وضعف إسناده الحافظ ابن حجر في الفتح ٨/ ٧٤٢ ، وقال الحافظ ابن كثير في تفسيره ٨/ ٥٣٩ : غريب.

(٦) سلف قريباً بنحوه.

(٧) أخرجه ابن أبي شيبة كما في الدر المنثور ٦/ ٤٢٠ .

(٨) في (د): جننته، وفي (ظ): خنسته، وهي غير معجمة في (ز)، والمثبت من (م)، والرجز في النكت والعيون ٦/ ٣٧٨ ، والبيت الثاني فيه: يزداد من خنسه خناسا.

وقد روى ابنُ جُبير عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ﴾ [قال الشيطان جاثم على قلب ابن آدم، فإذا سها وغَفَل وسوس، وإذا ذكر الله تعالى خنس، فعلى هذا يكون في تأويل الخناس] وجهان[١]: أحدهما: أنه الراجع بالوسوسة عن الهدى. الثاني: أنه الخارج بالوسوسة من اليقين.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥﴾

قال مقاتل: إن الشيطان في صورة خنزير، يجري مِن ابن آدم مجرى الدم في العروق، سَلَّطه الله على ذلك؛ فذلك قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾. وفي الصحيح عن النبيّ ﷺ: «إنَّ الشيطانَ يجري من ابن آدم مَجرى الدَّم»[٢]. وهذا يُصحِّحُ ما قاله مقاتل.

وروى شَهْر بن حَوْشَب عن أبي ثعلبةَ الخُشَنيّ قال: سألت الله عن أن يُريني الشيطانَ ومكانَه من ابن آدم، فرأيته، يداه في يديه، ورجلاه في رجليه، ومشاعبه في جسده؛ غير أن له خَطْماً[٣] كخطم الكلب، فإذا ذَكَر اللهَ خنس ونكس، وإذا سكت عن ذِكْر الله أخذ بقلبه. فعلى ما وصفَ أبو ثعلبة أنه متشعِّب في الجسد، أي: في كل عضو منه شعبة.

ورُوِي عن عبد الرحمن بن الأسود أو غيره من التابعين أنه قال ـ وقد كبِر سِنُّه ـ: ما أَمِنتُ الزنى، وما يُؤمنني أن يدخل الشيطان ذكره فَيُوتِدَه؟! فهذا القولُ يُنبئك أنه مُتشعِّبٌ في الجسد[٤]، وهذا معنى قول مقاتل.

---

(١) عبارة النسخ: وقد روى ابن جبير عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ﴾ وجهين. . وفي هذه العبارة سَقَطٌ وتحريف، والمثبت من النكت والعيون ٦/ ٣٧٩ ، والكلام منه، وخبر ابن عباس رضي الله عنهما سلف قريباً.

(٢) أخرجه أحمد (١٢٥٩٢)، ومسلم (٢١٧٤) من حديث أنس ﷺ وفيه قصة، وسلف ١/ ٤٤٨ - ٤٤٩ .

(٣) الخَطْم: من الدابَّة: مقدَّم أنفها وفمها. القاموس (خطم).

(٤) نوادر الأصول ص ٣٥٤ .

ووسوسته: هو الدعاء لطاعته بكلام خَفِيٍّ، يصل مفهومه إلى القلب من غير سماع صوت[١].

قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾

أخبر أن المُوسوِس قد يكون من الناس. قال الحسن: هما شيطانان؛ أمّا شيطان الجنّ فيوسوس في صدور الناس، وأما شيطانُ الإنس فيأتي علانية[٢]. وقال قتادة: إن من الجنّ شياطينَ، وإن من الإنس شياطين؛ فتعوّذ بالله من شياطين الإنس والجن[٣]. وروي عن أبي ذرّ أنه قال لرجل: هل تعوّذت بالله من شياطين الإنس؟ فقال: أوَمِن الإنس شياطين؟ قال: نعم؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ الآية [الأنعام: ١١٢][٤].

وذهب قومٌ إلى أن الناس هنا يُراد به الجن. سُمُّوا ناساً كما سُمُّوا رجالاً في قوله: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الجن: ٦]، وقوماً ونفراً[٥]. فعلى هذا يكون «والناسِ» عطفاً على «الجِنّةِ»، ويكون التكرير لاختلاف اللفظين.

وذُكر عن بعض العرب أنه قال وهو يُحدِّث: جاء قومٌ من الجن فوقفوا. فقيل: مَنْ أنتمْ؟ فقالوا: ناسٌ من الجن. وهو معنى قول الفرّاء[٦].

وقيل: الوسواس هو الشيطان. وقوله: «من الجِنةِ» بيان أنه من الجن، «والناسِ» معطوف على الوسواس. والمعنى: قُلْ أعوذُ بربِّ الناس من شرِّ الوسواس، الذي هو

(١) النكت والعيون ٦/ ٣٧٩ بنحوه.

(٢) تفسير أبي الليث ٣/ ٥٢٨ .

(٣) النكت والعيون ٦/ ٣٧٩ .

(٤) ذكره مختصراً من قول أبي ذر رضي الله الزمخشري في الكشاف ٤/ ٣٠٣ ، وسلف ٨/ ٥٠٢ مرفوعاً .

(٥) في قوله تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الجن: ١]، وينظر الكلام في تفسير البغوي ٤/ ٥٤٨ ، وزاد المسير ٩/ ٢٧٩ .

(٦) في معاني القرآن ٦/ ٣٠٢ ، ونقله المصنف عنه بواسطة البغوي في تفسيره ٤/ ٥٤٨ .

من الجِنة، ومن شرِّ الناس. فعلى هذا أمِر بأن يستعيذ بالله من شرِّ الإنس والجن[(١)].

والجِنَّة: جمع جِنِّي؛ كما يقال: إنس وإنسيّ. والهاء لتأنيث الجماعة.

وقيل: إن إبليس يُوسوِس في صدور الجن، كما يُوسوس في صدور الناس. فعلى هذا يكون «في صدور الناس» عامًّا في الجميع، و«من الجِنة والناس» بيانٌ لما يُوسوِس في صدره.

وقيل: معنى «مِن شر الوسواس» أي: الوسوسة التي تكون من الجنة والناس، وهو حديثُ النَّفْس. وقد ثبت عن النبيّ ﷺ أنه قال: «إنَّ الله عزَّ وجلَّ تجاوزَ لأُمَّتِي عمَّا حدَّثَتْ به أَنْفُسَها ما لم تعملْ أو تتكلَّمْ به». رواه أبو هريرة، أخرجه مسلم[(٢)].

فالله تعالى أعلمُ بالمرادِ من ذلك.

تمَّ الجزء الثاني والعشرون من تفسير القرطبي
وبه تمَّ الكتاب
والحمد لله ربِّ العالمين

(١) زاد المسير ٩/ ٢٧٩ .

(٢) في صحيحه (١٢٧)، وسلف ٤/ ٤٨٧ وقوله: «أَنْفُسَها» قال الإمام النووي في شرح مسلم ٢/ ١٤٧ : ضبط العلماء «أنفسها» بالنصب والرفع، وهما ظاهران، إلا أن النصب أظهر وأشهر.

فهرس الجزء الثاني والعشرين

- تفسير سورة النبأ ٥
- تفسير سورة النازعات ٣٦
- تفسير سورة عبس ٦٩
- تفسير سورة التكوير ٩٣
- تفسير سورة الانفطار ١٢٠
- تفسير سورة المطففين ١٢٨
- تفسير سورة الانشقاق ١٥٧
- تفسير سورة البروج ١٧٩
- تفسير سورة الطارق ٢٠١
- تفسير سورة الأعلى ٢١٩
- تفسير سورة الغاشية ٢٣٨
- تفسير سورة الفجر ٢٥٦
- تفسير سورة البلد ٢٨٨
- تفسير سورة الشمس ٣٠٧
- تفسير سورة الليل ٣٢٠
- تفسير سورة الضحى ٣٣٥
- تفسير سورة الشرح ٣٥٤
- تفسير سورة التين ٣٦٣
- تفسير سورة العلق ٣٧٤
- تفسير سورة القدر ٣٩٠
- تفسير سورة البينة ٤٠٤
- تفسير سورة الزلزلة ٤١٥
- تفسير سورة العاديات ٤٢٦
- تفسير سورة القارعة ٤٤٢
- تفسير سورة التكاثر ٤٤٨
- تفسير سورة العصر ٤٦٣
- تفسير سورة الهمزة ٤٦٧
- تفسير سورة الفيل ٤٧٧
- تفسير سورة قريش ٤٩٥
- تفسير سورة الماعون ٥٠٩
- تفسير سورة الكوثر ٥١٩
- تفسير سورة الكافرون ٥٣٢

- تفسير سورة النصر ٥٣٨
- تفسير سورة المسد ٥٤٤
- تفسير سورة الإخلاص ٥٧٧
- تفسير سورة الفلق ٥٦٧
- تفسير سورة الناس ٥٧٩
- الفهرس ٥٨٥